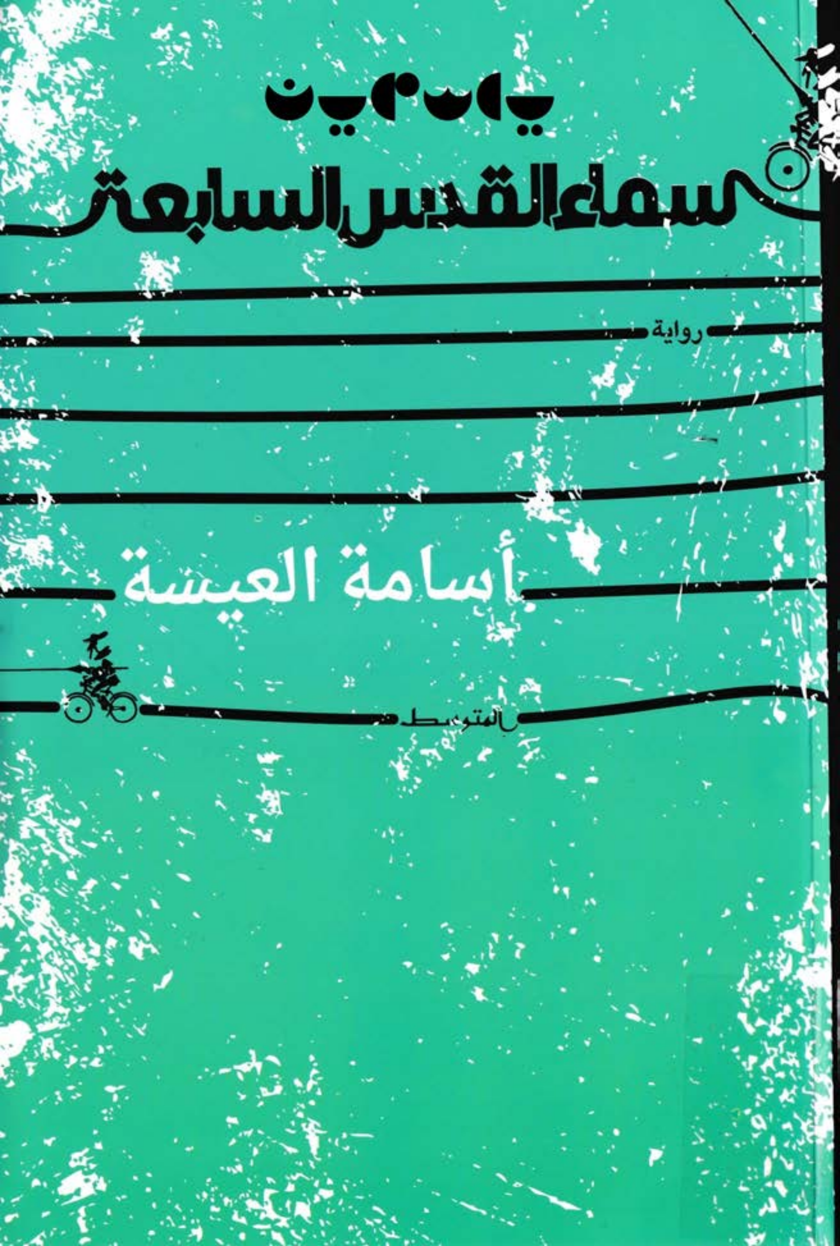


يابوس
سماء القدس السابعة
رواية
أسامة العيسة
المتوسط



يعود الروائي، إلى قُدْس السبعينيات؛ التي تتعرَّض إلى ما يشبه المجاعة، للمرَّة الثانية، بعد خروجها من حربٍ ثانية خلال عشرين عاماً، وتحاول احتواء صدمتها، مع مُحتلِّها المُنتصِر، والمُتفوِّق.

هي رواية احتفاء بالمكان، وبالشخوص، بمدينة نصِّيَّة وقدرية. ولكنَّها أيضاً مراجعة للمُسلَّمات، والشعارات، وحتَّى للفعل الفدائي المُبكِّر، الذي لم يكن، رغم فداحة التضحيات وسُمُوِّها، والمرجعياتُ الثقافية للمناضلين، ليفضيَ إلى انعتاق المدينة، بحَجَرها وبَشَرها. وعن الإدراك المُبكِّر أنَّ القُدْس، المحاصرة بالأغاني الحماسية، والشعارات الجماهيرية، والتصريحات الرسمية، ليست هي قُدْس النَّاس الذين كان عليهم دفع الثمن دائماً. وليست هي القُدْس الدينية، التي حاصرت نفسها في نحو كلم مربَّع داخل السور، لقرونٍ، رغم معاناتها من جراحٍ لن تندمل، ومن مُحتَلٍّ إلى آخر، ومن فاتحٍ إلى فاتح، ومن شقيقٍ دموي إلى شقيقٍ لا يقلُّ دموية وجهلاً. وليست هي القُدْس المكتوبة بفَهْم المنتصرين.

بل هي القُدْس المستعصية التي تُكتَب هنا، وللمرَّة الأولى، بهذا العمق والاتِّساع والشخوص مُتعدِّدي الإثنيات والقوميات.

أسامة العيسة يكتب تاريخ القُدْس الآخر، تاريخ العاديِّينْ المهزومين. يكتبُ سِفْراً عن مدينة الأسفار، والأقدار والنصوص.

الناشر


ISBN 979-12-5591-015-2
9 791255 910152
المتوسط


سماء القدس السابعة

Sama Al-quds Asabiàa *by* "Osama Alaysa"

المؤلف: أسامة العيسة / عنوان الكتاب: سماء القُدْس السابعة
الطبعة الأولى: 2023.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-5591-015-2



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

سماء القدس السابعة

رواية

أسامة العيسة

المتوسط



إلى روح خليل توما، شاعراً وإنساناً

أوَّل
سِفْر للحياة



الأوَّل

لا أعرف، بعد كلِّ هذه السنوات الطويلة، كيف انتشر الخبر بسرعةٍ؛ حملتْه ذرَّات الهواء، وخلَّلتْهُ الرياح في منازل وأزقَّة وخرائب ومياه قريتنا؛ بأن السَّبْع مُطَرْبِل، ولا كيف تداول الناس بسهولةٍ الخبر الموجز: السَّبْع طَرْبَل، وكأن قريتنا كانت بحاجة للسَّبْع لكي يُطَرْبِل، ويصبح عِنِّيْنَاً، لكي يزهو الذكور بفحولتهم، فلا معنى للفحولة وسط الفِحالَة الطاغية فخر قريتنا، والمنسوبة إلى ماء العَيْن، فماء عَيْن قريتنا، كما يُردِّد الفلاَّحون منذ زمن، لا يمكن تحديده، هي ماء ذَكَر، وهذا يعني أن الماءَ هو سبب وسامة رجالنا المفترَضة، وفي الوقت ذاته سبب اضطراب جمال النساء، بعكس قرى أخرى، قد يكون فيها الماء أُنْثَى، فتنعكس المقاييس الجماليَّة.

كان رجالنا يُضيِّقون من الحكاية التي تتردَّدَ بين الوقت والآخر، الموغِلة في قِدَمٍ، لا يمكن تحديده، وتتحدَّث عن رجلٍ مغربيٍّ مرَّ بالقرية، ويعرف مثل كلِّ المغاربة الأسطوريِّيْن المطبوعين في ذاكرة جمعيَّة غير محدَّدة أبداً الكثير، وعندما شرب من ماء العَيْن، وتذوَّقه، قال للمتباهين بوسامتهم بأنه قد يحدث خلل ما، ويمكن لمَنْ يشرب من ماء العَيْن أن يتحوَّل من رجلٍ إلى امرأة أو العكس، وكُلُّه بعلمه وإرادته، ذلك الذي خلقنا ويراقبنا من عَلٍ، ويعلم ما نُظهِر وما نُبطِن، وما يستقرُّ في الصدور لا يخرج ولا يظهر.

وبسبب شعور رجال القرية بتفوُّقهم الجماليِّ، ليس فقط على نساء القرية، متجاهلين أنهم يمكن أن يتحوَّلوا إلى نساء دميمات، وإنما برِّهم لوسامة أقرانهم من القُدْس وقراها، فإنهم اتُّهموا دائماً من أولئك الأقران، بالغطرسة، والاستعلاء، وقيل عن رجال قريتنا بأنهم: «شايفين حالهم»،

وكيف لا يحدث هذا، فحتَّى الماء، الذي خلق منه الله كلَّ شيء حيَّاً، يشهد لهم؟!

وبدا أن مقياس الجمال هذا ثابت، فبسبب علاقة قريتنا مع الأنبياء القدامى، لم يكن يمكن التصوُّر بأنهم لم يكونوا وسيمين، ومَنْ هو الذي سيتصوَّر نبيَّاً دميماً أو قبيحاً؟ إنهم أجمل خلق الله، ومنهم مَنْ جعله الخالق خليلاً، وكليماً، وابناً، حسب تصوُّر جزء مهمٍّ من خلقه، ويتجدَّد حضور هؤلاء الأنبياء ليس فقط بارتباطهم بمواقع في القرية، تعود لاعتقادات يهوديَّة، ومسيحيَّة، وإسلاميَّة، وأستطيع أن أضيف الآن: ووثنيَّة، ولكنْ، أيضاً بأسمائهم التي يحملها رجالنا، وكأنهم يتوارثونها، فالأسماء في القرية تكاد تكون محدودة بأسماء إبراهيم، وداود، ويعقوب، وإسحق، وإسماعيل، وموسى، وأحمد، ومُحمَّد، ومحمود، وروبين، وصموئيل، وإلياس، ونوح، والخضر، وغيرها، منها ما ورد في كتابهم المقدَّس القرآن، أو في الكُتُب المقدَّسة الأخرى، ولذا يصحُّ أن يطلق على قريتنا بلد الأنبياء.

تصوَّروا أن الطفل الذي كنتُهُ في القرية حمل اسم ذي الكفل، الذي كان يصلِّي، في زمن لا أعرفه، في اليوم مائة صلاة. ما أغرب الاسم بالنسبة إليَّ ولأترابي، وما أصعب نُطقه، فكان لا بدَّ من اسم بديل أسهل، أُنادَى به في المنزل، والمدرسة، وشوارع القرية.

حلمتْ أُمِّي، وأنا في بطنها، بمَلِك القُدْس، يقف على سور المدينة المقدَّسة الرابضة على المرتفع شمالنا، مُلوِّحاً بسيفه، مُطِلاًّ على جنائنه وبساتينه في قريتنا، ويفكِّر في كيفيَّة ضمِّها داخل السور، خشيةً من الأعداء الكثيرين، فدائماً للقُدْس أعداء معروفون وغير معروفين، وكأنها لا يمكنها العيش بدون أعداء متربِّصين، وسمعتْهُ أُمِّي وهي تقترب منه، دون أن تعرف كيف، يوصيها، بأن تُسمِّي وليدها المرتقب، الذي كان يعلم بأنه سيكون ذَكَراً، على اسمه، ليلوِّح هو في مقتبل الأيَّام، بسيفه دفاعاً عن القُدْس.

طلب والدي من الشيخ المصري عبد ربِّ النبي، كما يصرُّ أن يلفظ اسمه، وليس كما يناديه الناس، عبد النبي، أن يُفسِّر الحلم. يقيم هذا الشيخ بشكلٍ دائمٍ في المسجد الأقصى، ويعتبر نفسه من حمائم أولى القبلتَيْن، والمرابطين في أولى القبلتين وثالث الحرمَيْن الشريفَيْن. جاء إلى القُدْس، كما يقول والدي، هرباً من الرئيس جمال عبد الناصر الذي اضطهد جماعة الإخوان المسلمين، وكان هو منهم، بل إنه كما يشاع كان مسؤولاً عن عبد الناصر نفسه في الجماعة التي تخلَّى عنها، قبل أن يصبح رئيس مصر لاحقاً، والذي حلف أمامه على السيف والمصحف لدى انضمام عبد الناصر للجماعة التي سيُلاحقها ويُشتِّت أعضاؤها سجناً، ونفياً، ومنهم مَنْ كانوا رفاقه من المتطوِّعين في حرب فلسطين، الذين عرفهم رجال قريتنا خلال تلك الحرب التي أفضت إلى النكبة، وشاركوا معهم في مهاجمة المستوطنات اليهوديَّة القريبة مثل رَمَات رَاحِيْل، التي ما إن يحتلّها المجاهدون والمتطوِّعون، حتَّى يُهرع الأهالي إلى نهبها، وينشغلون بذلك، فيعيد اليهود تجميع أنفسهم، ويكرُّون مرَّة أخرى، ويحتلُّون المستوطنة من جديد، وتكرَّر ذلك أكثر من مرَّة، حتَّى نُكبنا، وظلَّت رَمَات رَاحِيْل خاصرة يهوديَّة تُهدِّد قريتنا والقرى المجاورة. وبعد نكستنا الأخيرة، وجد العشَّاق طريقهم آمناً لأحراش المستوطنة، يلتقون، ويتحدَّثون، ويهربون من مجتمعهم لانتقاص لحظاتٍ، يعبِّرون عنها بدون خجل.

عندما يريد والدي استخلاص العِبَر، يبدو وكأنه يريد أن يخلِّدها في الزمن عبري، فيسحب نَفَساً عميقاً من سيجارته، ويرمي سؤالاً، وكأنه ينفض رماد سيجارته على الأرض، غير مبالٍ بمَنْ سينظِّفها: «ترى مَن انتصر مار إلياس أم رَمَات رَاحِيْل؟»، وهو سؤال تكمن إجابته واضحة فيه، ولكنَّها عادة والدي في المواربة.

ويُكمل: «شكَّلت مستوطنة رَمَات رَاحِيْل رمزاً للمعارك حول القُدْس عام 1948م، وشهدت معارك بين المقاومين الفلسطينيِّيْن والمتطوِّعين

المصريِّيْن والعرب بقيادة المصري أحمد عبد العزيز، وشكا الجنرال الأردني عبد الله التلّ من تكرار سيناريو غزوة أُحد، حيث يؤدِّي نهب الغنائم إلى هزيمة محقَّقة.

وقُبالة رَمَات رَاحِيْل عَسْكر الجيش الأردنيُّ قرب دير مار إلياس، وفي الخمسينيَّات، ارتكب عسكريٌّ مجنون فعلاً جنونيَّاً، قرَّر الانتقام لمقتل شقيقه وابن عمِّه في هجوم احتلالي على مخفر حوسان، ففتح رشَّاشه، ليقتل أربعة من علماء الآثار في رَمَات رَاحِيْل، سيُطلق الإسرائيليُّون على التلَّة تلَّة الأربعة. وعندما قابلتُهُ، لن أنسى جلوسه على الأرض على ركبة ونصف، ليصف كيف أُطلق النار، مشهد لا يُمحى من الذاكرة، بدا وكأنه يحاول الإمساك بلحظة كبرياء نادرة.والآن تغيَّرت الأمور كثيراً بالطبع، منذ معارك المتطوِّعين والنكبة، ثمَّ النكسة الأخيرة، أصبحت مار إلياس أيضاً في قبضة المحتلِّين. مَن انتصر مار إلياس أم رَمَات رَاحِيْل؟ والاثنتان الآن في قبضة الاحتلال. بعضنا يذهب إلى مُطِلِّ رَمَات رَاحِيْل ليراقب غروب الشمس. كم مرَّة أشرقت شمس القُدْس وغربت، غير عابئة بناسها ومحتلِّيها؟».

اصطحب والدي الشيخ عبد النبي من الأقصى إلى منزلنا، حيث تناول الغداء الذي حضَّرتْهُ أُمِّي بالمناسبة، متغلِّبة على مصاعب الحَمْل، أو الأصحّ أن أُمِّي، مثل بقيَّة نساء القرية، لا يعترفنَ بمصاعب للحَمْل، تستوجب الراحة، أو الامتناع عن النشاط اليوميِّ المنزليِّ، وساعدتْها في التحضير أُمُّ السَّبْع.

قال الشيخ عبد النبي بلهجته المصريَّة التي تشوبها مفردات فلسطينيَّة، بأنه عندما تشبع البطون، وتُملِّس الذقون، تذهب الظنون، ويفتح الله على واحدٍ مثله، من أحباب الله، أبواب الطلاسم المقفلة.

وأضاف الشيخ، بأن أُمِّي، قد تكون رأت ملك القُدْس حِزْقِيَال، والذي

يُسمِّيه المسلمون ذا الكِفْل، ولكنَّ الشيخ بدا أنه تراجع قليلاً وهو يشرب الشاي، فقال بأن ذا الكِفْل قد يكون هو ابن نبيِّ الله أيُّوب، وبئره في قريتنا مشهورة، ترمز لصبره على المرض، والأقدار، وإيمانه الذي لا يتزعزع بقدرة الله تعالى على بلسمة جراح الصابرين، وبعد أن شرب القهوة، رجَّح أن يكون ذو الكِفْل هو نفسه النبي إلياس.

ولم تنتظر أُمِّي حتَّى يصلِّي صلاة العصر، ثمَّ صلاة الاستخارة، وقالت بأنها تقبل باسم ذي الكِفْل اسماً لابنها المنتظَر، وهو ما تحمَّس له السَّبْع الذي عزمه والدي على الغداء، مع الشيخ عبد ربِّ النبي، عندما شعر أن الأمر سيطول، بدون أيِّ مبرِّر، وباركت ذلك أُمُّ السَّبْع التي يقال بأنها أطلقت زغرودة، وأسرعت أُمِّي تطلب منها ألَّا تُكرِّرها، فالفرح ما زال مبكِّراً، ومَنْ يدري؟! عندما يأتي المولود، ماذا سيكون جنسه، قد يكون بنتاً، وليس ولداً.

أُمُّ السَّبْع، مُستغِلَّة مكانتها المعنويَّة في العائلة، وكبر سنُّها، لم تلتفت لملاحظة أُمِّي، التي رأت فيها نوعاً من الدلال، أكثر منه الرفض، فأطلقت زغرودة، إثر أخرى، قائلة ليسمع مَنْ يريد أن يسمع، فالفرح في عائلتنا مقتَنَصٌ، ولا يعرف أحد ماذا يُخبِّئ الغد، وكأنها كانت تحدس بما سيحدث للسَّبْع.

الثاني



حصل السَّبْع على لقبه، قبل أن يتزوَّج من قريبته أميرة، ويعرف ناس قريتنا كيف حصل على هذا اللقب، الذي نافسه عليه، باستحقاق كبير، لقب شيخ الشباب، فإن قيل في القرية السَّبْع أو شيخ الشباب، فالمقصود الشَّخص نفسه.

في الواقع، لم ينافس أحدٌ السَّبْعَ على لقبه، باستثناء تمنِّيات من البعض أُجهضَت، قبل أن يُعبَّر عنها علناً، وظلَّت حبيسة شِلل صغيرة، تحيط بهذا المتمنِّي أو ذاك.

قد يكون السَّبْع أطول أبناء جيله، وأجهمهم، وأخشنهم شنباً، وأكثرهم تقليداً للموضة، فهو من أوائل مَنْ أطلق شَعْره، وجعله ينسدل على كتفَيْه مثل عتاة الهيبز، وأنزل سالفَيْه إلى منتصف الوجه القريب إلى المثلَّث، مع عناية خاصَّة بنهاية كلٍّ منهما، بما يشبه الحذاء الشتوي الطويل، وكان هذا النوع من الموضة يُسمَّى آنذاك في قريتنا، سخرية، (الجِزم)، تشبيهاً بالحذاء ذي الرقبة التي تغطِّي الساقَيْن، ويبلغ إلى نحو الركبة، وارتدى السَّبْعُ الحزامَ العريض، وبنطالَ الشارلستون، ودخَّن السجائر الأجنبيَّة، وشوهد مراراً وهو يرتدي الشورتَ الأبيض المصنوع من خرائط الطحين، يسير في شوارع القُدْس، ويدخل إلى قريتنا، غير آبه بعلامات الوجوه المستنكرة والمتأفِّفة في شوارعها، والتي كان يعتبر أصحابها من التقليديِّيْن، ويصفهم ورفاقه بالرجعيِّيْن.

أَحبَّ شبابُ القرية شيخَهم، وسهروا معه بجانب العَيْن، وغامروا معه دخولاً في النفق المظلم المثير والطويل بين العَيْن والبِركَة، وسبحوا معاً

في مياهها، ولطالما سهروا في القُدْس، وتسكَّعوا في شوارعها، ونزلوا منها إلى قريتنا، وقد أثَّرت عليهم تجاربهم في اجتراع المشروبات المُحرَّمة، وفي كلِّ ذلك يكون السَّبْع القائد، والحامي، والموجِّه.

وهو الذي شكَّل لهم حماية معنويَّة، رغم أنها نِسبيَّة من قلاقل المؤسَّسات الحكوميَّة، ومن خلال علاقته بقادة الشرطة والجيش في القُدْس، وعلى خلاف كثيرين من أبناء جيله المتفجِّرين وطنيَّة وغضباً على ممارسات الحكومة. كان السَّبْع صديقاً للمسلول قائد الشرطة في القِشْلَة، يسهر معه، وينادمه، وينفِّذ مهامَّ يطلبها منه، يريدها بعيدة عن أعين جهاز الشرطة الذي يرأسه، وتسبَّب ذلك في نشر شائعات حول السَّبْع، باعتباره مُخبِراً لدى الحكومة، ولطالما دافع عن نفسه، باعتباره مؤمناً برجال الحكومة وقدرتهم على تحقيق النصر، عندما تجيء الحرب، والتي يتوقَّع قدومها في أيَّة لحظة.

وفي أيِّ مكان يحضر فيه السَّبْع، يكون له وقع، وحتَّى خبر مُطَرْبَلَته، كان له وقع الوقع، فمَنْ سيُصدِّق بأن السَّبْع، بعد زواجه انكشف سرُّه، وأيُّ سرٍّ؟ كيف يمكن أن يكون السَّبْع رمز فحولة شباب قريتنا مُطَرْبَلاً؟

وكيف يمكن أن يكون كرَّاز فحول قريتنا كرَّازاً؟ التيس الذي يتقدَّم القطيع، وفي رقبته جرساً، حارساً ودليلاً، هو نفسه الفحل الخَصِيّ. [1]

ولكن هذا ما كان فعلاً ..!

الثالث

عندما وصل والدي مع الشيخ نعيم إلى عَيْن سِتنا مريم وسط القرية، لم يكن جمع من الوجهاء فقط في انتظارهما، وإنما عدد لا يمكن حصره من الناس انتشروا في التلال القريبة وسط الكنائس الحديثة نسبيّاً، التي بناها المبشِّرون والطوائف المسيحيَّة المختلفة على أراضٍ اشتروها من أهالي قريتنا، وبين أطلال الكنائس والهياكل القديمة، وفي مقبرة اليهود، والمغارات، والكهوف، يريدون أن يتأكَّدوا من حقيقة الإشاعات التي سمعوها في الأيَّام الماضية، وزعزعت تفكيرهم.

لقد أصبح قصور السَّبْع الشخصي الذي لا يخصُّ أحداً سواه فضيحةً عامَّة، لكلِّ شخص نصيب منها، وكأن فحولة السَّبْع ليست أمراً خاصَّاً به، وكيف تكون كذلك وهو شيخ الشباب، والحائط المعنويّ الذي يمنح أماناً معيَّناً لناسنا؟ فلم يكن من النادر مثلاً، لشِلَّة شباب من قريتنا، تتصارع مع شِلَّة أخرى من قرية أخرى في أحد شوارع القُدْس، أن تهمس شِلَّتنا باسم السَّبْع، حتَّى تُبدي الشلَّة الأخرى تراجعاً.

تقدَّم والدي يحمل حقيبة الشيخ، مصرَّاً على حملها، رغم ممانعة غير جدِّيَّة من الشيخ، تنازل عنها سريعاً، وهو يشكر والدي، ويدعو له بالتوفيق والسداد.

بدا الشيخ في الثلاثينيَّات، بعُمُر والدي أو أكبر قليلاً، يرتدي بذلة رماديَّة، وكوفيَّة بيضاء، رمى أطرافها خلف ظهره، لإظهار وجهه الأسمر الطولي، وتتدلَّى من عنقه ربطة حِرْتُ في لونها، تهدَّلت بغير اهتمام. ومنحه زِيّه وقاراً من نوع ما، وإن لم يكن من ذلك النوع المباشر.

سلَّم الشيخ على مستقبليه وهو يتمتم بعبارات مقدَّسة، مثل الحمد لله، وشكراً لله، وما شاء الله، وتوجَّهوا جميعاً إلى المنزل، ترافقهم وتتقدَّمهم ابتهالات إلهية، تلْهَجُ بها أفواههم، وفي غرفةٍ واسعة، قُسِّمت قِسمَيْن، وقفت مجموعة من الرجال ومعهم السَّبْع مستكيناً، واجماً، وكأنه في انتظار امتحان سيُقرِّر مصيره، ولكنه يحاول التأكيد على شخصه كشيخ شباب لم يشخْ من حركة دؤوبة في عينَيْه، معلناً حضوره، بغير نجاح، فالأنظار تتَّجه نحو الشيخ نعيم، والجميع يريد سبر غور هذا المنقذ الجديد، وفي الجهة المقابلة، جلست بضعة نسوة منهنَّ والدة السَّبْع، ومجموعة من النساء الأصغر سنَّاً من بينهنَّ أميرة المسكينة، وقفنَ خلفهنَّ، وتقدَّمتُ أنا الذي دخلتُ في ذيل الوالد أمام الرجال، لأرى ما أستطيع رؤيته، ولم يلاحظ وجودي المنشغلين والمنشغلات بالحدث الجلل.

لم يرد الشيخ أن يُضيِّع وقتاً، خلع كوفيَّته، وجاكيته، وكان هناك مَنْ تناولهما منه، ووضعهما في مكانٍ مناسب. شمَّر الشيخ عن يَدَيْه، ورفع صوته: «نفتتح بالحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، مَنْ يهده الله، فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضلله، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمَّداً عبده ورسوله»، وردَّد الحضور وراءه الشهادتَيْن، ثمَّ الفاتحة.

بعد أن فرك وجهه بكفَّيْه عقب إنهاء الفاتحة، أخذ الشيخ نعيم بإصدار الأوامر التي لم يفكِّر أحد بالاعتراض عليها، وجيء له بصاجٍ كالذي تخبز عليه أُمَّهاتنا خبز الشِّرَاك الرقيق المناسب لصنع المناسف، وأخرج من حقيبته عِيدان بخور، وأشعلها أسفل الصاج الذي وُضع على حجارة، واطمئنَّ الشيخ بنفسه على تثبيتها، ليرتفع عن الأرض قليلاً بما يسمح بإشعال البخور أسفله، والتفتَ إلى والدة السَّبْع، وأَفهمَها، بكلامٍ مسموع وكأنه يخلي طرفه من أيِّ خطأ قد يقع، أن مصير ابنها سيكون منوطاً منذ الآن بها، وبتصرُّفها بحكمةٍ وبشجاعةٍ، ما أدَّى إلى إرباكها، وظهر ذلك على

قسمات وجهها، وكأنها فوجئت بمسؤوليتها الجديدة عن صلاح أمر ابنها، وأمام كلِّ هذا الجمع.

قال الشيخ: «اسمعي، يا أُمِّي، عليكِ أن تقفي أمام الصاج، وعندما يرتفع، يجب أن تتحرَّكي بسرعة وتقفزي فوقه، لتَصِلِي إلى الجانب الآخر، يعني ستنتقلين من جانب النساء إلى جانب أخوتكَ الرجال، هل هذا مفهوم؟ والتقيُّد بالخطوات، والسرعة أمر مهمٌّ، بل في غاية الأهمِّيَّة، وهو ما يمكن أن يُنجِح المهمَّة أو يُفشِلها. المهمُّ لا تخافي، لا يوجد أحد غريب هنا، كلُّهم أخوتكِ وأخواتكِ وبناتكِ وأبنائكِ، قولي بسم الله، وما غريب إلَّا الشيطان، وتعوَّذي بالله من الشيطان الرجيم الذي لا يعجبه جمع الخَيْر هذا، فينسلُّ هارباً، لعنة الله عليه».

وتلا الشيخ دعاءً ضدَّ الشيطان: «اللهمَّ، أَعِذْني من الشيطان، اللهمَّ، أَجِرْني من الشيطان، اللهمَّ، احفظني من الشيطان، اللهمَّ، أَعنِّي على ذِكْرِكَ وشكركَ وحسن عبادتكَ، اللهمَّ، احفظني من مكائد الشيطان»، ردَّده خلفه الموجودون، وأنهاه وهو ينظر ناحية الباب، وتخيَّلتُ أن الشيطان ما هو إلَّا رجل، عندما سمع هدير الموجودين ضدَّه هرب بسرعةٍ قبل أن يكتشف وجوده أحد.

كان جميع مَن في الغرفة من رجالٍ ونساءٍ يستمعون بدقَّةٍ إلى ما يقول الشيخ، ولعلَّ منهم لم يُصدِّق أن الصاجَ يمكن أن يرتفع ويعلو في الهواء، مخالفاً قوانين الجاذبيَّة، إلَّا أن أيَّاً منهم لم يعترض، ولم يرغب بإفشال أيَّة خطَّة لإعادة السَّبْع إلى طبيعته، حتَّى لو كانت خطَّة مشكوكاً فيها، أو يُثار الشكُّ حولها، إذا كانت أسلوباً يمكن أن يساعد شيخ شباب القرية، والعبرة في النتائج، أوَّلاً وأخيراً، والتي ستظهر بعد قليل. وبدا أن السَّبْع يريد أن يقول شيئاً، وعرف مَنْ بجانبه ذلك، فوضع يده على فمه، وأمره بالصمت، فليس عليه الآن مثل الآخرين سوى الصمت، وترك الأمور لمُسيِّرها، وهو في هذه الحالة الشيخ نعيم.

ماذا كان يريد أن يقول السَّبْع؟ هل أراد أن يكشف شيئاً؟ أو يُوضِّح؟ أو يُبرِّر؟ أو يستفسر؟ مهما كان الأمر، فإنه لم يتكلَّم. لقد أُجبر على الصمت، وقبل ذلك، لم يكن في وضع يمكنه أن يكون جارحاً للمزاج العامِّ، وإرادة مَنْ في الغرفة، فرغم أن الوضع يخصُّه، إلَّا أنه آخر مَنْ يمكنه الحديث، هنا والآن، على الأقلِّ.

طلب الشيخ نعيم من الحضور الصلاة على النبيِّ العربيِّ القرشيِّ الأُمِّيِّ البدويِّ المحمود الأحمد المصطفى الأمين، سيِّد الخلق، ثمَّ تلا دعاءً، نسبه إلى سيِّدنا الخضر الأخضر، المحبوب لدى ناس قريتنا: «يا مَنْ لا يشغَلُه شأنٌ عن شأنٍ، ولا سمعٌ عن سمعٍ، ولا تَشتَبِهُ عليه الأصواتُ، يا مَنْ لا تُغَلِّطه المسائل، ولا تختلفُ عليه اللغات، يا مَنْ لا يُبْرِمه إلحاحُ المُلِحِّين، ولا تُضجره مسألةُ السائلين، أذِقْنا بَرْدَ عفوِكَ وحلاوةَ مناجاتِكَ. استجبْ لمناجاة المسكينة، وبريء سَبْعها، سَبْع القرية، وشبابها، سَبْع القُدْس وفارسها، سَبْع باب العَمُود، والطُّوْر، وجبل الزيتون، ورأس العَمُود، والساهرة، والمُصْرَارَة، وباب الخليل، والثوري، والشيخ جرَّاح ...».

وهمس في أُذُن والدي ليعرف اسم والدة السَّبْع، وأكمل: «المسكينة عائشة، أُمُّ السَّبْع، ولا سَبْع ولا أسد ولا نمر، غيركَ، يا قادر، يا قدير، مُفجِّر الماء في الينابيع، ومسيِّر الرِّياح، ومنزِّل الأمطار، وقاهر الجان، التي خلقتَها لتعبدكَ، ولكنَّ منها ما بغَّضَ عبادكَ .. الله، يا رحمن، يا رحيم».

ارتفع الدخان من تحت الصاج، وانتشرت رائحة البخور، واستعدّ الرجال والنساء لرؤية الصاج وهو يرتفع، ولم يستطع رؤيته يتحرَّك ببطء، على ما يبدو، سوى والدة السَّبْع والشيخ، تحرَّكت الأُمُّ، وقفزت بارتباك فوق الصاج وهي ترفع ثوبها، وتكشف جزءاً من ساقَيْها القمحيَّتَيْن، في الوقت الذي صرخ فيها الشيخ لاعناً قلَّة عقل النساء، وعدم صبرهنَّ.

قال الشيخ محاولاً السيطرة على غضبه: «ليس هكذا، يا أُمِّي، لم نتَّفق

على هذا، ألم تسمعيني؟ لقد تحرَّكتِ مبكِّراً، وأخشى أن يؤثِّر ذلك على مسعانا لمساعدة أخينا السَّبْع، لقد نبَّهتُكَ مسبَّقاً، لأنني أعرف ما يمكن أن تؤدِّي إليه العجلة، وعدم الصبر».

ثمَّ قال بهمسٍ غير مسموع، إلَّا لمَنْ يقف قريباً منه، وكأنه يواسي نفسه: «يا لقلَّة إيمان الجان، وصِغَر عقول النسوان، وها أنا أناوش الاثنَيْن. صبركَ، يا الله، أنتَ المعين».

صُدِمَت أم السَّبْع، وتراجعت، وعادت تقف مكانها، ولكنَّ ذلك لم يعد مهمَّاً، وأمام وجوم الحضور وتمَلْمُلِهِم الذي قد يتطوَّر للتشكيك بقدرات الشيخ، أعلن هذا بثقةٍ، بأنه سيكون قادراً على إصلاح ما يمكن أن تكون الأُمُّ أفسدتْهُ بقفزها في الوقتِ غير المناسب عن الصاج، فأحبطت عمليَّة ارتفاعه، أو مقداره، وعلى الأغلب لم يفهم الحضور تماماً ما أراد الشيخ قوله، أو ما عناه بالضبط.

وطلب الشيخ من الحضور الصلاة على النبي، وقراءة الفاتحة، والصمديَّة، بينما انشغل هو برفع صوته بكلماتٍ غير مفهومة، وانخفض إلى الصاج، وأخرج من تحته ورقة مطبقة على شكل مثلَّث، رفعها أمامه لتراها النساء، فيُصدِّقنَ على مصداقيَّته، واتَّجه نحو الرجال، مَزهوَّاً بنفسه، قائلاً: «قال عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ». صدق الله عزَّ وجلَّ. مَنْ كان عرشه على الماء لا يُخيِّب رجاء جيران الماء المقدَّس المكلومين. لقد نجحنا، افتحوا هذا»، وأضاف ليحافظ على زخم المفاجأة: «هذا هو الحجاب الذي حال دون أن يفرح أخونا السَّبْع بما يجب أن يفرح به، لم أجلبه، لكنَّ الله جلبه، بواسطة الجان الطيِّب، مِن نفق العَيْن، لقد ساعد الجان الملحد بمساعدة مَن ليس لها دِيْن ولا ضمير، بصنع هذا الحجاب، وتخبئته في إحدى ثقوب النفق، للنَّيْل من سَبْعنا، وشيخ شبابنا، ولكن كلمة الله هي الأولى. امضِ يا السَّبْع، وخذ عروستكَ، وادخلْ عليها، واثقاً مزمجراً، وقادراً، بقدرةِ قادرٍ، ولن يحصل إلَّا كلُّ خير».

انطلقت زغرودة من أُمِّ السَّبْع، وظهر الخجل لأوَّل مرَّة على وجه أميرة، التي بدا أنها نسيت أن الاجتماع يخصُّها أكثر من أيٍّ من الموجودين، ولكنها تنبَّهت الآن، وهي تتخلَّص من عقد ذنب، حاولت أُمُّ السَّبْع إلصاقها بها، عندما قالت لها: «المسؤوليَّة الأهمُّ في المسألة تقع على البضاعة، فعلى البضاعة أن تعرف كيف تتصرَّف، وتتغنَّج، وتتقوَّس، وتتدلَّع، وتتبسَّط، وتتقصَّع. هل تعتقدين أن الرجال يعرفون أن يفعلوا شيئاً بدوننا؟».

وأضافت: «عُدَّة مقابل عُدَّة، عُدَّة الرجل لا نفع لها بدون عُدَّة المرأة. هل تستوعبين ما أقوله لكِ أم ستظلِّين تمثِّلين دور الفتاة الخجولة المغلوبة على أمرها؟ هذا غير مفيد أبداً، ولن يكون في مصلحتكِ. ليس فقط على الرجل أن يعدَّ عُدَّته، فأنتِ أيضاً مطالبة بمثله أو أكثر، السَّبْع لا يتحمَّل المسؤوليَّة وحده».

تناول عمِّي الحجاب، وفتحه، وعندما لم يستطع التعامل معه، ناوله لوالدي، ليقرأه، ولكن الوالد أيضاً لم ينجح، فلم يرَ سوى أرقام وأحرف غير مفهومة، وبدا أنه لم يكن من الضرورة معرفة التفاصيل، ما فهموه أن التي أعدَّت الحجاب لا بدَّ أن تكون امرأة غيورة، وحاقدة، استفزتْها قوَّة السَّبْع وزواجه من أميرة، فعملت على إضعافه وفضحه أمام خلق الله، وتمَّ لها ذلك عبر حجاب، استعانت على صنعه بوسيط له علاقة بالجنِّ الكافرين، وقد تكون أحبَّت السَّبْع، أو أرادت الزواج منه، وصُدِمَت عندما تزوَّج بأميرة، فلم تستسلم، وسعت لتخريب الزواج، بإعطاب عُدَّة السَّبْع.

وفي لَجَّة الفرح بالحصول على الحجاب، فوجئ الحضور، بدخول الشيخ عبد ربِّ النبي، بعَمَامَتِهِ الدائريَّة البيضاء المغطَّاة بقُماشة حمراء، التي تبدو متناقضة مع زِيِّه الإفرنجي المكوَّن من بذلة لا يُغيِّرها، وعصاه التي تضرب الأرض بقوَّة، فَهَبَّ والدي للترحيب به، والإمساك بيده، وهو يقول: «أهلاً بسيدي الشيخ عبد النبي، هَلَّت علينا البركة وأنوار النبي».

ترك الشيخ عبد ربِّ النبي يد والدي، ورفع عصاه غاضباً: «أوَّلاً؛ أنا لستُ عبداً للنبيِّ، وإنما لربِّ النبي وربِّي وربِّكم، ثانياً؛ ما الذي تفعلونه؟ لم يبقَ إلَّا أن تُدخِلوا الشياطين بينكم وبإرادتكم، لعنة الله على الحجَّابين والسَّحَرَة، الله لا يحبُّ الوساطة من أحد، ولا يُفلحُ الساحرون - صدق ربُّ الكون العظيم».

حرص العديد من الرجال على احتواء غضب الشيخ عبد ربِّ النبي، قائلين له: «لا تؤاخذنا، يا شيخ، المضطرُّ يفعل العجائب، ولو أن ابنكم السَّبْع غير مضطرٍّ، لَمَا فعلنا له ما فعل، نريد مباركتكَ، يا شيخ».

التزم الشيخ نعيم الصمت، ولم ينوِ الدخول في منافسة مع شيخ أزهريٍّ، ضليعٍ في الفقه، وسحر الكلام، ويحظى لدى أهالي قريتنا بمكانةٍ مميَّزة، ولا شكَّ أنه اعتبر ذلك معركة خاسرة، وهو في النهاية أنهى عمله، وقبض ثمنه مقدَّماً من والدي، بل إنه حيَّا الشيخ عبد ربِّ النبي، واصفاً إيَّاه بشيخنا الجليل، وحاول تقبيل رأسه، إلَّا أن الشيخ المصري رفض ذلك بإيماءةٍ من يده، ولعلَّه اكتفى بذلك، واعتبره اعتذاراً من الشيخ نعيم، واعترافاً بقَدْره، ولكنه لم يكن مرتاحاً.

شرب الرجال القهوة المُعدَّة مسبَّقاً،والمعبَّأة في أباريق حفظ القهوة، وسط فرح وبهجة، وقنوط الشيخ عبد ربِّ النبي، الذي أمسك عن الكلام زعلاً على رجال هذه القرية التي تؤمن بالخزعبلات، رغم ما يبذله من نشر الوعي والتقوى بينهم، وبين غيرهم من روَّاد المسجد الأقصى، الذين يحترمونه، ويُجلُّونه، وأقبل كلُّ رجل على حضن السَّبْع وتقبيله، مشيداً بقدراته، معتبراً أن ما مرَّ به، يمكن أن يمرَّ به أيُّ شخص، وهي غيمة صيف، وستزول سريعاً، وخرج الناس تباعاً، ليعطوا الفرصة المنتظرة للسَّبْع، والتي قد تكون الأخيرة، لينظِّف اسمه من سجلِّ الأفول، والانطفاء، والذبول، رغم أن المسألة، مثل كلِّ المسائل، لن تكون سهلة.

الرابع

خرجتُ مع والدي الذي حرص على الاطمئنان على مسير عودة الشيخ عبد ربِّ النبي، إلى المسجد الأقصى، واعتبر أن مهمَّته انتهت عندما تبرَّع سائق من قريتنا بإيصال الشيخ إلى القُدْس، بعد أن يؤمّ الناس في الصلاة بالمسجد الملاصق لبِركَة العَيْن، والذي يُسمَّى مسجد العَيْن، ولكنْ، ليس قبل أن يُطيِّب خاطر الشيخ الثائر، مؤكِّداً أن أهل القرية يتَّفقون فيما ذهب إليه، ولكنَّ الأمور تذهب، أحياناً، في طريقٍ غير متوقَّعة، ولكنْ، قد تكون ضروريَّة، وأن تغيير ما يعتقده الناس يتأتَّى تدريجيَّاً، وبنشر الوعي بينهم.

قال الشيخ عبد ربِّ النبي، بأنه من الصعب عليه تصوُّر أن أهل قريتنا ما زالوا يؤمنون بالخزعبلات، مؤكِّداً عزمه على الاستمرار في محاربتها، ملوِّحاً بعصاه، مازحاً.

ردَّ والدي:

- ألَا تذكر يا شيخ، كيف آمن الناس بعد النكبة الثانية بأن قبور الشهداء تتحرَّك، وبأن دموعَ سِتنا مريم تملأ الشوارع، ولكنْ، لا أحد يراها إلَّا من عباده الصالحين المسلمين والمسيحيِّيْن؟ وألَا تذكر، يا شيخنا، كيف تدفَّق الناس على كنيسة سِتنا مريم، وعلى المسجد الأقصى، ليروا الأعاجيب التي سمعوا عنها؟

- النكسة يمكن أن تفعل أكثر من ذلك في الناس، ولكنْ، علينا دائماً أن نقوم بواجبنا.

أراد والدي المزاح مع الشيخ:

– أراكَ تستخدم نفس مصطلح عبد الناصر فيما حصل لنا.

بدا الشيخ عبد ربِّ النبي، بقامته القصيرة، وتقاطيع وجهه الطفوليَّة، وكأنه بُوغِتَ، فأجاب بعد التقاطه حبل المفاجأة:

- يا ولدي، أحياناً يحتاج ناسنا إلى مصطلحات تخديريَّة، لا يريدون أن يُدركوا الحقيقة، رغم أنهم أكثر مَنْ يعرفونها، ولكننا هكذا نحن ..!

– يجب أن تقولوا الحقيقة للناس، على الأقلِّ كي يفيقوا من الصدمة.

- كما قلتُ لكَ هم يعرفون، ولكنهم منكوسون؛ النكسة، كما يُعرِّفها اللغويون، هي معاودة المرض بعد البُرْء، وأعتقد أنهم أصلاً لم يبرؤوا منذ النكبة، ولكنهم اعتقدوا، أو أرادوا التصديق، أن أنظمة القهر يمكن أن تُحقِّق النصر. والنصر لا يُحقِّقه إلَّا الأحرار، وهو آتٍ لا ريب فيه، والبَرَكَة فيكم أنتم شباب هذه المرحلة، وأرى أنكم أفضل حالاً من جيل النكبة، الذي صُدِمَ، واستمرَّت صدمته طويلاً، أمَّا أنتم، فإنني أراكم تُشفون سريعاً.

حمل والدي من جديد حقيبة الشيخ نعيم، دون أن يمانع الشيخ هذه المرَّة، وربمَّا وجد ذلك استحقاقاً له، بعد ما اعتقد أنه نجح في مهمَّته. وتبيَّن أن الحضور خارج المنزل قد زاد عددهم، مع انضمام الآخرين الذين راقبوا من بعيد، إلى التجمُّع عند العَيْن، حيث تقف مَرْكَبَة والدي الفولكس فاجن، وبدا أنهم عرفوا ما حدث في الداخل، وارتفعت بعض الأصوات تُحيِّي الشيخ، وتشيد ببَرَكَته، وخُيِّل لي بأن بعضهم رفع صوته ساخراً من الشيخ ومن السَّبْع ومن والدي أيضاً، الذي اصطنع الحكمة، ورفع صوته باتِّجاههم مؤكِّداً على أن الجميع في القرية يريدون الخَيْر للسَّبْع، الذي أصابه عارض، وهو ما يمكن أن يصيبهم، وعلى الجميع الدعاء بالتوفيق لشيخ الشباب.

ارتفعت أصوات محتجَّة ساخرة، ومؤكِّدة بأنهم ليسوا من سَيُطَرْبَلُون مثل السَّبْع، وإن الرجال ليسوا كلّهم واحداً، وليس كلُّ مَنْ يضع شنباً

يمكن أن يكون رجلاً، وأن اللهَ، عندما يريد يفضح المتغطرسين، والكذَّابين، والخُيَلائيِّيْن. بدا واضحاً أن قسماً من الناس، غيَّر انحيازاته، بشكلٍ سريع، لغير صالح السَّبْع، الذي بدا كثورٍ سقط، وإن العديدين، لديهم الاستعداد لِسَنِّ سكاكينهم.

سأُبدي لاحقاً استغرابي من تبدُّل الآراء السريع، أمام والدي، الذي رأى في ما جرى طبيعيَّاً، مبرِّراً ذلك، بأن الناس، كما يقول مَثَلنا الشعبيُّ، يقفون مع الواقف، وعندما ينهار، يُغيِّرون مواقعهم.

حاول والدي إسكاتهم، وطيَّب خواطرهم بكلماتٍ شبه اعتذاريَّة، وتدخَّل الشيخ نعيم فطلب منهم، بكياسة، أن يُردِّدوا خلفه دعاءً بالتوفيق للسَّبْع ولجميع الشباب: «اللهمَّ، يا مطَّلع على جميع حالاتنا، اقضِ عنَّا جميع حاجاتنا، وتجاوزْ عن جميع سيِّئاتنا وزلَّاتنا، وتقبَّلْ جميع حسناتنا، وسامحْنا، ونسألكَ، ربَّنا، سبيلَ نجاتنا في حياتنا ومعادنا، اللهمَّ، يا مجيب الدعاء، يا مغيث المستغيثين، يا راحم الضعفاء، أَجِبْ دعواتنا، وعجِّل بقضاء حاجاتنا، يا أرحم الراحمين»، أنهاه بطلب قراءة الفاتحة جماعيَّاً، ويا للعجب! كيف وحَّد هذا الطلب الجميع، ففتحوا أيديهم، ثمَّ بعد قراءة الفاتحة، رفع كلُّ واحد منهم يدَيْه إلى وجهه، وقرَّبهما منه، ثمَّ أغلقهما، وكأنهم يرشُّون البَرَكَة على أنفسهم.

الخامس

صَعِدَ الشيخ نعيم إلى مقعده في المَركَبَة، ووضعني والدي بجانبه، بحيث فصلتُ بينه وبين الشيخ. وصَعِدت المَركَبَة من وادي حُلْوَة باتِّجاه سور القُدْس الجنوبي، وانعطفت إلى اليسار، ووالدي يُبدي سعادته بالطريق الجديدة - القديمة التي أخذت تسلكها المَركَبَات، بعد احتلال 1967م، التي كانت تسلك الطريق القديمة - الجديدة بعد احتلال 1948م، وإغلاق جزء من طريق القُدْس - الخليل، الممتدَّة من باب الخليل في القُدْس إلى دير مار إلياس، والتي تحوَّلت إلى منطقة حرام، بين الإسرائيليِّيْن والأردنيِّيْن، أي منطقة وقف إطلاق النار بين الجهتَيْن الرسميَّتَيْن على أرض فلسطين الانتدابيَّة، ولكنْ، على المستوى الشعبيِّ، فإن خرق وقف إطلاق النار هذا استمرَّ من قِبَل شبَّان، تفجَّرت لديهم الوطنيَّة، أو متسلِّلين إلى منازلهم وقراهم التي أضحت تحت السيطرة الإسرائيليَّة، ما أدَّى إلى قتل الآلاف منهم، كما قال والدي.

بعد صمت الرشَّاشات، وسيطرة العصابات الصهيونية على الأحياء العربيَّة فيما سيُعرَف بالقُدْس الغربيَّة، أَسَّسَ جَدِّي، الذي أصبحت بارودته عاطلة عن العمل مجموعة كانت تتسلَّل بشكلٍ دوريٍّ إلى أحياء قريبة مثل تلّ بيوت، والطَّالبِيَّة، والثوريّ، والبَقعة، فلم تكن دولة الاحتلال الجديدة، قد تمكَّنت من فرض سيطرة حاسمة على الحدود الجديدة، التي بدت مفتعلة واعتباطيَّة، قتل والدي ورفاقه يهوداً، وكانوا يعودون، بعد كلِّ تسلُّل، بغنائم، كانت مهمَّة في ظلِّ حالة العُسر الشديد التي عاشها أهلنا بعد

النكبة، وهي ظروف، قال والدي إنها تشبه ما وصفها بالمجاعة التي ضربت القُدْس والمُدُن والقرى والمخيَّمات المحتلَّة في الحرب الأخيرة، إثر نهب الجيش المنتصر للمحلَّات، خلال الحرب، وما أعقبها من فرض حظر تجوُّل، وأجواء قمع وإرهاب على المَدَنيِّيْن.

وعندما عرفت السلطات الأردنيَّة بنشاط جَدِّي، اعتقلتْهُ ورفاقه، وجرَّتْهم إلى عمَّان، فلم يكن لديها أيُّ تهاون لمَنْ يخرق الحدود، واتِّفاقيَّات الهدنة.

أخذ الشيخ يتأمَّل في سور القُدْس، وجبل صهيون، ويعبِّر عن مشاعره بكلماتٍ غير مفهومة، هي أقرب إلى التمتمات، حتَّى انعطفت المَرْكَبَة بجانب بِرْكَة السلطان سليمان، على الجسر المقام على وادي الربابة، الذي يلتقي وادي جهنَّم في منطقة البساتين في قريتنا، حيث يُزرع السِّلْق [2] التي تشتهر به، ويلفظه الناس سِلك، وواصلت صعودها يساراً إلى طريق القُدْس - الخليل، وعندما فُتح الحديث بعد التأمُّل والتأسِّي على أحوال الأماكن والناس، وخلال توقُّف المَرْكَبَة على إشارةٍ ضوئيَّة، بدا والدي متشكِّكاً بما فعله الشيخ، في منزل السَّبْع، وعبَّر عن ذلك بنبرةِ صوتٍ عالية نسبيَّاً، وهو يخاطب الشيخ، الذي تضايق من ذلك، فسأله:

– يبدو أنكَ لم تُصدِّق ما حدث، ولم تُؤْمن بكشفي عن الحجاب المخبوء؟ كثيرون من أمثالكَ الشباب لا يُصدِّقون ...!

أجابه والدي مواصلاً تشكُّكه:

- بصراحة، أنا مُصدِّق وغير مُصدِّق ..!

– كيف هذا؟ إمَّا أن تُصدِّق أو لا تُصدِّق ..!

- هذا ما أشعر به الآن..!

– وما الذي يجعلكَ متشكِّكاً إلى هذه الدرجة؟

- إذا كان لدى البعض منّا قدرة على الاتّصال بالجان، وصنع أحجبة ضدَّ بعضنا البعض، فلماذا لا نستعين بالجان لهزيمة اليهود الذين هزمونا واحتلُّوا أرضنا، وقتلوا شيوخنا ونساءنا وأطفالنا؟ أين كان الشيوخ أمثالكَ والرصاص ينهمر على رؤوس الأبرياء؟ ولماذا اختفى الجان الصالح، الذي سخَّره الله لصالح الأتقياء والأبرياء والمظلومين؟

– هذا أمر، وذلك أمر، يا عزيزنا. ففي الكيد لبعضنا يمكن أن نستعين بالجان، أمَّا في الحرب، فَمَنْ لديه مَدافِع أكثر، وعقل يُشغله أكثر، فهو مَنْ ينتصر.

- وليس سحراً أبيض أو أسود؟

– منذ أن تعلَّمنا السِّحر من الملكَيْن الضالَّيْن هاروت وماروت، وُجد السِّحر الأسود والسحر الأبيض معاً، ولكن كلا السحرَيْن يفشلان، في مواجهة التخطيط، والقوَّة. هل كنتَ تعتقد أن الفهلوة، والهمبكة، والثلاث ورقات، والكلام المفرنع، ستُعبِّد طريق النصر؟

ضحك والدي، ولم يُرِدْ أن يُثقِلَ على الشيخ:

- اتَّفقْنا إذن ..!

انطلق الحديث إلى معاناة الكثيرين والكثيرات في منطقتنا من حالات مَسٍّ، وتعقيدات حياة، بسبب أولاد وبنات الحرام، الذين واللَّواتي، يلجؤون ويلجئنَ إلى السِّحْر، والرَّبْط، والاتِّصال بالجان، من أجل تخريب حيوات الناس، وما بين جَذْب وشدٍّ، وجدٍّ وهزل، بين والدي والشيخ، بدا أن اتِّفاقاً عقده والدي مع الشيخ، بأخذ نسبةٍ من الأجر الذي سيتقاضاه عن كلِّ حالةٍ يدلُّ والدي الشيخَ عليها.

لم يكن والدي جادَّاً، وأظنُّ أن الشيخ نعيم كان يعرف ذلك، وأراد الاثنان

تلطيف الأجواء بينهما في رحلةٍ لن تطول كثيراً، ولن يبقى منها إلَّا أجواء المجاملة.

قال والدي: «الحرب لم تترك أيَّاً منَّا سليماً، كلُّنا نحتاج إلى علاجٍ روحانيٍّ».

صدَّق الشيخ نعيم على كلام والدي، قائلاً: «لهذا وجودنا ضروري، نحن الشيوخ أصحاب العلاج الروحانيِّ، مَنْ سخَّرنا الله لمساعدة عباده، إذا كنتَ تعتقد بأننا نقدر على شيء، فأنتَ خاطئ، كُلُّه من عند الله، وبإرادته، وبإذنه».

صدَّق والدي على كلام الشيخ نعيم، وإن لم يكن مقتنعاً كلِّيَّاً به، إلَّا أن الأجواء ما بعد الاتِّفاق البيني غير الجادِّ تحتاج إلى زرع الثقة بين الطرفَيْن.

السادس

بعد لحظات مضت، كان الشيخ نعيم، يلتفت خلالها حوله، وينظر إلى البنايات على جانبَي شارع القُدْس - الخليل، في أحياء البَقعة، والثوري، وتلّبيوت، نبَّه والدي، إلى البناية الورديَّة، المَبنيَّة من الحجر الورديِّ، المستخرَج من محاجر إِصْلَيِّب، وقال له بحماسةٍ:

– عليكَ أن تنتبه للنقش الحجري أعلى البناية؛ قصر العَرْعُور، رئيس بلديَّة بَيْت لَحْم في زمنٍ مضى، كُتب عليها: «المُلْك لله الواحد القهَّار»، هكذا أحبَّ المسيحيُّون والمسلمون، أن يخطُّوا على منازلهم، وظلَّت كما هي حتَّى بعد أن استولى عليها اليهود عام النكبة.

أراد والدي التأكُّد من هُوِيَّة صاحب القصر:

- العَرْعُور هو نفسه صاحب العِمَارَة الشهيرة وسط شارع يافا؟

– نعم، إنه نفسه، ولكنه الآن لم يعد يملك شيئاً، النكبة لم تترك صغيراً أو كبيراً، ولا غنيَّاً أو فقيراً إلَّا ونكبتْهُ، كأنها زلزال ضرب بأعلى درجاته، ولم يَستثنِ أحداً.

تمتم والدي بكلامٍ، فُهم منه تأييده للشيخ نعيم الذي واصل: «جاء والدي وعُمُره عشر سنوات للعمل عند حنَّا العَرْعُور، واعتبره صاحب القصر كواحدٍ من أبنائه، وظلَّ والدي هنا، حتَّى سافر العَرْعُور إلى بيروت، مثله مثل كثيرين من أصحاب القصور، في البَقعة والقَطَمُون والطَّالِبِيَّة، الذين بكَّروا في إجازاتهم السنويَّة التي يقضونها خارج البلاد، واعتبروا أن ما تشهده

من اعتداءات العصابات الصهيونية سينتهي، تاركين أبناء الفلّاحين يقاومون وحدهم، وعندها سيعودون إلى قصورهم، كما تركوها، وبقي والدي مع آخر مَنْ بقوا في الحيِّ، وعندما عاد العَرْعُور من بيروت، رجع إلى منزله في بَيْت لَحْم، وأرسل إلى والدي يطلب منه المغادرة، فحياة الإنسان أهمُّ من الحجارة، وغادر والدي القصر الذي عمل فيه طويلاً، وكان قد تزوَّج، وأصبحت لديه عائلة صغيرة، أسكنها العَرْعُور في حوش بقرب سوق بَيْت لَحْم، وبعد سنوات، عدتُ أنا وأُمِّي إلى قريتنا، بينما ظلَّ والدي في بَيْت لَحْم، وقد تزوَّج من جديد، وكُلُّه أمل بالعودة إلى قصر البَقعة، الذي كما ترى ما زال شاهداً، على هُوِيَّة الحيِّ الذي بنى فيه قُدْسيُّون وبَيْتلَحْمِيُّون قصوراً وبيوتاً، وزَّعتْها حكومة إسرائيل على مواطنيها اليهود».

أبدى والدي الذي أوقف مَرْكَبَتَهُ بجانب القصر إعجابه باللوحة التأسيسيَّة للقصر، وبأحرفها البيضاء النافرة التي تخرج من الحجر، وكأنها ندفٌ ثلجيَّة.

تولَّى الشيخ نعيم التعريف ببيوت وقصور على امتداد الشارع، وهو يعبِّر عن غُصَّته، ويروي كيف انتهت حَيَوات العديد من أصحابها قهراً على ما فقدوه.

قال الشيخ وكأنه لا يخاطب فقط والدي، متجاهلاً وجودي، وإنما يروي لجمع ينصت إليه: «وكأنها تذكَّرت الأمر للتوِّ، فحملت حالها وذهبت إلى عمِّها، ابن العمِّ، كبير العائلة؛ العَرْعُور:

- يا عمُّ حنَّا، ألَا يمكن أن أزور بيتي قبل أن أموت ..؟!

عاشت حِنَّة مع أُختَيْن اثنتَيْن، لم تتزوَّجا، وعملنَ خادمات في بيوت الإنجليز بالقُدْس،وما جمعنه من عَرَق تعبهنَّ بَنَيْنَ به بيتاً في البَقعة، ولكنهنَّ لم يهنأنَ في البيت؛ نُكِبْنَ ونُكِبَ البيت، ووجدنَ أنفسهنَّ لاجئات

عائدات إلى بَيْت لَحْم، وفي مسيرة الحياة، بقيت حِنَّة وحدها على قيد حياة متوتِّرة.

وحَّد الاحتلال الأخير بَيْت لَحْم والقُدْس، ولكنَّ حِنَّة لم تجرؤ على زيارة بيتها، خشيت من مواجهته وحدها بدون أُختَيْها، ولم ترد أن تعلم ما تُخبِّئه لها الزيارة، وفضَّلت إرجاء ذلك، ولكنْ، إلى متى؟ فعليها أن ترى بيتها، وتحسَّ حجارته، وتشمَّه، وتودِّعه ما دام لم يعد لها، ليس أقلَّ من وداعٍ أخير ولائق. في يومٍ خريفيٍّ، تذكَّرتْ حِنَّة أنه آن الأوان لتُلقي النظرة المؤجَّلة على بيتها، بيت الأخوات الثلاث، فجاءت لابن العمِّ، وهو بمثابة العمِّ. اتَّصل العَرْعُور بوالدي، ورجاه مرافقة حِنَّة إلى بيتها المغتصَب الذي لم يعد لها، ولا تعرف لمَنْ آل. بعث والدي ورائي، وأصرَّ أن آتيَ معهما، فعُمُره وعُمُرها وقد تجاوزا السبعين غير صالحَيْن كفاية لتنفيذ الزيارة المرتقبة وحدهما، التي تهرَّب منها العَرْعُور، المثقَل بذكرياته وأحزانه.

انطلقنا؛ حِنَّة ووالدي وأنا إلى القُدْس، وركبنا حافلة بَيْت لَحْم - القُدْس القديمة ذات البوز الحديدي الذي لا يكفُّ عن إخراج أصوات مزعجة، نزلنا عند كمب اللنبي، في تلّبيوت، وسرنا في طُرُقٍ ملتفَّة، قادنا فيها والدي، وبدا الاستغراب على حِنَّة، التي وكأنها وهي تفقد البيت، فقدت معالم الطريق المؤدِّية إليه، حتَّى وصلنا أمام البيت، هو .. هو لم يتغيَّر - قالت حِنَّة بحياد غريب، وكأنها جاءت مع آخرين، لتشهد على واقع معيَّن.

طلب منها والدي التَّقَدُّم، وقَرْع الباب، تردَّدتْ، خشيتْ حِنَّة، أن تخونها يدها، فلا تقدر على خبط الباب، باب بيتها، بابها، فاضطلعت بالمهمَّة، متعوِّذة من الشيطان الرجيم، وأبالسة الدنيا. بعد لحظات انتظار قلقة مشرعة على مجهول غير متوقَّع، فُتِحَ الباب، وأطلَّ منه رجل بشاربٍ غليظ، سأل وكأنه كان يتوقَّع قدومنا نحن الغرباء عليه:

- أنتُم أصحاب البيت؟

- نعم.

أجاب والدي:

- تفضَّلوا، أنا عراقيٌّ ابن عرب، وأهلاً بكم على العادات العربيَّة ..!

لم نصدِّق ما يحدث، وآخر ما توقَّعناه، ونحن في طريقنا إلى هنا تظلِّلنا غيمة التردُّد، ورغبات النكوص، والعودة، هذا الترحيب العربيُّ القُحُّ.

تفضَّلت حِنَّة ووالدي وأنا إلى الداخل، تجوَّلنا في البيت بحرِّيَّة، وفَّرها اليهوديُّ العراقيُّ، وسالت دموع حِنَّة، وهي تتذكَّر أُختَيْها، وتفاصيل البيت. وصلت الدموع ذقنها، وسقطت نقاطاً على البلاط الملوَّن الصلب والجميل، الذي لم يعد يُستخدَم مثله في بيوتنا.

في بداية قرن جديد شهدتْهُ فلسطين، وما أكثر قرونها، واستشعاراتها، استُخْدِم البلاط المستورد من أوروبا عن طريق ميناءَي حيفا ويافا، في تبليط العديد من المنازل بالمُدُن، كما هو الحال في منازل وقصور الأعيان والأغنياء بالقُدْس، وبَيْت لَحْم، ويافا، ورام الله، وغيرها.

وفي الثلاثينيَّات أحدث تأسيس مصنع للبلاط في القُدْس ثورة غيَّرت الطريقة التي كان يستخدمها ناسنا، خصوصاً في المُدُن في تبليط منازلهم، وحدث الانتقال الجذري من طريقة التبليط التقليديَّة، إلى الطريقة الحديثة، وليصبح البلاط الملوَّن والمزخرف، قماشة الأرضيَّات الحديثة، التي تشي بالحداثة والتطلُّع، فليست فلسطين فقط كانت ترنو إلى أفضيَةٍ تلوح، دون أن يُعرَف بالضبط كُنهها، ولكنها مبشِّرة.

تفنَّن المهندسون والحِرَفِيُّون، في استخدام البلاط الملَوَّن، الذي سيُسمَّى لاحقاً البلاط التقليدي، ويمكن لَمْسُ ذلك من غرف الاستقبال

والغرف الرئيسة في المنازل، حيث يمكن رؤية الأرضيَّات على شكل سجَّادات مزخرفة بزخارف نباتيَّة وهندسيَّة، في حين اقتصر استخدام البلاط في المطابخ والغرف الأخرى، على البلاط الأبيض والأسود، على شكل لوحات الشطرنج، أو الأحزمة السوداء حول الغرف.

أبدى اليهوديُّ العراقيُّ رغبةً في تقديم مشروب ساخن لضيوفه، فعرض علينا قهوةً وشاياً، ولم تكن حِنَّة في مزاجٍ لشرب أيِّ شيء.

استغلَّت فترة تقديم الشاي والقهوة، في تأمُّل الصالون، وتذكُّر تفاصيل معيَّنة، تسأل عنها الساكن الجديد، فيجيب مؤكِّداً، أو يغيب ليفحص، ويتأكَّد.

وعندما حان موعد الخروج، اعتدل الساكن الجديد، وبدا كأنه، ليس هو ابن العرب المضياف، الجاهز للإجابة على أسئلة حِنَّة، وقال لنا ونحن على الباب بلهجةٍ بدت غريبة علينا:

- هذه المرَّة، استقبلتُكُم، كيهوديٍّ ابن عرب، ولكنْ، لا تأتوا إلى هنا مرَّة أخرى، هذا البيت أصبح بيتي.

وأكمل دون السماح بأيِّ ردٍّ فعل لحِنَّة أو من والدي ومنِّي:

- أنا مثلكِ، يا حِنَّة، تعبتُ للحصول على هذا البيت، اشتريتُهُ بعَرَقِي من حارس أملاك الغائبين، حذار أن أراكم مرَّة أخرى في محيط هذا البيت، بيتي. ولا تختبروا تصرُّفي المقبل معكم، ولا تستهينوا بي، عَلَّكُم علمتُم بعد الحرب الأخيرة ما أنا قادر عليه.

لم تحدث انتكاسات مباشرة لحِنَّة، واعتصمت بالصمت، ونحن في طريق العودة إلى بَيْت لَحْم، ذهبت إلى بيتها، بينما توجَّه والدي إلى منزل العَرْعُور، ليقدِّم له تقريره عمَّا حصل، وواصلت المسير إلى الخليل».

بعد عدَّة أمتار طلب الشيخ نعيم من والدي التوقُّف، مشيراً إلى منزل مَبني من حجارة حمراء وبيضاء على الطرف الآخر من الشارع، وقال:

– انظرْ .. دقِّق النظر ..!

- نعم، أرى هذا البيت الورديَّ الجميل، وأرى الأعلام الإسرائيليَّة ترفرف عليه مبتهجة.

– كان صالح جريس نجيب، يعلم وهو يشيد قصره قُبالة مستوطنة تلّبيوت، بما يمكن أن تؤول إليه الأمور، وإن كان ليس واثقاً تماماً من ذلك.

- كان عليه أن يكون واثقاً.

قال والدي بجِدِّيَّة، ولكن الشيخ نعيم لم يردّ عليه، وواصل الحكي: «بَنَى نجيب قصره في عام 1936م، والثورة الفلسطينيَّة الكبرى مشتعلة، وثبَّت أعلى القصر لوحة تأسيسيَّة من الحجر الأبيض، يُظهِر فيه حرصه في الحفاظ على تقاليد مفردات النقوش على منازل بَيْت لَحْم والقُدْس، فكتب «الحمد لله على كلِّ حال» مُعلِناً رضاه عمَّا سيحدث لمنزله لاحقاً. واستعان بخدمات والدي في تأهيل حديقة القصر، وعندما كانا يجلسان لشرب القهوة، فيقول لوالدي، مشيراً إلى منازل مستوطنة تلّبيوت على الجانب الآخر من الشارع: أخشى، يا أبو نعيم، أن تكبر المستوطنة، وتأكلنا، وتسيطر على منازلنا، ولم يكن والدي يملك تشاؤم نجيب، فيؤكِّد له، بأننا أكثر من اليهود، ولا يمكن أن يهزمونا على أرضنا، حتَّى جاء الوقت الذي غادر فيه نجيب قصره مضطرَّاً، ولحقه والدي بعد فترة، مودِّعاً البَقعة».

قال والدي: «حكاية محزنة».

أكمل الشيخ نعيم: «كما ترى تحتلُّ القصر الآن عائلات ومؤسَّسات يهوديَّة، وأصبح جزءاً من تلّبيوت، لماذا جرى ما جرى؟ وكيف جرى؟ وهل كان يجب أن يجري؟».

قال والدي: «علينا الإجابة عن هذه الأسئلة إذا أردنا الخروج من نفق الهزيمة».

عندما وصلنا دير مار إلياس، حيث كانت الطريق إلى القُدْس، من بَيْت لَحْم والخليل، تمرُّ بمحاذاته قبل الاحتلال الأخير، أشار والدي إلى بناية القصَّاص التي تقع على المفرق بين الطريق القديمة إلى القُدْس، والأخرى الجديدة - القديمة التي فُتِحَت بعد الحرب، بعد تسعة عشر عاماً من الإغلاق.

تحدَّث والدي عن صاحب الدار، خرِّيج كامبريدج أو السوربون، عندما كان عدد الخرِّيجين في البلاد معدوداً، وقال بأن الناس كانوا يستغربون سلوكه المهذَّب وزِيَّه الأنيق، كلورد إنجليزي، وأهمّها البرنيطة، ونفوره من قداديس الكنائس ورجال الدِّيْن، وتصرُّفاته التي قد تبدو غريبة، وآراؤه الفلسفيَّة الوجوديَّة، فأطلقوا عليه صفة المجنون، وسَمَّوْا داره، دار المجانين، وأضحت عنواناً للمارِّين على الطريق القديمة إلى القُدْس، فيقول السائق مثلاً: وصلنا إلى دار المجانين، ويسأل الركَّاب عن أيٍّ منهم سينزل في الموقع.

استخدم الملك حسين هذه الطريق للوصول إلى الخليل وبَيْت لَحْم، وعندما كان المسؤولون ينتظرونه، فيسألون، ليعرفوا المدَّة المتبقِّية لوصوله، إذا كان وصل دار المجانين أم لا.

وعندما تقدَّم المحتلُّون الجدد غادر جميع أفراد الدار إلى بَيْت لَحْم، تحسُّباً لأيَّة أعمال انتقاميَّة من ساكني الدار المحاذية للمنطقة الحرام طيلة تسعة عشر ربيعاً وشتاءً، وليكونوا وسط عائلتهم الكبيرة وأهالي مدينتهم، ولكنَّ القصَّاص رفض المغادرة، فَنَعَتَهُ أفراد العائلة بالمجنون، مصدِّقين على الصفة التي طالما الناس رأوها فيه قبلهم، وعندما سكتت المدافع،

وعادوا إلى الدار، وجدوا على عتبتها دماءً، وعندما تتبَّعوا خيط الدِّماء، عثروا عليه في غرفته مضرَّجاً بدمائه، لقد فعلها المحتلُّون الجدد، وقتلوا مجنوناً، لم يرد مغادرة منزله.

وأضاف والدي: «لا يعرف أحد ما جرى، ربمَّا أطلقوا عليه الرصاص على مدخل الدار، وجرُّوه إلى داخلها، وأجهزوا عليه، وتطوَّع جاره جورج الذي كان يستعدُّ للسفر إلى إيطاليا لدراسة الفنون الجميلة، وبمساعدة آخرين، فأخرجوه، ودُفِن بدون مراسم كَنَسِيَّة، في الحقل المقابل للدار».

وصف والدي جورج بأنه يتحدَّث لغة الحجارة، مثل والده، ويعرف أنواعها وطرزها، ويشكلها كما يحبُّ.

تأسَّى الشيخ نعيم لمَا حدث للقصَّاص، وقال: إن بلادنا ما أسرع أن تُبدِّل احتلالاتها، احتلالاً يخلف احتلالاً. احتلال يُخلِّف احتلالاً، ويُسلِّمه البلاد والعباد، يفعل ما يشاء بهما، وبأن أكثر ما يخشاه محتلُّو بلادنا، المجانين الذين يرفضون مغادرة منازلهم، وبلدهم، مثل القصَّاص، ممتدحاً، ومتمنِّياً لو كان جميع الشعب مجانين.

قال والدي: «لو أن جميع الناس جُنُّوا، لما عمَّر احتلال على أرضنا، ولكنَّ الناس يخافون من أيِّ احتلال، ولديهم تجارب طويلة، وإرث قديم، مع الاحتلالات، وما ترتكبه يجعلهم يخافون، على عرضهم، وأرضهم، وأنفسهم».

السابع

بدا الشيخ نعيم، وكأنه استبدل بعِمَامَة المشيخة رداء الحكواتي، وبدا مقبولاً أكثر لدى والدي، وهو يرى الجانب الآخر من الشيخ، المندفع، والمتدفِّق، والعاديّ، والعاطفيّ، والحماسيّ.

استمرَّ حديث الحرب، وحكاياتها، وأنا حائر بأحوال البلاد التي وُلدتُ فيها، وأُلقَّنُ الآن، شذراتها الحزينة، وفجأة قال الشيخ نعيم، وهو يبتسم مشيراً إلى مدخل قرية بدت صغيرة صامتة: «هذه خُرْسَا»، وجَهِدَ لإفهام والدي حكاية طحَّانتها، والتي ذهبت أمثولة، وقال الشيخ نعيم: «حتَّى يومهم هذا يقول ناسنا: زَيّ طحَّانة خُرْسَا».

حاول الشيخ نعيم أن يضيف حكاية جديدة من حكايات دورا أُمِّ التسعة والتسعين خِرْبَة، وعندما سأله والدي أن يقصَّ القصَّة من بدايتها، لا أن يَقُصَّها ويقولها هكذا سريعاً، مبتورة.

ضحك الشيخ نعيم وهو يقول: «ماشي، خلال إحدى العهود التي مرَّت على بلادنا، ويُعتقَد أن ذلك حدث خلال الاحتلال البريطاني، غزت مجموعة من اللصوص، أو طالبي الثأر، أو ربَّما من الجنود، قرية خُرْسَا، ولم يُبقوا شيئاً على شيء، ولم يتركوا رجلاً أو امرأة أو طفلاً على قيد الحياة، حوَّلوهم بهمجيَّة إلى أمواتٍ بدون قيودٍ أو شهود، حكاية مَرويَّة، غير رسميَّة، ولم تنجُ إلَّا امرأة، كانت تطحن القمح في كهفٍ أو مغارة، واستمرَّت بذلك ثلاثة أيَّام، ويقال سبعة أيَّام، حتَّى أنهت طحنها، دون أن تدري، ما جرى في القرية خلال ذلك، وعندما خرجت من كهفها، تنظِّف ثوبها ممَّا

علق به خلال أيَّام الطحن الطويلة، فوجئت بأنه لم يبقَ في القرية غيرها، وأن جميع الأهالي ذُبحوا، وهي لا تدري، فذهبت مثلاً على قلَّة الحيلة، والحمق، وعدم معرفة المرء ما يدور حوله، مثلنا تماماً، يا أبا كافل، أرانا مثل تلك الطحَّانة، بعد الحرب، التي هُزمنا خلالها، وكأننا لم نتوقَّع ذلك، ولم نعرف بأن حدثاً كان يجب أن يحدث، لم نُرِد أن نسمع غير ما أرادوه لنا أن نسمعه، ولم نفكِّر، كنَّا مثل الطحَّانة في البلادة، وكان قادتنا مطفئي الضمائر، وأشياء أخرى بتنا نعرفها الآن أكثر من أيِّ وقت مضى، رغم أنه كان علينا أن ندركها أكثر من النكبة، ولأننا لم نفعل، احتجنا لنكبة أخرى، سَمَّوها نكسة، لنعرف، ولكنْ، هل سنعتبر؟».

وصلنا إلى خِرْبَة البرج، وهي واحدة من بنات دورا التي تشارف على المائة، ويقال بأنها تجاورتْها بواحدة،ويسكن الشيخ في بيت من بيوت البرج الرومانيِّ بالخِربة، ولفتت انتباه والدي غرفة خَرِبَة صغيرة، تظهر وحدها، فقال الشيخ إنها مدرسة الخِرْبَة القديمة: «في عام النكبة، أصبحت المدرسة في حدود دولة إسرائيل الجديدة، ورغم أن فقداننا لمدرستنا كان بحدِّ ذاته نكبة، إلَّا أن الصُّدْف التي جعلت دبَّابة للعصابات الصهيونية تتعطَّل قرب المدرسة، حالت دون تمدُّد الدولة الجديدة على مزيد من أراضي البرج، وبعد الاحتلال الأخير، لم يكن هناك مجال للصدف أو للعطب؛ توحَّدت أراضي الخِرْبَة؛ ولكنْ، دون السماح للأهالي باستعادة أرضهم التي فقدوها في النكبة، أو استعمال المدرسة التي يُفترَض أنها عادت بعد النكسة، لكنْ، في هذه البلاد، ما يُؤخَذ لا يعود، ولم يعد ممكن للصدف، أن ترقَّ لحالنا البائس هذا الذي يبدو بدون شمعة في آخره».

قال والدي: «دوماً، يوجد شموع، ولكنْ، علينا البحث عنها، أحياناً تأتي هي إلينا، ولكنها لا تفعل ذلك في معظم الأوقات».

استفسر والدي عن حجم أرض الخِرْبَة المفقودة، فقال له الشيخ نعيم: «إنها لا تُعدُّ، كان جَدِّي علَّامة، والذي بنى قصره على التلَّة التي أمامنا مُطِلّاً على الساحل، رجلاً جبَّاراً مفترياً، لا تقف أمام طموحاته الكثيرة أيَّة عوائق، كان يركب الحصان ويقول أين سيصل الحصان، فهذه حدود دورا وابنتها البرج، ولدينا مَثَل شعبيٌّ مُتداوَل: «زَيّ علامة نعيم» أي مِثل علامة نعيم، ويضرب المثَل لحَثِّ المخاطب على الاقتداء بشخصيَّة علامة في الذكاء والدهاء وبعض الشرور، ويقال بأن جَدِّي علامة ذاع صيته حتَّى طلبه الباب العالي في إسطنبول، فترسَّخت شخصيته في أذهان ناسنا، وينظر إليه أحياناً كرمز تترى الحكايات عن شهامته ودهائه ونبوغه، ولكنها تبقى حكايات، مثل معظم حكايات قريتنا، عرضة للحذف والتطويل وإعادة التأليف، حيث زاوية الحاكي، وتحزُّباته العائليَّة والاجتماعيَّة. فلم يعش جَدِّي ليرى كيف تؤخذ أرضه على حين غرَّة، من الذين أتوا من وراء البحار، ليطردونا من أرضنا».

وأضاف الشيخ نعيم: «كثيراً ما أصعد إلى التلَّة، وأصعد إلى سطح القصر الحجريِّ، الذي ما زال رمزاً لسيرة جَدِّي، وأنظر إلى البحر المتوسِّط، الذي يبدو لا نهائيَّاً، وأفكِّر بحالنا، في هذه الجبال المحشورين فيها، وكأننا منذورون للحشر، ولجيوش الاحتلالات التي تأتي من البحر، ولو سرتَ في أنحاء هذه الخِرْبَة أو خِرَب دورا المائة وواحد، فستجد بقاياهم، التي تركوها منذ قرون. أين ذهبوا؟ وهل فقط تركوا قبوراً وأبراجاً، وفسيفساء، ومعاصر، وحجارة، وكنائس، وهياكل دينية؟ ومَنْ نحن؟ من أين جئنا؟ ومع مَنْ مِنْ راكبي البحر هؤلاء الذين لا ينتهون؟ في هذه الحِقْبة نحن هنا في مواجهة مع آخر راكبي بحر يغزونا، والله يسهِّل، ليس مثله يمكن أن يتدبَّر أمرنا معهم».

رفض والدي إلحاح الشيخ بالنزول لنرتاحَ قليلاً ونحتسيَ القهوة، وأصرَّ

على أنه يجب أن نعود إلى القرية، حتَّى يطمئنَّ على سير الأمور مع السَّبْع، ومنع أيِّ تدخُّلات يمكن أن تُفسِد ما فعله الشيخ.

قال والدي: «المتربِّصون الذين لا يريدون خيراً للسَّبْع كثيرون، وربَّما يُبطلون ما فعلتَهُ مستعينين بالنساء، وهنَّ كما تعلم ناقصات عقل ودِيْن، ويُصدِّقنَ أيَّ متربِّص قد يتدخَّل».

ويبدو أن والدي لم يكن جادَّاً في تبريره، أو مقتنعاً به، ولكنها حجَّته، لكي نواصل طريق العودة، وهي الحجَّة التي قد لا تكون أقنعت الشيخ نعيم، ولكنه كان بحاجة إليها، ليُفرمِلَ إلحاحه، فهو لا بدَّ بحاجة إلى راحةٍ بعد يومه الطويل، والعجيب، في قريتنا.

الثامن

في طريق العودة، سمعتُ من والدي حكايات عديدة عن فلسطين، وعن النكبة والنكسة، وعن جَدِّي الثائر الذي كان خلال الثورات والهبَّات وما بينها، ضدَّ الإنجليز، يصعد إلى أعمدة الهاتف، ويقصُّها، وهو أمر مهمٌّ في ذلك الوقت، حيث عرَّضه للاعتقال في سجن عكَّا، وعن عمِّ والدي، الذي حُكم بالسجن خمس سنوات، بعد أن عثر جنود الإنجليز على رصاصة فارغة في منزله، عندما اقتحموا القرية، ودهموا المنازل، إثر تزايد عمليَّات قَصِّ خطوط الهاتف في القُدْس المدينة التي أولاها الإنجليز أهمِّيَّة خاصَّة، ربمَّا ليس بسببنا، ولكنْ، بسبب اليهود، الذين اعتُمِدَت لغتهم العبريَّة لغة رسميَّة، ووُضع أوَّل حرفَيْن من (إيرتس إسرائيل) على العُملة التي ظهر عليها اسم فلسطين واضحاً، وعلى طوابع البريد، وبدا كأن الحرفَيْن اللذَيْن يشيران إلى أرض إسرائيل تعويذتان، لما يُخطِّط له الإنجليز لاحقاً، كره والده الإنجليز، كما أكره البامية عندما تطبخها أُمِّي، وتُجبرني على ازدرادها، حتَّى يتدخَّل والدي، ويُقدِّر حالتي، ويُوقِف حفلة التعذيب المُرَّة، وتقول أُمِّي:

- عليه أن يتعوَّد على أَكْل أيِّ شيء.

– سيأتي يوم ويتعوَّد على ازدراد أيِّ شيء، حتَّى الحجارة، أمَّا الآن، فاتركيه يأكل ما يحبُّ.

كان لدى أُمِّي مصطلحات شعبيَّة عديدة في وصف تناول الطعام، تستخدمها حسب الحالة المزاجيَّة لها، واستجابتي من عدمها لما تطبخه، وليس مثل مصطلحات: «إِتوسك»، و«إِدردا»، و«اطفح»، تعبيراً عن غضبها غير المبرَّر وغير المفهوم بالنسبة إليَّ، ولم أدرك كيف يمكن لموقفي من

الطعام، أن يُعرِّضني لقسوة المصطلحات التي تخرج من فم أُمِّي متبوعة برذاذ تائه، حُشِر طويلاً، وعندما خرج لم يدرِ إلى أين يذهب.

حكى لي والِدي بضع حكايات عن مناضلين اعتُقلوا مع والده، إمَّا أُعدموا على يد الجنود الإنجليز، أو قضوا سنوات طويلة في السجون، فلم يكن الإنجليز يتساهلون مع أيِّ شخص، يجدون معه ولو رصاصة كما حدث مع عمِّه، وتوسَّعوا في هدم المنزل، ومنح الأراضي للكيبوتسات اليهوديَّة، أو تسهيل الحصول عليها، لتستوعب المهاجرين اليهود، الذين أتوا إلى بلادنا من دول العالم المختلفة، التي يعرفها أمثال والدي، والتي لا يعرفونها.

لا أعرف لماذا لم ترقْ لي رواية والدي، وكأنه يتحدَّث عن قَدَر كان مُقدَّراً؛ إنجليز يأتون ويحتلُّون، ويقمعون، ويُسلِّمون البلاد، ولكنْ، أين أصحاب البلاد؟

– أهلنا فعلوا ما تمكَّنوا من فعله، ولكن العالم، كلَّ العالم، كان ضدَّنا.

- لماذا يمكن للعالم أن يكون ضدَّنا؟

– هذا سؤال صعب، ولكنْ، إليكَ ما حدث، فالإنجليز من جانب، وأميركا والروس اللذان لم يطيقا بعضهما بعضاً توحَّدا في دعم اليهود، لإقامة دولتهم، هذه حالنا، أيُّها الصغير، طارح الأسئلة الكبيرة ..!

عندما وصلنا حَلْحُوْل، قال والدي بأنه سيحكي لي حكاية القطِّ الذي ناوش السماء، الذي خرج من هذه القرية الخضراء التي نمرُّ على الشارع الذي يخترقها، وتحيط به من الجانبَيْن كروم العنب، وفيها حلَّ سيِّدنا يونس حولاً كاملاً، ومسجده على التلَّة، على أعلى مرتفع في جبال القُدْس والخليل، وعندما تهطل الأمطار على القُدْس تستقبل حَلْحُوْل الندف البيضاء التي تُحوِّلها إلى بلدة بيضاء، تُخفي لونها الأخضر، وتجعل الناس من مناطق مختلفة يأتون إليها، وقد اشتاقوا لرؤية الثلج الذي تأخَّر عندهم، ليصافحوه في حَلْحُوْل.

وفي موسم الثلوج، يأتي أهلنا من بئر السَّبْع وصحراء النَّقَب، الذين لم يروا الثلوج ما بين النكبة والنكسة إلى تلال حَلْحُوْل، ليسفح الهواء وجوههم، وهم على تلال الأميرة البيضاء، كما يُسمُّون حَلْحُوْل. ربمَّا أكثر ما افتقدوه، بعد أرضهم التي سُلِبت منهم، ومعظم ناسهم الذين شرَّدتْهم النكبة، هو الثلج، الذي تكمن فيه برودة، لا تقلُّ لسعاً عن شمسهم الصحراويَّة الحارقة.

قال والدي: «اسمعْ، يا كافل، في يوم من أيَّام الثورة الكبرى، ثورة الفلَّاحين ضدَّ الإنجليز، كان قضاة الإمبراطوريَّة البريطانيَّة التي ستغيب عنها الشمس غير مهتمِّين بالشمس التي ستغيب، وإنما بتنفيذ وعد بَلْفُوْر. ألم تسمع ببَلْفُوْر هذا؟ حسناً، ستسمع عنه كثيراً، وطول حياتكَ، ولم يُقلق القضاة العسكريُّون أنهم على وشك اتِّخاذ قرار بقبض روح فلسطينيٍّ، وكأنهم جاؤوا من خلف البحار، فقط، ليفعلوا ما يفعله عزرائيل من مكانه الخفي، ودون مشقَّة قَطْع البحار أو تسلُّق الجبال.

قرَّر القضاة أن المواطن حسين أحمد القطّ، الذي قد تكون والدته، إذا ما زالت على قيد الحياة، مستكينة في واحدٍ من المنازل قريباً منَّا الآن، يستحقُّ الموت، والسبب اتِّهامه بإطلاق النار على البوليس وحيازة ستِّ رصاصات، ولم ينتظر قائد السجن المركزي في القُدْس وقتاً طويلاً ليُنفِّذ الحكم، ففي اليوم التالي، أُعدم القطُّ. لطالما قال لنا أهلنا في وصف فظاعة الاحتلال البريطاني، بأن البريطانيِّيْن كانوا يعدمون الفلسطيني على رصاصة يجدونها لديه حتَّى لو كانت فارغة، ومن عناية السماء أن عمِّي لم يكن من الذين أُعدموا، اكتفوا بسجنه فقط، وعاش ممتنَّاً لله على وهبه حياة ثانية، ولطالما تأثَّرت بحكاياته عن الثورة، ومغامراته مع والدي في مناطحة المخرز الإنجليزيِّ».

سألتُ والدي إذا كان لديه معلومات أكثر عن القطِّ، فأجاب بأن ما يعرفه هو ما سمعه من والده، بأن القطَّ كان فلَّاحاً بسيطاً يعمل في أرضه، وعندما رأى طائرة تحوم في الأجواء، فرفع المِقَصَّ الذي يستخدمه لتقليم الأشجار

مازحاً ضاحكاً مع الطائرة، ولعلَّه لم يرَ طائرةً في حياته؛ ولكنَّ الإمبراطوريَّات التي لم تغب عنها أو التي ستغيب عنها الشمس لا تحبُّ المزاح، فاعتقلت القطَّ الذي ناوش السماء، فرحاً بصوت الطائرة، وكان عليه المرور في نفق العدالة البريطانيَّة الضيِّق والمظلم والخانق، حتَّى حبل المِشْنَقَة».

ولكنْ، ليس كلُّ مَنْ حكى والدي عنهم كانوا ببراءة القطِّ؛ حدَّثني والدي عن أبي قاسم الذي انضمَّ إلى الشيخ القسَّام، في أحراش يَعْبَد، معلنيها ثورة على الإنجليز، ولسببٍ ما خرج من الأحراش حاملاً بندقيته، فصادفتْهُ دوريَّة إنجليزيَّة، فعلم أنه عليه الآن اختبار ما تعلَّمه من القسَّام، ففتح النار على الجنود، ولكنَّ الغلبة لا تكون دائماً مع الحقِّ والإيمان، ولكنْ، مع الكثرة.

«ألَا تعرف القسَّام؟ حسناً ستعرفه لاحقاً، وتعلم عنه الكثير».

استفزَّتْني كثيراً «لاحقاً» هذه، ولم يكن بيدي أيَّة حيلة، لأعرف المزيد من والدي، الذي أراد تدليلي، فيُقلِّل من ثِقَل حكاياته عليَّ، وما إن وصلنا بيت أُمر على شارع القُدْس- الخليل، حتَّى طلب منِّي النزول، وأمسك يدي، وقطعنا الشارع، ودلفنا إلى دكَّان، وقال لي: اخترْ ما شئتَ، أنتَ اليوم الأمير ..!

ولكنني كنتُ ما أزال أفكِّر بأبي قاسم وبذلك القطِّ، ولم أتخيَّل كيف سار إلى حبل المِشْنَقَة، وكيف تصرَّف وهو يعرف بأنه سيغادر هذه الدنيا معلَّقاً بحبلٍ غليظ، فقط لأنه مزح مع مَنْ لا يجب أن يُمزح معهم، وحاولتُ تخيُّل كيف فكَّر أبو قاسم عندما وجد نفسه على غير موعد، مع مَنْ أدرك، إن لم يفتح النار، فإنه سيكون قتيلهم؛ سيموت إن فتح النار أو إن لم يحرِّك بندقيته، فقرَّر في جزءٍ من ثانية مُحيِّرة ما عليه أن يفعل.

أستغرب الآن تفكيري في مثل تلك الأمور آنذاك، وأحياناً أتساءل عن هُوِيَّة الذي أفسد طفولتي، هل هو الاحتلال بثِقله الطاغي على مناحي الحياة في القُدْس أم والدي بحكاياته؟

التاسع

عندما اقتربنا من مخيَّم الدّهِيْشِة، طلب منِّي والدي الانتباه، إلى دارِ حجريَّة، قائلاً بأن اسمها دار اليهود، لأن يهوداً قُتلوا فيها، عام النكبة، وإن الذين قَتَلوهم هم رجالنا.

قال لي: «حَاوِلْ أن تتخيَّل هذا الشارع، بدون المخيَّم الذي لم يكن موجوداً، وجاء إليه اللاجئون، من قرى القُدْس والخليل، والهضاب الوسطى، بعد أن شُرِّدوا ونُكبوا، أريد أن تتصوَّر المعركة التي خاضها رجالنا، على هذا الشارع، ولمدَّة يومَيْن، وببسالة، هل تستطيع أن تُشكِّل المشهد كما كان في آذار 1948؟».

لم أنجح فيما طلبه والدي منِّي، ولكنني أغمضتُ عينَيَّ، وقلتُ له كاذباً بأنني أعود في الزمن إلى ذلك الآذار، وأرى نفسي أقف بين الصخور القريبة من دار اليهود لأرى وأراقب.

فرح والدي بكذبي، ولعلَّه كان على دراية به، وقال: «انظر إلى شارع القُدْس - الخليل الذي أصبحتَ تعرفه جيِّداً، وأنا أقود ببطءٍ، واستمعْ، وتخيَّلْ، وحَلِّقْ، وامتلئْ فخراً، وبأساً».

أصبحتُ مستعدَّاً لما سيرويه والدي، ومتحمِّساً لسماعه، وتركتُ أُذُنيَّ باتِّجاهه، وعيناي تجوبان الشارع وما حوله، على يمين المخيَّم وعلى الشمال، جبل تنهض منه الصخور، وكأنها تسمع ما يقوله والدي:

«في فجر ذلك اليوم، كان على المزارع خليل أن يبدأ رحلته اليوميَّة

من قريته إرْطَاس إلى مدينة بَيْت لَحْم لتوزيع حليب مزرعته على زبائنه من سكَّان المدينة، وبعد أن أنهى توزيع الحليب، توجَّه إلى دير الطَّنْطُوْر، قُبالة دير مار إلياس، ليجمع الحشائش للأبقار، فالربيع كان قد أعلن عن قدومه بزرعٍ أخضر عارمٍ في أراضي دير الطَّنْطُوْر الواسعة.

شاهد خليل سيَّارةً مصفَّحة، في مقدِّمتها جرَّافة، عرضها ثلاثة أمتار، وهي ما يُسمُّونها كاسحة الألغام، تسير على الشارع الرئيس المحاذي لسور الدير، وخلفها تسير قافلة من السيَّارات والحافلات، جميعها مصفَّحة ومغلقة، ولا يظهر منها إلَّا ثقوب صغيرة، تطلُّ منها مواسير البنادق والرشَّاشات وفتحات أكبر، يبدو أنها لأعين الجنود، وعندما رأى القافلة، حدَّثه قلبه بأنها لليهود، فقال لمزارع سرياني يقف بجانبه: إنها لليهود، فضحك وقال: إنهم الجيش العراقي، جاؤوا للمساهمة في إنقاذ فلسطين.

احتمى خليل، بجدار الدير، وسار بمحاذاته مطأطِئاً كي لا يراه السائر في الشارع، حتَّى وصل باب الدير المرتفع، ومن هناك يستطيع رؤية القافلة، دون أن يراه أحد، ورأى ثلاث نساء يجمعنَ الحشائش على جانب الشارع المقابل، عند الطريق المؤدِّية إلى صُوْر بَاهِر، ومعهنَّ كلب وحمار، ورأى كيف أن جنود القافلة أطلقوا النار على النساء، فاستُشهدت امرأة، وهربت الاثنتان، وقتلوا أيضاً الحمار والكلب، فتأكَّد أن القافلة لإحدى المنظَّمات اليهوديَّة، وانتشر الخبر في المنطقة، وواصلت القافلة سيرها إلى مستوطنات كْفَارْ عَتصِيُوْن لاستبدال جنود الهَجَناه هناك بجنود آخرين، وإمداد كْفَارْ عَتصِيُوْن بالسلاح والمؤونة، كما عرف الجميع فيما بعد.

وعاد خليل أدراجه من دير الطَّنْطُوْر إلى بَيْت لَحْم، ووجد أن خلقاً كثيراً من قرى المنطقة تجمَّعوا في الشارع الرئيس القُدْس- الخليل، وبدؤوا بوضع المتاريس الحجريَّة انتظاراً لعودة القافلة، وكان من بين الذين هبُّوا شقيقه

محمود، وكان عُمُره آنذاك ثلاثين عاماً، ويعمل حجَّاراً، حيث ترك عمله، وانضمَّ للجمع في انتظار عودة القافلة.

وفي قريتنا وصل المنادي، ليدعوَ الشباب للفزيع، وتلبية نداء الواجب، ليكونوا في انتظار القافلة، لدى عودتها، وبدأت تتكشَّف معلومات أكثر عن القافلة، التي تضمُّ أكثر من مائتَيْن وخمسين رجلاً من الهَجَناه، وأربعٍ وخمسين سيَّارة، ويحرسها أربع من المصفَّحات، وكانت هذه القافلة محمَّلة بمؤن إلى مستعمرة كْفَارْ عَتِصْيُوْن، والمستعمرات المجاورة لها.

وصل والدي، حاملاً بندقيته، مع ثلَّة من شباب القرية، وقرى الواديَّة المجاورة، وانضمُّوا للآخرين من رجال الجهاد المقدَّس، الذين اختبروا مهاراتهم، وعزمهم على المقاومة، فوضعوا الحواجز، في سبعة عشر موضعاً على طول هذا الشارع، الذي سرنا عليه ونسير عليه الآن عائدين إلى قريتنا، ووضعوا عصبة من المناضلين عند وادي البيار، ليقطعوا أيَّة نجدات، عندما تؤوب القافلة وتقع في كمين رجالنا، يمكن أن تصلها من المستوطنات القريبة.

تجاوز عدد رجالنا المئتَيْن، يقودهم كامل بك، نائب القائد العامِّ للجهاد المقدَّس، أمَّا القائد عبد القادر الحسيني، فكان يومها في دمشق، يحاول الحصول على مزيدٍ من السلاح، وهبَّت بلديَّة بَيْت لَحْم، وزوَّدت المناضلين الذين اشتركوا في المعركة بالزاد والعتاد، وكذلك فعلت اللجنة القوميَّة في القُدْس.

وتسلَّح رجالنا الذين كانوا من مختلف المُدُن والقرى ومن بينها الخليل، وبَيْت فَجَّار، وعرب التعامرة، وبَيْت صَفَافَا، وعرب السواحرة، وحَلْحُوْل، والعُبَيْدِيَّة، وسِلْوَان، وأبو دِيْس، وغيرها، بالبنادق، والقنابل اليدويَّة والقنابل الحارقة، ومَنْ لم يكن لديه أيٌّ من هذه الأسلحة امتشق الأسلحة البيضاء.

وبعد أن أفرغت القافلة حمولتها في كْفَارْ عَتصْيُوْن، استبدلت بجنود الهَجَناه آخرين، وبدأت العودة إلى القُدْس، فبدأ الثوَّار بمهاجمتها بأسلحتهم الخفيفة، وأخذ جنود القافلة بالردِّ عليهم، وواصلت القافلة سيرها بمساعدة كاسحة الألغام، حتَّى استطاع الثوَّار نسف المصفَّحة الأماميَّة، فتعطلَّت القافلة عن السير، وانحصرت في منطقة الكيلو 13على طريق الخليل - القُدْس.

كانت المصفَّحة المعطَّلة في مدخل الدّهِيْشة الشرقيّ عند دار صابات، التي يمكن أن تراها الآن، وكأنها دار وحيدة وسط الصخور، ومؤخِّرة القافلة عند المدخل الغربيِّ، في الموقع المعروف بدار الحِذْوَة، التي ستُعرَف بدار اليهود التي أريتُكَ إيَّاها، والمسافة بين الدارَيْن تقريباً كيلومتر، وعند تعطُّل القافلة لجأ مائة من جنود القافلة اليهود، واستحكموا في دار الحِذْوَة.

وعليكَ أن تعلم أهمِّيَّة نسف المصفَّحة الأماميَّة، فبنسفها توقَّفت القافلة، ولم تستطع السير، ولم يكن يمكن نسفها إلَّا بظهور بَرزق من شباب بَيْت لَحْم النشامى الذي خاطر بنفسه عندما رأى القافلة تقتحم الحواجز، فخرج من مكمنه، وهو يرسم شارة الصليب ثلاثاً، وانقضَّ كنَسرٍ على المصفَّحة الأولى، فَأَلْقَمَ أسفلها قنبلتَي ملز، ووضع عليها البنزين، وفي لحظة رمى عود الكبريت، وانسلَّ في لحظة تالية، لتشتعل المصفَّحة، ويُقتل خمسة عشر كانوا داخلها، واشتعلت المتفجِّرات داخلها، ودمَّرت المصفَّحات التي خلفها.

ولأنها كانت مليئة بالمتفجِّرات، فقد اشتعلت المتفجِّرات التي فيها، ودمَّرت ما حولها من مصفَّحات ورجال.

ولكن آخرين يعطون الفضل في نسفها ليوسف من بَيْت سَاحُور، الذي تزنَّر بالمتفجِّرات، وقذف بنفسه تحت المصفَّحة، ليستشهد، ويفجِّرها، ودون أن نعلم إذا صلَّب ثلاثاً أم لا؟!

كان مع المناضلين الذين كمنوا لمقدِّمة القافلة عند دار صابات الحجَّار محمود، ولم يكن مدرَّباً على السلاح، إنما تلقَّى تدريباً كشفيَّاً بفرقة الكشَّافة: الملك الصالح، في قرية إرْطَاس الذي أنشأها المفتي الحاجّ أمين الحسيني، وزحف الحجَّار نحو القافلة بعد تدمير المصفَّحة، وكان إطلاق النار مستمرّاً من الجانبَيْن، وعندما كان على الجدار الحجري الفاصل بين المجاهدين والشارع العامّ، حيث القافلة، أُصيب في منطقة الحوض والساق، فما كان من المجاهدين إلَّا أن هدموا الجدار حتَّى يتمكَّنوا من سحبه، وأرسلوه إلى المستشفى الفرنسي في بَيْت لَحْم، حيث استُشهد بعد أربعة وخمسين يوماً.

تقدَّم النهار والمعركة مستمرَّة بين الطرفَيْن، وتحصَّن جنود الهَجَناه في دار الحِذْوَة، ووضعوا بعض الشاحنات أمامها للتغطية على تحصُّنهم في الدار، وعندما حلَّ الظلام، كانت النيران التي تلتهم السيَّارات تُنير المنطقة كلَّها، والقافلة أوشكت على الهلاك، ولم يبقَ لدى اليهود زاد ولا ماء.

وشدَّد الثوَّار مع دخول الظلام من هجماتهم، وتمكَّنوا من الاستيلاء على ثلاث مصفَّحات وثماني حافلات وثلاثين شاحنة، بالإضافة إلى سبعين بندقيَّة وقنابل ومسدَّسات، وفي أثناء محاولة الثوَّار الوصول إلى البيت الذي تحصَّن فيه اليهود، استمرَّ الجنود في إلقاء القنابل المضيئة وإطلاق نيران رشَّاشاتهم.

وواصل الثوَّار حصارهم للدار منتشين بتفوُّقهم، ولم يتوقَّعوا، أنه في صبيحة اليوم التالي سيحاول العدوُّ نجدة المحاصرين، ولكنَّ هذا ما حدث عندما حلَّقت أربع طائرات يهوديَّة، وألقت المؤن والذخائر لجنودها المحاصرين، ولكنَّها أخطأت الهدف، فوصل الزاد إلى الثوَّار الذين أيضاً كانوا جائعين، وغنموا الذخائر، وهلَّلوا، عندما تمكَّنوا من إسقاط طائرة.

استمدَّ اليهود المحاصرون من تحليق الطائرة قوَّة معنويَّة، حتَّى لو لم تصلهم المؤن أو الذخائر، فأطلقوا النار بكثافة، ولكن نيران رجالنا غلبت نيرانهم، واستنجدت الوكالة اليهوديَّة بالإنجليز، وجاءت القوَّات الإنجليزيَّة، لتُنقذ المحاصرين، ولكن آلياتهم حوصرت، بعد تقدُّم الثوَّار المرابطين عند مار إلياس.

ويبدو أن فشل الجنود الإنجليز في التقدُّم لمساعدة جنود الهَجَناه المحاصرين، جعل جيشهم يرسل طائرات حربيَّة بدأت في قصف الثوَّار والمَدَنيِّيْن، ولكنَّ القنابل الإنجليزيَّة كانت تنفجر في الجوِّ قبل وصولها إلى الأرض، واستمرَّت المعركة حتَّى المساء عندما وافق الثوَّار على تسليم الجنود في البيت المحاصر، ولكنْ، بشروط.

بعد فشلهم في فكِّ الحصار، بالقوَّة، لجأ البريطانيُّون إلى المفاوضات التي شارك فيها الأُستاذ عارف، الذي بعث إليه حاكم اللواء المستر بولاق، رسالة حملها إليه رسوله المستر براون، طالباً منه الاتِّصال بعبد القادر، ليرجوه إيقاف القتال، ولم يجد عبد القادر الغائب في دمشق، فاتَّصل بنائبه كامل في الميدان، الذي اشترط لأجل إيقاف القتال أن يُسلِّم اليهود للعرب كلَّ ما لديهم من أسلحة وعتاد، واشترطت الهيئة العربيَّة العليا أيضاً مثل هذا الشرط، وكانت المفاوضات دائرة بينها وبين رجال الأمن.

ووافقت الهَجَناه على التسليم، وأخبروا رجالنا بموافقتهم بواسطة حاكم لواء القُدْس، الذي كان يراقب تطوُّر المعركة من بَيْت لَحْم.

ورفع المجاهدون الحصار الذي استمرَّ ستَّاً وثلاثين ساعة، وسلَّم المجاهدون جنود الهَجَناه للبريطانيِّيْن، وتسلَّموا ثلاث مصفَّحات وثماني حافلات وثلاثين سيَّارة للشحن وثلاثين بندقيَّة من طراز ستن، وأربعين من طراز برن، ومائة من البنادق الاعتياديَّة بين إنجليزيَّة وألمانيَّة، وعدداً من

القنابل والمسدَّسات، وطنَّاً ونصف الطن من ملح البارود والمتفجِّرات، ومقادير كبيرة من العتاد والذخائر.

توقَّف والدي عن السرد، عندما وصلنا مفرق دَير إلياس، فأوقف المَرْكَبَة، ونزل وأنزلني منها، ووقفتُ بجانبه، ننظر إلى الطريق التي تمرُّ بمحاذاة الدير، ودار القصَّاص، إلى صور باهر، وقال:

عندما تتوقَّف النيران، وتنتهي المفاوضات، يتفقَّد الناس قتلاهم، وتكثر الشائعات حول عدد القتلى منَّا ومنهم، ولكنَّ هذا الأمر لم يعد مهمَّاً بالنسبة إلى والدي، ورفاقه، عندما عرفوا أن رفيقهم، إبراهيم المسعف الذي تلقَّى دورة في الإسعافات الأوَّليَّة، وانضمَّ للمعركة، ليُسعِف الجرحى من الثوَّار استُشهد ... ارتقى بآخر رصاصة أطلقها واحد من الجنود المحاصرين في دار اليهود، فحملوه، ومشوا فيه سيراً على الأقدام، الطريق التي سرناها في المَرْكَبَة، وواصلوا إلى قريتنا من هذا المفترق، وهم يغالبون الدموع، ويصدحون بالهتافات.

دُفن إبراهيم في مقبرتنا بجوار سور القُدْس، وبعد نكستنا الأخيرة، وارتقاء مزيد من الشهداء، تضاءل ذِكْر إبراهيم في الذاكرة، بينما تحوَّلت دار اليهود إلى محجٍّ لليهود المنتصرين، يقدِّمون شرحاً لأبنائهم عن قصَّة تلك المعركة».

وها هو والدي يقدِّم شرحه لي عنها أيضاً. نصُّ والدي في مقابل نصِّهم، بلادنا بلاد نصوص، مثلما القُدْس أكبر مدينة نصِّيَّة في الدنيا، أقول هذا وأنا لم أعرف دنيا بعد، ولكنْ، كان عليَّ، أن أبدأ طريق المعرفة، والحفر، مبكِّراً، مبكِّراً جدَّاً.

العاشر

وصلنا القرية، وقد حلَّ الظلام، وانتابتْني مشاعر من الحزن، لا أعرف كيف غرتْني، ربمَّا بفعل صورة القطِّ المتخيَّلة التي لم تفارقني، وكيف وجد نفسه، وحيداً، مسلوباً، مُساقاً إلى حبل المِشْنَقَة المنصوب في مكانٍ ما في القُدْس، بينما أخذت صورة أبي قاسم تغيب عنِّي، وكذلك المُسعِف إبراهيم المحمول على الأكتاف، في رحلة عودته مودِّعاً الحياة، إلى قريتنا، وكأنني أريد تناسيها، كنتُ فعلاً أريد أن أمحوَ، ولو مؤقَّتاً، ما خطَّه والدي في مُخِّي، وبدا أنه لن يُمحَى إلى الأبد، ويبدو أن والدي شعر بما أشعر به، وانعكس ذلك لديه في مشهد القرية الساكنة، فقال:

- إنها مثل مقبرة ..!

بدت بعض منازل القرية، في سفح جبل الزيتون، وقد خرجت منها أضواء خافتة، كأنها رؤوس أشباح، تستعدُّ للخروج في جولاتها الليليَّة، بعد أن حلَّ الظلام، ونام الأحياء والأموات، وظهر في مقبرة اليهود أعلاها بعض الأشباح بثيابٍ سوداء، يحملون مصابيح، ولعلَّهم كانوا يواصلون صلواتهم، وهزَّ رؤوسهم، ومنذ الاحتلال أصبح وجودهم ملحوظاً ومكثَّفاً، وكأنهم لم يحتلُّوا ما تبقَّى من القُدْس إلَّا من أجل هذه القبور.

وفي الجهة المقابلة، ظهرت أضواء بيت سيِّدنا إبراهيم، دير السريان الكاثوليك، الذي يعلو قريتنا، ويطلُّ على المدينة المسوَّرة، ويعد التسلُّل إلى حدائقه، عبر ثغرات في السياج إحدى المتع والشيطانيَّات التي أمارسها مع أترابي، ونصل إلى مدخل الدير، ليس فقط لنشاغب الخوري المناوب، ولكنْ، أيضاً بالنسبة إليَّ، لأضع يدي على النتوء في الصخرة الصغيرة أمام

المدخل، وأتلمَّس صورة المرأة النافرة وكأنها جنين للصخرة مع ابنها الذي ينفر من بطنها، لكنه لا يظهر بريئاً، وإنما يتَّخذ جلسة مُعلِّم صغير، يؤشِّر بيده اليمنى وكأنه يضع نقطة بداية تبشير لما يراه، ولا نراه.

وعندما يراني الخوري يقول محذِّراً بصوتٍ أبويٍّ: «لا تعبثْ، إنها أُمُّ الإله، وابنها طفل المغارة»، ولم يكن باستطاعتي أن أفهم مثل هذه الألغاز، عن الإله وأُمِّه، بينما إلهنا الذي ندرس عنه في المدرسة، لم يلد ولم يُولَد، ولكنَّ ذلك لم يكن مهمَّاً، وأنا أشعر بشعاعٍ سرِّي يربطني بالصخرة، وبالأُمِّ، التي بدت لي محمَّلة بثقلٍ فوق طاقتها، يجعلني أحسد أُمِّي على حياتها الرتيبة؛ غسل، وطبخ، وزعيق عند اللزوم، وضحك، لا تجعله يأخذ مداه، خشية لما سيأتي بعده من حزن متوقَّع، ففي قريتنا لا يأتي الضحك، خصوصاً إذا جاء وافراً، بدون حزن يليه.

وعندما وصلنا العَيْن، وأوقف الوالد المَرْكَبَة، لأنها لا تستطيع أن تتقدَّم أكثر في شوارع القرية المتربة والضيِّقة، ألقيتُ نظرة على منزل السَّبْع، كان مُطفَأً.

قال والدي:

- لا شكَّ أن عقدة السَّبْع النفسيَّة قد حُلَّت، يحتاج بعضنا إلى قوى خارجيَّة أخرى، ليتغلَّب على قواه الداخليَّة ..!

لم يهتمّ والدي إذا كان الولد ابن العاشرة الذي كنتُهُ قد فهم ما قاله أم لا، ولكنه اعتاد أن يتعامل معي وكأنني رجلٌ مثله، أو صديقه، وعندما كنتُ أستفسر منه عن قول أو كلام يتفوَّه به يقول لي:

- ستكبر وتفهم، وإن لم تعلِّمكَ المدرسة، فستعلِّمكَ الحياة، وتَدْعَكَكَ، حتَّى تكاد تصبح مثل خِرْقَة مجعّدة، ولكنكَ ستنهض، ويقوى عودكَ، وتصير حجر صَوَّان، شكَّله الزمان، ونَحَتَتْهُ الرياح وسوَّت مَلْمَسَهُ المياه.

عندما دخلنا إلى المنزل، أمسكتُ بالقطَّة وَزَّة، التي كانت تنتظرني على عتبة المنزل، وحضنتُها، ثمَّ أسرعتُ إلى حضن أُمِّي، التي كانت تنتظرنا، وتمتمتْ بعبارات لوم لوالدي، وهي تضغط جسدي نحوها، وتشمُّه، لأخذي معه كلّ تلك المسافة، التي تُتعِب طفلاً صغيراً مثلي، وردَّ والدي كما يردُّ دائماً:

- أريده أن يكبر بسرعة، ويصبح رجلاً في مرحلةٍ مبكِّرة ..!

ثمَّ اتَّجه نحوي، وسحبني من حضن أُمِّي، وحاول حملي ولكنه مثَّل أنه لا يستطيع، وقال لأُمِّي وهو يضحك:

– أرأيتِ؟ لقد كبر، لم أعد أستطع حمله، وغداً سيحملكِ بين يدَيْه، ويلفُّ بكِ القُدْس ووادي جهنَّم، وستكونين محظوظة، إن لم يسقطكِ في الوادي ..!

فردَّت وهي تُحرِّك حاجبَيْها:

- جهنَّم، وسقوط؟ لم تجد غير هذه الكلمات تُوجِّهها إلى زوجتكَ التي تنتظركَ، فليسعد النطق إن قصَّر الحال، يا مَن غاب وجاب ..!

تجاهل والدي ما قالته أُمِّي، ربمَّا حَرجاً، بأنه وقد قطع مسافة طويلة نسبيَّاً، وعاد من مشوار، لم يحمل معه ما اعتاد أن يفعله، ككيس فواكه، أو علبة كنافة، أو بِطِّيخة، ونظر إليَّ، طالباً أن أذهب إلى أُمِّي، وأحاول حملها، ربمَّا ليُغيِّر المزاج المُخيِّم، ويطرده، وأمام إلحاحه، وضعت وَزَّة على الأرض، وركضتُ نحوها، وطوَّقتُ خصرها، محاولاً حملها، دون جدوى، وجميعنا نضحك، بما فيها وَزَّة المشدودة لما أفعله، رغم دهشتها لوضعها على الأرض بشكل مفاجئ.

تناولنا العشاء الذي أعدَّتْهُ والدتي، على الطَّبْليَّة الخشبيَّة التي تحلَّقنا حولها جلوساً على الأرض، وطلبت منِّي أُمِّي أن أُبسمل وأحمد الله على

نعمته، مؤكِّدة على قداسة الخبز، وأنه إذا لم يُسمِّ الواحد منَّا باسم الله الواحد الأحد، القادر الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، فإنه لن يشبع، وستأكل الشياطين، على الأقلِّ، نصف طعامه دون أن يشعر، بينما والدي الذي انهمك في الأكل، لم يُبدِ كعادته اهتماماً بما تقوله أُمِّي عن الدِّيْن، فلم يكن يصلِّي أو يصوم رمضان، مثل معظم أترابه في ذلك الوقت الذين أعرفهم، وبدا أن نساء القرية هنَّ مَن اضطلعنَ بالوظيفة الدينيَّة، وبنقل العادات والتقاليد التي سأعرف لاحقاً أنها موغلة في القِدَم، إلى الأبناء.

سألتُ أُمِّي: ماذا عن وَزَّة؟ وكيف ستتلو البسملة؟ فإذا كنتُ سأدخل الجنَّة، وهذا ما أطمح إليه، فإنني أريد أن تكون وَزَّة معي، فأجابت: كلُّ مَنْ يدبُّ على هذه الأرض، له طريقته في شكر الله، وإظهار امتنانه، وعليَّ أن أعلم أن القطَّة عندما تُهَمْهِم وهي في حضني، فإنها في الواقع تُسبِّح باسم لله العظيم، الذي خلقها ووفَّر لها صديقاً مثلي، يضطلع بتدبير طعامها، والعناية بها، في حين أن الكثير من أمثالها يحسدنها على صداقتي، ويتمنَّينَ واحداً مثلي شاطراً، ويسمع كلام والدَيْه، خصوصاً أُمَّه التي تحبُّه بقَدْر الدنيا كُلِّها.

تمدَّدتُ بين أُمِّي ووالدي، حاضناً وَزَّة، وغفوْنا جميعاً حتَّى الصباح، وكان على أُمِّي أن تستيقظ وتُعدُّ الفطور وتُوقِظنا، بينما كان على والدي، وعليَّ أنا الذي أتلذَّذ بمتع العُطْلَة الصيفيَّة، وأَستعدُّ لدخول العام الدراسي التالي بعد شهرَيْن، الاستعداد ليومٍ طويل في العمل، حيث ننتظر في موقف المَرْكَبَات في المُصْرَارَة، التي تحمل أغراض الناس، وتُوصلها إلى منازلهم، حتَّى يطلب مواطن أن يستأجر خدماتنا، كنتُ سعيداً جدَّاً بصحبة أبي التي تُزوِّدني دائماً بحكايات، أحكيها لأترابي، وأهمس بها لوَزَّة التي تركتُها في عهدة أُمِّي.

الحادي عشر

عندما وصلنا إلى ساحة العَيْن، لم تظهر لنا مَركَبَة والدي؛ الشاحنة الصغيرة، فكانت محاطة بالناس وبآخرين جلسوا على حوافّ حجريَّة قديمة متناثرة من شواهد قِدَم قريتنا، وبدا منظرهم كأن حدثاً جللاً في تاريخ قريتنا قد حدث، أو على وشك الحدوث.

تقدَّم والدي بسرعةٍ، وأنا في ذيله، لنرى السَّبْع في كامل أناقته واقفاً وسط الحضور يتحدَّث، ويُنكِّت، بينما تتحرَّك جميع قسمات وجهه وثنياته، وكأن محرِّك دمى غير مَرئيٍّ يتلاعب بها.

سمعتُ والدي يتمتم بأن السَّبْع سكران، وتقدَّم منه محاولاً احتوائه، وإعادته إلى منزله، ولكنَّ السَّبْع يفلت منه، وهو يقول: «اتركني، يا شامان، أريد أن أوضح لهؤلاء البجم..!».

لم يهتمّ والدي كثيراً بالوصف الجديد الذي أسبغه عليه السَّبْع، والذي لم يخلُ من دلالات واخزة، أضفاها السَّبْع، الذي أراد على الأرجح أن ينتقص من مكانة والدي، كشخصٍ عقلانيٍّ، انتقل للإيمان بقدرة السِّحر على الأقلِّ في علاج حالة السَّبْع، فأحضر الشيخ نعيم، وربَّما حمَّله التسبُّب بكلِّ جلبة الأمس، حيث تجمَّع الناس، ليشهدوا بأنفسهم، على فضيحة السَّبْع المجلجلة.

ولم يكن للحاضرين أن يغضبوا من وصف السَّبْع المزري لهم، فالسَّبْع وإن كان قصد التقليل من ثقافة المستمعين له، باعتبارهم وَرَثَة قرون من

ثقافة فلَّاحيَّة راكدة، رغم مجاورتهم لمدينة مثل القُدْس، ظلَّ لها طابعها الخاصُّ المحافظ محاطة بسورها، إلَّا أنه لم يقصد بمصطلح البَجَم، المعنى الحقيقيَّ المتعارف عليه في قريتنا، الذي يقترب من مصطلح النَّوَر الشائن بالنسبة إلى أهلنا، وإنما ما يشبهه؛ خليط بين الجِدِّيَّة والمزاح، وبين القصد والإيحاء.

أصرَّ السَّبْع على الحديث:

«ما دمتُم تفرَّجتُم علينا بالأمس، يا أبناء هذه القرية الظالمة، وتابعتُم قضيَّة قضيبي النائم العظمى، فعليكم أن تستمعوا لباقي الحكاية، شاكرين قُدْرة قضيبي على تجميعكم، حتَّى وإن كان غافياً مؤقَّتاً. فَمَنْ غيره له هذه القُدرة على حشد اهتمامكم؟ حتَّى في الحرب والعدوُّ يطرق الأبواب كنتُم متفرِّقين، ومَنْ واجهوه منكم، فعلوا ذلك فرادى بدون تنظيم. في صحَّة قضيبي الشامخ، الذي لا يُهزَم، وإذا هُزِم في جولةٍ، فإن ذلك يكون عن قصد؛ تراجع من أجل هجوم، أكبر، وأقدر، ألم تسمعوا بكبوات الخيول؟ قد تموتون كلّكم، ولكن قضيبي لا يموت، تَجِفُّ العَيْن، وتموت البِركَة، وينهار النفق، ولكنه يظلُّ صامداً، منافحاً عن نفسه، إن لم يبقَ منكم أحد ينافح عنه. عليكم أن تعيشوا وتموتوا من أجله، لا حياة لكم بدون الرأس، ولكنكم لا تعرفون قيمته ومقداره، يا أهل هذه القرية الظالمة، التي لم تستطع ولا مرَّة في تاريخها الدفاع عن نفسها، وأن تُحقِّق نصراً، استقبلت الغزاة بعد أن يقتل كلُّ غازٍ منهم نصف السكَّان، وتواصل مسيرها منكوسة الرأس، منفوشة الشَّعْر، ولا يندر أن يخرج منها شاعر يتغنَّى بأمجاد الغزاة، يا أهل القرية الظالمة، يا أبناء الوديان، والكهوف، والمغارات، حتَّى فرعون طنطرتوه، يا أبناء الرِّياح المتحرِّكة، التي تكوي العظام، ولا تُطهِّر الأرض، ولا تُظهِر النفوس على حقيقتها، ويا أبناء الأنبياء الوَهْمِيِّيْن، الذي لم يستطع أيٌّ منهم الصمود طويلاً في هذه البُقعة، ولم تأخذوا منهم سوى شذرات تعاليم شكليَّة، ويا ...».

لم يكن والدي فقط مَنْ سيحاول إسكات السَّبْع، وهم لا يعلمون أيَّ كلام سيقوله سكران، وفيه فضح للأعراض، وكشف لأسرار بيوتٍ، لا يجب أن تُكشَف، وخصوصيَّات تنشر، كالملابس على حبال الغسيل، تُطوِّحها النسائم التي تعبر وادي حُلْوَة، وتتحوَّل في أحيانٍ ليست نادرة، إلى رياحٍ قالعة.

قال السَّبْع، وهو يشير إلى أسفل بطنه: «والله العظيم بأنه عَفيٌّ، مستعدٌّ أن أُثبتَ ذلك لأيٍّ منكم، اسألوها، عندما يكون صاحياً وتقترب منِّي ينام، وكأنها المسكينة أختي، وعندما تبتعد يصحو من جديد، لا أعرف ماذا جرى له، إن لم تصدِّقونني، اسألوها».

وأخذ صوته يرتفع وهو يتَّجه إلى منزله: «اسألوها، اسألوا العفيفة الشريفة، ابنة الأجاويد، ابنتكم، لماذا لا تسألوا أميرة؟ أنا الصاحي الذي لا أغفو، لا تريدون اقترابي، تروني من بعيد عَفيَّاً، قائلين: ربّنا يسعده ويبعده، وكأنني أصبحتُ حاملاً لوباءٍ مُعدٍ، فتستغنون عنِّي، وتنسون شيخ شبابكم، يا ناس قرية تَرْجُم أصحَّاءها، وتُقرِّب خَوَلها».

أدرك والدي، بأن عليه أن يتدخَّل الآن، وهو ما أدركه غيره، فقصد السَّبْع، وحاول ضمَّه وتثبيته، وساعده في ذلك آخرون، وعندما تحوَّل تمنُّع السَّبْع إلى هياجٍ وهو يصرخ على والدي، ويصفه بالشامان، حانت اللحظة التي عليهم فيها أن يُوقِظوه من سكرته، فتكالبوا على الجسم الرياضي الطويل، وبطحوه أرضاً، وناله عدَّة رفسات، وكُلُّ هذا كما سأعلم لاحقاً من والدي لمصلحته، لأنه ليس مثل العنف والضرب قدرةً على طرد السَّكْرة من السَّكَران، وإعادته لوعيه، وفكرته.

وبعد فترة، رفعوه عن الأرض، وتحوَّل صراخ السَّبْع الذي كان يملأ الوادي قبل قليل إلى نشيج وبكاء، وهم يجرجرونه إلى داخل المنزل.

ولدى وصولهم إلى عتبة المنزل، تصنَّع والدي لبوس الجِدِّيَّة، والحرص على المصلحة العائليَّة، وقال وهو يسدُّ الباب بجسده، بينما السَّبْع أصبح في الداخل تتلقَّفه أُمُّه، حائلاً دون الآخرين من الدخول:

- يا إخوان، شكراً لكم، قمتُم بواجبكم، كما يجب أن تقوموا به من أجل واحد منكم، ولكنْ، علينا الآن أن نتركه يرتاح، وينام، ليصحو وكأن شيئاً لم يكن.

أظهر الآخرون قبولاً، وتراجعوا على مضض، لأنهم أرادوا معرفة نهاية الحكاية، حكاية في صباح قرية لم تصحُ من صدمة الحرب، بينما أغلق الوالد الباب وهو يسحبني إلى الداخل، وبدا أنه تذكَّرني، أو أنه فوجئ بي، وكأنه لم يتذكَّر رفيقه الصغير في العمل، في لجَّة ما حدث.

الثاني عشر

قالت والدة السَّبْع بحزنٍ:

- إلى متى ستستمرُّ هذه الفضائح؟

بدت لي أُمُّ السَّبْع، بطولها الواضح، ووجهها الأسمر الدائري، ونقاط خضراء تحت شفتها السفلى، هي وشمها الذي لا يزول مشيراً إلى أصلٍ بدويٍّ بعيدٍ، وخِرقتها البيضاء، وثوبها المطرَّز بلونٍ أزرق، رمزاً لحدَادها الذي لن ينتهي على زوجٍ غادر دنيانا، وتركها، كواحدةٍ من جنِّيَّات أُنسيَّة يرفعنَ القرية بأيديهنَّ، وعندما يتحرَّكنَ، تضرب القريةَ زلزلةٌ خفيفة.

سمعتُها مرَّة، تقول بأن النقاط الثلاث تحت شفتها السفلى تُسمَّى دواوير، هي، في الواقع، ليست نقاطاً، وإنما دوائر صغيرة متقاربة، لديها قدرة لا تُردُّ لمقاومة عين الحسود، وما أكثر مثل هذه العيون في قريتنا، كما تعتقد.

أُمُّ السَّبْع واحدة من نساءٍ كثيرات في قريتنا يعشنَ بدون أزواج، نُسمِّيهنَّ الخالات أو الجدَّات أو العمَّات، جميعهنَّ خضعنَ لقوانين القرية بالزواج صغيرات من رجال أكبر سنَّاً، يغادرنَ تباعاً، ويبقينَ مع أولادهنَّ، يطرح عليهنَّ ناسنا غلالة شفيفة، هي مزيج من احترامٍ، وحزنٍ، وشجنٍ، ويتمُّ التعامل معهنَّ، كأنهنَّ أبديَّات، وسيعشنَ طويلاً، حاميات، ومَحميَّات، لكلامهنَّ وزن، وإيقاع يلامس قلوب وعقول كثيرة.

تابعت أُمُّ السَّبْع، وكأنها كانت بحاجة لوجود أبي، لتروي جزءَها من الحكاية التي استحوذت على قريتنا:

- السَّبْع، الذي خرج من المدرسة، منكوساً سنة النكسة، منهياً الثالث الثانوي الذي رابط فيه عدَّة سنوات، والطلَّاب الأصغر منه يلحقونه، وهو متشبِّث في الصفِّ لا يتزحزح، لا يقرأ، ولا يستعدُّ، قال إن العمل لدى اليهود أفضل بكثير من الاهتمام بالبساتين، ولم يسمع كلامي، وهو يسمع رفاق السوء، الذين سبقوه للعمل عندهم في القُدْس الغربيَّة، ليعودوا والليرات تخرخش في جيوبهم، وما إن حوَّش مبلغاً معي، حتَّى قلتُ له بأن الآن آن لنخطب أميرة، ونجعل خطبتها لابن خالتها رسميَّة وعلى رماح الأشهاد، ليشهدها خلق الله جميعاً، بعد أن كانت عُرفيَّة، والكلُّ يعلم بأنها له، فلم يمانع ولم يقل لي بأن لديه أيّ مانع، يا ليته رفض وتحجَّج، لكنتُ، في النهاية، صرفتُ النظر عن الزواج والخطبة، فلم أتضايق كثيراً من سهره في شوارع القُدْس حتَّى الصباح، فهو، في النهاية، مثل أترابه سعيداً بشبابه، وفي القُدْس التي خرجت من سباتها الطويل، وقمع عسكر البادية لناسها وشبابها، والذين عندما جدَّ الجِدُّ، وأصبح اليهود على مشارف المدينة، هربوا منها بثياب النساء، فرحتُ بزواجه، لعلَّه ينسيه ما حدث في الحرب، ولا يفكِّر باليهود، خشية عليه من انتقامهم.

لم يكن والدي، وهو يبحث عن فتيلة أمل، ولو كانت قصيرة، يوافق أم السَّبْع في أحكامها الكُلِّيَّة على الجنود، فمنهم مَنْ حارب، واستبسل، واستُشهد، ولكنه لم يشأ إزاحة النقاش، إلى زاوية أخرى، بعيداً عن قضيَّة السَّبْع.

طلب والدي من أُمِّ السَّبْع الجلوس على الفرشة، التي جلس عليها السَّبْع مستنداً إلى الحائط، وهو يستمع بوجهٍ شاحب، وكأنه غائب عن الوعي، بينما زوجته أميرة تقف بعيداً، تستمع، وكأنها تؤدِّي واجباً، مثل واجباتها الأخرى كزوجة، وإن ما يجري لا يتعلَّق بها.

يمكن وصف جمال أميرة بأنه جمالٌ متوسِّط، وجهها دائري، يوحي بالطمأنينة وقلَّة الذكاء والرضا، والتسليم لمقادير الأقدار، وبشرتها مضيئة، تظهر واضحة، رغم التزامها بالثوب التقليدي المطرَّز، الذي عادةً يقلِّل من وضوح وجه لابسته.

رفضت أُمُّ السَّبْع الجلوس، وواصلت الحديث عن ترمُّلها المبكِّر، وجَعْل حياتها وقفاً على تربية السَّبْع، الذي رغم جَدْعَنَتِهِ وغَيْرتِهِ والتزامِهِ بمنزله ورضا أُمِّه وبطولتِهِ في الحرب، إلَّا أن التزامه لم يكن كاملاً، فضيَّع الكثير من أمواله على مجالات الترفيه، التي حضرت مع الاحتلال الجديد.

وقالت: «لطالما صَعِدْتُ إلى القُدْس، أفتِّش عنه في باب العَمُود، وداخل البلدة القديمة، حتَّى أجده، وأجرَّه معي من باب الزبالة الذي تُسمُّونه باب المغاربة وباب سِلْوَان، نزولاً إلى قريتنا. كنتُ أخاف عليه، مع سماعنا للتفجيرات التي يُنفِّذها الفدائيُّون والفدائيَّات، حيث بدأت تتسارع في سينمات وأسواق وساحات القُدْس الغربيَّة، خشيتُ أن يتورَّط في ما ليس لنا، وأنه يكفيه ما فعله خلال الحرب، ولطالما قلتُ له بأن نضاله الأفضل هو نضاله من أجل عائلته وصمودها في أرضها ومنزلها، هو يعرف بأن اليهود وضعوا عينهم على منزلنا والمنازل المجاورة القريبة من العَيْن التي يُقدِّسونها، ولا أستطيع أن أقول عنه إلَّا كلّ خير، وقَبِلَ بما خُطِّط له، وخطب أميرة، وتزوَّجها حتَّى صارت الفضيحة على كلِّ لسان في القرية التي لا تعرف سرَّاً، وتتحدَّث جدرانها، وتنقل الأخبار، من جدارٍ إلى جدارٍ، ومن بيتٍ إلى آخر، اعتقدت بأن اليهود ربَّما وضعوا له شيئاً في المأكل أو المشروب، جعله يفقد عقله ورجولته، هل يمكن فعلاً أن يكونوا قد فعلوها؟ ولماذا لم يَسْتَعِدْ رجولته بعد عثورنا على الحجاب وحَرْقه، وإذابة الرماد في الماء وتجرُّعه أمس قبل الدخول من جديد على المسكينة أميرة؟!».

نظر والدي إلى أميرة، ربمَّا ليرى ما ستُنبئ عنه علامات وجهها، إلَّا أنها أخفضت رأسها، وغابت في الداخل، لتخرج بعد قليل وهي تحمل صينيَّة الشاي وكاساته، وتجلس بجانب السَّبْع، كزوجةٍ رضيَّةٍ مطيعة، ولاؤها لا يتزعزع لِبَعْلِهَا.

طلب والدي من أُمِّ السَّبْع الجلوس، لشرب الشاي معنا، وهو يطمئنها بأن العلاج لا يُؤتِي ثماره سريعاً، وأن السَّبْع يعاني، بلا شكَّ، من وضعٍ نفسيٍّ، جعله محبَطاً في التعامل مع زوجته، خصوصاً في ظلِّ الأيَّام السوداء التي نعيشها بعد دخول اليهود، وإن ذلك لن يطول بإذن واحدٍ أحد، وعليها أن تكثر من الدعاء لمَنْ يحبُّ الدعوات، ويستجيب لها.

قال والدي:

- كما تعلمين، لا يوجد احتلال يستمرُّ إلى الأبد، ولا ينتهي، كلُّ احتلال مصيره الزوال، الدول كلُّها تتحرَّر، ودورنا آتٍ لا محالة.

– الدول تتحرَّر، ونحن نُحتَلُّ، وهل علينا أن ننتظر زوال الاحتلال، ليتعافى السَّبْع؟!

بعد لحظات صمتٍ، ارتشف فيها الموجودون من كؤوس الشاي، تدخَّل والدي: «والله، يا خالتي، لا أحد بمنجى من أيِّ شيء، كلُّ ما أصابنا خلال الفترة الأخيرة يجعل من أنجب عُرَّاً من الأولاد لا يعود كما الأوَّل، ولكنَّ البيوتَ أسرار، ولو أراد الله أن يكشف ما يجري فيها، لَمَا توقَّف سيل الفضائح».

أراد والدي بكلامه أن يُهوِّن الأمور على أُمِّ السَّبْع، ولكنَّ ردَّة فعلها جاءت عكسيَّة: «ولماذا نحن فقط مَنْ نُفضَح؟ ألم يجد الله سوى هذا المسكين ليفضحَهُ ويفضحَنا، ويجعلَ حتَّى حجارة القرية تحكي عنَّا؟»

قال والدي: «الله عادل، ولا قنوط من رحمته وعدله، الذي سيظهر في وقته المناسب، وأنتِ تعلمين هذا أكثر منِّي».

ردَّت أُمُّ السَّبْع، بصوتٍ حزينٍ خفيض هذه المرَّة، ولكنه مرير: «هل تعتقد بأنني صدَّقتُ قصَّة الشيخ التي أتيتنا به والحجاب الذي أعطانا إيَّاه؟ أنا وافقتُ على ذلك، وأنا أقول لعلَّ وعسى، ربَّما يكون فيه شفاء لابني، وأن الله أراد شفاءه على يدَي الشيخ الدجَّال».

قال والدي: «يا خالتي، أنا لم أبحث عن الشيخ نعيم وأُحضره، إلَّا إرضاءً لكِ، وبناءً على طلبكِ، يا خالتي العزيزة، التي تعرف كم أحبُّها، وأعتبرها مثل أُمِّي، بل أنتِ أُمِّي التي حللتِ مكان الأُمِّ التي لا أتذكَّر منها سوى لحظات مغبّشة، عليكِ وعلينا بالصبر، إنه مفتاحٌ لحلِّ كلِّ العلل، أنتِ وأنا والشيخ نعيم، كلٌّ منَّا فعل ما يجب عليه فعله، وسيُشفى السَّبْع، لن يُمضيَ عُمُره على هذه الحالة، وسيملأ أولاده الدار والحوش، وستزهقين منهم ومنه، سيُجنِّنونكِ، يا خالتي، وعندها تهربين منهم إلى بيتي، مُرحَّباً بكِ، وسنحملكِ على كفوف الراحة، وندور بكِ في البيت وساحة العَيْن».

عندما صبَّت أميرة الشاي في الكؤوس مرَّة أخرى، كانت أُمُّ السَّبْع تبتسم بفعل كلام والدي، الذي نجح في نقل دفءٍ إلى خلايا خالته، وكان السَّبْع قد عدَّل وضعه، وتمدَّد على أرضيَّة الغرفة وغفا، فوضعت أميرة يدها على شَعْره الطويل، ونزلت دموع صافية على وجنتَيْها.

الثالث عشر

ونحن نصعد وادي حُلْوَة إلى تلِّ الظهور المحاذي لسور القُدْس الجنوبي، سألتُ والدي عن باب الزبالة، الذي ذكرتْهُ أُمُّ السَّبْع، فضحك والدي، مؤجِّلاً الحديث عنه إلى وقتٍ آخر، بعد وجبة الكلام الدسمة في منزل أُمِّ السَّبْع.

رأينا عمَّال الآثار يحفرون خلف سور القُدْس الجنوبيِّ، قال والدي، بأن البروفيسور عازار يبحث عن قصور المَلِكَيْن داود وسليمان، بعد هدم المدرسة، وعدم السماح لبعثة كاثلين كينون التي عملت في العهد الأردنيِّ بإكمال عملها.

قال والدي: «أزعجتْهم الدكتورة كاثلين، وأقلقَتْهم، وبيَّنتْ بأن ما كُتب في العهد القديم شيء وما يوجد تحت الأرض شيء آخر، وها هو عازار يريد أن يُثبت العكس. كره اليهودُ كاثلين كثيراً».

وأكمل، بعد أن سمح لمَرْكَبَة خلفنا بتجاوز مَرْكَبَتنا: «لا أحد يعلم المدى الذي سيذهبون فيه بالتخريب، ولن يمضيَ وقت طويل حتَّى يقطعوا الشارع، وينزلوا إلى قريتنا التي يعتبرونها مدينة النبي داود عليه السلام».

وعندما وصلنا سور القُدْس، قال والدي: «انظرْ، هذا هو باب الزبالة»، وكان يشير إلى الباب المفتوح في السُّور جهة قريتنا.

وأضاف: «كان أصغر أبواب القُدْس، ولكنْ، بعد النكبة، وتعطُّل عمل بعض الأبواب، كباب الخليل، المفضي إلى غرب المدينة، حيث أضحى

مُطِلّاً على المنطقة الحرام، وباب النبي داود، المفضي إلى جبل داود أو صهيون الذي احتلّه اليهود راكبين قريتنا من جهة الغرب، أخذ بابنا هذا مجده فوسَّعتْهُ الحكومة الأردنيَّة، ليتَّسع للأعداد المتزايدة من الناس التي تستخدمه، ونسيتْ أنه كان يُسمَّى باب الزبالة، لأن أهالي القُدْس كانوا يُخرِجون الزبالة منه، وها هي أُمُّ السَّبْع تُذكِّرنا بذلك، وكأنها تُعايرنا، متجاهلة أسماءه الكثيرة، فهو باب المغاربة، وباب النبي مُحمَّد، وباب الدباغة، وباب سِلْوَان، ومَنْ يدري ماذا سيُسمِّيه اليهود، وهو يفضي إلى حائط مبكاهم؟! انظرْ، تستطيع أن تراهم في كلِّ مكان أمامه وداخله وعلى جوانبه ينتشرون».

ثمَّ صمت والدي فجأة، وحتَّى وصولنا إلى المُصْرَارَة، ظلَّ واجماً وحزيناً، لم ينبس إلَّا بكلماتٍ قليلة متفرِّقة وغير مفهومة، وكأن شيئاً آخر يُقلِقُهُ غير حكاية السَّبْع، قريبه وصديقه، أو حَفريَّات عازار الاستفزازيَّة.

اضطُرَّ والدي أن يُقدِّم حكاية السَّبْع، لزملائه السائقين، ولكنْ، بإيجار بعد أن سألوه عن ما جرى للشابِّ الذي يعرفونه، والذي كان مثل كثيرين من أبناء القُدْس مِن الذين حملوا السلاح الذي تركه بعض الجنود الأردنيِّيْن المنسحبين خلال الحرب، وقاوموا به المحتلِّين. واستغلَّ علاقاته بالقادة الأردنيِّيْن، فعرف من أين يمكن أن يحصل على السلاح.

وسمعتُ كيف أن السَّبْع انضمَّ ومعه مجموعة من الشباب الذين جمعهم إلى المقاومة التي أبداها جنود من الجيش الأردنيِّ رابطوا في جبل الزيتون، وحاولوا دعمهم، بإطلاق النار على جنود جيش الاحتلال والهروب، بطريقة اضربْ واهربْ.

وخاطر السَّبْع بشكلٍ غير محسوب في مرَّات كثيرة، وهو يتنقَّل على جبل الزيتون بين مستشفى المقاصد ومستشفى أوغستا فكتوريا، وكنيسة

أبانا الذي، والكنيسة الروسيَّة، ومقام سليمان الفارسي، وقبر رابعة العدويَّة، وكنيسة الصعود، ولكنَّ جنود الاحتلال تغلَّبوا على المقاومة، فتفرَّق الشبَّان، وعادوا إلى منازلهم، أو اختبؤوا في أماكن، اعتقدوا أنها آمنة، أمَّا السَّبْع، فلم يُبالِ، ووقف أمام الجنود المنتصرين وهم ينزلون إلى الجبل في وادي الصوَّانة، ليصعدوا إلى القُدْس القديمة، حاملاً بندقيته يلوِّح بها، وخشي مَنْ رآه مِن الأهالي مِنْ خلف النوافذ، أن الجنود سيقتلونه، أو على الأقلِّ، سيعتقلونه، ولكنَّ ما حدث كان مثيراً. تقدَّم جُنديٌّ إلى السَّبْع بطل المقاومة، وبدلاً من قَتْله أو اعتقاله، أخذ بندقيته، وكسرها على رِجْلِهِ، ثمَّ ربَّت على كتف السَّبْع، وقال له:

- رُوح من هون، يا خبيبي، أُوْرُشَلِيْمْ عادت إلينا ..! هل صدَّقتَ بأنه بهذه البندقيَّة ستهزم إسرائيل العظمى؟

صُدِم السَّبْع، ولم يعرف ماذا يفعل، اعتقد بأنه سيموت، وفضَّل بأن يكون ذلك بكرامةٍ، بما يناسب شيخ شباب، على أن يرى مدينته محتلَّة هكذا بسهولة، وخلال يومَيْن، ولكن الجنود قرَّروا سلبه مشيخته للشباب، وربَّما دون أن يعلموا أو يعلم أفقدوه شيئاً آخر.

تأسَّى السائقون لحال السَّبْع، ودبَّت الحركة في الموقف، الذي تصطفُّ فيه المَرْكَبَات التي تنقل الناس إلى الخليل، ورام الله، ونابلس، وغزَّة التي وحَّدها احتلال ما تبقَّى من فلسطين الانتدابيَّة بعد الانتصار على عبد الناصر الذي كانت تتبع له، مع القُدْس، والبحر الميِّت، والأغوار، إضافة إلى المَرْكَبَات النصف نقل مثل مَرْكَبَة والدي، التي تنقل الأغراض للناس من القُدْس إلى القُدْس والقرى المجاورة لها، وأحياناً تنقل أغراضاً ليهودٍ إلى القُدْس الغربيَّة، من الذين تدفَّقوا على قُدْسنا الشرقيَّة، ليشتروا بضائع أرخص.

وليس بعيداً عن الموقف تشكَّل بعد الحرب ما سمَّاه والدي سوق الرجال، حيث يتجمَّع العمَّال في انتظار ربِّ عمل إسرائيليٍّ، يحتاج عاملاً لساعاتٍ أو ليومٍ أو لأيَّام، يُوقِف مَرْكَبَته، ويخرج وينظر إلى العمَّال، ويُشغِّل حواسَّه، ليقرِّر مَن لديه الإمكانيَّات العضليَّة والصحِّيَّة، وليؤشِّر له، ويتَّفق معه على التفاصيل والسعر، ثمَّ يركب معه في المَرْكَبَة، وينطلقان.

ولا يندر أن يتقدَّم رَبُّ العمل المفترَض إلى عاملٍ، ويطلب منه الكشف عن عضله، ليتحسَّسه، ويقرِّر إذا ما كان هو الشخص المناسب لهذا العمل أم لا؟

تضايق والدي كثيراً من سوق الرجال هذه التي تقع بمحاذاة ما كان يُعرَف ببوَّابة مَانْدِلْبَوْم، التي كانت بمثابة البوَّابة بين القُدْس التي قسَّمتْها النكبة، إلى الشرقيَّة والغربيَّة، وبين الشعب الذي بقي في الأراضي المحتلَّة عام 1948م، وقسمه في الأراضي التي احتُلَّت عام 1967م.

من هذه البوَّابة التي لم يعد لها وجود الآن، مرَّ رجال الأمم المتَّحدة، ورجال الكنائس، والفلسطينيُّون الذين قرَّروا مغادرة منازلهم طوعاً، ليلتحقوا بأقاربهم اللاجئين والفلسطينيَّات اللواتي، قرَّرنَ المغادرة للالتحاق بأبناء أو بأزواج، اعتقدنَ أنهم سيعودون بعد فترة من الحرب، ولكن الانتظار طال، والشوق استعر ناراً، من الصعب إطفاؤها بخطابات النصر المؤجَّل.

أخذني والدي إلى سوق الرجال، بعد أن أوصلنا أغراض مواطن إلى قرية العِيْسَوِيَّة، وقرَّر والدي أن نتغدَّى بعد عودتنا في مطعم العِكِرْمَاوِي قُبالة الموقف، ثمَّ أكملنا السير شمالاً.

تحدَّث والدي مع عددٍ من شبَّان قريتنا، وقفوا في سوق الرجال ينتظرون حظوظهم، كلٌّ منهم حمل العُدَّة التي تناسب مهنته كبلِّيط، أو طوبارجي، أو قصِّير، وينتظر نصيبه من العمل، وتبادل معهم الضحك، بينما كان ربُّ

عمل يهوديٌّ يتحسَّس عضل ذراع عامل ممدودة وهو يطلق النكات، بينما العامل يبتسم، وكأنهما صديقان يعرفان بعضهما منذ فترة، شعرنا بقهر ومضينا، ووالدي يشتم الزمن والظروف التي نعيشها.

قال لي والدي إنه جرَّب هذه الوقفة، بعد الحرب مباشرة، عندما شحَّت موارده، وانتشرت المجاعة، ولكنه لم يصمد طويلاً، حتَّى تدبَّر شراء مَرْكَبَته بالقِطَع الذهبيَّة الخاصَّة بأُمِّي، التي وافقت على بيعها، ليكون حُرَّاً. «ما أجمل أن يكون المرء حُرَّ نفسه، يا ولدي»- تمتم والدي بتأثُّرٍ وكأنه يعيش أيَّامه في سوق الرجال.

t.me/yasmeenbook

الرابع عشر

توقَّف والدي أمام منزل عائلة برامكي، المَبنيّ من الحجارة الورديَّة، والتي ما زالت آثار طلقات الرصاص على جدرانه، تذكيراً بمعارك 1948م. قال والدي: «عندما انضمَّ أنضوني برامكي إلى جيرانه الجدد في حيٍّ سعد وسعيد خارج أسوار البلدة القديمة، في الثلاثينيَّات، وسكن في منزله الجديد، لم يخطر، في أسوأ كوابيسه، المآل الذي سيصير إليه المنزل. ففي عام النكبة، أصبح على خطِّ التماس بين النيران المشتعلة على جانبَي القُدْس التي قُسِّمت. لقد سيطرت قوَّات الاحتلال الجديد على المنزل، وحوَّلتْهُ إلى ثكنة عسكريَّة، بالقرب من بوَّابة مَانْدِلْبَوْم، حلقة الوصل الوحيدة والمتوتِّرة بين شطرَي المدينة المقدَّسة المقسَّمة، وقُبالة المنزل وُجِدَتْ نقطة عسكريَّة للجيش الأردنيِّ، كنَّا نُسمِّيها نقطة ترجمان، نقطة مقابل نقطة، وثكنة مقابل ثكنة، بينما انضمَّت عائلة برامكي إلى قوافل اللاجئين، وخلال تلك الفترة، كان أنضوني برامكي يجلس في القسم الأردنيِّ من القُدْس، يراقب منزله متعدِّد الطبقات التي سكنت فيه عدَّة عائلات، وهو يراه وقد تهدَّم جزئيَّاً، بينما تطلُّ من شقوقه رشَّاشات قوَّات جيش الاحتلال».

كان والدي فتىً عندما كان يأتي إلى المُصْرَارَة، ويسمع من برامكي كيف أُجبر وعائلته على الرحيل من المنزل، بعد مجزرة دير ياسين، وإطلاق النار على المنزل من قِبَل العصابات الصهيونية، فغادرت العائلة منزلها مُجبَرة مقهورة، وأخذت معها ما قلَّ وزنه وكان ضروريَّاً، إلَّا إن ابنه أصرَّ على أخذ

قالب حلوى، وعندما بدت العودة إلى المنزل مستحيلة، بعد تحوُّله إلى ثكنة عسكريَّة، احتفظ بالقالب كذكرى، وكان يقول بصوت مخنوق محاولاً أن يبتسم: «ما زال القالب في المطبخ، أتفقَّده دائماً، حتَّى لا يقضمه الولد، أو الفئران، لا أعرف لماذا مازلتُ أشعر أنني إذا سمحتُ بمحو القالب، وكأنني سأنسى منزلي وأخونه، ما زلتُ أحلم بالعودة إليه مُحرِّراً حاملاً قالب الحلوى وخلفي عائلتي، أفتح الباب، وأضعه على الطاولة في الطابق الأوَّل، وبعد أن نتفقَّد المنزل نحتفل ونقطع القالب، لا شكَّ لن يكون صالحاً للأكل، ولكنْ، هذا ليس مهمَّاً، المهمُّ هو عودته وعودتنا إلى المنزل».

كيف يمكن أن يُمسك الابن نفسه عن أكل الحلوى؟ هذا ما بدا لي غريباً، فأنا كنتُ مُولَعاً بالحلوى، والشوكلاتة، وعندما كانت تُخبِّئ أُمِّي علبة السِّلفانا التي تحمل رسم النَّسْر يحطُّ على تلَّة حمراء، بعد أن تمنحَني حبَّة أو اثنتَيْن، فأفترع الطُّرُق، بمساعدة وَزَّة للعثور على المخابئ، التي تُنقِّل أُمِّي بينها العلبة البرتقاليَّة.

أحبَّت أُمِّي سلفانا، ليس فقط لطعمها، ولكنْ، لأنها تحمل اسم بنت جميلة، أَحَبَّتْ وأُحِبَّتْ، ولم أكن على دراية بأيَّة تفاصيل، ولكنْ، ليس مثل ذلك الغموض المتعلِّق بالحُبِّ، قدرة على إثارة شَغَف والدتي المُحبَّة لروايات إحسان عبد القدُّوس، ويوسف السباعي، وكُتَّاب الرومانسيَّة التي سرعان ما تتحوَّل قصصهم إلى أفلامٍ.

وفي لحظات الصفو وفي ليالي الشتاء الثقيلة كنتُ المستمع الوحيد لنوع من تزجية الوقت، ربَّما اجترحه أُمِّي وأبي، فتقول هي مثلاً جملة معبِّرة عن حالات حُبٍّ أو شجاعة أو غَيْرَة أو حكمة ما، مُنتزَعَة من إحدى الروايات، وعلى والدي أن يحزر مَنْ قائلها، أو اسم الرواية، فيقول مثلاً:

إحسان، أو السباعي، أو نادية، أو إني راحلة، أو أنا حُرَّة، وتكون أُمِّي وحدها الحكم في صحَّة الإجابات.

وخارج منزل برامكي ما زالت أشجار زيتون معمّرة صامدة في المكان في تناقض مع آثار الدمار على واجهة المنزل.

أشار والدي إلى نتوءٍ كبيرٍ في جدارٍ، يشبه الشُّبَّاك، قائلاً: «هذا سبيل آل قطينة، على اسم العائلة التي تسكن تلك الدُّوْر، بجانب بوَّابة مَانْدِلْبَوْم».

تقدَّمتُ معه إلى الجهة المقابلة للشارع، ووقفنا أمام السبيل الحجري المزخرف في واجهة منزل ممتدٍّ طوليّاً، الذي لم يكن فيه ماء، قال والدي: «لقد جفَّ السبيل، لم يعد لمائه ضرورة، من هنا كان يمرُّ المتنقِّلون بين القُدْسَيْن، ومنهم مَنْ يرتشف الماء من هذا السبيل الذي خصَّصتْهُ عائلة قطينة للعابرين بوَّابة الفصل».

ولفت انتباهي: «عندما تُقَسَّم المُدُن، لا تَعُدْ كما كانت أبداً، وقد تتغيَّر إلى الأبد، انظرْ كيف يمرُّ العابرون بين قسمَي القُدْس، التي لم تعد مقسَّمة، أو هكذا يُفترَض بعد أن وحَّدها الاحتلال، حيث يقتفي العابرون مَنْ سبقوهم على مسار البوَّابة نفسها التي لم يعد لها وجود، فيقطعون القُدْسَيْن، وكأن البوَّابة ما زالت موجودة، ويقتفون الطريق نفسها، ولا يحيدون عنها، فالتقسيم مسيطر في الحيِّز الذهني، ويبدو أننا سنظلُّ نرى مدينتنا مقسَّمة».



الخامس عشر

تشجَّع والدي، وأكمل السير شمالاً، باتِّجاه مقام الشيخ جرَّاح، القائد الذي عمل تحت إمرة صلاح الدِّيْن الأيُّوبي السلطان المحبوب، فأراد والدي أن يُرِيَني موقع قصر عبد القادر العمَّاوي المهدَّم، ووعدني عندما نعود إلى المنزل أن يريَني صورة قديمة للقصر المرتبط بإحدى أساطير القُدْس وحيِّ الشيخ جرَّاح.

سار أبي وأنا معه بهدوء، وكأننا نشتمُّ رائحة البارود والدِّماء تفصل بين حدود القُدْسَيْن. توقَّفنا قُبالة الزاوية الجراحيَّة، قال والدي: «انظرْ غرباً تلك منازل اليهود، أمَّا منازلنا، فهي في الشرق، ولم يُضيِّع المحتلُّون وقتاً، فبدؤوا بغزو الشرق، وتدفَّقوا بعشرات الآلاف، لقد أرادوا أن يتفرَّجوا علينا، وأردنا أن نعرف مَنْ هؤلاء الذين انتصروا علينا، لقد اشتروا منَّا، وفتحوا ورشات البناء لعمَّالنا، وخطَّطوا وبدؤوا يبنون المستوطنات لهم، على الأرض الجديدة المحتلَّة».

ثمَّ نظر إلى الزاوية الجرَّاحيَّة، ليُخبرَني كيف قضى أفراد من عائلة الدِّيسيِّ المشرفين على الزاوية، بسبب القصف في عام النكبة، وبعد أقلّ من عشرين عاماً، في عام النكسة، وهذا قَدَر وجودهم في مدينة قُسِّمت، وأصبحوا على حدود القِسمَيْن مجاورَيْن للشيخ جرَّاح الذي ظلَّ وحيداً حتَّى جاء رباح أفندي، وبنى بجانبه قصره، وأصاب الأعيان بعدوى البناء، فانتشرت البيوت والقصور، وبنى المفتي قصره، وعمَّر كَرْمِه، وجلب رشيد أفندي المياه، على ظهور الدوابّ من عيْن لفتا، ليرويَ كَرْمَهُ المحيطَ بقصره، وجاء الأميركيُّون هاربين بدينهم إلى بلادنا، واشتروا القصر، ليصبح

نواة مستوطنتهم في القُدْس، وهو الآن فندق باسم الأميركان كولوني.

سأل والدي بعض المارَّة عن موقع قصر عبد القادر العمَّاوي، الذي كان مِن أوائل المبادرين لبناء قصره، خارج أسوار القُدْس القديمة سابقاً راغب أفندي، وشكَّل ذلك دافعاً لتطوُّر ما بات يُعرَف بحيِّ الشيخ جرَّاح، ولكنْ، لا أحد تذكَّر.

قال والدي: «فَقَدَ الناس أرواحهم، فلم يعودوا يتذكَّرون».

أضاف:»يُعتبر قصر العمَّاوي مِنْ القصور والمنازل الأولى، التي لجأت طبقة الأعيان المقدسيَّة لبنائها خارج أسوار البلدة القديمة، لتبدأ المدينة مرحلة جديدة من تطوُّرها، وعليكَ أن تتخيَّل القُدْس، وقد كانت محاطة بالأسوار، تنام مبكِّراً، بعد أن تُغلق أبوابها، وتستيقظ مبكِّراً، وتعيش داخل أسوارها، وعليكَ أن تُشغِّل مُخَّكَ معي، لتدرك أن خارج الأسوار لم يكن سوى حبائل، وكروم، وصخور، ووديان، وقد يكون قصر العمَّاوي وقصر الناظر في وادي الجوز مِن أوائل المباني التي بُنيت خارج الأسوار.كان صاحب القصر إقطاعيَّاً أعمى قويَّ الشخصيَّة، امتلك أراضٍ واسعة في المنطقة، منها كروم الزيتون بالقرب مِن مقام الشيخ صدِّيق بن عبيد الله السعدي بالاشتراك مع ملَّاك آخر يُعرَف بأبي جبنة، وإلى الأسفل في الشرق استولى اليهود على مقام السعدي، وأصبح بالنسبة إليهم قبر شمعون الصدِّيق. بل تصوَّرْ بأن السعدي أحد شيوخ الطريقة الصوفيَّة السعديَّة خلال القرن الثامن عشر الميلادي، يكاد يختفي اسمه، بل اختفى، تحت سطوة اسم شمعون الصدِّيق، الاسم الذي أصبح شائعاً للمقام، هذا ما تفعله الحروب بالناس، فتجعلهم ينسون بسرعة، أو تزيد قابليَّتهم للنسيان، ويُخيَّل إليَّ أحياناً بأن النسيانَ هو قرار، هو محو واستبدال».

تجوَّلنا قليلاً في المكان، ورأينا اليهود المتديِّنين كما تشي أزياؤهم، حول وفي مقام السعدي، ويدخلون ويخرجون من مغارة، قال والدي،

بأنهم أخذوها من إحدى العائلات في الحَيِّ، ويُصلِّون وهم يقرؤون من كُتُبٍ في أيديهم، يُحرِّكون رؤوسهم إلى الأمام والخلف تكراراً، لا يملُّون منه، وتحرسهم دبَّابات عسكريَّة.

أشار إليَّ والدي، لألُاحظ منازل، تمَّ الاستيلاء عليها قرب مقام السعدي، وطُرد سكَّانها، وأُسكن المستوطنون اليهود مكانهم.

- وكيف يفعلون ذلك، يا والدي؟ سألتُ.

– المنتصر يستطيع أن يفعل ما يشاء، فهذه المنازل سكنها لاجئون طُردوا من منازلهم في القُدْس الغربيَّة، تركها يهود كانوا يسكنون في الشيخ جرَّاح، هربوا إلى حدود دولتهم الجديدة، وها هم يعودون ليطردوا اللاجئين مرَّة أخرى، ويُعطوها لمستوطنين جدد، قد لا يكون لهم أيَّة علاقة باليهود الذين سكنوها سابقاً.

وأمام جملة أسئلة معلَّقة، قال والدي:

– هكذا هو الاحتلال، هذا ما نُسمِّيه الاحتلال .. اليوم في الشيخ جرَّاح، وغداً في قريتنا، وفيها سيكون الأمر أسوأ، إنهم يحومون حول أثر ملكهم داود، نبيِّنا داود.

عدنا إلى ما خمَّن والدي أنه موقع قصر العمَّاوي، مشيراً إلى أن هذا الإقطاعي خصَّص الطابق السفلي من منزله لطاحونة قمح ضخمة، ولأنه لم يكن يثق بمَنْ يعمل لديه من عمَّال وخَدَم وحَرَس، فقد خصَّص لنفسه عِلِّيَّة في قصره، يقف فيها وبيده بندقيَّة، وبجانبه زوجته التي كانت عيناً له، وعندما يمرُّ أيُّ مجهول من أمام القصر، فينطلق صوت العمَّاوي، طالباً التعريف باسمه وغايته، وإذا لم يستجب، يُلعلع صوت الرَّصاص من بندقيَّة الرجل الضرير، الذي يرى بعينَي امرأة.

حكاية العمَّاوي جعلت والدي يتأسَّى على القُدْس التي لم تجد مَنْ

يدافع عنها، ولم يسقط فيها سوى 85 شهيداً، قضوا في الشوارع التي أحبُّوها، وبقوا فيها حتَّى رفع المحتلُّون الجدد حظر التجوال، وجاء الناس ليجمعوا الجثث، ويدفنوهم في مقابر القُدْس.

سألتُهُ:

- لماذا تريد أن يكون عدد الشهداء أكثر؟

– لم أقصد ذلك، بل، يا ليت لم يرتقِ أيُّ شهيد، ولكنْ هذه القُدْس، يا بُنيَّ، التي يتغنّون بها، ولكنهم لم يدافعوا عنها، هربوا، وأسمعونا الأُغنيَّات من الإذاعات، أنحني إجلالاً للشهداء الذين قرَّروا الدفاع عنها، حتَّى بعد أن علموا أنهم يخوضون معركة معروفة النتائج.

رأينا رجلاً طويلاً، وجهه أبيض يميل إلى الاحمرار، فيه فتحتان ملوَّنتان، تُخفيان عينَيْن زرقاوَيْن، يتقدَّم نحونا، أو هكذا خُيِّل إلينا، فشعرنا بأنه يريد أن يتحدَّث معنا، ولكنه متردِّد.

اعتقد والدي بأنه سائح يريد أن يسأل عن موقعٍ أو عن عنوان، فبادره سائلاً:

- كيف يمكن أن نساعدكَ؟

ردَّ الرجل:

– أنا الذي أساعد الناس، لدي رغبة بالتعرُّف عليكَ، أيُّها العربيُّ.

تردَّد والدي قبل أن يقول:

- أنتَ الصوت ..!

– نعم، أنا رجل الصوت ..!

– علي عمَّار؟

عرفه والدي من صوته، إنه المذيع في إذاعة صوت إسرائيل بالعربيَّة،

بل إنه أبرز المذيعين، وأشهرهم الذي يقدِّم برنامجاً مباشراً صباح كلّ يوم، لمدَّة ساعتَيْن، يشجِّع فيه ناسنا على الاتِّصال بالإذاعة، وطرح مشكلاتهم، وما أكثرها، من طلبات لَمِّ شملٍ لعائلات شتَّتها الحرب، إلى شؤون الناس اليوميَّة، التي تُعقِّدها الإدارات العسكريَّة الاحتلاليَّة.

والدي مثل أبناء جيله لا يثقون بهذه الإذاعة التي تبثُّ أيضاً برامج موجَّهة لشعوب عربيَّة أخرى، يقدِّمها يهود عراقيُّون ومصريُّون، تقدِّم إعلاماً موجَّهاً يخدم دولة إسرائيل.

كان الناس محتارين في هُوِيَّة علي عمَّار التي بدت غامضة لهم: صوت يأتيهم من صندوق خشب أو بلاستيك، يقدِّم نفسه كصديق، ولكنهم غير قادرين على الثقة به.

- نعم، يا سيِّدي، ولكنْ، لا تقلْ لأحد.!

قال علي عمَّار ضاحكاً.

سرعان ما قاد حديث والدي مع علي إلى حَيِّ الشيخ جرَّاح، وقال عليّ بأن عائلته كانت تسكن هنا دون أن يُفصِح عن هُوِيَّته، وإذا كان عربيَّاً أم يهوديَّاً.

وقال عليّ:

- جئتُ لأتفقَّد مرابع الصبا، ليس فقط اللاجئون العرب هم الذي يعودون ليتفقَّدوا منازلهم، ويبكوا عليها، بعد أن أضاعوها.

أبدى والدي تحفُّظاً في الحديث مع عليّ الذي يتحدَّث اللغة العربيَّة الفصحى والعامِّيَّة بطلاقةٍ واضحة، ويمنحه صوته الإذاعيُّ القويُّ سطوةَ صاحب المنطق.

قال عليّ، بأن الاحتلال الجديد سيكون أفضل من غيره من احتلالات، وأنه قدَّر الرجال الشُّجْعَان في الجيش الأردنيِّ الذين قاتلوا في تلِّ الذخيرة

قريباً من مكان وقوفنا، حيث بنى الجيش الإسرائيليُّ صرحاً لجنوده الأبطال، وأيضاً نُصْباً للجنود الأردنيِّيْن الذين قاتلوا واستُشهدوا في الموقع، وخُطَّ عليه ما يشير إلى شجاعتهم وبطولتهم.

قال والدي:

– أسرعتُم كثيراً في بناء نُصْب النصر ..!

ردَّ علي عمَّار بسرعةٍ:

- أنتم أيضاً تبنون نُصْباً تذكاريَّة للشهداء، نحن وأنتم نسرع في بناء النُّصْب، وكأننا جميعاً نخشى أن تضيع لحظات النصر بالنسبة إلينا، والهزيمة بالنسبة إليكم، فنخلِّدها، نريد أن نكتب على الحجارة، كما كتب الذين سبقونا، فحساسيتنا للتاريخ عالية في هذه المدينة الغالية، نريد أن يعلم مَنْ سيأتي بعدنا، بعد قرون، بأننا سبقناهم، وكُنَّا هنا.

– الكلُّ يدَّعي بأنه أسبق من الآخر في بلادنا، ولكنَّ الثابت بأن الاحتلالات تأتي وتذهب، وشعب البلاد هو مَنْ يبقى في البلاد ..!

- أراكَ تغمز وتلمز علينا، ليس مهمَّاً، يا صاحبي، أو الذي يمكن أن يصبح صاحبي ..!

صمت والدي، ولم يُعلِّق، ربَّما اعتقد بأن علي عمَّار يجرُّه إلى نقاشٍ لا طائل منه في مدينة، التي يُحدِّد وجهها مَنْ يملك الحديد والنَّار.

انتقل علي عمَّار إلى موضوع آخر بسرعةٍ: «يجب أن أعود إلى منزل عائلتي في الشيخ جرَّاح، وأرجو أن لا يتسبَّب ذلك بألمٍ لعائلةٍ عربيَّة، ولكنه الحقُّ، ويجب أن يعود إلى أصحابه، مهما طال الزمن».

ضحك والدي غاضباً:

– الحقّ؟ عن أيِّ حقٍّ تتحدَّثون؟! تحتلُّون وتقتلون وتنسفون البيوت وتشرِّدون الناس، وتتحدَّث عن الحقِّ!

لم تظهر تعابير على وجه علي عمَّار، وكأنه كان يتوقَّع ما سيقوله والدي، أو أنه انتظر ذلك، واكتفى بالقول:

- الحقُّ لصاحب الحقِّ، دع الأيَّام تحسم ذلك ..!

صافح عليّ والدي، وهو يكتب رَقْم هاتفه الشخصي على قُصاصة ورق، ويقدِّمها له، وطلب معرفة عنوان والدي حاثّاً إياه على عدم التردُّد في الاتِّصال به إذا احتاج هو أو أيٌّ من معارفه شيئاً، قائلاً بأنه يمكن حلُّ أيَّة قضيَّة، ليس فقط من خلال الإذاعة، ولكنْ، أيضاً في دروبٍ خارجها، مُلمِّحاً أن ذلك قد يتطلَّب ثمناً.

انزاح عن صدر والدي هَمٌّ ثقيل، وهو يرى عليّاً بقامته الرياضيَّة يغادر، وينعطف نحو القُدْس الغربيَّة.

سألتُ والدي عن حقيقة إقامة دولة الاحتلال نُصْباً لجنود الجيش الأردنيّ، فأجاب:

– علينا أن لا نُصدِّق كلَّ ما يقولونه..!

ونحن نعود إلى المُصْرَارَة، سألتُ والدي عن مصير قصر العمَّاوي، فقال بأنه عندما أصبح في معمعان معارك الثمانية وأربعين هُدِم، وكلُّ المنطقة صُنِّفت كأرض حرام، وخُطَّ وقف إطلاق النار.

كان والدي يعلِّمني تاريخ القُدْس، قطرة، فقطرة، ويعلم بأنني عندما أكبر، سأتعلَّمُه على الأسس التي تشرَّبتُها منه. يحاول أن يُكفِّر عن نكسته، وهزيمة المدينة، بهذه القطرات.

السادس عشر

في صباح اليوم التالي، رأينا السَّبْع في موعظته الصباحيَّة، كما وصف والدي، خطاب السَّبْع للناس المتحلِّقين حوله.

وقف السَّبْع على حجر، ليكون أعلى من مستمعيه، وقال: «أيُّها القَوْم، اسْمَعُوا وَعُوا، إذا اعتقدتُم بأن اليهود، مثل غيرهم من أقوام، احتلُّونا، وتمكَّنوا منَّا، فعليكم أن تُراجِعوا أنفسكم، لقد قاتلتُهم وطاردتُهم في جبل الزيتون، وكنتُ على وشك الموت، ولكنني أثبتُّ أنه يمكننا المقاومة، لو أن الكثيرين غيري فعلوا مثلي، لكان أفضل لهم من الموت قتلاً في الشوارع، فالمقاوم يموت بعد أن يَقْتُلَ من الأعداء، فيأخذ بثأره قبل موته، فسيقول بعضكم بأن الجيش الأردنيَّ لم يزوِّدنا بالسلاح اللازم، ولكنَّ هذا ليس عذراً، فيمكن بقليل من التفكير والجهد أن ندبِّر سلاحاً، ولو اضطُررنا أن نسرق سلاحاً من ثكنات الجيش».

وأضاف: «في هذا اليوم، وكلُّ يوم، عليَّ أن أُحذِّركم، إذا كان أسلافنا استقبلوا يهود اليمن في قريتنا، الذين لفظهم يهود القُدْس، وغادروا في ظروفٍ مغبرَّة، فإن الحكومة وسلطة الآثار والبلديَّة والحاخامات آتون، ليس بالطريقة الناعمة التي تحدَّث الآن: زيارات، واستكشاف، وتعارف، وابتسامات، وحفريَّات تعملون فيها وتحصِّلون ليرات، تُنفقونها في القُدْس الغربيَّة. سيأتون، ولن يكتفوا بمنازلنا، بل سيأخذون نساءنا، ليخدمنَ في بيوتهم، ومصانعهم، ومؤسَّساتهم، وسيُخرِجون أولادنا من المدارس، ليعملوا في سوق عملهم الأَسْوَد ..».

هناك من الحضور مَنْ دخل في جدالٍ مع السَّبْع، والغريب أنه لم

يغضب عندما رمى أحدهم كلاماً، قصد به السخرية، ولكنه جاء جارحاً: «وأنتَ مالكَ، يا سَبْع؟! ومال نسائنا؟!».

اقترب والدي من السَّبْع، وطلب منه العودة إلى المنزل، حيث يجب أن يكون مع أُمِّه وزوجته أميرة، إلَّا أن السَّبْع خاطبه: «اتركني، يا شامان، اذهبْ لسحركَ وشيخكَ نعيم، إن لم أتحدَّث أنا، فَمَنْ سيتحدَّث؟ إذا كان اليهود أخصوني، فإنهم لم يتمكَّنوا من لساني، ولستُ أنا مَنْ يفقد وعيه وفكره في لحظة ضعف، فيصبح شامانَ مثلكَ، أنا أعرف أنني مَخصيٌّ، أمَّا أنتم، فعلى كلِّ واحد أن يتفقَّد نفسه، ليس فقط ليعرف إذا أُخصي أم لا، وإنما كي يتجنَّب هذا العار، عار الاحتلال، يفرُّ منه، وينجو، حتَّى لو كانت نجاته شخصيَّة، فرديَّة».

وواصل مخاطبة الحضور: «أتعلمون؟ لا شكَّ أنكم تعرفون، بقيتُ آخر شخص يقاتل في جبل الزيتون، وأنتُم هنا في منحدره غافلون خائفون في بيوتكم، لم تفكِّروا في صعود الجبل، لماذا لم تصعدوا الجبل؟ فكِّروا في الأمر من جديد، فَأيَّامنا المقبلة ستجعلنا إن لم نصعد الجبل، فإنهم سيأتوننا هنا في المنحدر، منحدر الأنبياء والقدِّيسين هذا، ويطردوننا من بيوتنا. لقد خاف منِّي جنود اليهود، وهم يرون كيف أُجندل منهم واحداً واحداً ببندقيَّتي الإنجليزيَّة التي ورثتُها عن والدي المجاهد، ولكنهم يُقدِّرون الشجاع، فاحترموني، ولم أنزل من الجبل، إلَّا بعد أن نفدت ذخيرتي، وخبَّأتُ بندقيتي في المقبرة، مقبرتهم أم مقبرتنا؟ هذا ليس مهمّاً، ولو قتلوني، وقطَّعوني إرْباً إرْبَاً، فلن أكشف عن مكانها، وها أنا بينكم رافعاً رأسي، وشارة النصر».

طرح بعض الحضور أسئلةً استهزائيَّة ومشكِّكة في رواية السَّبْع، خصوصاً فيما يتعلَّق ببندقيَّته القديمة المخبَّأة لمستقبلٍ، يستعيد فيه عافيته، ويبدو أنه تضايق من تركيزهم عليها، فبدا أنه أُنهِكَ، أو مَلَّ من مواصلة النقاش، أو استئناف خطابه، فوافق على العودة إلى منزله مع والدي الذي

أوصله إلى باب المنزل وهو يقول له: «شكراً، يا شامان، أتعرف؟ لستُ أنا مَنْ يحتاج إلى الشامان، ولكن قريتنا الغافية المصدومة تحتاج له أيضاً».

عاد والدي، وانطلقنا إلى عملنا، وقال معلِّقاً على خطاب السَّبْع، بأن الأخير يستعيد الوقائع، كما يحلو له، متسائلاً: من أين أتى بحكاية البندقيَّة الإنجليزيَّة هذه؟ لعلَّه سمعها من زميل له من المجاهدين على الجبل، ونسبها لنفسه.

على تَلِّ الظهور، ازداد عدد العمَّال، وظهر بينهم البروفيسور عازار، يحيط به عدد من الصحافيِّيْن والمصوِّرين، بينما هو يتحدَّث.

قال والدي: «لا بدَّ أن عازار يستعيد ذكرى داود وسليمان، سيؤلِّف قصصه، فكلُّ احتلال جاء إلينا ألَّفَ حكاياته وقصصه الخاصَّة عن القُدْس، يا لهذه المدينة القَدَرِيَّة! لديها دائماً مواعيد مع القَدَر الذي يبدو دائماً أيضاً وكأنه لا يأخذ بالاعتبار أحزانها ودموعها، حتَّى السَّبْع بدأ يؤلِّف قصصه، عن حكاياتٍ ما زالت خضراء في ذاكرة الناس».

نظر إليَّ مليَّاً، حتَّى انتبه إلى قطَّة تقطع الشارع، فتوقَّفتْ ونظرتْ إلينا قبل أن تواصل مسيرها بتؤدة وبدون خوف، قال: «ليس هم فقط مَنْ يؤلِّفون القصص، نحن أيضاً نؤلِّف، بلادنا لا تعيش إلَّا على القصص وحكايات الأقدمين، أيُّ مفعول سحريٍّ تؤثِّر فيه علينا؟!، فما زالت حكايات داود وسليمان حاضرة، وستسيل المزيد من الدِّماء، وربَّما تتدفَّق لتصبح شلَّالاً. مَنْ يدري؟».

وأضاف: «أرأيتَ كيف يؤلِّف السَّبْع القصص؟ هو آخر الرواة، يدافع عن نفسه بالحكايات، قد يُعجَب المرء لإصراره على رواية حكايته، ليس المهمُّ إذا كانت أحداثها حقيقيَّة أم لا، فأيُّ حدث يُسبِغ عليه المتحدِّث من عنده، ولكنَّ السَّبْع يريد أن تكون له حكايته الخاصَّة، ويرويها بنفسه، ويدافع فيها عن جوهره».

رأيتُ فعلاً كيف غيَّر والدي رأيه عن السَّبْع بهذه السرعة. لم يرد أن يكون قاسياً عليه، خصوصاً أمام طفله الصغير، ولم يشأ أن يجرح صورة السَّبْع لديَّ أكثر ممَّا هي مجروحة لدى ناس قريتنا.

السابع عشر

تركني والدي في المُصْرَارَة وحدي طالباً منِّي الاهتمام بالمَرْكَبَة، وغادر إلى عملٍ مهمٍّ، غير قابلٍ للتأجيل، سيقضيه ثمَّ يعود، تابعتُهُ بعينَيَّ وهو يختفي في شارع السلطان سليمان، حيث التقى امرأة سمراء عند زاوية التقاطع، لعلَّها من أفارقة القُدْس الذين أخذني والدي مرَّة لزيارتهم عند باب المجلس أحد أبواب المسجد الأقصى في القُدْس القديمة، وعرَّفني على أصدقاء له هناك، منهم مريم التشاديَّة، التي نزحت مع والدتها هرباً إلى عمَّان خلال الحرب، وسكنت مع أُمِّها وإخوتها في مغارةٍ بجانب المدرَّج الرومانيِّ في قاع المدينة، حيث نبشت في التراب بحثاً عن خَاتَم سليمان وصيَّة جَدِّها الذي جاء من تشاد، ليُجاور أولى القبلتَيْن، وثاني الحرمَيْن الشريفَيْن، وظلَّ حتَّى مات لا يُجيد اللغة العربيَّة، فقال لها: «يا مريم، لكلٍّ منَّا خَاتَمُ سليمان الخاصُّ به، في هذه البلاد المقدَّسة، على مَنْ يعيش فيها أن يعثر على خَاتَمه، ويفركه، حتَّى يرى سبيله، ويسبر مستقبله، ويعرف حاضره، ويعمل لآخرته»، وعندما أبدت تساؤلات حوله، قال لها: «إن خَاتَم سليمان يُضرب به في بلادنا القَصِيَّة، وبلادنا هذه المقدَّسة، المثلَ في الشرف والعلوِّ ونفاذ الأمر، ليكن شرفُكِ عالياً، وعلوُّكِ نافذاً، يا ابنتي، وبهذا ستعرفين طريقكِ، وستعيشين هَامَة بين هَامَات، وإن مِتِّ، لا قدَّر الله، ولا اعتراض على قَدَره، ستذوين كشجرة، بدون ألم، وأنتِ تبتسمين».

لفتت مريم، بحديثها السلس المتدفِّق، وكأنها تقول شِعْراً، انتباهي،

واسترعت على حواسِّي، ونظرت إلى والدي، وأقاربها السمر المتحلِّقين حولها، لأرى تأثير كلامها عليهم، ولكنهم كانوا يبتسمون، وتتقاطع أحاديثهم، باشِّين، هازرين.

أردتُ سؤالها عن خَاتَمي، وأحسَّ والدي بذلك، فضغط على ركبتي، كي أظلَّ صامتاً، مستمعاً، وفيما بعد حدَّثني عن فضيلة الاستماع التي يحتاجها مَنْ هم في سنِّي.

حَدَسَتْ مريم على الأغلب ما يدور بيني وبين والدي، وسألت:

- ماذا يريد أن يسأل أميرنا الصغير؟

أجابها والدي، لا شيء، وبأن عليها أن لا تقلق، ويبدو أن لهجة والدي الرسميَّة، جعلتْها تنحو لتخفيف وطأة الثقل حتَّى لا يسيطر على الجلسة، فأخذت تدندن وهي تضحك:

«..........قالت لي: روح يا مسكينِ

وحواجبي هلال شعبان

قلتلها: يا حلوة اروِيني

وعلى تمِّك فرجيني

قالت لي: روح يا مسكينِ

وتمِّي خاتم سليمان».

اهتمَّ بي زملاء والدي، ولكنني مللتُ، وضايقتْني الجَلَبَةُ في الموقف؛ أصوات المَرْكَبَات وضجيج الناس وصراخ سمسار الموقف على الركَّاب والسائقين، وهو مركز قوَّة، لا يمكن تجاوُزه في الموقف، فرضه بقوَّة نغمة صوته، وقدرته على الإتيان بتدرُّجات لها، حسب الموقف، ونوعيَّة المخاطبين، وبدبلوماسيَّته التي تُمسك الخيط، وتشدُّه، ولكنْ، ليس إلى درجة قطعه، وبمعرفته بسجايا كلِّ سائق، وما يُتعِبه ويشغله ويُفرِحه، وطريقة

تعامله مع رجال الشرطة، ورجال البلديَّة، وتسويته للمخالفات أو تأجيلها، وطلبه لطعام السائقين، وتقسيم ثمنه، بالعدل عليهم. لكلِّ هذا ولغيره، فإن سمسار موقف المَرْكَبَات في المُصْرَارَة أبو العبس، كان نجماً وعنواناً للموقف.

أَشعرتُ أبا العبس، بأنني سأتمشَّى قليلاً، وسرتُ شمالاً نحو باب العَمُود، وأنا أُطالعه وأراقب الناس الداخلين إلى البلدة القديمة، والعائدين منها.

لم أنتبه لأحدهم وهو يقترب منِّي، ويُغمض عينَيَّ بكفَّيْه، ويطلب منِّي أن أعرفه، وفوجئ أو تصنَّع ذلك، عندما عرفتُهُ من بُحَّة صوته، إنه أبو روحي المغربي صديق والدي وصديق كلِّ مَنْ في المُصْرَارَة، الرجل النحيل من مُخَيَّم شعفاط، الذي استقرَّ فيه بعد أن هَدَمَ الإسرائيليُّون حارة المغاربة، بعد أيَّام من دخولهم البلدة القديمة، لتصبح ساحة المبكى. فالمنتصر تُصيبه عادةً لوثة السرعة، يريد أن يُنهيَ حساباته مرَّة واحدةً، يهدم، ويحتلُّ، ويقتل، ويصادر، ويسرق، ويبني نُصْب النصر، لينتبه لاحقاً، ويدرك أن المسْألة ليست بالسهولة المتوقَّعة، فأسرع المحتلُّون الجدد إلى هدم الحارة، التي مات بعض سكَّانها، الذين رفضوا المغادرة، تحت الأنقاض، لكي يوفِّروا مكاناً واسعاً لليهود للبكاء والندب، على هدم بيت مُقدَّس قبل آلاف الأعوام، أمَّا من مات تحت أنقاض بيته، ولم تَجِفّ دماؤه بعد، فلا بواكٍ له.

يُعبِّر أبو روحي عن نفسه بكلماتٍ ومصطلحاتٍ مأثورة مستقاة من التاريخ الإسلاميِّ، يستخدمها لِلَوم الذات العربيَّة والإسلاميَّة، بكثيرٍ من السخرية التي لا يقصدها، أو هكذا يظهر من كلامه، ولكنه يحسُّها وينتظرها من ردود أفعال المستمعين له، ورغم أن هوايته الملاكمة، وشارك في بطولات محلِّيَّة، إلَّا أنه يعمل عتَّالاً في المُصْرَارَة، وهو مَنْ يحمل الثلَّاجات، والغسَّالات، والطاولات، على ظهره وكتفَيْه، وينقلها إلى الشاحنات الصغيرة، ومنها مَرْكَبَة والدي.

عندما يسأله أحدهم عن مهنته، يقول: «الملاكمة في هذه البلاد لا تُطعِم خبزاً، وليس كلُّ مَنْ لاكم سيكون مُحمَّد علي كلاي، مثلما ليس كلُّ مَنْ رأس دولة في بلاد العربان، سيصبح كسرى الفُرْس، أو هرقل الروم. لقد خُلِقوا ليكونوا إمَّعَات».

كنتُ أُعجب مثل كثيرين في المُصْرَارَة كيف يمكن لجسده النحيل حمل أغراض أوزانها ضعف وزنه، ولدى سؤاله يجيب الفضوليِّيْن والسائقين، بأن المسألة كُلِّها تتعلَّق بالمُخِّ، ولو أن العرب مثلاً استخدموا جزءاً من مُخيخهم الجمعي، لكان أمرنا وأمرهم مختلفاً. ثمَّ يضرب مثلاً فيما يصفها دناءة معاوية بن أبي سفيان، أو والدته هند، أو ابنه يزيد، أو والده أبي سفيان، ثمَّ يرفع عقيرته وهو يقول هازئاً: يا قوم، مَنْ دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ويتبعها بصرخة: أخياركم في الجاهليَّة أخياركم في الإسلام، وفي العثمانيَّة والإنجليزيَّة والأردنيَّة والإسرائيليَّة. فانظروا حولكم وستُدركون؛ عائلات عسكرتارية المماليك، وبكوات العثمانيِّيْن، هم كومبرادور السياسة في خدمة آخر احتلال الآن.

ضحك أبو روحي المغربي معي، وسألني ماذا أفعل بعيداً عن مَرْكَبَة والدي؟ ولم ينتظر الإجابة، وقال: «تكتشف القُدْس؟ كلٌّ منَّا عليه أن يكتشف مكانه، ويعرف قُدْسه، ولكُلٍّ منَّا قُدْسه، غير تلك القُدْس الجمعيَّة التي لا نعرف لها رأساً من قدمَيْن، التي يتغنُّون بها، ويؤلِّفون الأشعار، ويصرخون يريدون تحريرها، ثمَّ، وكأنه ليس إلَّا فصَّاً بدون صوت، رائحته تفيح في الأجواء. وأنا في عُمُركَ وأصغر منكَ لم أترك ثُقباً في هذه المدينة المنحوسة إلَّا دخلتُهُ. فانظرْ إلى السُّور، جعلتُهُ في فترةٍ شغلي الذي لا أتركه، ونفذتُ إليه من أكثر من مكانٍ، ومشيتُ عليه، ورأيتُ القُدْس من علٍ، والقُدْس من أعلى غيرها من حيث نراها الآن. أنتَ ترى الآن قُبَّة الصخرة الذهبيَّة تتسامق وتتحدَّى الأسوار، فتظهر لامعة، تعكس أشعَّة الشمس، ولكنْ، من أعلى، سترى التناسق بين القُبَّة والجسم الثماني الذي يحملها».

وأكمل وكأنه تذكَّر شيئاً: «انظرْ. ماذا ترى؟ ستقول لي قُبَّة صفراء ذهبيَّة لامعة، واحدة من أجمل المباني في العالم، تجسَّدت فيها فنون بيزنطيَّة وإسلاميَّة وفارسيَّة وعثمانيَّة، ولكنْ، أتدري؟ هناك كثر لا يرونها، تصوَّر أنهم يرون أسفلها؛ هيكل الله، الذي لا نعرف إذا كان موجوداً أم لا؟ أو إذا بُني أصلاً أم لا؟ ولكنهم يرونه، ويخشون من انعكاس لمعان القُبَّة في عيونهم، فيسبرون أسفلها، ويُعلنون أن القُبَّة لم تعد لازمة، وأنه يجب هدمها وإعادة إظهار الهيكل، ونحن لن نقبل، وسيستخدمون المعاول والدبَّابات والطائرات، وستسيل دماؤنا، ويتفرَّجون عليها».

سألتُهُ عن الذين سيتفرَّجون، فقال: «مَنْ باعونا وباعوها، مَنْ تآمروا علينا وعليها في زمنَي النكبة والنكسة، ومَنْ يدري ما هو آتٍ لنا؟!».

رغب بتغيير دفَّة الحديث، فعاد به إلى حيث نقف، وأمامنا باب العَمُود منبِّهاً إلى أعلى الباب الذي تراءى لي بأنه منتهى ما يمكن أن يستوعبه عُمُري الصغير من جمال، ونبَّهني إلى تفاصيل صغيرة، كمكامن الجند، وثقوب صبِّ الزيت الساخن على الغزاة المحتملين، والتناسق بين جانبَي الباب الشاهق، والنقش أسفل قوس الباب، الذي يشير إلى بانيه السلطان سليمان، الذي يصف نفسه بملك البرَّيْن والبحرَيْن، ومالك رقاب الأُمم العرب منهم والعجم، وثاني سليمان في العالم بعد الملك سليمان اليهوديِّ.

قال: «أتعلم؟ هذا الباب أجمل أبواب القُدْس، لو فكَّرتَ قليلاً، وتنبَّهتَ، ستعرف بأنه يقع في أعلى الواد، الذي تتجمَّع فيه المياه من المنطقة المجاورة، ويصرفها إلى الجنوب، حتَّى وادي جهنَّم عبر بلدة القُدْس القديمة، وينتهي في بِرْكَة سِلْوَان، وعلى طول الوادي امتدَّ طريق الواد، وهو الطريق المحوري للمدينة، من هنا من الشمال، من باب العَمُود، إلى الجنوب في باب المغاربة، وعلى جانبَيْه بُنيت السوق السفلى للقُدْس القديمة، والتي سُمِّيت قديماً بسوق صانعي الجبن».

وأضاف أبو روحي، بأن السلطان سليمان الذي اشتُهر باسم القانوني وبنى السُّور بعد إلحاح أهالي القُدْس، لحمايتهم من الغزوات الخارجيَّة، وغزوات البدو، ترك عليه رمز خَاتَم سليمان نجمة داود السداسيَّة».

شنَّفتُ أُذُناي، لأعرف أكثر عن هذا الخَاتَم، وأبو روحي يواصل: «بنى السلطان سليمان سور القُدْس، حسب مخيِّلة أجدادنا، بسبب حلم، هو، في الواقع، كابوس، ما زالت ذكراه، بالنسبة إلينا، مجسَّدة بأُسود باب الأسباط؛ حيث خشي أن تبتلعه إن لم يَبنِ السُّور، فلجأ إلى حَلٍّ سهل، ثبَّت أربعة تماثيل لأُسُود على باب السُّور الشرقيِّ، هذا بالنسبة إلى ناسنا البسطاء، ولكنْ، بالنسبة إلى سليمان الذي رأى نفسه ثاني سليمان في العالم، فالأمر يُعبِّر عن القوَّة والسلطة الدينيَّة والدنيويَّة، والإرث الممتدِّ لمَن انتسب إليه؛ سليمان الأوَّل، الملك سليمان، ملك الجان والإنس واليهود».

حاولتُ استيضاحه وأنا أقول له بأنني لا أفهم كثيراً عليه، فقال: «إذنْ، سأوضح أكثر: بنى سليمان هذا السُّور الذي أمامكَ، خلال خمس سنوات، ونتج عنه 34 برجاً، و379 مزغلاً لرمي السهام والمراقبة، و17 سقاطة، ونحو 300 وحدة زخرفيَّة نباتيَّة وهندسيَّة، وحمل صدره الأعظم لقب عسَّفان، أي جدير بعسَّاف، وعسَّاف هو خادم الهيكل، أمين سرِّ الملك داود والد سليمان الأوَّل، وليكونَ سليمان الثاني جديراً بسلطتَيْه الزمنيَّة والدينيَّة بنى آخر سور للقُدْس، بأبراجه، وحجرات القتال، وعشرات النوافذ لضرب النيران، وأبواب محصَّنة، وزُيِّنَتِ التحصينات بالنقوش الهندسيَّة والنباتيَّة، واللوحات التذكاريَّة تُبجِّل سليمان، وتشكر الله».

- وماذا عن خَاتَم سليمان؟

- لم يَنْسَ سليماننا، أن يُرصِّع السُّور بالنجمة السداسيَّة، خَاتَم سليمان:..! الذي بواسطته حكم سليمان الأوَّل الشياطين والجنَّ والإنس والحيوانات، ورعى المئات من زوجاته، وصادق الملائكة، ومَنْ يُصدِّق بأن

عزرائيل قابض الأرواح كان يزجي الوقت مع سليمان في القُدْس؟ وفي مرَّة وهما يتداولان الحديث، استأذن قابض الأرواح لثوانٍ عندما ظهر شخص أمامهما فجأة، وعاد ليُكمِل الحديث، ولإغلاق فضول جليسه سليمان أخبره: كان مُقدَّراً لي أن أقبض روح هذا الشَّخص في الهند، ولكنه ظهر هنا، فأتممتُ المهمَّة، وها أنا أعود لأجلس معكَ، ونُكمل حديثنا..!

- عن أيِّ سليمان تتحدَّث؟

– سليمان مَنْ؟ سليمان التوراتي الأسطوريّ أم وريثه سليمان القانوني؟ الذي جاء فلسطين ليُكمل سيرة الأوَّل الإسرائيليّ في قُدْس أخرى.لا يهمُّ؛ لو أرادت القُدْس أن تهجس بعدد الفاتحين والأنبياء والأفَّاقين والجلَّادين، لما تنفَّس صُبحها..!مَارُّون في هوائها، وفجرها ..! يا قُدْس، أيَّة مدينة قَدَرِيَّة أنتِ ..!

وأضاف: «لم يكن أهلنا يعلمون أن السُّور لا يحمي إلَّا من الأخطار المكشوفة؛ أنياب الذئاب القاطعة الحادَّة، ولكنهم غفلوا عن الراعي وعصاه وبطشه، وسكِّينه».

فهمتُ أنه يقصد بالراعي الحكم العثمانيّ، الذي استمرَّ أربعة قرون مخيِّماً في القُدْس، حاشراً أهلها بين الأسوار المنيعة، ولكن أبو روحي كان متخوِّفاً أيضاً من سليمان آخر: «يا ويلكم، وويلن وويل قريتكم وقدسنا من سليمان اليهوديّ. سيستغلُّون اسمه. إنه سليمان الأوَّل، هل فهمتَ الآن أم أنكَ ستروي لاحقاً عن الملاكم المغربي، الذي سيموت يوماً ما في هذه القُدْس، وتقول كان محقَّاً؟ نحن المغاربة، عندما خلقنا الله، كشف لنا بعضاً من أسراره».

ضحك أبو روحي، وعندما رآني أبتسم، ودغدغني بأصابعه، وهو يطلب منِّي أن أضحك، وأضحك ..!

ثمَّ عاد يشير إلى باب العَمُود:

- هذه عَبقريَّة عمِّكَ سنان ..!

– ومَنْ هو سنان هذا؟!

- المِعْمَار سنان؛ كان سليمان يطلب، وسنان يُنفِّذ؛ يبني الأسوار، ويُحصِّن الأبواب، ويُشيِّد الجسور، والمساجد، والقبور.

- وهل هو مَنْ بنى باب العَمُود؟

– كلُّ الدلائل التي جمعتُها تشير إلى ذلك، أتخيَّل المِعْمَار سنان يجالس السلطان سليمان يقرعان الكؤوس، ويمرحان ويخطِّطان، هذه العَظَمَة هي نتاج الصداقة.

لم يكد يُنهي أبو روحي كلامه، مُحلِّقاً مع كؤوس السلطان سليمان، حتَّى سمعنا دويَّ انفجار، وعندما انتبهْنا، كان الناس الخارجين من باب العَمُود يركضون نحونا، ورأينا جنوداً يترنَّحون ويسقطون أرضاً، جرَّاء إصابتهم بقنبلة.

سحبني أبو روحي باتِّجاه شارع السلطان سليمان، وهو يتمتم: «أين أبوكَ؟ هل ما زال مع تلك السمراء؟ ماذا يفعلان كلَّ هذا الوقت؟».

قادني إلى موقف المَرْكَبَات بجوار مقبرة الساهرة وحديقة بستان قبر المسيح، حيث كان الناس يتزاحمون على ركوب الحافلات، ولم يتركني إلَّا داخل الحافلة التي يقودها عبَّاد، الذي يحمل اسم جَدِّه: «عبَّاد الذي قتل الشباب في باب الواد»، مؤكِّداً عليه أن يُنزِلَني في أقرب موقف إلى منزلنا.

كان عبَّاد آخر عنقود عائلته، التي عاشت تفخر، بتاريخ ماضيها الممتدِّ من انتقام إلى آخر في حروبٍ شهدها جبل القُدْس بين ناسه وجماعاته، وبدا أنها لن تنتهيَ.

غاب أبو روحي المغربي عن ناظرَيّ، بينما كانت القُدْس تعيش لحظة ساخنة من لحظات ستكثر، بعد آخر احتلال لها.

كم مرَّة يجب على المُدُن أن تُحتَلَّ؟

الثامن عشر

كأن أُمِّي كانت تعرف بأنني سأعود وحيداً، فوجدتُها تنتظرني، وبجانبها القطَّة وَزَّة، قرب العَيْن. أمسكتُ بيدي، وأخذتْني إلى المنزل، وأنا ألتقط وَزَّة عن الأرض، وبدأت تتفحَّصني، وتسألني عن ما حدث، وإذا ما كنتُ تضرَّرتُ، أو أُصبتُ بمكروه، وأين كنتُ واقفاً بالضبط؟ ولعنتْ والدي، التي قالت بأنها تشكُّ في سلوكه، رغم ما فعلتْهُ وتفعله من أجله ومن أجلنا، ولكنها تمنَّت أن يعود سالماً حتَّى يُطفِئ القلق المستعر عليه في صدرها، وقالت بأن الله خلق جنس الرجال، فقط لكي يثيروا المشكلات، ويزرعوا الشكَّ والقلق والنَّار في قلوب النساء.

هكذا هي أُمِّي في نوبات غضبها، تُعلي صوتها، وتُناقِض نفسها، ويتجاور في أدعيتها إلى الله، الخَيْر والشرِّ.

ولعنت الأزواج الذين يُهملون أولادهم، ويتركونهم يُربون في الشوارع، وكأنهم لا يعرفون ما يمكن أن ينتج عن تربية الشوارع، ولا يُقدِّرون خطرها بعد سيطرة اليهود عليها الذين لا يتورَّعون عن إطلاق النار لأيِّ سبب مهما كان تافهاً، وعلى المقلب الآخر، فإنها انتقدت الفدائيِّيْن، بصوتٍ منخفض، وكأنها تخشى أن يسمعها أحد، الذين يضعون القنابل في الشوارع والأسواق، وهم يعلمون خطر مقتل أو إصابة أناس من شعبهم، الذين يقاتلون لأجله.

حرصت أُمِّي على أن أتناول الغداء، ثمَّ جلست بجانبي على الفرشة المفرودة على الأرض، وحضنتْني وهي تقول: «عليكَ أن تعلم، يا ولدي، أموراً كثيرة، ونحن نعيش في حالات القلق هذه التي ستزيد ولن تنتهي،

أنا لن أعيش لكَ إلى الأبد، وكذلك والدك، فلا أحد سيُخلِّد على هذه البسيطة، لذا فعليكَ التعلُّم، ويجب أن تعدَني بأنكَ ستتعلَّم بسرعة».

وأضافت بعد لحظات، خلتُ أنها فكَّرت خلالها كيف ستقول ما تريد قوله، بينما يدها تحوس في شَعْري: «في زمنٍ ما، يا ولدي، عاشت في العَيْن، دجاجة وصِيصَانها، لا أعرف كيف ولماذا اختارت العَيْن بيتاً لها! ربمَّا لأن مياه العَيْن مقدَّسة، وتحتاج دائماً إلى مَنْ يدافع عنها، فالمقدَّس يخلق أعداء كثيرين له، بعكس المدنَّس، الذي يزدرده الناس، ويتجنَّبونه، ويأنفونه، ويمجُّونه. وجعلت الدجاجة من نفسها حاميةً للعَيْن، ربمَّا لأنها أضحت بيتها الآمن، بعيداً عن الناس محبِّي أكل الدَّجاج، وجعلت من الصِّيصَان جنوداً مستعدِّين لتلبية الأوامر في مواجهة المخرِّبين والمُفسِدين لمياه العَيْن، وما أكثرهم! عليكَ أن تعرف أن كثيرين يبصقون في العَيْن التي يشربون منها وتروي ظمأهم، أو يرمون حجراً في البئر بعد أن يذهب العطش، ويشعرون بالأمن والراحة، لماذا؟ لا نعرف، هي طبيعة بشريَّة؛ غريزة الاستعلاء على مانحي الخير.

سمعتُ من والدتي الأعاجيب عن هذه الدجاجة، وكيف كانت تهاجم بعض رجال قريتنا الذين ينزلون إلى العَيْن للاستحمام قبل صلاة الفجر، ليتخلَّصوا من دنس الليل، ولكنها تقفز على الواحد منهم، تنقِّر وجهه وعينَيْه، وتُعلِّم، بمنقارها على أنفه، بينما الصِّيصَان، تهاجمه من أسفل، حتَّى إخراجه من المكان، ولم يكن ناس القرية يعرفون لماذا الدجاجة تفعل ذلك مع أناسٍ، ولا تفعله مع آخرين، ومع مرور الوقت، يفضح الله المخرِّبين، والمفسِدين، والدنسين، آكلي أموال اليتامى، ومنتهكي الأعراض، والتجَّار محتكري قُوت الإنسان والحيوان، والجواسيس، وناقلي الإشاعات، وما أحوجنا الآن لدجاجة عيننا، لتفضح الرجال الذين يخونون عائلاتهم، ويرمون زوجاتهم المخلصات، وتجَّار المخدِّرات، وعملاء اليهود، الذين يعيشون بيننا».

عندما بدأتُ أنعس بفعل قوّة الأمان الذي أشاعه حنان أُمِّي ودفء صوتها الحزين، سمعتُها تقول: «أشعر بأنني مثل دجاجة عيننا، وأنتَ صُوصي الصغير، ولكنْ، الكبير القادر على مساعدتي لهزيمة الأشرار والمفسِدين، أنتَ ملجئي من جنوح والدكَ».

يبدو أنني غفوتُ فترة، لا أعرف مقدارها، وصحوتُ على صوت خلاف بين أُمِّي ووالدي، الذي لامتْهُ أُمِّي على تركي وحدي في المُصْرَارَة، بينما هو يذهب إلى حيث لا تدري، وربَّما مدفوعاً بنزواته، وهي إن لم تُراجِعه قبل ذلك علَّه يكُفُّ ويتراجع وحده عن غَيِّه، إلَّا أنها تشعر بما يحدث، حتَّى لو أنه ليس لديها معلومات، فقلب المرأة يحسُّ، وإن ماتت أحاسيسه، فجسدها يشعر، ويعرف، ويحدِّد.

غضب والدي، ثمَّ تراجع غضبه، وأخذ يواسي زوجته، ويؤكِّد لها بأنه لو دار في كلِّ دُوْر العالم، فسيعود إلى هذه الدار، لأنه لن يجد مَنْ يساوي ظُفرها.

نمنا تلك الليلة سعداء، بفعل كلمات والدي التطبيبيَّة، وقدراته الذاتيَّة في استيعاب الغاضبين والغاضبات، وبسبب تراجع أُمِّي وتحسُّن مزاجها، وبعد متابعتنا لما جرى في باب العَمُود، وكان لدى والدي الأخبار عن عبوةٍ فجَّرتها على الأغلب امرأة كما يشتبه جيش الاحتلال، أصابت عدداً من الجنود، وللأسف ثلاث نساء عربيَّات أيضاً، كنَّ قريبات منها، من بينهنَّ فلَّاحة تبيع خضارها قرب الباب الرئيس المفضي إلى القُدْس القديمة.

لم تكن مثل هذه العمليَّة مقنعةِ لأُمِّي، في مكانٍ يعجُّ بالناس الداخلين إلى البلدة القديمة والخارجين منها، وتصوَّرت أن الأمور يمكن أن تكون مختلفة لو أن تخطيطاً معيَّناً خلف العمليَّة، واستذكرت القنابل التي كان الفدائيُّون يضعونها بمراكز تجمُّع العمَّال العرب في باب الخليل والمُصْرَارَة، كي لا يعملوا لدى أرباب عمل إسرائيليِّيْن، ولكنَّ الهدف منها فشل، لأنها

لم تجب عن أسئلة العمَّال حول مصادر الدخل التي توفِّر لهم ما يُطعمون أولادهم، ويعلِّمونهم، ويؤهِّلونهم؛ ليشكِّلوا جيل المستقبل الذي عليه أن يغيِّر الأحوال بأفضل منها.

قال والدي: «لا بأس إن ذهب في كلِّ مرَّة منهم ثلاثة ومنَّا ثلاثة، المهمُّ عليهم أن يعلموا بأننا لن نصمت، سيظهر شُبَّان من هنا، بالإضافة إلى الفدائيِّيْن الذين يتسلَّلون من الخارج، وستكثر العمليَّات، وستشمل جميع المناطق، والنصر سيكون حليفنا، ولن يستطيعوا السيطرة على الأرض والناس، عندما ترفضهم الأرض، ويثور كلُّ الناس».

لم تقتنع والدتي كثيراً بكلام الوالد، وربَّما جعلها تخشى من المستقبل، فأنهت النقاش كحكيمة تعلم اليقين: «النضال الحقيقيُّ ليس بزرع قنبلة يموت زارعها، وإنما بجلب قُوت العائلة، وتعليم الأولاد أحسن تعليم، إنه الصمود في الأرض، وليس في الموت عليها، فاليهود يريدوننا أمواتاً، ليأخذوا أرضنا، وعندما نموت هكذا، وبشكلٍ عشوائي، فإننا نقدِّم أفضل خدمة لهم».

لم يشأ والدي أن يستمرَّ في نقاش والدتي، وفضَّل اللجوء إلى النوم، فهو أكثر راحة، من جدال لن يفضي إلى شيء، كما كان مقتنعاً.

أمَّا أُمِّي، وقد تذكَّرت بأنني رويتُ لها حكاية خَاتَم سليمان، كما سمعتُها من أبي روحي المغربي، فأرادت أن تزيدني شيئاً، فليس فقط أبو روحي أو رجال البلاد هم مَنْ يعلمون عن خَاتَم سليمان.

قالت لي وأنا أضع رأسي على ركبتها: « عليكَ أن تعلم بأن رئيس الملائكة جبريل، الذي اختاره الله رسولاً بينه وبين النبي مُحمَّد عليه الصلاة والسلام هو نفسه مَنْ عيَّنه الله حارساً على خَاتَم نبيِّنا سليمان عليه السلام، الذي كانت لديه السلطة المطلقة على الجنِّ، وعلى كلِّ المخلوقات المَرئيَّة وتلك التي نسمع عنها ولا نراها، وحتَّى الرياح كانت

تستجيب لأوامر سليمان القابع في القُدْس، ويحكم العالم من داخل أسوارها، ويطيعه ملوك العالم، وتطيعه ملكات العروش والجيوش الجبَّارة الجرَّارَة، ويكنَّ وَفْقَ إشارته كما فعلت بلقيس ملكة اليمن، ومَنْ يعصي أمره من الجان يضعه في قُمْقُم، ويرميه في البحر، وهكذا يتخلَّص منه إلى سنواتٍ طويلة جدّاً، وربَّما يسعد الحظُّ الجنِّيَّ المحبوسَ، فيلتقط القُمْقُم سبَّاح يصل الأعماق، أو ترميه المياه إلى الشاطئ، فيلتقطه عابر، ويحكُّه، فيُسرع الجنِّيُّ ليُشجِّعه على فتحه، معلناً بأنه سيكون طوع أمر الفاتح السعيد، الذي ستُفتح له طاقات الحَظِّ، والأموال، والمجد.

ولكن الحظَّ لم يكن دائماً في جانب سليمان، حتَّى لو كان ملكاً ونبيّاً، ويحرس خَاتمَه سَيِّدنا جبريل، ففي واحدة من المرَّات، تمرَّد جنِّيٌّ، وغافل جبريل العملاق، وسرق خَاتَم النبي سليمان الذي كان مشغولاً بالاستحمام، بينما تتنافس زوجاته على تحميمه وتدليكه، ترى ماذا فعل الجنِّيُّ عندما استولى على الخَاتَم العجيب الذي يمنح صاحبه قوَّة خيالية؟ لقد حكم مملكة سليمان في القُدْس لمدَّة أربعين يوماً، وتمتَّع بسلطته، وأصدر آلاف الأوامر لأمثاله من الجان، وللطيور، والزواحف، وحتَّى لنمل الأرض، وتمتَّع بزوجات النبي الكثيرات، اللواتي تُضرب الأمثال في حسنهنَّ، وجرَّب بحذرٍ شديد الاستحمام معهنَّ، وعينه على الخَاتَم، حتَّى لا يتكرَّر ما حدث مع النبي سليمان، معه، بينما هام سليمان في برِّيَّة القُدْس، يتنقَّل بين مضارب البدو، ولم يجد مَنْ يُصدِّقه بأنه، وليس غيره، سليمان الملك النبي، الحاكم القوي الملهَم من الله، الذي أُوتي الخَاتَم، وعندما كان يعلن ذلك، يعتبره الناس مجنوناً، فيُشفقون عليه، ويقدِّمون له كسرات خبز، وطاسات لبن».

سألتُ والدتي عن مصير الملك النبي الذي فَقَدَ مُلكه نتيجة لهوه مع زوجاته، بينما يترصَّده جنِّيٌّ غاضب وَذكيٌّ، فقالت:»في النهاية، لن يرضى الله بما جرى لنبيِّه، الذي قصد الله تلقينه درساً، في التواضع، والانتباه،

وفرملة اندفاعه نحو الشهوات، ولكي يعلم بأن ما يمنحه الله، قد يسحبه في أيِّ وقت، أمَّا الجنِّيُّ، فاستخفَّ بالأمر، وأصبح مهمِلاً، وخلال سباحته في وادي القَلْط وتنقُّله بين البِرَك الصخريَّة التي حفرتها وحدَّدتها المياه، لاهياً بين زوجات سلفه الملك النبي، وقع الخاتم منه، فلحقه حتَّى البحر الميت، ولم يجده، أين ذهب الخَاتَم؟ مثلما ترصَّد الجِنِّيُّ للملك سليمان، كان جنِّيٌّ مغضوب عليه يراقب الجنِّيَّ المحظوظ الذي لم يعدل ولم يوازن القوَّة التي منحها الله له، وعندما فُقد الخَاتَم، غطسَ الجنِّيُّ المغضوب عليه، والتقطه، وبإرادة الله، أعاده إلى الملك سليمان الذي كان جالساً، بعد أربعين يوماً من التيه في البرِّيَّة، مرهقاً، قانطاً من رحمة الله على قلعة قديمة كان أمر ببنائها، تطلُّ على شرق الأردن، ولم يصدِّق سَيِّدنا سليمان ما جرى، حتَّى بعد أن وضع الخَاتَم في يده، ومكافأةً للجنِّيِّ الطيِّب، عيَّنه وزيراً له، وتشاوروا فيما يفعلان بالجنِّيِّ تعيس الحَظِّ الذي جرَّب الحكم، ثمَّ فَقَدَهُ، ولكن النبي سليمان قرَّر في لحظةٍ، الانتقام، فلم يحبس الجنِّيَّ في قُمْقُم كما يعاقِب الذين لا يطيعون أوامره، وإنما أمر بوضع صخرة كبيرة في رقبة الجنِّيِّ التعيس، والطلب من نَسْر عملاق حمله ورميه في بحيرة طبريا، وهكذا كان».

حزنتُ لحال الجنِّيِّ سيِّئ الحظِّ أكثر من فرحي بعودة الحظِّ للملك النبي، وتخيَّلتُ ماذا سيكون مصيره في أعماق البحيرة؟ قلتُ لأُمِّي بأن النبي الملك بالغ في الانتقام.

تدخَّل والدي الذي نهض من فرشته، ليلخِّص الحكاية، مدفوعاً بإيمانه بأنه الأقدر على ذلك من والدتي: «لقد أخطأ سليمان في المرَّة الأولى عندما فَقَدَ الخَاتَم، بعد أن أسكرتْهُ السُّلطة المطلقة، ولم يكن ليُصدِّق بأنه سيفقدها في يومٍ ما، وأخطأ عندما ترك لشهوة الانتقام التحكُّم فيه، وكذلك أخطأ الجنِّيُّ السارق، عندما لم يسُوس المملكة بالعدل، وكان من الطبيعي أن يفقد الخَاتَم. وهذا يذكِّرني بعازف المزمار الهندي الذي

يُرقِّص الكوبرا، والناس تُبدي إعجابها به، ولكنَّ انتباهه كُلَّه يكون في عدم الخطأ، لأنه يعلم بأن أيَّة نغمة خارجة عن المسار ناشزة، قد تبعث برسالة معاكسة للكوبرا، وتجعلها تهاجمه، لم يدرك سليمان أو الجنِّيُّ التعيس، بأن أيَّة نغمة نشاز ستُبطل مفعول السِّحْر».

أيُّ سِحْر غسلني فيه والداي؟ وأيَّة حكايات ستوقد عقلي وقلبي؟

«قد زال مُلك سليمان وعاوده/ والشمس تنحطُّ في المجرى وترتفع»

كان والدي يتنغَّم ..!

التاسع عشر

غاب والدي مرَّة أخرى في اليوم التالي، وتركني وحدي مشدِّداً عليَّ بأن لا أقول لأُمِّي، بأنه تركني وحيداً.

يكذب والدي، وَيُعلِّمُني الكذب، وقد يكون نسي تحذيره لي من مخاطر الكذب وحبله القصير، الذي قد يؤدِّي إلى حبلٍ أغلظ منه؛ حبل المِشْنَقَة.

لم يكن مهمَّاً أن أعرف كيف يمكن أن يؤدِّي حبل الكذب إلى حبل الموت، ولكنني أدركتُ مخاطر الكذب نظريَّاً، وعمليَّاً ها هو مَنْ حذَّرني يطلب منِّي، وبكلِّ سهولة، أن أكذب، وهو يدسُّ في جيبي حبَّات من السِّلفانا.

درتُ بعينَيَّ بحثاً عن أبي روحي المغربي، ولكنْ، يبدو أنه كان مشغولاً في مكانٍ آخر، غير المُصْرَارَة، وعندما رأيتُهُ أخيراً، دلَّني عليه صوته المرتفع، وهو في نقاشٍ حادٍّ، يستخدم فيه يدَيْه مع رجُلٍ يشبهه، يقفان في الجانب الغربيِّ من موقف المَرْكَبات قريباً من المنازل التي يسكنها اليهود.

اقتربتُ منهما وكانا يضحكان، وعندما رآني أبو روحي رحَّب، بي وقرَّبني منه وهو يُعرِّفني على الرجل الذي يقف معه، بأنه فهدٌ أسود.

- تصوَّر؛ فهدٌ أسود فالت في المُصْرَارَة..!

وعندما لم أفهم، كما تَوَقَّع، قال لي:

- هذا يهوديٌّ عربيٌّ مثلنا، اسمه شارلي..!

مدَّ شارلي يده وانحنى ليسلِّم عليَّ، وهو يقول:

- مرحباً، يا أخ العرب ..!

ثمَّ قهقه ..!

قال أبو روحي: «صاحبنا شارلي من الجزائر، سكن هنا بالمُصْرَارَة مع عائلته في المنازل العربيَّة التي طُرد سكَّانها، ويمكن أن تراهم في البلدة القديمة، أو خارجها، خارج الخارج في الشتات، مُشتَّتين مُسخَّمين، وضعتْهُ حكومته مع العائلات اليهوديَّة العربيَّة في هذه المنطقة على خطِّ وقف إطلاق النار، ليكونوا في مواجهة القنابل والطلقات العربيَّة التي، من حسن حَظِّ أفراد هذه العائلات أنها لم تُطلَق، ولكنَّ شعورهم الدائم بالخوفِ جعلهم ينسون أنهم كانوا قبل فترة وجيزة فقط عرباً، وأصبحوا الآن إسرائيليِّيْن لهم دولة يجب أن يدافعوا عنها ضدَّ العرب الغزاة المتوحِّشين؛ ولكنَّ الحرب الأخيرة ذكَّرتهم كم هم مهمَّشون وفقراء بالنسبة إلى غيرهم من اليهود...».

قاطع شارلي أبا روحي: «يا خبيبي، نصف كلامك صحيح، ونصفه الآخر ليس كذلك، نحن يهود، نحبُّ دولتنا، ولكننا عندما وجدناها مجحفة لم نسكت، وهذا يدلُّ بأننا لم نعد عرباً ..!».

- نعم، أنتَ لستَ عربيَّاً، إنك مارك ..!

وضحك أبو روحي، بينما شارلي عبَّر عن اشمئزازه، بتقاطيع وجهه، وهو يقول:

- لقد أصبحتُ مثلهم؛ الأشْكِنَاز، اليوم يلقِّبون السفردي مثلنا مارك، وبُكْرَة مَنْ يعلم ماذا سيُلقِّبونكم؟ إنهم لا يعيشون دون أن يطلقوا الألقاب، ساخرين من الآخرين، ولا يهمُّ مَنْ هم الآخرون، قد نكون نحن يهود مثلهم، وقد تكونون أنتم، وقد يكون كلُّ الناس في العالم.

فهمتُ من خلال جدال أبي روحي وشارلي أن الأخيرَ وزملاءَ له أسَّسوا

منظَّمة الفهود السُّود على غرار منظَّمة شبيهة في أميركا تطالب بحقوق السود هناك، وأنهم هنا يطالبون بحقوق الفقراء اليهود، ليس فقط في المُصْرَارَة؛ ولكنْ، أيضاً في كلِّ البلاد، ولكنهم هنا بالذات صوتهم هو الأعلى، واحتجاجاتهم هي الأكثر إحراجاً لحكومتهم، لقدرتهم على إغلاق طُرُق في القُدْس، «العاصمة الموحَّدة الأبديَّة»، والاعتصام أمام الوزارات والبلديَّة.

قال شارلي لأبي روحي: «بدنا نَفَسُكم معنا».

ردَّ أبو روحي ضاحكاً: «كيف؟ ماذا تعني؟ نحن المحتلّون، وأنتُم الذين احتللتُمونا، كيف يمكن أن نكون معاً؟!».

– أنتم الآن مواطنون في القُدْس الموحَّدة، صحيح بأنكم مصنَّفون كمقيمين، ولكننا جميعاً تحت إدارة بلديَّة واحدة، ويمكن أن نعمل معاً من أجل مصلحة فقرائنا وفقرائكم - قال شارلي.

- بلديَّتكم بلديَّة احتلال، فقراؤنا يريدون التخلُّص من الاحتلال، وفقراؤكم يريدون أن يستفيدوا من الثراء الذي يجلبه الاحتلال.

وروى أبو روحي حكايات عن يهود شرقيِّيْن يتكلَّمون العربيَّة، جنَّدتهم قيادة الحكم العسكريّ الإسرائيليّ في إداراتها المختلفة بمُدُن الضفَّة الغربيَّة، وسلَّمتهم ملفَّات تخصُّ السكَّان، مثل الصحَّة والتعليم، ودوائر السير والمواصلات، وغيرها، وفي مناصبهم هذه، استغلُّوا الأهالي، وأثروا من الرِّشَا التي يأخذونها مباشرة، أو بشكلٍ غير مباشر، عن طريق طبقة تابعة لهم، وتضع نفسها في خدمة أيِّ دولة أو احتلال، كالمخاتير القدامى، ومنْ رفض التعامل معهم من المخاتير، نَحُّوه جانباً، وعيَّنوَا مخاتير جدداً.

قال أبو روحي:

- حتَّى وسائل الإعلام الموجَّهة لديكم كالإذاعة والتلفزيون شغَّلتم لديها

مرتشين، مثل علي عمَّار، الذي يحلُّ مشكلات الناس، أو يزعم أنه يحلُّها، ويتلقَّى رِشاً، ويساعد مخابراتكم، بابتزاز أصحاب الحاجات، ليصبحوا عسساً على مواطنيهم.

لفت انتباهي بشدَّة ذكره لعلي عمَّار، وأردتُ تذكُّر وجهه الذي لا يشي بشرٍّ، ولكنْ، ها هو أبو روحي يكشف ما كان لعقلي الصغير أن يفكِّر به، عليَّ أن أكبر بسرعةٍ، كما تريد والدتي ووالدي، وأفهم تعقيدات حياتنا في القُدْس.

وكأن شارلي لم يسمع ما ذكره أبو روحي رغم استماعه له بدون مقاطعة، وعندما انتهى واصل النقاش من حيث بدأ:

– أنتَ غلطان، يا صاحبي، يمكن أن نناضل معاً ضدَّ الفقر ومن أجل السلام، ولو صوَّتُّم في الانتخابات، فستتمكَّن من إيصال ممثِّلين عنَّا إلى مجلس البلديَّة، يرفعون صوتنا وصوتكم ومطالبنا المشتركة.

- دعوات مقاطعة الانتخابات تلقى قبولاً لدى الأهالي، وعندما يلتزمون الصمت، يوم الانتخابات، لا يكلِّفهم ذلك شيئاً. ولا يعرِّضهم لمخاطر.

– ولكن هذا خطأ، وإهدار لأصواتٍ يمكن أن تساعدنا نحن اليساريِّيْن.

- إن نضالهم الصامت هو أسلوبهم، ليُعلنوا للعالم بأن الاحتلال غير شرعيٍّ.

– وماذا سيستفيدون من إعلام العالم؟ هل سيأتي العالم، ليُنظِّف شوارعكم، ويحلَّ مشكلاتكم، ويمنحكم حقوقكم التي تدفعون بدلاً عنها الضرائب الباهظة؟ عليكم أن تفكِّروا بمنطق ما حدث، ونحن أوَّل المعارضين لاحتلال أراضيكم، وندعو حكومتنا للانسحاب إلى حدود الرابع من حزيران، ولكنْ، عليكم التفريق بين المطالب المعيشيَّة اليوميَّة والأخرى السياسيَّة.

بدا أن أبا روحي ملَّ من النقاش، فحاول إنهائه:

- أنتَ صاحبي، يا شارلي، وستكتشف يوماً أنكَ عربيٌّ، وتتخلَّص من صهيونيَّتكَ، وحتَّى ذلك الوقت يمكن أن نناضل معاً ضدَّ الاحتلال، ودعكَ من معيشتنا التي كانت وستظلُّ مثل الزفت ..!

تأفَّف شارلي، وقال مُسلِّماً بعدم جدوى النقاش مع أبي روحي:

– سأفكِّر، يا صاحبي، وأنقل رأيكَ لرفاقي الفهود ..!

وعندما غادر شارلي، أمسك أبو روحي بيدي، وعدنا إلى الموقف، وهو يُردِّ د أبيات زجل تهجو ملوك العرب وهزيمتهم في فلسطين، متَّخذاً طريقاً التفافيَّاً، يمرُّ من بين المنازل العربيَّة في الجزء من المُصْرَارَة المحتلِّ عام 1948، ليُرِيَني على عتبات أبوابها العليا سنوات بنائها مُشكَّلة بالحديد من أرقامٍ عربيَّة، وبعضها ما زال اسم صاحبها محفور عليها.

- هذه المنازل التي يسكنها شارلي وصحبه، إنها منازلنا، تنتظر أصحابها الذين هُجِّروا منها إلى القُدْس الشرقيَّة، وبلاد العرب أو يمكن أن يكونوا وصلوا آخر الدنيا، ويريدنا شارلي أن نضع أيدينا بأيديهم ..!

– ولكنكَ قلتَ بأنه صاحبكَ؟

- صاحبي؟!يمكن أن نكون أصحاباً في تعاملات يوميَّة، ولكنَّ ما في القلب، فهو في القلب.

– هذا يعني، أنكَ تُظهِر ما لا تُبطِن؟

- علينا أن نفعل ذلك، أن نُناور، نسمع منهم، لنكون على بيِّنة فيما يحدث لديهم، ولكننا نقرِّر، في النهاية، ما نراه صحيحاً، وهذا ما نفعله، أنا ووالدكَ، وباقي الأصدقاء.

توقَّف أبو روحي أمام أحد المنازل، وطلب منِّي أُن أدقِّق النظر، وأخبره،

بما أرى، وألاحظ، فرأيتُ بوَّابة كبيرة مشرعة على ساحة، ولكنني لم ألحظ.

تدخَّل أبو روحي وقد ملَّ من عدم ملاحظتي: «الدكتور توفيق شاغوريَّة طبيب أسنان وجرَّاح، انظرْ كيف نُقشَت هذه الكلمات باللغتَينْ العربيَّة والإنجليزيَّة على الرخامة، التي تأثَّرت من تبدُّل الفصول، وكرور الأعوام، وصدئت مساميرها المثبَّتة، وتركها المحتلُّون على منزل دكتور القُدْس، الذي خلع أعداداً لا حصر لها من أسنان الناس، وركَّب لمقتدرين أسناناً ذهبيَّة. المنتصر لا يُخفي جريمته، والمهزوم لا يكتب قصَّته، ووحدها الرخامة تحكي جزءاً من القصَّة في هذه المدينة التي لا تعيش إلَّا بالقصص، عليكَ أن تكتب، في يومٍ، قصَّتنا وقصَّتكَ، يا كافل..!».

أضاف: «تمعَّنْ، في الآزمة الحديثة؛ حوَّل المحتلُّون منزلَ الدكتور، إلى معهد لتدريس الموسيقى واللغات باسم بولس، ولكنْ، بقيت الرخامة التأسيسيَّة شاهداً».

العشرون

بعد ساعة أو أكثر عاد والدي، وقال لي بأننا هذا اليوم سنعود مبكِّراً إلى المنزل، حتَّى نُسعِد الأمَّ التي قلقت بالأمس ولم تكن سعيدة بما فيه الكفاية. أركبَني بجانبه، وانطلقنا غرباً عبر شارع السلطان سليمان، وانعطف شمالاً، بحيث أصبحنا أسفل سور القُدْس الشرقيّ، والمقبرة اليُوْسُفِيَّة. وتوقَّف والدي، وطلب منِّي النزول، للنظر إلى قريتنا من عَلٍ.

كانت النُّصْب القديمة تنتصب أمامنا في وادي جهنَّم، قال لي والدي ونحن نرى مجموعة من الفِتيَة يتقافزون حول طَنْطُوْر فرعون، ويحاولون، دون جدوى، تسلُّق قُبَّته: «ونحن أطفال كان هذا الوادي ملعبنا، لقد سمَّاه ناسنا، والأجانب، واليهود، أسماء من كثرتها لا أعرفها كُلَّها، مثل وادي قدرون، ووادي جهنَّم، ووادي يهوشفاط، ووادي النار، ووادي سِتنا مريم، ووادي سِلْوَان، ووادي القيامة، ووادي يوسف، فنحن واليهود نعتقد بأنه المنطقة الأقرب إلى السماء في العالم، مَنْ يُدفَن فيه سيكون مِن أوائل مَنْ ينهض من غفوته يوم القيامة، وسينصب حبلاً طويلاً، حادَّاً كالسيف بين سور القُدْس ومصعد المسيح على جبل الزيتون، وسيسير على ما يُسمَّى الصراط المستقيم، الناس كلُّ الناس، المؤمن منهم سيصل سالماً ويدخل الجنَّة، والكافر سيسقط في جهنَّم هذا الوادي».

يفاجِئني والدي دائماً بحكاياته التي لا تنتهي، وسرَّني أن يكون يوم الدَّيْنونَة في وادينا هذا الذي يفصل القُدْس عن جبل الزيتون.

واستمرَّ في مفاجأته:»بالنسبة إلى اليهود، فإنهم يعتقدون، بكلِّ ثقة، بأن المسيح المُخَلِّص عندما ينزل إلى الأرض، أو يظهر فيها، من مكانه الذي

لا أعرف إن كان في السماء أو في الأرض، فإنه يأتي إلى الوادي راكباً حماراً أبيض، فينهض الموتى، ويسيرون خلفه، نحو خلاصهم».

كان لديَّ أسئلة كثيرة حول المسيح المُخَلِّص، ولكن والدي بدا بَرِمَاً بطفلٍ، أراد أن يعرف كلَّ شيء مرَّة واحدة. فحدَّثني باقتضاب عن الأعور الدجَّال، وهو الرجل الذي سيأتي في آخر الزمان، وسيدَّعي بأنه المسيح المُنتَظَر، ولكنه ليس إلَّا رجلاً فاسداً كاذباً ساحراً غشَّاشاً. سيعرف حقيقته فقط المؤمنون الحقيقيُّون، عندما ينظر الواحد منهم إلى جبينه، فيدرك، من علامة مميَّزة لا تظهر إلَّا للأتقياء، بأنه ليس إلَّا دجَّالاً، وبأنه سُمِّيَ مسيحاً، لمسح عينه اليمنى، فلا يرى فيها، ولسرعته بالسياحة في الأرض ومَسحها.

صَمَتُّ وأنا أُمنِّي النفس، بسؤال أُمِّي عن الموضوع، التي لن تبخل عليَّ بأيَّة معلومات لديها عنه، مُخمِّناً بأنه من المواضيع التي تحبُّ الحديث فيها، وحتَّى يتمَّ ذلك، سألتُ والدي إذا صادفتُ الدجَّال في الطريق، فهل سأعرفه حقَّاً أم أنه سيضحك عليَّ، ويرميني في نار جهنَّم؟ ابتسم والدي، ونظر إليَّ مَليَّاً، وقال ضاحكاً:

- لا أظنُّ أنكَ ستعرفه، يا كثير الأسئلة، مَنْ يسأل كثيراً سيصبح شكَّاكاً، والمعتقدات تحتاج إلى مؤمنين، عموماً لن يظهر الدجَّال في المنظور القريب، لأن ظهور هذا الساحر الكذَّاب سيكون إحدى علامات الساعة الكبرى، ويبدو أنها ليست قريبة كفاية، رغم ما نراه من أهوالٍ ومآسٍ، وإن ظهر، فإنني سأكون معكَ، حامياً، ومرشِداً، لا تقلقْ، يا بنيَّ.

وانتقل والدي ليُواصل حديثه عن وادي جهنَّم:»هذا الوادي ارتبط بقصص توراتيَّة وإنجيليَّة وإسلاميَّة وشعبيَّة عديدة، ولهذا السبب اكتسب شهرة عالميَّة. أتعرفُ ماذا تعني كلمة قدرون باللغة العبريَّة؟ طبعاً لا تعرف، كما لم أعرف أنا عندما سألني والدي عندما كنتُ في مثل سنِّكَ، أو أصغر قليلاً، إنها تعني العميق، هي رمز للمياه الكثيفة التي كانت تجري

فيه، ولكنه الآن، كما ترى خالٍ من المياه، وعبارة عن وادٍ جافٍّ، يمرُّ من قريتنا، وعندما يلتقي بوادي الربابة في البساتين، يُواصِل سيره باتِّجاه البحر الميِّت، يكبُّ فيه كلَّ أوزار القُدْس التي تغسلها مياه الأمطار».

شدَّني والدي بكلامه، وأعتقد أنه كان يقصد ضَخَّ أكبر كمِّيَّة من المعلومات عن قريتنا، في دماغي الصغير، المحبِّ للحكايات، حتَّى وإن أبدى تبرُّماً غير جِدِّيٍّ من أسئلتي، التي تأتي بالنسبة إليه في غير أوانها، فتبليل خططه الحكائيَّة، التي يريد أن تُحدِث الأثر الأكبر عليَّ، وتقطع سيل أفكاره.

قال لي: «انظرْ، تلك كنيسة الجُثْمَانِيَّة، دَقِّقِ النظر في أعمدتها وواجهتها ورسومها، انظرْ للأعمدة الورديَّة المبهرة الأكثر اكتمالاً وجمالاً، تخيَّلْ كيف حفَّها الحجَّارون، ودوَّروا الواحد منها مثل زنبوط البصل، يصغر تدريجيَّاً تواضعاً وجمالاً كلَّما ارتقى إلى الأعلى، هذا هو العَمُود الفلسطينيّ، كلُّ هذا الجمال في الأعمدة الورديَّة بدأ للأسف ينتهي مع الترَدِّي وأمِّيَّة العيون والقلوب، وأساليب العمل المستحدَثة في وِرَش البناء اليهوديَّة، حيث تحوَّل الأعمدة إلى ما يشبه المواسير البشعة. فالأشخاص مثل الأعمدة، وكثيرون ممَّنْ كنتُ أراهم أعمدة، وحِراب، وزنابيط بصل أخضر تحوَّلوا، بعد الحرب بسرعةٍ فائقة، إلى مواسير جاهزة، كتل معبَّأة بالإسمنت، في خدمة أيِّ مفصل في مشاريع الاحتلال، بدرايةٍ أو بدونها، ومَن كنتُ أراهنَّ نخلات، أصبحنَ صفصافات، يملنَ مع الريح، وأَيَّة ريح؟ هذا ما فعلتْهُ الحرب برجال ونساء القُدْس. فالبيوت تُعرَف من أعمدتها، والناس تُعرَف بأعمدة بيوتها، والقُدْس بباب عمودها، وجبل زيتونها، ومساجدها وكنائسها، وقِبابها، وأسواقها، وأزقَّتها. وعندما تكبر ستعرف كم هي جميلة جثمانيَّتنا هذه، وهل رأيتَ الألوان التي تغطِّي صورة المسيح ورفاقه والملائكة؟ لا أظنُّكَ انتبهتَ إلى تمثالَي الغزالَيْن المتقابلَيْن أعلى الجدارَيْن».

سألتُ والدي عن معنى وجود الغزالَيْن وحدهما خارج إطار الجداريَّة،

فَصَمَتَ، ربَّما ليحاول استجماع كلمات تناسب عقلي الصغير، ولكنه فاجأني: «بصراحة، لا أعرف، يا بُنيَّ، يأتون من خلف البحار فيصمِّمون لنا كنائسنا ولوحاتها، وتماثيلها في داخلها صخرة أصغر من الصخرة في قُبَّة الصخرة، فدُوْر العبادة تحوي، في بعض الأحيان،

صخوراً، ربَّما لأسباب رمزيَّة، أمَّا صخرة الجُثْمَانِيَّة هذه، فهي الصخرة التي صلَّى وبكى عليها المسيح قبل أن يعتقلوه في بستان الجُثْمَانِيَّة، بين أشجار الزيتون الرومانيَّة. سأرافقكَ لتراها، ونحن صغار كنَّا نأتي إلى البستان، ونقطف الزيتون من أشجار الزيتون الرومانيَّة المعتَّقة، ونعود فَرِحين لأُمَّهاتنا بغنيمتنا، غير آبهين بمكانتها المقدَّسة، أو أننا كنَّا نخطو على الأرض نفسها التي خطا عليها المسيح، وسُلِّم لأعدائه نتيجة الخيانة، ليس مثل إحساس الزوَّار الأجانب بذلك، الذين تظهر عليهم علامات التأثُّر، ومنهم مَنْ يبكون عندما يستعيدون تلك اللحظات الفارقة في تاريخ البشريَّة، التي شهدها بستان الجُثْمَانِيَّة».

ثمَّ وجَّه انتباهي إلى كنيسة سِتنا مريم، التي يقال بأنها دُفِنَت فيها، ويقدِّسها مسيحيُّو العالم، ومسلمو القُدْس: «كنتُ ألحق أُمِّي إلى كنيسة سِتنا مريم، وتأتي إليها لتُشعِل الشموع في صحنها المظلم، وتنذر النُّذُور، وتمسك بيدي، كي لا أتعرقل ونحن ننزل الدَّرَجَ العريض، الذي تخيَّلتُ بأنه لن ينتهيَ. أمَّا هناك في الأعلى، فإنكَ ترى مجموعة من الذين يرتدون المعاطف السوداء، إنهم اليهود يحوسون في مقبرتهم، عندما تكبر، يا ولدي، وإذا لم ينقشع الاحتلال، سترى كيف تتمدَّد هذه المقبرة، لتحتلَّ جبل الزيتون، وتسيطر على المشهد؛ لأن تقاليد الدفن عند اليهود تحجز لكلِّ ميت مكاناً خاصَّاً به من الأرض، لا يشاركه فيه أحد. وإذا استمرَّ التمدُّد الأفقي للقبور، فإن القُدْس ستتحوَّل كُلُّها إلى مقبرة. خصوصاً وأن هذه المقبرة تستقبل موتى يهود من مختلف أنحاء العالم».

ولليهود اعتقاداتٌ، شرحها والدي: «لو حدث وطارت أغطية القبور

الحجريَّة فجأة، لرأيتَ، كيف أن الجثث تتَّجه بأقدامها نحونا، نحو المسجد الأقصى، الذي يُسمِّيه اليهود جبل الهيكل، حتَّى لا يُضطرُّوا عندما تقوم الساعة إلى النهوض والالتفاف نحو القُدْس، بل ينهضون فوراً، ويتَّجهون إليها. ويفضِّل اليهود الدفن هنا أيضاً لسبب يعتبرونه وجيهاً، فهم يؤمنون، حسب تأويل لآيات في الكتاب المقدَّس، أن الميِّت عندما يُدفَن لا يتوقَّف عن التململ والدحرجة، حتَّى يتخلَّص من آثامه، ولكنْ، هناك على جبل الزيتون، لا يحدث ذلك، لأن الأرض مقدَّسة، والتربة نقيَّة، وحتَّى ما يتركه اليهود في شقوق حائط المبكى، الذي نُسمِّيه حائط البُرَاق، فإنها عندما تكثر وتسقط من الشقوق، يجلبونها للدفن في تراب جبل الزيتون، فلا يريد اليهود أن يضيِّعوا أيَّة فرصة في الدنيا أو في الآخرة، ويقولون بأن آدم ونوحاً عندما كانا في الجنَّة، كانا يتكلَّمان العبريَّة، وعندما يُبعث الناس في وادي النار سيُكلِّمهم الله بالعبريَّة، ومَنْ لم يفهمها، سيجد نفسه في ظرفٍ صعب».

ابتسمتُ لنبرة صوت والدي الساخرة، ولكنه لم يُعلِّق، وتنفَّس بعمقٍ، وواصل: «ستَذرف القُدْسُ الدموعَ مرَّات ومرَّات، ما زال لديها مخزون منه لا ينضب، وكأنها ليست مدينة للسلام، وإنما للقهر. فانظُرْ هناك إلى أعلى، أعلى الجُثْمَانِيَّة، إلى بداية الصعود لجبل الزيتون. هل ترى الكنيسة التي تشبه الدمعة؟ هذه كنيسة الدمعة، تخليداً لبكاء المسيح على القُدْس. منذ المسيح وقبل المسيح وأهالي القُدْس يبكون عليها، حتَّى وهُم يُرمِّمُونها، كانت تؤكِّد مكانتها التي لا يزاحمها فيها أحد، ككنيسة دموع، وأذكر كيف أسرعنا، ونحن صغار نحوها، عندما جاء الخبر، بأن صليباً سقط من سطح الكنيسة، على الأرض جثَّة هامدة، وجدنا والده المسنَّ، وأشقاءَ له وسكَّاناً من جبل الزيتون يتحلَّقون حول الجسم الذي كان قبل قليل ينبض حياةً وضحكاً، وتحوَّل إلى جُثَّة ممدَّدة هامدة على الأرض، ثمَّ حملوه وأدخلوه إلى الكنيسة، وسُجِّي على الطاولة الرخاميَّة بجانب

الشُّبَّاك الذي تظهر منه قُبَّة الصخرة وكنيسة القيامة، وكأنهم يُلبُّون رغبة أخيرة له، بوداع كنيسة الدمعة، التي كانت تحتاج إلى قربانها الأخير، كما همس الراهب العراقيُّ المسؤول عنها، ولكنَّ والده قال بصوتٍ مخنوق، محتجّاً: كم تحتاج القُدْس إلى قرابين؟».

تجمَّعت لديَّ كومة أسئلة، ولكن والدي طلب منِّي الاستعداد للعودة، وهو يقول: سنتحدَّث في وقتٍ لاحق. وأوصلَني المنزل، ولم يمكث فيه إلَّا قليلاً، قاد مَرْكَبَته، صاعداً مرَّة ثانية إلى القُدْس التي لم تُنهِ حسابها بعدُ مع الألم والدموع.

الواحد والعشرون

في اليوم التالي، استحوذت على انتباهنا المجموعات اليهوديَّة الكبيرة التي وصلت العَيْن، وتريد أن تنطلق منها عبر النفق الذي حفره العمَّال قبل آلاف السنين، وتظهر آثار ضربات أزاميلهم على جانبَيْه، إلى البِرْكَة التي يُقدِّسها المسيحيُّون، لأنها شهدت إحدى عجائب السيِّد المسيح، ومنذ زمن هي وَقْف إسلاميٌّ.

قال والدي: «لن تعود قريتنا كما كانت، سيطردوننا في يومٍ من الأيَّام، لقد بدؤوا محاولات السيطرة على منازلنا، ويتردَّد أنهم سيشترون من أصحاب النفوس الضعيفة منازل لمستوطنيهم، سيسكنون بيننا، والله وحده يعلم ماذا ستكون نتيجة الاحتكاك».

أضاف: «كنَّا ننقسم إلى مجموعتَيْن، الأولى تدخل إلى النفق من العَيْن، والأخرى من جانب البِرْكَة، وكُلُّ واحد منَّا يحمل شمعة بيده، وعندما نلتقي في وسط النفق الذي يزيد طوله عن خمسمائة متر، نكون في غاية الفرح، وقبل قرن من الزمان كان جَدُّ والدي وشقيقه طفلَيْن -مثل باقي أطفال قريتنا الذين اعتادوا الدخول في النفق - عندما التقيا الخواجا كونراد شيك، المعروف لهما ولغيرهم من أولاد القرية، فهو وجه مألوف، وليس من النادر رؤيته في القرية يبحث عن الآثار، ويتأمَّل العَيْن والبِرْكَة، التي يسمِّيها بِرْكَة الشلواح، وأخذا يشرحان له لعبة الأولاد، بالدخول من الجانبَيْن والالتقاء عند النقش، الذي يقع في منتصف النفق تقريباً.

فلم يُصدِّق الألماني شيك الذي عاش في القُدْس باحثاً منقِّباً، وبانياً للمباني المميَّزة، الأمرَ، وعندما قاداه إلى الموقع عرف أنه أمام نَقْش يُخلِّد وصول مجموعتَيْن من الحفَّارين، من جهة العَيْن وجهة البِرْكَة، إلى نقطة الالتقاء وإنهاء العمل الشاقّ، الذي نُفِّذ لضمان وصول الماء للسكَّان، عندما تُحاصر القُدْس عبر نفق طويل يربط قريتنا بالمدينة المقدَّسة، وما لَعِبُ أولاد قريتنا إلَّا صدى لما فعله أجدادنا البناة العظام، فصرخ شيك: هذا نقش الشلواح».

سألتُهُ أكثر عن شيك، فقال والدي: «اعتبرَ شيك أن النَّقْش من أهمِّ الاكتشافات الأثريَّة في القُدْس آنذاك، يُخلِّد حفر النفق الذي أمر به الملك حَزَقِيًا، كيف استنتج ذلك، رغم أن النقش لا يحمل اسم أيِّ ملك أو أيِّ شخص؟ سؤال إجابته بسيطة، فالعمُّ كوكو، كما يُعرَف في قريتنا، مثل آخرين غيره من المنقِّبين حملوا الفأس بيدٍ، والتوراة بيدٍ أخرى، فنقَّب فيها، ليجد أن حَزَقِيًا حفر نفقاً في القُدْس، فإذن هذا هو نفق حَزَقِيًا، وليس مُهمّاً إذا كان النقش الذي كتبه العمَّال أو الحُرْفيُّون، بالكنعانيَّة، لا يأتي على سيرة المَدعوِّ حَزَقِيًا المبجَّل، وأسال اكتشاف النَّقْش لُعَاب العديدين الذين بحثوا عن المجد في آثار قريتنا، مجد كلٍّ منهم الشخصيّ، ومجد التاريخ. لقد أعطى النَّقْش دفعةً حقيقيَّة لاستمرار البحث والتنقيب في الموقع، وحفر العمُّ كوكو عدَّة حفريَّات على طول وادي جهنَّم، واكتشف عدَّة اكتشافات».

في البدء لم أنتبه ونحن نصعد من وادي حُلْوَة، لمَا يجري في تلِّ الظهور، ولكنَّ كثافة العمَّال الذين يحفرون، وكأنهم يُسابِقون أنفسهم، جعلتْني أشير لوالدي لألفتَ انتباهه، وكأنه لم ينتبه أصلاً. فقال والدي:

«مستمرُّون في أخذنا وأخذهم إلى نقطة اللا لقاء واللا عودة، فلاشيء يثير ناسنا كالمساس بمقدَّساتهم».

هذه المرَّة لم نفطر في المنزل، وإنما تناولنا فطورنا حُمُّصاً، وفلافل، في مطعم العِكِرْمَاوِي في المُصْرَارَة، الذي بدأ يستقطب أيضاً يهوداً، من بينهم صحافيُّون وكُتَّاب، وشبيبة، فالجميع بدأ يتجوَّل في قُدْسنا التي احتُلَّت مؤخَّراً، ليكتشف ويعرف ويحاول، أن يسبر غور الناس وطريقة تفكيرهم.

انتبهنا إلى نقاشٍ بين صاحب المطعم وصحافيٍّ إسرائيليّ يَعُدُّ كتاباً عن القُدْس الموحَّدة، كما أصبح اسم القُدْس بعد الاحتلال، وهكذا سمَّاها الإسرائيليُّون وأضافوا إليها وصفاً يقينيّاً غير قابل للنقاش: «إلى الأبد». لم أكن حينها، أفهم كثيراً في المصطلحات السياسيَّة، وإن كان والدي حاول أن يستعرض لي كيف تغيَّرت أسماء فلسطين، وأجزاء منها بسبب الحروب، فظهرت أسماء مثل الضفَّة الغربيَّة، وقطاع غزَّة، والخطِّ الأخضر، وأخيراً: القُدْس الموحَّدة إلى الأبد، والتي هي، بالنسبة إلينا كفلسطينيِّيْن؛ عاصمتنا الأبَدِيَّة، أبدنا مقابل أبدهم.

قال صاحب المطعم المُسِنُّ، الذي خلَّد اسم قريته في القُدْس التي احتُلَّت عام 1948م، بكُنيته التي منحها للمطعم:

- لن تدوم لكم كثيراً، مثلما لم تدم لغيركم ...!

ردَّ الصحافيُّ:

– المهمُّ أن المنتصر الآن هُوِيَّته معروفة، وما زالت السَّكْرَة تُطوِّح رؤوس جنرالاتنا، فمنذ عهد الرومان لم نحقِّق نصراً كهذا، وشارون يقول بأن اليهود لم يكن لديهم جيشٌ بهذه القوَّة منذ هزمهم الرومان، وشتَّتوهم، والجنرالات

نشوى بجيش اليهود الجديد القويّ. عليكَ أن تنتبه بأن القُدْس أصبحت الآن بلا أسوار، هذه الحجارة التي تراها من مطعمكَ لا وظيفة لها، تحطَّمت معنويّاً، ولن تعود القُدْس أبداً كما كانت ..!

- أنتم مَنْ تتمسَّكون بالأسوار، هدمتُم حارة المغاربة، وتعتقلون الشبَّان، وتقتلون مَنْ تشتبهون به بأنه من الفدائيِّيْن، هذه تصرُّفات الخائف، وليس المنتصر ..!

– أنتَ تعرف بأننا لا نخاف، وأنتَ كنتَ شاهداً على المعركة الطاحنة قريباً من هنا، وقتال جنودنا ببسالة، ولكنني أتَّفق معكَ، بأنه يجب أن يكون هناك عدالة في المساواة بين الناس، لننتظر ذهاب السَّكْرَة وعودة الفكرة للجنرالات ..!

- أبطالنا مَنْ قاتلوا ببسالة، لأنهم كانوا يدافعون عن الحقِّ ..!

– أنتم تقولون أبطالنا ونحن نقول أبطالنا. نحن لا نختلف على الوقائع، وإنما على تفسيرها.

- الأمور بالنسبة إلينا واضحة، هذه أرضنا، وأنتم احتللتُمُوها، مثلما احتلَلَتُم قريتي عيْن كارم، وسكنتُم منزلِّي، وتقول لي نختلف على التفاسير، هل نحن إزاء كُتُب مقدَّسة؟

– لا، ليست كُتُباً مقدَّسة، وإنما أبقار مقدَّسة، يا خبيبي، لا يجرؤ أحد على ذبحها، عندنا وعندكم، لو توقَّفت الأمور عليَّ وعليكَ، لأنهينا القصَّة خلال بضع دقائق، نعم، نحن قد نتَّفق على ما حدث، ولكنْ، لكلٍّ منَّا تفسيره الخاصُّ، وعلى فنجان قهوة في مطعمكَ هذا وأمام هذه الأسوار الصامدة منذ قرون، سنصل إلى تفسيرات مشابهة، ولكنْ، يبدو أن الجنرالات لن يكتفوا بما نزل من دماء، مَنْ سيُقنع شارون بالتوقُّف؟

ضحك جميع الجالسين في المطعم الصغير عندما كرَّر الصحافيُّ مسألة سَكْرَة الجنرالات وذهاب الفكرة بشكل كوميدي هذه المرَّة. فوقف والدي، وأنقد صاحب المطعم الحساب، وهو يبتسم ابتسامة عدم رضا، ولم أعرف لماذا كان غير راضٍ، عن حديث العِكرِمَاوِي مع الصحافيِّ الإسرائيليِّ؟ هل أزعجه مجرَّد الحديث مع واحدٍ من المحتلِّين الجدد أم مضمون الحديث؟

في تلك الأيَّام، لم يكن من السهل، معرفة ما يُبطِن والدي، الذي لم يكفّ عن تزويدي بالمعلومات والحكايات، وكأنه سيذهب في رحلة يغيب فيها طويلاً، ويريد أن يضخَّ فيَّ أكبر قَدْر ممَّا يرغب به، ويُرغِّبني فيه.

غاب والدي بعد العصر، وتأكَّدتُ هذه المرَّة بأن المرأة السمراء تنتظره، لقد رأيتُها تحمل حقيبة بين يدَيْها، وعندما اقترب والدي، وضعتْها على كتفَيْها، وغابا معاً، وقدَّرْتُ أنها ليست إلَّا مريم التشاديَّة، أو أنني كنتُ أعتبر كلَّ امرأة سمراء هي بمثابة مريم، تحمل تقاطيع وجهها التي تعطيها الكثير من البراءة، حيث تُخفي ذكاءً واعتداداً بالنفس، واندفاعاً غير محسوب، هكذا تصوَّرتُها وهي ترتدي تنُّورة قصيرة، تُظهِر اسمرار ركبتَيْها الأغمق من رَبْلَتَيْها الناعمتَيْن، وتَظهر عِقْصَة شَعْرها على قمَّة رأسها، استعدادها الدائم لخوض معركتها الخاصَّة.

الثاني والعشرون

تمشَّيتُ، كالعادة نحو باب العَمُود، وأدرتُ ظهري له هذه المرَّة، مستنداً على الدرابزين المعدني، ناظراً نحو شارع السلطان سليمان، متأمِّلاً عِمَارَة الأولومبيا، التي استقبلت مقيمة جديدة فيها، أُمّ العبد، التي فتحت مكتباً لتقديم الخدمات للناس الذين يعانون في دروب أجهزة الاحتلال الجديد المعقَّدة، ولم تكن أُمُّ العبد سوى زوجة علي عمَّار، قيل بأنها محامية، وقيل جاسوسة، وقيل غير ذلك، وما أكثر ما قيل عنها، وعن نشاطها في مساعدة طالبي الحاجات، وما أكثرهم، مقابل ما ينقدونها من أموالٍ.

كيف يمكن لامرأةٍ يهوديَّة أن يكون اسمها أُمَّ العبد؟ هذا ما حصل، وجد الناس الكُنية مناسبةً لها، وربَّما هي التي أطلقت على نفسها ذلك، حتَّى تكون قريبة إلى زبائنها، كما فعل زوجها باسمه العربيِّ.

التقيتُ الكثيرين في المُصْرَارَة، من الذين يسألون عن عنوان مكتب أُمِّ العبد، التي تستقبلهم بابتسامةٍ محسوبةٍ بدقَّةٍ، وبكلامٍ هادئ، تحرص أن يكون منطقيَّاً، وتعد بدراسة كلِّ ملفٍّ، ويعلم الزبائن، بأن لأُمِّ العبد أساليب في حلِّ الإشكالات، غير تلك القانونيَّة، فهي وزوجها يعرفون العديد من المسؤولين، وما دامت الأمور تتعلَّق بأراضٍ مُحتَلَّة، وأُناس مُحتَلِّين، فيمكن غَضُّ الطرف عن الرِّشَا التي يمكن أن تُدفَع، وتزيد ثروات موظَّفي إدارات الاحتلال.

وأنا أفكِّر محتاراً في شخصيَّة أُمِّ العبد، كما أسمع عنها، كان قلبي ينبض

في جانبٍ آخر، انتصر في النهاية على سيرة اليهوديَّة التي تستأجر مكتباً وسط العرب، لتحلَّ مشكلاتهم، ومشكلاتها.

شعرتُ وكأنني ناديتُها بقلبي، وأنا أراها تتقدَّم نحوي، بكلِّ هذا الجمال، والبهاء، والهالة الضوئيَّة التي تحيط بها، كأنها واحدة من أيقونات كنائس جبل الزيتون، وتقف بجانبي تنظر إلى باب العَمُود، وشعرتُ بأنها تستبعدني من حيِّزها، ولم أجرؤ على فتح حديث معها، ولكنها ما لبثت أن فعلت هي، وربَّما شجَّعها أنها أكبر منِّي قليلاً أن تُطلق شرارة الأسئلة معي، وتُقَطِّع حبل الصمت:

– أنتَ من هنا، من القُدْس؟

- نعم، وأنتِ؟

– أنا أيضاً من القُدْس!

وبعد لحظة صمت، قالت:

– هل يمكن أن تذهب معي إلى المسجد الأقصى؟

فوجئتُ بطلبها السريع، ونحن لم نكد نتعرَّف على بعضنا، حتَّى إن الواحد منَّا لا يعرف اسم الآخر. فكَّرتُ قليلاً، وقلتُ لها بأنه يمكنني ذلك إذا كان مشوارنا سيكون سريعاً، لأعود قبل عودة والدي.

– آمل أن يكون سريعاً ..!

وأخرجتْ من جيبها مَحْرمة مخضَّبة بلونٍ يميل إلى السواد، قالت لي إنها دماءٌ جافَّة، يريد صاحبها المَنفي بعيداً عن القُدْس، أن نغسلها تحت شجرة زيتون في المسجد الأقصى، ليمتزج دماؤه بالتراب المقدَّس الذي عشقه، ولا يستطيع الوصول إليه، ولن يتمكَّن من ذلك في المستقبل القريب، وربَّما البعيد أيضاً.

استحوذ الموضوع عليَّ، وأدركتُ تفوُّق هذا الفتاة التي لا أعرفها في أمورٍ وطنيَّة تُحمِّسني، وبطلاقة الكلام، والذكاء، والجرأة، وشعرتُ بأنني تمنَّيتُها أن تحضر دون أن أعرف لماذا وكيف؟ وبأن خطواتي قادتني إلى باب العَمُود هذا اليوم، فقط، لأكون في انتظارها.

مدَّت يدها إليَّ:

– أنا لُور .. وأنتَ ..!

قلتُ متلعثماً:

- أنا كافل ..!

– اسمكَ غريب ..!

- واسمكِ أنتِ أيضاً غريب ..!

أمسكتْ بيدي، بحركةٍ جريئة، وكأنها أرادت أن تُعلن صداقتنا، بقوَّة وبدون خشية من أحد، ونزلنا درجات باب العَمُود، وولجنا الباب إلى البلدة القديمة، التي نفذت روائحها إلى جسدَيْنا، ونحن ننظر إلى بعضنا مبتسمَيْن، يظلُّنا عبقُ البهارات، والزعتر، والمريميَّة، والعصائر، والفلافل، والكعك، والبُنِّ.

دخلنا في شارع خان الزيت، سرنا بين الدكاكين الصغيرة على الجانبَيْن، نتطلَّع إلى الكنائس والمساجد الصغيرة، ومحلَّات البهارات، والتحف، وحلويات زلاطيمو، وجعفر، وقهوة صندوقة، وقفتُ أتأمَّل في ملكة اليمن المرسومة بعناية على الآرمة؛ أميرة بخرقة على رأسها، تنسلُّ منها خيوط ذهبيَّة، جالسة على كرسيٍّ فخم، وأمامها طاولة تتأمَّل وتفحص وتختبر عِرْقاً أخضر مزروعاً في وعاءٍ فخَّاريٍّ صغير، بلقيس تتذوَّق وتطمئنُّ على بُنِّ القُدْس القديمة. انعطفنا نحو كنيسة القيامة:

– سأُريكَ كنيستنا أوَّلاً ..!

تركتْ يدي وهي تتقدَّم أمامي، وتلج الباب الوفير بالزخارف الحجريَّة المعقَّدة، وتجلس أمام الحجر الورديِّ المستطيل وسط عدد من المؤمنين والمؤمنات الذين يضعون رؤوسهم على الحجر الذي سُجِّي عليه جسد المسيح، ويمُرِّرون أيديهم عليه، ثمَّ يمسحون وجوههم، ومنهم مَنْ يضع أغراضه على الحجر، ويمُرِّرها عليه بقوَّة، لكي تنتقل إليها بَرَكَة المسيح الذي لامس جسده في يومٍ حزين من أيَّام القُدْس الحجر الورديَّ الناعم، من كثرة ملامسة الجلد البشريِّ له.

تقدَّمنا نحو مقصورة القبر المقدَّس، ولفتت نظري، إلى الجُلْجُلَة في الأعلى، حيث صُلب المسيح، والقبر الذي دُفن فيه قبل أن ينهض ويصعد إلى السماء، وبينهما كنيسة نصف الدنيا، هذا النصف الذي عاشه المسيح بين الصلب والقيامة.

جلسنا قليلاً قُبالة المقصورة الحجريَّة الورديَّة، وفجأة طلبت منِّي النظر إلى ما وصفتْها البروتندا.

سألتُها أن تعيد ما قالتْهُ، فأجابت أنه عليَّ أن أنظر هناك إلى البروتندا، أي الباحة الدائريَّة، حول مقصورة القبر المقدَّس، وأكملت:

– ألَا ترى الرجل المعلَّق هناك فوق العَمُود؟ إنه الجَدُّ جريس، جريس نسطاس، المثَّالُ الأهمُّ في الكنيسة، مثَّالُ كلِّ الطوائف، التي اختلفت وتختلف على كلِّ شيء إلَّا هو، إنه يعمل في أقسام الكنيسة كافَّة، التي تتقاسمها ثلاث طوائف رئيسة، وَفقَاً لاتِّفاقيَّة الوضع القائم (الاستتكو).

نهضتُ وأنا أتبعها إلى حيث الجَدُّ جريس، الذي يعمل على سِقَالَة أعلى عمود، ورأيتُهُ يستعدُّ للنزول، ربَّما لأنه رأى لُور، أو حان وقت استراحته.

سلَّمتْ لُور عليه، وسأل عن جَدِّها وأُمِّها وعائلتها، وهو يمسح قطرات

عَرَق على جبينه، وردّاً على سؤال لُور، التي أرادت أن تعرف أكثر عمّا يفعله، أو أنها سألت لأعرف أنا ما تعرفه مسبَّقاً، قال الجَدُّ جريس:

- رؤوس الأعمدة الضخمة هذه التي أنحتُها، تُسمِّى الواحدة منها بلغتنا نحن الحجَّارين، الراسية، يمكن رؤيتها، وبأنماطٍ متعدِّدةٍ في أنحاء الكنيسة، ولكنني أفخر بما أنجزتُهُ هنا في البروتندا.

– كيف ترفعون الراسية إلى الأعلى؟ - سألتْ لُور.

ابتسم الجَدُّ جريس:

- حجم كلِّ تاج عمود متر ونصف مكعَّب، وهي كتلة كبيرة من الحجر، أحتاج لإنجازها ليس أقلّ من ستَّة أشهر، حتَّى تتحوَّل إلى راسية، نضع أوَّلاً كتلة الحجر على العَمُود، لأن ذلك أسهل على العمل، بدلاً من العمل على الكتلة وهي على الأرض، وفي بداية العمل يساعدني اثنان أو ثلاثة من العمَّال، منهم ابني جورج، الذي يبدو أنه سيستقلُّ بعمل خاصٍّ له في الكنيسة.

أبديتُ ولُور دهشتنا من إمضاء الجَدِّ جريس ستَّة أشهر فوق العَمُود، ليُحوِّله إلى راسية، ويبدو أنه راقت له هذه الدهشة، التي تشكِّل اعترافاً بعَظَمَة ما يفعله من فتى وفتاة، لا يعرفان الكثير عمَّا يمكن أن يُبدعه، فواصل حديثه:

– عندما أصعد، كلّ يوم إلى الكتلة الحجريَّة، ولمدَّة ستَّة أشهر، أعمل على زخرفة الكتلة، بزخارف نباتيَّة مستوحاة من ورق الخرشوف ومشتقَّاته، لأنجر راسية هي خليط من أنماطٍ بيزنطيَّة، وصليبيَّة، وهلنستيَّة، وغيرها.

أضاف، قبل أن يترك لنا برهة للدهشة أو السؤال:

– يسبق عمليَّةَ النحت عمليَّةٌ معقَّدة، فأُحضِّر نحو عشرين نموذجاً،

أصنعها من الجصِّ، لرؤوس أعمدة مستوحاة من الفنون البيزنطيَّة، والرومانيَّة، والهِيْلِّنِسْتِيَّة، والإسلاميَّة، وأزور لهذه الغاية المتحف الإسلاميَّ في الحرم القُدْسيِّ الشريف، الذي يوجد فيها رؤوس أعمدة ضخمة كالتي أنحتُها، نَحَتَها قبلي نحَّاتون عملوا مع

إمبراطوريَّات ودول مرَّت على القُدْس، لأطَّلع عليها، وأستوحي منها ما يمكن أن يكون مناسباً للكنيسة.

لم يتوقَّف الجَدُّ جريس، وواصل كي يُعلِمنا بتعقيدات ولادة الراسية:

– بعد إنجاز النماذج، أدعو ممثِّلي الطوائف الثلاث في الكنيسة لرؤيتها، وكلٌّ منهم له حقُّ الفيتو على أيِّ نموذج، ويتمُّ التباحث والتشاور، حتَّى اختيار نموذج معيَّن، فتُكتب اتِّفاقيَّة لإنجازه، يرد فيها اسمي، كمنفِّذ. فأنفِّذ كما ترون معلَّقاً هناك، وأحياناً أحلم بأنني - رغم أنني في فراشي الوثير - ما زلتُ معلَّقاً على العَمُود وحولي رهبان الطوائف ينظرون، ويتلمَّظون، ليتأكَّدوا من حسن اختيارهم للنموذج.

وفجأة قال الجَدُّ جريس:

– ها هو جورج ..!

وصل ابنه جورج، الشابُّ الذي علمنا أنه عائد من فترة قريبة من إيطاليا، بعد دراسته للفنون الجميلة، وأظهر والده فخراً به:

– نحن نحَّاتون بالفطرة، ورثتُ مهنتي عن جَدِّي إبراهيم، الذي اشتُهر كمثَّال، له موقع في منطقة إصليب، وهو جبل اشتُهر بمحاجره منذ ألفَي عام، واشتهر الجَدُّ إبراهيم، باستخدامه خامة الحجر الأحمر الذي اشتُهرت به المنطقة التي استولى عليها اليهود الآن، وسيُحوِّلوها إلى مستوطنة باسم جيلو، كان لجَدِّي إبراهيم نشاط فعَّال، وله أعمال في أكثر من مكان، كما

في دير الكرمل ببَيْت لَحْم وكنيسة القيامة هنا أيضاً، ولكنْ، شهدت حياته المهنيَّة، فترة صعبة ما بين عامَي 1880 1910-م، ففي فترة نهاية الحكم العثماني هذه، ضعف عمل الإرساليَّات الدينيَّة، وكانت الفرص قليلة والمنافسة قويَّة، وها نحن ننتقل كعائلة من الفنِّ الفطري، إلى العلمي المدروس، بفضل جورج.

أظهر جورج امتناناً لوالده، الذي تمنَّى له التوفيق في عمله الجديد في الكنيسة، واستأذن منَّا، ليصعد من جديد إلى العَمُود.

تذكَّرتُ جورج، إنه مَنْ ورد اسمه في حديث والدي والشيخ نعيم، عن دار القصَّاص.

الثالث والعشرون

دعانا جورج، إلى جولةٍ صغيرةٍ في الكنيسة، وتشجَّعتُ، لأُرضيَ فضولي في معرفة طبيعة عمله الجديد في الكنيسة.

قادنا إلى حيث تجلس نساء مسلمات ومسيحيَّات، قرَّرنَ، فجأة، وبعد مرور كلِّ هذه الفترة على الاحتلال، أن يعتصمنَ في هذا المكان المقدَّس صائمات جائعات، ليسمعهنَّ العالم متعهِّدات أن لا يغادرنَ، حتَّى يغادر الاحتلال أوَّلاً بلادنا.

تعرَّفت لُور على بعضهنَّ، وتبادلت الحديث معهنَّ، وسعدت بحماستهنَّ، ولكنَّ جورج، لم يكن متحمِّساً أبداً، وتمتم بكلمات، فهمتُ منها أنه كان يجب أن يكون هناك تحضير أفضل، وأنه كان يجب على كلِّ سكَّان القُدْس، وبَيْت لَحْم، وما يجاورهما، أن يحتلُّوا المساجد والكنائس، ولا يغادروها، وعدم ترك المهمَّة لمجموعة من النسوة، تصرَّفْنَ بدافع الحماس وحده، متوقِّعاً أن تخفت حدَّته لاحقاً.

أُعجبتُ بالنسوة، وحماستهنَّ، وبفصاحة كلامهنَّ وحججهنَّ، خصوصاً القيادات منهنَّ، وضقتُ بكلام جورج الذي أكمل سيره، فتبعتُهُ، ثمَّ لحقتْ بنا لُور التي يبدو أنها علمتْ بفضولي، فخاطبتْهُ بالعمِّ جورج طالبة منه، أن يحدِّثنا عن عمله الجديد.

هزَّ العمُّ جورج رأسه مستعدَّاً للحديث، وجلسنا على الدَّرَج المؤدِّي إلى المكان الذي عثرتْ فيه القدِّيسة هيلانة على الصليب الحقيقيِّ الذي صُلب عليه المسيح، وقال:

– تريدون أن تعرفوا، طيِّب، سأُعلِمُكم، ولكنني لستُ مسؤولاً إذا مَلَلْتُم.

- لا، لن نملَّ - قلناها معاً، لُور وأنا.

بدأ العمُّ جورج يتحدَّث، وتعهَّدتُ بيني وبين نفسي أن لا أقاطعه:

«أووه، كان عليَّ أوَّلاً أن أُريَكُما نماذج من عملي، 120 صليباً خشبيَّاً صغيراً، في مدخل كنيسة الأرمن، ولكنَّ هذا لا يهمُّ الآن، قبل أشهر تخرَّجتُ في إيطاليا، عائداً بشهادةٍ في الفنون الجميلة، عملتُ هناك في مصنع حجر بوفرةٍ من رخامٍ وألوانٍ كثيرة مدهشة، نحن هنا لا نعرف الكثير عنها، ولا عن وجود كلِّ هذه الألوان المبهجة، وتركَّز عملي في ما يُسمَّى الترصيع، فنأتي بعدَّة أنواع من الحجارة وبألوان مختلفة، ونقصُّها، بأشكالٍ معيَّنة، ونصنع منها وروداً، وأشياء جميلة جدَّاً، فكان المصنع مشهوراً بالترصيع وبالصَّدَفة، عملتُ على طاولة الملك السنوسي التي أوصى عليها لتكون طاولة اجتماعات تليق بملك ليبيا عندما يجلس ليترأَّس مجلس وزرائه، طولها 5.20م في 1.25م، مكوَّنة من ثلاث قِطَع مَرمَر مرصَّعة بالألوان، ولكنَّ الملك المسكين، لم يهنأ بها أبداً، فما إن أنهينا الترصيع، وأُعجبنا بما فعلناه أيَّما إعجاب، حتَّى وصلتْنا الأخبار السيِّئة من ليبيا؛ عقيد مغمور في الجيش انقلب على ملكه، وأطلق - وما يزال - شعارات ثوريَّة، وقوميَّة، وناصريَّة، معلناً نهاية الحكم المَلَكي، رافضاً لقب فخامة الرئيس، فحزنتُ، لأن جهدنا قد ذهب سدى، وحزن أصحاب المصنع، لضياع أموالهم، لكنني سمعتُ بعد عودتي إلى القُدْس، بأن القذَّافي، وإن كان يكره الأُبَّهة، ويعتزُّ ببدويَّته، إلَّا أنه التزم، بما أَلْزَمَ السنوسيُّ نفسَهُ به، فدفع

لأصحاب المصنع، واستلم الطاولة المَرمَريَّة المرصَّعة، ذات الألوان المُزَغْلِلَة للعيون».

أدهشَنا العمُّ جورج فعلاً، بحكايته مع الملك، والثائر، والمَرمَر، وطمعْنا بالمزيد:

«جئتُ إلى الكنيسة لمساعدة والدي، كما كنتُ أفعل وأنا صغير، متلمِّساً خطواتي الأولى في حياتي العمليَّة الجديدة، التي لا أعرف إلى أين ستأخذني، وبالصدفة علمتُ بأن المكتب الفنِّيَّ لإعمار الكنيسة استورد مَرْمَرَ من اليونان بألوانٍ وأشكالٍ عديدة وجاهز للترصيع، ولكنَّ القائمين على المكتب محتارون ماذا سيفعلون بالضبط، لعدم وجود فنِّيِّيْن يفهمون بالترصيع، وعلمتُ من والدي بأن شحنة المَرْمَر قبل أن تصل الكنيسة تعطَّلت في ميناء حيفا لمدَّة ستَّة أشهر، بسبب الظروف السياسيَّة بعد الحرب التي ما زلنا نعيشها، ولخلاف على دفع الجمارك، فالكنيسة اعتادت أن لا تدفع جمارك على الحجر المستورد، وغير المستورد، لأنه سيُستخدم في بيت من بيوت الله، بل بيت الربِّ الأهمِّ، الذي شهد قيامته، وفيه قبره الفارغ، وفي محاولات لحلِّ المشكلة، ذهب ممثِّلو الكنيسة، وعادوا، مرَّات عديدة من القُدْس إلى حيفا، ومن حيفا إلى القُدْس، بينما المَرْمَر قابع في رطوبة، لم يخطر لأحدٍ مدى تأثيرها عليه، وعندما حُلَّت المشكلة، ووصلت الشحنة، كانت ألواح المَرْمَر قد تفكَّكت، فهزمتْها الرطوبة ومفاوضات ما بعد واقع الاحتلال الجديد، ودُهش الرهبان عندما فتحوا الصناديق، ليجدوا قِطَعَاً مكسَّرةً أشبه بالفسيفساء، أخبرني والدي عن هذه المشكلة، وقال لي: لا نعرف ما الذي يمكن أن تعمله مع المَرْمَر في واقع الجديد؟ فأجبتُهُ ضاحكاً: يا والدي، هذا عملي الذي أُتقنه، فأنا مَنْ رصَّع مِنْ ضمن ما رصَّعتُهُ طاولة ملكيَّة، صارت ثوريَّة، يستخدمها ثوريُّو ليبيا الشباب، ردَّ والدي مستغرباً: ما هو عملكَ، يا بُنيَّ؟ أنتَ كنتَ تدرس فنوناً جميلة، لتصوِّب مسيرة العائلة الطويلة في فنِّ النحت ببلادنا المقدَّسة، صحيح، يا والدي، ولكنني كنتُ أعمل في مصنع يتعامل، من بين ما يتعامل به، الترصيع، أنا المرصِّع الذي تحتاجونه، قلْ ذلك لرهبانكَ، يا والدي العزيز. هل أنتَ متأكِّد، يا بُنيَّ؟ نعم، متأكِّد، يا والدي. مئة بالمئة؟ مليون بالمئة، يا والدي، ولن أُخيِّب ظنَّكَ بين الرهبان خائبي الظنِّ في بعضهم بعضاً.

طيِّب، بُكْرَة سأتحدَّث مع المهندس المسؤول، علَّكَ تكون صادقاً، والماء يُكذِّب الغطَّاس. حكى والدي مع المهندس، فقال له: حبَّاً بالله، نحن نبحث عن مَنْ يُنقذنا من الورطة، زهقنا من المَشْوَرَة على حيفا، ثمَّ صدمتْنا في المَرْمَر المكسَّر، وعندما قابلتُ المهندس، مع رهبان الطوائف، قلتُ له: هذا أمر بسيط، لا شيء ممَّا أعرفه، سأرصِّع لكَ ما شاء لي الترصيع، عليكم أن توفِّروا لي موادَّ خاصَّةً أعرفها، وسترون الأعاجيب. ووفَّروا ما طلبتُهُ منهم، وعندما بدأتُ أُرصِّع، كثيرون وقفوا ليروا ما أعمله، وبعد أسبوعَيْن من انهماكي في الترصيع، وصل مهندس من اليونان، مندوب من الشركة التي ورَّدت المرمَر، ليرى ماذا فعل الرهبان به، وليُقدِّم مشورته، وعندما رأى ما أفعله، قال: جورج فعل الواجب، وجوده يكفي، ولا مكان لي بينكم، ليس لديَّ ما أقدِّمه أكثر

ممَّا فعله جورج، وقفل عائداً، يبدو أن أجواء القُدْس القديمة، وكنيسة القيامة، لم تعجبه كثيراً. وعملتُ لاحقاً، في تبليط كنيسة نصف الدنيا، وفي جميع أقسام الكنيسة، لدى الطوائف المختلفة، فَمَنْ يجيد فنَّ التعامل مع الحجر سينجح في التعامل مع البشر، وعملي الجديد هو هذه الوساطة بين الحجر والبشر، لقد أصبحتُ مسؤولاً، بموافقة مَنْ يتحكَّم في الكنيسة عن هذا الأمر، هل فهمتُما؟».

الرابع والعشرون

يبدو أن لُور فهمت قبلي، فنهضتْ قائلةً بأن علينا الخروج، كي لا يسرقنا الوقت، وبأنها ستصطحبني هنا مرَّة أخرى، حيث سنُمضي فترة طويلة، بعد أن أخذ موافقة والدي.

حيَّت رجلاً يجلس على دَكَّة بجانب باب الكنيسة، وقالت وهي تُعرِّفني عليه: «العمُّ سليم، المسلم الذي يفتح باب الكنيسة للمسيحيِّيْن» .

قال العمُّ سليم: «نفتح الباب، منذ عهد عمر بن الخطَّاب، جئنا مع الفاتحين، وحافظنا على كرامة أخوتنا المسيحيِّيْن، ونتوارث شرف فتح باب الكنيسة جَدَّاً عن جَدٍّ، مثل النظام المَلَكي، وأنا آخر السلالة، سيرث المهمَّة ابني بعد عُمُر طويل».

سألت لُور العمَّ سليم، عن الأمور في الكنيسة، بعد الاحتلال الأخير، فتنهَّد وهو يردُّ: «الفرق بين عهد وآخر، كبير، قبل الاحتلال كان الناس يأتون إلى هنا، زاحفين، حاجِّين، مُتَّقين، خاشعين، أمَّا الآن، فكما ترين، الكلُّ يدخل إلى الكنيسة من لابسي الشورتات، إلى الكاسيات العاريات، اللهمَّ، نَجِّنا».

وأشار العمُّ سليم إلى مجموعة من جنود الاحتلال، يرتدون الملابس العسكريَّة، تطلب منهم مجنَّدة التجمُّع بجانب باب الكنيسة، لتُقدِّم لهم شرحاً سياحيَّاً، عن هذا الموقع الدينيِّ والتاريخيِّ المحتلِّ، الذي أضحى بسرعةٍ، تحت ظلِّهم.

ودَّعَنا العمَّ سليم وهو يبرطم بكلمات غاضبة سريعة، وغير مفهومة تماماً مُستَفَزّاً من المجنَّدة، وصحبها، وعندما أصبحنا خارج الكنيسة، وقع نظري على السُّلَّم المتروك أعلى الواجهة المزخرفة، الذي بدا وحيداً، ومنعزلاً، ومتروكاً، وأحسَّت لُور بما يدور في خَلَدي فقالت، وهي تبتسم، بينما حطَّت حمامة أعلى إفريز باب الكنيسة الرئيس، وجلست مرتاحة ترنو لنا:

– قصَّة هذا السُّلَّم قصَّة، ستجعلكَ تضحك على طوائفنا المسيحيَّة وشجاراتها التي لا تنتهي على تفاصيل في هذه الكنيسة، ما يمكن أن أقوله لكَ، أن أحداً ما ترك هذا السُّلَّم في محلِّه سهواً، أو كسلاً، على الأرجح، ولكنْ، لا أحد يجرؤ على تحريكه من مكانه، لأن كلَّ طائفة ستجد في ذلك مَسَّاً بحقوقها في الكنيسة، فتُرك كما هو، رمزاً على هَبَلِنَا ..!

- أرجوكِ، أخبريني أكثر عنه، ونحن نسير نحو الأقصى ..!

– صَدِّقْني ليست لديَّ معلومات كافية، ولكنني ...!

لم تُكمل الجملة، ثمَّ رأيتُها تقصد رجلاً يعتمر كوفيَّة، يجلس في الظلِّ بجانب حائط الكنيسة الغربي، وتبعتُها، وبعد أن سلَّمتْ على مَنْ عرفتُ أنه أبو وديع الذي عمل سنوات طويلة دليلاً سياحيَّاً، طلبتُ منه أن يُخبرنا عن السُّلَّم، فضحك أبو وديع قائلاً:

- تريدان إعادتي إلى عملي الذي تقاعدتُ منه، زهقاً ..؟!

– أرجوكَ، يا عمِّي، أخبرنا، فهذا الولد كافل كثير الأسئلة، وأخشى أن لا يُكمِل معي المشوار، إن لم يعرف قصَّة السُّلَّم.

- طيِّب، سأروي باختصار، فلم يعد لديَّ شَغَف للحكي، بعد حرب السقوط والعار. لا أحد يعرف قصَّة السُّلَّم بالضبط، يا كافل، لكنَّ الطوائفَ الستَّ التي تقاتلت للاستحواذ على الكنيسة، وما زالت

متأهِّبة، تقرُّ بأنه الرمز الأكبر على الاستاتيكو (الوضع القائم) الذي يحدِّد حقوق كلِّ طائفة في الكنيسة التي يوجد داخلها قبر السيِّد المسيح.

يَعتبر الأرمنُ السُّلَّمَ هو سُلَّمَهُم، استخدمه رهبانهم الأتقياء الذين عاشوا في الكنيسة، لإيصال الطعام إليهم عبر نافذة عُلويَّة، عندما تشدَّد العُثْمانيُّون، فلم يكن يُسمَح بفتح الكنيسة إلَّا في أوقاتٍ معيَّنة، ولدى تلقِّي رجال العثمانيِّيْن في القُدْس رِشا، وضعوا السُّلَّم أعلى إفريز، ليصل النافذة اليمنى لقسمهم في الكنيسة، فتصلهم سِلال الطعام، ولكنْ، لأن دوام الحال من المحال في الأرض المقدَّسة، انفرج الأمر عندما جاء إبراهيم باشا إلى فلسطين، ورفع ظلم بني عثمان عن المسيحيِّيْن، فسمح بفتح الكنيسة بشكلٍ دائم، وبعدَ رحيله، بعد عشر سنوات، وعندما أعاد العُثْمانيُّون السيطرة على القُدْس، اصطدموا بالأمر الواقع الجديد، فقبلوا بفتح الكنيسة باستمرار، وفي الظروف الجديدة، التزم الأرمن بالاستاتيكو، ولم يحرِّكوا سُلَّمهم، لأنه يستند على حافَّة، يملكها الروم الأرثوذكس.

بالنسبة إلى رواية كاثوليكيَّة غير رسميَّة، يتَّخذ متبنُّوها صفة العاقل في وسط مجنون، فإن السُّلَّم هو الشاهد الأخرس على الانقسام المسيحي، وإنما أصبح يُعرَف باسم السُّلَّم الثابت، وأشهر سُلَّم في العالم، فسيكون شاهداً يوم الحساب على المسيحيِّيْن الذين قبلوا بالانقسام، ولم يقاوموه، وسيُحاسَبون حساباً عسيراً، لاستهانتهم بالسُّلَّم.

وما زال سُلَّم القُدْس الخشبي في مكانه، ينظر من علٍ، ويتعجَّب، فهل تعجَّبتُم؟ وقبل ذلك هل فهمتُم؟

قالت لُور:

- انظرْ، يا كافل، وتعجَّبْ ..!

عليَّ الاعتراف، بأنني لم أفهم كثيراً على أبي وديع، خصوصاً التفاصيل التي ذكرها مكثَّفة، ولكنني، تعلَّمتُ واحداً من دروسي الأولى عن

القُدْس، كيف يمكن لمؤمنين بإلهٍ واحدٍ، ورسولٍ واحدٍ، وكتابٍ واحدٍ، أن يُقسِّمهم سُلَّم خشبي، ويحشرهم بين درجاته التي تبدو لي متهالكة، وقابلة للكسر.

قالت لُور:

- أنا تعجَّبتُ قبلكَ، وتلقَّيتُ الدرس قبلكَ، لذا فإن لي الولاية عليكَ حتَّى نُنهي مشوار القُدْس هذا ..!

الخامس والعشرون

أكملنا سيرنا في أزقَّة القُدْس القديمة ومعالمها المبهرة، حيث تتكلَّم الحجارة، وكُلُّ حجر منها له حكاية، ودلفنا إلى المسجد الأقصى من باب القطَّانين، دون أن أستجب لطلبات لُور بالتوقُّف أمام هذا المُعْلَمِ أو ذاك، لأنني أردتُ العودة إلى المُصْرَارَة قبل عودة والدي.

لم يعترض جنود الاحتلال دخولنا إلى باحة المسجد، الذين يمنعون المسيحيِّيْن من الدخول بحججٍ لم أفهمها، بينما يسمحون لليهود بالدخول، ويوفِّرون لهم حماية من الشرطة والجيش. رأيتُ لُور تتقدَّمني وتتَّجه نحو قُبَّة الصخرة التي تتلألأ ذهباً، وتلمع بلونها الأصفر، وهي تقول:

- إنها تشبه كنيسة مريم المجدليَّة، التي تنعكس على قبابها السَّبْع شمس القُدْس.

صَعِدْنا الدَّرج إلى قُبَّة الصخرة، ودرْنا حولها، وعندما أرادت لُور الدخول قلتُ لها، يجب أن نبحث عن شجرة الزيتون المناسبة، كي نُنهيَ المهمَّة، وأعود إلى باب العَمُود والمُصْرَارَة.

تضايقتْ لُور منِّي، وقالت بدون حماس:

- يا لكَ من ولد، لا تُقدِّر صحبة بنت جميلة مثلي ..!

صمتُّ ولم أعرف بماذا أردُّ، وكأنني انتبهتُ لحظتها لحلاوتها، ولكن هذا لم يُغيِّر من خططي لإنهاء المهمَّة بسرعة.

قالت باستسلام:

– علينا أوّلاً أن نُحضِر ماءً.

نزلتُ أمامها الدَّرَج إلى سبيل الكأس، وهي خلفي، مسلمة قيادتها لي، مُقِرَّة بأن هذا المكان هو مكاني.

وجدتُ طاسة من التوتياء، فعبَّأتُها بالماء، وقلتُ لها:

- هيَّا ..!

– قد لا تكفي هذه المياه، لغسل هذه الدِّماء ..!

- سأُعبِّئ غيرها ..!

قصدنا حقل الزيتون ما بين قُبَّة الصخرة، وسور القُدْس الشرقي، حيث تظهر قباب كنيسة مريم المجدليَّة السَّبْع، وكأنها تراقبنا، كما تفعل قُبَّة الصخرة خلفنا، لقد كنَّا بين الذهب والذهب، ومدفوعاً بسجن الوقت، مشيتُ إلى تحت أوّل شجرة زيتون، وطلبتُ منها إظهار المَحْرَمة، فسحبتُها، ووضعتُها تحت يدي التي تصبُّ الماء بروِيَّة، حتَّى تكفي، لإذابة الدماء المتجلِّطة، وعندما رأيتُ لون الماء الذي مال إلى الأحمر، تساءلتُ دون أن أُفصح: تُرى دم مَنْ هذا، الذي يسيل مخلوطاً بالماء على أرض القُدْس؟ وتخيَّلتُ بأنه قد يكون في يومٍ دمي، أو دم لُور. مَنْ يدري؟

أنهينا المهمَّة، وبدا التأثُّر واضحاً على وجه لُور، وأدركتُ بأن الدماء تخصُّ شخصاً تعرفه، أو يمتُّ بقرابة لها، ولكنني لم أشأ السؤال عن ذلك.

مشينا صامتَيْن، عائدَيْن نحو الفسحة الممتدَّة شرقاً، وفجأة انتبهتُ إلى التشكيل السداسيِّ على واجهة المسجد الأقصى الشرقيَّة، فهمستُ:

– خَاتَم سليمان؟

وعندما انتبهتْ لُور إليَّ، وعرفتْ ما الذي لَفَتَ انتباهي، قالت:

- لعلَّها نجمة داود.

بدا لي هذا التشكيل أعقد بكثير من رمز خَاتَم سليمان المنقوش على أسوار القُدْس، فهذا التشكيل تحتضنه دائرة، تتفرَّع منها ستَّة براعم على شكل بتلات، مكوَّنة من زجاجٍ ملوَّن، تبدأ من تشكيل خماسي صغير، كأنها خيوط شمس.

قالت لُور وكأنها اكتشفت شيئاً:

- قد تكون تعبيراً عن خليَّة نحل.

أمعنتُ النظر في البتلات الزجاجيَّة، وكلٌّ منها تختلف عن الأخرى، بما تحويه من زخارف هندسيَّة، وقلت:

– لعلَّ السلطان سليمان أراد تقديم نسخته من خَاتَم سليمان.

قالت لُور:

- وما أدرانا أن هذا من صنع السلطان سليمان؟ قد يكون نتاج تفتُّق ذهن خليفة أمويٍّ أو عبَّاسيٍّ أو سلطان مملوكيٍّ!

– أيَّاً كان صاحب العقل المتفتِّق، فإنه أراد نسخته الخاصَّة من خَاتَم الحظِّ والشرف.

حضرني رجع صدى كلام أبي حلمي المغربي: «كشخصٍ رأى في نفسه ثاني سليمان في العالم، سيأخذ السلطان سليمان القانوني الأمر إلى منتهاه، ويضع النجمة السداسيَّة على سور القُدْس العظيم، بتشكيلاتٍ

فنِّيَّةٍ مختلفةٍ، باعتبارها خاتَم سليمان الأوَّل. وإذا كان سليمان الأوَّل حكم الدنيا المعروفة في زمنه من القُدْس، بقرارٍ ربَّاني، جعله يتحكَّم في الإنس والجنِّ، فإن القانوني حكم عالمه بقوَّة، دفع صعود القوَّة العثمانيَّة، وبتراثٍ يُعلي من قيمة سليمان الأوَّل، ليس باعتباره ملكاً غير معصوم، وإنما نبيٌّ، فنقش ألقابه، بفخرٍ على سور القُدْس، كمالك رقاب الأمم».

سألتُهُ لاحقاً: «ماذا عن تشكيل الأقصى هذا؟ هل هو تنويع على النجمة السداسيَّة، أو محاكاة لخلايا النحل؟».

ولم أسمع جواباً ..!

السادس والعشرون

عندما وصلنا باب العَمُود، ودَّعتُ لُور، دون أن نعرف إذا كنَّا سنلتقي مرَّة أخرى أم لا؟ اصطدمت عيناي بمدرسة شميدت، وحجارتها النافرة؛ حجارة الطُّبْزَة، التي أحبَّها العمُّ كوكو أكثر من أيِّ حجارة أخرى، وشغف بكيفيَّة دقِّ الدقَّاقين لها، بحيث لا يُولَد حجرٌ يشبه أخيه الحجر الآخر، وعندما يُبنى بها، تظهر قويَّة، ونافرة، ومتردِّدة، وجميلة؛ ذلك الجمال المتعالي، المتفرِّد، دون غرور؛ ضفيرة لا تطمس هُوِيَّة أيٍّ من مكوِّناتها.

رغم رائحة الكعك النفَّاذة أمام المدرسة في بداية شارع نابلس، بجوار العمِّ جبر صاحب بسطة الكُتُب، التي تدعوني لأنتظر، وأفكِّر بكعكةٍ مع فلافل، إلَّا أنني كنتُ مهموماً بشيء آخر تماماً، كان عليَّ الوصول إلى موقف المَرْكَبَات قبل وصول والدي، وهو ما حدث.

اختلف المُفَسِّرُونَ في تبرير تميُّز كعك القُدْس عن مثيله في مُدُنٍ فلسطينيَّة أخرى، ورجَّح بعضهم أن يكون السبب الماء الذي يُعجَن به الكعك، ويمنحه الطَّعْم، ولكنَّ آخرين خصوصاً الخبَّازين، كما سمعتُ صاحبَ فرن المُصْرَارَة يقول لوالدي، فإن السبب هو خبرة قرون في التعامل مع العجين، ومعرفة المقادير المحسوبة من الماء، والطحين، والسُّكَّر، والسِّمْسِم، والشيفارو، واستخدام فرن النار، وحطب الزيتون، والأهمّ بَرَكَة المدينة المقدَّسة.

يعيش الناس هنا وهم يتحدَّثون كثيراً عن بَرَكَة القُدْس، التي اختصَّها الله بالحُبِّ، ولكنْ، أيضاً بالحربِ، لطالما امتزج تاريخها بالحُبِّ والحربِ، وعاشت بينهما.

تقول أُمِّي بثقةٍ زائدةٍ ويقينيَّةٍ: «عندما وزَّع الله الجَمَالَ على العالم، منح القُدْس تسعةً منه، وواحدة من قلَّة الحظِّ، بينما منح العالم تسعةً من الحظِّ، وواحدةً من الجَمَال، قُدْسنا منحوسة بقلَّة حظِّها، وجمالها الزائد».

دائماً يقال، بأن كلَّ الناس؛ فاتحين، ومغامرين، وأنبياء، وأفَّاقين، وغزاة، وطامحين، وعشَّاقاً، يبدؤون من القُدْس، ولكن مصالحهم تكون في مكانٍ آخرٍ، فيأخذون من القُدْس جذوتها، ولكنهم يُشعلونها، ويُطلقون شرارها، في أمكنةٍ أخرى.

نظرتُ إلى بسطة الكُتُب، بينما العمُّ جبر بجسده النحيل، ونظَّارته السميكة، يرسم ابتسامة، تاركاً لي الفرصة لأتأمَّل المجلَّات والكُتُب، ومن بينها مجلَّات البورنو بصورها الفاضحة، بجانب المجلَّات السياسيَّة بصور السياسيِّيْن القاتمة.

وكان معروفاً عن العمِّ جبر تقريع مَنْ يشتري مجلَّاته الفاضحة، وكأنه ليس هو مَنْ يعرضها ويبيعها. وتغاضى مرَّة، عندما قبل أن يبيعَني مجلَّة عربيَّة، تُقارِب الجنس، من نواحٍ صحِّيَّة وطبِّيَّة، بعد أن لفتتْني صورة الغلاف، وهي لامرأةٍ بدت لي فاتنة الجمال، نصف عارية، غُطِّيَت حَلَمَتَاها بنجمتَيْن، وخُطَّ على الغلاف عنوان عن أكثر الأماكن حساسيَّة لدى المرأة التي تحسُّسها يجعلها سعيدة.

عندما ناولني العمُّ جبر المجلَّة، تجنَّب النظر في عينَي مباشرة، وحرص على وضعها في كيس، مقدِّراً بما سأعانيه، في رحلتها معي إلى قريتنا، لو أن أحداً رآها.

احترتُ في أين أُخبِّئ المجلَّة، ولم يكن هناك أفضل مِن وَضْعِها بين كُتُبي، ولم يكن الموضوع الذي اشتريتُ المجلَّة من أجله صعباً على الفهم، ولكنني لم أتمكَّن من العودة إليه مرَّة أخرى، لمزيدٍ من التمعُّن في صورة

المرأة، ولقراءته من جديد، فالمجلَّة اختفت، وخشيتُ أن تكون وقعتْ في يدَي مَنْ لا أريد أن يعرف بها، كأُمِّي أو والدي، ولكنَّ هذا ما حدث، عندما لمحتُ جزءاً منها يظهر من صندوق مَرْكَبَة والدي، أمام المقعد الذي يشغله مَنْ يجلس بجانب السائق.

عشتُ فترةً خائفاً، من أن يفاجئَني والدي، بحديثٍ أو لومٍ أو تقريع، ولكنَّ هذا ولا أعرف لماذا، لم يحدث، فتعايشنا مع مؤامرة أن لا أحد يعلم ما لدى الآخر، وقدَّرتُ بأن والدي كان بحاجة للمجلَّة أكثر منِّي، ليستفيد منها.

بد لي العمُّ جبر، بسنِّه المتقدِّمة، رجلاً طيِّباً محيِّراً، شاهداً على تحوُّلات جذريَّة في تاريخ القُدْس، ليس فقط من مكانه هذا، بائعاً للصحف، وإنما مشاركاً، على الأقلِّ، في مراحل معيَّنة من حياته في الأحداث.

حدَّثني بأنه نشط في فترةٍ ما بصفوف الحزب الشيوعي قبل الحرب، وله ذكريات ونضال مشترك مع الدكتور سليم، والدكتور يعقوب، الذي أصبح نائباً عن القُدْس، في البرلمان الأردنيٍّ.

كان العمُّ جبر، وقد أصبح مؤمناً يصلِّي في المسجد الأقصى ويصوم رمضان، مزاجيَّاً في الحديث عن تجربته النضاليَّة، وأحياناً يستبدُّ به الفخر، عندما يعلن كيف نجحوا في إيصال الدكتور يعقوب، الذي كان مطارَداً للمخابرات إلى البرلمان، متغلِّبين على مرشَّحي عائلات القُدْس العريقة، الذين استتبَّ بهم الغضب وهم يرون رجلاً من قرية صغيرة في شرق الأردن، ومن عشيرة لا يُعتدُّ بها في مفاهيم القبائل، وأيضاً مسيحيَّاً، يهزمهم.

لم يكتفِ العمُّ جبر، بدوره كبائعٍ وموزِّعٍ للصحف والمجلاَّت، وصديقاً للأدباء والمثقَّفين، ومتحدِّثاً للفتى الذي كنتُهُ، ولكنه مارس الكتابة، ودفع لي بمجلَّة، نشرت له قصَّة بعنوان (فرخ البطّ عوّام) عن واقعة شهدها من موقعه الاستراتيجيّ في القُدْس، ويبدو أنه لم يكتب غيرها، أو اعتزَّ بها أيَّما

اعتزاز، فنشرها أكثر من مرَّة، فعندما تصدر صحيفة أو مجلَّة جديدة، كان يدفع بنفس القصَّة للنشر، ولم يكن لأيٍّ من محرِّري الصحف تَرَفُ رفض نشرها، لحاجة هذه الصحف لموزِّع مثل العمِّ جبر.

في هذا اليوم، ما كان يستبدُّ بالعَمِّ جبر، مناكفة بينه وبين كاتب إسرائيليٍّ، اعتاد شراء الصحف والمجلَّات العربيَّة منه، عندما بادره هذا، وهو يحمل كعكة وحبَّة فلافل، قائلاً بأن كعك القُدْس أصله يهوديّ، وأن مَنْ أدخله إلى القُدْس هم اليهود الذين هاجروا إلى المدينة المقدَّسة من أوروبا.

دُهش العمُّ جبر، وغضب، ورفع صوته بلهجته الخليليَّة على الكاتب، قائلاً له:-أنتم تُزوِّرون التاريخ، وحتَّى الكعك، تريدون أن تنسبوه إليكم، كُفُّوا عن ألاعيبكم المكشوفة.

حاول الكاتب المستعرب أن يشرح للعمِّ جبر، كيف أن يهود بولندا هم مَن اخترعوا الكعك، وإن لم يكن على هذا النوع الذي ينتج الآن، فالسماح لهم بخبز الخبز وبيعه، أدَّى إلى اختراع الكعك رخيص الثمن، ليكون في متناول الفقراء، وليصبح من أطعمة الشوارع المرغوبة، ولكن العمَّ جبر حاول إسكاته، لأنه لا يريد أن يسمع المزيد من الأكاذيب.

واصل الكاتب المستعرب، بوقاحةٍ، كما قال العمُّ جبر، سرد حكاية الكعك، الذي انتقل من بلدٍ إلى آخر، وأحبَّه ملوك وملكات، وأبناء شوارع، وأبناء ذوات، ولكنَّ كلّ ذلك لم يكن ليُغيِّر مقدار بذرة فلفل، لدى العمِّ جبر، الذي وعى مبكِّراً، كما قال، على بروباجندا الإمبرياليَّة والاستعمار.

السابع والعشرون

عندما وصلتُ الموقف أخيراً، سألني بعض زملاء والدي عنه، وأين ذهب؟ ولماذا كثرت طشّاته؟ ولم تكن لديَّ أيَّة أجوبة. تأمّلتُ قليلاً سرب حمام حطَّ في ساحة المُصْرَارَة، ليتناول ما ينثره أصحاب المحلّات مِن حَبٍّ، ليأكل الحمام، وليبارك الله، في رزقهم.

عندما عاد والدي، بعد قليل من وصولي، ركب المَرْكَبَة، وصَعِدْتُ إلى جانبه، وضع يده على شَعْري، وانحنى على رأسي، وقبّله، وكأنه يعتذر عن التأخير وتركي وحدي، أو عن فعل آخر مستقبلي، يُخطِّط له، ويسير نحوه بقوَّة، لا يمكن لأحدٍ فرملتها، كما بدأتُ أشعر.

توقَّف والدي عند برج اللَّقْلَق، قُبالة مدخل المقبرة اليوسفيَّة، نزلنا من المَرْكَبَة، ليقرأ الفاتحة أمام النُّصْب التذكاريِّ الذي تمكّن أهل القُدْس من إقامته، تخليداً لذكرى الشهداء في الحرب الأخيرة، الذين سقطوا على جوانب الشوارع برصاص جنود الاحتلال العشوائي، ومنهم مَنْ أُعدم بعد القبض عليه - كما أخبرني والدي - من مرتفع النُّصْب، يظهر جبل الزيتون، وجبل المشارف، والجامعة العبريَّة، والكنائس، والبنايات، ومناطق خضراء، لا تعرف ماذا ينتظرها.

قرأتُ على النُّصْب البسيط الذي يشبه عاموداً قاعدته مجموعة من البلاطات البيضاء بُنيت فوق بعضها بعضاً، مأثورات دينيَّة، ثمَّ (ذكرى شهداء معركة الشرف في القُدْس5- حزيران 1965م)، دون ذِكْر أسماء شهداء الشرف، الذين ارتقوا في معركة الهزيمة، فبقيت البلاطات البيضاء التي بُني بها النُّصْب، خالية، كأنها تنتظر مَنْ يملؤها.

سألتُ والدي:

– هل يوجد شرف في الهزيمة؟

بدا وكأنه بُوغِت من سؤالٍ قدَّر أنه أكبر من سنِّي، وربَّما اعتقد بأنني سمعتُهُ من أحدٍ، وحفظتُهُ حتَّى أُلقيَهُ عليه في فرصة تسنح، ولكنه أجاب:

- الناس تموت دائماً، وُلِد الإنسان، ليموت في النهاية، والمهمُّ هي طريقة موته، عندنا أن يموت الإنسان شهيداً، مدافعاً عن أرضه، وبيته، وقناعاته، فهي درجة متقدِّمة في سجلِّ الشرف.

– وهل علم الشهيد، بعد استشهاده، أن مدينته سقطت واحتُلَّت؟

- لا شكَّ أن البعض كان يعلم نتيجة المعركة غير المتكافئة، ولكنهم لم يفكِّروا بالتراجع، فمضوا في الطريق إلى نهايته، ولكنَّ هؤلاء قلَّة، لذا فإننا نُعظِّم موتهم، ونُعلي من شهادتهم، لأن الأكثريَّة، قرَّروا الهروب، أو قُرِّر لهم ذلك، فغادروا إلى الشرق، ورغم ذلك لم ترحمهم الطائرات الإسرائيليَّة، فقصفتْهم، وواصلت القصف.

– ونحن الآن ماذا علينا أن نفعل؟

- نحن .. نحن علينا أن نفعل ما قُدِّر لنا أن نفعله، كلُّ واحد منَّا يفعل ما عليه فعله، أمَّا أنتَ، فليس لكَ أن تفعل شيئاً سوى دراستكَ.

– وما فائدة الدراسة؟

قَطَّبَ والدي حاجبَيْه، وبدا عليه الانزعاج، وحاول كبت غضبه:

- هذا آخر سؤال توقَّعتُهُ أن يصدر عنكَ، يا بُنيَّ، نحن هزمنا، لأننا لم نكن متعلِّمين كفاية، في التعليم نصرٌ لنا، وهزيمة لأعدائنا.

نظرتُ إلى واجهة برج اللَّقْلَق الذي يشكِّل زاوية في سور القُدْس

الشرقيِّ، فلفتت انتباهي الزخارف الحجريَّة التي بدت كنتوءات، ومن بينها النجمة السداسيَّة، خَاتَم سليمان، الخاصّ بثاني سليمان في العالم.

قلتُ لوالدي محاولاً تغيير دفّة الحديث، لإخراجه من حالته المزاجيَّة التي تغيَّرت:

- خَاتَم سليمان ...!

- نجمة سداسيَّة أم خَاتَم سليمان؟ عندما يأتي اليهود إلى السُّور، ويجدون هذه النجمة يقولون، بأنه ليس لديهم أيُّ شكٍّ بأن يهوداً شاركوا في بناء السُّور، وتركوا رمزهم. إنهم يُؤوِّلون، كما فعل كلُّ منتصر في القُدْس.

- وأنتَ ما هو رأيكَ؟

- في أيِّ أمر؟

- في النجمة؟

- على الأغلب هو رمز خَاتَم سليمان، لأن اتِّخاذ اليهود النجمة السداسيَّةَ رمزاً، هو حدث ليس بعيداً، وإن كانت النجمة تُجسِّد رمزاً قديماً.

- لم أفهم الأمر جيِّداً.

- وهل عليكَ أن تفهم كلَّ شيء دفعة واحدة.

- أرجوك، يا والدي، أريد أن أفهم.

- يقال بأن النجمة السداسيَّة رمز لأجدادنا الكنعانيِّيْن، مثَّلوا به لقاء الذَّكَر والأنثى.

- وكيف ذلك ..؟

لم يردّ والدي على سؤالي، وفجأة صرخ وهو ينظر نحو متحف روكفلر على التلَّة المقابلة:

- أين ذهبت الشجرة؟

– أيَّة شجرة؟

لم ينتبه لسؤال طفلٍ مثلي، ينمو بسرعةٍ في مدينته المحتلَّة، ملَّ أسئلته، كان منجذباً مهموماً إلى جهة المتحف، وعندما انتبه إليَّ، كان سؤالي ما زال معلّقاً في الهواء، فالتقطه قائلاً:

– شجرة الخليلي اختفت. كيف اختفت هكذا، وبهذه البساطة؟.. غداً سنرى ما حدث ..!

الثامن والعشرون

توقَّف والدي مرَّة أخرى، في المكان الذي توقَّفنا فيه يوم أمس، المُطِلِّ على وادي جهنَّم، وهذه المرَّة بناءً على طلبي، كان لديَّ الكثير من دوافع الفضول، والأسئلة المعلَّقة التي أحسُّها برؤوسٍ مدبَّبةٍ، تُنمِّل جسدي، وتُقلق راحتي. رأيتُ من بعيد الراهبات ذوات الرؤوس البيضاء يتحرَّكن أمام الكنيسة ذات القباب الذهبيَّة؛ كنيسة مريم المجدليَّة التي تظهر من باحة قُبَّة الصخرة، وبداخلها قبر لإحدى الأميرات الروسيَّات - كما قال والدي، التي وصلت إلى هذا المكان على جبل الزيتون، بعد تعرُّضها لحوادثٍ عديدةٍ، ولكنها سكنت وارتاحت أخيراً على هذا الجبل. وتعلو الكنيسةَ سبع قباب ذهبيَّة متفاوتة الطول، عبارة عن قُبَّة كبيرة، يعلوها صليب، تحيط بها أربع قِباب أصغر منها، بالإضافة إلى قُبَّتين، تمكَّنتُ من رؤية واحدة منها، أمَّا الثانية، فلم أرها. ولفت والدي انتباهي إلى الشكل البصلي للقِبَاب، ووسط استغرابي قال: «انظرْ، إنها مثل البصل الأصفر، ولكنها أكثر لمعاناً، بناها القيصر الروسي الإسكندر الثالث، لتصبح أجمل الكنائس في منحدر جبل الزيتون، يا له من جبل، الجميع يريد موطئاً عليه منذ زمن نوح! وجاء اليهود الآن، ليطؤوه هم أيضاً، كيف سيكون الجبل إذا استمرَّ الاحتلال؟ وحده، الله يعلم».

مسألة البصل الأصفر أثارت فضولي المثار أصلاً، فتأمَّلتُ بتركيز كيف جُدِّلت هذه القباب الرائعة الجمال على شكل رؤوس بصل، يعلو كلَّاً منها صليبان، الأوَّل مائل والآخر الأعلى منه مستقيم، وفسَّر والدي ذلك، بأنه رمز على الحزن.

- ولكنكَ أخبرتَني مرَّة أن الصليب بذاته هو رمز حزن.

- والصليب المائل إمعان في الحزن.

قال ذلك، دون قناعة منه، عرفتُ ذلك من لهجته، لعلَّه أراد تقريب الأمرَّ إليَّ، ولكنه قرَّر الإفصاح أكثر:

- لعلَّكَ تعلم، وإن كنتَ لا تعلم، فاعلم، بأنه حين صُلب السيِّد المسيح، فقد صُلب مع اثنَيْن من اللصوص، أحدهما لصٌّ خيِّر، وآخر شرِّير، والصليب المائل رمز لتدرُّج الشرِّ والطيبة.

صدمَني حديث والدي عن صلب المسيح، وهو في دروس الدِّيْن لديَّ في المدرسة، وما صلبوه ولا قتلوه، وماذا عن اللصَّيْن؟ من أين أتى بهما والدي؟

قرَّرتُ تجاهل كلِّ ذلك، على الأقلِّ مؤقَّتاً، أو حتَّى يتسنَّى لي الفهم.

القبابُ البصليَّة محمولة على أعمدةٍ حجريَّة معقَّدة، تعلوها زخارف، وتستند إلى كتلٍ دائريَّة، بذل الحجَّارون المحلِّيُّون جهوداً في تشكيلها.

في مُقدِّمة الكنيسة ووسط شكل ثلاثي، تظهر صورة مريم المجدليَّة، بثوبٍ أبيض وخلفيَّة زرقاء، تحتضن يداها قارورة، رجَّح والدي أن تكون مدمعة، رمزاً لحزنها على المسيح، أمَّا عيناها، فتنظران، برأسٍ مرفوعٍ بكرامةٍ ويقين، إلى الأمام، إلى القُدْس المسوَّرة.

- تُرى بماذا تفكِّر؟

تساءل والدي، فقلتُ له بأنني أفكِّر في الأميرة الروسيَّة، التي تنام الآن داخل الكنيسة، نومةً أبديَّة.

قرَّبني والدي منه، وطوَّقني بذراعه وهو يقول:

- المسكينة طوَّحتْها الأيَّام، لم يكن أمام الثوَّار البلاشفة إلَّا قتل العائلة القيصريَّة، الثورات إذا لم تكن دمويَّة لا تحقِّق أهدافها.

– ولماذا يجب عليها أن تكون كذلك؟

- عندما يثور الشعب، لا يتسامح مع مُضطَهِديه، وهكذا فعل البلشفيك في روسيا.

– وما ذنب هذه الأميرة؟

- الأمور لا تُقاس بالعاطفة، يا صاحب القلب الصغير، فالأهداف الكبرى هي الأهمُّ، ولو فكَّر الثوَّار مثلكَ، فلن تنجح الثورة.

صمتُّ حزيناً، بينما حاول والدي تخفيف وقع الثورات الدمويَّة على قلبي الصغير:

- رُميَت هذه الأميرة في منجم مع أفراد آخرين من العائلة تمهيداً لتصفيتهم، ولكنها، نجت بمصادفات قَدَرِيَّة، وها هي ترقد هنا، فابتسم، لأنها تنام في مكان أحبَّتْهُ، ربَّما أكثر من أيِّ مكان آخر، واستقرَّت هنا بعد أن طوَّحتْها الأيَّام، ونجت بأعجوبة من المذبحة الثوريَّة.

لم يعد لديَّ القدرة على مواصلة النقاش مع والدي الواثق، الذي لا يملك قلباً صغيراً مثلي، فالتفت إلى حشد من السيَّاح أمام الجُثْمَانِيَّة، جاؤوا يقتفون آثار المسيح الذي أُلقي القبض عليه، في بستان الزيتون، نتيجة خيانة صديق - قالها والدي مشدِّداً على كلمة الخيانة، فأدركتُ كم هي كريهة هذه الكلمة. أمَّا في الوادي، فإن طَنْطُوْر فرعون بدا وكأنه يتحدَّاني. قلتُ لوالدي بأنني عندما أكبر قليلاً سأتسلَّقه وأجلس على قمَّته، أضع رِجْلَيَّ في قَرَنْفُلَتِهِ الغريبة المتحدِّية الساخرة منَّا.

ضحك والدي قائلاً: «عمُّكَ السَّبْع هو الوحيد منَّا الذي استطاع أن

يصل إلى قُبَّته التي نسمِّيها القِنِّيْنَة، لأنها تشبه القِنِّيْنَة. انظرْ، كيف تراها أنت؟».

قلتُ: «نعم، إنها قِنِّيْنَة، ولكنها كبيرة جدَّاً ..!».

ضحك والدي وهو يضع يده على كتفي: «أنا فرح لحماسكَ، ولمحاولتكَ المعرفة، مَنْ يسعى إلى المعرفة، لن يضلَّ، وأريدكَ أن تقرأ وتسعى أكثر عندما تكبر. أنا لم أُكمل دراستي، وخرجتُ للعمل لمساعدة عائلتي، ولأتزوَّج أُمَّكَ التي أحببتُها، ولكنني عوَّضتُ عن ذلك بقراءة الكُتُب والمجلَّات، والنشرات السرِّيَّة التي كانت تُصدرها الأحزاب قبل الاحتلال؛ القوميَّة، والشيوعيَّة، والبعثيَّة، والإسلاميَّة، فقريتنا كانت تنضح بأعضاء هذه الأحزاب، الذين شتَّتهم النكسة، ومَنْ بقي منهم، دخل في بيات شتوي، خائفاً، أو مصدوماً، أو حائراً، وعموماً لم يعودوا ينفعوننا».

وأضاف: «لنعد للطَّنْطُوْر الذي يشغلكَ، وحَاوِلْ أن تتخيَّل كيف نُحِتَ من الصخر على جانب الوادي، حتَّى أعمدته هي جزء من الصخور التي نُحِتَ منها، وكذلك الإفريز

والتشكيلات الفنِّيَّة ذات التأثيرات اليونانيَّة، فتخيَّلْ عَرَقَ وتفكير الفنَّانين والعمَّال والمهندسين والحِرْفِيِّيْن، وهم يصارعون الصخرة، سيعتقد اليهود بأنه ليس إلَّا قبر أبشالوم، ابن سَيِّدنا داود العاق، الذي غضب على والده لتفضيله ابنه سليمان الذي سيصبح ملكاً عندهم، ونبيَّاً عندنا، وسيرشقون طَنْطُوْر فرعون بالحجارة، وكأنه طقس لإثبات الولاء للملك داود، بعد كلِّ هذه القرون، وانتقاماً من عقوق أبو شلومو، الذي ثار على والده، ولكنه تقهقر، وسينتهي الأمر به مشنوقاً. بشَعْره الطويل، بعد أن علَّق نفسه على شجرة بطم في الوادي».

حزنتُ على أبي شلومو، وتمييز النبي داود بين ابنَيْه، وكأنني أصبحتُ

على موعدٍ جديدٍ مع الحزن، مع كلِّ حكاية جديدة يرويها والدي، ولكنه قال: «هذه قصص وحكايات تُروى للعبرة، تتداولها الأجيال، وكُلُّ جيل يقدِّمها بطريقته، فإذا عكست لدى بعضهم الإيمان الأعمى، فربَّما لدى غيرهم تعتبر قصَّة أدبيَّة، تُعبِّر عن المجتمع وهو يتطوَّر».

لفت والدي انتباهي من جديد، إلى قِنِّيْنَة طَنْطُوْر فرعون: «ستلاحظ أنها، على الأرجح، صُنِعَت وحدها، دوَّرها الحُرْفيُّون، وبعد أن أنهوها وضعوها على غرفة الدفن المحفورة في الصخرة، ولكنْ، كيف رفعوها؟ لتجعل ارتفاع الطَّنْطُوْر ثلاثين متراً، بقاعدةٍ من ستَّة أمتار، ولم يكتفوا بذلك، بل طَنْطَرُوا الطَّنْطُوْر بقَرَنْفُلَةٍ كبيرةٍ مفتوحة إلى الأعلى وضعوها على القُبَّة، لتأخذ شكل القِنِّيْنَة، التي هي أقرب إلى القلنسوة».

قال والدي: «انظرْ على امتداد الوادي، سترى أضرحةً ومغاراتٍ وكهوفاً استُخدمت للدفن، أترى الأضرحة الثلاثة؟ إنها أضرحة ذات أشكال غير مألوفة في فلسطين، ولكنها مبهرة، لا توجد إلَّا في وادينا، يا فخرنا! .. يا فرحنا! لم يُتَّفق بشأن طبيعتها بين علماء الآثار وأتباع الديانات التوحيديَّة، ويتمُّ الحديث عنها وكأنها ألغاز. وهذه الأضرحة إذا كانت فعلاً كذلك سُخِّرت للأموات منحوتة في الصخر، ومهملة، لكنَّ هذا لم يُقلِّل من أهمِّيَّتها لدى الجهات المختلفة. ربَّما أهمّ وأجمل هذه الأضرحة وأكثرها غموضاً هو أكبرها. أصبحتَ تعرفه أكثر منِّي، إنه طَنْطُوْر فرعون بقَلَنْسُوَتِه الضخمة، ثمَّ يليه قبر زَكَرِيَّا بقُبَّته التي تشبه الهرم، وبجانبه قبر آخر مختلف بقُبَّة مكعَّبة، إنه قبر بنت زَكَرِيَّا، أو قبر بنت فرعون، التي تزوَّجها النبي سليمان، وقَبرَ الفرعونة المسكينة هنا في وادٍ شرق القُدْس، بعيداً عن أهلها. طبعاً هكذا نحن نُسمِّيها، وربَّما أيضاً يُسمِّيها اليهود، ولكنهم ينظرون إليها نظرة مختلفة، إنني أخشى من هذه النظرة المختلفة، ليس لأنها مختلفة، ولكنْ، لأنها تُخفي أطماعاً، ويضمُّ كلَّ ضريح منها ما يمكن اعتباره غُرفة للدفن،

وبسبب أشكالها الهرميَّة، سُمِّي أشهرها طَنْطُوْر فرعون، وأشكالها على العموم تُظهِر تأثُّرها بالعِمَارَة المصريَّة القديمة، يا للفرعونيَّة تغزو وادينا، ونحتار بها حتَّى يوم الناس هذا!».

حزنتُ على الفرعونة التي دُفِنَتْ بعيداً عن أهلها، ووددتُ لو أعرف إذا كانوا أهلها عرفوا بقبرها هذا، وجاؤوا لزيارته. قال والدي، بأن ذلك تاريخ قديم موغِل في قِدَمِهِ، مَنْ يعرف ماذا حدث بالضبط؟ سليمان تزوَّج الفرعونة، ليس بعد قصَّة حُبٍّ، أو إعجاب بها، وإنما جرى خلف مصالح سياسيَّة، مع فراعنة مصر، فتحت له ميناء يافا، وإليه وصلت شحنات خشب الأرز من ملك صور، ليبنيَ هيكله في القُدْس، وكان يرسل عبر بحر يافا، إلى حِيْرَام ملك صور، الزيتون، والخمر؛ ثمار بلادنا المدهشة، فليس لزيتون فلسطين وعنبها، مِثْلٌ.

سألتُهُ عن تلك النظرة التي أشار إليها، فتردَّد بالإجابة قائلاً بأنني عندما أكبر سأعرف، ولكنني ألححتُ، فقال: «يُسمِّي اليهود مثلاً طَنْطُوْر فرعون، يد أبشالوم، وأبشالوم كما تعرف هو ابن الملك داود، وأصبحت أيضاً تُعرَف حكاية تمرُّده على أبيه، وفي إحدى المطاردات قُتل، فحزن عليه والده، وأمر ببناء هذا النُّصْب، كما يعتقد اليهود، ورغم اهتمامهم بهذا القبر إلَّا أنهم يرشقونه بالحجارة كما تعلم، مع اللعنات بسبب تمرُّد صاحبه الملعون على والده الذي يعتبره المسلمون والمسيحيُّون نبيَّاً، وسيأتي يوم وتراهم كيف يرشقون الحجر الضخم طَنْطُوْر فرعون هذا بالحجارة، كما فعلوا مراراً. ويُطلقون على ضريح آخر قبر يَهُوْشَافَاط ملك يهوذا الذي انتصر على أعدائه المؤابيِّيْن والعمونيِّيْن بتدخُّل الله العجيب ضدَّ أعدائه، وإلى هنا سأتوقَّف، لقد تأخَّرنا، ستعرف ما تبقَّى وحدكَ».

قلتُ له: «يا أبي، أراكَ تُعيد الحكايات عن هذه المواقع، وتخلط

بعضها ببعض، وتُحيِّرني»، فقال: «هذه طبيعة حكايات بلادنا، في كلِّ مرَّة، ربَّما نرويها بطريقة مختلفة، تعدَّد الرواة، والفاتحون، والغزاة، والمحتلُّون، وكلٌّ له روايته، وكلٌّ ترك نتفاً من روايت، ورحل، وأنتَ سيكون لكَ روايتكَ، ربَّما ترويها لابن، أو لحفيد».

وعندما بدا عليَّ بأنني لم أقتنع بكلامه، وضع يده على شَعْري وقال وهو يحرِّك يده داخله: «الأفضل أن تكون لكَ روايتكَ الشخصيَّة عن الطَّنْطُوْر، ما دام أعجبكَ إلى هذه الدرجة، وكذلك عن الأضرحة الأخرى والوادي، إنه واديكَ، وأنتَ حُرٌّ فيه، أَوِّلْهُ كما تريد. الآن علينا المغادرة، ستقلق والدتكَ».

التاسع والعشرون

ما إن وصلنا المنزل، حتَّى طلبت أُمِّي من والدي الذهاب إلى منزل السَّبْع، بالسرعة الممكنة، بناءً على طلب أُمِّه، لحقتُ به، فأمرتْني أُمِّي أن أبقى معها لأتناول طعامي، ولكنني تشبَّثتُ بوالدي، الذي نظر لأُمِّي طالباً منها أن تسمح لي بالذهاب معه، وهو ما حدث.

قالت أُمِّي مخاطبةً والدي:

- أخشى على الولد من تدليعكَ، إنه يحتاج للراحة، والطعام، ولحضني ..!

كانت والدة السَّبْع تنتظرنا، وكذلك السَّبْع وزوجته أميرة؛ فالجوُّ في المنزل مصطبغ بالقلق والحزن والنفور والاستعداد لمَا تَوَقَّع والدي أنه استئناف لخلاف لا يمكن حلُّه.

«إنها معضلة، كجبلَيْن لا يلتقيان»- تمتم والدي.

قالت والدة السَّبْع: «لم أعد أحتمل. في كلِّ يومٍ طُوشة، ومشكلة، هذه حياة لا تُطاق، بل لم تعد حياة، من أين أتى لنا كلُّ هذا؟ أين كان مخبَّأً لنا، يا ربّ؟».

انتظرتُ، كما يبدو، أن يستفسر منها والدي، لتَفْضَحَ أكثر، وهو ما فعله محرجاً، فلم يكن في نيَّته بعد يوم طويل، سماع آخر أخبار السَّبْع المعقَّدة، فقالت: «ما إن آوي إلى غرفتي لأنام، حتَّى يرتفع صوت صاحبكَ، ليغطِّي على فشله، والضحيَّة هذه المسكينة أميرة. إنه يضربها، في أيِّ عُرْف يحدث هذا؟! لن يكون السَّبْع أوَّل أو آخر واحد لا ينفع النسوان، ولو كلُّ واحد

مثله يقلب لنا الجوَّ كلّ ليلة إلى أصواتٍ، وصراخٍ، وتكسيرٍ، وضرب، لكانت الدنيا خربت، وانتهت منذ زمن».

توجَّه والدي للسَّبْع بكثير من الأدب: «لماذا تفعل ذلك، يا صاحبي؟ عليكَ أن تصبر، ألم نتَّفق على ذلك؟! لماذا ترفض مراجعة طبيب؟».

جاء صوت السَّبْع حزيناً بطيئاً: «أنا أكثر شخص عالم بحالي، يا شامان، أنا لستُ عِنِّيْنَاً، لقد جرَّبتُ نفسي مع يهوديَّات شارع يافا، أنا بمُبْ، بل بمُبْ البُمبْ، ولكنَّ الأمر هنا مع أميرة، يختلف».

نكَّست زوجته أميرة رأسها، وهي لا بدَّ تشعر بطعنات في قلبها، ولكنْ، لا يخرج منها دم، ووجهها تورَّم من الدم المخنوق تحت ثنايا جسدها، ومن ضرب السَّبْع لها.

عبَّرت أُمُّ السَّبْع عن انزعاجها: «الله يخزيك، ألَا تخجل من قول هذا أمامنا؟ ماذا جرى لكَ؟ هل فقدتَ عقلكَ؟ إذا كنتَ فقدتَ ذكورتكَ، فلا تفقدْ عقلكَ».

- إنهنَّ يهوديَّات، من اللواتي يقفنَ في بداية شارع يافا، طريقنا إلى القُدْس الغربيَّة، شجَّعهن احتلال ما تبقَّى من القُدْس وناسها على توسيع نشاطهنَّ، ليشملنا.

– هذا كلام من العيب أن تحكيَهُ، حتَّى لو كان عن يهوديَّات، ألسنَ في النهاية نساء، لهنَّ عائلات، تخاف على شرفهنَّ؟

- أقول لكِ إنهنَّ يهوديَّات من الناس الذين احتلُّونا، وأخذوا أرضنا، وكلُّ شيء بثمنه، يعشنَ بعَرَق فروجهنَّ، ونحن ندفع من عَرَق الجبين.

– ألَا تخجل على نفسكَ، ومن نفسكَ، وأنتَ تُجاهر بالحرام؟

- هذا ليس حراماً، أريد أن آخذَ بثأري، وأُحقِّقَ نصري، ومن مرَّة أجرِّب نفسي.

- الحرام حرام، يا ابني، سواء كنَّ عربيَّات أم يهوديَّات.

- إذا لم أُجرِّب في اليهوديَّات، ففي مَنْ سأُجرِّب؟ في العربيَّات؟

- اخص عليك .. أَغلِقْ هذه السيرة، ولا تفتحها مرَّة ثانية في هذا المنزل طالما أنا عائشة فيه، وغور أنت ويهوديَّاتك.

قالت أُمُّ السَّبْع ذلك، وأكملت بنبرة صوت متوسِّطة المستوى واثقة، وكأنها تقرِّر أمراً: «أعتقد أن الحلَّ الأفضل هو الطلاق، لا بدَّ من افتراق السَّبْع وأميرة، التي مثلما دخِلت إلى هذا المنزل عذراء، فستخرج منه كذلك، وكأنكَ يا أبا زيد ما غزيت، ورغم أن هذا مؤلم وجارح، إلَّا أنه أفضل من استمرار الغزوات التي لا طائل منها».

لم تكن فكرة الطلاق التي كما اتَّضح نُوقشت قبل وصولنا تروق للسَّبْع، الذي تلبَّسه إصرار عنيد على النصر بامتلاك أميرة، بعد أن فَقَدَ الكثير في الحرب، إنه يبحث عن نصرٍ شخصيٍّ، مهما كانت حدوده وثمنه - وهذه ملاحظة والدي التي أخبرني بها لاحقاً.

سأل والدي أميرة عن رأيها، فقالت بعد صمت وتكرار والدي للسؤال، بأن لا رأي لها، وأنه يجب إبلاغ والدها وأشقَّائها، بعد كلِّ ما حدث، وهذه الفضائح التي لا تنتهي، منذ قدوم الشيخ حتَّى الضربات التي تتلقَّاها كلَّ يوم منه دون سبب إلَّا ...، ولم تُكمِل.

قالت أُمُّ السَّبْع وكأنها تريد أن تُخرِج آخر جرعات الغضب لديها ضدَّ ابنها: «قولي، أكملي، إن سَبْعَنا لم يعد سَبْعاً إلَّا بصراخه وقبضاته، وإنه يعوِّض نقصه بضربكِ وإزعاجنا».

خرج السَّبْع عن صمته، وصرخ: «أشعر بأنكم تُحمِّلونني كلَّ الرزايا والمثالب، ولا أستبعد أن تعتبروني سبب سقوط مدينتكم المقدَّسة على

رؤوسكم، يا ناس، أنا ما زلتُ سَبْعاً، واسألوا عاهرات شارع يافا. إنهنّ يستغربنَ من أين آتي بكلِّ هذه الفحولة».

صرخت أُمُّه: «اخرسْ، وأيضاً تعيد وتزيد عن فجورك، ومع مَنْ؟ قلتُ هذا الموضوع لا يُفتَح مرَّة أخرى».

تمكَّن والدي من إمساك الخيوط بيده، ومدَّ خيوطه باتِّجاه مَنْ يتطلَّع إليه يأتي بحلٍّ، يُخرِج المنزل الذي تمنَّى قبل أشهر أن يدخل إليه الفرح والخَيْر، ليطرد الحزن على الاحتلال الجديد، إلَّا أنه يغرق في حزنٍ غير متوقَّع أبداً من مواته.

قال والدي: «عاملوهنَّ بإحسانٍ، أو فارقوهنَّ بإحسان، هكذا يقول ديننا، وإذا لم تُسعِد أيُّها السَّبْعُ أميرة، فلا شكَّ أنها يمكن أن تُسْعَدَ مع غيركَ، بينما تبقى لها أخاً مسانداً. تربَّينا جميعاً في هذه القرية أن نكون جميعاً أخوة وأخوات لبعضنا بعضاً، وأنتَ .. وما دمتَ تقول بأنكَ بُمبْ البُمبْ، فيمكن أن تجرِّب مرَّة أخرى، وها نحن معكَ، سنساعدكَ، وستكون أوَّل الفرحين بكَ والدتكَ التي صبرت معكَ، ورهنت حياتها لأجلكَ».

حاول والدي ترطيب ما قاله، وتخفيف ما يمكن أن يكون ثقل في حديثه على السَّبْع، فقال مازحاً: «ضاق جار بالمخاصمة الدائمة بين زوج وزوجته، وكان يُهرع دائماً للصلح بينهما، ولكنه لم يفلح في النهاية، وفي مرَّة عندما وصل صوت جاره إلى السماء، دخل عليه المنزل وهو مستفزّ: يا هذا، اعمل معها كما قال الله تعالى: إمَّا إمساكٌ، إيش اسمه أو تسريح ما أدري إيش».

لم يبتسم غير والدي لطرفته، واتَّفق الجميع على الطلاق، وهو ما كان يتوقَّعه أهل القرية وينتظرونه، ولكنه، على غير المتوقَّع، لم يُثِرِ الكثير من الضجيج، وكأن ناس قريتنا ملُّوا من حكايات السَّبْع، ويبحثون عن حكاياتٍ أخرى.

الثلاثون

في اليوم التالي لم يشغل تفكيري، منذ أن صحوتُ، سوى شجرة الخليليّ وسرِّها الذي جعل والدي يتأسَّى ويُغمُّ. واستجاب والدي لإلحاحي للذهاب إلى متحف روكفلر، الذي وضع الإسرائيليُّون يدهم عليه، كغنيمةِ حربٍ خاطفةٍ، طالما تمنّوها.

دخلتُ ووالدي إلى حديقة المتحف العامَّة، التي تقع خلفه تجاور جهته الشماليَّة، ولا ترتبط به مباشرة، يؤمُّها الناس، ويجلسون على المقاعد التي شاخ بعضها، وحول الحديقة تنتشر الشجيرات التي زُرعت عند تأسيسها، قبل النكبة، وطالت لتُخفي ما يجري خلفها، إن كان هناك ما يجري فعلاً.

والدي كان مقتنعاً بأنه تجري أمور خلف الشجيرات، من لقاءات العشَّاق، إلى تعاطي المخدِّرات التي بدأت تظهر في القُدْس، إلى درجة أن البعض تجرَّأ وصار يبيعها على بسطات في المُصْرَارَة، ممَّا أثار غضب والدي ورفاقه السائقين، ولكنْ، بعد تفكير ونقاش، لم يتمكَّنوا من فعل ما خطَّطوا له ضدَّ تُجَّار المخدِّرات الصغار على البسطات المَحميِّيْن من رجال الشرطة الإسرائيليِّيْن المنتشرين في القُدْس، وبعضهم يمتطي الأحصنة، وجاهزين دائماً للقمع.

تحدَّث والدي مع تاجرٍ أو اثنَيْن، وقدَّم النصح، محذِّراً من مغبَّة نشر السموم بين أبناء مدينتنا، ولكن ذلك لم يكن مُجدياً، وتوصَّل والدي ورفاقه أن المسؤول الأوَّل عمَّا يجري هو الاحتلال الذي يجب أن يُواجَه هو أوَّلاً، وأن المخدِّرات هي نتاج وجوده.

همس لي والدي، وهو يخبرني عمَّا يجري خلف الشجيرات، بأن العمَّ السَّبْع شوهد في مثل هذه الأمكنة يتعاطى، وعليَّ أن أحفظ السرَّ، حتَّى يجد طريقة مناسبة للتعامل معه، وإنقاذه.

شعرتُ باضطراب، وأنا لا أريد التصديق بأن السَّبْع انحدر إلى المخدِّرات، التي لم أكن أعلم عنها الكثير، غير ما كنتُ أسمعه في المُصْرَارَة، ورأيتُ أكثر من سائق يضعون حبَّات صغيرة، لونها يميل إلى الأخضر أو الأسود في سجائرهم، ويُدخِّنونها، على سبيل التجربة، وعندما يرى السمسار أبو العبس ذلك يحتجُّ غاضباً أو مازحاً حسب الموقف، ولكن تعاطي بعض السائقين لم يكن هو الذي يرتبط بالهالة المخيفة التي يتحدَّثون فيها عن خطر المخدِّرات على شباب القُدْس، كان أمراً آخر يؤدِّي بصاحبه إلى طريق الانفلات المتعدِّد، أخلاقيَّاً، ومجتمعيَّاً، وأمنيَّاً، وهو ما كان يُسمُّونه في المُصْرَارَة بالسقوط في حبائل المخابرات الإسرائيليَّة التي تُجنِّد مَنْ يتجسَّس على الناس، وحتَّى الشرطة الإسرائيليَّة كانت تُجنِّد من الضعاف أمام المخدِّرات، ليعملوا مخبرين لديها، وهي تتحسَّس الخارطة الجنائيَّة للقُدْس المحتلَّة.

حكايات عديدة سمعتُها في المُصْرَارَة، تدور حول هذه الأمور، وشعرتُ بأن الأجواءَ التي تخيِّم على تُجَّار بسطات المخدِّرات ستنفجر، ولكنْ، متى؟ لم أستطع التقدير، وإن كان ظهرت بوادر لها، عندما لم يأتِ أبو العبس إلى الموقف، ليباشر عمله، سمساراً، ومدبِّراً لشؤون السائقين والمَرْكَبَات والركَّاب، وعلمتُ بأن مخابرات الاحتلال اعتقلتْهُ بتهمة تدبير اعتداءات على بعض التُّجَّار، حيث هوجمت منازلهم في البلدة القديمة ليلاً، بعد دهمها من قِبَل ملثَّمين، وإخراجهم من المنازل، وضربهم بسرعةٍ، وتهديدهم بعدم العودة لمزاولة نشاطهم.

أمضى أبو العبس عدَّة أيَّام في معتقل المَسْكُوبيَّة، وجاء إلى المُصْرَارَة ليقول، بأن التهمة لم تثبت عليه، وأنه لا بدَّ من البحث عن طريقٍ آخر لإنقاذ

شباب القُدْس من مخدِّرات الاحتلال، بعد أن رأى ما وصفه العجب في السجن، ولم يكن هذا العجب سوى لقائه مع العديد من شُبَّان المدينة وضواحيها، خصوصاً من صغار السنِّ المحبوسين لارتكابهم جرائم صغيرة أو كبيرة، وجميعهم قد ابتلوا بآفة التحشيش، وأنهم يحصلون على وجباتهم من الآفة المأفونة، حسب تعبيره، حتَّى وهم داخل السجن تهريباً، ويعتقد بأن شرطة السجن لها يد في ذلك، وليس فقط لأن الأمر يتعلَّق بأناس فلسطينيِّيْن محتلِّين، ولكنْ، أيضاً لأن هذه الشرطة ضعيفة أمام ما وصفها بمافيات المخدِّرات اليهوديَّة، التي يسيطر قادتها على قسم السجناء الجنائيِّيْن في السجن، ولهم طُرُقهم في إخضاع شرطة السجن.

أعتقد بأن والدي وزملاءه وجَّهوا لوماً لأبي العبس، لأنه تصرَّف منفرداً، وإن إطلاق سراحه قد لا يكون لقناعة مخابرات الاحتلال، وشرطتها ببراءته ممَّا حدث، ولكنْ، قد يكون لسببٍ آخر، وأن عليه الحذر، لأنه، على الأرجح، مُراقَب، وأن مواجهة خطر مثل المخدِّرات التي تُروَّج بحماية دولة الاحتلال، تحتاج إلى عقلٍ ومواجهة جماعيَّة منطقيَّة، وليس فقط ردود أفعال نزقة.

أصبحت مهمَّة والدي وأبي العبس ورفاقهم الإسراع في إيجاد حلٍّ، ليس بردع التُّجَّار، ولكنْ، بإنقاذ الفِتيَة والشباب.

ونحن نتقدَّم في حديقة المتحف العامَّة رأى والدي ما يزعجه؛ شابَّاً وفتاة غائبَيْن في قُبْلة طويلةٍ، قد لا تنتهي، تمتم والدي بأن هؤلاء اليهود يأتون إلى الجزء المحتلّ حديثاً من القُدْس، ليمارسوا فجورهم على وقع آلام ناس القُدْس، مُتَحَدِّين عاداتنا وتقاليدنا، فيغزوننا هذه المرَّة ليس بالسلاح، وإنما بإشهار ما لا يجب أن يُشهَر، ولعلَّهم يضاعفون متعهم بذلك، ويُخرِّبون أخلاق شبابنا وفتياتنا.

أراد والدي توجيه رسالة أخلاقيَّة لي، بشكلٍ غير مباشر، محذِّراً ممَّا يتوقَّع أن أواجهه عندما أكبر قليلاً؛ ولكنَّ انتباهي ذهب فجأة لمجموعة

من الغربان تحاول سحب كيس فيه طعام غير آبهة بصاحبه الجالس على العشب، وغير منتبه لما تفعله الغربان بجانبه.

على مُسطّح نباتي أخضر تحلّقت مجموعة من اليهود، يمكن معرفتهم من أزيائهم الكاشفة، والأجزاء البيضاء اللامعة من أجسام النساء يستمعون إلى رجلٍ يعتمر طاقيَّة صغيرة، ويحمل ما بدا أنها خارطة.

قال والدي:

– إنه يشرح لهم.

- عن ماذا يشرح لهم؟

– كما شرحتُ لكَ عن الطَّنْطُوْر والكنائس والعيون، هو يشرح لهم، وكُلٌّ منَّا له طريقته، إنهم يُزيِّفون التاريخ.

- ونحن لا نُزيِّف؟

– نحن أصحاب الأرض، لا نُزيِّف.

تولَّدت لديَّ رغبة في مناكفة والدي، ولا أعرف السبب:

- كيف تعرف بأنهم يُزيِّفون، وأنتَ لم تسمعهم، ونحن فقط مَنْ نعرف الحقائق؟

اعتقد والدي بأنه يجب أن يحسم النقاش مع طفلٍ كثير الأسئلة، لا يعرف الكثير، وسيكون أمامه متَّسع ليعرف، وشدَّني من يدي نحو السياج الفاصل بين المتحف والحديقة، حيث رأينا الشجرة الميِّتة، وكيف أنها ما زالت مَرمِيَّة على الأرض أمام بيت قديم، قال لي والدي بأنه ليس سوى قصر الشيخ.

الواحد والثلاثون

في العقد الأوَّل من القرن الثامن عشر، حمل الشيخ مُحمَّد الخليليّ مفتي القُدْس الشافعيّ، شتلة لشجرة صَنَوْبَر من مدينة الخليل التي يتحدَّر منها إلى القُدْس، ليزرعها أمام مصيفه الذي بناه خارج أسوار بلدة القُدْس القديمة، وتقول الحكاية ربَّما لإضفاء أسطرة عليها بأن الخليليّ، وهو شخصيَّة مهمَّة في تاريخ القُدْس في تلك الحِقْبة، كما أكَّد والدي، حمل الشَّتْلَة في عِمَامَتِه، وتولَّاها بالرعاية. فكان يتوضَّأ تحتها، فلا يذهب ماء الوضوء هباءً، وإنما يروي الصَّنَوْبَرة التي ستكبر وتتطاول، بأكثر ممَّا قدَّر الخليليّ.

أضاف والدي، ونحن نقف بجانب الشجرة الميِّتة: «بنى الخليليُّ قصرَهُ الصيفيَّ في الكرم الذي يحمل اسمه؛ كرم الشيخ، قُبالة باب الساهرة، ويُعرَف حتَّى الآن، بقصر الشيخ، وهو مكوَّن من طابقَيْن، أو ثلاثة طوابق، وفي الأسفل معصرة زيتون، وفي الأعلى قصر الشيخ، ولا نعلم إذا كان الشيخ يشعر بالخطوة «الثوريَّة» التي خطاها ببناء قصره في هذا المكان الذي ظلَّ يحتفظ بطابعه الريفي طوال قرون، بينما كانت القُدْس قابلة بِقَدَرِها خلف الأسوار، وليس مفاجئاً أن يكون صاحب الخطوة الراديكاليَّة، من مدينة الخليل، التي ارتبطت بالقُدْس بشكل وثيق، وما زال أهلها، ربَّما المجموعة الأهمّ من سكَّان القُدْس، ممَّنْ تولّوا أرفع المناصب الإداريَّة والسياسيَّة والدينيَّة، أو صنعوا مجداً تجاريَّاً واجتماعيَّاً ووظيفيَّاً».

كم كان صعباً عليَّ هضمُ لغة والدي، ولكنه الكلام الذي يشدُّني، وعليَّ تفهُّمه وملاحقته، كي لا تفوتَني كلمة، أو يشرد منِّي حرف.

تنهَّد والدي، وكأنه يأسف على شيء ما أو يقول: يا لهذه الحياة، أو يتذكَّر الشيخ الخليليّ بتأثُّر: «يا لهذا الشيخ عاشق الكُتُب من قُدْس القرن الثامن عشر!».

ولا شكَّ أنه أدرك بأنني أريد أن أسمع أكثر: «جمع الخليليُّ مكتبةً كبيرةً من المخطوطات، في العلوم الدينيَّة والوضعيَّة، منذ أن درس في الأزهر، وعمل بالتجارة خلال وجوده في القاهرة طالباً، والتقى مشاهير الكُتَّاب والرحَّالة في وقته، كعبد الغني النابلسي، وبنى تجارة بين مدينتَيْه القُدْس والخليل، ويبدو أنه كان براغماتيَّاً، فلم يتَّخذ مواقف راديكاليَّة في الشؤون العامَّة، فعندما اندلعت ثورة نقيب الأشراف في القُدْس مثلاً، ناهضها ليس مثل البراغماتيَّة طريقة أسهل، لشقِّ دربه وسط النُّخبة المَقْدِسيَّة».

أردتُ أن أسأل عن نقيب الأشراف وثورته، ولكنَّ والدي، كعادته، وكما أصبحتُ أفهم عليه، لا يكشف إلَّا ما يريد كشفه، تاركاً البقيَّة لمرَّة مقبلة أو لأيَّامي التي يعتقد بأنها ستوفِّر لي فرصاً للمعرفة والاطِّلاع.

أضاف والدي، غير عابئ بما يمور في مُخِّي الصغير: «استقرَّ الخليليُّ في القُدْس، بعد أخذه إجازة الإفتاء من الأزهر الشريف على مذهب الإمام الشافعي، ومارس الإفتاء لأكثر من أربعين عاماً، وجُمعت فتاواه، ونُشرت في مصر، حيث لم تنقطع علاقته بها حتَّى مماته، فصدَّر لها الصابون، بعد أن أصبح واحداً من أكبر أصحاب

المصابن في فلسطين، وتوسَّع في مشاريعه العمرانيَّة العائليَّة، فبنى قصوراً في مُدُن أخرى غير القُدْس، وغير هذا القصر، جمع بين الدِّين والدنيا».

وأكمل والدي: «لم يكن الخليليُّ عاشقاً لاقتناء الكُتُب فقط، ولكنه كتب تسعة مؤلَّفات، منها: رسالة أنوار القلوب، والسيوف الجليلة والمدافع الرعديَّة، وفتوى إذا ما وقع في المصابن نجس، وفخر الأبرار

في بعض ما في اسم مُحمَّد من الأسرار، ومقدِّمة في البَسْمَلَة والحَمْدَلَة والشُّكْر والمَدْح، والمَولِد الشريف، وتاريخ بناء البيت المُقدَّس، إضافة إلى مجموعات متفرِّقة من الأشعار، متناثرة بين ثنايا الكُتُب والمخطوطات».

انضمَّ إلينا رجل يرتدي الزِّيَّ التقليديَّ، وعرَّف نفسه بأنه مَنْ كان يحرس المكان قبل الاحتلال، واستمرَّ بعد ذلك، ولا يعرف إذا كانت حكومة الاحتلال التي تسيطر على المتحف ستصرف له رواتبه المتأخِّرة أم لا؟ ما يعرفه أن الحكومة لا تعرف ماذا ستفعل معه.

حدَّثنا الرجل الذي يعيش مع زوجته وحفيدته التي فَقَدَت والدها في الحرب عن نقل حكومة الاحتلال لقِطَعٍ أثريَّة من المتحف إلى متحف الكتاب في القُدْس الغربيَّة، ومن بينها مخطوطات البحر الميت، التي شغلت القُدْس والعالم قبل أكثر من عشرين عاماً، وما زالت تشغله، وفي القُدْس يتحدَّثون عن أقدار مكتشفيها من بدو التعامرة، الذين لم يقدِّروا ما اكتشفوه، واعتقدوا أن رقوق جِلْد الغزلان التي تحوي كتابة قديمة لا تنفع إلَّا أساكِفَة الأحذية.

علمنا أن الرجل كُنيته أبو نقولا من قرية نصف جبيل في شمال الضفَّة الغربيَّة، وهو شاعر شعبيٌّ، يقول المواويل والزَّجَل، طلب من حفيدته التي كانت داخل القصر، لتأتي وترحِّب بنا، وعندما أطلَّت من الباب، لم أُصدِّق نفسي، ولم أعرف كيف تفعل الصُّدَف فِعْلَهَا، وبأيِّ منطق، أو هدف، فلم تكن الحفيدة سوى لُور، التي وإن توقَّعتُ رؤيتها مرَّة أخرى، ولكنْ، ليس هنا، حيث قادتْني صدفة انتباه والدي لشجرة قديمة مقطوعة، وليس بهذه السرعة، وربَّما رغبت أن أعثر عليها، بعد بحث وسؤال، وفشل وإحباط، قبل أن أعلم أنها قريبة إلى هذا الحدِّ من الأماكن التي أجوس فيها بالقُدْس.

لم أعرف كيف أتصرَّف، ولكنني أخفيتُ معرفتي بها، وعندما تقدَّمتْ، وقفتْ محرجة بجانب جَدِّها، ولم تُسلِّم عليَّ أو على والدي، وعندما طلب

جَدُّها منها الترحيب بنا على طريقتها، ليُظهر موهبتها، وضعت كفَّها على وجهها الأيمن، وكأنها كانت تتوقَّع تكليف جَدِّها عندما يستقبل ضيوفاً، وبدأت ترتجل بكلمات منغومة:

«الأرض إلنا والتراب ترابنا

أهلاً وسهلاً شَرَّفُونا أحبابنا»

وبعد أن أنهت لُور عرض إمكانياتها الفنِّيَّة، اقتربت أكثر من جَدِّها، وقبَّلها، ووضع يده على شَعْرها، ثمَّ أمسك كتفَيْها بيدَيْه، وقال بأنها الآن هي أنيسته الوحيدة، بينما زوجته تقضي إجازةً في قريتهم.

سأل والدي أبا نقولا عن الشجرة، فقال الرجل: بأنه علينا أن نعرف أوَّلاً تاريخ الموقع وأهمِّيَّته، وطلب من لُور أن تجلب من الداخل كتاباً، وعندما عادت فتح على إحدى الصفحات وطلب منها أن تقرأ: «في كرم الشيخ عسكر قسم من الجيش الصليبي بقيادة غودفري، ودخلوا إلى القُدْس يوم 15 تمُّوز 1099م، حيث ارتكبوا في المدينة وَفْقَاً لمرويَّات صليبيَّة، المجزرة المهولة، ولو صدَّقْنا ما كتبوه، لكانت أبشع المجازر على مدى العصور، واحتفالاً بانتصارهم نحت صليبيو القُدْس نُصْباً حجريَّاً عليه الصليب كشعار. وهذا النُّصْب يمكن تبيُّنه في بعض الخرائط القديمة، وكان الصليبيُّون يحتفلون بانتصارهم في المكان بـ 15 تمُّوز من كلِّ عام، ولم يُعثَر على هذا النُّصْب، الذي يُعتقد بأن المسلمين حطَّموه سنة 1187م».

وأنا أتابع ما تقرأ لُور، ما زلتُ أُفكِّر في صدفة لقائها السريع هذا، وأتساءل إذا كانت هي أيضاً تفكِّر في الأمر أم نسيتْني أو قرَّرت نسيان لقائنا وجولتنا في البلدة القديمة؟ لم أتمكَّن من حدس ما يدور في دماغها، وهي تُكمِل القراءة من الكُتيِّب الذي أصدرتْهُ إدارة المتحف: «بنى أعيان القُدْس قصورهم الصيفيَّة على قمم التلال، ولم يكن هناك أنسب من موقع كرم الشيخ مكاناً، ليبني عليه الخليليُّ قصره، حيث بالإمكان الإطلال

على المسجد الأقصى والبلدة القديمة، وجبل الزيتون، والشيخ جرَّاح، ووادي الجوز».

تدخَّل أبو نقولا: »بالطبع كانت المنطقة خالية من البنايات، وليس كما هو الحال الآن».

عقّب والدي مضيفاً: «اسم آخر أُطلق على قصر الشيخ، وهو قلعة الشيخ، بسبب طريقة البناء التي كانت تأخذ بالاعتبار المسائل الأمنيَّة، والتي تضمَّنت بناء سور مرتفع، يحيط بالقصر والكرم».

حكاية قصر الشيخ طويلة وذات أبعاد دراميَّة، ومن تفاصيلها شجرة الصَّنَوْبَر التي أعجبت وليَّ العهد البريطانيّ الذي لم يجد أفضل منها عندما زار القُدْس عام 1862م، ليعسكر تحتها، وهذا الأمير هو مَنْ سيصبح لاحقاً الملك إدوارد السابع.

تناقش رجال الإدارة في القُدْس زمن زيارة الأمير البريطانيّ للمدينة حول أكثر المواقع مناسبة لنَصْب مخيَّم الأمير وحاشيته، واقترح الباشا العثمانيُّ بأن تُنصَب الخيام تحت شجرة الصَّنَوْبَر الكبيرة، حيث نصب غودفري من بويوف خيامه زمن حصار الصليبيِّيْن للقُدْس وهو ما حدث وحسم الأمر، فرفض الأمير جميع الاقتراحات بالإقامة داخل القُدْس المسوَّرة، وفضَّل أن يكون خارجها مُطِلَّاً عليها، متأمِّلاً في مُقدَّساتها، وسُوْرها، والقُبَّة الذهبيَّة التي تعلو مسجد قُبَّة الصخرة - كانت لُور تتابع القراءة.

وعلى درب وَليِّ العهد، والملك لاحقاً، نَصب الأمير آرثر في سنة 1865م معسكره في المكان؛ لكنْ، منْ هو آرثر هذا؟ لم يُكلِّف أحدٌ نفسَهُ ليُخبرَني، وحتَّى عندما نظرتُ إلى لُور، لتُفهِمَني، لم تفتر شفتاها عن أيَّة كلمة، ربَّما لم تكن هي الأخرى تعرف، واستكانت مثلي، لأقاويل الكُتُب وحكايا الكبار، لقد بدا أن توافقاً حدث بين والدي وأبي نقولا رغم فارق السنِّ بينهما، وعلى الأرجح قرَّبتْهما الحرب أو نتائجها،

وحيَّرتْهما اتِّجاه مستقبل القُدْس، الذي بدا غامضاً بالنسبة إليهما، بينما كانت إسرائيل المنتصرة تفرض رؤيتها.

لم يبقَ قَصْر الشيخ معزولاً، وشجرة الصَّنَوْبَر الكبيرة وحيدة، ففي بداية القرن العشرين بنى متصرِّف القُدْس رشيد بك بالقرب منه المدرسة الرشيديَّة التي درس فيها والدي، وبعد عدَّة سنوات شُيِّدت أولى بنايات ما سيُعرَف بحيِّ الساهرة، قُبالة باب الزاهرة، الذي يُسمَّى شعبيَّاً بالساهرة.

ابتسم والدي وهو يُلقي ما بدا أنها طرفة: «جمع ضياء أفندي التبرُّعات، لإقامة المدرسة وعندما حدث ذلك، لم يعيِّن مديراً أو حتَّى مدرِّساً فيها، بل كلَّف الأتراك تركيَّاً بإدارة المدرسة، وزاد ذلك من نفور الأفندي من القُدْس، التي وصفها بأنها وعاء من الذهب، تسبح فيه الأفاعي».

ضحك أبو نقولا وهو يقول: ما أكثر أفاعي القُدْس، وثعابينها، وهو الذي خبرها، كما قال أكثر من غيره.

ضحكنا، باستثناء لُور، التي ظلَّت محافظة على حياديَّتها، وكأننا لم نلتقِ، ولم نتحدَّث، ونتسمرح في الشوارع.

قال أبو نقولا وهو يأخذ الحديث بنظرة العارف بتاريخ المكان إلى زاويةٍ أخرى أحدث عن الموقع: «في عام 1906م سعت الحركة الصهيونية، من خلال الصندوق القوميِّ اليهوديِّ، للاستيلاء على المكان، الذي يُشرف بالنسبة إليها على جبل الهيكل، وكان هدف الحركة الصهيونية إقامة معهد بتسالئيل للفنون، وحلم مؤسِّس هذا المعهد بوريس شاتس، بإقامته مع جامعة عبريَّة مكان كرم الشيخ، لكن الحُلْم الصهيوني تأجَّل».

وأضاف: «لاحقاً، بني في كرم الشيخ ومساحته 32 دونماً، بعد شرائه من وَرَثَة الشيخ الخليليّ، متحف الآثار الفلسطينيّ (متحف روكفلر)، عام 1935م، وافتُتح للزوَّار عام 1938م، وتمَّ الإبقاء على قصر الشيخ، وعلى شجرة الصَّنَوْبَر الضخمة، التي شهدت على التغيُّرات التي عصفت

بالمكان، وبالأراضي المقدَّسة؛ جيوش تأتي وأخرى تتقهقر، وأمراء وأباطرة وحُجَّاج ورحَّالة وأفَّاقون ورُوَّاد يأتون، ومثلهم يغادرون،وظلَّت الصَّنَوْبَرة تقاوم تقلُّبات الأجواء الطقسيَّة والتبدُّلات السياسيَّة، حتَّى ماتت قبل أسابيع، فقرَّرت إدارة المتحف قطعها تاركةً في قلبي ألماً وحسرةً، يبدو أنها لم تعد تتحمَّل تقلُّبات القُدْس ومُحتلِّيها الذين بلا عدد».

سأل والدي أبا نقولا عن كيفيَّة موت الشجرة المتعالية، فأجاب: «قد لا تُصدِّق، أحسستُ بها؛ أقصد بأنني شعرتُ عندما كنتُ أنظر إليها في الأيَّام الأخيرة، أن حدثاً سيحدث، ولم أعرف ما هو أو كيف سيحدث؟ عندما صحوتُ مبكِّراً في أحد الأيَّام، قصدتُها، فبدت لي وكأنها تذوي، وعندما وضعتُ يدي عليها، شعرتُ بأن مَلمَسها بدا مختلفاً، فقلتُ بأنها قد تكون مريضة، ولم يخطر ببالي أنها تحتضر، لأنني كنتُ على يقين بأنها لا تموت، والصَّنَوْبَر عموماً لا يموت، هذا ما اكتشفتُهُ بنفسي صُدْفةً، عندما

كنتُ أجمع ما تُسقطه من أكواز، وأُلاحظ كيف تكون فصوصها مفتوحة، ومرَّة، وبعد أن أمطرتْ، لاحظتُ بأن الأكواز التي وضعتُها أمام القصر مغلَقة، وعندما شمست الدنيا، عادت لتفتح من جديد، فجرَّبتُ مرَّة أخرى بوَضْعها في الماء، فأغلقت فصوصها، وعندما أخرجتُها ووضعتُها في الشمس، فُتِحَت من جديد، إنها تشبه وردة أريحا التي لا تموت، فإذا كانت أكواز الصَّنَوْبَر لا تموت، فكيف يمكن لشجر الصَّنَوْبَر أن يموت؟».

أنصت والدي باهتمام لما يقوله أبو نقولا، وإن بدا أنه لم يفهم عليه كثيراً، فطلب منه أن يُكمِل حكاية موت الصَّنَوْبَرة: «شعرتُ بأن الصَّنَوْبَرة تعاني من عارض معيَّن، ولكنني لم أتصوَّر بأنها ستموت، وبهذه السرعة وهو ما حدث، عندما فوجئتُ بها وقد جفَّت أغصانها ومالت نحو الأرض، فأدركتُ بأنها اختارت الموت، ولكنْ، بشموخٍ وكبرياءٍ».

ربط والدي بين موت الصَّنَوْبَرة والاحتلال الجديد، مذكِّراً أبا نقولا،

بموت شجرة أخرى في القُدْس، مع دخول البريطانيِّيْن إليها، وحاول أبو نقولا استجماع ذاكرته، ولكنه لم ينجح في تذكُّر تلك الشجرة، مطالباً والدي مواصلة الحكي، فقال والدي:

- قرب بِرْكَة مَامِيْلا الضخمة، وُجِدت شجرة مَيْس كبيرة، وساد اعتقاد بين ناس القُدْس، كما أخبرني والدي، أنه مع سقوطها ستسقط تركيا، وعندما اقترب البريطانيُّون من القُدْس منتصرين، وبينما كان رئيس بلديَّة القُدْس حسين الحسيني ينطلق إلى القُدْس الجديدة، ليبحث عن أيِّ بريطانيٍّ، ليُقدِّم له وثيقة الاستسلام، انتبه بعض الناس في لَجّة الوقائع المتسارعة، أن شجرة المَيْس، سقطت، وماتت.

ضحك أبو نقولا، وهو يسأل:

- ترى ماتت فرحاً أم حزناً؟

- الموت لا يُفرِح أحداً، رغم أن الناس لم يزعلوا كثيراً على رحيل الأتراك، بل استعجلوه، ليكتشفوا ما سيجيئهم بعده، إلَّا أنهم رأوا في موت شجرتهم، دلالة ما، ورمزاً على موت حِقبة، رزحوا تحتها أربعة قرون، وميلاد حِقبة أملوا منها الكثير.

وفجأة ارتفع صوت أبي نقولا منغَّماً:

يا طولك طول عود الزان والميس

وخدّك ما ربي باليمن والقيس

خسارة يا المليحة يوخذك تيس

ويقطف ورد خدّك عالندى

ضحكنا، وأثنى والدي على صوت أبي نقولا الشجي، ولكن الأخير تواضع قائلاً: «لم يعد لي نفس الصوت وقوّته، الحرب والعُمُر أضعفا صوتي».

أصرَّ أبو نقولا على أن نتناول القهوة، وجلسنا أمام الصَّنَوْبرة الميتة، فلم تكن جثَّتها المقطوعة قد نُقِلَت من مكانها، وعندما أطلَّ أبو نقولا حاملاً صينيَّة القهوة، وفي ذيله لُور، كنتُ قد شعرتُ بالملل، والسأم، من حجم الدراما الحزينة التي ضخَّها والدي

وأبو نقولا في هذا الجزء من هواء القُدْس، ولم أكن أتمنَّى سوى أن تسنح لي الظروف لأقتربَ من لُور.

تحرَّكتُ ولُور، بدون اتِّفاق، نحو المتحف، الذي بدا وكأنه قصر قديم مسحور، يسكنه الصمت، قلتُ لها:

- توقَّعتُ أن لا أعثر عليكِ مرَّة أخرى.

– أمَّا أنا، فكنتُ أعرف بأنكَ ستأتي، ولا تسألني كيف؟

- كيف؟

– هههه، قلتُ لكَ لا تسأل، الأسئلة التي لا تعرف الإجابة عليها، أنا أتحرَّك بقلبي، وعندما يقول لي شيئاً يحدث، وفي هذا الصباح، أخبرني بأنكَ ستأتي.

- يا للبنت العبقريَّة المرهفة ..!!

أردتُ تصديق لُور، ولكنني لم أعرف كيف، وما همَّني فعلاً هذه الصدفة العجيبة الجميلة التي جمعتْنا.

– ألم تُنادِني في تلك المرَّة الأولى بقلبكَ، فأتيتُكَ؟

- تعرفين الكثير، يا لُور.

اتَّجهنا نحو العديد من التوابيت الحجريَّة القديمة المَرمِيَّة حوِل المتحف بدون عناية، وأخذت لُور تضع يدها على الرسومات الأسطوريَّة المحفورة عليها، وتتطوَّع لتشرح رؤيتها لهذه الرسوم النافرة، وقادتْني لرؤوس أعمدة

ثريَّة الزخارف بدأت تتأثَّر بعوامل الزمن، وقدَّمت لي درساً عن أسمائها وعن العصور التي تعود إليها، ولكنْ، رغم ذلك لم تترك معلومات لُور المبهرة أثراً فيَّ، بقَدْر ما فعلت عيناها العسليتان البريئتان الذكيتان، خُيِّل لي بأن شعاعاً من زمنٍ لم أشهده، ولا أعرفه، خرج من عينَيْها، في لحظةٍ، وحطَّ، في لحظةٍ، بعينَيَّ، وأنه قد لا يخرج منهما أبداً.

تركتُ ووالدي قصر الشيخ وشجرته بعد أن صافحنا أبا نقولا، ونظرتُ بشكلٍ خاطف في عينَي لُور، لأتفقَّد بقايا الشعاع، وشعرتُ بأنها تنتظر منِّي أن أقول لها شيئاً، وعندما لم أقل، توجَّهتْ بالكلام إلى والدي:

«اجعلْ كافل يأتي هنا لزيارتنا، سنلعب سويَّاً، ونُمضي وقتاً فرحاً، وسأُعرِّفه على المكان بشكلٍ أفضل، وكذلك المتحف».

وَعَدَ والدي لُور، بأن يسمح لي إذا رغبتُ بالمجيء هنا، على أن تُعيدَني إليه في موقف المُصْرَارَة، فوافقتُ قائلة: «اعتمد عليَّ دائماً، أنا في الانتظار». أمَّا أنا موضوع اتِّفاق الجنتلمان، بين والدي والحفيدة التي يَتَّمَتْها الحرب، فلم أنطق بكلمة، ولم يسألني أيٌّ منهما رأيي، فهما، على الأرجح، افترضا أنهما يفعلان أمراً سيُفرحني.

الثاني والثلاثون

توجَّهنا إلى موقف المُصْرَارَة، فكان الشيخ نعيم ينتظر والدي في مطعم العِكِرْمَاوِي، طلب منِّي والدي المكوث في المَرْكَبَة، والاعتناء بها، بينما جلس مع الشيخ نعيم على كرسيَّيْن متقابلَيْن أمام المطعم، وأنا أراقبهما من مكاني في السيَّارة. فوضع الشيخ نعيم حقيبةً على رجلَيْه، وفتحها بشكلٍ موارب، حتَّى لا يرى ما في داخلها إلَّا والدي. نزلتُ من المَرْكَبَة، وتوجَّهتُ نحوهما، ووقفتُ خلف والدي، وسمعتُ الشيخ نعيم يتحدَّث عن رُمَّانتَيْن، تركهما الجيش البريطانيُّ، وعثر عليهما في خِرْبَة البرج، ويضع ثمناً لهما، بينما والدي يطلب منه أن يُقلِّل السعر، بينما الشيخ يقول بأنه إذا لم تكفِ الأموال المدفوعة، فسيُعوِّض من جيبه على مَنْ وجد الرمَّانتَيْن.

انتبه والدي إليَّ، ونهض وهو يقول للشيخ نعيم بأنه سيتَّصل به قريباً، وقد يزوره في البرج، أو يلتقيان هنا في القُدْس.

أمَّا الشيخ نعيم، فداعبني وهو يناديني: «يا كافلَ إمارة القُدْس وحرمَي الأقصى والخليل، يا أميرَ البرِّ، وأميرال البحر، يا قائدَ جيوش المسلمين، وقاهرَ الروم والفُرْس والبيزنطيِّيْن، ماذا ستفعل لنا ولكَ ولهم عندما تكبر؟ قلْ لي، يا كافل». وطبع قُبْلة على رأسي، واتَّجه نحو باب العَمُود وهو يحمل حقيبته، وبدا لي، بهيئته، وكأنه مأذون شرعي.

توجَّهتُ ووالدي نحو الموقف، لنجد أبا العبس واقفاً مرحِّباً، حاملاً كأس قهوة بيدٍ، بينما يمسك بيده الأخرى سيجارة، تطلع إلى فمه، وتنزل بسرعةٍ لافتة.

كثير من السائقين والشباب كانوا يُفضِّلون ارتشاف القهوة من كؤوس زجاجيَّة أصغر قليلاً من كؤوس الشاي، ويرون في ذلك دلالة على مزاجٍ عالٍ في شرب القهوة وتقديرها، أكثر على الأقلّ من ارتشافها من فنجان خزفي صغير مُدوَّر.

ربَّما لاءمت كؤوسُ القهوة الزَّجاجيَّة حالةَ احتسائها في الشوارع، على كراسي المقاهي الشعبيَّة، أو صنعها على عجلٍ في الأكشاك المنتشرة في المُصْرَارَة وباب العَمُود وشارع نابلس.

أراد مُحتسو القهوة الشارعيُّون رؤيةَ السائل الأسود يُلطِّخ بياض زجاج الكاسة، ليُورِّطوا حاسَّة البصر إلى جانب حواسّ أخرى في عمليَّة احتساء القهوة، الطارئة، والسريعة، بعيداً عن هدوء المنزل، وبطء صنع القهوة، والتلذُّذ بشربها بطيئاً، معطين مجسَّات التذوُّق على اللسان، تذوَّقها بهدوءٍ وبمزاجٍ عاليَيْن.

قال والدي مرَّة، بأن حاسَّة التذوُّق لدى الإنسان تبقى بعد موته، وهي آخر مَنْ يموت، وربَّما هذا ما يفسِّر سبب تذكُّرنا لمذاق حَبَّة بوظة، أو طبخة ما، أو لذعة فنجان قهوة، قد لا يتذكَّر المرء أين شربه؛ إنها قوَّة الحياة لدى مجسَّات التذوُّق.

وأعطى والدي مثلاً على تذوُّقه صغيراً البوظة التي يسمِّيها العربيَّة لدى بوظة بكداش في سوق الحميديَّة في دمشق، عندما زارها برفقة والده، وما زال طَعْمها في فمه حتَّى الآن.

لم تكن المسافة بين القُدْس ودمشق بعيدة كما هي الآن، وعندما ينطلق الشخص من القُدْس، يصل دمشق في غضون ساعات، ويُطلق الأجانب على باب العَمُود باب دمشق، ربَّما تذكاراً ليس للأيَّام الماضية قبل الاحتلال القريب، ولكنْ، للقرون القديمة، حيث نُظِر لباب مدينة القُدْس الرئيس، كبداية الطريق إلى العاصمة دمشق، التي عُلِّمت بأعمدة

إرشاديَّة، عثر على نقشٍ، يدلُّ عليها في وادي القَلْط، قرب مدينة أريحا وهو نقش بالخطِّ الكوفي على يد موظَّفي الخليفة عبد الملك بن مروان.

قال والدي: «كم هي بعيدة وقريبة هذه الدمشق ..! الاحتلال غيَّر كلَّ شيء، في زمنٍ ما اقترح رحَّالة عندما دُهش من طبيعة غور الأردن، بإغراقه بالماء، واستنتج أن ذلك سيؤدِّي إلى أمور كثيرة جيِّدة، من بينها، تلطيف مناخ دمشق الشام، دمشق الآن، مثلنا تُلَمْلِمُ جراحها، بعد خسارة الجولان».

تحدَّث أبو العبس وكلماته تمتزج برذاذ يخرج من فمه باتِّجاه والدي، وبدا شَعْره النيجرو المجعّد وكأنه يحوي إبراً مدبَّبة، تشبه تلك التي تغطِّي جسد النيص (الشيهم)، ترتفع إلى الأعلى محذِّرة ومهدِّدة.

قال سمسار الموقف الديناميكي: بأنه وجد حلاًّ، وإن كان جزئيّاً، لمواجهة انتشار المخدِّرات بين شباب القُدْس.

ومشى أمامنا، وجلس على مقعدٍ خشبيٍّ في طرف الموقف، وجلس والدي بجانبه، بينما وقفتُ أنا غير المَرئيِّ بالنسبة إليهما خلفهما أتسمَّع.

قال أبو العبس: بأن واحداً من زعران البلدة القديمة التائبين زاره، حاملاً اقتراحاً يتعلَّق بضحايا الإدمان من شباب القُدْس.

وروى أبو العبس أن الأزعر السابق اسمه عبد المعين، وهو رسَّام عاش حياة بهيميَّة، ولم يترك معصية إلَّا ارتكبها، كما يعترف، ولم يعلم أنه في تلك الليلة الحمراء قبل عامَيْن، سيتحوَّل مصير حياته، ويصبح من التائبين، وينذر عُمُره لليوم الذي سيقابل فيه وجه ربِّه، بعد أن استيقظ ضميره في تلك الليلة، ورفضت جوارحه ارتكاب المزيد من المعاصي.

وأضاف، بأن عبد المعين أسَّسَ مع مجموعة من رفاقه من شباب بلدة القُدْس القديمة لجنة، سمَّوها اللجنة المُحمَّديَّة، لتنشط بعيداً عن

السياسة والمواجهة المباشرة مع الاحتلال، وتمكَّنت من تنفيذ أعمال تطوُّعيَّة في ترميم أضرحة أولياء الله الصالحين، والمقابر، ولكن ظاهرة المخدِّرات والإتجار بها المستفحلة في القُدْس استحوذت على اهتمام اللجنة، وأراد شبابها أن يساعدوا في هذا الشأن، خاصَّة أن بينهم أكثر من واحدٍ من المتعاطين، ويحاولون الشفاء، ويبذلون جهداً، وأحياناً ينجحون، ثمَّ ينتكسون من جديد.

سأل والدي إذا كان أبو العبس متأكِّداً من جوهر عبد المعين، وسلوكه، والأهمّ وطنيَّته؟ فأكَّد السمسار ذلك معلِناً أنه يعرفه، لأنه يسكن قريباً من مسكنه في البلدة القديمة، التي يعرف الناس فيها بعضهم بعضاً.

ثمَّ سأل عن طبيعة الاقتراح، ولكن أبا العبس اقترح أن يسمع والدي ذلك من عبد المعين نفسه، واستأذن ليأتي به من إحدى محلَّات المُصْرَارَة التي جلس فيها لدى صديقه منتظراً.

عاد أبو العبس بعد قليل، وبجانبه رجل طويل، له لحية سوداء كَثَّة، تشبه العِمَامَة السوداء التي يضعها على رأسه، ولا تتناسب مع العباءة التي يرتديها فوق جلبابه.

نهض والدي، وسلَّم على الوافد الجديد، وبعد مجاملات قصيرة، طلب والدي من عبد المعين عرض وجهة نظره.

قال عبد المعين: «نحن في اللجنة المُحمَّديَّة، لم نكن غافلين عن ظاهرة المخدِّرات في مدينتنا المقدَّسة، وهالنا أن نرى ذلك يحدث في مسرى النبي مُحمَّد صلى الله عليه وسلَّم، دون أن نستطيع فعل شيء، وقبل أشهر زرنا مقام النبي موسى في البرِّيَّة تمهيداً لتنظيفه، ووجدنا مجموعة من البدو قد وضعوا أغنامهم في غرفه الكثيرة، وساءنا رؤية المقام بتلك الوضعيَّة، فبدأنا بتنظيفه فوراً، على أن نعود لاحقاً لاستكمال عملنا بشكلٍ منظَّم وأكثر تخطيطاً، وكان معنا أحد مدمني المخدِّرات، يُدعى (أبو جمال)، الذي أصرَّ

على البقاء في المكان المهمَل، وفعلاً أمضى ليلته هناك دون أن يُصابَ بالكريزة ومضاعفاتها، وعندما عدنا إليه في اليوم التالي، أخبرنا بأنه يؤمن بوجود سرٍّ إلهيٍّ في الموقع الصحراويِّ، يساعد على الشفاء والتخلُّص من المخدِّرات، ونام في المقام مدمن آخر مع أبي جمال».

لم ترقْ لوالدي مسألة السرِّ الإلهي، وشعر أن هناك خطأ ما يجري مع عبد المعين هذا، جعله يتشكَّك فيما يريد مستغلاًّ الإله وسرَّه للوصول إليه، فسأله عن اقتراحه، ليُقدِّمه مباشرةً وبدون مواربة، فقال الأوَّل:

- نحن بدأنا فعلاً في تجميع مدمنين بالمقام المتَّسع، ولكنَّ سلطات الاحتلال والبدو يضايقوننا، ونريد إذناً صريحاً من الأوقاف باستخدام المقام، فمن ناحية نحميه من اعتداءات البدو، ومن أطماع اليهود، ومن جهة ثانية نعالج المدمنين الضحايا.

راقت لوالدي مسألة الحماية، ففكَّر قليلاً، وقال:

– هذا الأمر حلُّه لدى الشيخ عبد ربِّ النبي ..!

وتكفَّل بمقابلة الشيخ، ووعد عبد المعين خيراً.

الثالث والثلاثون

تمتدُّ البرِّيَّة، من القُدْس إلى البحر الميت، ويملك أهل قريتي أراضٍ شاسعة في المنطقة المنخفضة التي تواصل انخفاضها الحادَّ من جبال القُدْس، إلى أخفض موقع في العالم البحر الميت. إنه قاع العالم.

تتحدَّث الأساطير في قريتنا عن إعجاب القائد صلاح الدِّيْن بشجاعة أهلها، فمنحهم الأراضي الواسعة التي قد يكون مقام النبي موسى يقع فيها، ولكنها الآن مُصادرَة، ووضعت دولة الاحتلال يدها عليها، باعتبارها مناطق عسكريَّة، وأثريَّة تحوي بقايا كنائس، وقلاعاً، ولم تُصادِر مقام النبي موسى الذي يضمُّ عشرات الغرف وضريح النبي موسى، لأن اليهود يؤمنون بأن نبيَّهم ونبيَّنا لم يدخل أرض الكنعانيِّيْن، ومات وهو ينظر إليها من قمَّة جبل نبو في شرق الأردن، ويبدو أن صلاح الدِّيْن وقبله الظاهر بيبرس لم يؤمنا بشكلٍ حاسم بموت النبي موسى في برِّيَّة القُدْس، ولكنَّ السلطان المملوكي بنى المقام، لغاياتٍ دِفاعيَّة، ورمَّمه السلطان الأيُّوبي، وحصَّنه. وأطلق فيه موسم النبي موسى، لأسبابٍ دفاعيَّة وسياسيَّة، حيث يتجمَّع فيه المسلمون من أنحاء فلسطين كافَّة، خلال عيد الفصح المسيحي، ويمكثون أسبوعاً، جاهزين للتدخُّل كجيشٍ شعبيٍّ، إذا حاول الصليبيُّون العودة، مستغلِّين احتفالات المسيحيِّيْن بالفصح.

وفي الحرب الأخيرة، رابطت كتيبة من الجيش العربيِّ في الموقع، ولم تكن تدري ماذا عليها أن تفعل، فلم تتلقَّ أيَّة أوامر، وقال قائدها لجنوده عندما انتهت الحرب، وهم يغادرون إلى شرق النهر: «لم تكن حرباً، وإنما هوجة بدويَّة من جانبنا، وتخطيطاً وحرباً من جانبهم».

عندما دخلنا المسجد الأقصى من باب حِطَّة، عزم أصدقاء والدي من النَّوَر الذين يسكنون هناك عليه لتناول القهوة، ولكنه اعتذر، لأنه يريد أن يقابل الشيخ عبد ربِّ النبي لأمرٍ مهمٍّ، فقال له مختار النَّوَر، بأنه رآه يجلس في قُبَّة العشَّاق.

استغربتُ الاسم حِطَّة، يُطلق على أحد أبواب الأقصى، فكان جواب والدي حاضراً وكأنه يتوقَّعه: «قَالَ اللهُ لِبَنِي إسرائيل: ادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ تُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ».

سألتُهُ وهل دخلوا؟ وما علاقة هذا الباب بالدخول وبهم؟ وكما توقَّعتُ هذه المرَّة، وَجَدَ والدي نفسه، في مأزق صغير نتيجة إجابته على استغرابي، فلا وقت لديه ليشرح لي مطوَّلاً، آية قرآنيَّة من سورة البقرة، وعلاقتها بباب في المسجد الأقصى، ويُشار إليه في طرقةٍ محاطة على الجانبَيْن بأبنيةٍ مملوكيَّة، تُعرَف كلُّ منها بمقرنصاتها، المتدلِّية من أعلى الأبواب، وكأنها أعمدة مياهٍ متجمِّدة.

قال والدي: «يا بُنيَّ، الأديان والتاريخ تتداخل، وأسماء القبائل والشعوب تأخذ معانيها في سياقاتها، فبنو إسرائيل القدماء لا علاقة لهم بالقوم الذين عنيتُهم».

زادني والدي، خلطاً على خلط ..! خصوصاً عندما سمعتُهُ يقول هامساً، وكأنه يحدِّث نفسه، بكلامٍ اعتقد بأنه أكبر من فهمي: «فبدَّلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبَّة في شَعْرة».

سرتُ خلف والدي، نحو قُبَّة العشَّاق، التي يفضِّلها الشيخ المصري لقراءة القرآن والتأمُّل، عندما يملُّ من أسئلة النساء الكثيرة، اللواتي يطلبنَ فتَاوٍ لأمورٍ يعتبرها الشيخ بأنها تافهة.

عرض والدي على الشيخ الاقتراح الذي سمعه في المُصْرَارَة من الشيخ عبد المعين، وطلب منه التدخُّل لدى الأوقاف، ليمنحوا الغطاء لعبد المعين ورفاقه.

تحمَّس الشيخ للاقتراح، وقال:

- أنتَ تعلم كيف تدار الأوقاف ..!

– أنتَ بَرَكَتُنا، يا شيخ، واعتمادنا على الله، ثمَّ عليكَ.

- في دائرة الأوقاف، هناك مَنْ يخاف من الاحتلال، وغيرهم من الملك، وغير غيرهم يخافون من بعضهم بعضاً. فالحَرْب بلبلتنا وخيوط الولاءات وتداخلها تمتدُّ إلى داخل المسجد ودوائر الأوقاف.

رغم هزيمة الأردن في الحرب، إلَّا أنها ظلَّت تسيطر على دائرة الأوقاف، ورغم انتصار إسرائيل المباغت والسريع، إلَّا أنها فشلت في السيطرة على المسجد الأقصى، والعَلَم الإسرائيليُّ الذي رُفع على المسجد، لم يستمرّ إلَّا دقائق، ويقال بأن تركيا صديقة إسرائيل احتجَّت، ويقال بأن الجنرالات المنتصرين استمعوا لأصوات العقلاء من أصدقائهم، بتأجيل استفزاز مسلمي العالم، فلجؤوا لخطوات أقلّ استفزازاً، مثل السيطرة على باب المغاربة وإغلاقه بعد هدم حارته، بينما اطَّلع مجانينهم بالأمور الأخطر مثل الرجل الأسترالي الذي حرق المسجد، قبل عام تقريباً، ونفضت الحكومة يدها منه، وقالت بأنه مجنون.

قال الشيخ عبد ربِّ النبي:

- ليت لدينا في الأوقاف بضعة مجانين، مثل دينيس مايكل روهان ..!

– أراكَ تحفظ اسمه الثلاثي، يا شيخنا.

- للأسماء الثلاثيَّة وقع على المتلقِّي العربيِّ، وربَّما ظلُّوا يكرِّرون ويعيدون اسمه الثلاثيَّ، بشكلٍ مقصود.

بدا والدي متشكِّكاً في ما يقوله الشيخ، الذي أوضح:

- لدى أبناء عمِّنا خبراء في النفس العربيَّة، ويدرسون ما تتأثَّر به، وعليكَ أن لا تستهين بهم حتَّى في الأمور التي تبدو تافهة، وإذا تذكَّرتَ ما كانتْ تذيعه إذاعتهم، فستدرك وقع تلك النغمة على الأُذُن وهم يردِّدون اسم المجرم الثلاثيَّ.

وسرد الشيخ ذكرياته عن الحريق، وكيف هبَّ لإطفائه، مع المئات الذين تدفَّقوا من شوارع القُدْس إلى الأقصى.

ذكَّر والدي الشيخَ بالموضوع الذي جعله يحضر إلى الأقصى من أجله، فقال الشيخ بجِدِّيَّة:

- اطلبْ من صاحبكَ عبد المعين أن يعمل وصحبه على تجميع المدمنين في المقام، لفرض أمر واقع، واترك الباقي عليَّ، وعلى الله الذي لا يُضيِّع جهد أحد.

نهض والدي مستأذناً، ونهض ليُشيِّعَنا، ومشينا باتِّجاه باب حِطَّة، وعلى بُعد أمتار من قُبَّة الصخرة، لفت والدي النظر إلى تشكيل حجريٍّ، بدا مَرمِيّاً على الأرض، وأمعن النظر فيه.

قال الشيخ عبد ربِّ النبي موضِّحاً:

- هذا صليب ..!

استغرب والدي وهو يتفحَّص الدوائر الثلاث البارزة، وسأل:

– كيف؟ صليب في الأقصى؟

ابتسم الشيخ عبد ربِّ النبي، وقال:

- إنها لفتة العَدُوِّ ..!

بدا أن الأمر استغلق على والدي، وزاده توضيح الشيخ غموضاً، فسأل:

– أيُّ عدوٍّ؟ وأيَّةُ لفتة؟

بلع الشيخ قليلاً من الهواء، استعداداً لما بدا أنه حديث طويل، أو جادّ:

- للمنتصر لفتته، للمهزوم، الذي عندما يصبح منتصراً، يقدمٍّ لفتته هو الآخر. فالصليبيُّون، الذين ارتكبوا، إذا ما صدَّقنا ما كتبه وليم الصوري واحدةً من أبشع الجرائم في القُدْس حوَّلوا قُبَّة الصخرة إلى كنيسة، ولكنهم أبقوا على ما تركه مَنْ سبقهم مِنَ الحُكَّام المسلمين من أسماء تُخلِّد أعمالهم، بأكثر أساليب الخطِّ العربيِّ، والزخرفة براعةً وفنِّيَّةً، وعندما انتصر صلاح الدِّيْن ترك لفتته، فأخرج صليباً كبيراً من قُبَّة الصخرة، ووضعه هنا في ساحتها، ولكنه، أو غيره لاحقاً، قَصَّ الصليب الحجريَّ، لتبقى هذه الدوائر الثلاث الجميلة التي تراها، وقريباً منها كما ترى أكثر من جرن عماد، استخدمها الصليبيُّون، خلال احتلالهم للمسجد.

بدا والدي مستغرباً، وهو يسمع عن الأمر لأوَّل مرَّة، بينما واصل الشيخ حديثه:

- المسألة لا تتعلَّق هنا فقط في القُدْس، في الحرم الإبراهيمي الشريف في الخليل، فقد أبقى المسلمون على النقش اللاتيني الذي يشير إلى تأسيس كنيسة في الحرم، وفي المسجد الأموي في دمشق، أبقى المسلمون على جرن العمَّاد، الذي يشير إلى طبيعة المكان السابق ككنيسة بيزنطيَّة، وقبل ذلك كمعبدٍ رومانيٍّ.

– هل هذا جزء من التسامح الإسلاميّ؟

- ربمَّا نعم، وربمَّا لا، ولكنه رسالة ممَّنْ سبقونا، وكانوا أعلم بأمر ديننا منَّا، بأن القناعات الدينيَّة لا تهمُّها ولا تؤثِّر عليها، أيَّة رموز لأديانٍ أخرى، لقد كان أسلافنا أقوياء وواثقين، لذا أبدوا تسامحاً، وقدَّموا لفتتهم ..!

– جيِّد .. جيِّد، يا شيخنا، لعلَّنا نعود مثلهم أقوياء ..!

- في الواقع لم تكن الأمور دائماً جيِّدة، فاتبعْني أنتَ وابنكَ.

سرنا خلف الشيخ، الذي سرَّع مشيته، ودخلنا إلى قُبَّة الصخرة من بابها الجنوبيِّ، وعندما أصبحنا في الداخل، قال الشيخ عبد ربِّ النبي لوالدي:

- انظرْ هناك في الناحية الجنوبيَّة الشرقيَّة، إلى النقش على قناطر التثمينة الوسطى، هل لاحظت ما كُتب بالخطِّ الكوفي المُذَّهَب على الأرضيَّة اللازَوَرْدِيَّة الفسيفسائيَّة؟ أعلم أنه ليس من السهل قراءته.

– أرى خطَّاً جميلاً، ولكنه يحتاج إلى تمعُّن.

- اسمعْ، قتلَ العَبَّاسيُّون الأمويِّيْن في فلسطين، ونصبوا أسمِطَة الطعام، بجانب نهر العوجا، على جرحى الأمويِّيْن، وتلذَّذوا بالطعام وهم يسمعون أنَّات أبناء عمومتهم، ولكنهم بدلاً من تقديم لفتة رمزيَّة كمنتصرين، أبدى أحد موظَّفيهم غباءً، يلازم عادة، المقرَّبين والموظَّفين وماسحي الجوخ، فأبقى على الرَّقْم التأسيسيّ الذي يؤرِّخ لبناء عبد الملك بن مروان لقُبَّة الصخرة، الذي أشير له الآن، ولكنه وضع مكان اسم الخليفة الأموي اسم الخليفة العباسيِّ المأمون، ولكنْ، بخطٍّ مختلف، مُبقِياً على التاريخ كما هو، هل تلاحظ؟

– ما زلتُ أجد صعوبة في القراءةِ والملاحظةِ.

- لا يهمُّ .. لا يهمُّ، المهمُّ، عندما جاء عالم النقوش السويسريّ ماكس فان برشم، إلى هنا، ووثَّق الرقوم، اكتشف التزييف، وظهرت الفضيحة .

– ولكننا نعرف أن المأمونَ كان محبَّاً للعلم والعلماء، وصاحب مشروع نهضة، أو هكذا لقَّنونا.

ردَّ الشيخ:

- يا ويلنا من التلقين الذي لا يريد أن ينتهي! الفضيحة سببها مسَّاح جوخ غبيّ، ولكنْ، هل يتحمَّل هو فقط مسؤوليَّة الفضيحة؟ ليرحم الله المأمون، مُحبَّ المثقَّفين والمترجمين، وأيضاً المنافقين ..!

خرجنا من القُبَّة، ووَدَّعَ والدي الشيخ عبد ربِّ النبي، معتذراً عن أيِّ إزعاج، وانطلقنا، وهو يقول:

- الآن إلى وادي حُلْوَة.

الرابع والثلاثون

أعجبني اسم حُلْوَة يُطلق على وادينا، وعندما كنتُ أسأل والدي عنه، يقول لي سأروي الحكاية لاحقاً، حتَّى كان ذلك اليوم التمُّوزي الحارّ، الذي قابلنا فيه الشيخ عبد ربِّ النبي، ولُذْنَا من الحَرِّ في الليل إلى سطح منزلنا، واستلقيتُ على فرشتي، وفي حضني القِطَّة وَزَّة، أنظرْ إلى النجوم، بينما تمدَّد والدي بجانبي، ووضع يده على رأسي، وبدأت أصابعه تتخلَّل شَعْري، وهو يقول: «وادينا هذا، الذي نقطعه سويَّاً كلّ يوم، في صعودنا إلى القُدْس، كان اسمه وادي النبَّاحة، وعلى قمَّته بُنيت القُدْس القديمة، ليست القُدْس المسوَّرة التي تعرفها، وإنما أوَّل قُدْس، كما كشف الآثاريُّون أوَّل أرض، وأوَّل لبنة، وأوَّل ناس. أجدادنا كانوا يسمعون في الليل أصوات حيوانات تنبح دافعة الخطر عن نفسها، محذِّرة غيرها من الحيوانات، أو تنوح كابن آوى الذي كرهه أهلنا لغاراته التي لا تنتهي على أقنان الدجاج، ولكنهم لم يتمنّوا لبنات آوى الموت، وسرى على ألسنتهم مثلاً: «ربّنا بيكسر جمل عشان عشوة واوي»، إيماناً منهم، بأن كلَّ مَنْ خلقه الله له الحقُّ في الحياة، وبأن الله يتدبَّر توفير الطعام لخلقه بطريقته، فلم يخلق الله مخلوقاته ليُجوِّعهم، وإنما لغايات أرادها سبحانه، ورغم الإزعاج الذي تُسبِّبه هذه الأصوات للفلَّاحين الذين ينامون باكراً، ليصحوا أبكر ويذهبوا لبساتينهم في منطقة البساتين، فإنهم لم يحاولوا، ولا مرَّة، الخروج ومواجهة الحيوانات، التي تزيد من أصواتها كلَّما تقدَّم الليل، وكأنها تتحدَّاهم، فذلك الزمن لم يكن كزماننا، كانت الدنيا أوحش، والليل أحلك، والخوف كابح مُقيِّد، حتَّى جاء يوم خرج فيها شيخ الشباب، واحد سَبْع مثل عمِّك السَّبْع هوايته مناطحة الصخر، ولا يخشى مؤامرات الإنس، ولا عواقب

انتقام الجنِّ، مُحمَّلاً بشَغَف إظهار نفسه مدافعاً وحامياً لروح الجماعة، وبعد أن تقدَّم قليلاً مبتعداً عن العَيْن ومنازل القرية، شاهد شبحاً يدعوه لمواصلة السير، فتخيَّله ضبعاً، سيرشقه ببوله، ويضبعه، فينقاد خلفه إلى وكره، وهناك سيلتهمه، ويفصِّص عظامه، ولكنه عندما رأى الشبح، وتأكَّد من هُوِيَّته، تذكَّر تلك الواقعة التي سمع بها من جدوده، حول قتل شقيق لشقيقته الجميلة، التي اتَّهمتْها نساء القرية، بشرفها، للتخلَّص منها بسبب جمالها الفتَّان القادر على إغواء رجال القرية الوسيمين».

تأكَّد والدي إذا ما كنتُ ما زلتُ مستيقظاً، وقد لاحظ انتظام أنفاسي، التي حاولتُ كَبْتَها حتَّى لا أُضيِّع على نفسي ولا حرف ممَّا يقوله والدي، مستهجناً لما بدر من نساء القرية الشرِّيرات.

أكمل والدي: «شيخ شباب بلدنا في ذلك الزمان، وجد نفسه منقاداً خلف المرأة، وشعر بأنه يفعل ذلك بدون إرادته، وكأنها النَّداهة التي تسحب الرجال إلى هلاكهم، وبعد مسير لن يستطيع تقدير طوله أبداً، كلَّما روى الحكاية لاحقاً، توقَّفت المرأة أمام كهف، فأصبح أمام المرأة الجميلة وجهاً لوجه، التي لم يتغيَّر جمالها، بينما بدَّلت قريتنا مئات الرجال والنساء، ودفنتهم بجوار سور القُدْس. فسألها وأجابتْه، وقال لها وقالت له، لكنه لم يفصح عن ما دار بينهما، تاركاً للمخيال الشعبيّ أن يؤلِّف ويُعقِّد الحكايات. المهمُّ أن شيخ الشباب لم يعد تلك الليلة، وعندما قلق عليه الأهالي، خرجوا يبحثون عنه نهاراً، وفتَّشوا كلَّ الكهوف المحيطة بالقرية، أو التي يعرفونها، فليس كلُّ الكهوف تكشف نفسها لناس القرية، وفتحوا القبور الرومانيَّة الفارغة، ولكنهم لم يجدوه، فغامر مُحبُّوه من الشباب، وخرجوا ليلاً، وهم يحملون المشاعل، ولكنهم فشلوا مرَّة أخرى في إيجاده، ورفعوا أصواتهم عالياً باسمه، والتي كان يمكن سماعها في منازل القرية النائمة، لكي يُطمئنوه إذا سمعهم، وليُطمئنوا أنفسهم، ويُبدِّدوا وحشة الليل، وبعد يومَيْن، فاجأ شيخ الشباب الناس وهو يتقدَّم من منازل القرية،

فالتفُّوا حوله يسألونه عن الخبر، فقال لهم: يا أهل القرية الجبانة، كنتُ عند قتيلتكم المظلومة، وروى لهم كيف أن ليلى التي قتلها شقيقها ظلماً، ما زالت تعيش حول القرية، من خلال شبحها الذي يصرخ في الليالي غضباً على الظلم، ناشداً العدالة، مُذكِّراً الأهالي بما ارتكبوه بحقِّها، ومديناً للرِّجال الذين سمعوا رأي نسائهم الغيورات من جمال ليلى، التي ستظلُّ تنوح وتنبح، حتَّى تتمدَّد منازل القرية، وتبني البعثات التبشيريَّة كنائس، وتغيب ليلى وشبحها عن وادي النبَّاحة، فلقد أدَّت دورها، وبعثت برسائلها إلى العائلات، ولكنْ، يبدو أنها لم تكن مؤثِّرة، أمَّا هي، فهذا حسبها، وما استطاعته فعلتْهُ، قبل أن تعود إلى مستقرِّها الأخير، وتُقرِّر أن لا تُزعِج أهالي القرية النائمين، فمهما فعلت، فإنهم لن يتغيَّروا، فأراحت نفسها، وأراحتْهم».

تأثَّرتُ للنبَّاحة التي قال والدي إنها قد تكون واحدة من جَدَّاتي القديمات، فأهل القرية، في النهاية، يتحدَّرون من نفس الأصلاب، التي عاشت هنا، وشربت من ماء العَيْن، وأكلت من البساتين، وكان عليهم استيعاب صدمات الفاتحين والغزاة، كما يفعلون الآن مع الاحتلال الجديد.

فرحتُ بجَدَّتي القديمة الجميلة المظلومة، التي لم تستسلم لما حَلَّ بها، بسبب الغَيْرَة، وظلَّت تُقلق ليل الظالمين، الذين صمتوا على الظلم، ولتقول لمَنْ يريد أن يعيَ مثلي، إنه ليس أسوأ من الظلم، والظلم ظلمات، كما كانت أُمِّي تردِّد دائماً.

قال والدي: «نساء بلادنا ظُلمنَ كثيراً، من مجتمعهنَّ الذكوريِّ»، ولم أُوقف والدي لأسأله عن ماذا يقصد بالذكوريِّ، مؤجِّلاً ذلك إلى فرصةٍ أخرى، مقتنصاً هذه الفرصة السانحة ليحكيَ ويحكيَ: «.. وكان المجتمع يميِّز بين امرأة وامرأة، في سجلَّات المحاكم الشرعيَّة، توصف المرأة القرويَّة أو الفقيرة، بالحُرْمَة، إذا كانت متزوِّجة، والبنت أو القاصر إذا كانت غير متزوِّجة، ومثل هذه الألقاب ما زالت حاضرة حتَّى الآن، وفي حين أن

ديباجة عقود الزواج للناس العاديِّيْن خلت من الألقاب التفخيميَّة، كانت عقود بنات الأعيان تضجُّ بالألقاب الزاعقة مثل: تاج المستورات، والجوهرة المكنونة، وذات الحجاب الرفيع، وأخت الأتراب الأعارب، والدرَّة المصونة، والسيِّدة، وعالية الرتب، وفخر المُخَدَّرَات، والستّ المصونة، وبهجة المُخَدَّرَات، وتاج المحجَّبات، وخاتون، وستّ القضاة، والمرأة الكاملة، وغيرها».

ضحكتُ لابتسامات والدي وهو يعدِّد الألقاب، ولكنه سألني:

- لماذا تضحك؟

– على النساء المُخَدَّرَات، هل كنَّ يتعاطين المُخدَّرَات؟

قال والدي ضاحكاً:

- يا أهبل، المُخَدَّرَات هنا، من الخِدْر، وهو الفراش الآمن، والمقصود بهذا اللقب؛ المستورة، ألم تسمع رجلاً يخاطب امرأته بالمستورة؟

وأضاف: «لم يقتصر هذا التمييز بين الفقيرات وبنات وزوجات الأعيان، على المسلمين، ولكنه أيضاً امتدَّ إلى المسيحيِّيْن، فالمرأة المسيحيَّة العاديَّة، أُطلق عليها في عقود الزواج: بالذمِّيَّة، أو الروميَّة، أو القبطيَّة، أو الأرمنيَّة، أو الذمِّيَّة اليهوديَّة، أو الحُرْمَة، وإذا كانت متوفَّاة يُشار إليها بالمرأة الهالكة».

– وبنات الأعيان المسيحيَّات؟

- الألقاب كثيرة؛ مفخر نساء ملّتها، وبهجة نساء ملّتها، ومفخر نساء المِلَّة المسيحيَّة، وقدوة العشيرة العيساويَّة، والستّ، وبهجة نساء ملّتها .. إلخ.

بعد ضحكنا، ردَّ والدي على بعض أسئلتي، عن نساء القُدْس وقراها، سألتُهُ: «ومن أين أتى اسم حُلْوَة؟».

أجابني: «هذه قصَّة أخرى، يا ولدي، سأحيكها مرَّة أخرى، وعليكَ الآن أن تنام».

رفضتُ النوم حتَّى أعرف مَنْ هي حُلْوَة هذه، فرضخ والدي: «حُلْوَة، امرأة كانت حُلْوَة كما يدلُّ اسمها، ولكنها لم تواجه مخاطر جِدِّيَّة، بسبب الغَيْرَة، وإنما وقعت ضحيَّة ظلم، أصعب من الغَيْرَة بكثير. هي زوجة مختار قريتنا، وخلال حرب 1948م، تقدَّمت العصابات الصهيونية، لاحتلال البلدة القديمة، وطوَّقوا القُدْس من عدَّة جهات، ومن بينها جهة قريتنا، وتركَّز الهجوم، من جبل النبي داود، وحارة اليهود، ولأننا أسفل الجبل، فإن القذائف لم تكفّ عن السقوط على قريتنا، بينما كان رجالنا يقاومون، ليس فقط في القرية، ولكنْ، في المحاور المختلفة حول القُدْس، ومثلما تفعل النساء في حروب الشرق، خرجت حُلْوَة مع العديد من النسوة، ليُشجِّعنَ الرجال على المقاومة، ويحاولنَ تقديم ما يقدرنَ على تقديمه مثل تزويد رجالهنَّ بالماء والمؤن، وتطمينهم على حال الصغار، ولكن حظَّ حُلْوَة لم يكن حُلواً، فأُصيبت برصاص الأعداء؛ رصاصة من قنَّاص يهوديّ، اتَّخذ من سطح قبر النبي داود موقعاً له، أصابت قلبها، فاستُشهدت، فسُمِّي الوادي باسمها، لم يعد وادياً للنبَّاحة، تخليداً لظلم المجتمع لامرأة، ولكنه أصبح وادياً لتخليد بطولة امرأة، كان الناس وهم يشهدون تاريخاً جديداً يُكتب لقُدْسهم يريدون التخلُّص من عار خذلانهم للنبَّاحة، ويفخرون ببطولة امرأة أخرى خرجت من بينهم، أرادوا أن يتذكَّروها دائماً، ويُذكِّرهم الناس بها».

أخبرني والدي بأن اليهود سيطروا على مقام النبي داود، وطردوا سكَّان الحَيِّ، وظلُّوا يشكِّلون خطراً على ناس قريتنا في الأسفل، ولكن الناس لم يفقدوا الأمل بالصعود إلى الجبل مرَّة أخرى، ويزيلوا الخطر، وينتقموا لحُلْوة، ولكنهم فشلوا، وفي الحرب الأخيرة، نزل يهود الجبل عن سطح مقام النبي داود إلى قريتنا، وبدؤوا بسرعة البحث عن آثاره، بدوا متلهِّفين، وسريعين، حاملين البنادق، والمجارف، والأموال.

الخامس والثلاثون

في اليوم التالي، توقَّف والدي، ونحن عائدان إلى قريتنا قرب باب الساهرة، وطلب منِّي أن أفسح مجالاً بجانبي لمريم التشاديَّة التي كانت تنتظرنا.

بعد أن صَعِدَتْ وجلستْ بجانبي، لاحظتُ من جديد كثافة سواد ركبتَيْها، نسبةً إلى سواد رِجْلَيْها، وشعرتُ برغبةٍ تجتاحني لِلَمْسِهما، واختبار مدى نعومتهما، والتأكُّد من هذا اللَّون الغريب عن لوننا، وتصوَّرتُ بأنها صبغت جسدها باللَّوْن الأسود، ولم أعرف السبب، ولكنني لم أجرؤ على مَدِّ يدي، ويبدو أنها قدَّرت ما أفكِّر فيه، فقالت لي، وهي تحضنني: «عندما تكبر ستعرف قيمة اللَّون الأسود وجماله ومدى نعومته، حتَّى تتمنَّى أن تكون مثلنا».

ضحك والدي قائلاً: «ليس إلى هذه الدرجة يصبح الاعتزاز باللَّوْن، يا مريم».

ردَّت مريم على والدي وهي تضحك: «تقول ذلك من قلَّة ما يصحلَّكْ، ستظلُّ أنتَ قمحيَّاً حائراً بين الأسود والأبيض، وحتَّى البيض يفتقدون صفاء اللَّون الذي يُميِّزنا».

رفع والدي صوته وهي يضحك، محاولاً استفزاز مريم:

أقلب شب حليوي كلّ البنات بتعشقني

يا ماخذ البيض خشخش بالذهب خشخش

اصبر عالبيض حتَّى يورّق المشمش

اصبر عالبيض حتَّى تحمرّ خدّين

وبيان هلال القمر من بين عينيهن

ابتسمت مريم، لكنها أظهرت عدم مبالاة بغناء والدي، وقالت لتستفزَّه وكأنها تغنِّي: «إفريقية أنا، ودمِّي فلسطينيّ، عربيّ فلسطينيّ». وطلبت منِّي أن أردِّد خلفها: «دمِّي فلسطينيّ، عربيّ فلسطينيّ»، وهو ما فعلتُهُ متحمِّساً لحماستها.

قال والدي بأن هذه أُغنيَّة المغنِّي الشابِّ ابن القُدْس الذي غنَّى للفلَّاحين، ودعا الشبَّان لعدم ترك وطنهم، والهجرة، ولكنه بعد اعتقاله لمدَّة شهر خرج من القُدْس مهاجراً.

أوضح والدي: «مَنْ كان يراه في مطعم العِكْرِمَاوِي، حاملاً العود، ويدندن بشَعْره الطويل ولحيته الكَثَّة أسوة بجيفارا وكاسترو، ولا يسمح لأيٍّ كان أن يكون صوته أعلى من صوته، لا يُصدِّق بأنه كان يُخفي تحت مسامات جسده شخصاً مهزوزاً، جباناً، غير قادر على فعل ما يطلب من الناس فعله».

ضحكت مريم وهي تقول: «ليس كلُّ الناس لديهم نفس القدرة على التحمُّل، وعلى المناضلين أن يفهموا ذلك، ويعوه، وعندما يريدون أن ينظِّموا واحداً، أو واحدة في صفوفهم، عليهم أخذ ذلك بعين الاعتبار».

علَّق والدي: «عليهم قبل كلِّ شيء أن يكونوا صادقين، فيما يقولونه، وأن يكونوا قدوة في الأخلاق، والسَّيْر الحَسَن، وأكثر قدرة على التضحية».

وجدتُ نفسي أسمع مصطلحات جديدة عليَّ، مثل التنظيم، والمناضلين، والتضحية.

قالت مريم: «أصابع يدكَ ليست مثل بعضها البعض».

ردَّ والدي: «أردتُ القول بأنني أمقت كثيراً الذين يتحدَّثون عن أمورٍ لا يُطبِّقونها، وإذا كانوا يعرفون أنهم لن يكونوا أوَّل مَنْ ينفِّذها، فلماذا يدعون إليها؟ يمكنهم الصمت».

ردَّت مريم وهي تنظر لوالدي بنوعٍ من الحُبِّ: «ليس كلُّ الناس أمثال يوسف السلواني، بصلابته، ووعيه، وفهمه»، وشعرتُ بأنها تريد أن تقترب من والدي، إلَّا أن وجودي بينهما حال دون ذلك، فاكتفت بطبع قُبْلة على رأسي، ولكنني شعرتُ بأن هذه القُبْلة ليست لي، وإنما لوالدي، ممَّا جعلني أعيش مشاعر متضاربة، وأتساءل عن الذي يجمع مريم به، ويجعلني رسولاً غافلاً محمَّلاً بقُبْلة.

نزلنا من المَرْكَبَة بجوار العَيْن، وتوجَّهنا نحو منزل السَّبْع، استقبلتْنا والدته وهي تنظر إلى مريم، وتروزها، وعندما جلسنا على الفرشات، لم يُعجب والدة السَّبْع ظهور أجزاء من جسد مريم، حتَّى أعلى الركبتَيْن، فجلبتْ لها بشكيراً، طالبة منها أن تضعه على رجلَيْها لتغطيتهما، ولكن مريم رفضت وقالت: «أخذوا كلَّ الوطن، وأصبحت فلسطين جميعها مكشوفة عارية، وأنتُم، يا معشر الناس، قلقون على شبرٍ من جسدي، لا أريد بشكيركم».

تراجعت أُمُّ السَّبْع، غير راضية، وكأن استمرار مريم على هذه الحال سيؤدِّي إلى كارثة، وسيجلب كلَّ شياطين الإنس والجنِّ إلى المنزل، بدلاً من طردهم منه.

تدخَّل والدي قائلاً لأُمِّ السَّبْع: «يا خالتي، مريم متعودة على هذا الزِّيِّ، تحبُّ التنانير، وهي تليق عليها، انظري كم هي جميلة! وكُلّ شخص حُرٌّ بنفسه، المهمُّ أين سَبْعُنا؟».

شغلت مريم نفسها بالنظر إلى الصورة المعلَّقة على الجدار، وتمثِّل طفلاً أشعثَ قليلاً، لا يشبهنا، تنزُّ من عينَيْه الدموع، كناية عن مأساة ما لا

نعرفها، ولكنّ الصورة خلبت ألباب أهالي القُدْس، فعلّقوها على حيطان منازلهم، وكأن لكلٍّ منهم خيطاً، يربطه بالحزن الكامن فيها، والذي نجح الفنَّان المجهول بريشته بالتعبير عنه.

ابتسمت أُمُّ السَّبْع، وهي تنظر لوالدي نظرات ذات مغزى، ثمَّ نادت على ابنها، فأتى من المطبخ، وجلس بجانب أُمِّه، تقابله مريم ووالدي وأنا.

تساءلت أُمُّ السَّبْع عن هُوِيَّة مريم، فأجابت الأخيرة:

- من أفارقة باب المجلس، أو حبس الدَّم.

لا تكفي في القُدْس أن يكون للمرء هُوِيَّة واحدة، وفضول معرفة الهُوِيَّات المتعدِّدة للشخص، شائع، ومقبول.

قالت أُمُّ السَّبْع:

– يعني من حبس العبيد.

ضحكت مريم، وقالت:

- لا، يا خالتي، لسنا عبيداً.

بدا أن أُمَّ السَّبْع وجدت نفسها في ورطةٍ، فأرادت التراجع، مشيرة إلى أنها لم تقصد أيَّ معنى سيِّئ، ولكنها تعلم أن اسم الموقع حبس العبيد، ويُطلِق الناس على أفارقة القُدْس اسماً آخر هو التكارنة.

التقطت مريم فرصة لتوضح: «أجد نفسي دائماً مضطرَّة للشرح، نعيش نحن أفارقة القُدْس، في الربع الإفريقيِّ في باب المجلس أو باب الناظر، في مَبنَيَيْن قديمَيْن متقابلَيْن، بُنيا زمن المماليك، هما الرِّبَاط المنصوري، والرِّبَاط البصيري، ولطالما استقبل الرباطان خلال تاريخهما الممتدِّ صُوفيِّيْن، وطلَّاب علم، وعسكريِّيْن، ولكنَّ العثمانيِّيْن في أواخر عهدهم بالقُدْس، حوَّلوهما إلى سجنَيْن، وسُمِّي الرِّبَاط المنصوري حبس

الرِّبَاط، أمَّا الرِّبَاط البصيري، فلا أعرف لماذا سُمِّي حبس الدَّم، وبعد أن سكنَّا في الرِّباطَيْن، بأمرٍ من المفتي الحاجّ أمين، لا أعرف لماذا غيَّر الناس الاسم إلى حبس العبيد، نحن لم نعد عبيداً، يا خالتي، انْظُرْي إليَّ، وتمعَّني بجمالي، هل أبدو لكِ عبدة؟».

واصلت أُمُّ السَّبْع الاعتذار، وتدخَّل والدي ليؤكِّد أنها فعلاً لم تقصد شيئاً سلبيّاً تجاه ناسنا من الأفارقة، ولكي تُرطِّب الأجواء، مستغلَّة ذِكْر الحاجّ أمين، أمالت أُمُّ السَّبْع الدفَّة مذكِّرةً بذكريات أهل قريتنا مع الحاجِّ أمين وموسم النبي موسى، الذي أراده الحاجُّ صوتاً وطنيّاً، وكيف كان ناسنا يتجمَّعون في البلدة القديمة، والمسجد الأقصى، ويشاركون ببيارقهم الخاصَّة، ويرافقون الحاجَّ أمين بعد انتهاء صلاة الجمعة والخروج من باب الأسباط بزفَّة باتِّجاه أريحا، وفي الخميس التالي ينصبون لهم صيواناً في حارتنا الفوقا التي أصبحت الآن حيَّ رأس العَمُود، وعندما يصل آتياً بالمَرْكَبَة من مقام النبي موسى، يستريح، وسط هتافات ناسنا، وترحيبهم، وزغاريد النساء، وفرح الأطفال، وانفعال الفِتيَة بالأناشيد الوطنيَّة، والمعادية للصهيونية، وللإنجليز، والشعور بالتعاضد والتلاحم بوجود آخرين، تجمعهم نفس الهُوِيَّة، ثمَّ يركب على فَرَس، حُضِّر مسبَّقاً، ويصعد إلى القُدْس، فتحفُّ به فِرَق الكشَّافة، وموسيقى دار الأيتام الإسلاميَّة، وينتشر الناس على الشارع المؤدِّي إلى باب الأسباط، بطول أكثر من كيلومتر، مُحتفين بالحاجِّ الذي يدخل إلى المسجد الأقصى، ولكنْ، ليست بالسهولة التي تفرضها المسافة القصيرة، ففي كلِّ خطوة تخطوها فَرَس الحاجِّ، وسط الازدحام الاحتفالي، يضرب مدفع رمضان طلقة احتفاليَّة، بينما يهزج الناس:

صهيوني دبِّر حالك نفذوا الثوَّار

ومعهم فوزي القاوقجي الأسد الكرَّار

* *

بابور محمَّل مَرتَين
هديَّة للحاجّ أمين
* *
حاجّ أمين، يا منصور
بسيفك هَدِّينا السور

تُدقُّ الموسيقى، وتُضرب طبول الكشَّافة، فلا يقطع الموكب المسافة القصيرة، إلَّا خلال ساعات، ويصل الحاجُّ الأقصى مع آذان العصر وهو يُرفَع في قبلة المسلمين الأولى.

ولكي يُغلَق الموضوع نهائيَّاً، قال والدي: «مريم تعتقد بأن لكلِّ شخص على هذا الكون خَاتمَه السليمانيّ الخاصّ به، وعليه أن يبذل جهداً للعثور عليه، وعندما يحدث ذلك، فإنه يعرف سبيله، ولا يضلُّ».

قالت أُمُّ السَّبْع:

- كنَّا في مَيل، وأصبحنا في مَيلَيْن، يا حسرتي ..!

توجَّه والدي لمريم، لتشرح الأمر الذي كان والدي حدَّث والدة السَّبْع عنه، ووعدها بزيارة مريم لمنزلها، ولا أعرف مدى جدِّيَّته، وقد يكون مدفوعاً بنظريته عن العجز النفسي لدى السَّبْع، الذي إذا تخطَّاه؛ فإنه سيستردُّ ذكورته المفقودة. قالت مريم: «هذه حكمة التشاديِّيْن، وما أوصاني به جَدِّي الذي قاتل الفرنسيِّيْن، وجاء حاجَّاً إلى الشرق العربي، وقدَّس حجَّته في القُدْس، وبقي فيها، وناضل مع المفتي الحاجّ أمين. وقال لي جَدِّي بأنه عليَّ العثور على خَاتمَي السليمانيِّ، وأن أفعل ذلك بنفسي، وأنا أقول للأخ السَّبْع، بأنه عليه العثور على خَاتمَه، وعندها ستنتهي مشكلاته أو تقلُّ كثيراً».

وأكملتْ، عندما وجدتْ آذاناً صاغية، ولم يقاطعها أحد بسؤالٍ أو

اعتراض: «المهمُّ أن تعرف، يا أخ سَبْع، طرف الخيط الذي يجب عليكَ اتِّباعه، أي ماذا تريد من هذه الدنيا بالضبط؟ وكيف تريد أن تمضيَ هذه الحياة هبة الله التي منحكَ إيَّاها، سواء قصرت أم طالت؟ وعليكَ أن تدرك أن الحياة لا يمكن اختصارها بوَتَدٍ وكهف، أو شمَّة أو إبرة، فهي أوسع من ذلك».

صدم كلام مريم، الذي اعتُبر جريئاً، الموجودين، ولكن مريم نظرت إلى السَّبْع، لكي تسمع منه ردَّاً، ولكنه بدا هائماً في ملكوته، فنهرتْهُ والدته، وطلبت منه أن يردَّ على هذه الفتاة السمراء مكشوفة الرِّجْلَيْن التي لم تتجاوز العشرين عاماً، وتتحدَّث بكلِّ ثقة، وجرأتها تقترب من الوقاحة، ولكنها قد تساعد.

قال السَّبْع: «يا أختي، اسمحي لي أن أناديكِ أختي، خلال الحرب كنتُ أعرف ماذا أريد، أمَّا الآن، فلم أعد أعرف، أعدكِ بأنني سأحاول معرفة مَنْ أنا وماذا أريد».

سألت مريم:

- ماذا كنتَ تريد خلال الحرب؟

– وهل هذا سؤال؟ أردتُ ما أردتمُّوه جميعاً، هزيمة اليهود، وتحرير البلاد، وعودة العباد.

- وهل سألتَ نفسكَ كيف يمكن أن تحقِّق ما تريده؟

– بالقوَّة، نعم بالقوَّة، وهذا ما كنتُم جميعاً تُدركونه، وتحضِّرون أنفسكم، للعودة إلى ما فقدناه في النكبة.

- ولماذا لم تُحقِّق ما أردتَهُ بالقوَّة؟

– لأنها كانت قوَّة وَهْميَّة، كذبت الحكومات العربيَّة علينا، ونحن صدَّقناها.

- ولماذا صدَّقتَ تلك الحكومات؟

– لم أكن وحدي مَنْ صدَّق، فجميعكم صدَّقتُم، وتسألينني أنا وحدي لماذا صدَّقتُ؟

- وبعد أن كُشف ما كُشف، لماذا لم تُغيِّر الأسلوب؟

– أيُّ أسلوب، يا مريم؟ وقعت الفأس في الرأس، فلم يعد قادراً على التمييز.

- ولكنْ، هناك من أبناء جيلكَ يمُيِّزون، ويُغيِّرون، ويَستبدلون أسلوباً بآخر، وهذه المرَّة بعيداً عن الحكومات. علينا أن نحكَّ ظهورنا بأيدينا.

تدخَّل والدي وتشجَّع موجِّهاً حديثه للسَّبْع: «عليكَ أن تأتي معنا إلى النبي موسى».

تضايق السَّبْع: «أنا أعرف بحالتي، وأين يمكنها أن تذهب أكثر منكم».

نظرت أُمُّ السَّبْع، إلى والدي، وفهم من عينَيْها ماذا أرادت قوله؛ لكُلِّ أمرِ أوان.

فهمت مريم الأمر أيضاً، ففتحت حواراً جانبيّاً مع السَّبْع، محاولة تقريبه منها، وكسب ثقته.

وحضنتْني، وكأنها اكتشفت وجودي فجأةً، وهزجت بصوت خفيض:

«يا تمها خَاتَم سليمان نسدّه بالعصراوية»

وقالت:

- أسمعتَ، يا صغيري، كيف يُشبِّهون جمال الفم، بخَاتَم سليمان؟ يا ليت لي مثل هذا الفم ..!

السادس والثلاثون

بدا أن النقاش بين مريم والسَّبْع، وسط صمت والدته، ووالدي، أنه سيستمرُّ طويلاً، وسيكون مُرحَّباً به، ما دام يجعل السَّبْع يستمع ويردُّ بمنطقه الذي لا يروق لمنطق أُمِّه، إلَّا أن ما حدث قتل النقاش، ففجأة سمعنا هَرَجاً يأتينا من الخارج، ويقتحم الجدران. وقف والدي وتبعه الآخرون، ومع ارتفاع الأصوات في الخارج تقدَّم والدي، وفتح الباب، وخرج، وتبعتْهُ مريم، ثمَّ والدة السَّبْع والسَّبْع، وأنا.

بدا المشهد في الخارج مُفزِعاً؛ رجل مسلَّح مشرعاً بندقيته باتِّجاه طفل مُلقَى على مدخل العَيْن مضرَّجاً بدمائه، يصرخ في كلِّ الاتِّجاهات، وفي داخل العَيْن ما زالت مجموعة من اليهود، تبيَّن لاحقاً أن المسلَّح هو قائدهم أو حارسهم، أطلق النار على الطفل موسى ابن قريتنا، بحجَّة أنه ومجموعة من رفاقه رشقوا المجموعة المقتحمة للعَيْن بالحجارة.

وفي الجانب الآخر حيث وقفنا، يرتفع صراخ من جمهور يزداد باضطراد، وغير قادر على الوصول إلى موسى الذي لا يتحرَّك، ممَّا عزَّز الاعتقاد بأنه فارق الحياة، لإشهار المسلَّح بندقيته باتِّجاههم كلَّما لزم الأمر، وإعادة تصويبها اتِّجاه موسى، وكأنه مجنون غير قادرٍ على السيطرة على نفسه، ولا يعرف ما هي الخطوة المقبلة التي تنتظره.

تذكَّرتُ سريعاً مجنوناً آخر سمعتُ عنه؛ الأسترالي حارق الأقصى، وبدأتُ من خلال المسلَّح الذي أراه، أُكوِّن فكرة عن مجانين القتل والحرق، وما ينتابهم من جزعٍ، يزيد من وتيرة تهديدهم للناس، غير المجانين.

برز من بين الجمهور أطفال، من بينهم عيسى، وأحمد، وإلياس، الذين كانوا موجودين مع موسى، وقت وقوع الحادث، وهربوا، وبدؤوا يَروُون ما جرى وهم فزعون، لم يفيقوا بعد من أثر الصدمة، متَّهمين الرجل المسلَّح، بإطلاق النار على موسى دون أن يكون هناك أيَّة حوادث رشق للحجارة. لقد أرعبه فقط مرحهم في الموقع، وليس مثل المرح استفزازاً للخائفين المسلَّحين الذين يجوسون في مياه عيننا.

وكان واضحاً أن ما حدث شكَّل صدمةً كبيرةً بالنسبة إلى أهالي القرية، رغم أنه كان متوقَّعاً بعد الزيارات المكثَّفة لليهود لمعالم قريتنا، ولكنَّ المسافة بين التوقُّع ووقوع الحدث لا يمكن دائماً قياس تأثيرها، إنها هدنة انتظار، نتمنَّى أن لا تنتهي.

وصلت والدة ووالد موسى، اللذان لم يأبها لتهديد الرجل المسلَّح، وتقدَّما إلى حيث يرقد موسى الصغير، وبكيا وصرخا، وارتفع صوت الوالد: لا تمتْ، يا موسى، لا تمتْ، من أجلي، ومن أجل أُمِّكَ، ولكنَّ الصوت العالي تبدَّد وهو يصعد إلى السماء، تاركاً رجع صداه، حديداً ساخناً مدبَّباً، يغرز في صدورنا، ثمَّ حملاه رغم البندقيَّة المشهرة اتِّجاههما واتِّجاه موسى الذي تأكَّد استشهاده، ولعلَّ إقدامهما نحو صغيرهما، دون حساب النتائج، عطَّل مجسَّات القتل لدى المسلَّح المجنون.

وفي هذه الأثناء، وصلت دبَّابة عسكريَّة، نزل منها الجنود، ووقفوا بين المتجمهرين من الأهالي، واليهود الذين خرجوا من العَيْن، يتقدَّمهم رَجُلَهم المسلَّح.

حمل أحد الجنود. وقد يكون قائدَ الدوريَّة سمَّاعة بيده، وطلب من الجميع الهدوء، مؤكِّداً بأن جيش الدفاع الإسرائيلي سيُحقِّق فيما حدث. وكذلك الشرطة، ففي القُدْس الموحَّدة الآن لا مكان إلَّا للقانون، وليس

كما كان سابقاً تحت حكم العرب، الذين حكموا بالرِّشَا، والمحاباة، وتطبيق القانون على ناس، ورفعه عن ناس، وإن مَنْ يرتكب جريمة سواء كان عربيًّاً أو يهوديًّاً، فسيُحاسَب.

لم يكن لدى ناسنا صبر لسماع ما اعتبروه هُرَاء الرجل حامل السمَّاعة، الذي لم يفعل شيئاً اتِّجاه مطلق النار وحامل السلاح.

لم يبقَ أحد من الأهالي في المكان، فالجميع سار خلف والدَي موسى، بينما تقدَّم أحد الشبَّان، وحمل الطفل الشهيد بين يدَيْه، متوجِّهاً، بخطوات سريعة نحو منزل العائلة، وانطلقت فجأة صرخات قويَّة: «الله أكبر .. الله أكبر».

عبَّر والدي ومريم عن غضبهما الشديد، وبَدَوَا مصدومَيْن، وعندما وصلنا منزل عائلة موسى، وقفت مريم على الباب، وخاطبت الأهالي بصوتٍ جَهْوَرِيّ، خُيِّل إليَّ أن صداه يتردَّد في أودية القرية، وكهوفها، وأديرتها، وعيونها، لإيقاظها، ولتشهد على ما يجري في قريتها في عهدها الجديد، وضرب زعيق مريم سور القُدْس، مستنكرة جريمة الاحتلال بقتل طفل بريء، حاثَّة الفدائيِّيْن على الانتقام، وقالت بأنه لا سكوت بعد اليوم، وسيدفع العَدُوُّ ثمن فعلته، الذي انتقل من قتل الرجال والنساء إلى قتل الأطفال، مُفصِحاً عن حقيقته البشعة، ليس فقط أمام شعبنا الذي يعرف ذلك جيِّداً، وإنما أمام العالم الذي يُسمِّي نفسه متحضِّراً، ولا ينتصر لقضيَّة عادلة لشعبٍ، لم يتوقَّف عن النضال منذ عقود، وسيواصل.

وقالت: «لا تُصدِّقوهم، مَنْ سيُصدِّق مُحتَلّاً وعصابة قَتَلَة؟ يقولون بأنهم سيُحقِّقون، كيف سيُحقِّقون؟ وأيَّة عدالة سيُطبِّقون؟ وهل للاحتلال عدالة؟ إنها عدالة الحديد والنَّار، وقانون الغاب».

وهتفت: «الانتقام .. الانتقام»، وردَّد الجمهور بقوَّة غير مُتخيَّلة: «الانتقام ... الانتقام يا شباب الزِّمام».

وأكملت الهتاف: «يا محتلّ وينك وينك .. الفدائيّ يقلع عينك»، وردَّد الجمهور، وأجابت الجبال، والوديان، والكنائس، والأسوار.

وشعرتُ بأن موسى سمع ذلك، وعلم بأن ناسنا، وحجارة قريتنا، وماءنا، ونفقنا وبِركَتنا، يجتمعون بجانبه، ولن يتركوه يذهب وحيداً إلى مكانه الجديد الذي سيغيب فيه، ولن يعود، ولن يرانا مرَّة أخرى، ولن يتمكَّن من وضع رجلَيْه في ماء العَيْن، ولا أن يُهرول في النفق، تستشعر قدمَيْه برودة الماء السائل من العَيْن إلى البِركَة، ولن يضع يده على جدار النفق المخدَّد من آثار الأزاميل، ويحسُّ برطوبته.

وفجأة رأيتُ والدي يتقدَّم نحو مريم، ويسحبها من موقعها أمام الجمهور الغاضب، وانتحى بها جانباً، وسمعتُهُ يقول لها، وأنا أسير في ذيله:

«عليكَ التوقُّف، لا نريد أن نكشف سرَّنا، إنهم جميعاً يروننا، ويسمعوننا».

عن أيِّ سرٍّ يتحدَّث والدي الذي يبدو في مرَّات عديدة رجلاً غامضاً؟

السابع والثلاثون

في الأيَّام التالية، عاشت قريتنا حالة حزن، ربَّما لم تعشْها منذ بداية الاحتلال، والحرب الأخيرة، فلم أكن أعلم أيَّ غضب يمكن أن يُحدِثَهُ استشهاد طفل في نفوس الناس الذين أرادوا أن يعتقدوا بأن مَنْ قُتِل منهم خلال الحرب هو نهاية القتل والموت بسلاح جنود الاحتلال، دُفِن موسى بعد ساعات من قتله، حتَّى لا يَعتقل الاحتلالُ الجثَّةَ، ويحتجزها، وتوافدت الوفود إلى بيت العزاء من القُدْس، وبَيْت لَحْم، والخليل، ونابلس، والقرى المجاورة، وأُلقيت الكلمات؛ فتحدَّث شيوخ، ورجال دِيْن مسيحيُّون، ورؤساء جمعيَّات خيريَّة ونقابات، وصحافيُّون، وكُتَّاب.

وحضر الشيخ عبد ربِّ النبي أيَّام العزاء، وكان يذهب في النَّهار إلى الأقصى، ويعود مساءً، وينام في المسجد أو عند أيٍّ من مريديه الكثر، وفي كلِّ ليلة عزاء تقريباً، كان يختمها بكلام ودعاء وتلاوة آيات من القرآن، وكان يجلس بجانبه في أوقاتٍ كثيرة الراهب السوري أبونا بوللو، وقد أُعطيتُ له الكلمة أكثر من مرَّة، وتحدَّث بلغته العربيَّة المشبَعة بلُكْنَة أعجميَّة، قال والدي بأنها إيطاليَّة، ضدَّ الشرِّ الذي يقتل الأبرياء.

قال أبونا بوللو: «موتنا ليس موتاً، وموت أطفالنا بحديدهم لن يكون موتاً، عليكم أن تعلموا ذلك، الحَقَّ الحَقَّ أقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الحِنطَةِ فِي الأَرض وَتَمُتْ فَهِي تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلكنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ[3]، موتانا شهداء عند ربِّهم، وعند أرضهم وناسهم».

أبونا بوللو الذي سيُشكِّل مع الشيخ عبد ربِّ النبي ثنائيّاً، يظهران في المناسبات الوطنيَّة والاجتماعيَّة في القُدْس ومحيطها، ليس سوريّاً خالصاً،

فهو إيطالي من جذورٍ عربيَّة غير واضحة، ينتمي لكنيسة كاثوليكيَّة وطنيَّة، يطغى عليها التوجُّه القوميُّ العربيُّ، فاختار أن يكون ضمن هذا الانتماء، وعيَّنتْهُ كنيسته في ديرها بالقُدْس، وتمتَّع بحرِّيَّة نسبيَّة في التنقُّل بمَرْكَبَة الكنيسة التي تحمل لوحات باسم دولة الفاتيكان، بين دول المنطقة التي تعيش حالة حرب مع دولة الاحتلال.

وُزِّعت في العزاء بياناتٌ سرِّيَّة لأحزابٍ وقوى طلَّابيَّة وعمَّاليَّة، تعهَّدت بالاستمرار بالمقاومة، والانتقام لدم الطفولة المسفوح، ووُقِّعت العرائض التي قُدِّمت للصليب الأحمر في مقرِّه بالشيخ جرَّاح، والتي طالبت بتوفير حماية دوليَّة لشعبنا، وحضر مندوبو صحيفة الاتِّحاد الشيوعيَّة التي تصدر في حيفا، ولم تكن تخضع للرقابة الإسرائيليَّة العسكريَّة، وكتبوا تحقيقات عن ما جرى للشهيد موسى، وعن قريتنا، والمخاطر التي تتهدَّدها جرَّاء النشاطات الاحتلاليَّة، والاستيطانيَّة، واستغلال الآثار لغاياتٍ استعماريَّة، وعَنْوَنُوا سلسلة التحقيقات بـ: «القُدْس تستغيث، أين العرب؟»، وقدَّم نائب عربيٌّ شُيوعيٌّ استجواباً في الكنيست الإسرائيليِّ طالباً من وزير الدفاع تبرير قتل طفل بدمٍ بارد، واستفساراً حول كيفيَّة تشكيله خطراً على دولة تملك جيشاً قويّاً، وترسانة نوويَّة؟

وجاء النائب، وجلس مع الأطفال أصدقاء الشهيد موسى، وأنا من بينهم، ولفت انتباهي شَعْره الأبيض وشاربه الأبيض الصافي، وصوته المُمَوْسَق الذي يؤكِّد على مخارج الحروف، والتي أضفت عليه اللهجة الجليليَّة رونقاً، وسجَّل في مفكِّرته الصغيرة ملخَّصاً لإجاباتنا عن أسئلته، وشتم الجيش، ودولته، ورئيس حكومته.

وحضرت مريم التشاديَّة أكثر من مرَّة، وجلست مع النساء في بيت العزاء، ولكنها حضرت أيضاً بين الرجال لبرهةٍ قصيرةٍ، ودعاها والدي إلى المنزل، وكان معهما أيضاً الشيخ نعيم، وأبو روحي المغربي، وأبْدَتْ والدتي، التي قدَّمت لهم الشاي، وتركتهم وحدهم كما طلب والدي، غَضَبَها

لاحقاً، لجلوس امرأة وسط الرجال، خصوصاً وأن والدي طلب من أُمِّي عدم الجلوس معهم، وسألت والدي عن المواضيع التي طرقوها، ولم يكن يريد أن تعرفها أُمِّي، ودافع والدي عن نفسه بأن علاقته مع مريم أبعد ما تكون عن الأمور العاطفيَّة، وقال لها، وهو يضحك، ليحسم النقاش:

- نحن نسعى لحلِّ معضلة السَّبْع الكونيَّة ..!

ولكنَّ هذا لم يُبرِّد غضب والدتي، التي هدَّدت بأنها في المرَّة المقبلة، ستجلس وسطهم، وتسمع كلَّ ما يتمتمون به، ولا يصلها منه شيء، وهي تتسمَّع عليهم من المطبخ.

وتساءلت، ساخرة، عن الأمر الجلل الذي جمع الشاميَّ مع المغربيِّ غير قضيَّة السَّبْع التي يعرف الجميع أنّها ليس لها حلٌّ، رغم مكابرتهم، وعدم اعترافهم بالحقيقة حتَّى لو كانت مثل القهوة المُرَّة، وردَّ والدي ضاحكاً: «قصدكِ الشامي والمغربي والإفريقيَّة والقيسيّ»، في إشارة إلى الشيخ نعيم، الذي احتفظ قومه في جبل الخليل بصفة القيسيّ، تذكاراً من الحرب الأهليَّة الفلسطينيَّة بين حزبَي قيس ويمن.

وعندما استفسرتُ عن ذلك، قال والدي: «احتاج الفلسطينيُّون دائماً إلى ثنائيَّات، هي استمرار لتقاليد موغِلةٍ في القِدَم، حيث نبتت وعاشت ثنائيَّات النور والظلام، والخير والشرِّ والعبد والحُرِّ، وغيرها، وصولاً إلى الحرب الأهليَّة بين حزبَي القيس واليمن التي استعرت، في القرن التاسع عشر، خصوصاً في جبلَي القُدْس والخليل، فاتَّخذ القيسيُّون اللَّون الأحمر عَلَماً وشعاراً لهم، بينما رفع اليمنيُّون اللون الأبيض عَلَماً وشعاراً، دونهما الموت، وتوجَّب على العروس التي تنتقَّل بين أراضي القيسيِّيْن واليمنيِّيْن أن تُغيِّر لون ثوبها من الأحمر إلى الأبيض أو العكس، وكره القيسيُّون اللون الأبيض، وكره اليمنيُّون اللون الأحمر، كما يليق بشرف الذود عن العصبيات».

أكمل والدي ضاحكاً: «الخِمَار الذي ارتدتْهُ اليمنيَّات في قرى جبل القُدْس كان أبيض دائريَّاً حريريَّاً، يُسمَّى حياري. أمَّا خِمَار القيسِيَّات، فأحمر من الحرير، يُسمَّى شنبر، وهنَّ في القرى سافرات الوجه. كانت جَدَّاتنا أكثر تقدُّماً من المَدَنيَّات، وسبقنَ نساء القُدْس اللواتي خلعنَ الخِمَار قبل عشرين عاماً فقط، المهمُّ أن الكره بين اليمنيِّيْن والقيسيِّيْن استعر بشدَّة، فلم يكن القيسيُّون يصنعون المهلبيَّة المكوَّنة أساساً من الحليب؛ لأن لونها أبيض، وامتنع اليمنيُّون عن صناعة الدِّبْس بسبب لونه الأحمر، ولكن الأمور لا بدَّ أن تتغيَّر، فلمَّا زهق القيسيُّون واليمنيُّون من القتال غير المجدي وغير المبرَّر، امتدَّت خيوط الصلح بين الطرفَيْن، وعلى شرف الوصل بعد القطيعة، واختفاء النعرة، أو تواريها، وحضور الفكرة، ونبذ الجفاء، صاروا يصنعون مهلبيَّة، تفتَّقت أذهانهم على وضع الدِّبْس على وجهها، وسمَّوها الاسم المباشر الوحدويّ قيس ويمن».

كان الجميع حزيناً ومصدوماً، وكأن موت موسى بالطريقة التي حدث فيها، خدش كرامتنا، أكثر ممَّا حدث في الحرب، وسقوط القتلى والجرحى واغتصاب الأرض، ويبدو أن هذا الأمر لم يقتصر علينا، فمن المفاجآت وصول شارلي مع وفد من شباب الفهود السود، يهود المُصْرَارَة إلى بيت العزاء الذي أثار حضوره اعتراضاً من البعض، ومن بينهم والدي، ولكنَّ أبا روحي المغربي الذي حضر إلى القرية مبكِّراً، ليكون في استقبال الوفد، تمكَّن من احتواء الغضب، مؤكِّداً أن وجود المتضامنين من الطرف الآخر هو مُهمٌّ لقضيتنا، وشرحها حتَّى للأعداء.

قال أبو روحي: «الثورات التي تنتصر تمدُّ خيوطاً إلى جوف الحوت، ومن مهامِّها إحداث شرخ في صفوف الأعداء؛ نوع من اقتحام القلعة من الداخل».

بدا شارلي خطيباً لفت الأنظار إليه، رغم لغته العربيَّة غير السليمة، وقال: بأن مقتل طفل مهما كانت جنسيته أو لونه أو دِيْنه، هو وصمة عار

على جبين القَتَلَة، سيطاردهم إلى الأبد، وهو ما سيحدث مع حكومة العدوان الإسرائيليَّة الحاليَّة، التي اعتبر سقوطها مصلحة إسرائيليَّة، وفلسطينيَّة.

وأكَّد أنه وما يمثِّله من يهود شرقيِّيْن في الأحياء الفقيرة، ضدَّ القتل، والحروب، والاستيطان، ومع العيش بسلامٍ وأمن، وهذا يستدعي الوقوف معاً من أجل تحقيق كلِّ ذلك.

ونوَّه إلى ما يراه الفلسطينيُّون من قمع اليهود الشرقيِّيْن الذين يعملون في الجيش، والبلديَّة، ووزارة الداخليَّة وغيرها، لا يمثِّلون اليهود الشرقيِّيْن، ولكنهم يمثِّلون أنفسهم المريضة.

ولم يؤثِّر خطابه كثيراً في المستمعين، وبعد رحيله ووفده، لم يُبدِ أيٌّ من الحضور اهتماماً بمجيئهم، وصدر تعليق من السَّبْع:

- اليهود؛ لا يقدر عليهم إلَّا الله، يلعبون بالحبال، وعليها ..!

بعد استشهاد موسى، كثَّفَ الاحتلال من دورياته المحمولة والراجلة في القرية، لحراسة الأعداد المتزايدة من اليهود الذين يأتون لزيارة العَيْن والسير في النفق إلى البرْكَة، وإقامة طقوس تلموديَّة، وعيَّنت حكومة الاحتلال حارساً بزيٍّ مَدَنيٍّ على العَيْن، مسلَّحاً بمسدَّسٍ، وآخر مثله عند البِركَة.

ولكنَّ الأمور كان يجب أن تعود لرتابتها القلقة، فحتَّى في ظلِّ الاحتلال، والناس ينتظرون حلَّاً سحريَّاً، قد تجود به السماء، فللحياة متطلَّباتها، وشروطها.

الثامن والثلاثون

تزوَّج السَّبْع مرَّةً أخرى، وهذه المرَّة من خارج القرية، وحرص على إقامة عرس، دعا إليه جميع الأهالي، وسهرت القرية، في تاريخها الرماديِّ الجديد، ليلةً نادرةً، أمام العَيْن، بينما كانت دوريَّة من جيش الاحتلال، تُطوِّق المكان، مثلما فعلت خلال عزاء موسى، تحسُّباً لشيء لا أعرفه. قال والدي: «يريدون أن يُشعرونا بوجودهم الثقيل، وبأنهم سادة البلاد المقدَّسة الجدد، يخشوننا في الطرح والفرح. هم يدركون بأنها مناسبة اجتماعيَّة، وليست سياسيَّة، يريدون تنغيص فرحنا المسروق من واقعنا الذي سرقوه منَّا».

شارك الشباب في حلقات الدبكة، وتزيَّن السَّبْع، مثل أيِّ عريس مستجدٍّ، وانشغلت والدته بين النساء ومعهنَّ فَرِحَةً على أملٍ أن تختلف هذه المرَّة عن المرَّة السابقة، من جميع النواحي، رغم ما تركتْهُ التجربة من غُصَصٍ، لن ترحل بسهولةٍ.

وحضر إخوة عروسه السابقة أميرة، مُباركين، ومؤكِّدين بحضورهم، أن لا شيء ممَّا حدث سابقاً، يمكن أن يُغيِّر من علاقة الدَّم، التي تربط العائلة والعشيرة، ولم يفكِّر أحد بحال أو مصير المسكينة أميرة، التي لم تكن تجربتها في الزواج سوى حقل تجارب لشيخ شباب القرية العِنِّيْن، الرافض الإقرار بهزيمته، وحقول فضول رأي قريتنا العامِّ، من الصغير إلى الكبير.

وغنَّى أبو طلعت الذي ارتدى زِيّاً تقليديّاً مُحسَّناً ومميَّزاً، يغطِّي جسمه ورأسه باللون الأبيض حَطَّة، وقِمْبَاز، وجاكيت، ويُظهِر الحزام الأسود المشدود

على وسطه صفاء اللون الأبيض، وتناسى الجميع ما أصاب السَّبْع، وأقنعوا أنفسهم بأن إقدامه على الزواج مرَّة أخرى يؤكِّد ثقته بنفسه، مستبعدين أنه يمكن أن يضع نفسه من جديد في خانة الإحراج وهدر الكرامة.

رفع أبو طلعت صوته في ليل قريتنا، متحدِّياً الجنود:

يا زريف الطول، وشوفوا يا بشر
يا محلا دبكتنا مقاهرة وجكر
وما نخاف الجنود وما نخشى الخطر
إحنا فلسطينيَّة وهاي أرضنا

وبينما عبَّر الحضور حماسة لما غنَّاه أبو طلعت، انتقل بسرعةٍ إلى منغومٍ آخر، وكأنه لا يريد تنغيص السهرة، بتذكير الحضور، بجيش الاحتلال:

يا حلالي يا مالي
يا ربعي يردُّوا عليَّ

وردَّ عليه الشباب، معيدين ما قاله، فواصل:

محلى الطرب محلى الكيف
في ليالي الحرِّيَّة

وكرَّر لازمة يا حلالي يا مالي، وردَّ عليه الحضور، ليواصل مرَّة أخرى:

محلى البنت إن حملت سيف
ترقص رقصة عربيَّة
و...يا حلالي يا مالي
يا ربع ردُّوا عليَّ

وعندما ردُّوا عليه مبتهجين، رفع صوته أعلى فأعلى، لتسمعه النساء في منازلهنَّ، مدفوعاً، من جديد، بمشاعره الوطنيَّة:

محلى البنت في سِلْوَان
إن حملت البندقيَّة

وتجلَّى صوت أبو طلعت، وهو يعلو عالياً نحو السماء:

يا حلالي وشو مالي يا ناس ردوا عليَّ
رايح أقول لأُمِّي ما بدي غير سِلْوَانية
يا سيفها يرمح بالعالي وعيونها شلبية

واءم أبو طلعت صوته على منغوم متوسِّط النبرة:

وأنا رايح ومروح/وملقى الدرب الشرقيَّة
يا حلالي ويا مالي
وأنا رايح ومروح/لاقتني بنت سِلْوَانية
يا طولها والله عَ طولي/لن فيها من القصر شوية
يا حلالي ويا مالي
يا راسها راس الحمامة/منه الجدايل مرخية
يا حلالي ويا مالي
وايش اقولك في العيون؟/ونقول: عيون غزلانية
يا حلالي ويا مالي
وايش اقولك في المنخار؟/ونقول: فستقة حلبية
يا حلالي ويا مالي
وايش اقولك في شفافها؟/ونقول: لوزة طرية
يا حلالي ويا مالي
يا تمها خاتم سليمان/نسده بالعشراوية
يا حلالي ويا مالي
واسنانها لضمّ اللولو/مشكوكة شكّة زينية

يا حلالي ويا مالي

نزلت إلى ساحة الدبكة فرقة جارتنا رأس العَمُود، وبدت فرقة غريبة بأزياء أفرادها المفاجئة، فقد ارتدى كلُّ فرد ثياباً نسائيَّة، وغطَّى رأسه بخِمَار، لا يظهر منه إلَّا العينَيْن، بينما انتفخت بطونهم فوق الأحزمة المشدودة، وبدا أن مجموعة من النسوة الحوامل يدبكنَ، بينما ارتفعت الأصوات الضاحكة والفرحة، على العرض الهزلي،

الذي بالغ في تقديمه قائد وأعضاء الفرقة، خصوصاً عندما وضع كلٌّ منهم يده على بطنه ممثِّلاً بأن طلق الولادة قد اقترب، وصفَّق الجمهور بحرارةٍ للدَّبِّيكة، الذين بعد انتهاء فقرتهم أزاح كلٌّ منهم خِمَاره، وتقدَّموا تباعاً نحو السَّبْع، وقبَّلوه مهنِّئين.

ودُعي السَّبْع لحلقة الدبكة، وهذه المرَّة مع ذكور قريتنا، وشبك يدَيْه بيد والدي، الذي نادى عليَّ، وأمسك يدي، وضمَّني إلى الدَّبِّيكة، وأفلت يدي بعد فترة، ونزل مع السَّبْع إلى أمام الحلقة، ليُبرِزا قدراتهما على ضرب الأرض بأقدامهما الثقيلة، وليؤكِّد لقريبه العريس، مدى محبَّته وثقته وولائه.

أمَّا السَّبْع، فكان بحاجة أن يضرب الأرض بكلِّ قوَّته، ولا يتوقَّف، حتَّى يُفرِّغ كلَّ شحنات الألم والغضب والخوف، التي تملَّكتْهُ في الفترة الأخيرة.

وتحلَّق الدَّبِّيكة حول السَّبْع، مُفسِحين له المجال، ليُعبِّر عن هواجسه، التي يعرفونها، رقصاً، فأحنى ظهره، وهو يركِّز نظره إلى الأرض، وبدأ بضربات بطيئة محسوبة عليها، تُخلِّف إيقاعاً يتوازى مع حركتَي يدَيْه، وكأنه يسبح في الهواء، ويغلِّل كلّ ذلك تلك المساحة بين قصوره وتوقه، فيبدو الرقص صرخة ضدَّ كثير من الأشياء، وعندما رفع رأسه أخيراً، تبيَّن للقريبين منه كم هو كبير الجهد الذي بذله، ليخنق الدموع في عينَيْه، ويمنعها من النزول على الأرض.

حضر أفراد من عائلة الشهيد موسى، وتحدَّث عمُّ الشهيد، بينما استمع إليه الحضور باهتمام، عن مباركة عائلة الشهيد وأهل القرية لشيخ شبابها، الذي سيظلُّ كذلك، رغم حقد الأعداء ومكرهم، «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ»، ثمَّ هنَّأ السَّبْع بعروسه الجديدة، وأعلن اعتذار العائلة عن الاستمرار بحضور العُرْس، بسبب حالة الحِدَاد التي لم تنتهِ على الشهيد موسى، طالباً من الحضور مواصلة الفرح، متمنِّياً تواصله في أيَّام القرية المقبلة، بحيث تصبح أيَّامها كلُّها فرحاً وسروراً، وأن يغيب نحسها إلى الأبد.

وفي تصرُّفٍ مفاجئ، وصلت أُمُّ السَّبْع إلى حيث يتجمَّع الرجال، وهي تُلَوِّح بخرقتها البيضاء، مشمِّرة ثوبها، وأخذت تلفُّ وتدور بما يشبه الرقص، وهي تُطلِق الزغاريد:

هاهي يا هلا فيكم ثمانية ومية ترحيب

هاهي يا أعز النسايب ما يعلا عليكم نسيب

هاهي انتو الثريا وباقي النجوم اتغيبب

لولولولي ..

بدت أُمُّ السَّبْع، بثوبها ذي الخطوط الذهبيَّة على أطرافه، وغنى قبَّته بالتطريز، وحذائها الذي له وقع أحذية الرجال على الأرض، وانتصاب جسدها ووجهها، كامرأة لم تفقد عنفوانها، رغم فقدها لزوجها، وصدمتها بهزيمة ابنها.

أبدى البعض متمتمين إعجابهم بأُمِّ السَّبْع، معتبرين أنها مسترجلة، أو أخت الرجال، التي لا تخافهم.

ظهر السَّبْع ليُمسِكَ بيد أُمِّه، ويطلب منها المغادرة، مؤكِّداً مكانته كرجل البيت، الغيور على شرف نسائه، حتَّى لو كانت أُمُّه التي غادرت العُمُر الذي يمكن أن يغار فيه عليها، وَفْقَ أحكام أهل قريتنا.

أبدت الأمُّ تذمُّراً غير جِدِّيٍّ من تصرُّف ابنها السَّبْع، وهي تبتسم راضية، على الأغلب، على تمسُّك ابنها بدوره كرجل البيت بلا منازع.

تواصل توافُد الحضور، فجاء شارلي ووفده، ولم يمكثوا طويلاً، وسلَّموا على السَّبْع، وهنَّأ شارلي بصوتٍ مرتفع وهم يغادرون أهل قريتنا بفرحهم متمنِّياً أن تكثر الأفراح، وتقلَّ الأحزان.

علَّق والدي: «شارلي بدأ حملته الانتخابيَّة وسط عرب القُدْس من قريتنا». وكانت إشاعة قد سرت في القرية بأن شارلي اتَّفق مع السَّبْع، على العمل معه، خلال الحملة الانتخابيَّة المقبلة لبلديَّة القُدْس، ولكي يكون مرافقاً له في الأحياء العربيَّة، وعندما راجع والدي السَّبْع، نفى ذلك، وأكَّد التزامه الوطني بمقاطعة الانتخابات، ولم يثقْ والدي، لأسبابٍ أجهلها، بكلام السَّبْع.

وفاجأ علي عمَّار والدي بحضوره، فهو لا يعرف من أهالي القرية إلَّا والدي، الذي لم يدعُه إلى الحفلة، ولم يعرف كيف علم وجاء، وهبَّ والدي لاستقباله، لإظهار أفضل ما عنده من حسن الضيافة وتقاليد الترحيب بالضيف، محاولاً إخفاء توتُّره، وأجلسه على أحد الكراسي، وجلس بجانبه، فاقتربت منهما، وسمعتُ المذيع - الصوت يقول لوالدي:

- الواجب، واجب، ورغم مشاغلي الكثيرة، كما تعلم، إلَّا أنني لا يمكن أن أتقاعس عن أداء الواجب، وإذا تعرَّضتُم لأيَّة مضايقة من الجنود، أرجو أن تُخبرني، فأنا كفيل بحلِّ أيِّ إشكال.

– أشكركَ على قدومكَ.

- .. وأنتَ تعرف، فإن الجيش والحكومة لدينا يخشون الصحافيِّيْن، لذا لا تتردَّد بإخباري عن أيِّ إزعاج يُسبِّبونه.

لم يمكث علي عمَّار طويلاً، وشيَّعه والدي إلى بعد أمتار خارج ساحة الفرح، وعاد حيرانَ، ونظر إليَّ متسائلاً:

– ترى، ماذا يريد هذا منَّا؟

أدركتُ أن والدي لا يقصدني بالضبط بسؤاله، وربَّما تخيَّل أبو روحي المغربي، أو مريم التشاديَّة، وأظنُّه تمنَّى لو أنها موجودة، ليُناقِش معها الأمر.

ويبدو أنه شعر بأن عليه أن يجاوب، فقال:

– إنه يعمل دعاية لنفسه ولمكتب زوجته أُمِّ العبد، يريدان، أن يجمعا ما يقدران عليه من أموال ناسنا الغلابا، في أسرع وقت، قبل أن تتغيَّر الأوضاع.

وبشكلٍ غير متوقَّع من معظم الموجودين، أعلن أحدهم، الذي أراه لأوَّل مرَّة بشَعْره الطويل، ووجهه غير المألوف، عن مفاجأةٍ، طالباً من الحضور التصفيق، وما إن أتمَّ كلامه، حتَّى نزلت إلى الساحة راقصة ببَدْلَة رقص شرقيَّة، تضع على رأسها شَمْعِدَاناً، وأخذت تتمايل، يلحق بها رجل بجلابيَّة يعزف على المزمار.

بدت الراقصة طويلة، تتمايل بفستانٍ أزرقَ مفتوحٍ على الجانبَيْن، وظهر أعلى فخذَيْها، لباسها الداخلي أزرق أيضاً، وأبان عن عودها النحيل، بينما طوَّقت رقبتها حِلَى ذهبيَّة لامعة، كلمعان سنِّها الذهبيَّة الأماميَّة.

فوجئ الحضور، بالمفاجأة غير المتوقَّعة، وسرت بينهم كلمة: غازيَّة، ثمَّ فهموا الأمر، وسعدوا بوجود غازيَّة من غوازي مصر، وراقصة كالتي شاهدوها فقط في الأفلام المِصْريَّة التي تُعرَض في سينما الحمراء، وسينما القُدْس، وغيرهما من دُوْر السينما في مدينتنا.

تململ الشيخ عبد ربِّ النبي، الذي حضر مبكِّراً، في مقعده، ونهض،

ولحقه أبونا بوللو، وبعد أن تهامسا، اقترب الشيخ من السَّبْع، الذي نادى على والدي، وقال الشيخ بينما يقف الخوري بجانبه:

- مباركة عليكم الأفراح، وكما تعلمان، فإن هذه الأجواء لا تُناسِب مقامنا، ولذا فإننا نستأذن بالانسحاب أنا وأبونا ..!

قال والدي، بلغة اعتذاريَّة:

– الله يبارك فيكم، يا شيخنا، لا تؤاخذونا، وشكراً لكَ، يا أبونا بوللو، هل ترغبان بأن أوصلكما؟

- شكراً لكَ، وباركَ في شبابكَ، الخوري جاء بمَركَبَته، وسيُوصلُني، ثمَّ يذهب إلى الدير.

وتمتم الخوري وهو يودِّع والدي:

- مبارك عليكم، الله يبارك السَّبْع وعروسه، سأدعو لهما، في صلاتي بالتوفيق، كما فعلتُ في الكنيسة خلال الفترة الماضية، سيأخذ الربُّ بيد السَّبْع، وسيجتاز محنته.

وغادر الاثنان، محاولَيْن الابتعاد بأكبر قَدْرٍ عن الراقصة وما يحيط بها، وهما يتمتمان، ويهزَّان رأسَيْهما، وتكاد عِمَامَة الشيخ تضرب طاقيَّة الخوري.

ويبدو أن رحيلهما أشاع الارتياح لدى والدي والسَّبع، ورأيا فيه راحة لهما، ولنا أصحاب العُرْس، الذي يجوز فيه ما لا يجوز في مقامٍ غيره.

ومع الرقصات المجنونة التي كشفت فيها الغازيَّة، عن أجزاءٍ من فخذَيْها وبطنها وصدرها، أخذ الحماس لها قوَّة دفع ذاتيَّة، وعندما تقدَّم الرجل ذو الشَّعْر الطويل، ووضع ورقةً ماليَّةً بين صدرها، وطلب من الآخرين الحذو حذوه، حتَّى تقدَّم بعض الرجال على استحياء ثمَّ بحماسةٍ، ليُنقدوا الراقصة ما وجدوا أنها تستحقُّه لما قدَّمتْهُ من رقصٍ، وإشاعة فرح، وأيضاً الشَّغَف

لحَرِّ تلك اللُّحَيْظَات التي ستلامس فيها أصابعهم، منابت الصدر الثريِّ، وهم يدسُّون فيه الأوراق النقديَّة.

دار همس بين الحضور حول هُوِيَّة الراقصة، ووُضعت تخمينات؛ رجَّح البعض أن تكون راقصة يهوديَّة من يهود مصر، جلبها صديق من أصدقاء السوء الذين ارتبط بهم السَّبْع، وسمعتُ همساً يشير إلى أن الراقصة قد تكون جنكيَّة من جنكيَّات غزَّة اللواتي يمْتَهِنَّ الرقص، وربَّما أمور أخرى، بدت غامضة لي.

وعندما غادرت الراقصة بعد منتصف الليل، غادر الحضور وهم يتحدَّثون عنها، وسيستمرُّ الحديث، ويتشعَّب، خلال الأيَّام المقبلة.

دخل السَّبْع على عروسه، ولم تنقل الجدران، هذه المرَّة، أيَّة أخبار انتظرها الناس على نارٍ، كي يتأكَّدوا من طبيعة السَّبْع. لقد استعادت الجدران فضيلة الصمت.

التاسع والثلاثون

لم يعش السَّبْع شهر عسل، أو حتَّى أسبوعاً يتذوَّق رحيق عروسه، شوهد في اليوم الثالث أمام العَيْن، ولكنْ، هذه المرَّة لم يكن يستمع له سوى الزوَّار الأجانب واليهود.

تحوَّل مع كرور الأيَّام، إلى دليلٍ سياحيٍّ غير رسميٍّ، يلتقط رزقه ممَّا يأخذه من الذين يحبُّون أن يستمعوا له يشرح لهم عن القرية وعينها، وبِركَتها، ونفقها، مع قليلٍ من الفلكلور المحلِّيِّ عن كلِّ ذلك، ووجد في مهنته الجديدة ما يُعبِّر عن عنفوانه الساكن، وشكيمته السابقة، المختفية تحت مَيلَيْه؛ الطَّرْبَلَة والمخدِّرات، فجزء من عمله هو في الواقع نوع من فرض الأمر الواقع على الزوَّار، مُسلَّحاً بسلطةٍ أعطاها لنفسه، ومنحتْهُ الحقَّ بالتصرُّف، وكأن منطقة العَيْن حقٌّ شخصيٌّ له، قادر في أيِّ وقت على تخريب زيارات الزوَّار للموقع وتَنْغِيصها.

وَثقَ به البعض، فنظَّم لهم جولات، تبدأ من بِركَة السلطان، فوادي الربابة، وبئر أيُّوب، وعين اللوزة، والعَيْن، والبِركَة، وكنيسة صياح الديك، وقبر النبي داود، والجُثْمَانِيَّة، وكنيسة سِتنا مريم، وكنيسة مريم المجدليَّة، انتهاءً بطَنْطُوْر فرعون.

يرتفع ديك حديدي بلون ذهبي على الصليب فوق كنيسة صياح الديك، لقد وجد الآباء الأسومسيونيست في منحدر جبل داود أعلى منازل قريتنا الموقعَ المثالي لحادثة إنكار بطرس للمسيح، ثلاث مرَّات، وفي كلِّ مرَّة يصيح الديك، ولكن صديق المسيح أوغل في الإنكار، رغم أن معلِّمه، الذي يعلم كلَّ شيء، أعلمه، بأنه سيُنكره.

سمع الآباء الأسومسيونيست رجع صدى صوت بطرس في لحظات ضعفه وإنكاره بين صخور الموقع، فاشتروه لهم، ليُخلِّدوا واحدة من أشهر حالات الخذلان، في قريتنا، بنوا كنيسة يحجُّ إليها الحجَّاج المحبِّين لبطرس وللمسيح، حتَّى الخذلان له مَنْ يقطع المسافات ليصله، ويخشع، ويصلِّي.

شهد الديك على تردُّد القدِّيس بطرس، وشهد رمزه الحديدي على شيطنتنا، عندما نصعد إلى الكنيسة، ونجتاز السياج، ونحوس بين أطلال الحفريَّات الأثريَّة التي أجراها الآباء الأسومسيونيست، ليُثبتوا أن حدسهم وشراءهم للموقع، لم يكن إلَّا كشفاً إيمانيَّاً، سيستخدم الرهبان معنا ثنائيَّة العصا والجزرة، ولم تكن عصاهم مخيفة، يطاردنا راهب شابٌّ، نطلق عليه لقب الجزرة، ولا نعرف لماذا، ولكننا رأينا تطابقاً عجيباً بين الجزرة وقامة الراهب، ولم يثر صراخه ونهره لنا سوى إمعاننا في الاقتحام، والهروب في الوقت المناسب، ويحاول راهب آخر تقديم الماء والحلوى لنا، فندخل معه في حوارات، يحاول فيها تقديم معلومات عن رهبانيَّته وكنيسته، يجهد لتكون متواضعة، لتناسب عقول أطفال مثلنا.

في يومٍ، وقبل أن نصعد إلى مَرْكَبَة والدي، أراد الاستماع لمَا يقوله السَّبْع للآخرين، وربمَّا أراد أيضاً أن يكرِّر اقتراحه بنقله إلى مركز الفطام في مقام النبي موسى، فاقترينا منه وهو يناقش دليلاً سياحيَّاً آخر، أتى من الناصرة، مع مجموعة سياحيَّة، لاقتفاء أثر السيِّد المسيح.

قال النصراوي، بأن هذه عيْن سِتنا مريم، وعليها وفيها أعاد السيِّد المسيح النظر للرجل الأعمى، وما يؤكِّد تواتر الإيمان بهذه الأعجوبة، بقايا الكنيسة البيزنطيَّة في الموقع.

قال السَّبْع بلهجة العارف: «اسمها ليس فقط عيْن سِتنا مريم، ولكنْ،

أيضاً: عَيْن أُمِّ الدَّرَج وعَيْن جيحون، وعَيْن سِلْوَان، ومثلما تُقدِّسونها، نُقدِّسها نحن، فهي تأخذ قوَّتها من حقيقة أنها تختلط مرَّة في العام بمياه زَمْزَم، التي تفيض في العاشر من محرَّم (عاشوراء)، وعندما قُتل سيِّدنا الحسين، بكت القُدْس عليه، وكُلُّ حجر في القُدْس رفعه ناس ذلك الزمن ظهر تحته الدَّم، دمُ الحسين، وحتَّى الآن تظهر على بعض الحجارة عندما تُقلَب صدفة، بقايا دم الحسين، وهذا ما حدث معي، أنني أستطيع رؤية دم الحسين، في كلِّ مكان في القُدْس، وأعرف عندما أريد أين أجده، ولكنَّ البعض لا يؤمن بذلك، كما لم يؤمن البعض أيضاً في السابق، مثل شاعرنا أبو العلاء المعرِّي الذي سخر منشداً:

وبعد سِلْوَان التي في قُدْسها طعم يوهم أنه من زَمْزَم

ولكنْ، أين سيِّدنا الحسين الآن؟ وأين أبو العلاء الآن؟».

وضحك السَّبْع وضحك والدي على ما وصفاه كفر أبو العلاء، ثمَّ واصل السَّبْع كلامه وكأنه يحاجج النصراوي: «هذه العَيْن، من عيون الجنَّة، مثلها مثل عيْن زَمْزَم، وعندما لم يُصدِّق الأقدمون ذلك جاء مَنْ يجعلهم يُصدِّقون، وهو رجل هنديٌّ، وقع منه قدح في مياه زَمْزَم هناك في بلاد الحرمَيْن، فغاب حِقبة من الدهر، وأتى إلى القُدْس، حيث الحرم الثالث، والقِبْلَة الأولى، وطلب أن يشرب ماءً عندما نزل إلى قريتنا لإرواء عطشه، فأتى له أجدادنا بقدح ماء، فدُهش وهو يسأل عن كيف وصل قدحه الذي اختفى في ماء زَمْزَم إلى هنا، فأُخبر بأن القَدَحَ وُجد في عيننا، عَيْن سِلْوَان المشهورة، ولكنهم لم يصدِّقوه، أو تشكَّكوا بما يقوله هذا الهنديُّ الآتي من بعيدٍ، ليحكيَ الحكايات في بلاد تنضح بالحكايات، وتُصدِّرها إلى العالم، ولعلَّها لم تنجح إلَّا بذلك، فطلب إزالة جلد عن القدح، قائلاً إذا وجدتُم تحته عشرة دنانير، فهو لا شكَّ قدحي، وفعلاً

تبيَّن أنه قدح الهنديِّ، وحمل أهلنا القَدَح إلى المسجد الأقصى ليُصدِّق المشكِّكون، ويقوى إيمان المؤمنين، واستعاد الهنديُّ نقوده، ولكنه لم يأخذها لنفسه، فهو لم يقطع كلَّ هذه المسافات إلَّا ليقدِّس حجَّته، ولم يأتِ من أجل مال أو جاه، فتصدَّق بها على مجاوري المسجد الأقصى».

سأل النصراوي، إذا ما كان القَدَح ما زال في المسجد الأقصى؟ فتلعثم السَّبْع وهو يقول:

- لا أعرف، ولا أظنُّ ذلك، هذه قصَّة قديمة، وجماعتنا في الأقصى لا يهتمُّون بمثل هذه الأمور كثيراً مثلما يفعل رهبان الكنائس في الحفاظ على ذخائر القدِّيسين، فيُكوِّمون الجماجم فوق بعضها.

قال النصراوي مبتسماً:

– هذا الفرق بيننا وبينكم، أنتم أنيُّون، وعمليُّون، ونحن تشدُّنا حساسيَّة مع السلف الصالح وغير الصالح، في أحيانٍ كثيرة ..!

وأضاف ولعلَّه أراد ترطيب وقع كلامه السابق، حول الفروق بين الأنيِّيْن والحسَّاسين، فقال:

– يتطرَّف الحسَّاسون في أحيانٍ كثيرة، فجيراننا في قرية الرينة مثلاً، شقَّ عليهم أن يكون لدينا ولدى القرى المجاورة ما يفخرون به فيما يتعلَّق بانتساب وخطى المسيح ومروره وتوقُّفه، وحوادث وقعت معه، وأعاجيبه كإكثار الخمر في قرية كفر كنَّا، في حين أنهم يفتقدون ذلك، فطوَّروا حكاية، تتوارث، بأنريناويِّيْن، هم مَنْ سرقوا مخلاة حمار المسيح عندما مرَّ في قريتهم، وليس مُهمَّاً أن ذلك لم يُذكَر في الأناجيل، أو في القصص الشعبيَّة حول المسيح، المهمُّ أنه أصبح لديهم، مثل جيرانهم، علاقة بالمسيح، حتَّى لو من باب السرقة.

ضحكنا، وقال السَّبْع مجاملاً:

– أنتم بَرَكَتُنا، يا صاحبي، كلُّنا بَرَكَة، فنحن واحد، وسنظلُّ كذلك.

تدخَّل والدي:

– قبل أن أنسى في غمرة نقاشكم الطيِّب، أُحبُّ أن أقول لضيفنا من ناصرة الجليل، بأن أجدادنا عندما بنوا المسجد بجانب البِرْكَة، بنوه في الواقع، تذكاراً لمعجزة السيِّد المسيح بشفاء الأعمى، وهذا يدلُّ على التتابع والتواصل في بلادنا، نحن شعب واحد بدِينَيْن مختلفَيْن.

سأل النصراوي مبتسماً:

- وماذا عن أولاد عمِّنا؟

أجاب والدي متسائلاً:

– ماذا نفعل إذا تركونا وأصبحوا مُحتلِّين؟ وعندما يكفُّون عن ذلك، سيكون مرحَّباً بهم، سنعيش كما عشنا طويلاً، فبلادنا تتَّسع لثلاثةِ أديانٍ، وقوميَّة واحدة.

بدا أن السَّبْع قد ضاق وهو يرى النقاش الصباحي يميل إلى طرقةٍ أخرى، فتدخَّل ليروي أبياتاً من الشِّعْر، تؤكِّد قُدسيَّة العَيْن وهو يلقى تشجيعاً من والدي، الذي ربَّت على كتفه مشجِّعاً ومتمنِّياً له الاستمرار في عمله، دون أن يسأله شيئاً عن زواجه الجديد، ولم يأتِ على سيرة مقام النبي موسى، ولكنه خاطب والدي بعد أن خطى عدَّة خطوات مغادراً، وكأنه قدَّر ما يدور في خَلَد ابن خالته وصديقه:

- اسمعْ، يا شامان، ما لا يُغيِّره الدهر يُغيِّره اليهود ..!

فردَّ والدي مبتسماً:

- الأفضل أن تنسى شغل الآخرين، وابقَ في شغلكَ الذي تعرفه، يا مرديخ ..!

وقهقه السَّبْع والنصراوي، على كلمة مرديخ التي تعني دليلاً سياحيَّاً بالعبريَّة، وهي كما قال لي والدي موضّحاً مشتقَّة من كلمة ديرخ العبريَّة، والتي تعني الطريق، وأدركتُ إعجاب والدي بالمصطلح، وهو يشرح لي العلاقة بين الطريق والدليل، دليل

الطريق، وفي مرَّات لاحقة كثيرة سيكرِّر الربط بين معاني كلمات عبريَّة يتعلَّمها، واشتقاقاتها، وقربها من العربيَّة، وكأنه يكتشف شيئاً جديداً، ومثيراً.

الأربعون

عندما صَعِدْنا وادي حُلْوَة، واقتربنا من تلِّ الظهور، رأينا مجموعة من الشيوخ المعمَّمين، يقفون مع البروفيسور عازار، الذي يرتدي، هو الآخر، زِيّاً أسود، ويعتمر طاقيَّة شبيهة بالتي يرتديها المتديِّنون اليهود، ولكنها غير مطابقة تماماً لقُبَّعات المتديِّنين، وبدا عازار شبيهاً أكثر بالشيوخ.

قال والدي: «تحرَّك الشيوخ، وكان عليهم أن يتحرَّكوا أبكر من ذلك بكثير، كم هم بطيئون، يئنُّون بثقل بيروقراطيَّة مقيتة، وخوف مسكون في دواخلهم، وهم لا يريدون أن يُغضِبوا أحداً، ليس بهذه الطريقة يمكن أن نحقِّق تقدُّماً».

سألتُ والدي عن الجهات التي يمكن أن تغضب من الشيوخ، فقال: «الشيوخ موظَّفون لدى الحكومة الأردنيَّة، ويريدون أن يتحسَّسوا مواقع أقدامهم جيِّداً، حتَّى لا يخطوا خطوات تُخالف سياسة الحكومة التي تدفع رواتبهم، والتي كانت قبل فترة وجيزة فقط تحكم القُدْس، وفي الوقت ذاته يزداد إحراجهم أمام جماهيرهم والمصلِّين في الأقصى الذين يتظاهرون، مندِّدين بالاعتداءات الاحتلاليَّة، الله يكون بعونهم».

- ولماذا يمكن أن تغضب الحكومة الأردنيَّة؟

– الملك حسين يريد العودة إلى القُدْس، ويجري اتِّصالات مع الإسرائيليِّيْن، والأميركيِّيْن، ولكننا نحن شباب القُدْس، لا نريد ذلك، ولا يمكن أن نقبل عودة الأمور كما كانت عليه قبل الاحتلال. ويرسل الملك الأموال لرجاله هنا، رغم أن جزءاً منهم انضمَّ لخدمة الأسياد الجدد، وأقصد

الاحتلال. إنه يخشى تحوُّلات رجاله، يعتبرهم كالمؤلَّفة قلوبهم، تميل القلوب إلى حيث المال والألقاب والمناصب ..!

وذكر أسماء محدَّدة في نابلس، والقُدْس، والخليل، فتحت خطوط اتِّصال مع جنرالات إسرائيل المنتصرين، لبحث مستقبل الضفَّة الغربيَّة، وفي الوقت ذاته اتِّصالاتها مستمرَّة مع الملك، الذي بدأ يخشى ويخاف مَيْل بعض رجاله البارزين، خصوصاً الشيخ علَّان البراغماتي القادر على التكيُّف مع أيِّ حكَّام جدد لبلادنا.

دغدغتْ حواسِّي ثقة والدي، وهو يضع رأسه برأسِ ملكٍ، ويتحدَّاه بكلِّ هذه السهولة والبساطة، دون أن يخشى شيئاً، فمن الجميل أن يكون للطفل أب لا يخاف ملكاً ويتحدَّاه، لقد شعرتُ بقوَّة تغمرني.

- ولماذا لا تريدون عودة الملك؟

– نريد أن نحرِّرَ بلادنا من الاحتلال، ونبنيَ دولتنا، التي تأخَّرت كثيراً، مثل باقي الشعوب، ولكنَّ الأمرَ ليس سهلاً، نحن في صراع مع رجال الملك، الذين بينهم أيضاً مَنْ يمسك العصا من المنتصف بيننا وبين سيِّده، وتشدُّه روحه الوطنيَّة، مثل محافظ القُدْس الذي اعتقله المحتلُّون، ونفوه إلى صفد، ولكن الأمرَ سينتهي سريعاً، فالتفاهم بين الملك والإسرائيلِّيِّيْن، يمكن أنْ يحلَّ إشكالات صغيرة مثل هذه. فالمَلك، ولاحتواء غضبنا، يؤيِّد مشروع المملكة المتَّحدة، بيننا وبين مملكته، ولكننا نريدها دولةً فلسطينيَّة حُرَّةً، عربيَّة، يعيش فيها المسلمون، والمسيحيُّون، واليهود.

كيف، يا والدي؟ أليست الأرض أرضنا؟ فلماذا نقبل المحتلِّين فيها؟ تضايق والدي من تدفُّق أسئلتي الساذجة، التي اعتبرها ساذجة، واستمرَّ في القول والشرح ما يفوق قدرة مخِّي على الاستيعاب.

عندما بدأ تركيزي يخفت من كلام والدي السريع، والمكثَّف، ولم أعد قادراً على فهم كلِّ ما يقوله، أوقف والدي مَركَبَته بجانب باب المغاربة،

وأخذني معه، حيث يقف الشيوخ وعازار يتجادلون حول الحفريَّات بمحاذاة سور القُدْس.

قال عازار وهو يمسك يد طفلة في مثل سنِّي تقريباً، أو أكبر قليلاً، كما قدَّرْتُ، والتقتْ نظراتنا لبرهةٍ، ولكنها أشاحت بوجهها سريعاً: إن هذه الحفريَّات تهدف إلى الكشف عن الهيكلَيْن الأوَّل والثاني، لأن المدوَّنات التاريخيَّة تشير إلى أنهما، على الأرجح، يقعان هنا، وإن الكشف عن مآثر داود وسليمان، والملوك القدامى، يجب أن يكون أيضاً هدفاً إسلاميَّاً، لأن المسلمين يُقدِّسون ملوك بني إسرائيل، وفي القرآن الكريم سورة تحمل هذا الاسم، أصبح اسمها سورة الإسراء، ولكنَّ تغيير الاسم لا يُغيِّر من الهدف السامي للقرآن شيئاً.

ابتسم الشيوخ على الدرس الدينيِّ الذي قدَّمه لهم عازار، وأفصح عن معرفته بتفاصيل إسلاميَّة، وقال الأُستاذ عارف: بأن عازار يتعامل مع أنصاف حقائق، وأن المسلمين لا يكرهون اليهود، باعتبارهم يهوداً، بل إن المسلمين يعتبرون أنفسهم أحقَّ بأنبياء بني إسرائيل من اليهود أنفسهم، ولكنهم يرفضون العدوان، وأخذ أرض الغير، وإجراء تغيير عليها.

تركت الطفلة يد عازار، واقتربت منِّي، وتحدَّثت معي، ولكنني لم أفهم عليها، وأدركت أنها خاطبتْني بالعبريَّة، وعندما انتبه عازار لذلك نادى عليها:

- أستير .. أستير، تعالي، لا تبعدي.

فردَّ والدي:

– نحن لا نأكل الأطفال، ولا نقتلهم، كما يفعل غيرنا.

- لا أقصد شيئاً مسيئاً، لا سمح الله، هذه حفيدتي الشقيَّة، التي تريد أن تصبح عندما تكبر عالمة آثار، وأنا أخشى عليها من الوقوع في حفرةٍ

من حفر الحفريَّات، وليس أنتم فقط مَنْ لا تأكلون الأطفال، أيضاً غيركم لا يفعل ذلك، ومن المؤسف أن فِرْية الدَّم ما زالت معشِّشة في عقول البعض منكم.

- جميعنا علينا الخشية من هذه الحفر، التي يحفرها الإنسان، وهو يعتقد أنه سيُغيِّر الوقائع.

تضايق الشيوخ للحديث الذي وجدوه يذهب إلى مكانٍ آخر دون أن ينتبهوا أو يتوقَّعوا، ومن شخصٍ لم يأتِ معهم، ولا يعرفونه، فطلبوا منه الصمت، واستغربوا وجوده أصلاً في الموقع؛ ولكنَّ والدي لم يأبه بهم، وإن كان أبدى احتراماً خاصَّاً للأُستاذ عارف المجاهد القديم ومؤرِّخ القُدْس والنكبة.

أبدى الشيوخ خشيتهم من تأثُّر أساسات سور القُدْس من الحفريَّات، وكشفوا بأنهم حبَّروا المذكِّرات لليونسكو والجهات المسؤولة، وقال الشيخ سعد الدِّيْن متحدِّثاً باسمهم: «لا بدَّ أنكَ، يا بروفيسور عازار، سمعتَ بالضجَّة التي أُثيرت بين المسلمين من سكَّان القُدْس، إثر سماعهم بالبحث والتنقيب عن الآثار في منطقة ملاصقة للحرم القُدْسيِّ، وفي مكانٍ ملاصقٍ لجدار المسجد الأقصى من الناحية الجنوبيَّة، إن مصدر هذه الضجَّة والشكوى التي أعقبتْها، هو أن الحفر يمسُّ مكاناً من أقدس مُقدَّساتهم، وأن هذا الحفر بدأ دون استشارتهم، وهم أصحاب الحقِّ الأوَّل في ذلك المكان، نحن لسنا ضدَّ العلم أو ضدَّ التاريخ أو ضدَّ البحث عن الآثار؛ ولكننا نكره أن نرى أيَّ إنسان يحفر في أيِّ مكان من أماكننا، لا سيَّما المقدَّسة منها دون علمنا. إن أبسط قواعد اللياقة تقول إنه عليكم أن تحصلوا على رضانا أوَّلاً، ولأن الأرض التي يجري فيها الحفر أرض تابعة للوقف الإسلاميِّ، ثمَّ لأن الحفر يكشف أساس المسجد الأقصى الذي يُعتبر من أقدس المقدَّسات، ليس في القُدْس وحدها، وليس في فلسطين وحدها، ولكنْ، في العالم الإسلاميِّ كلِّه من أوَّله إلى آخره».

تحمَّس الشيخ حسن، فتدخَّل: «إنه المكان الذي أسرى إليه النبي العربيُّ الكريم مُحمَّد عليه الصلاة والسلام، وهو من الأماكن الثلاثة في الإسلام التي لا تُشدُّ الرحال إلَّا إليها: المسجد الحرام والمسجد الأقصى والمسجد النبويّ، ونرجو أن لا يذهب بكَ وبصحبكَ الظنُّ أننا نحن المسلمين ضدَّ العلم أو التاريخ والبحث عن الحقائق والآثار، كَلَّا، وإنما نحن ضدَّ الفوضى بحجَّة البحث عن الآثار، وقد كان من واجبكم أن تخبرونا عن عزمكم، وأن تحصلوا على رضانا قبل البدء بالحفر والتنقيب، وكان عليكم أيضاً أن تُخبرونا، في أقلّ تقدير، أنكم بدأتم العمل، وبالتالي تُعلمونا عن كلِّ خطوة تخطونها في عملكم، وأن ترسلوا لمصلحة الوقف صاحبة الأرض والهيئة الإسلاميَّة المشرفة على المسجد الأقصى وغيره من المساجد والأماكن الإسلاميَّة نسخة عن كلِّ تقرير، تضعه بعثتكم الأثريَّة، ليكون المسلمون أصحاب الحقِّ الأوَّل والأخير في المكان الإسلاميّ المقدَّس على علم بما يجري، وبما ينتهي به عملكم». [4]

كنتُ أستمع، وأراقب أستير التي لم تُبدِ أيَّ اهتمام بي أو بأيٍّ من زوَّار جَدِّها، ورأيتُها تبتعد عنَّا، وتتَّجه نحو العمَّال الذين يحفرون، ومعظمهم من العرب أمثالنا، بينما يتولَّى المراقبة عليهم موظَّفون يهود من سلطة الآثار الإسرائيليَّة.

تدخَّل والدي غير راضٍ عن كلام الشيوخ، وخاطب البروفيسور عازار: «حفرياتكم غير شرعيَّة، مثلما هو احتلالكم غير شرعيّ، وكُلُّ ما تفعلونه هنا هوْ باطل، سواء كانت الأرض إسلاميَّة أو مسيحيَّة، أو حتَّى يهوديَّة».

ردَّ عازار ضاحكاً: «لدينا الرُّخص اللازمة من البلديَّة وسلطة الآثار الإسرائيليَّة، وأنا أعمل تحت إشراف لجنة، ألَّفتْها حكومة إسرائيل من عددٍ من علماء الآثار الكبار،

وجميع سكَّان إسرائيل ينتظرون ما سأكشف عنه، حتَّى صديقي بن غوريون زارني هنا، وحثَّني على الإسراع، نحن نحفر بشكل شرعيّ».

ردَّ والدي: «عن أيَّة شَرعيَّة تتحدَّث، أنتم احتلال، وعليكم أن لا تُحدثوا أيَّة تغييرات في الأرض التي احتلَّيتُمُوها، هكذا يُخبرنا القانون الدوليّ».

وذكَّر، كيف أن بن غوريون دخل القُدْس القديمة مع تلاميذه الجنرالات، لِيُروه كيف حقَّقوا حُلْمه، الذي أخفق عام النكبة، لينجز في النكسة، ومن شدَّة لهفته عمد إلى نقش عربي في حارة المغاربة ونزعه، لتنزع بعد ذلك الحارة بأكملها وتختفي، هكذا بضربات احتلاليَّة من الوجود.

قال عازار ضاحكاً: «أنتم المتطرِّفون تُعقِّدون الأمور، وتُسيئون لشعبكم، دع الشيوخ يتحدَّثون، سنجد لغة مشتركة، نحن جميعاً أبناء إبراهيم، وأولاد عمٍّ، ثمَّ نحن لسنا احتلالاً، نحن استعدنا أرضنا التي نُقدِّسها. قبل أن تقدِّسوها، بل أنتم قدَّستموها، لأنكم وجدتمونا نُقدِّسها».

وأضاف: «رغم كلِّ هذه الحقائق، إلَّا أنكم تعتبروننا كفَّاراً، ولكنْ، لو نظرتُم إلى وادي جهنَّم شرقاً، ستعلمون كيف أنكم مثلنا ومثل المسيحيِّيْن نشترك في معتقدات لكم مثلنا، فجنَّتكم التي ستَحرمون غيركم من دخولها، وكذلك نحن والمسيحيِّيْن، لكلٍّ منَّا جنَّته التي لن يسمح لغيره بالدخول إليها، جنَّتنا ستكون أصغر جنَّة، إنها على مقاسنا، وعددنا، ولن نُغلِّب الربَّ كثيراً، ولكنَّ نار جهنَّم التي تتمنّوها لنا، ونؤمن بأنها ستكون لكم هي واحدة، سيُحشر فيها كفَّارنا وكفَّاركم وكفَّار غيرنا».

وبينما كان عازار يضحك وهو يختم جملته الأخيرة، ردَّ والدي بعصبيَّة متسائلاً ساخراً: «أنتم لستُم احتلالاً؟ لم تجفّ بعدُ دماء الشهيد موسى الذي قتلتُمُوه على العَيْن».

قال عازار: «أنا ضدَّ قتل الأطفال بغضِّ النظر عن ديانتهم أو جنسياتهم، ولكنْ، عليكَ عندما تحكم على أمرٍ ما إن تأخذ جميع العوامل التي أدَّت إلى حدوثه، ولا تتوفَّر لديَّ معلومات كافية عن ما حدث، أنتَ تروي القصَّة من زاويةٍ واحدة».

ثمَّ تجاهل والدي الغاضب، وخاطب الشيوخ الذين لم يرقْ لهم مثل هذا النقاش: «أنا على استعداد لإطلاعكم على نتائج الحفريَّات، كلَّما أتيتُم لزياراتي هنا، وأهلاً وسهلاً بكم دائماً في منطقتي هنا، ليس لدينا ما نُخفيه، كلُّ ما تُخرجه باطن الأرض سنعرضه فوقها، وأعتقد أنه بالحوار، سنتفاهم، ونزيل أيَّ سوء فَهْمٍ».

تشجَّع الأُستاذ عارف وهو الشخص المدنيُّ في الهيئة الإسلاميَّة الذي يحرص على أناقته بارتداء بذلة وربطة عنق، يحرص على تمييزها عن ربطات عنق الشيوخ الكالحة، التي لا تُناسِب زِيَّهم الديني، خصوصاً العِمَامَة، والمعطف، بكلام والدي، وفي الوقت ذاته، أراد تبريد الأجواء: «يا حضرة بروفيسور عازار المحترم، الشيوخ والفلسطينيُّون لديهم كلُّ المبرِّرات لمخاوفهم، انظرْ إلى الجبل هناك، مقبرة اليهود هذه هي أرض وقف إسلامي، لقد أذن المسلمون لليهود باستعمالها لقاء أجر معيَّن،

يدفعونه في كلِّ سنة لمتولِّي الوقف، لقد اطّلعتُ في سجلَّات المحكمة الشرعيَّة بالقُدْس على سجلٍّ، وقَّعه القاضي الشرعيّ، وجاء فيه أن ممثِّل الطائفة اليهوديَّة نقد أصحاب الوقف، بحضور القاضي، 200 دينار ذهباً، مقابل استخدام طائفة اليهود أرض الوقف لدفن موتاهم، وذلك عن عامَي 968 و969 هـ أي 1560 و1561م، ولكن أرض الوقف كما ترى لم تعد للْمسلمين حتَّى الآن، تُسمعوننا الكلام المعسول، وتُطلقون الوعود، ولكنها تختفي، كالغزلان الشاردة عند التطبيق».

أطلق عازار، وعلى غير المتوقَّع، قهقهة، ثمَّ تمالك نفسه: «يا أُستاذ عارف، أنا أعرف بأنكَ مطَّلع عارف ومثقَّف، أيَّة أرض وقفيَّة تتحدَّث عنها، وهذه الأرض كُلُّها منحها الربُّ لشعبه المختار؟! لم يفعل الربُّ في الحرب الأخيرة غير أنه صحَّحَ خطأه، وكما تعلم وأنتَ مؤرِّخ، بأن الربَّ لطالما تراجع عن قرارات، وصحَّح ما يجب أن يُصحَّح، ومنحنا ما لم نحقِّقه في عام 1948م، وليتنا مثل الربِّ نراجع أنفسنا كلّ فترة وأخرى، ونصحِّح أخطاءنا.

تقول لي أرض وقف؟ لو خرج اليهود من قبورهم لقالوا لكَ ماذا وجدوا في باطنها، ولمَنْ تعود، ليت الربَّ يطيل في عُمُري وعُمُركَ، حتَّى يوم الدَّيْنونَة، حتَّى نرى كيف ستنهض الجموع من قبورها، متَّجهة نحونا، إلى جبل الهيكل خلف هذا السُّور، لتصعد للسماء، إلى الربِّ الذي سنكتشف حقيقته عندها، وانحيازه لشعبه المختار. الربُّ أيضاً له انحيازاته، ليست كلُّ مخلوقاته سواء».

تذمَّر الشيوخ ممَّا اعتبروه تطاولاً من عازار على الذات الإلهيَّة، واستبدَّ الغضب بوالدي، أمَّا الأُستاذ عارف، فقال: «الربُّ ليس له علاقة بكلِّ ما قلتَهُ، إنها الدبَّابة التي تمكَّنت من سَحْقنا عام النكبة، وها هي تُكرِّرها عام النكسة، ولكنها لا تدوم، يا بروفيسور عازار، وأنتَ تعلم ذلك، أو عليكَ أن تعلم ذلك، لو دامتْ لغيركم لما وضعتُم يدكم عليها».

وذكَّر بالسلطات التي توالت على فلسطين خلال سبعين عاماً، من العثمانيِّيْن، إلى الإنجليز، والمصريِّيْن، والأردنيِّيْن، والآن الإسرائيليِّيْن، وقال: «بلادنا تُغيِّر حكَّامها، كما تُغيِّر أنتَ جرابين قدمَيْكَ كلّ يوم».

تحمَّس الأُستاذ عارف ليُكمِل: «وأكثر من ذلك منذ 1400 عام، والبلاد ما إن يحتلّها محتلٌّ، حتَّى يحتلَّها منه محتلٌّ آخر، وكلُّهم من جماعتنا المسلمين، أو الصليبيِّيْن، وكنتُم أنتم دائماً، مثلما نحن شعب البلاد، ندفع أثماناً باهظة».

عبَّر الشيوخ عن عدم رضاهم، من حديث الأُستاذ عارف، وتدخَّل الشيخ حسن ليقول همساً للأُستاذ عارف: «اختصرْ، هذا ليس وقت نشر غسيلنا».

مع وصول النقاش إلى هذه النقطة الحرجة، ظهر ما بدَّد جموحها، عندما انتبهنا جميعاً، لأستير وهي تطلُّ من أحد الخنادق، وتصرخ باتِّجاه جَدِّها، الذي اندفع نحوها.

قال الأُستاذ عارف لصحبه، مترجماً ما قالتْهُ أستير بالعبريَّة: «إنها تصرخ، جَدَّتي .. جَدَّتي».

لحقنا بالبروفيسور عازار، وعندما وصلنا الخندق، كان قد تناول من حفيدته تمثالاً صغيراً، يمثِّل وجه امرأة، عثر عليه العمَّال الذين يحفرون في الخندق.

عرض عازار الوجه للأُستاذ عارف متسائلاً: «هل يمكن أن يكون هذا وجه امرأة يهوديَّة؟».

تَفَحَّص الأُستاذ عارف الوجه، وقال: «لا أظنُّ ذلك، إنه على الأغلب وجه امرأة يونانيَّة، أو رومانيَّة، ذات ثقافة هِيْلِّنِسْتِيَّة».

وافق البروفيسور عازار على كلام الأُستاذ عارف، وطلب من العمَّال وضع الوجه في المخزن، لتتمَّ دراسته لاحقاً.

الواحد والأربعون

توجَّب عليَّ أن أسأل والدي عدَّة أسئلة، تتصارع في مُخِّي الصغير، عن قِرْبة الدم، والهلِّنِسْتيِّة، وغيرها، فوجدت نفسها تُحشَر في رأسي، الذي لم يكن مستعدَّاً لذلك، وتساءلتُ إذا كان رأس أستير أيضاً كان مستعدَّاً لذلك أم أنها كانت تعرف وتُدرك أكثر منِّي؟

ولكنني اكتشفتُ وسط كلِّ ذلك الصخب المتلاطم، الذي اقتحمَني مرَّة واحدة، ولم يتركني، أن ما يشغلني هي أستير، بجديلتَيْها ووجهها الدائري والكلام الذي قالته لي ولم أفهمه، وأيضاً كيف يمكن أن يكون داود نبيَّاً، وابنه سليمان نبيَّاً، وسألتُ والدي ونحن نتَّجه نحو المَرْكَبَة عن العائلات التي تتوارث النبوَّة، وكيف يتمُّ ذلك؟ ولماذا؟ أليس من الواجب أن تذهب النبوَّة للشخص الأفضل، بغضِّ النظر عن نسبه؟

ضحك والدي، وقال: «في شرقنا، يا بُنيَّ. المَلِكُ يرث المُلْكَ عن أبيه، ويُورِّثُهُ لابنه، والمختار كذلك، والأنبياء أيضاً، وحتَّى أولياء الله الصالحين، فابن الشيخ يصبح شيخاً ووَليَّاً، هكذا تسير أمور دنيانا في هذه البُقعة من العالم، وأنتَ ستصبح سائقاً في المُصْرَارَة، مثل أبيكَ، إن لم تقرِّر أن تغيِّر قَدَرَكَ،وعليكَ بالطبع أن تصبح شيئاً آخر مختلفاً، لهذا تذهب إلى المدرسة التي لا تحبُّها، ولهذا أشقى في العمل، لأوفِّر لكَ التعليم الأفضل، ولتدخل أفضل الجامعات، وتتعلَّم من العلوم أفضلها».

أضاف: «في القُدْس ظهرت عائلات كثيرة تتوارث النبوَّة، وفي يوم واحد قتل اليهود سبعينَ نبيَّاً في القُدْس».

سألتُهُ: «متى حدث ذلك؟»

أجاب: «منذ زمن بعيد».

سألتُهُ مرَّة أخرى: «كيف عرفتَ؟».

ضحك قائلاً: «عرفتُ بأنكَ ستسألني أيُّها المشاغب، عليكَ دائماً أن تسأل، عموماً هذا ما ذكره فقيه مسلم قبل أكثر من خمسة قرون، ولا أعلم كيف علم، أعتقد أن سبعين نبيَّاً عدد كبير، ولكنَّ المتديِّنين يعتقدون بعكس ذلك، ويقولون بأنه في زمن النبي إلياس الذي رأيتَ سابقاً دَيْره وُجِدَ عشرة آلاف نبيٍّ مرَّة واحدة».

واصل بعد برهة صمت: «طبعاً هذا كلام لا يُصدَّق، موجود بكثرة في كُتُب إسلاميَّة، والغريب أن جميع هؤلاء الأنبياء الذين يُفترَض أنهم جاؤوا ليَهْدُوا اليهود، يصبحون في هذه الكُتُب أنبياءَ مسلمين».

شعر والدي بأنه يُثقِل عليَّ، بكلامه ومعلومات، فاتَّخذ منحى جديداً: «ولكنْ، ليس كلُّ الأبناء يرثون مِهَن آبائهم، ألَا تذكر ما حدث مع أبي شلومو المنبوذ؟».

قلتُ: «مسكين (أبو شلومو)، ولكنه رأى أنه أحقُّ من أخيه بالملك والنبوَّة».

ردَّ والدي: «نعم، هذا صحيح، وملاحظتكَ في محلِّها، أنا سعيد لأنكَ تلاحظ، وتسأل، وتجادل».

عندما صَعِدْنا في المَرْكَبَة، واتَّجهنا نحو المُصْرَارَة أكمل والدي: «هل تعرف بأن والده النبي داود، لم يكن متسامحاً مع تمرُّده، ولاحقه إلى الأردن، حيث يوجد العمُّونيُّون؛ الشعب المستضعف الذي يدفع الجزْيَة له، وهناك مَدَّهُ العمُّونيُّون - خوفاً على الأرجح - بكلِّ ما يمكن أن تفكِّر به من

أطايب وضرورات، فتمتَّع جيش داود بالقمح، والشعير، والحنطة، والحمَّص المحمَّص، والسمن، والخراف المشويَّة، وجبن البقر، والفريكة، والفول، والعدس، والبصل، والثوم، والصحون الخزفيَّة، والقدور الفخاريَّة، والحمَام، والأرانب البرِّيَّة، والفرشات، ولكنَّ ما حدث، لاحقاً، أوجع قلب داود، فأبو شلومو وخلال القتال علِق شَعْره وهو يمتطي حصاناً بأغصان شجرة في غابات جِلْعَاد، فمات، وحزن عليه داود، فالأب هو الأب في النهاية، فأخذ يندبه ويرثيه: يا بُنيَّ أبشالوم، يا بُنيَّ، يا بُنيَّ أبشالوم، يا ليتني متُّ عوضاً عنكَ، يا أبشالوم ابني، يا بُنيَّ».

اعترضتُ على كلام والدي قائلاً: «ها أنتَ تُبلبلني مرَّة أخرى».

ضحك: «هذه ليست إلَّا البداية، يا مُبلبل، حكايات بلادنا متاهات، لا أعرف ماذا ستقول عندما تعرف أكثر عن أبشالوم وداود؟».

رجوتُهُ أن يحدِّثني أكثر عنهما، ولكنه أرجأ ذلك إلى أن أكبر قليلاً، وعندها فإنني، على الأرجح، لن أحتاج إليه، بل سأسعى لأعرف بنفسي - كما قال.

ولكنه لفت انتباهي إلى ما اعتبره تكراراً للتاريخ، والوقائع، والأساطير، فيما جرى مع داود قبل آلاف السنين وغزوه للأردن، يُذكِّر بما يفعله جيش الاحتلال في هذه الفترة، وملاحقته للفدائيِّيْن المتمرِّدين إلى شرق الأردن، وتنفيذ عمليَّات حربيَّة ضدَّهم، ولكنهم يقاومون، ولن يتمكَّنوا، مثلما تمكَّن داود، من هؤلاء الأبطال - قال والدي بحماسةٍ.

أصبح ترك والدي لي في المُصْرَارَة أمراً عاديَّاً، وعندما تمشَّيتُ نحو باب العَمُود، ووقفتُ أنظر إليه من بُعدٍ كافٍ، لأتأمَّله من شارع السلطان سليمان، كان أبو روحي المغربي في أثري وكأنه يراقبني، وهذه المرَّة قال لي: لن أجعلَكَ تملُّ في انتظار والدكَ.

أخبرني أبو روحي، عن شارع الأنبياء الذي يمتدُّ من باب العَمُود في القُدْس القديمة إلى القُدْس الجديدة، التي سيصبح اسمها بعد الاحتلال الأوَّل، القُدْس الغربيَّة، وأنه الشارع الوحيد الذي يُوحِّد القُدْس، مذكِّراً بحداثتها وامتدادها وتطوُّرها الذي أوقفتْهُ النكبة - كما قال أبو روحي، الذي أمسك بيدي، ومشينا من باب العَمُود مروراً بالمُصْرَارَة إلى الأحياء والمعالم المَقْدِسيَّة غرب البلدة القديمة؛ حيث المستشفى الإيطالي، ومنزل كونراد شيك، ومنزل الفنَّان هولمن هانت، وقصر الإمبراطوريَّة الإثيوبيَّة تايتو بيتول، والكنيسة الإثيوبيَّة، والمستشفيات المختلفة.

قال أبو روحي الذي لا تفارقه روح الحماسة أبداً: «عليكَ أن تعلم، بأن هذا الشارع شاهد على تطوُّر المدينة منذ منتصف القرن التاسع عشر، حيث أصبح العنوان

المفضَّل لإقامة المشافي، والقنصليَّات، والقصور والبيوت التي بناها الأثرياء، ومن أسماء الشارع، شارع القنصليَّات، لعدد القنصليَّات الأجنبيَّة الكبير فيه، وشارع المستشفيات لوجود عدد من أهمِّ المشافي فيه، وبرأيي بأنه أجمل شارع خارج البلدة القديمة».

سألتُ أبا روحي عن سبب التسمية، فأجاب: «عُرِفَ الشارع بشارع الأنبياء خلال الاحتلال البريطانيِّ، عندما أطلق رونالد ستورز حاكم القُدْس العسكريّ، هذا الاسم عليه، ولا يعرف أحد بالضبط سبب هذه التسمية، فالشارع يخلو من أيَّة إشارات حول الأنبياء، ولكنْ، يعتقد البعض أن السبب يعود لوقوع مسجد ومقام النبي عُكَاشَة، بالقرب من الشارع، وأن موقعه يقوم على قبور لأنبياء من عهودٍ سابقة».

سألتُ أبا روحي، إذا كان الأمر صحيحاً؟ وردَّ بسؤال وكأنه يستثقل سذاجتي: «مَنْ يعرف؟» ثمَّ تكلَّم بجدِيَّة أكثر: «مقام النبي عُكَاشَة، يقع

في الحيِّ الذي يحمل اسمه، وبقربه قُبَّة القيمريَّة المدفون فيها أمراء، كلُّ واحد منهم يُلقَّب بأبي الفوارس، أو بعضهم على الأقلّ، ولا يمكن القبول بأقلّ من نسبهم إلى عصر صلاح الدِّيْن الأيُّوبي، وأنهم من قادة جيشه في عهد الاحتلال البريطاني، ولم تكن القُدْس كما هي الآن تعاني من التقسيم، والاستحواذ، فكان الناس يذهبون إلى النبي عُكَاشَة، راجين شفاعته، ويُنذرون، وحدَّثتْني والدتي عن جارة لها، ذهبت إلى المقام، طالبة العون لإخراج ابنها من سجن الإنجليز الظالمين، وطلبتْ من شيخ متخصِّص أن يكتب لها ما يفيد، إذا خرج ابنها من السجن، فستجلب للمقام وقيَّة من زيت الزيتون الصافي، ولا نعرف إذا كان اعتراض عُكَاشَة على كمِّيَّة الزيت المنذور أم أن ظلم الإنجليز هو مَنْ أبقى ابن جارتنا خديجة في السجن، ولم يعد أبداً، ولم تعرف أخباره، ولم يرق للعصابات الصهيونية وجود مقام فيما اعتبروه منطقة يهوديَّة، ففجَّروا المقام، ولكنه صمد، وانقطع الأذان فيه، وحوَّل اليهود الآن ساحته إلى روضة أطفال».

- وهل يوجد نبيٌّ اسمه عُكَاشَة؟

ضحك أبو روحي:

– على الأغلب لا، ويقال بأنه يُنسَب لصحابيٍّ، لم يعش أو يمت في القُدْس، ولكنه ظهر لواحدٍ من القُدْس كان يصلِّي في الموقع، وطلب منه الصحابيّ بأدبٍ شديد أن يبنيَ له مقاماً ومسجداً، لأنه وهو صحابيّ جليل، من صحابة المصطفى يعتقد بأنه لا يشعر بالاكتمال دون أن تكون له علاقة بمَسْرى النبي.

وأكمل أبو روحي، وكأنه عاد وتذكَّر سؤالي: «تسألني إذا كان عُكَاشَة نبيَّاً؟ في الواقع هذا ليس مُهمَّاً في القُدْس وما حولها، حيث يمكن أن

يكون صموئيل نبيَّاً، وغيث نبيَّاً، وحنظل نبيَّاً، وحتَّى كامل كذلك. إنهم رجال صالحون، أحبَّهم الناس، فجعلوهم أنبياء.

- وهل يستطيع الناس اختيار الأنبياء أم هي وظيفة الله؟

– يا مشاكس، سؤالكَ يحمل إجابتكَ، من ناحية منطقيَّة بالطبع لا، ولكنْ، في الدِّيْن الشعبي، كلُّ ما هو غير منطقي يغدو منطقيَّاً.

- وما هو الدِّيْن الشعبي؟

– وبعدين معك؟ اختصِرِ الأسئلة، ستكبر وتعلم، وتعرف.

متى سأكبر؟! يا إلهي متى سأكبر، وأعرف، وأتعلَّم، وأعلمْ؟

الثاني والأربعون

وصلنا إلى مفترقٍ يؤدِّي إلى طرقةٍ صغيرةٍ، تشير إلى منزل بن يهودا، الذي سأعرف بأنه مخترع اللغة العبريَّة الحديثة كما قال أبو روحي وهو يبتسم، ثمَّ استدرك: «لم يخترعها بمعنى الاختراع، ولكنه ساهم في بعثها وتحديثها، يُجلُّه اليهود كثيراً».

ولكنَّ أبا روحي الذي قادني إلى الطرقة لم يقصد منزل اليهوديِّ المبجَّل، وإنما ما سمَّاها جزيرة إثيوبيَّة في القُدْس، قال لي: انظرْ، فنظرتُ إلى الأعلى، لأرى في الأفق قُبَّة كبيرة ملفتة للنظر، تستقرُّ على كنيسة دائريَّة، هي الكنيسة الإثيوبيَّة، وعندما ولجنا الباب الرئيس، رأيتُ مساكن للرهبان والراهبات، شُيِّدت قديماً حول الكنيسة، التي يحدُّها سور.

ذكَّرتْني الكنيسة، بقُبَّة الصخرة، ربمَّا لشكلها الدائريِّ، تجمَّع عددٌ من السيَّاح في الجانب الشماليِّ الخارجيِّ للكنيسة، وطلب منِّي أبو روحي أن نقترب منهم، لنسمع ما يقوله دليل سياحي يرافقهم.

قال أبو روحي، مترجماً ما يقوله الدليل: «هذه الكنيسة التي تستقطب السيَّاح والحجَّاج، تؤشِّر على الوجود التاريخيِّ للجالية الإثيوبيَّة في القُدْس، يعتقد الإثيوبيُّون المسيحيُّون، بأنهم يتحدَّرون من سلالة ملكة سبأ التي يعتقدون بأنها إحدى ملكاتهم، والملك سليمان، وأن ارتباطهم بالأرض المقدَّسة قديم جدَّاً».

يحضر الملك سليمان هنا أيضاً، وليس هو فقط، فملوك آخرون يحضرون، ويعلو الباب الرئيس للكنيسة نقش بلغة جيز ينصُّ: «انتصر

الأسد من سبط يهوذا» وهو تخليد لإمبراطور إثيوبيا منليك الثاني والتاريخ 1889م.

وفي باحة الكنيسة انتشر رجال الدِّيْن بثيابهم السوداء والنساء بأرديتهنَّ البيضاء، وفوجئتُ برؤية امرأة مجلَّلة بالأبيض، تسجد بخشوع على الطريقة الإسلاميَّة أمام أحد جدران الكنيسة.

قال أبو روحي: «شرقيُّون مثلنا، نسجد، ويسجدون، الأديان والعادات تتشابه، وتتثاقف، ولكن أكثرنا وأكثرهم لا يعلمون».

للكنيسة الإثيوبيَّة مدخلان: واحد للرجال والآخر للنساء، ويستلزم الدخول إليها، مثل الدخول إلى المساجد خلع الحذاء، وهو كما قال أحد الرهبان لنا من العادات الإثيوبيَّة، وداخل الكنيسة رأينا المؤمنين وهم يُصلُّون وقوفاً أو سُجَّداً.

قال أبو روحي: «كما قلتُ، يُشبهوننا كثيراً».

في وسط الكنيسة يقع ما يُسمَّى قدس الأقداس الذي يدخله فقط الكَهَنَة، ويوجد فيه مجسَّم لتابوت العهد، وأعلاه، يوجد نقش باللغة العربيَّة، يشير إلى البدء في بناء هذه الكنيسة على اسم السيِّدة مريم العذراء، على يد ملك ملوك الحبش يوحنَّا (يوهانس) سنة 1874م، وبلغ ما صرف عليها 4000 ليرة، وبعد وفاته عُمِّرَت من قِبَل ملك ملوك الحبش منليك الثاني عام 1885م، وصرف عليها أيضاً 4000 ليرة.

أخرج أبو روحي قلماً وورقة، وأملى عليَّ، وهو يتتبَّع ما نُقِش على قدس الأقداس، قائلاً: «عليكَ أن تحتفظ بهذا، إنه تاريخ، ومَنْ يدري، ربَّما تتغيَّر الأمور، وتُقسَّم القُدْس، وقد لا نستطيع الوصول إلى هنا مرَّة أخرى».

وسط صخب القُدْس، كما قال أبو روحي، تعتبر الكنيسة الإثيوبيَّة جزيرة ساحرة من الهدوء، وشعار مجتمعها الأسد، تأكيداً لانحدار المسيحيِّيْن

الإثيوبيِّيْن من ملكة سبأ والملك سليمان، الذي قدَّم لها لافتة، تُصوِّر أسد يهوذا عندما زارت القُدْس، وَفْقَاً لسِفْر الملوك.

وطلب أبو روحي منِّي أن أُلاحظ ما تتميَّز به الكنيسة من أيقونات، وجداريَّات لقدِّيسي الكنيسة، ولمريم العذراء والطفل يسوع، اللذَيْن يجسِّدان كإفريقيَّيْن، مثل مريم التشاديَّة، ولكنني لاحظتُ أيضاً الاحتفاء ببعض الألوان البارزة بشكل لافت مثل الورديّ والأزرق.

أردتُ أن أسأل أبا روحي عن مريم العذراء وطفلها الأسود، ولكنه، وكأنه عرف ما سأسأل عنه، فطلب منِّي الالتزام بالصمت داخل الكنيسة حفاظاً على الوقار.

وعندما خرجنا قال أبو روحي: «عليكَ تعلُّم فضيلة الصبر، تعال لنجلس»، وجلسنا على مقعد قُبالة الكنيسة، ليشرح لي ما غلق عليَّ، بلغةٍ فوق مستوى الطفل الذي كُنْتُه، ولكن أبا روحي أصرَّ كما يبدو على استعراض ما يَعْرِفُ أمامي، ربمَّا لإبهاري، أو لإفادتي، أو كلَيْهما معاً: «تُعتبر الكنيسة الإثيوبيَّة، إحدى الكنائس الشرقيَّة غير الخَلْقِيْدُونِيَّة، وتتميَّز بمحافظتها على بعض العادات التي يُعتقَد بأنها من تأثير اليهوديَّة، وأظنُّ أن هذا التأثُّر سببه، أن المسيحيَّة دخلت إثيوبيا مباشرة من فلسطين، ولإيمان أبناء الكنيسة وعددهم يصل إلى نحو خمسين مليوناً منتشرين في مختلف دول العالم، بأنهم من نسل ملكة سبأ، والملك سليمان في تقليد الكنيسة الإثيوبيَّة أن ملكة سبأ عادت حاملاً من القُدْس، وأن ابنها هو منليك الأوَّل، أوَّل إمبراطور أسطوري لإثيوبيا».

لم يمنع أبو روحي نفسه من الابتسام، وأراد أن يعلِّق، كما توقَّعتُ، على حمل الملكة سبأ من الملك سليمان، إلَّا أنه تراجع، لعلَّه تذكَّر بأنني ما زلتُ في سنٍّ لا تحتمل تعليقات ذات طابع رجولي.

رأينا برهومَ يتقدَّم نحونا وهو من الإثيوبيِّيْن الذين يخدمون في دير

السلطان فوق كنيسة القيامة، ويسكن في المُصْرَارَة، قُبالة الموقف، في منزلٍ ما زالت آثار الرصاص على حجارته، تذكاراً لحروب النكبة والنكسة وما بينهما من مناوشات، عمل برهوم سمساراً في موقف المُصْرَارَة، قبل أن يزاحمه على الوظيفة أبو العبس، ويحلَّ مكانه وهو، مثل آخرين من أهالي المُصْرَارَة، من الشهود على الدماء التي سُفكت في المنطقة خلال الحرب الأخيرة، ومثل باقي الناس في القُدْس الشرقيَّة، لم يتمكَّن من الوصول إلى القُدْس الجديدة، والكنيسة الإثيوبيَّة، منذ تقسيم القُدْسَيْن.

رَحَّب أبو روحي ببرهوم الطويل نسبيَّاً الأصلع، الذي يرتدي ألواناً برَّاقة، ويتحدَّث العربيَّة، باللهجة المَقْدِسِيَّة، تخرج نصف الحروف من أنفه، كما خمَّنتُ.

سأل أبو روحي، عن التواصل بين إثيوبيِّي القُدْسَيْن بعد الحرب، وأوضاعهم المعيشيَّة، فتمتم برهوم بعبارات رضا، وقال: «الحمد لله، أستطيع الآن أن آتيَ إلى كنيستنا هنا، وإذا انسحبت إسرائيل من المناطق التي احتلَّتْها، سأحاول البقاء هنا، زهقت من المُصْرَارَة، والسكن على خطِّ النار».

قال أبو روحي، بأن الانسحاب يبدو بعيداً، وإن كثرة الحلول السياسيَّة التي يطرحها المحتلُّون، كالحكم الذاتي، والإدارة المدنيَّة، تعبِّر عن مأزقٍ، خصوصاً وإن رجال الملك الذين يفاوضهم جنرالات الاحتلال، ولديهم الرغبة في التساوق مع هذه الحلول يتراجعون، بعد إبداء أيَّة موافقة، خشية من الرأي العامِّ المحليِّ الغاضب منهم ومن الاحتلال.

وأضاف، بأن الدول العربيَّة، ليست في وضع يُمكِّنها من تحرير البلاد وهزيمة إسرائيل، هذا إذا أرادت فعلاً، ولذا فعلى برهوم أن يضع قدمَيْه في ماءٍ باردٍ، فالاحتلال باقٍ، حتَّى تهزمه حركة الفدائيِّيْن، والتحرُّك الشعبيّ داخل البلاد.

قال برهوم ضاحكاً، بأنه سيعتبر كلام أبي روحي وعداً ببقاء الوضع في القُدْس، على حاله، وإذا حدث ما يخدش ذلك، فعليه أن يتحمَّل المسؤوليَّة كاملة، ويكون مستعدَّاً عن تعويض إثيوبي وُلِدَ في المدينة المقدَّسة، ونشأ فيها.

ردَّ أبو روحي: «ابشرْ، رقبتي سدَّادة، يا ليت العرب يخيِّبوا أملي، ويغيِّروا الوضع، وأنا جاهز لتقديم أيِّ تعويض تريده، ليس لكَ فقط، وإنما لكلِّ الإثيوبيِّيْن في العالم».

وأردف: «ولكنْ، الآن، عليكَ أنتَ الآن، أن تشرح لي ولهذا الولد المنبهر بالكنيسة التي تشبه قُبَّتنا الصفراء، عنكم».

الثالث والأربعون

قال برهوم: «حاضر، ابشرْ أنتَ وصاحبنا الولد ابن صاحبنا يوسف، من أين أبدأ؟ حسناً، يشعر أتباع هذه الكنيسة بالاعتزاز، لوجودهم في الأرض المقدَّسة، رغم التحوُّلات الكبيرة التي شهدتْها البلاد، خلال آلاف الأعوام، ولتعرُّضهم للملاحقة في بعض الحقب التاريخيَّة، حتَّى في بلادهم، وتتوفَّر بعض المدوَّنات التاريخيَّة عن الوجود الإثيوبي القديم في القُدْس، فبعد الفتح الإسلامي عام 636م، أصدر الخليفة عمر بن الخطَّاب فرماناً، حدَّد فيه حقوق المسيحيِّيْن في القُدْس، من بينها حقوق الكنيسة الإثيوبيَّة. وكتب الحجَّاج في القرون الوسطى عن الوجود الإثيوبي في القُدْس، مثل الراهب الدومينيكاني بوركاردوس دي مونتي سيون، الذي كتب سنة 1283م، عن عادات الإثيوبيِّيْن وتقواهم. وفي عام 1347م كتب الراهب الفرنسيسكاني نيكولو دا بوجيبونسي، عن وجود الإثيوبيِّيْن في كنيسةٍ صغيرةٍ على اسم السيِّدة مريم في كنيسة القيامة، فهذه المعلومات وغيرها موجودة في كُتُب أصدرناها، وتُباع في ذلك الكُشْك»، مشيراً إلى كُشْك خشبيٍّ، تظهر فيه من خلف الشُّبَّاك صبيَّة سمراء، تضع خِرْقَة بيضاء طويلة على رأسها، كباقي الإثيوبيَّات.

قال أبو روحي: «لا نريد أن نشتريَ كُتُباً، فنحن من أُمَّة اقرأ التي لا تقرأ، نريد أن تُريحَنا وتُحدِّثَنا عن ما تحويه كُتُبُكُم».

تحدَّث برهوم عن ثراء الكنيسة الإثيوبيَّة بالقُدْس في زمنٍ ما، وعن تقهقرها وفقرها الحالي: «في العام 1838م عندما ضرب الطاعونُ القُدْس

قُتل جميع الرهبان الإثيوبيِّيْن، وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر، بدأ وضع الكنيسة الإثيوبيَّة بالتحسُّن في الأرض المقدَّسة، ويعود ذلك، إلى حدٍّ كبير، لتغيُّر الأوضاع في إثيوبيا نفسها التي وصل إلى السلطة فيها ملوك، وحَّدوا البلاد تحت إدارة مركزيَّة واحدة، وعندما وصل الإمبراطور يوهانس للعرش سعى لتحسين وضع الكنيسة الإثيوبيَّة في الأرض المقدَّسة. كانت الكنيسة الإثيوبيَّة تابعة للكنيسة القبطيَّة في مصر، ولكنها استقلَّت عنها عام 1948م، بعد عدَّة عقود من الجهود، خاصَّة من جانب الإمبراطور هِيْلَاسِيْلَاسِي، ونحن الآن في صراع مع الأقباط على دير السلطان كما تعلمان».

أنا لم أكن أعلم، ولكنَّ أبا روحي يعلم، فجادل متعاطفاً مع الأقباط، ولكنَّ برهوم قال له: بأن حقوق الإثيوبيِّيْن معروفة وموثَّقة في دير السلطان، وبأنه سيُزوِّده بالوثائق التي تُثبت ذلك. عبَّر أبو روحي عن أسفه لمثل هذا الخلاف بين كنيسَتَيْن شقيقَتَيْن، كانتا كنيسة واحدة.

قال برهوم: «أنتم العرب في فلسطين، تتعاطفون مع الأقباط لأسبابٍ قوميَّة، ولحُبِّكم لمصر، ولكنْ، عليكم أن تكونوا عادلين».

ويبدو أنه لم يرغب في استعار نقاش مع أبي روحي، فأكمل متحدِّثاً عن الإثيوبيِّيْن: «من العادات التي تمارسها كنيستنا هو ختان الذكور بعد ثمانية أيَّام، ويوم السبت هو اليوم المقدَّس الثاني، ولا يقلُّ أهمِّيَّة عن يوم الأحد، وتحرص الكنيسة على تقاليد الرقص والعزف على الطبول الإفريقيَّة الكبيرة في طقوس القداديس الإثيوبيَّة، ويعيده البعض جزئيَّاً إلى ما ذكره العهد القديم عن رقص الملك داود أمام تابوت العهد».

قال أبو روحي: «تختنون؟ مثلنا تماماً، عليكَ أن تكشف لنا يا برهوم عن حمامتكَ لنتأكَّد».

ضحك برهوم وهو يقول: «أنا جاهز، ولكنْ، انظر للرجال والنساء حولنا، سيَعدُّونَني، لو فعلتُ مجنوناً، ولضُربت بالأحذية».

وقال:»نحن مثلكم كما تقول، وليسوا مثلكم، فرغم شرقيَّة الكنيسة الإثيوبيَّة، ووجودها في مجتمعٍ شرقيّ، لكنَّ أعضاءها ليسوا مثلي، فهم لا ينخرطون كثيراً في المجتمع المحليِّ، ويتحدَّثون فيما بينهم بالأمهريَّة، وكثير من الرهبان لا يجيدون العربيَّة ولا العبريَّة، بل ولا أيَّ لغة أخرى، عموماً يعيش الرهبان حياةً بسيطةً ومنظَّمةً للغاية، ويتناولون وجبات طعام مشتركة، وحياتهم كلُّها تدور حول خدمات الصلاة والأعياد، ويشاركون في خدمات الصلاة التي تُعقد مرَّتَيْن يوميَّاً بين الساعة الرابعة والسادسة صباحاً، وبين الرابعة والخامسة مساءً، وتشمل الخدمات فترات طويلة من الوقوف، ويستخدم الرهبان عصيَّاً طويلة للمساعدة على الوقوف، وهي تشبه التي تُستخدَم من قِبَل الرعاة في إثيوبيا، وهم يرعون قطعانهم».

ابتسم أبو روحي، معبِّراً عن دهشته من معلومات، يبدو أنه يسمعها مثلي، لأوَّل مرَّة، وترك حبل الكلام لبرهوم يشدُّه من جديد: «يتميَّز أتباع الكنيسة الإثيوبيَّة بما يقدِّمونه في الأعياد مثل عيد الفصح في القُدْس، وعيد الميلاد في بَيْت لَحْم، حيث يستخدمون الطبول الإفريقيَّة والرقص في هذه الاحتفالات، ولعلَّكما رأيتُما داخل الكنيسة هذه الطبول على المقاعد تنتظر استخدامها».

أضاف برهوم متحمِّساً: «الحاجُّ الألماني برنهارد وصف احتفالات الفصح عام 1502م، وروى كيف يتجمَّع الرجال والنساء في حلقاتٍ، يرقصون ويُصفِّقون، ويُغنُّون حتَّى الفجر. لنا جذور، في هذه المدينة، مثلكم تماماً»، مقلِّداً في جملته الأخيرة طريقة لفظها من قِبَل أبي روحي، فضحكنا.

قال برهوم: «اسمعا، عليكما أن تعرفا المزيد خارج خدمات الصلوات

العامَّة، حيث ينقطع الرهبان والراهبات إلى الممارسات الروحيَّة الخاصَّة، فالصلوات الخاصَّة جزء مهمٌّ جدَّاً من الحياة الرهبانيَّة في الكنيسة الإثيوبيَّة، في حين يفضِّل البعض الآخر قضاء وقتهم في الدراسة، ونعرف عن واحد أو اثنَيْن من الرهبان، اللذَيْن انسحبا من عالم الجماعة، وانقطعا إلى التنسُّك الفردي، والأكثر شهرة راهب تُوفيِّ بعد أيَّام من الحرب الأخيرة، يقال بأنه لم يتكلَّم لمدَّة 30 سنة، وإذا طُلب منه شيء يردُّ كتابة. واعتُبر قدِّيساً».

عبَّر أبو روحي عن رضاه: «الصمت في أحيانٍ كثيرةٍ، من ذهبٍ، مَنْ يصمت كلّ هذه المدينة، ويكبح رغبته في الثرثرة، لا شكَّ بأنه قدِّيس».

ورأى أبو روحي رحيل القدِّيس الصامت بعد الاحتلال الأخير رمزاً ما، ولكنَّ برهوم قلَّل من ذلك، قائلاً: «لقد وصل نهاية الرحلة، فمات، هذا ما حدث ببساطة».

بينما كان الحديث يدور بيننا، أرخيتُ عينَيَّ تجولان في فناء الكنيسة المحاط بأشجار السرو الشاهقة وأشجار الزيتون القديمة، ويسير الرجال في عباءات سوداء، والنساء في أردية بيضاء أو سوداء، يتدفَّقون بشكل يكاد يكون غير محسوس، لا يقطع الهدوء سوى أصوات الطيور، وحديثنا.

قال برهوم وقد لاحظ ما يشغلني: «الهدوء يستمرُّ حتَّى مواعيد الغذاء، ثمَّ يبدأ، ببطء، تجمُّع الرجال والنساء، الذين يُحيُّون بعضهم بعضاً، وهم يجتمعون لتناول وجبة طعام مشتركة».

أضاف: «نأمل أن يجتذب الحجُّ إلى القُدْس المزيد من الناس من إثيوبيا، ولكنَّ المجتمع الإثيوبي فيها ما زال ضعيفاً، يناضل من أجل الاستمرار في الحفاظ على هُويَّته، وتوجد مدرسة صغيرة، توفِّر تعليماً باللغة الأمهريَّة، وتُدرِّس تقاليد المجتمع والكنيسة في إثيوبيا، أمَّا رهبان الكنيسة

الإثيوبيَّة، فيعيشون كما كانوا منذ عشرات السنين على جزيرة، حيث تتغيَّر حيواتهم ببطء شديد، وهذه الجزيرة صُنعت أساساً من الإيمان، وبدرجات وافرة من الرضا، ونادراً ما يُقطَع هدوء هذه الجزيرة، مثلما حدث قبل عشر سنوات، عندما صُوِّرَت في باحة الكنيسة مشاهد من فيلم الخروج الذي أنتجتْهُ هوليود للنجم بول نيومان، الذي مثَّل فيه دَوْر اليهوديَّ المقاتل الذي لا يُقهَر من أجل الحرِّيَّة، ضدَّ العرب الهَمَج ..!، وسامحونا». قالها برهوم، وهو يضحك، ونحن نضحك.

ودَّعنا برهوم، وعدنا إلى المُصْرَارَة، وانشغل أبو روحي في العتالة، ومشيتُ نحو السور، وعندما وقفتُ في ذلك اليوم مرَّة أخرى أنظر إلى باب العَمُود، فكانت التقلُّبات السياسيَّة تظهر على شارع الأنبياء، ففي القسم المحتلِّ بالحرب الأخيرة، رأيتُ الوجود العسكري الاحتلالي المكثَّف، وممارساته في باب العَمُود والمُصْرَارَة، كالحواجز الطيَّارة، وإيقاف الناس وتفتيشهم، وأحياناً اعتقالهم، أمَّا في القسم الواقع بالقُدْس الجديدة، فيظهر الشارع وكأنه جزءٌ من مدينةٍ أوروبيَّة، تستند خاصرتها على ما في الشارع من معالم قديمة.

الرابع والأربعون

عزمتُ على أَخْذ لُور في جولةٍ على شارع الأنبياء، وهو ما فعلتُهُ في اليوم التالي متحمِّساً، ومتشجِّعاً.

من أين تأتيني الحماسة والشجاعة فجأة؟ ولماذا تغيبان عنِّي في بعض الأحيان؟

ذهبتُ إلى متحف روكفلر، ودلفتُ من الباب الرئيس باتِّجاه قصر الشيخ، بعد أن أخبرتُ الحارس على مدخل المتحف ببغيتي، فلم يطلب منِّي ثمن تذكرة، رأيتُ أبا نقولا خارج القصر، فسلَّمتُ عليه، ورحَّب بوجودي، وسأل عن والدي، فأخبرتُهُ، بأنه لا شكَّ يعمل الآن على مَرْكَبَته، وينقل الأغراض إلى أحياء المدينة المقدَّسة بشرقها وغربها، وهذا ما افترضتُهُ، لأنه عَمِلَهُ متجاهلاً، إذا كان فعلاً يلتزم به أم أن راق له قضاء الأوقات مع مريم الإفريقيَّة.

قال أبو نقولا:

- الحمد لله أن الأمور بدأت تسير بقَدْرٍ أقلّ من المشكلات، وأتمنَّى أن تظلَّ كذلك، وأدعوَ الله دائماً أن يحميَكم ويحميَ جميع الشباب الذين يركِّز عليهم الإسرائيليُّون أكثر من غيرهم، وكأنهم يريدوننا بدون شباب.

لم أتفاعل كثيراً مع كلام أبي نقولا ودعواته وتمنِّياته، فأنا لم آتِ إلى هنا من أجل ذلك، وفي أوَّل فرصة، صَمَتَ فيها أبو نقولا، وظهرت فيها لُور أمام القصر، طلبتُ أن تأتيَ معي، وأذن لها جَدُّها، وهو يوصيها عليَّ،

باعتبارها الأكبر والأنضج والأكثر فهماً، وهو ما أوافقه عليه، ما دامت ستكون بصحبتي، وقال:

- لا أريد أن أخسر أيًّاً منكما، يكفينا خسارة جورج ..!

أعرف أن جورج الذي ذكره أبْو نقولا، هو ابنه، ووالد لُور، وأعلم بأنه قضى خلال الحرب، ولم أجرؤ، ولا أعرف لماذا على سؤال لُور عنه، وعلى الأرجح كنتُ أتجنَّب إثارة المشاعر التي بدت أكبر منِّي ومن طاقتي، وهي من جانبها لم تكن تريد أن تُعمِّم أحزانها، وتُشرِكني فيها، أنا الطفل الغِرّ، رغم صداقتنا.

ويبدو أن أبا نقولا في تلك اللحظات كان في مناخٍ يدفعه للحديث، وتفريغ الكلام، الذي إذا بقي فترة زائدة عن اللزوم محبوساً، فإنه يفجِّر صاحبه.

قال أبو نقولا: «عندما بدأت نُذُر الحرب، انقبض مزاج جورج، وهو في نصف جبيل مع زوجته، بينما أنا ولُور التي أتت قبل أيَّام فقط، بعد انتهاء العام الدراسي، وما إن بدأت المعارك، وأخبار الهزائم المتواترة، حتَّى أقدم على ما قرَّره، فانطلق إلى نابلس ومنها إلى القُدْس، وبالقرب من النبي يعقوب، أوقف الجنود الحافلة، وأنزلوا مَنْ فيها، وأجبروا ركَّابها، من أمثال جورج الذين اضطُرَّتهم ظروف قاهرة للتنقُّل في زمن الحرب على الوقوف ووجوههم على حديد الحافلة، بحيث لا يرون ما يُخطِّط الجنود لفعله بهم، وبعد مرور خمس دقائق، من تفتيشهم وتوجيه الإهانات والركلات لهم، تقدَّم ضابط، وطلب من جورج وشابٍّ آخر اسمه أحمد، أن يلتفتوا، ويديروا وجوههم نحو الجنود، وما إن فعلا، حتَّى ضربهما على وجهَيْهما وهو يرطن بغضبٍ بالعبريَّة،

ثمَّ أمر ثلاثة من جنوده لأخذهم بعيداً عن الحافلة ورفاق سَفَرهم، وفي

البداية وضعوا جورج في مكانٍ بعد تغطية عينه، وأحمد في مكانٍ آخر، بحيث لا يعرف ماذا سيجري مع جورج، ولا يعرف ابني ما سيحدث مع أحمد، وبقيا على هذه الحالة مدَّة، تعرَّضا خلالها للضرب والركلِ على فترات، ومصادرة ما معهما من أموالٍ قليلة، ثمَّ وجدا أنفسهما يقفان بجانب بعضهما البعض، وخلفهما برِّيَّة ممتدَّة إلى أريحا. فتقدَّم أحد الجنود، وباعد بين أحمد وجورج المنهكَيْن من الضرب والجوع والانتظار والإهانات، بينما يضحك الجنود على أيِّ تصرف يفعله أحدهم في الأسيرَيْن، لقد جرَّبا فيهما أنواعاً عديدةً من التنكيل، من القرص، والوخز، وفرك الأذن، والضغط على الحَلَمَة، وسحبها بشدَّة، والضرب على المعدة، وهزِّ الرأس، وركل المؤخِّرة، ولسببٍ ما سحب الجنود جورج إلى بُعد أربعة أو خمسة أمتار عن أحمد، ووضعوا على رأسه تفَّاحة، وبدؤوا يتراهنون على مَنْ يصيبها ..».

لم أعرف في أيِّ جزء من القصَّة غادرتنا لُور إلى الداخل، ولكنني انتبهتُ إلى هذا عندما صمت أبو نقولا لحظات قبل أن يُكمِل: «بدأ أحمد يرتجف من الخوف، وهو يرى الطلقات تصيب وجه جورج، وعنقه، فيسقط، ويتواصل إطلاق النار، وسط ضحك المتراهنين، وينتظر أن يأتيه الدَّوْر، بل إنه تمنَّى لو أنهم بدؤوا به، حتَّى لا يشهد ما شهده، مقهوراً، مقيَّد اليدَيْن، عاجزاً، ومع استمرار رهان إطلاق النار على جُثَّة جورج، انهار أحمد، ولم يستيقظ إلَّا بوخزات قويَّة من رؤوس بنادق الجنود، الذين أوقفوه، وطلبوا منه حفر قبر خلال خمس دقائق، وعندما بدأ يحفر الأرض بيدَيْه، وهو يتألَّم جسديَّاً ومعنويَّاً، وقف جندي بالقرب منه وأخذ يعدُّ: واحد، اثنان، ثلاث، أربع، خمس .. انتهت الدقائق الخمس، ورفعه عن الأرض، وصفعه على وجهه وهو يقول له: لماذا لم تُنجِزْ ما كُلِّفْتَ به؟ لو فعلتَ ذلك في جيش الملك، لحاكموكَ محكمة عسكريَّة، ولكننا نحن

سنكتفي بإعطائكَ فرصة ثانية، ورماه على الأرض ليحفر قبر رجل لم يعرفه من قبل وشهد موته، لقد كان الأمر مؤلماً وعبثيّاً، فكيف سيحفر قبراً بيدَيْه، وبدلاً من أن يبكي حزناً على الحالة التي لم يتخيَّل، عندما غادر منزله بأنه سيجد نفسه فيها، ضحك، وضحك، وانتابتْهُ نوبات ضحك هستيريَّة، وبعد فترة لم يستطع أحمد تقديرها، وهو في أسوأ حالاته، حضر ضابط أعلى رتبة من الجنود، وطلب منهم أن يُوقِفوا أحمد الذي شعر بأنه ليس إلَّا جُثَّة حيَّة تنتظر مَنْ يدفنها، ثمَّ نظر إليه، وسأله بعربيَّة مكسَّرة حول ما شاهده، خاف أحمد من قول الحقيقة، ولكن تكرار السؤال من الضابط وتأكيده على أن أحمد يجب أن يقول الصدق، أجابه بأن جنوده قتلوا جورج وهم يضحكون ويلعبون ويسخرون ويتراهنون، فطلب منه أن يدير وجهه إلى البرِّيَّة، وعندها شعر أحمد أن اللحظة التي تمنَّاها أتت، واستعدَّ ليتلقَّى رصاصة من الخلف على رأسه، واستجمع ما بقي لديه من حواسّ، لتستقبل حرارة الطلقة عندما تخترق جسده، بينما هو يسرِّح نظره في التلال الأرجوانيَّة التي تنتشر في غور الأردن، ويستعدُّ لأن يهوي باتِّجاه أخفض نقطة في العالم، مُمنِّياً النفس أن تغضب السماء فور سقوطه، وتنهمر الأمطار التي ستسحبه إلى قاع العالم، لعلَّه يجد هناك راحة للجُثَّة الهائمة فوق الأرض، ولكن اللحظة طالت قليلاً، قدَّرها أحمد بدقائق، عندما خاطبه الضابط قائلاً: اذهبْ جرياً، وبسرعةٍ، وأَخْبِرْ ناسَكَ عمَّا رأيتَهُ، يجب أن يعلم الجميع مَنْ نحن، وماذا يمكننا أن نفعله، لم يعد النبي داود راعي أغنام يجابه أعداءه بالحجارة، إنه ينهض من موته قويّاً، بائساً، يلبِّي شهوات يَهْوَه التي طال كَبْتها إلى القرابين، كما يَهْوَه يحتاج لشمِّ رائحة الدم، نحتاج نحن أبناؤه المفضَّلون، لنشربه، ليس مثل الدَّم ينعش فرح النصر، وإذا تلكَّأتَ سأُطلق عليكَ النار من بندقيتي، واحتاج أحمد إلى لحظات كي يفهم ما يجري ويتحرَّك، وعندما تحرَّك ببطء بسبب إنهاكه، شعر بالطلقات تنطلق

سريعة ومدوِّية، وتضرب الأرض خلفه وعلى جانبَيْه، فأسرع قليلاً، ثمَّ أسرع أكثر فأكثر، حتَّى وصل إلى خِيَام للبدو الخائفين من المحتلِّين الجدد، ومكث لديهم أسبوعاً، حتَّى هدأت الأمور، وعندما عدتُ إلى القرية ولم أجد جورج الذي اعتقدت العائلة أنه عندي، بدأنا نبحث عنه ونسأل، ووصلنا إلى سائق الحافلة، وبعض الركَّاب الذين اعتُقِلَ بعضهم، سمع بنا أحمد، وجاءني إلى هنا في القُدْس، وروى لي ما حدث، وكان في حالة نفسيَّة سيِّئة، ولم يستطع أن يفيدَني عن مصير جُثَّة جورج، التي لم نعثر عليها حتَّى الآن، وما دام لم نعثر عليها، فمن الصعب أن نعتبره ميتاً، إنه لا يكفُّ عن زيارتي في الحُلْم، وأبدو عاجزاً، وأنا لم أعثر على جُثَّته بعد، وأعيش حالات إنكار لغيابه، هل فعلاً مات وانتهى أمره، ولن يعود، ولو ليطمئنّ على لُور، ويراها، ولو من بعيد أم أنه مختبئ في محيط المتحف، يراقب ما نفعله، فلا أتناول طعاماً دون أن أذكره، ولا أستعجل صلاتي إلَّا من أجل أن أذكره فيها، ولا أسمع أخبار الراديو، دون أن أتوقَّع أن يبثُّوا خبراً عنه، يجب أن يكون هناك جهة ما في هذا العالم تقيم في السماء أم في الأرض تهجس بموت جورج، لا تقبل بحالتي، وتركي وحيداً هكذا، وإن قبلت، فإن عليها أن تخبرني عن مكانه ..».

شعرتُ بأن أبا نقولا سيتحدَّث إلى ما لانهاية، ولم يجد غيري، ليبثَّه لواعجه، التي لم أعد قادراً على تحمُّلها، شعرتُ بأن جورج ينهض من التراب ويراقبنا، وينظر إليَّ ليتأكَّد من نواياي نحو ابنته، ويبدو أن لُور التي ربمَّا تراقبنا من الداخل أدركتْ بأن جَدَّها لن ينتهي، وأن قلبي الصغير يكفيه حصَّته هذا اليوم من الألم، فقرَّرتْ وضع حَدٍّ، فخرجتْ وعيناها حمراوان، ربمَّا من أثر دموع محبوسة، وقالت: «يا جَدِّي سنذهب، ولن نتأخَّر».

ويبدو أن ما قالتْهُ لُور، نقل الجَدَّ من عالمٍ إلى آخر، فرفع رأسه وهو يبتسم بحُبٍّ لها، بينما عمدت هي إلى شجرة جوري حمراء، وقطفت وردة،

ووضعتْها في مفرق شَعْرها، وطلبت منِّي بإيماءة من رأسها أن نتحرَّك.
ضحك أبو نقولا قائلاً:

«زبَّال وحامل وردة ..!».

ردَّت لُور: «وردة يمكن أن تُنقذ شخصاً».

«ولكنكما اثنان» قال أبو نقولا، ثمَّ ابتسم قائلاً: «نحن تحت القَهْر، ونحمل الورود، يا سعدنا!».



الخامس والأربعون

تتبَّعتُ نفس المسار الذي سِرتُهُ مع أبي روحي في شارع الأنبياء، وتوقَّفنا أكثر أمام التفاصيل الحجريَّة والمِعْمَارِيَّة على الأبنية في الشارع، واستعرضتُ أمام لُور قدراتي المعرفيَّة التي اكتسبتُها من أبي روحي، وعندما دلفنا إلى زقاق هادئ، طلبتُ منها النظر إلى قصرٍ، بَنَتْهُ إمبراطورة إثيوبيَّة مشهورة في بلادها، اسمها تايتو بيتول، لاستخدامه من قِبَل الكَهَنَة والحُجَّاج الآتين من إثيوبيا إلى الأراضي المقدَّسة. يمتاز البناء بمدخلٍ حجريٍّ متَّسع، يضيق مع الاقتراب من الباب، يحوي الكثير من فنون البناء المحلِّيَّة، ويظهر ذلك مثلاً في الدرابزين الحجري المتقن والجميل.

استخدم الوالي العثمانيّ المنزل مقرَّاً له، وفي عهد الاحتلال البريطاني أصبح مقرَّاً لهيئة الإذاعة البريطانيَّة، وتشغله الآن مؤسَّسة تابعة لآخر احتلال على فلسطين، هي سلطة الإذاعة الإسرائيليَّة، فالاحتلال يرث الاحتلال، والراديو يرث الراديو، ومن داخله يخرج الصوت الجَهْوَرِيّ الذي يحمل اسماً عربيَّاً، عرفه والدي ولم يخطئه، ربمَّا بفعل نجاح الصوت في التغلغل في أجسادنا وأدمغتنا، ترى ماذا يفعل علي عمَّار الآن، داخل قصر الإمبراطورة المحتلِّ؟ هل أنهى برنامجه، ويعدُّ لما سيُغذِّي الصوت الجَهْوَرِيَّ الطاغي غداً؟

وتحظى الإمبراطورة السمراء تايتو بمكانةٍ أسطوريَّةٍ في بلادها، وتوصف بأنها دبلوماسيَّة فذَّة قاومت المؤامرات الإمبرياليَّة على بلادها، وعارضت أيَّة مفاوضات قد تؤدِّي إلى خسارة الأراضي الإثيوبيَّة، وعندما فشلت المفاوضات، خاضت وزوجها الحرب على رأس الجيش.

من خلال موقعها كزوجةٍ للإمبراطور، امتلكت تأثيراً سياسيَّاً كبيراً، وكانت مستشارة سياسيَّة له، ومحرِّضة له ولرجال الحكم لاتِّخاذ مواقف راديكاليَّة، تتعلَّق بالحرِّيَّة والكرامة، واتَّخذت موقفاً متشدِّداً ضدَّ الاحتلال الإيطالي لبلادها، حتَّى حقَّقت هزيمة مُذِلَّة لإيطاليا المحتلَّة.

وما زال الإثيوبيُّون يذكرون لها برنامجها التحديثي للبلاد، في مجالات مختلفة، وتطلُّعها لدَوْر إثيوبيٍّ، في الخارج، وهو ما ظهر في بناء البيت الذي يحمل اسمها في زقاقٍ في القُدْس، بالإضافة إلى إنشاء بيوت ضيافة وكنائس أخرى.

صفَّقت لُور لي، وهي تمسك نفسها عن الضحك، وعندما سألتُها عن انطباعاتها، على شرحي، قالت: «يا ابن الذين، من أين عرفتَ كلَّ هذا؟».

قلتُ: «المهمُّ أعجبكَ الأمر أم لا ..؟».

ردَّت: «بالطبع أعجبتَني، يا كافل، ولكنْ، المهمُّ، بالنسبة إليَّ، هو دَوْر هذه المرأة العظيمة، إنها رمز، يجب أن تحتذيَهُ نساؤنا، سأتحدَّث عنها لكلِّ مَنْ أعرفهنَّ، ويسألنَ عن سبيل المقاومة».

لا أعرف أيَّة واحدة، من اللواتي تعرفهنَّ لُور، ويبدو أن لها صلة بهنَّ، ألمحتْ إلى أنها تتَّجه صوباً معيَّناً، ولكنْ، أعجبني أن تستفيد لُورمن معلوماتي عن الإمبراطورة الإثيوبيَّة، من أجل ذلك السبيل، الذي يثير فيَّ مشاعر محفِّزة.

سرنا أكثر، نحو منزل، أرادت لُور أن تراه، وهو منزل العمِّ كوكو، الذي بسبب جَدِّي البعيد نسبيَّاً، اكتشف نقش نفقنا، الموجود الآن في متحفٍ في اسطنبول.

قالت لُور، بأنها تعرف كونراد شيك، كونها درست في مدرسةٍ لوثريَّة، وتعلم أنه مهندس مِعْمَارِي، وعالم أثري، ومبشِّر بروتستانتي ابتدأ في

ألمانيا، واستقرَّ في القُدْس خلال أواخر القرن التاسع عشر، وسمَّى بيته هذا الذي نراه (تافور)، مستوحياً الاسم من الكتاب المقدَّس، وزيَّن واجهة المنزل بمنحوتات لشجر النخيل، وبالحَرْفَيْن اليونانيَّيْن ألفا وأوميجا، ليرمزا إلى البداية والنهاية، وعندما توفيِّ العمُّ كوكو قبل سبعين عاماً، نُعيَ من قِبَل المسيحيِّيْن والمسلمين واليهود.

بداية المسيح، ونهايته، الميلاد والقيامة، النهاية ليست نهاية، وإنما قيامة، الرمز المتشابك من الحرفَيْن منثور في زوايا كثيرة في القُدْس القديمة، في أملاك الروم الأرثوذكس.

قالت لُور: ما أجمله! وهي تشير إلى الحفر اللطيف على الحجر المائل إلى اللَّون الأصفر على مَشْرَبِيَّة البيت، يبدأ بسنة البناء، ثمَّ الحَرْفَيْن، وفوقهما دائرتان، شُكِّلتا من القمح، وينتهي الإطار بساقٍ، يخرج منها فرعان، يمثِّلان نخلتَيْن، وتُواصِل الساقُ ارتفاعَها، لتنتهيَ بتشكيلٍ يُمثِّل الشمس.

انحرفنا يساراً إلى شارع يافا، الذي يضجُّ بالحياة، بعربه ويهوده، وأرمنه، ويونانيِّيه، وزوَّاره متعدِّدي الجنسيَّات، وجلسنا في ميدان صهيون، نأكل المثلَّجات، أمام عِمَارَة العَرْعُور. قالت لُور، وأنا أراقب كيف تذوب البوظة بين شفتَيْها، وتترك لوناً أبيض زائداً، أسفلهما، بسبب قطرات تمرَّدت ومانعت في الدخول إلى فمها: «أصحابها من أقارب والدتي، ولكنها لم تعد لهم، منذ النكبة، وعندما عادوا بعد الاحتلال الأخير لتفقُّدها، وقفوا أمامها، كالغرباء، ينظرون، مثلما ننظر الآن، إلى أسماء أصحاب المكاتب والمحالِّ الذين يحتلُّون العِمَارَة».

قلتُ لها، بأنني أعرف شيئاً عن العَرْعُور، ومنزله في شارع القُدْس - الخليل، ويبدو أنني أحدثتُ الدهشة المبتغاة لديها، فأبدت اهتماماً برؤية المنزل، وطلبت منِّي أن نذهب يوماً إلى هناك.

تأمَّلتُ مقاهي الأرصفة العديدة في الموقع، مأخوذاً بسحرها، ولم

تنتابني مشاعر كره لليهود، الذين يجلسون عليها، ضاجِّين صاخبين، وكأنهم يحتفلون بنصرٍ مستمرٍّ، ولا يريدون أن ينتهيَ، بينما كنَّا نجلس على حوافّ جزيرة صغيرة من الورود، نستمدُّ برودةً منعشة من حجارتها. القُدْس، مدينة الحجارة، والمقالع التي لم يكفّ سكَّان المدينة عن استخراج الأحجار منها، لبناء منازلهم، وقد يكون أكبر مقلعٍ للحجارة، مغارة سليمان، قرب باب العَمُود، التي عرفها المسلمون القدماء، كما قال والدي بمغارة القطن، ولكنها غابت في تضاعيف التاريخ، وعندما اكتُشفت في القرن الماضي، عندما لاحق أحدهم كلبه، الذي قرَّر لسببٍ ما، الهروب، والتسلُّل عبر مدخل مغلق غير معروف بمحاذاة سور القُدْس، لِيُتَبَيَّن أن الكلب كان يعيد اكتشاف واحدة من أكبر مغارات القُدْس، وعندما دخلها القائمون بأمور المدينة المقدَّسة في ذلك الزمن اكتشفوا، بدون عناء، أن المغارة تكوَّنت بيد الإنسان، وهو يقلع منها الحجارة، وعندما سمع الماسونيُّون في العالم، وهم جماعة من النخبة، وصفهم والدي بنعوتٍ سيِّئة، معتبراً أنهم يحكمون العالم، ويتآمرون على العرب والمسلمين، تدفَّقوا إلى المغارة، لأنها من وجهة نظرهم مقلع الحجارة الذي قطع منها الملك سليمان الحجارة لبناء الهيكل، واحتفلوا، والآن، واليهود يعيدون افتتاح المغارة للسيَّاح، يعتبرونها المكان الذي هرب منها أحد ملوكهم القدامى إلى أريحا في نفق تحت الأرض، وهو أمر صعب التصديق، كما يعتقد والدي، العاشق لحجارة القُدْس، التي تُشيَّد بها المباني، ومنها منازل في قريتنا، تبدو ونحن ننزل إليها من القُدْس، مع انعكاس الشمس المتقدِّمة إلى الغرب، على الحجر، ورديَّة، وبيضاء، وحمراء غامقة، وكأنها تستعدُّ لتنطق.

لُور التي استمعت لإسهامي في موضوع حجارة القُدْس لم تُعلِّق على ما اجتهدتُ في تقديمه لها، وعندما صَمَتُّ، أكملتْ حكاية عِمَارَة العَرْعُور بحجارتها البيضاء المائلة إلى الزرقة، والتي تشي بأناقة وباختلاف بدون محاولة لتحميل الحجارة مظاهر سُلْطة، أو منطوق مباشر، أو فجّ، إنها حجارة

الماء المتدفِّق في وادٍ، منساباً، معلِناً عن نفسه، بخفرٍ، بدون خرير: «لم يكن بناء هذه العِمَارَة في هذا الموقع الحسَّاس سهلاً، ويمكن معرفة إلى أيِّ مدى شكَّل بناء عِمَارَة العَرْعُور قصَّة نجاح في تلك المرحلة، معرفة الصعوبات التي واجهها بانيها حنَّا العَرْعُور؛ علمتُ من والدتي أن ثلاثة من الحرَّاس قُتلوا على أيدي عناصر صهيونية، في مراحل مختلفة خلال تشييد العِمَارَة، لأن تلك العناصر لم يرقْ لها تشييد بناء عربيٍّ في هذه المنطقة، وأيضاً حدث اعتداء من المتطرِّفين اليهود على العِمَارَة، وأزالوا زخارف رومانيَّة عنها، بحجَّة أنها تُذكِّرهم بما يصفونه الاحتلال الرومانيِّ للقُدْس قبل ألفَي عام».

وأضافت: «يأتي الجَدُّ حنَّا كثيراً إلى هنا، ليزور العِمَارَة باستمرار، ويتأمَّل فيها كثيراً، متذكِّراً كلّ تفاصيل رحلته خلال بنائها. وتأتي أيضاً ابنته، وفي مرَّة رافقتْها أُمِّي وأنا، وجئنا بسيَّارتها إلى المنطقة. قطعنا شارع هيليل نحو ميدان صهيون، وبينما كنَّا نلتفُّ حول المدور أمام العِمَارَة، أوقفنا الجنود، وصلبونا على العِمَارَة، لتفتيشنا، وتفتيش السيَّارة التي تحمل لوحة تسجيل ضفَّة غربيَّة، وطلب منَّا جندي بالعربيَّة أن نفرشخ ما بين أرجلنا، منعتُ نفسي من الضحك، رغم بؤس الموقف الذي نحن فيه، عندما سمعت كلمة فرشخ المغرقة في العامِّيَّة، تخرج هزليَّة ومضحكة، من فم الجندي المسيطر صاحب القوَّة، وهو يُعيدها ويُكرِّر قولها وهو حريص على أن تخرج الكلمة غاضبة وآمرة من فمه. وبينما كان الجنود يفتِّشون السيَّارة، جاءت امرأة

يهوديَّة تملك محلَّ نظَّارات، وقالت للجنود: كيف تفعلون هكذا بالسيِّدة عَرْعُور، التي تملك هذه العِمَارَة؟ وعندما أُفرج عنَّا، كانت خالتي في حالة توتُّر شديدة، تجهش بالبكاء، وتشعر بإهانة كبيرة، حتَّى أُمِّي استمرَّت مضطربة عدَّة ساعات من تلك التجربة».

سألتُها مشاكساً: «وأنتِ؟ ألم تتوتَّري؟ تروين الحكاية وكأنكِ شاهدة محايدة، لم تُصلبي على جدار، ولم تُفتَّشي».

قالت: «بصراحة، لم أهتمّ كثيراً، وعندما لم أعرف كيف أفرشخ، أتوا بجنديَّة لتفتِّشني بينما وجهي ما زال إلى الحائط رافعة يدَيَّ، وقالت لي آمرة: فَرْشِخِي، وأنا لا أعرف ماذا أفعل بالضبط، حتَّى فعلتْ ذلك بنفسها؛ باعدتْ بين ساقَيَّ، اختلستُ النظر إلى والدتي وخالتي، وأنا أكاد أسمع دقَّات قلبَيْهما، وبدلا من أن أحزن لحالهما، كتمتُ ضحكات كانت تصارع للانطلاق، من أين يأتي الضحك في المواقف الحرجة؟ لا أعرف، ولكنْ، هذا ما حصل معي».

تعجَّبتُ: «كنتِ تريدين أن تضحكي؟»

قالت ضاحكة: «هذا ما حصل فعلاً، لم أشعر بالخوف، واكتشفتُ بأنني لا أخاف من اليهود، مثلما فعلت خالتي وأُمِّي، خصوصاً أُمِّي، لقد كانت ترتجف خوفاً».

حديثها عن أُمِّها قادني إلى سؤالها عنها، ولماذا ليست معها ومع الجَدِّ في قصر الشيخ في الفترة الأخيرة؟ قالت لُور، بأن أُمَّها تعيش الآن مع جَدَّتها اليونانيَّة التي تعاني وضعاً صحِّيَّاً صعباً، في منزل العائلة في قرية نصف جبيل، وسط الجيران المسلمين، بعد تقلُّص عدد المسيحيِّيْن، بسبب نزيف الهجرة إلى الخارج، وبعد الحرب الأخيرة هاجرت مجموعة عديدة من العائلات، إلى الأردن، ومنها إلى دولٍ أخرى.

وقالت، بأنها تتوقَّع، مع استمرار الهجرة، أن لا يظلَّ في القرية من المسيحيِّيْن سوى أُمِّها، وجَدَّتها.

عندما أخبرتْني بأن جَدَّتها يونانيَّة، دفعني الفضول لأسألها عن ذلك، فقالت، بأن جَدَّتها كانت تعيش في قبرص مع عائلتها، في الجزء الخطأ لعائلة يونانيَّة، وسط الأتراك، فاضطُرَّت لترك الجزيرة نهائيَّاً، والانتقال إلى اليونان، بسبب الصراعات الأهليَّة العنيفة، ولكن الجَدَّة، التي لم تكن جدَّة،

وإنما فتاة بيضاء جميلة، فضَّلت القدوم إلى فلسطين، والالتحاق بأحد الأديرة، ولكنها عندما تعرَّفت على أبي نقولا، وبالطبع لم يكن حينها يُنادى عليه بكُنيته هذه، الذي كان يعمل في نفس الدير، غيَّرتْ رأيها، وهجرتْ قرارها بأن تكون راهبة، وتزوَّج الاثنان، وعاشا في نصف جبيل.

فَرَدَتْ لُور يدَيْها، ورفعتْهما إلى الأعلى، وهي ترنو إلى سماء القُدْس، وهتفتْ: «ما أحلى الحُبَّ!».

توقَّعتْ منِّي أن أُعلِّق، ولكنني لم أعرف بماذا أُعلِّق، وشعرتُ بأن لساني مربوط، بحبلٍ من حياءٍ خفر، فأكملتْ: «أرأيتَ كيف يمكن للحُبِّ أن يجمعَ فلسطينيٍّ بقبرصيَّة؟ وتعيش كامرأة فلاَّحة مُحبَّة وراضية، تغمرنا بحنانها، لا أَمَلُّ من حضنها».

أَعلَمَتْني لُور، بأن زواج جَدِّها بقبرصيَّة ليس حدثاً نادراً في بلادنا، ففي فترة من الفترات، عندما تضايق شباب المُدُن من غلاء المهور، كما حدث في مدينة الناصرة مثلاً، ركبوا البحر إلى قبرص للزواج من قبرصيَّات، وذهب شبَّان من بئر السَّبْع أيضاً إلى قبرص لنفس الغاية، وبدا أن عدوى القبرصيَّات سينتشر، فكتبت الصحف، ونَصَحَتْ، وتحدَّث رجال دِيْن ومخاتير ووجهاء، وكأن الفلسطينيَّات سيعنِّسنَ ولن يجدنَ من شباب البلاد مَنْ يتزوَّجهنَّ، وتدخَّلت الصحف، وحبَّرت المقالات، وحلَّل تربويُّون وصحافيُّون ما يجري، وطالبوا بخفض قيمة المهور، ولم تكن موضة القبرصيَّات إلَّا سحابة صيف عابرة.

قالت لُور: «ألتقي أحياناً عند جَدَّتي بقبرصيَّات متزوِّجات من فلسطينيِّيْن، يجتمعنَ ويتذكَّرنَ، ويتشمَّمنَ روائح بعضهنَّ، ليتذكَّرن بلادهنَّ، أحببتُ أولئك البيضاوات السمينات، وطيبتهنَّ، ولهجتهنَّ العربيَّة الفلسطينيَّة بألسنتهنَّ الملتوية».

أعربتُ لها عن رغبتي برؤية جَدَّتها، فرحَّبت وقالت: «عندما تأتي إلى نصف جبيل، سأُريكَ مقام سيِّدنا الخضر، حامي الينابيع والقنوات، والوديان، ستعيش لحظاتٍ لن تنساها في نصف الشمس».

تساءلتُ: «نصف الشمس؟».

قالت ضاحكة: «نحن هكذا نُسمِّي قريتنا، أجدادنا أخبرونا بأن جبيل تعني في اللغات القديمة، الشمس، ولأن منازلنا تقع على مجموعة من الينابيع الطبيعيَّة على سفوح الجبال، فإن الشمس تُشرق في فترة متأخِّرة، وتغيب في فترة مبكِّرة، يعني لدينا نصف شمس فقط، ونحن راضون بذلك، أمَّا أنتم في القُدْس، فلكم شمس كاملة، أرجو أن تظلَّ كذلك، ولا تغيب شيئاً فشيئاً. مَنْ يدري ماذا يخطِّطون؟».

لُور عندما تتَّشح بالحكمة والاستشراف؛ زرقاء يمامة في مدينةٍ ما إن تبدأ بتحسُّس خطواتها، حتَّى تكبو من جديد باحتلال جديد، فتبدأ التحسُّس من جديد، أيضاً.

السادس والأربعون

عندما شعرنا بأن الوقت سرقنا وتأخَّرنا، وقرَّرنا النهوض، هتفت لُور: الجَدُّ حنَّا.

رأيتُ رجلاً مُسنَّاً، يرتدي بذلة رسميَّة، ويُقيِّد عنقه بربطةِ عنقٍ حمراء، ويضع على رأسه برنيطة سوداء، ويتقدَّم نحو العِمَارَة، مستخدماً عصاً.

سحبتْني لُور من يدي، وتقدَّمنا نحوه، لنُسلِّم عليه، وبدا معروفاً أيضاً لغيرنا في الشارع، منهم مَنْ ألقى التحيَّة، ومنهم مَنْ راقب تحرُّكه. ابتسم لِلُور كَمَنْ يعرفها، وسألها عن أُمِّها، ولكنه لم يتمكَّن من تذكُّر اسم لُور، التي ذكرت له اسمها، فعزمنا على المقهى في أسفل العِمَارَة، الذي يحتلُّ مكان مقهى أوروبا الشهير، الذي كان ملتقىً للكُتَّاب والصحافِيِّيْن، ورجال الإدارة الاستعماريَّة البريطانيَّة، والجواسيس، والعائلات العربيَّة واليهوديَّة والبريطانيَّة - كما قال لنا بلهجةٍ، يظهر فيها فخر وعلياء تلك الأيَّام، عندما كان كلُّ أولئك يتجمَّعون في مقهى يقع في عِمَارَة، يملك كلَّ جزء منها.

أضاف الجَدُّ حنَّا: «كان مقهى يوروب كافية الراقي يَعِجُّ بالناس، وكنتُ أجلس فيه لقراءة آخر الأخبار من خلال الصحف التي تُجلَب من مكتبة ستايمتسكي، وعندما تشتدُّ الشمس، تُدلَّى المظلَّات، لتحميَ أجساد نُخب القُدْس من مختلف الجنسيَّات، حيث كانت القُدْس مدينة متعدِّدة، تعجُّ بكلِّ الجنسيَّات والأديان، لقد كانت في ذلك الزمن أكثر من أيِّ وقت مدينة كوزومبلوتيَّة، عالميَّة، راقية».

سألتُهُ ماذا يعني بكوزومبلوتيَّة؟

بدا أنه تنبَّه إليَّ، فتفحَّصني، ولعلَّه حاول أن يتذكَّر في أيٍّ لقطة في دماغه اختفيتُ، وعندما فشل، تراجع عن محاولة تذكُّري، وهنا تدخَّلت لُور لتقول باقتضاب محايد: «إنه صديق».

رضي العَرْعُور، بصفتي التي أسبغتْها لُور عليَّ، وأجاب عن سؤالي: «كوزومبلوتيَّة تعني دوليَّة، أي عالميَّة، فوق قوميَّة، كان يمكنكَ أن تسمع أعداداً لا حصر لها من اللغات في شارع يافا، وترى البنايات، التي شيَّدها العثمانيُّون والطليان بدَعْمٍ من موسليني، والألمان الذين أسَّسُوا الكولونياليَّة الألمانيَّة، واليونان الذين أسَّسُوا الكولونياليَّة اليونانيَّة، والأرمن، واليهود، والإنجليز، والكرج، والأحباش، ماذا سأعدُّ، لو بدأتُ العَدَّ؟ وعن ماذا أتحدَّث إذا أردتُ الحديث عن طرز مِعْمَارِيَّة في قُدْسنا؟ عن الطراز الأندلسي والمتويفات الإسلاميَّة أم عن الكلاسيكي المحدث أم عن البناء الفاشستي؟ ستكبر وتعرف وحدكَ».

أردتُ معرفة المزيد، ولكنني لم أسأل، وانتظرتُ أن يُكمِلَ حديثه، ولكنه صَمَتَ، وبدا أنه نسيَ عن ماذا يتحدَّث، ثمَّ عاد ليقول: «عندما كنتُ أخرج في الصباح إلى عملي، أجد مواعين الحليب التي تركتْها الفلَّاحات اللواتي أتينَ مبكِّراً، مع كنوز الأرض؛ سلال العنب، والتين، والمشمش، وعندما أمنح لنفسي عطلة، أركب الدرَّاجة الهوائيَّة، وأنطلق، لأتوقَّف عند فايك، لشرب الكازوزة التي يصنعها الألمان، وأتذوَّق بوظة

فايزر، الذي كان يدعوني دائماً بالخواجة، فأضحك وأقول له: أنتَ الخواجا، فيضحك فرحاً، وكأنني أوَّل شخص يصفه بالخواجا، وكأنه بحاجة لي ليُصدِّق بأنه فعلاً خواجا حقيقي، لم تُفسد خوجته ميلاده وإقامته في قُدْسنا، وأشتري الخبز والبيتسا من فرن فرانك، الذي أدْخَلَ أوَّل مطحنة دقيق تعمل بالبخار إلى القُدْس، ولكنه لم يكن فرانك الذي أعرفه، إنما

جَدُّه رانك، وقبل ذلك عرفتِ القُدْس المطاحنَ التي تعمل على الهواء، وعندما علمتُ بأن أسمهان تنزل في فندق الملك داود، ذهبتُ، ورأيتُها عند البِرْكَة، تسأل عن كيفيَّة الذهاب إلى البحر الميت، فقلتُ لها غنِّي لي، يا طيور، فأدلُّكِ، وآخذكِ، وأكون دليلكِ المطيع، وقابلتُ الملكة نازلي وبناتها الأميرات، والعشَّاق، والأحباب، وأحباب الأحباب، والأموال التي تُنثر على وحول الموائد المَلَكِيَّة، كانت القُدْس فرحة بالناس، وهم فرحون بها، ليس كما هو حال التجهُّم المقيت الذي نعيشه حالياً».

لاحظتُ أن لُور مأخوذةٌ بالجَدِّ حنَّا، تنظر إليه وكأنها في حضرة رجل أسطوريٍّ، جاء من زمنٍ بعيد آخر.

يبدو أن شهيَّة الجَدِّ حنَّا فُتحت إلى أقصاها على نوافذ الذكريات: «كانت القُدْس تعجُّ بالمشكلات بيننا وبين اليهود، ولكنها أيضاً تعجُّ بدُوْر السينما، التي تستضيف المضحكين، فنذهب إلى سينما صهيون لنضحك مع اليزبط، وبرغنر ودوكلس، وفرفنكس، ونحضر فيلم طرزان ملك الغاب، ومتحف الشمع ونحن نتراهن إذا كانت النساء الجميلات اللواتي نراهنَّ هنَّ حقيقيَّات من لحم ودمٍ أم مجرَّد صور وتماثيل جامدة؟! ونتمتَّع بعروض الساحر الهندي الذي يأتي بشكلٍ دَوْري، ليعرض ألعابه المبهرة، ويقيم في الزاوية الهنديَّة داخل باب الساهرة، وعندما أسأله ماذا يرى من غرفته؟ وماذا يحبُّ في القُدْس؟ يجيب ضاحكاً ضامَّاً يدَيْه: جبل الزيتون، جبل البَرَكَة والسلام. وننبهر أيضاً بفِرَق الرقص التي تُقدِّمها مجموعات بريطانيَّة ونمساويَّة، ونذهب إلى قلعة باب الخليل، لنتجوَّل في بازارات جمعيَّة الشبَّان المسيحيِّيْن في ساحة القلعة، التي أصبحت مركزاً للحفلات الموسيقيَّة، والمعارض، والعروض، ولكنَّ الأهم الحفلات الخاصَّة في بيوت الأغنياء، حفلات راقصة، وأخرى تنكُّريَّة، تخيَّلوا واحداً مثلي وهو يحاول أن يتنكَّر، ولكنني أفشل دائماً، فيعرفونني من أوَّل ضحكة، وأيضاً تستضيف هذه البيوتات محاضرين، ونجوماً

في الفنِّ والرقص، يقدِّمون فنَّهم وفنهنَّ لجمهورٍ صغير ومحدود من الذوَّاقة، وعلى مسرح سينما صهيون حضرتُ أوبرا روميو وجولييت، هل سمعتُما بهما؟ من الأفضل أن لا تسمعا بهما، ابحثوا عن قصص الحُبِّ الفرحة».

سألتْ لُور الجَدَّ العَزْعُور، عن دُوْر السينما، في زمنه وما هو المختلف الذي كانت تقدِّمه عن دُوْر السينما الآن؟ أجاب الجَدُّ: «أنتِ تفتحين عليَّ المواجع، كلُّ شيء زمان كان أفضل، حتَّى لو لم يكن أفضل».

«كيف؟» سألت لُور محتارة.

أجاب الجَدُّ: «آه .. قلتِ لي كيف؟ انتشرت في القُدْس دُوْر السينما الصامتة، وتلك التي يتكلَّم الممثِّلون على شاشاتها، ويكادون يخرجون منها، ليصافحوا المشاهدين، أو يشاكسوهم، ورُوَّاد هذه الدُّوْر هم من مختلف الأعمار والطوائف، الكلُّ كان يحبُّ السينما، ولكنْ، وُجِدَ مَنْ لم يعجبْهُ ذلك الحُبُّ، فغضب اليهود الحَرِيْدِيْم، على دُوْر السينما؛ لأنها تفتح أيَّام السبت، ولإرضائهم، قرَّر أصحاب دُوْر السينما التي يملكها يهود: إديسون، وصهيون، وعيدون، إغلاقها أيَّام السبت، وماذا عن دُوْر السينما التي يملكها عرب؟ وجدت نفسها في خضمِّ التوتُّرات القوميَّة والوطنيَّة، فاستلَّت مُنَظَّمة إيتسل، قنابلها، وهاجمت سينما ركس التي تعرض أفلاماً عربيَّة، ويملكها عرب، ولم يحدث ذلك مرَّة واحدة، وإنما تكرَّر الهجوم».

- وماذا حدث لدُوْر السينما، بسبب هذه الصعوبات؟

سألتُ الجَدَّ، فأجاب وهو يهزُّ رأسه: «لم يحدث شيء، غير أن حُبَّ السينما انتصر، وزاد عدد دُوْر السينما، وعندما انقلع الإنجليز من هنا، كان عدد دُوْر السينما في القُدْس وصل إلى عشرة».

وأضاف: «أَحَبَّ الناسُ أيضاً الرياضة، كرة القدم، وكرة السَّلَّة، وعندما

يُعلَن عن موعد لمباراة بين نادي الاتِّحاد الأرثوذكسي المقدسي ونادي الترسانة من حيفا، أو عن مباراة للاتِّحاد الأرثوذكسي ونادي شباب العرب من حيفا، يستعدُّ المحبُّون المجانين للحضور والتشجيع».

بدا الجَدُّ للحظات مُمعِناً في شرود؛ لم يكن معنا، وفجأة عاد يتحدَّث: «تصوَّروا كيف تتحدَّد مصائر الناس، عاد الساحر الهندي وقد كبر، إلى القُدْس المقسَّمة أيَّام قبل النكسة، ونزل في الزاوية الهنديَّة، ونام في غرفته السابقة المُطِلَّة على جبل الزيتون. وجلستُ معه في مقاهي المُصْرَارَة، التي اعتدتُ عليها، لأنظر إلى القُدْس الأخرى، القريبة من النظر البعيدة في كلِّ شيء. واحتاج هو إلى شاهد على زمنه عندما كان يُدهِش ناس القُدْس في عروضه، ولم يبقَ منهم الكثير، بعد أن ضاقت بهم القُدْس المنكوبة رحلوا وتشتَّتوا، وكان يضحك كالأطفال، عندما أُذكِّره بعروضه، وأحاول أن أعلم منه كيف كان يفعلها ولا تُقتل المرأة بعد غرزها بالسكاكين والسيوف، ولكنه لا يُفصِح، فيحافظ على سرِّ مهنته، ليس لأنه لا يريد أن يكشف سرَّاً، ولكنْ، لأنه يجب عليهِ أن لا يفعل ذلك، عليه أن يكون مخلصاً للمهنة التي حملتْهُ وأوصلتْهُ إلى قلوب الناس».

عن ماذا يريد أن يتحدَّث الجَدُّ؟ وإلى أين يريد الوصول؟

تابع الجَدُّ: «صحيح أن أجواء القُدْس توتَّرت، وكنَّا على يقين، مع هبوب نُذُر الحرب، بأننا سنقطع الحدود الوَهْميَّة بين القُدْسَيْن، ونعود لأملاكنا، لنستأنف ما بدأناه، بعد قطيعة عشرين عاماً. إلَّا أننا لم نفكِّر بأن النار ستقترب منَّا، فنام الساحر في غرفته، دون أن يخطر بباله ما سيحدث له، ولم تتح له الفرصة ليفكِّر ويتفكَّر، عندما سقطت

قنبلة على الزاوية الهنديَّة، فقُتل وقُتل غيره، وكأنه لم يعد إلى قُدْسنا إلَّا لتشهد المدينة اكتمال قصَّته».

السابع والأربعون

رأينا امرأةً في الخمسين من عُمُرها ترتدي السواد، تاركةً بإهمالٍ خُصلات بيضاء من شَعْرها تنزل على جبهتها، بينما تربط الباقي خلف رأسها، تتقدَّم نحو الجَدِّ حنَّا، دون أن نلفت انتباهها، وتبثَّ في إحدى أُذُنَيْه كلماتٍ، لم نتمكَّن من سماعها، فأومأ لها برأسه، ودعاها للجلوس بجانبه، فاستجابت، وكأنها، تمتثل لأمر، وقال:

- هذه حِنَّة الطيِّبة، التي تساعدني في تنقُّلاتي ..!

عرفتُ حِنَّة هذه مِن حديث الشيخ نعيم عنها، فهمستُ في أُذُن لُور:

– أعرف حِنَّة هذه، يا لها من مسكينة ..!

لم تكن لُور في مزاجٍ لتسمعني، وربَّما وجدت أنه من غير الأدب الدخول في حديثٍ ثنائيٍّ معي، بينما شهيَّة الجَدِّ حنَّا شُرعت على الكلام: «اشتريتُ قطعة الأرض هذه في منتصف العشرينيَّات، ولذلك قصَّة، عندما كنتُ خاطباً حبيبتي ندى، أتيتُ بها إلى هنا، وكُنَّا نتسكَّع في شارع يافا، نتفرَّج على البنايات الحجريَّة، متأمِّلين هندستها، ومعجبين بحجَّاري بَيْت لَحْم الذين بنوها، وكم كان جميلاً أن أستعرض معارفي في المِعْمَارِ أمام مَنْ ستكون زوجتي المستقبليَّة، فأُنبِّهها إلى الفنِّ الأندلسي، والإيطالي، والكلاسيكي المحدث، وبنايات الأثرياء العرب والأجانب والمؤسَّسات العامَّة، ومشاغل مثل كريكوريان صاحب أوَّل معمل للتحميض، ومعمل تصوير سافيديس اليوناني وشريكه ياكوف تشوتيمسكي، ومقهى الجوهريَّة الذي استضاف فنَّانين كباراً في زمنهم مثل علي مراد، وبديعة مصابني،

ومبنى جمعيَّة الكتاب المقدَّس، وبيت برغهايم الذي بناه المصرفي برغهايم الألماني اليهوديّ الذي اعتبره اليهود مرتدّاً، وتحوَّل إلى فندق دي فرانس، ومبنى القنصليَّة الروسيَّة، وبنايات الأرمن، ودار ضيافة الحجَّاج الروس، وكاتدرائيَّة الثالوث المقدَّس، والعامود الضخم مقابلها، الذي قيل بأنه إصبع الملِك عوج، وتمنَّيتُ أن لا تسألني مَنْ هو الملك عوج هذا؟ ولو سألتني الآن عنه، لما عرفتُ، وكُلِّيَّة تراسنطا في شارع الملك جورج، التي افتتحها ملك إيطاليا، ومدرسة طاليتا قومي التي صمَّمها المبجَّل كونراد شيك، عليَّ أن أرفع القُبَّعة وأنا أذكر اسمه، ماذا يمكن أن أُعدِّد من أَلَقِ البنايات وأنواعها وأسماء مهندسيها، وأصحابها، وأنواع حجارتها، ومن أيَّة مقالع قُصَّتْ؟ لم يكن ذلك مُهمّاً، بقَدْر رؤيتي لردود فعلها التي ترتسم على وجهها البريء، وافتخارها بزوج المستقبل، عرَّفتُها على بيت التاجر اليهوديِّ البخاري مشياح باروخ بحجارته الحمراء، والذي يتميَّز بواجهته المتعدِّدة الأقواس، ويعلوه نحتان لأسدَيْن، وعلى بيت القنصل البريطانيِّ مور ومثل منزل ميشاح باروخ، يعلو مدخل البيت أسدان، نَحَتَهُما الحاخام سمحا يانفور، وهو من فنَّاني القُدْس في القرن التاسع عشر، والمستشفى البلدي الذي بناه العثمانيُّون، وبيت فاينجلوند بساحته المَقْدِسيَّة المميَّزة وأجنحته الثلاث، بناه شلومو فاينجلوند، اليهوديّ المُرتدّ، وما أَكثر المُرتدِّين لدى أصحاب الديانات، يكفي أن يختلف قليلاً حتَّى يُوصَف بالمرتدِّ، وفيه، ربمَّا في عام 1908 افتُتحت أوَّل سينما في القُدْس في هذا المبنى، ماذا سأعدُّ، حتَّى أعدَّ؟».

أغمض عينَيْه لثوانٍ، وتحدَّث عن أُسُود القُدْس، من الأُسُود الرمزيَّة، كما في حالة الأباطرة الإثيوبيِّيْن، التي قدَّم بعضهم أنفسهم كأسود يهوذا، إلى تنوُّع تماثيل الأُسود على العِمَارَات في شارع يافا، ومعظمها أُسود وادعة، حتَّى إنها تبدو مخلوقات أُنثويَّة، باستثناء أسد موسيليني، كما سمَّاه الجَدُّ حنَّا، المُثبَّت على سطح بناية جنرالي الإيطاليَّة للتأمين، الشاهدة على

طموح الزعيم الإيطالي بنيتو موسيليني بالامتداد خارج الحدود خلال الفورة الفاشيَّة، حيث موَّل عدداً من المشاريع في القُدْس، ضمن خطَّته الفاشيَّة للسيطرة على حوض المتوسِّط، وتمثِّل البنايةُ المدرسةَ الهندسيَّةَ الفاشيَّةَ في إيطاليا، وأمَّا أسدها، فهو ضخم شرس له أجنحة، يضع إحدى يدَيْه على كتاب منحوت في الصخر، وكان لشركة جنرالي فروع في يافا وبيروت، تقف خلفها شركة الأدريتكا الإيطاليَّة للملاحة التي أسَّسها موسوليني، ويرفرف الآن علم إسرائيليٌّ كبير، على سطح البناية، التي ما زالت واجهتها تُبرِز هُوِيَّتها الإيطاليَّة الفاشيَّة من خلال كتابات إيطاليَّة، وأسدها المجنَّح الغاضب، الذي يكتم صرخة تحاول الخروج من فمه المفتوح.

لم أعرف أين الحكاية التي أراد الجَدُّ حنَّا حكايتها لنا؟ ويبدو أن لُور فكَّرت مثلي، فذكَّرتْهُ بما أراد حكايته عن البناية.

قال الجَدُّ حنَّا: «أووه .. نعم، أصبحتُ أنسى كثيراً، ولولا حِنَّة، لضعتُ، ونسيتُ كلَّ شيء حتَّى اسمي، عندما رأيتُ ندى مأخوذة بالمكان وأجوائه، قلتُ لها، سأشتري قطعة أرض هنا، عربوناً لحُبِّنا، وهديَّة زواجنا، ولكنها لم تُصدِّقني، ربَّما فرَّقَت بين حماسة حبيب يريد أن يترك أقوى الانطباعات لدى زوج المستقبل والتكاليف المادِّيَّة، ولكنها كانت على دراية بأن ذلك لن يكون هو العائق فقط، وإنما لصعوبة وضع قَدَم عربيَّة في شارع يافا، الذي أعتقد اليهود أنه يخصُّهم أكثر من غيرهم، فكيف سيسمحون لعربيٍّ أن يدخل بينهم؟ ولكنَّ الأرض التي وقعت عيناي عليها، ووعدتُ حبيبتي بها، مملوكة لعربيٍّ، وبدون أن أُخبرها، سألتُ عن صاحب الأرض، ودفعتُ له عربوناً من الأموال التي أكسبها من عملي في صناعة الصُّدَف، وسجَّلتُها، وبدأتُ البناء في العام التالي، واصطحبتُ ندى لموقع العمل، وهي لا تعي ما يجري، وعرَّفتُها على المهندس اللبنانيِّ ميشيل الذي تعرَّفتُ عليه خلال قضائي أشهر الصيف في لبنان، ووَلَّيتُهُ الإشراف على البناء، دُهِشَت حبيبتي، ولم تُصدِّق، واعتقدتْ بأنني أمزح معها بثقل، كما تصف

أمازيحي، وعندما صدَّقتْ أخيراً، عانقتْني غير آبهة بوجود ميشيل وعمَّاله، استغرق البناء ثلاث سنوات، وبدأت العِمَارَة بالعمل، وخصَّصتُ الطوابق العليا للمكاتب، أمَّا المحالُّ في الطوابق السفلى، فكانت عبارة عن متاجر تطلُّ على ثلاثة شوارع: شارع يافا، وبن يهودا، والملك جورج، في الواقع إن تشييد عِمَارَتِي هو مَنْ أسَّس لوجود شارع بن يهودا، وهي مَنْ حدَّدت معالم هذه

المنطقة في قلب القُدْس التجاريّ في ذلك الزمن، قبل تقسيم المدينة المقدَّسة، واحتضنت عِمَارَتِي في فترة من الفترات إدارة الإذاعة الفلسطينيَّة: هنا القُدْس، في زمن الانتداب».

كانت هنا القُدْس، في الزمن البريطانيّ، والآن ينطلق الصوت من: أُوْرُشَلِيْمْ القُدْس، تتغيَّر الأسماء، ويضاف إليها.

- كيف تركتَ العِمَارَة؟ ماذا حدث وكيف حدث ما حدث يا جَدِّي؟

سألت لُور بتردُّد، وبدا كأن الجَدَّ حنَّا بُوغِتَ بالسؤال، أو أنه لم يعد معنا، كان هناك في تضاعيف قُدْسه القديمة، وبعد دقيقة صمت عاد إلينا، وأجاب، وهو ينظر لقِطَّة تسير بين أرجل الكراسي في المقهى، متجاهِلاً حِنَّة التي تجلس بجانبه، وكأنه نسيَها، ومن الواضح أنها اعتادت على طبعه: «يا ابنتي، مثل العائلات الفلسطينيَّة الأخرى، وجدتُ نفسي في خضمِّ الأحداث التي عصفت بالأرض المقدَّسة، محتاراً ماذا أفعل، كنتُ وعائلتي آخر مَنْ ترك حيَّ البَقعة إلى لبنان، بعد أن اتَّخذت قراراً بالذهاب مبكِّراً لقضاء الصيف هناك، كما نفعل كلّ عام، والعودة بعد أن تهدأ الأوضاع. خرجنا بسيَّارتَيْن، واحدة قُدتُها بنفسي والأخرى، قادها سائق، وأوصيتُ أبو نعيم على العناية بالمنزل، وتركتُ هذه العِمَارَة في عهدة صديق من القُدْس حتَّى أعود، ولكنْ، حدثت الكارثة، وقُسِّمَت القُدْس إلى شرقيَّة وغربيَّة، ولم أعد أستطيع الوصول إلى أملاكنا في

القُدْس الغربيَّة، عدتُ بعد عامَيْن إلى بَيْت لَحْم، من لبنان، وفي القُدْس المحتلَّة استولى حارس أملاك الغائبين الإسرائيليّ لسنوات طويلة على العِمَارَة، وكان يجمع الإيجارات، بقي المستأجرون اليهود في العِمَارَة، بينما الآخرون فإن الكارثة التي حلَّت بشعبنا شتَّتهم، ومنح حارس أملاك الغائبين مسؤوليَّة العِمَارَة وصيانتها للوكالة اليهوديَّة، بدعوى أن لديها إمكانيَّات أكبر، تمكِّنها من ذلك، وهي الآن مُحتلَّة من قِبَل الوكالة، وأنا أجلس الآن زبوناً بمقهى في عِمَارَتِي المحتلَّة، التي لم تعد لي، فما فشل به يهود شارع يافا في الزمن الماضي، عندما حاولوا بكلِّ الطُّرُق مَنْعي من تشييد العِمَارَة، نجح به يهود آخرون، مسلَّحون وكارهون صنعوا قَدَرَهُم على حساب قَدَرِي، سطوا على عِمَارَتِي، ولا أعرف بماذا يتباهون أمام زوجاتهم؟ هل لقدرتهم على أخذ ما تباهيتُ به أمام زوجتي؟ هم لم يأخذوا عِمَارَتِي فقط، وإنما تلك المباهاة والفخر التي أحببتُ دائماً أن أرى انعكاسهما في عينَي ندى، وأنا الآن أدور في القُدْس، من شارعٍ إلى آخر، أجمع ما تبقَّى ممَّا يمكن أن أتباهى به من حياتي الماضية، ربمَّا كما أفعل الآن أمامكما، ولكنْ، بالنسبة إلى ندى، فإن الأمر انتهى، نُكِبَتْ مع النكبة بسلسلة أمراض، وعادت طفلة صغيرة، لا تريد فهم لغة الكبار، فقدتُ عِمَارَتِي ومنزلي وتاريخي وحبيبتي».

وفجأة خيَّمَت غيوم الحزن كثيفة، وبدا أن الجَدَّ حنَّا لم يعد يحتمل الحديث، فنَهَرَنا طالباً منَّا العودة، حتَّى لا يقلق أهلنا، وشجَّعتْهُ حِنَّة بإيماءة من رأسها، وكأنها تريد

التخلُّص من اللذَيْن يُقلِّبان المواجع على قريبها ومستخدمها، أو أن الحديث أخذها بعيداً، هناك إلى البَقعة، إلى منزلها المفقود، والذي لن تتمكَّن من زيارته مرَّة أخرى.

الثامن والأربعون

سرنا بمحاذاة عِمَارَة العَرْعُور، باتِّجاه شارع الملك جورج، أردتُ أن أُري لُور وأرى مدرسة طاليتا قومي، وأنا أقول لها بأن كونراد شيك يعرف جَدَّ والدي، وأنه عندما كبر، عمل معه في البناء، وأخذ منه بعض فنون العِمَارَة المتعلِّقة بتشكيل الحجر ودَقِّه، وأهداه العمُّ كوكو أدوات تُستخدَم في تشذيب الحجر، احتفظتْ بها العائلة حتَّى وقت قريب، كما قال والدي، ولكنه عندما بحث عنها مؤخَّراً لم يجدها.

حدَّثني والدي كيف تعرَّف مبكِّراً، على تلك الأدوات، وفتح صندوق العدَّة المخبَّأ في خَشَبيَّة بيتنا، ليلعب ويكتشف، وكيف كان والده ينهره كثيراً، محذِّراً من مغبَّة لعبه بالعدَّة، حتَّى لا تضيع، وعندما بدأتُ أعرف طريقي إلى الخشبيَّة، كانت العدَّة، فعلاً، قد طارت، كيف؟ لا أحد يعرف، العبث ضيَّعها.

يُولي الحِرْفِيُّون أهمِّيَّة كبيرة للأدوات التي يستخدمونها، ويقولون بأن «العدَّة هي التي تحكي»، أي التي لها الدَّوْر الرئيس، وعندما كان الحِرْفيُّون الأجانب يأتون ليبنوا ويُشرفوا على البناء في عِمَارَات وكنائس القُدْس، يستخدمون حِرْفيِّيْن عرباً، ولكنهم عندما يعودون إلى بلادهم، يأخذون أدواتهم معهم، أو يُخرِّبونها باستخدام النار، فالحديد الذي يُسقى بالنَّار، يمكن أن يفقس بها أيضاً.

عندما تعرَّف والدي على العمِّ جورج، بعد أن رويتُ لوالدي عن لقائنا معه، أنا ولُور في كنيسة القيامة، كان يحلو لي أن أجلس صامتاً وأستمع

لهما وهما يتحدَّثان عن الحجارة والحجَّارين، يحملني كلاهما على بساط طائر، يعلو في سماء القُدْس، ويطوف حول بناياتها.

وجدنا أنفسنا أمام جدار متروك وحيداً في شارعٍ، يحمل اسم ملك إنجليزي هنا في القُدْس الجديدة، ولم أستطع أبداً إدراك أن ما نراه، كان في يومٍ ما مدخل مدرسة، حتَّى بعد أن نبَّهتْني لُور للاسم الظاهر بالأحرف اللاتينيَّة (طاليتا قومي)، أعلى الجدار المَبنيِّ من الحجر القُدْسي، مشغولاً بالطُّبْزَة المحبَّبة لدى العمِّ كوكو، ووسطه ساعة ما زالت تنبض بالحياة.

دخلنا عبر المدخل الذي بُني على شكل قوس، وعلى جانبَيْه قوسان أصغر، لنجد أنفسنا في ساحةٍ عامرةٍ، علمنا أنها بُنيت بعد هدم المدرسة، يبدو أن الحرب الأخيرة لم تستكمل، ولم يشعر جنرالاتها بالنصر، إلَّا بإضفاء لمسةٍ داخل القُدْس، فهدموا المدرسة المهجورة منذ النكبة، لقد شكَّل نصرهم في الحرب لفتة اطمئنان، ليُنفِّذوا حقداً دفيناً على المدرسة.

سألت لُور:

– لماذا أبقوا على المدخل؟

فخمَّنتْ:

– ربَّما للتذكير بنصرهم على المدرسة التي احتضنت خصوصاً البنات اليتيمات، من مختلف الطوائف، ومنهنَّ اليهوديَّات.

– ولماذا أبقوا على الساعة تدقُّ حتَّى الآن؟

- ربَّما لتذكَّر المارِّين غير المنتبهين بهذا الجدار المنتصب في شارع مزدحم بالغرباء ..!

– أشعر وكأنني أنا الغريب في هذا المكان ..!

- لا تُحوِّلها إلى نوبة مواجع، فيكفينا منها ما أخذناه من الجَدِّ حنَّا،

علينا أن نعود الآن، أيها الطفل رقيق القلب، والذي يجب أن تتخلَّى عنه، عندما ترافق واحدةمثلي، قلبها ميِّت ..!

أردتُها أن تسمع اجتهادي:

– أرادوا إظهار لفتتهم، فأبقوا على المدخل.

- لمَنْ أرادوا إظهار لفتتهم؟

– للتاريخ، لطالبات المدرسة السابقات، للمارِّين.

- إذا كنتَ تعتقد أنهم فعلاً أظهروا لفتتهم، فهذا من أجلهم هم، ليتذكَّروا عملهم البطِلي في الانتصار على حجارة المدرسة، هيَّا، لننطلق.

وعندما أدرتُ نفسي، سمعتُ لُور تصرخ:

- انظرْ، كيف فاتنا هذا؟

كانت تشير لنقشٍ على البوَّابة، يمثِّل حمامة تحمل غصن زيتون، نُقش بخطوطٍ مريحة للنظر، وبشكل غير صارخٍ، فهتفتُ:

– ما أجملها ..!

عدنا من شارع الأنبياء، وتوقَّفنا مرَّة أخرى أمام المستشفى الألمانيّ، الذي يقف أمامه العديد من اليهود المتديِّنين، قلتُ لها بأن أبا روحي أخبرني بأن العمَّ كوكو، أيضاً، هو مَنْ صمَّم هذا المستشفى. قالت لي:

- يا لهذا الشيك جنَّنتَنا به ..!

ثمَّ أردفتْ وهي تنظر إلى مدخل المستشفى، بلهجة حماسيَّة: «انظرْ إلى الحمامة الحجريَّة البيضاء النافرة التي تحمل غصن الزيتون».

هتفتُ هذه المرَّة أيضاً:

– حمامة العمِّ كركو ..!

وكأن لُور لم تنتبه لي، سمعتُها تتابع: «انظرْ لما يحيط بالحمامة؛ حبَّات حجريَّة، شكَّلها الحجَّار دائريّاً حولها. هل تستطيع عَدَّها؟ انظرْ كيف تساقط جزء منها بفعل الزمن، ولكنَّ غصن الزيتون لم يتأثَّر».

وبينما هي مأخوذة بمشهد الحمامة على مدخل المستشفى، وأنا أُقارن بين حمامَتَي العمِّ كوكو، وأحاول الاستنتاج بأنه اتَّخذ من الحمامة علامةً ورمزاً، حتَّى تقدَّم فتى يهوديٌّ، واصطدم بكتفها، ولا أعرف كيف صفعتْهُ بسرعةٍ على وجهه في ردَّة فعل غير مقصودة، ولن نعرف إذا ما فعله كان مقصوداً أم عفوياً؟ ولم يعد هذا مُهمّاً، وقبل إفاقته من الصدمة، كنتُ ابتعدتُ عنه مسافة كافية، وبيننا لُور، بينما تجمَّع حوله

عدد من رفاقه يهدِّدون، وفي لحظة التوتُّر هذه التي لم نُقدِّر ما يمكن أن ينتج عنها، انتزعت لُور وردتها الحمراء، وقذفتْها عليهم، واستدارت نحوي، وركضنا سويّاً نحو قُدْسنا، ذلك الجزء من القُدْس الذي عرفناه أكثر من غيره، دون الالتفات خلفنا.

التاسع والأربعون

روى والدي جُزأه الخاصَّ من حكاية هروبنا أنا ولُور، بينما كانت أُمِّي تُعبِّر عن قلقها بطريقتها، التي فيها لوم لوالدي، لعدم اعتنائه بي كما يجب، وتركي أتعرَّض لتجربة الشجار مع اليهود، ومَنْ يعلم عن ماذا كان سيُسفر؟ فاليهود، بالنسبة إليها، هم اليهود، الذين احتلُّونا مرَّتَيْن، ونكبونا مرَّات.

قال والدي وهو يضحك، موجِّهاً كلامه لأُمِّي: «كنتُ قلقاً عليه، متسائلاً أين يمكن أن يكون ذهب هذا العفريت الصغير، وعندما أطلَّا مرعوبَيْن، هو ولُور من جهة حَيٍّ مئة شعاريم، يركضان، وينظران خلفهما، اضطربتُ وقلتُ ماذا فعل المجنونان؟! وعندما وصلا كان ابنكِ يتصبَّب عَرَقاً، ويتدلَّى لسانه ككلبٍ وهو يلهث، وعندما احتضنتُهُ شعرتُ بدقَّات قلبه تكاد تخرج من صدره خوفاً وجزعاً، رثيتُ لحالته أمام صديقته، ماذا ستقول عنه؟ لم أتوقَّع ذلك من صديقي ورفيق مشاويري، اعتقدتُهُ دائماً أقوى وأرْجَلَ».

أضاف وهو يزداد ضحكاً: «أخذتُهما إلى مطعم العِكِرْمَاوِي، كي يرتويا من الماء، ويخفَّ خوفهما، وبدا ابنكِ كجرو ماء حقيقي لا يرتوي، بينما اكتفتْ لُور بالقليل، أرادتْ أن لا تُظهِر هَلَعَهَا، بعكس ابنكِ المرتعد خوفاً».

حاولتُ الاعتراض، والتأكيد بأنني لم أكن خائفاً، وأنا أضغط على رقبة وَزَّة وهي في حضني، لإخفاء توتُّري، وغضبي من كلام والدي، الذي مسَّ ذكورتي، ولكنه استمرَّ في الحديث، وهذه المرَّة توجَّه لي، وهو مستمرٌّ في الضحك: «كلُّنا نخاف، يا بُنيَّ، والهرب ليس عيباً، ألم تسمع الشاعر يقول: وفي الهروب كالغزال؟ أنتَ لم ترَ كيف كنتَ غزالاً شارداً، ولُور مثل غزالة هاربة جزعة، مسكينة البنت، لقد ورَّطتَهَا».

وكرَّر أكثر من مرَّة بيت الشِّعْر، ولكنْ، هذه المرَّة كاملاً، مصحِّحاً ومضيفاً إليه بيتاً آخر، وهو يضحك:

وفي الهيجاء ما جرَّبتُ نفسي / ولكنْ، في الهزيمة كالغزالِ

ولي عزمٌ يشقُّ الماء شقَّاً / ويكسر بيضتَيْن على التوالي

وقال وهو مستمرٌّ في الضحك: «أرأيتَ؟ لستَ وحدكَ ممَّنْ يهربون من المواجهة، تمعَّنَ في قول الشاعر، وإعلائه من شأن الجبن، ربَّما عزيمتكَ أكبر من عزيمته، فأنتَ تستطيع كسر عشر بيضات على الأقلِّ، بضربةٍ واحدة».

ونقل عدوى الضحك إلى أُمِّي، التي احتضنتْني وهي تقول: «حبيبي أسدٌ في الهجوم، وفي الهروب غزالٌ رشيقٌ، لا يمكن أن يُمسكَهُ أحد».

فردَّ والدي: «أسد؟ يبدو أنكِ لا تعرفين صغيركِ، لقد رشقوا على اليهود وردة، يا لها من بطولة ..!».

دافعتْ والدتي عنِّي وعن لُور: «وماذا تريد أن يفعل الصغيران؟ المهمُّ أنهما كانا من الذكاء والجسارة والتخطيط، بأن هربا في الوقت المناسب».

قال والدي: «مَنْ يريد أن يدخل في مشكلة مع اليهود، عليه أن يكون مستعدَّاً، ولكنْ، ليس بالورد».

تضايقت والدتي، واعتبرت ما تفوَّه به زوجها تحريضاً على العنف، ما كان يجب أن يقوله في حضرة ولد جاهل مثلي، قد يتورَّط فيما لا يجب أن يتورَّط به، وقالت محذِّرة من خطورة اليهود وغدرهم: «المثَلُ لدينا يقول: كُلْ عند اليهوديِّ، ونَمْ عند المسيحيِّ، فاليهود وإن كانوا مثلنا يأكلون الطعام الحلال، فإنه لا يُؤمَن جانبهم، أمَّا المسيحيُّون، فمثلنا مثلهم».

تخيَّلتُ الطعام الذي تأكله لُور، وكيف أنني يمكن أن لا آكل منه، فمَجَجْتُ قول أُمِّي، بينما قال والدي وكأنه حزر ما أفكِّر به: «الأمثال القديمة قد لا تُعبِّر بدقَّةٍ عن واقعنا الجديد».

وحاول والدي أن يبثَّ بعض الثقة لديَّ، فقال: «لا تنزعجْ، يا بُنيَّ، من الورد ومعاركه، هل تدري، بأن واحدة من أكثر الحروب إلهاماً للأدباء والفنَّانين، تلك التي تُسمَّى حرب الوردتَينْ؟ والتي استمرَّت عدَّة عقود، حول الأحقِّيَّة بعرش بريطانيا، قبل أن تصبح عظمى، ثمَّ تأفل عليها اللعنة، ومثلما حدث لدينا بين حزبَي قيس ويمن، اتَّخذ طرفا الصراع اللونَيْن الأبيض والأحمر شعاراً، فكان طرف يرفع شعار الوردة البيضاء، والطرف الآخر يلوِّح بشعار الوردة الحمراء».

ولكنه عاد ليسخر منِّي، مردِّداً المنظوم الشِّعْريَّ، مذكِّراً بالغزال الهارب، والغزالة الشاردة، من بضعة أولاد يهود.

فكَّرتُ إذا كنتُ فعلاً ظهرتُ بالصورة التي وصفها والدي أمام لُور؟ وطمأنتُ نفسي، بأنها أيضاً كانت مثلي، وشريكتي في الهروب، ولكنّ هذا لم يُزِل القلق الذي بدأ يتولَّد لديَّ، ويكبر.

كيف تراني لُور فعلاً؟

الخمسون

بعد أن تناولتُ الطعام الذي جهَّزتْهُ أُمِّي، وحدي، سألتُ والدي عن طاليتا قومي، تدخَّلت أُمِّي وهي تضحك:

- نحن نُسمِّيها مدرسة شالوتا ..!

أمَّا والدي، فخرجتْ من فمه تنهيدة، هي مزيج من ارتياح وأسى: «لا يمكن إحصاء عدد الذين مرُّوا على القُدْس، من فاتحين، وغزاة، وأفَّاقين، ورحَّالة، ورجال دِيْن، وعلماء، ومغامرين، وصعاليك، وحُجَّاج، ومن أهل الدنيا، ومن أهل الدِّيْن، ومن الشيوخ المعمَّمين الموظَّفين، ومن الصوفيِّيْن، من الكرج، والإفرنج، والروس، والأوزبكيِّيْن، والمغاربة، والأفغان، واليهود، والإسبان، واليونان، والألمان، والإنجليز، ومن الأمم كُلِّها؛ ولكنْ، يمكن أن نحصي عدد الذين لم يريدوا أن يكون مرورهم هكذا مروراً عابراً، مثل القَسّ الألماني فليدنر، مؤسِّس جمعيَّة كايزرسفيرث للشمَّاسات، وهو إنسان شبيه بالعمِّ كوكو، اعتبر القُدْس، بشكلٍ أو بآخر موطناً، وهدفاً لمشاريع خيريَّة، وفي زمنٍ بعيد، منذ أكثر من مائة وعشرين أو مائة وثلاثين سنة، عندما لم يكن في القُدْس مدرسة للبنات، فتح أوَّل مدرسة لهنَّ، بمساعدة أربع شمَّاسات، ولأن الناس في ذلك الوقت كانوا يخافون على بناتهنَّ كثيراً، فإن ما أسَّسه فيلدز لم تكن مدرسة فقط، وإنما ملجأ تمكث فيه التلميذات، ويتعلَّمنَ، وفي البداية لم يجد القَسُّ تجاوباً من أهالي القُدْس، فاشترت الشمَّاسات بنتاً زنجيَّة من سادتها، لتكون أوَّل طالبات القسم الداخلي في دار الشمَّاسات التي وجدت فيها أيضاً المستشفى الصغيرة، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، وبعد

سبع سنوات، أصبح في مدرسته الإنجيليَّة أكثر من ثلاثين طفلة عربيَّة ويهوديَّة وأرمينيَّة، سَكَنَّ في بيت المدرسة الداخلي».

سألتُ والدي عن البنت الزنجيَّة، وعن هُوِيَّة الزنوج، قال، كما عادته، بأن الموضوع طويل، ولكنَّ ما يعلمه أن الزنوج في القُدْس، والخليل، ويافا، هم رقيق، وصلوا إلى بلادنا بطُرُقٍ مختلفة، وأن حديثاً غير مؤكَّد سمعه بأن البنت الزنجيَّة التي اشترتْها الشمَّاسات، وصلت إلى القُدْس مع زنجيَّات أخريات رقيقات، اشتُرينَ من السعوديَّة، وهنَّ من بنات الزنجيَّات اللواتي سبَّاهنَّ الوهابيُّون خلال غزوهم لكربلاء.

قذف والدي في وجهي جملة أسماء وأماكن وغزوات، أحتاج إلى وقت لهضمها، فلم أسأل أو أُعلِّق، تاركاً نفسي لطريق طويلة، قد أسير فيها لاحقاً، لأتتبَّع المواضيع الطويلة كما يصفها والدي.

روى والدي حكاية زنجيَّة تحسَّنت أحوالها بشكلٍ ملحوظ بعد وفاة سيِّدتها، التي أحبَّتها، وأعتقتْها قبل موتها، ووهبتْها ثروتها، واستثمرت ما ورثتْهُ إضافة إلى ما جمعتْهُ في بعض حمَّامات القُدْس، وأصبحت مرغوبة للزواج، بسبب مالها، وفعلاً تزوَّجت أكثر من مرَّة، وبدلاً من أن يسلبها مَنْ تزوَّجتهم أموالها، كانت ثروتها تزداد، بعد طلاقها أو وفاة أحدهم، ولكن الدنيا لم تكن لتضحك لها على طول، فوُجِدت في أحد الأيَّام مقتولة بمنزلها في القُدْس القديمة، ولم يُكشَف عن القاتل الذي قد يكون لصَّاً، أو ابناً لأحد أزواجها الذي شعر بغُبن وهو ينمو في شوارع القُدْس بدون مال كافٍ، أو قد يكون أيَّ شخص لا نعرف دوافعه. المهمُّ في القصَّة أن الزنجيَّة التي قبلها مجتمع القُدْس، وهي حرَّة، ثريَّة قويَّة، لم تكتمل حكاية حياتها كما أملت، وأملت سيِّدتها التي أحبَّتْها.

تدخَّلت والدتي لتُنبِّه والدي قبل أن تنسى، لحكاية طفلة يتيمة من بنات المدرسة سمعتْ بها من عائلتها، فتذكَّر والدي متسائلاً: «تقصدين حكاية

نجمة؟». ولم ينتظر إجابة أُمِّي، فواصل: «مسكينة تلك البنت نجمة، فالقُدْس كُلُّها كما علمتُ تأسَّت لحكايتها، وُلِدت يتيمة في قريتنا، ومات والدها، وتزوَّجت أُمُّها شقيقَ والدها، وعانت الكثير، بسبب عدم تقبُّل العمِّ زوج الأُمِّ لها، ولا أعرف تفاصيل ذلك، ووجدت مَنْ يقودها إلى مدرسة القَسِّ فيلدز، وبعد عامَيْن أو ثلاثة قضتْها في المدرسة الداخليَّة، وجدت أيضاً مَنْ أتى برفقة عمِّها، ليُخرِجها من المدرسة، بعد انتشار زعم بأنها تحوَّلت إلى الديانة المسيحيَّة، ولكنها لم تتمكَّن من التأقلم من جديد في جوِّ قريتنا، خصوصاً بعد أن زوَّجوها من ابن عمٍّ لها، لديه امرأة أخرى في منزله، لم يفهمها، ولم تتمكَّن من التعايش في منزله ومع عائلته الموجودة فيه قبلها، وبعد فترة وجدوها عارية وقد انتحرت في بِرْكَة العَيْن، تاركة ورقة، خطَّت عليها سبب انتحارها، وأوَّل رجل وصل البِرْكَة، وشاهدها تحت المياه الضحلة، رفعها، وغطَّاها بعباءته ستراً لها، وبسبب انتحارها، دُفنت بدون مراسم دينيَّة، وبعدد قليل من الناس، ودون أيَّة إشارة إلى قبرها في مقبرة باب الرحمة، ولم يُسمَح للقَسِّ أو أيٍّ من الشمَّاسات أو زميلاتها بوداعها».

سألتُ والدي ماذا كتبت نجمة عن سبب انتحارها، فقال بأنه في ذلك الزمان لم يكن يعرف القراءة والكتابة في القرية إلَّا قلَّة، من الذين درسوا في الكتاتيب، حيث كان القلم عبارة عن قُصَيْبَة، والحبر السِّنَاج على بواطن الطناجر، يُذوِّبونه في الماء، فيصبح حبراً، أو من الشيوخ الذين درسوا في الأزهر الذين يبدو أنهم لم يهتمُّوا بما كتبتْهُ المسكينة، بقَدْر اهتمامهم، بتحريم فعلتها، وتغليظ التحريم لمَنْ يشارك في دفنها، ولكن الرواية الشفويَّة المتناقلة تحدَّثت عن تأسِّيها، لأن جسدها الجميل كان من نصيب رجل غليظ لا يُقدِّر الجمال، فقرَّرتْ أن تجعل جمالها مستباحاً ليراه الجميع، انتقاماً منه، ومن الذين أجبروها على الزواج منه. فمَنْ يقرِّرون

مغادرة دنيانا يحرصون، أحياناً، على ترك تبريرهم، أو حتَّى انتقامهم، كما فعلت المسكينة نجمة بجسدها».

حزنتُ لحكاية نجمة، وأثَّر فيَّ موتها البعيد، وإن لم أفهم تماماً لماذا ضعفت وانتحرت؟ ولماذا لم تتحدَّ، وتهرب من القرية، وتعود إلى القُدْس؟ ربَّما تمكَّنت من الاختفاء في بيت المدرسة الداخلي لدى الشمَّاسات.

قال والدي: «هذه حكاية قديمة، نسيتْها قريتنا الآن، ولم يعد يذكرها إلَّا أصحاب القلوب الحسَّاسة جدَّاً مثل أُمِّكَ».

لم تُعلِّق أُمِّي على كلام زوجها، واكتفت بأمائر صنعتها على وجهها الطافح بالمحبَّة والرضا، الذي لا يمكن التكهُّن أبداً، إلى أيٍّ مدى سيستمرُّ راضياً محبَّاً، ثمَّ قالت: «أكْمِلْ الحكاية لابنكَ».

قال والدي: «حكاية نجمة انتهت، أمَّا حكاية المدرسة، فَخَطَت قفزة مهمَّة تاريخيَّة، فبعد سنوات، دشَّن القَسُّ بيتاً جديداً باسم طاليثا قومي في القُدْس التي كانت تتمدَّد خارج الأسوار، التي ستُعرَف باسم القُدْس الجديدة، وارتفع عدد التلميذات ليقارب المئة طفلة، وصمَّم البناية متحمِّساً العمُّ كوكو، مثلما صمَّم المستشفى الألماني الذي استقلَّ عن المدرسة، وأراد المهندس الرائع ترك بصمته على حداثة القُدْس المِعْمَارِيَّة الناهضة، لتضعَ الأقدارُ أُناساً في منعطفات، وقلَّة منهم يُدركون وضعهم وحركة التاريخ حولهم، ويتحمَّسون بشَغَف، وهذا ما فعله العمُّ كوكو. عموماً واصلت المدرسة تطوُّرها وتحقيق النجاحات في مبناها الجديد، فأُضيف إليها معهد صغير لتدريب المعلِّمات، ولتعليم البنات العربيَّات، ومدرسة للشمَّاسات العربيَّات تحت التجربة برئاسة الشمَّاسة شارلوت، وعُرِفت المدرسة باسمها بين الناس، وأصبحت طاليتا قومي مدرسة شالوتة،

وشالوتا، بين العامَّة الذين يستسهلون كلَّ شيء مثل أُمِّكَ، أمَّا مَنْ أراد إظهار فصاحة، فأصبح اسمها مدرسة شارلوتة».

أراد والدي المماحكة، واعترضت أُمِّي كما توقَّع:

- الخوف كُلُّه من أصحاب الفصاحة أو مدَّعيها، ما سمعتُهُ منذ أن كنتُ صغيرة، بأن اسمها مدرسة شالوتة.

لم يكن يهمُّني إذا كان اسمها شالوتة، أو شارلوتة، وإنما أردتُ الحصول على حكاية كاملة، يمكن أن أرويَها بشَغَفٍ لِلُور، ليس مثل القبض على الحكايات، شَغَفَاً بالنسبة إليَّ، التي أعيش بها وأحملها، وأرويها، ولم أرد أن لا يُكمِلَها والدي، مؤجِّلاً ذلك، كما يفعل أحياناً، إلى زمنٍ غير محدَّد، أو قد لا يأتي.

استمرَّ والدي في المماحكة: «لم تكن شالوتة إلَّا مرحلة في تاريخ المدرسة، وما زال البعض يتمسَّك باسمها، وكأنه يريد إيقاف الزمن، لأنه جاءت بعد موتها دوروثيا المحبوبة، وعشيَّة الحرب العالميَّة الأولى زاد عدد البنات، وترعاهنَّ شمَّاسات بعدد أصابع اليدَيْن أو أكثر قليلاً، ولكن الحظَّ لم يكن حليفاً دائماً للمدرسة، فخلال الحرب اعتقل البريطانيُّون الشمَّاسات الألمانيَّات، ونقلوهنَّ إلى مصر، وأغلقوا المدرسة، وسيطروا على البناء، باعتبارهم الطرف المنتَصِر في الحرب، بينما الألمان هم مَنْ خسروها، ولم تُفتَح المدرسة من جديد إلَّا بعد عشر سنوات، وربَّما أكثر بعد تسليم المدرسة لأصحابها، وانضمَّ إليها طالبات تعلَّمنَ في القسم الداخلي، وبدأ مسار المدرسة ينتظم، وإن كان ببطء، وأضيف للمدرسة فرع التدبير المنزلي، كالخياطة، وتدريب مُربِّيات لرياض الأطفال، وواصلت المدرسة تطوُّرها، ومثلما حدث في الحرب العالميَّة الأولى، حدث في الثانية، وكرَّرت بريطانيا

العظمى، للمرَّة الثانية، اعتقال الشمَّاسات، وظلَّت مباني المدرسة فارغة، ولكنْ، بعد النكبة، واحتلال الجزء الغربي من مدينة القُدْس استولى اليهود على المباني والأراضي التابعة للمدرسة، وفعلوا ذلك أيضاً بالمستشفى الألمانيِّ، الذي حاولتَ أمامه أن تُظهِرَ بطولتَكَ أمام لُور، يا غزال أُمِّه».

كتمتُ غضبي ورغبتي في التوضيح، وصَمَتَتْ أُمِّي، وقد اختارت أن تُكبِّر مُخَّها، بينما واصل والدي، بعد أن رمى سهمه نحوي، وهو يعلم بأن شَغَفي بالحكاية سيحول دون ردٍّ: «نقلت المدرسة عملها إلى مدينة بيت جالا، لاستيعاب التلاميذ اللاجئين بسبب النكبة، أمَّا ما رأيتَهُ أنتَ ولُور، فهو مدخل المدرسة التي هدمها المحتلُّون المنتشون بالنصر الجديد، واحتلال ما تبقَّى من القُدْس. هل هذا يكفي أم تريد المزيد؟».

تدخَّلت أُمِّي وقالت وهي تبتسم: «يكفي، لقد شرَّقْتَ وغرَّبْتَ، وأوجعتَ رؤوسنا، وأظهرتَني عامِّيَّة جاهلة، وولدكَ غزالاً تائهاً».

ولكنْ، بالنسبة إليَّ، فإن حكاية المدرسة، وحكايات القُدْس الأخرى، ستسكنني وسأظلُّ أنكش فيها لفترةٍ لاحقة؛ ولكنْ، الآن كان عليَّ وعلى والدي الاستجابة لإلحاح أُمِّي لتناول العشاء معاً، مع أنني لم أكن جائعاً، فالوجبة التي أعدَّتْها أُمِّي سريعاً، بعد وصولي، كجزءٍ من إغاثتي إثر واقعة الوردة، كانت أكثر من كافية.

ولكنْ، هذه هي أُمِّي، تحبُّ أن تراني أزدرد الطعام دائماً.

لماذا تفعل ذلك، وكأنه واجبها الأهمّ في الحياة؟ ولماذا لا تريد التصديق بأنني آكُل عندما أجوع، مثل كلِّ الناس والحيوانات أيضاً، كقطَّتي وَزَّة؟

ضغطتُ على رقبة وَزَّة، لتموء قائلة بأنها مثلي، لا تحبُّ ازدراد الطعام غصباً.

الواحد والخمسون

بعد أن تعشَّيْنا على الطَّبْلِيَّة، همست أُمِّي في أُذُن والدي، وضحكا، سينتشر الخبر؛ بأن السَّبْع طَرْبَل مرَّة أخرى، وسيتلقَّاه أهل القرية، بدون استغراب، رغم أن منهم مَنْ رغب صادقاً بنجاح تجربة السَّبْع الثانية، ولكنَّ مَنْ تستهدفه الأقدار، لا يستطيع البشر تغييره.

استمرَّ والدي بالمزاح، محاولاً إشاعة أكبر قَدْر من الفرح في المنزل، وبدا وكأنه مدفوعاً بقوَّة قاهرةٍ، لا يستطيع معها فَرْمَلَة ضحكاته، وهو ينظر إليَّ، مردِّداً ما يتعلَّق بالوردة، والغزال الهارب، ويتمحَّك بأُمِّي، فيما يتعلَّق بتفسيرات اسم شارلوت، التي لعلَّ عظامها تململت في مستقرِّها الأخير، أو أن روحها تحوم قريباً منَّا، في وادي حُلْوَة، مأخوذة بما يدور حولها بمنزلٍ في قرية ضربتْها الحرب، وتئنُّ من تبعاتها؛ نزوح عائلات منها، وتشرذم أخرى، وتقطُّع سُبُل شبَّانها وموظَّفيها الذين يعملون في دول الخليج، الذين باغتَتْهم الحرب، وقطعت الحبل معهم.

قالت أُمِّي متوجِّسة: «الله يستر مِن كلِّ هذا الضحك».

يخشى أهلي الضحك المفرط، ويدركون، من خلال تجاربهم الموغلة في القِدَم، أنه سيليه هبوط، قد يكون حزيناً.

وستقول أُمِّي لاحقاً، بأن حدسها كان صادقاً، بعد أن سمعنا طرقاً على باب المنزل، وعندما فتح والدي الباب، طلب عددٌ من الرجال الإذن لهم بالدخول، فرحَّب بهم والدي على عادة ما يفعله الناس في بلادنا، من عدم إغلاق الباب في وجه أيِّ طارق.

تنحنح والدي، وهذا يعني برقيَّة لأُمِّي، لكي تتوارى في المطبخ، حتَّى يتمكَّن من إدخال الضيوف إلى غرفة المعيشة، والذين بدورهم تنحنحوا، وقال بعضهم: «يا ساتر»، والتي بدت وكأنها كلمة رمزيَّة، لإعلان الدخول إلى منزلٍ غريب، لإشعار نسائه بقدوم الغرباء، حتَّى يحتطنَ، والأمر نفسه مع كلمة «دستور»، التي يظهر من خلالها ناسنا الذين يبدون قليلي الكياسة في حياتهم اليوميَّة، فكياستهم وإعلانهم أنهم بدخولهم منزل غريب، مستأذنين، ملتزمين بدستوره.

جلس الرجال على الفرشات المفرودة على الأرض، بينما رفع والدي صوته باتِّجاه امرأته: قهوة، ولكن أحدهم طلب تأجيل ذلك، وهذا يعني أنه أتى مطالباً بحقٍّ، لا تُشرَب القهوة دون تحقيقه.

قال والدي: «ولِمَ لا؟ اشربوا قهوتكم، نحن أهل»، ثمَّ طلب من أبي أحمد المتحدِّث باسم الرجال الغرباء أن يعرض كلامه، معلناً أن كلَّ شيء سيكون كما يريده هو وصحبه.

التصقتُ بوالدي، ورغم أن النُّعاس أخذ بغزوي، إلَّا أنني أردتُ أن أظلَّ متيقِّظاً، إلى أكبر فترة أستطيعها.

قال الرجل الغريب: «يا أبا كافل، نحن جيرانكم في رأس العَمُود، نحن قرية واحدة وأهل، ولم نكن نتوقَّع أن يُقدِم سَبْعكم على ما أقدم عليه، فهو يعرف بالأصول، وإذا كانت نفسه ما زالت متعلِّقة بأميرة، فلماذا طلَّقها؟ ولماذا الآن يقف في طريقها؟».

بدا والدي لا يعرف، عن ماذا يدور الحديث، وظهرت على وجهه ملامح الحَيْرَة، وتوجَّس المجهول، فسأل عن القصَّة.

جلس أبو أحمد جلسته، وهي علامة على جِدِّيَّة ما سيقوله، وعندما

فعلتُ مثله ماءت وَزَّة، بعد أن وجدت نفسها فجأة تحت فخذي، فنظر لي والدي غاضباً، ونهرني طالباً منِّي إبعاد القطَّة، فحملتُها، ووضعتُها على باب المطبخ، وعدتُ سريعاً إلى جانب والدي، الذي لم ينتبه إليَّ وهو مشدود لحديث الرجل: «أخونا السَّبْع، سَبْعكم، اختبأ عصر اليوم، في مقبرة اليهود، وكَمِنَ كفأرٍ، وعندما مرَّ ابننا إسماعيل من أمام طَنْطُوْر فرعون هجم عليه، كقِطَّةٍ جريحة، وأوسعه ضرباً، وأنتَ تعلم قوَّة السَّبْع، وجسامة جسمه، مقارنة بإسماعيل المسكين».

تدخَّل أحد الرجال، ليتوسَّع في رواية ما جرى، متحدِّثاً بحرقةٍ وألم، ولعلَّه كان شاهداً على ما حدث أو أكثر قرباً لإسماعيل عائليَّاً، ولكنَّ نظرةً حادَّة من أبي أحمد جعلتْهُ يصمت، فلا يجوز في حضرة المتكلِّم الرئيس أن يتكلَّم آخرون، وكأن المتحدِّث باسمهم غير قادر على تمثيلهم، وتقديم حجَّتهم.

لم يفهم والدي الذي أصابه ضيق شديد ممَّا فعله قريبه، لماذا يهجم السَّبْع على إسماعيل؟ خصوصاً وأن إسماعيل يُعتبر من الرجال البسطاء، الذين لا يؤذون أحداً، ولا يفكِّرون في ذلك أصلاً، وعلاقته مع الجميع حسنة، وفيها كثير من العطف من قِبَل الآخرين عليه، فإسماعيل يحصل على رزقه بصعوبة لإعاقة ضربتْهُ صغيراً، لعلَّها من أثر شلل الأطفال، الذي كان يبطش بأولاد قريتنا، ولا يُعرَف له علاج باتر مانع، إضافة إلى سمات من البساطة العقليَّة التصقت به، جعلتْهُ يُصنَّف في خانة الذين ينظر إليهم البقيَّة بعطفٍ وشفقة، وأحياناً لنيل البَرَكَة.

ولم تطل حَيْرة والدي، فأبو أحمد أجابه عندما سأل بأن إسماعيل خطب أميرة، وهي وافقت، وكذلك رحَّبت عائلتها، وهذا أمر مشروع دينيَّاً ووضعيَّاً، وفي كلِّ مذاهب الخلق، فهي لم تعد متزوِّجة، وما فعله السَّبْع أمر غريب يخرج عن تقاليد ناسنا سواء في القرى أو في المُدُن، وحتَّى في البوادي.

أدرك والدي مدى الورطة التي وضع السَّبْع نفسه وعائلته فيها، وأراد التخفيف على ضيوفه، فهتف: إسماعيل بَرَكَتنا، وصادق على كلام أبي أحمد، الذي أكَّد أن جماعته لم يُبلِّغوا الشرطة، لأنهم لم يريدوا كعائلةٍ أن يُسجِّلوا على أنفسهم موقف التعامل مع شرطة الاحتلال، وأنهم في انتظار عائلتنا ليأتوا إليهم، ويعطوا الحقَّ لأصحاب الحقِّ جرَّاء ما فعله السَّبْع، كما هو العُرْف في بلادنا، ولن يأخذوا حقَّهم بأيديهم، لا من السَّبْع أو من غيره من أبناء العائلة، لاعتقادهم بأن بلادنا تحتاج، أكثر من أيِّ وقت مضى، لناسها، ليُكبِّروا عقولهم.

رغم تمنُّع الرجال، أصرَّ والدي على أن يحتسوا القهوة، مؤكِّداً اشمئزازه من فعل السَّبْع، وأن شربهم القهوة لن يغيِّر من أيَّة مسألة تتعلَّق بحقِّهم العشائريِّ.

قال والدي ليحسم الموقف: «حقُّكم ستأخذونه، وكرامة إسماعيل ستكون دائماً مصانة، وهو ابننا، مثلما هو ابنكم، وما تطلبونه سنُنفِّذه».

وعندما ودَّع الرجال على باب المنزل، لم يكفّ عن التبرُّم وهو يقول: «كيف فعلها هذا المجنون؟ ولماذا لم يدرك بأن أميرة لم تعد له؟».

وأكمل مبتسماً: «وهل كانت له أصلاً هذا الكرَّاز؟»

ضحكت أُمِّي، التي سمعت الحديث، وقالت بأن السَّبْع ذو المَيلَيْن، تجاوز أموراً كثيرة، وبأنه لا بدَّ من وضع حَدٍّ لتهوُّره، الذي لن يؤذيَهُ هو فقط.

ما هي هذه الأمور التي قد يكون السَّبْع تجاوزها؟ لم يخطر على بالي الاستفسار من أُمِّي، وأعرف حقيقة ما يدور حولي.

توجَّه والدي، إلى منزل السَّبْع، بينما كنتُ أدفن نفسي تحت الفرشة بعد يوم شاقٍّ، من مغامرتي مع لُور والهروب من أولاد اليهود، وأخيراً مشكلة

السَّبْع التي يبدو أنها صعبة، والتي لن يتحمَّل هو وحده المسؤوليَّة عنها، وإنما العائلة بأكملها. وهذه هي قوانين قريتنا والقرى المجاورة، وهي من الخطورة إلى درجةٍ، توقَّع أن ينتقم إسماعيل أو أيٌّ من أفراد عائلته من أيِّ شخص في عائلتنا حتَّى لو لم يكن مطَّلعاً على ما حدث، ولن تكفي مطمئنات أبي أحمد، كما أخبرتْني أُمِّي، لكي آخذ حذري.

لم يُخِفْني كلامها، ولكنه أضحكني عندما أخبرتْني بأنني قد أكون مرشَّحاً للانتقام أكثر من غيري، لصباي، ووسامتي، وذكائي.

يا لفخر أهداف الانتقام العشائريَّة ..!

الثاني والخمسون

بعد يومَيْن أو ثلاثة، وجدتُ نفسي أرافق الجاهة التي حضَّرتْها عائلتي من الوجهاء وأهالي القرية، إلى مسجد مُحمَّد الفاتح في رأس العَمُود، حيث نُصبت المحاكمة العشائريَّة للسَّبْع، وبينما جلس الناس، ناسهم وناس قريتنا على كراسي في مجموعتَيْن متقابلتَيْن، وقفتُ بجانب لُور، خلفهما نتابع ما يجري. ولاحظتُ وجود الشيخ عبد ربِّ النبي وبجانبه أبونا بوللو، يجلسان على كرسيَّيْن بين المجموعتَيْن، وكأنهما حجر الزاوية، الذي بدونه تنهار الجدران.

بالنسبة إلى ناس رأس العَمُود، فلا يوجد مكان أكثر مناسبة، من ساحة المسجد، لاستقبال الجاهة، باعتبارها الفضاء الوحيد في الحَيِّ، لأخذ عطوة عشائريَّة بين عائلتنا وعائلتهم.

قُبالة المسجد تقريباً، وفي الطريق إلى أريحا، سيطرت الشرطة الإسرائيليَّة، على مبنى حجري جميل، كانت تستخدمه الشرطة الأردنيَّة، ووقف بضعة رجال شرطة على شرفة المبنى الذي كان في الأصل، على الأرجح منزلاً عائليَّاً، قبل أن تتناوبه الشرطة في العهدَيْن، يراقبون ما يجري في ساحة المسجد.

وعلى طريق أريحا، بَنَتْ عائلات من القُدْس منازلَ لها، وأظهرت حسنها بالاختيار المناسب للحجر المحليِّ، وفرَّ بعض سكَّانها، كما أخبرني والدي، خلال الحرب إلى الأردن، وعاد بعض من أفراد العائلات تسلُّلاً، خلال الأشهر الأولى التي لم تتمكَّن فيها قوَّة الاحتلال، من السيطرة على حدود نهر الأردن، ولكنَّ هناك منازل ما زالت فارغة.

- كيف يمكن لهم أن يتركوها؟

قال والدي بحزنٍ، بصيغة تساؤل مرير.

ألقى مختار رأس العَمُود كلمة ترحيبيَّة، لم تخلُ من رسائل، أشار أوَّلاً إلى بَرَكَة المكان، المقابل للمسجد الأقصى، حيث تظهر قبَّة الصخرة هناك في الأعلى، وكأنها تبارك هذا الجمع، الذي جاء لعقد رايات الصلح والسلام، ثمَّ حيَّا شباب رأس العَمُود، لالتزامهم الهدوء، ولم يردُّوا بضرب السَّبْع الذي كان جالساً في الصف الأوَّل بجانب والدي، ليسمع كلَّ ما سيقال عنه.

بدا لي أن السَّبْع غائبٌ عمَّا يجري حوله، وأنه لم يأتِ إلى هنا، إلَّا لأنه مجبرٌ من قِبَل العائلة على ذلك، فجلس بوجه لا حياة فيه، وبعينَيْن غائرتَيْن، لا يمكنهما أن تهتمَّا بشيء.

وفجأة خرج صوت لم ننتبه في البداية من أين أتى، وتبيَّن أنه شقيق إسماعيل الصغير، وهو بعُمُر لُور تقريباً، صرخ مُحتجَّاً على وجود السَّبْع، غير قادر على استيعاب وجود المجرم الذي ضرب شقيقه وسطنا، ولكنّ مشاعر الشقيق الصغير، لم يستمرّ التعبير عنها طويلاً، فنهره المختار، مهدِّداً بإخراجه من المكان إذا رفع صوته

عالياً مرَّة أخرى، أو حتَّى إذا تنفَّس بصوت مسموع، فلا يحقُّ لأحد الحديث في هذا المقام، إلَّا مَنْ هو مخوَّل بذلك، وهو المختار نفسه.

رأيتُ الشقيق الصغير منفوش الشَّعْر، مورَّد الوجنَتَيْن من الغضب، وقد صمت، مطأطئ الرأس إلى أسفل، محاولاً فَرْمَلَة مشاعره.

قال المختار بأن جلوسنا في ساحة مسجدٍ، يحمل اسم فاتح عظيم، يعني بأن الأمور لن تبقى كما هي عليه، وبأن الحروب جولات، والانتصارات دول، يداولها الله بين الناس، وإن أصحاب الحقِّ سيستعيدون حقَّهم، حتَّى لو بعد حين.

وانطلق المختار فيما بدا أنها خطبة سياسيَّة غير متوقَّعة، فأدان الاحتلال الذي هدم حارة المغاربة، ونقل الركام، ورماه في وادي قَدُّوم قريباً من رأس العَمُود، وقال بعصبيَّةٍ: «لم يكتفوا بهدم منازلنا على رؤوسنا، بل هدموا مساجدنا، وشرَّدوا ناسنا، ثمَّ يأتون بالركام، ليرموه علينا، حتَّى لا نستطيع التحرُّك بين حاراتنا».

وتحمَّس أكثر: «إنهم يحاصروننا بقبورهم، وكأنهم لم يدفنوا موتاهم طوال الفترة الماضية، وقرَّروا دفنهم مرَّة واحدة. انظروا خلف المسجد وأمامه، وبين البيوت، والشوارع والحارات، فالقبور في كلِّ مكان، يأتون بالموتى من دول العالم، ليضعوهم هنا، مقابل المسجد الأقصى، سيأتي يوم ويقتلعوننا من بيوتنا، ويُعطونها لأمواتهم، ولكنني أقسم، وأولى القبلتَيْن أمامي، بأن كيدهم سينقلب عليهم، متى؟ لا أعرف، ولكنْ، ليس على الله، أيُّ شيء، بعيد، فما بين فتح عَيْن وإغماضها، تُولَد أجيال، وتموت أجيال، وتفيض الفيضانات، وتثور البراكين، ويبدو أنهم لا يعرفون أيَّة براكين تغلي في صدورنا؟ أو متى ستنفجر؟».

ورفع المختار صوته أعلى: «إذا كانوا قد نسونا، فعلينا أن نُذكِّرهم، فذكِّرْ إن نفعت الذكرى، وكأنني الآن، أرى ما رأيتُهُ، عندما تجمَّع المتطوِّعون من قرى الوادية، سِلْوَان، أبو ديس، والعيزريَّة، وجبل الزيتون، وأريحا، وعرب السواحرة، أمام هذا المكان، لينطلقوا إلى القسطل، ليُحرِّروها من اليهود الذين استولوا عليها، وليفتحوا طريق باب الواد، نحو القُدْس، وأسمعُ صوت الحاجّ رشيد، الذي وصل إلى رتبة رائد في الجيش البريطاني، وشارك في الحرب العالميَّة الثانية، وهو يحثُّ الناس، ويشجِّعهم، ويحمِّسهم، ليرفعوا صوت الوادية، وبرِّيَّة القُدْس، وجبلها، عالياً، ويطلب من الواحد منهم، تفقُّد زوَّادته، ومطرة الماء، لأنه في أرض المعركة لن يكون لديه إلَّا ما وضعه من حبَّات بندورة وخيار وخبز وبصل في الخارطة التي يحملها على كتفه، ففي أرض المعركة، ليس هناك مَنْ سيُزوِّد الشباب، المزوَّدين بالإيمان

والشجاعة والإقدام، بالماء والطعام، ومضى الشباب خلف الحاجِّ في التركات، متحمِّسين، فوَّارين، ليُذيقوا اليهود ما يستحقُّه مَنْ يحتلُّ أرض الغير، وتمكنّوا من دحرهم عن الجبل، وأُصيب مَنْ أُصيب من قرانا، ولكن الفرحة لم تكتمل، لقد قتلوا عبد القادر، فانفضَّ الجمع بعد استشهاد قائدهم، وحتَّى الآن لم نعرف مَنْ قتله، وكيف قُتل؟ الله يسهِّل عليه الحاجّ رشيد وهو الآن هناك مع الجيش الأردنيِّ، ولو كان معنا

الآن لشهد على كلامي، ورغم ما حدث من مقتل القائد وسقوط القسطل، كأوَّل قرية يحتلُّها اليهود، إلَّا أن رجالنا سجَّلوا، بأحرفٍ من نارٍ وفخار، مجد ناحيتنا، وعادوا يحملون الجرحى والشهداء، وإذا عاد الكَرُّ، فلن يكون بالنسبة إلينا فَرّ، ولن نكون وحدنا مَنْ يدفع الدماء».

كان يمكن للمختار أن يستمرَّ في استحضار التاريخ القريب، وإذكاء جمر الحماسة في قلوب وأجساد الحضور، ولكنه يبدو أنه، في مرحلةٍ ما، أدرك السبب الذي تجمَّع فيه الناس هنا، أو أنه تجاوز، أو في سبيله لتجاوز المسموح من الكلام في دولة الاحتلال الجديد ومُخبريها الكُثر، فأعطى الكلمة لوجيهٍ شابٍّ من جبل المُكَبِّر، يرتدي الزِّيَّ البدويَّ التقليديَّ، مشيراً إلى رمزيَّة حديثه باسم أهالي رأس العَمُود، واعتبار ذلك تأكيداً على وحدة شعبنا الذي لا يُفرِّق بين ناس وناس، فكلُّنا تحت الاحتلال سواء.

والواقع جرت العادة أن يتحدَّث شخص من خارج العائلة المتخاصمة، باسم العائلة، ويقدِّم مطالبها، ويُطلق عليه الوجه، وجه الجهة التي يتحدَّث باسمها، ويمكن أن يكون لبَّاس ثوبها، أي الملتزم بما عليها من حقوق، ولها من واجبات.

فالوجه الذي تحدَّث بهدوء أكثر من المختار، أكَّد على أهَمّيَّة الوجه الإيجابي للقضاء العشائريِّ، خصوصاً في ظروفنا تحت الاحتلال، وأنه على الجميع الالتزام بما يقرِّره، محذِّراً من اللجوء إلى محاكم الاحتلال،

لحلِّ مشكلاتنا، وطيش شبابنا، لأن اعترافنا بالاحتلال، هو الخطوة الأولى لضياعنا، فالاحتلال يمكن أن يتغلَّب على ناس، ويحتلَّ أرضاً، ولكنْ، لا يمكن أن تستمرَّ غلبته، خصوصاً عندما يكون الشعب شعباً أبيَّاً حُرَّاً.

ثمَّ بسمل، وقرأ الآية القرآنيَّة: «غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيومئذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الناس لا يَعْلَمُونَ» (5)، ثمَّ صدَّق، وهو يجلس مكانه.

وباسم عائلتنا تحدَّث رجلٌ آخر من جبل المُكَبِّر أيضاً، يشبه المتحدِّث الآخر هيئةً وسماحةً، ووجه تُظلِّله لحية خفيفة، شرح فيها الجهود التي بُذلت لمحاولة رأب الصدع، مشيراً إلى الدَّوْر الخطير جدَّاً الذي يمكن أن ينتج عن نشر إشاعة أو معلومة غير دقيقة، في ظروفنا الصعبة هذه.

وقدَّم اعتذاراً باسم عائلتنا، واعترافاً بحقِّ العائلة الأخرى، واستعدادنا لتقديم ما يطلبه جيراننا الأحبَّاء، نتيجة سوء فهم أكثر منه خطأ مقصوداً مُخطَّطاً له، يكمن خلفه، لا سمح الله، سوء نيَّة، أو شرٌّ مستطير، فالمسألة أن السَّبْع قرصتْهُ الغَيْرَة اللعينة، ومَنْ لا تقرصه الغَيْرَة؟ فحتَّى زوجات النبيِّ؛ أُمَّهات المؤمنين، كنَّ يَغِرْنَ.

وفسح وجهنا مجالاً لوجههم ليبدأ الكلام، اقتربت منِّي لُور، ولامس وجهها وجهي، وهي تبتسم ابتسامة العارفة بما سيجري، قائلة: «الدراما بدأت، هكذا هي العطوات العشائريَّة».

ولم أسألها من أين أتتْها هذه الخبرة بالعادات والتقاليد المحلِّيَّة، وسمعنا صوتاً ينطلق من جهة جمعنا، يعلن بأنه لبَّاس ثوبنا وملتزم بكلِّ ما يتَّفق عليه.

في الواقع لم تبتعد لُور عن الحقيقة كثيراً، فقد بدأت فعلاً مرحلة الشَّدِّ والجَذْب بعد أن طلب وجههم باسمهم عشرين ألف دينار كفراش عطوة،

ولكنْ، طَلَبَ وجهُنَا التساهل، والنظر بعين الاعتبار لأمورٍ كثيرة، خصوصاً وأن الأوضاع الاقتصاديَّة بعد الحرب لم تعد تُحتَمَل، وأن الواجب يقتضي بأن نتفهَّم بعضنا بعضاً، ونتحمَّل، ونسامح، وأن التجريس الرمزيَّ للسَّبْع من قِبَل عائلته، وما يجري الآن، سيجعله يأخذ درساً في الأخلاق والتعامل مع الناس، لن ينساه طوال حياته.

وأخذ الرَّقْم المطلوب يتقلَّص، باسم النبي مُحمَّد، وأهالي القُدْس، وأهالي القرى، وباسم الفدائيِّيْن الذين يحملون أرواحهم من أجلنا.

وعندما وصلت الدراما ذروتها بدفع ألفَي دينار مغلَّفة بكيسٍ ورقي، حملها وجهُهم بيده ليراها الحضور، والناس الذين يتابعون ما يحدث من نوافذ منازلهم، وشرفاتها، وأسطحها، وأصرَّ على دفع الباقي خلال عشرة أيَّام بكفالة وجوه الجاهة.

تمَّ الاتِّفاق على صكِّ عطوة لمدَّة ثلاثة أشهر، وهي هدنة، يتحمَّل مَنْ يخرقها مِن الطرفَيْن التبعات، حتَّى يتبيَّن مشوار علاج إسماعيل، وكيف سيكون حاله، وهو مقبل على الزواج من أميرة، ومَنْ يدري؟ قد يكون لدينا مُطَرْبِل آخر. والجملة الأخيرة همست بها لُور لي وهي تكتم ضحكة.

تدخَّل الشيخ عبد ربِّ النبي، وتحدَّث واقفاً، حاثَّاً الناس على التعاضد، قائلاً إن المشكلات تحدُث، ولكن المطلوب هو احتواؤها، وكيفيَّة فعل ذلك، فالظرف الدقيق الذي نعيشه يتطلَّب الانتباه، وعدم المساس بأيِّ شيء يمكن أن يؤثِّر على وحدة شعبنا، وفي النهاية فإن إسماعيل يتماثل للشفاء، ولم يُصِبْهُ سوى رضوض، والتسامح هو أهمُّ شيء، وله قدرة فائقة على مسح القلوب، وإعادتها، بيضاء، كما كانت، وكما يجب أن تكون.

وعندما هَمَّ أن يطلب من أبينا بوللو الحديث، تدخَّل مختار رأس العَمُود، محاولاً أن يكون كلامه لبقاً، وما كان عليه فعل ذلك، فالهدنة عُقدت بالفعل، وأيُّ كلام يُعتبر زائداً، مشيراً إلى إن إصابات إسماعيل

حقيقيَّة وموجعة، شاكراً الشيخ على تدخُّله فيما له خير للناس، ولحضوره المبارك.

تجاهل الشيخ عبد ربِّ النبي كلام المختار، الذي اعتبره البعض غمزاً في حقِّ الشيخ، ثمَّ دعا أبونا بوللو للحديث، فوقف وبدا أقلَّ انفعالاً من الشيخ، يتحدَّث بصوتٍ خفيض، محاولاً إخفاء لهجته السوريَّة، والاقتراب أكثر من اللُّغَة الفصحى واللهجة المَقْدِسِيَّة.

قال الراهب: «أنا سعيد لإتاحة هذه الفرصة لي، لأكون بينكم، وليس هناك أكثر سعادة للراعي في أن يكون في حضرة شعبه، وناسه، فالراعي الصالح هو مَنْ يكون في الميدان، وليس متفرِّجاً جالساً في الشرفات. والله منحنا المرابطة بالقُدْس، في هذا الموقع الذي اختاره من بين كلِّ الأماكن في العالم، ليشهد مراحل مهمَّة من حياة سَيِّدنا المسيح عليه السلام، ففيها مشى، ووعظ، واجتمع مع حوارِيِّيه، وثار، واعترض على سلوك اليهود المقيت، وفيها أيضاً، وهذا الأهمّ قيامته، المسيح لم يقم فوراً من قبره، فالقيامة تحتاج إلى وقت، وقيامة شعبنا آتية لا محالة».

همست لُور: «يعرف ما يقول، فلم يعكّ» وعندما استفسرتُ منها قالت: «تجنَّبَ الحديث عن الصلب، يعرف جمهوره جيِّداً».

انتبهنا عليه يقول: «المسيح الآن يبكي على حالنا، مثلما حدث قبل ألفَي عام، عندما اقترب من القُدْس، مدينة الله، وحاضرة السلام، على بُعد عشرات الأمتار من هنا، وبكى عليها، وما تنبَّأ به يحدث الآن، فالأعداء يُحاصروننا، وسيُضيِّقون علينا».

وأخذ صوت أبينا يتهدَّج ويعلو: «لا تزال هذه الأرض مليئة بالحجارة، لذا فإن سكَّة الحرَّاث لم تتمكَّن من فلاحتها، ليكن هدفنا إخراج الصرار من هذه الأرض، التي قد تبدو صغيرة، ولكنها حجارة لئيمة، حتَّى تستطيع السِّكَّة غرس مخالبها في الأرض العطشى المشقَّقة، لتصبح خصبة، وبدلاً

من الشوك، تينع فيها الزهور، والورود، والثمار اللذيذة، والخضار الطيِّبة، ليعيش الناس كلُّهم أخوة لأبٍ واحد، هو الله تعالى، وفي سلامٍ وإخاءٍ وصفاءٍ، مباركةٌ أنتِ، يا قُدْسُ».

وشكر أبونا بوللو الحضور الذين وقف معظمهم استعداداً للخروج، أمَّا أنا ولُور، فانطلقنا دون اتِّفاق مسبَّق صعوداً نحو القُدْس، وقبل أن ينتبه إلينا أحد من الكبار المُملِّين، الذين يتحدَّثون كثيراً، ويُطنبون.

الثالث والخمسون

لم نكن نعرف، على وجه التحديد، وجهتنا، أو الأصحّ بأنني تركتُ سُيُوري لِلُور، مررنا بقبور اليهود، وكنيسة المجدليَّة، وقبر الحنبلي، والجُثْمَانِيَّة، وكنيسة سِتنا مريم، وبشكلٍ غير مقصود، كنَّا نتَّجه نحو حديقة روكفلر، ولكنها، بحرفيَّة العارف طريقه، لم تُمِيِّل إلى قصر الشيخ، وإنما واصلت السير في شارع الزهراء، بدون أن تتحدَّث، تاركة لي النظر للبنايات الجميلة على جانبَي الشارع، ومنها فندق الزهراء، وعندما حاذيناه، قطعت صمتها لتقول:

- هنا كان ينزل الملك عبد الله، وكان ينتظر أفنديَّة القُدْس من مُشايعيه، ليُقبِّلوا يده، وأكثرهم فرحاً، مَنْ كان الملك يترك يده حُرَّة، ليلثمها الأفندي قَدْر ما يريد، لأن ذلك يعني أن الملك الهاشمي راضٍ عنه، والذي كان يُظهِر عدم رضاه أو غضبه أو زعله، بسحب يده سريعاً، وعدم تركها ليتلمَّظ بلثمها المريد، تاركاً رذاذه على اليد المَلَكِيَّة ..!

هذا طبعاً قبل أن يُقتَل الملك في المسجد الأقصى، ويُنقَل جريحاً إلى مستشفى الهوسبيس في طريق الواد في القُدْس القديمة، ولكنه فارق الحياة، وكثير من أهل القُدْس، لديهم ذكريات عن القاتل، وسمعتُ في منزلنا حكايات عنه.

مررنا بسينما القُدْس، ورأينا صور الممثِّلات الجميلات والممثِّلين الوسيمين على واجهة السينما، أعلى الفترينة الزجاجيَّة، التي تحوي صوراً لمشاهد من الفيلم المعروض، التي يعتقد مروِّجو الفيلم أنها الأهمُّ لجلب الجمهور لحضور فيلمهم.

لم أُلاحظ صوراً فاضحة كالتي أسمع عنها من الأولاد الأكبر سنّاً منّي، الذين يتحدَّثون عن مغامراتهم أمام دُوْر السينما في القُدْس، خصوصاً عندما خصَّصتْ يوماً في الأسبوع لعرض أفلام البورنو، وفيه تمتلئ فترينات العرض بالصور الفاضحة. وفي اليوم الموعود يصعد الأولاد إلى القُدْس، وينتظرون في ركن أمام دار سينما يختارونها، ليراقبوا رجال القرية الذين يدخلون؛ ليحضروا الأفلام الفاضحة، وهم يتلفَّتون حولهم، وفي المساء أو في اليوم التالي، تكون أسماء مَنْ حضروا مجالاً للتندُّر في حلقات الأولاد، خصوصاً عندما يبرع أحد المراقبين في وصف الحالة التي كان عليها هذا أو ذاك من المتسلِّلين لحضور الأفلام الفاضحة.

وقبل نهاية الشارع، أمسكتْ يدي تمهيداً لقطعه إلى شارع صلاح الدِّيْن، لأجد نفسي معها، أمام سينما الحمراء، وقفنا في طابورٍ صغير، وعندما اقتربنا من شُبَّاك التذاكر، رأيتُ في يدها نقوداً، نَقَدَتْها للجالس خلف الشُّبَّاك الصغير، وقطعتْ تذكرَتَيْن، وأعادت إمساكي بيدي، وكأنني طفلها الذي يجب عليها أن تحافظ عليه من التيه في المدينة، وسارت أمامي بخطواتٍ مضاعفة، وكأنها تجُرُّني بحماس.

قالت لي: «سنصعد إلى اللوج»، وعلى باب القاعة، كنتُ أسمع أصوات، سيتبيَّن لي أنها أصوات الممثِّلين تخرج من الشاشة الكبيرة، التي يضربها شعاع منطلق من أعلى القاعة، كشمسٍ صغيرةٍ كثيفة. اصطدمت عيناي بالظلام، ولكنَّ شخصاً يحمل

مصباحاً صغيراً، استلم التذكرَتَيْن من لُور، قادنا إلى مقعدَيْنا، بينما تحتنا قاعة أخرى، بكراسٍ خشبيَّة، وفي مُقدِّمة اللوج، ثمَّة كُوَّات كبيرة مفتوحة نحو الشاشة، مبطَّنة بقماش أزرق، يُطلَق عليها البنوار، مخصَّصة للعائلات، وتَذْكَرَتها سعرها أعلى من اللوج والقاعة السفليَّة.

وعلى الشاشة الكبيرة كان محمود ياسين وسعاد حسني يتحرَّكان،

ويُظهِران مشاعر وعواطف حَارَّة، استرعت انتباهنا، ومع تتبُّعنا لأحداث الفيلم، لم أعد أدري، إن كان ما يحدث هو حقيقة أم خيال، وإلى أيِّ مدى أُشبه البطل، ولُور تشبه البطلة؟ أمَّا بالنسبة إلى لُور الأكثر تجربة، فالأمر أصبح أكثر جِدِّيَّة وتوتُّراً، بحيث إن أيَّة كلمة منِّي قد تُفسد فُرجتها، وعندما فلتت منِّي كلمة عن غير قصد، مدَّت يدها لتُمسك يدي، وتضغط عليها، بينما عيناها مسمَّرتان إلى الشاشة، فلم يكن لديها الاستعداد، لإضاعة أيَّة لقطة، فالحُبُّ يغمر الشاشة، ويُظلِّل المشاهدين المأخوذين.

شعرتُ بدفء يدها، وهي تضغط على يدي، وكأنها تُحدِّثني بهذه الطريقة، التي أحرجتْني قليلاً، ولكنْ، بما أنها صاحبة المبادرة، فهذا خفَّف من ارتباكي، ولم يكن باستطاعتي تفسير ماذا يعني لِلُور إمساك يدي، بكلِّ هذا الدفء.

ولم يطلْ تفكيري بلُور ويدها، عندما رأيتُ ما اعتقدتُ أنها مريم التشاديَّة، ورفعتُ يدي إلى عينِي لمسح أيَّة غشاوة، فرأيتُ رجلاً يقف بجانبها، خُيِّل إليِّ بأنه أبي، أو لم أفكِّر في غيره، يمكن أن يقف مع مريم ليشاهدا الفيلم.

انتبهتْ لُور إليَّ، ولاحظتْ إلى أين أنظر، فقالت: «عندما تنتهي التذاكر، ينادي الجالس خلف الشُّبَّاك: مَنْ يريد الدخول على الواقف، ويبدو أن أباكَ وصديقته لا يريدان أن يُفوِّتا هذا الفيلم، مثلنا، فدخلا ليشاهداه وقوفاً، حتَّى يُدَبِّرا أمرهما في مقعدَيْن، قد يتوفَّران بعد خروج مُشاهِد، مَلَّ الفيلم، أو تذكَّر أنه مرتبط بموعد».

لم أستطع تحديد موقفي من وصف مريم التشاديَّة بصديقة والدي، بنبرة صوت لُور، وماذا يعني أن تكون صديقته؟ وأنا أيضاً أجلس في مقعدي الأحمر بجانب صديقتي، ونشاهد سويَّاً فيلماً تقول لُور بأننا لم نرغب بتفويته، إنها تتحدَّث بلسانها ولساني، وتأخذ يدي بيدها، وتضغط عليها،

ويُفرحني ذلك، وإن لم أستطع تفسيره، وهل كلُّ شيء في حياتي يجب أن يُفسَّر؟

دفئها يسري في كفِّي، ومنه إلى جسدي، ويتوقَّف في الدماغ، حيث تكثر الأسئلة، ليس فقط بما يخصُّني، وإنما أيضاً بما يخصُّ والدي، هل أنا أمارس نفس الفعل، الذي أستكثره عليه؟ هل مريم هي التي جرَّتْهُ هنا، مثلما جرَّتْني لُور؟ لماذا لم أرفض المجيء إلى هذا المكان المظلم، لأرى محمود ياسين يُقبِّل سعاد حسني؟ ولماذا لم يرفض والدي؟ ألَا يعلم بأن له امرأة تنتظره في المنزل؟ وأنا مَنْ ينتظرني؟ تنتظرني أُمِّي، ولكنْ، ليس هو الانتظار نفسه الخاصّ بوالدي.

انتبهتُ على لُور، وهي تتابع قُبلة طبعها الممثِّل على فِيهِ الممثِّلة، وعندما انتهت القُبلة قالت لي: «يقولون إنه من هذه الأفلام تُعلِّم شبابنا التقبيل على الفم».

اعتقدتُ، من نبرة صوتها، بأنها تسألني عن حقيقة ما تحدَّثت عنه، فأجبتُ: «لا أدري»، فتابعت: «ولكنَّ هذا خطأ، ألم يسمعوا المجنون وهو يُشعِر؟

بِرَبِّكَ هَل ضَمَمتَ إِلَيكَ لَيلى/ قُبَيلَ الصُّبحِ أو قَبَّلتَ فاها؟»

تفاجئني لُور، دائماً بما تعلمه، وهذه المرَّة حفظها للشِّعْر، وأيُّ شِعْر؟! وعادت لتتابع الفيلم، وعدتُ لأتابع مريم ووالدي، اللذَيْن يبدو أنهما تعبا من الوقوف، ورأيتُهما يغادران، لا أعرف إلى أين، ولكنني لاحظتُ ما أظنُّه، غير جازمٍ، بأنها سارت أمامه، وهي تجرُّه من يده، يا فخرَ بنات القُدْس في جَرِّ رِجَالها!

وعندما انتهى الفيلم، بمشهدٍ محزن، لا أعرف إن كان موت البطلة، أو زواجها من رجلٍ غير الذي أحبَّها، وقفت مع إضاءة القاعة، ونظرات الحضور إلى المقاعد أمامهم وخلفهم وعلى الجانبَيْن، ليتعرَّفوا على مَنْ

كان يجلس بقرب الواحد منهم، وشاركه مشاعره تجاه الممثِّلين، والأحداث والوقائع العاصفة، ولكن لُور استمرَّت جالسة تنظر إلى الشاشة، فهي لم تفقْ بعدُ من السِّحْر الذي أخذها بعيداً.

وضعتُ يدي على كتفها، وربَّتُّ عليه بهدوء، وأنا أُنبِّهها إلى أن الفيلم انتهى، فقالت: أعرف أنه انتهى، ولكنْ، هذا على الشاشة فقط، سأعيش الأيَّام المقبلة مع الحبيبَيْن، ولكنني سأنساهما، وسأضحك عليهما.

- هل تعرف الحُبَّ، يا كافل؟

مَنْ سأل، أنا أم لُور؟ لستُ متأكِّداً على الإطلاق.

الرابع والخمسون

خرجنا من باب السينما، وأنا أشعر بأن كثيراً من الناس ينظرون إلينا، ويعرفون بأن لُور أمسكت يدي، لكن نسمات ضربت وجهَيْنا ونحن بشارع صلاح الدِّيْن في عصر يوم منعش بالقُدْس، جعلتْنا نريد التحرُّر من تجربة مشاهدة الفيلم، فمشينا صامتَيْن باتِّجاه المتحف، علاجنا المطلوب، للإفاقة من عالم الحُبِّ الشرقيِّ في فيلم يتحدَّث بالعربيَّة عن حُبٍّ، لعلَّه حدث في بلادٍ بعيدة عن شرقنا، ولكن العلاج يحتاج إلى وقت.

ماذا لو فعلتُ مثل محمود ياسين، وأوقفت لُور في شارع صلاح الدِّيْن، وطبعتُ قُبْلة على فمها؟ يبدو الأمر بالفيلم طبيعيَّاً في شوارع القاهرة، وكأنها من المُدُن البعيدة الغربيَّة التي نسمع أن القُبل فيها، وأكثر من القُبل شيء عادي، ولكنْ، هنا في القُدْس المتعدِّدة، والمتجهِّمة، وعيون التُّجَّار المبحلقة، وقامات رجال الشرطة المسلَّحين بالهِراوات، والناس المارِّين، على غير هُدى، تبدو القُبل مُحَرَّمة، ويُسمَح بها فقط في قاعات السينما.

لُور الذكيَّة التي تعرف كلَّ ما أفكِّر فيه، هتفت ضاحكة: «اطردْ عنكَ أفكارَكَ الشيطانيَّة، سأكون جاهزة لكَ بيدي تصفع وجهَكَ، إذا اقتربتَ منِّي أكثر من اللازم، لم أكن أتوقَّع أن تكون ولداً شيطانيَّاً، اعتقدتُ دائماً بأنكَ ولدٌ مؤدَّبٌ، فلهذا سمحتُ لنفسي التسكُّع معكَ».

خجلتُ من نفسي، ولم أردّ على لُور، التي توقَّفت فجأة أمام مكتبة المُعْطِي، التي يشتري والدي الكُتُب منها، لي ولأُمِّي، ونظرتْ إلى الكُتُب الجديدة المعروضة خلف الزجاج، وقالت بتأفُّف: «لا يوجد جديد، كلُّها قرأتُها».

سألتُها مستغرباً: «كلُّها، كلُّها ..!».

شعرتْ بأنني لا أُصدِّقها، وأن ذلك خدش كرامتها، فقالت بعصبيَّة: «في أحيانٍ كثيرة، يُفضَّل أن تصمت، حتَّى خلال الفيلم، وأجواء الحُبِّ، لم تمنع نفسكَ من الحكي».

غضبتُ من كلامها، ولكنني لم أستطع الردَّ عليها، لا أعرف ما الذي سمَّر ردود أفعالي، وفجأة أمسكتْ بيدي، وسحبتْني إلى داخل المكتبة.

كانت ابنة صاحب المكتبة تجلس خلف مكتب، وحولها تظهر الكُتُب على الرفوف، مصنفة وَفْقَ مواضيعها.

سألت لُور، لماذا لا يوجد كُتُب جديدة؟ دون حتَّى أن ترميَ التحيَّة، فأجابتها الفتاة من خلف نَظَّارَة بيضاء، بهدوءٍ، وكأنها متعوِّدة على مثل هذا السؤال:

- بعد الحرب، حظرت دولة الاحتلال دخول أيَّة كُتُب من الدول العربيَّة، باعتبارها، في حالة حرب مع إسرائيل، وما نستطيع إدخاله من فرع مكتبنا في عمَّان، قليل، وبطُرُقٍ ملتوية، يمكنكِ الصعود إلى السُّدَّة، والبحث عن كُتُبٍ تناسبكِ من مخزوننا القديم.

وأخذت تعدِّد ساخرة أسماء الكُتَّاب الممنوعة كُتُبهم، وكثيراً منها لا علاقة لها بالسياسة، أمثال توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، وإحسان عبد القدُّوس، والسباعي، ويحيى حقِّي، ومحمَّد عبد الحليم عبد الله، والقائمة تطول.

قالت لُور:

– وما العمل؟ هل سنبقى بدون كُتُب؟!

- ميشيل وصديقته المسلمة من عرب الثمانية وأربعين يفكِّرون بتأسيس دار نشر، تُعيد طباعة الكُتُب التي تصدر في الدول العربيَّة، تحايلاً على

الحكومة، لقد جاءا إلى القُدْس، ونسمع أنهما قطعا شوطاً، ولكنهما شيوعيَّان، والقُدْس ليست ناقصة شيوعيِّيْن، فبعد الحرب نرى وكأنه لم يعد في البلد إلَّا هم.

– شيوعيُّون، أو قرود، مَنْ يعمل أفضل ممَّنْ لا يعمل.

- وهل علاقة ميشيل بصديقته شرعيَّة؟ يقال بأنهما يحبَّان بعضهما، وربَّما تزوَّجا، وهذا لا يجوز في ديننا.

شعرتُ بأن لُور تريد أن تردّ، وكأنها شعرتْ، بأن الأمرَ يخصُّها، وأن ابنة المُعْطِي تتحدَّث عنِّي وعنها، رغم أنها لا تعرف هُوِيَّتَيْنا، أو على الأقلِّ هُوِيَّتي الدينيَّة، وأصلاً ما بيني وبين لُور، لم نكن نشعر بأنه يرقى لعلاقة تتحدَّث عنها البنت بهذه الخطورة كُلِّها، ولكنها كَبَحَتْ غضبها، وتخيَّلتُها وقد قفزت عيناها من تجويفهما، وهي تُصرُّ على أسنانها، بسبب الفَرْمَلَة السريعة والمفاجأة التي قرَّرتْها، في آخر لحظة.

أمَّا أنا، فمَجَجْتُ قفز ابنة المعطي من موضوع منع الكُتُب، إلى قصَّة اثنَيْن ودِينَيْهما المختلفَيْن.

فابنة صاحب المكتبة من أسرة عريقة، أتت من مدينة الخليل الأكثر تديُّناً، مثل عائلات كثيرة في القُدْس، وأصبحت مكوِّناً رئيساً في مجتمع المدينة المقدَّسة، يمنح الخليليُّون حياة فوَّارة للقُدْس، كما يفعلون في مُدُن الضفَّة الغربيَّة الأخرى التي يعيشون فيها، متعايشين مع حداثة زهرة المدائن كما وصفتْها فيروز، التي تحيطها غلالة التقاليد العائليَّة والدينيَّة، وفي حين أن السينمات في القُدْس، مثلاً، مطلوبة ومرغوبة، فإن الخليل، تكاد تكون المدينة الفلسطينيَّة الوحيدة التي لم تنشأ فيها دار للسينما.

عُرِفَ عن الخليليِّيْن تَوْقهم للهجرة، إلى المُدُن الفلسطينيَّة الأخرى، وفي

مواقعهم الجديدة، يَبنون، ويُطوِّرون، ويَعيشون، ويَستقرُّون، وبعد الاحتلال استقرَّ العديد منهم في قريتنا، باعتبارها حَيَّاً من أحياء القُدْس، وبدأت قريتنا في التغيُّر بسرعةٍ، وكأنها كانت تنتظر الحرب الأخيرة لتفعل ذلك.

قالت صاحبة النظَّارة، وبدا أنها تراجعت نسبيَّاً، لتُخفِّف من غلواء خطابها:

- يمكن أن يكون نصف كلامكَ صحيحاً، وهذا جيِّد في ظلِّ ظروفنا.

ضحكت لُور وكأنها اكتشفت نظريَّة جديدة:

– نصف صدق، نصف كذب، جيِّد للتعايش مع الاحتلال.

- لم أقصد هذا، ولكنني أرى كيف يتمُّ غزونا فكريَّاً، انظري لتنانير البنات التي تقصر سنة وراء سنة، ولشَعْر الشبَّان الذي لا يُميِّزهم عن شَعْر النساء، وللقُدْس التي تبدو غريبة أكثر مع كلِّ هؤلاء اليهود واليهوديَّات، الذين واللواتي لا يحدُّهم ويحدُّهنَّ حدٌّ، وكأنهم وكأنهنَّ بدون دِيْن.

– والحلُّ؟

- علينا التمسُّك أكثر بعقيدتنا الإسلاميَّة.

ردَّت لُور بسرعة البرق:

– ولكنني مسيحيَّة.

- المسيحيُّون لهم أيضاً مكان في مجتمعنا الإسلاميِّ، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا.

– ولماذا يجب أن يكون المجتمع إسلاميَّاً، ما دام فيه مسيحيُّون ومسلمون.

- يا أختي، المسلمون هم الأكثريَّة، وهم الذين فتحوا القُدْس، وأعطوا الأمان للمسيحيِّيْن، وحدَّدوا شروطاً وافقتُم عليها.

– مَنْ نحن الذين وافقنا عليها؟

- يبدو النقاش معكِ صعباً. في دولة الخلافة ستعيشون وَفْقَ حقوقكم.

– أيَّة خلافة؟ وأيَّة دولة؟

- الخلافة التي ستكون عاصمتها القُدْس، وسيحسب العالم كُلُّه حسابها، وستركع لها روما، وأميركا، وروسيا، والصين، وهم يرون كيف تُساق نساؤهم سبايا إلى مسرى النبي.

– سبايا، ألَا يكفي رجالنا ما عندهم؟!

- هذا شرع الله، ولا خلاف على ما شرعه خالق السماوات، لخلقه ساكني الأرض، فتشريعه خير لنا.

– خير لنا نحن النساء أيضاً ..!

- هو خير لكم، كلّ الخير، لو كنتُم تعلمون ..!

تضايقت لُور، وبدا أنها غير قادرة على مجاراة صاحبة النَّظَّارَات، التي تتحدَّث بهدوءٍ، وهي محشورة في جلبابٍ أسود، وغطاء رأس أبيض، يختلف عن خِرْقَة أُمِّي، أو خِرْقَة أُمِّ السَّبْع.

ولم يكن أنسب من هذا النقاش حتَّى تصحو لُور من قصَّة الحُبِّ السينمائيَّة، فخرجنا من المكتبة وهي تتمتم بشتائم، قد تكون خارجة، أو هكذا أحسستُ.

الخامس والخمسون

رغبتُ بإكمال الطريق إلى قريتنا، بينما لُور ستعود إلى قصر الشيخ، وعندما اقتربنا من مدخل المتحف، هتفت لُور: «تعال، الحقْ بي، سندخل إلى المتحف».

لم أفهم ما تريد بالضبط، ولكنني لم أستطع الممانعة، واستجبتُ لطلبها الذي ألقتْهُ كأمرٍ، بنبرةِ صوتٍ، لا تُخالَف، ووجدتُ نفسي أسيرُ خلفها، مجروراً، وبدلاً من الانعطاف يميناً نحو القصر، سحبتْني إلى خلف المتحف.

لم تكن يدها التي تمُسك يدي تجُرُّني، دافئة كما في ظلام السينما، وشعرتُ بأن لُور نسيت أمر تلك الإمساكة، حتَّى تركتُها ونحن نقف أمام باب المتحف المَبنيّ من الحجارة الحمراء الغامقة، حُفر عليها بخطٍّ جميل: دائرة الآثار القديمة، وأعلى ذلك حُفر: حكومة فلسطين.

أثارت مشاعري، كلمة فلسطِين، التي يسبب ذِكْرها المشكلات مع جيش الاحتلال، وأبديتُ استغرابي لتركهم هذا الاسم محفوراً بكلِّ هذا الجلال المؤثِّر على حجارة، لونها مريح للعين بشكل لا يُصدَّق، وبخطٍّ منساب كماءٍ في جدولٍ، كالمياه المنسابة في قنوات من بِرْكَتنا إلى البساتين، وكأن الحجارة تنطق باسم فلسطين، وليس فقط أرضيَّة للكتابة عليها.

هزَّني اسم فلسطين، يتأرجح أمامي، ويتبسم لي، وكأنه يقول لي: أشعر بكَ، وأفهمكَ، ولم أكن بحاجةٍ لأكثر من ذلك لبلسمٍ.

عرفتْ لُور بما أشعر به، وبدت ملامح وجهها وكأنها تشاركني مشاعري، فاقتربتْ منِّي أكثر، وسحبتْني إلى الداخل، ووقفنا أمام وجه مثبَّت على جدار، أخافني في البداية، ولكنها وضعت يدها عليه، وتحسَّستْهُ، قائلة: «إنه لا يخيف، إنه العمُّ هاريسون، يمكنكَ أن تُجرِّب»، ورفعتُ يدي باتِّجاه الوجه الذي يظهر منحنياً إلى الأسفل مع ابتسامةٍ خفيفةٍ، ولكنني أخفضتُها، فلم أرغب بلمس الوجه المحتار في كُنهه، ولم يكن سوى قناع موت من الطين الجيري، بأسلوبٍ فرعونيٍّ، كما سأعرف فيما بعد، عندما نقَّبتُ وعرفتُ ما أراده لي والدي تنقيبه.

توجَّهتْ لُور بالحديث إلى الوجه الأبيض المشوب بحمرةٍ خفيفةٍ وكأنها تمازحه: «الأخ كافل، خائف منكَ»، ثمَّ خاطبتْني: «العمُّ هاريسون هو المهندس الذي صمَّم هذا المتحف، وعندما أكون مهمومة، أتسلَّل إلى هنا، لأسمع منه»، ومرَّةً أخرى، وجَّهتْ حديثها للوجه الصامت المبتسم: «أليس صحيحاً، عمّ هاريسون؟». ويبدو فعلاً أن الوجه سمعها، فتململ وأصلح انحناءته، وكأنه يوافق على كلامها.

قالت لُور: «العمُّ هاريسون هو مهندس الأبنية غير الكئيبة للاستعمار البريطانيّ، مثل السجون الصفراء. أَخْبِرْهُ، يا عمُّ، أرجوكَ».

رأيتُ الوجه يخلع نفسه من الحائط، ويصبح له رِجْلان، ويدان، ويقف متطاولاً بيني وبين لُور، هكذا وبسرعةٍ، وبكفاءةٍ، وقبل أن أفيق من الصدمة، وضع يده على شَعْر لُور بحنو قائلاً: «تعرفين، يا لُور، عنِّي أشياء، وأشياء أخرى لا تعرفينها، درستُ الهندسة في كندا وبريطانيا، وعملتُ في اليونان، ودرستُ فيها العِمَارَة الإسلاميَّة والبيزنطيَّة، وسافرتُ إلى إسطنبول، للاطِّلاع على العِمَارَة الإسلاميَّة التقليديَّة فيها، وانتقلتُ إلى الهند، وعملتُ لفترة قصيرة. وفي عام 1922م، وصلتُ إلى فلسطين، فاحْزَرَا لماذا؟ لأنه كانت

تنتظرني وظيفة مرموقة، فأصبحتُ المهندسَ المِعْمَارِيَّ الرئيس لدائرة الأشغال العامَّة في حكومة الانتداب البريطانيِّ».

كيف يمكن لوجه يخرج من حائط، ليصبحَ رجلاً يحكي؟ يبدو أن هاريسون عرف بماذا أفكِّر، فقال وهو يضع يده الأخرى على كتفي: «أنا لم أمتْ، ما زلتُ عائشاً، ولكنْ، خارج فلسطين أرادوا أن يُميتوني، فوضعوا هذا الوجه القناع هنا، كنوعٍ من التذكار، تذكاراً لهم، بأنني وإن كنتُ خارجاً، فإنهم تمكَّنوا من تثبيت الزمن، وإنني بحوزتهم، في دائرة طاعتهم».

مَنْ هم؟ ولماذا يفعلون هذا؟ قال العمُّ هاريسون: «ليس مُهمَّاً مَنْ هم، وقد لا يكونون هم مَنْ أفكِّر بهم أو تفكِّر أنتَ بهم، رغم أنهم من أصحاب النوايا الحسنة، ولكن النوايا، كما لا بدَّ أن تعلم، أو يجب أن تعلم، لا تكفي، أرادوا أن يكون مهندس المتحف جزءاً من مقتنياته، ومن وسائل الإيضاح للشرح عنه».

وعاد ليُكمِل حديثه السابق: «عشتُ خمسة عشر عاماً في القُدْس، وسكنتُ في بيتٍ تقليديٍّ بحيِّ الثوري، حيث عاش قبلي أبو ثور التقي المسلم الذي سخَّر له الله ثوراً ليخدمه، فينزل إلى أسواق القُدْس، فيتبضَّع ويعود بمؤونة الشيخ الذي سمَّاه الناس أبا ثور، وسَمَّوْا الحَيَّ الذي اعتزل فيه الشيخ الثوري. وشُغفتُ بالعِمَارَة التقليديَّة في القُدْس القديمة، ولأنني كُلِّفتُ بتصميم الصورة المِعْمَارِيَّة للانتداب البريطانيِّ في فلسطين، أردتُ اختبار فلسفتي المِعْمَارِيَّة ووضع بصماتي، من خلال المزج بين الأساليب المِعْمَارِيَّة الغربيَّة، وروح الشرق، والعِمَارَة المحلِّيَّة التقليديَّة».

لم أعد أفهم كثيراً ممَّا يقال، ويبدو أن لُور أحسَّت بذلك، أو لأنها لم تفهم مثلي، رغم أحاديثها السابقة مع هذا الهاريسون.

قالت لُور: «العمُّ هاريسون يعيش الآن في اليونان، غادر فلسطين،

قبل افتتاح المتحف الذي صمَّمه، ولم يقل لي لماذا فعل ذلك؟ ربمَّا يريد أن يقول الآن».

قال العمُّ هاريسون متجاهلاً سؤال لُور: «عندما كُلِّفتُ بتصميم مبنى المتحف الفلسطينيِّ، أخذتُ الأمرَ على محمل الجِدِّ، فسافرتُ إلى أوروبا، وعاينتُ متاحفها، لأنني فكَّرتُ بوضع تصميم، يُحقِّق رؤيتي بالمزج بين الغرب والشرق، صحيح أنني لم أرَ لقاء بريطانيا بفلسطين هو النموذج الأفضل للقاء الغرب والشرق، ولكنني أردتُ أن أعبِّر عن قناعة، بأنه يمكن للشرق والغرب أن يلتقيا في مواجهة مَنْ يروِّجون بأن لا لقاء بين الاثنَيْن في الماضي والآن وفي المستقبل، كرهتُ مصادرتهم للمستقبل. وعندما عدتُ كنتُ أعرف ماذا أريد أكثر من أيِّ وقت مضى، فوضعتُ المخطَّط الذي يمزج بين هندسة المباني العامَّة في أوروبا وتنظيم المباني في البلدة القديمة بالقُدْس، ليست هناك مدينة مثلها في العالم فَتَنَتْنِي، وليس هناك تجربة مؤثِّرة، أكثر من السير على أدراج السوق القديمة، نزولاً من قلعة باب الخليل، ومطالعة أبواب القيامة، والوقوف أمام الحرم الشريف، تجربة مشوِّقة تدعم الإنسان الذي يملك الأحاسيس، لعدم نسيان هذه المشاهد طوال حياته. والاختلاف ملحوظ بين السكينة الدينيَّة في الساحات السماويَّة المكشوفة، التي تضربها خيوط الشمس، بِحِنِّيَّة ملحوظةٍ، وبين النفق المسقوف للسوق المقبَّب المؤدِّي إليها. وليس لديَّ كلمات لأعبِّر عن جمال هذا الصرح المتوَّج بالقُبَّة والمحاط بالمباني التابعة له، مختلفة الأحجام؛ أسبلة، ومساطب، وقباب، وأبواب، ونقوش، ومنابر تدفع الأفكار للتأمُّل بهذا الحرم التاريخي المقدَّس، حتَّى إن المتأمِّل مثلي بهذا الحَرَم المتعدِّد المباني والرؤى المِعْمَارِيَّة، يلتفُّ بصمت وخشوع، فالموضوع طويل، ولن أشغلكما أكثر بتفاصيل مُملَّة، كلُّ ما تأمَّلتُهُ ودرستُهُ هنا أو في أوروبا سَكَنَنِي، وعاش بين ثناياي، وعندما أردتُ إخراجه أخيراً،

وُلد المتحف على أرض الشرق، كيف يمكن أن يراه الناس؟ لكلٍّ رؤيته، وتأويله وتفسيره، وهذا ممتع بالنسبة إليَّ، وأنا أتلصَّص على ما تحمله ذرَّات الهواء إليَّ من كلام، بعد فرزه ومعرفة العنوان الذي يجب أن تذهب إليه، الهواء هو بريدي، ويمكنكما أنتما دائماً رؤية مبنى المتحف من الخارج، والتأمُّل فيه، ويحمل بريدي إليَّ ما ستقولانه عنه وعنِّي، وسأكون سعيداً بكما وبما ستقولانه».

أين يعيش العمُّ هاريسون، هنا أو هناك؟ إلى أيِّ عنوان يصل بريده؟

لم أحتج إلى طرح مزيدٍ من الأسئلة، فهاريسون كان يعرف بماذا أفكِّر، فتطوَّع مجيباً: «أنا أعود أحياناً إلى هنا، لأرى ماذا فعله هؤلاء الذين احتلُّوا المتحف، ويفكِّرون كموظَّفين صغار، يسرقون مقتنيات من هنا إلى متحفهم في القُدْس الغربيَّة، ويُضيفون ويُغيِّرون، ونظرهم الآن مُسلَّط إلى قصر الشيخ، سيأخذونه».

قالت لور بأنها أخذت تحذيرات العمِّ هاريسون بشكلٍ جِدِّيٍّ، ونقلتْها إلى جَدِّها الذي قال، بأنه ليس بعد الحرب واحتلال القُدْس، واستشهاد ابنه، أيّ شيء يمكن أن يجعله يتأسَّى عليه، وما ترميه السماء، ستتلقَّاه الأرض.

خيَّمت علينا لحظات صمت، قطعها هاريسون: «الآن عليَّ أن أعود إلى مكاني، لا يجب علينا أن نكون حالمين فقط، ومستسلمين، فأنا رغم ما يصف البعض أسلوبي في تصميم المتحف، بأنه كان حالماً، غنيَّاً بالتفاصيل المِعْمَارِيَّة، إلَّا أن الأمرَ لم يقتصر على ذلك فقط، فأبرزتُ الجانب الاستعمالي للمبنى، ووضعتُ أرضيَّات من الفلِّين، للتخفيف من الضجَّة في صالات العرض. لقد كان ذلك تجديداً ثوريَّاً في حينه. وأردتُ وأنا أُصمِّم متحفاً، يضمُّ اللقى الأثريَّة التي يُعثَر عليها في فلسطين،

بمعرفة حكومة الاستعمار التي أخدمها، ابتكار أسلوب خاصٍّ بي يتميَّز بلمسةٍ رومانسيَّة - حسِّيَّةٍ، وعليكما أنتُما اكتشاف اللمسات الرومانسيَّة الحسِّيَّة السحريَّة كُلِّها، الوداع، ولا تنسي، يا لُور، أن تجلبي معكِ هذا الولد الشكَّاك في المرَّات المقبلة، لقد أحببتُهُ رغم عبوسه، وبصلته المحروقة».

اختفى الرجل الذي كان يُحدِّثنا قبل قليل، ونظرتُ إلى الحائط، فرأيتُ الوجه الأبيض المشوب بحمرةٍ خفيفة وقد مال ذقنه إلى الأسفل، وأُغمِضَت عيناه باطمئنانٍ غريب ومفاجِئ، وكأنه لم يكن هو الذي يُحدِّثنا، قبل قليل فقط.

السادس والخمسون

خرجنا من المتحف، وعندما أطللتُ على سور القُدْس، أيقنتُ بأن الشمس في طريقها إلى غروبٍ سريع، ورغم مفاجآت لُور التي لا تنتهي، وبعضها صادم، فإنه عليَّ العودة سريعاً إلى المنزل.

لم تقدِّم لُور تفسيراً عن ما حدث داخل بوَّابة المتحف، رغم علمها بأن مئات الأسئلة تمور داخلي، تلسع بنيرانها، واكتفت بالقول: «عليكَ أن تذهب الآن، حتَّى لا يقلق عليكَ والدكَ ووالدتكَ، وربَّما نتحدَّث في وقتٍ آخر، وتأتي معي إلى هنا، أنتَ لم ترَ شيئاً حتَّى الآن».

لن أنتظر أكثر الآن لأعرف ماذا سينتظرني عندما أعود مرَّة أخرى، فأسرعتُ بالخروج إلى الشارع، وسرتُ نحو برج اللُّقْلَق، وتوقَّفتُ لا أعرف لماذا، عند النُّصْب التذكاريِّ للشهداء، لا يظهر على النُّصْب الذي أقامه مواطنو القُدْس لشهداء المدينة في حرب حزيران، أسماء الشهداء، فتُرِكت البلاطات البيضاء المشذَّبة من حجر المدينة، بيضاء صامتة، تشي أكثر ممَّا تتكلَّم، بينما تحمل الكلمات التي تصف أصحاب النُّصْب بأنهم قضوا في «معركة الشرف»، أكثر من مغزى، هل هو شرف النصر أم شرف الهزيمة؟ وهل للهزيمة شرف؟

سأتعلَّم مبكِّراً، طرح الأسئلة.

كم شهيداً ارتقى خلال الحرب؟ كثير منهم من المجانين الذين آمنوا أن الكفَّ تستطيع مكافحة المخرز، حتَّى وهم يرون انسحاب الجيش النظامي، بدون نظام.

في الشيخ جرَّاح، كما قال لنا علي عمَّار، حيث حارب جنود من الجيش النظامي ببسالة في تلَّة الذخيرة، نصب الجيش الإسرائيلي هذه المرَّة نُصْباً، اعترف فيه بشجاعة الجنود الذين قضوا خلال ستِّ ساعات، خُطَّ عليه: «هنا يرقد عدد من المقاتلين الأردنيِّيْن الشجعان».

كيف يعترف العدوُّ وهو في هذه الحالة بشجاعة أعدائه الذين هم نحن؟ ولماذا؟ قال والدي، ربَّما يريدون التأكيد لأنفسهم بأنهم، وهم يحتلُّون القُدْس سريعاً، بأن ذلك لم يتمّ بسهولة، وإنما استلزم جهداً، فاحتاجوا إلينا، ليُمجِّدوا مَنْ قَاتَل منَّا، ليُمجِّدوا في الواقع أنفسهم.

وهم يفعلون ذلك يردِّدون رَجْعَ صدى معارك تبدو غامضة شهدتها القُدْس، وعبَّر فيها مُشعِلوها، عن أخلاق فروسيَّة، تحترم العدوَّ، عندما يكون شجاعاً، بل يمكن تبادل الهدايا معه، وإرسال الأطبَّاء له، كما فعل صلاح الدِّيْن، مع ريتشارد قلب الأسد.

عندما يُعظِّمون الأبطال من شهدائنا، يُعظِّمون أنفسهم كفرسان، ولكنَّ هذا ليس إلَّا جزءاً أَغْبَش، من الصورة، مخاتلاً، ومخادعاً، لا يدلُّ على صورتهم كاحتلال، يقتل، ويشرِّد، ويبطش، ويأخذ الأرض.

نظرتُ إلى المتحف، حيث كنتُ قبل قليل، لأكتشف بأنني ما زلتُ مصدوماً، غير مُصدِّق ما رأيتُ، وبأنه يمكن لوجه صُمِّم من مادَّة بيضاء، يشبه النُّصْب، أن يعيدَ إنتاج نفسه، ويمشي ويحكي، وتذكَّرت النُّصْب الذي أقامه الصليبيُّون في كرم الشيخ، وحطَّمه المسلمون عندما انتصروا عليهم، وكأن النُّصْب في بلادنا تنصب، كي تتحطَّم في النهاية.

ماذا سيكون مصير الوجه، الذي صمد خلال ثلاثة عهود، بريطانيَّة، وأردنيَّة، والآن إسرائيليَّة، في مقبل الأيَّام، سريعة التغيُّر في قُدْسنا؟

كنت مُشوَّشاً لا أعرف بالضبط ما يمور في داخلي، ولا أعرف ما أريد بالضبط، بل إنني لم أعرف وجهتي، عندما رأيتُ والدي يُوقِف مَرْكَبَته،

ويتَّجه نحوي، ولم يسألني ماذا أفعل هنا، أو أين غبتُ معظم هذا النَّهار، وكأنه عرف ما يُقلِقُني، فقال: «في القُدْس ستكثر النُّصب، لا يمكن إحصاؤها، لشهداء عرب، ولقتلى يهود، والقُدْس أيضاً هي مدينة النُّصْب، كيف ستحيا المدينة على أكتاف النُّصْب المتضادَّة، التي تُزوِّد المدينة بما ينقصها من مشاعر؟ كثير من هذه النُّصْب، مثلما حدث في الماضي، لن تصمد، ستتحطَّم، ستهوي خلال الحروب المقبلة، فالقُدْس أيضاً مدينة الحروب، يا بُنيَّ، أو سيتكفَّل بها الزمن، وما يعثر عليه باحثون بعد قرون، سيُوضَع في متاحف المدينة، القُدْس أيضاً مدينة المتاحف التي لا تُعدُّ، يا بُنيَّ، ويكون جزءاً من حكاياتها التي لا تُعَدُّ، القُدْس أيضاً وأيضاً ليست سوى مدينة حكايات، كما تعرف وتدرك، يا بُنيَّ».

لم يطرح والدي عليَّ أسئلةً كثيرة، ويبدو أنه علم بأن لديَّ ما أسأله عنه، وماذا كان يفعل في السينما مع مريم التشادية؟ ولكنه أيضاً سيسألني ماذا كنتُ أفعل مع لُور المسيحيَّة؟ فتواطأنا معاً، لا أسأل ولا يُسأل، حتَّى لو كان ذلك مؤقَّتاً.

قادني إلى المَرْكَبَة، لنعود سويَّاً إلى المنزل، وعندما اقتربنا من مدخل مقبرة باب الرحمة الشماليّ، فوجئنا بإغلاق جيش الاحتلال للطريق، ورأيتُ جنديَّاً يؤشِّر لوالدي، بالعودة من حيث أتى، تمتم والدي بعبارات متوجِّسة ممَّا قد يكون قد حدث، وأدَّى إلى إغلاق الطريق، ولكي يُطمئنَ نفسه، قال بصوت مرتفع: يمكن أن يغلقوا الطريق لأسباب تافهة، يشكُّون مثلاً في جسم مشبوه، وبعد فحصه يكتشفون بأنه ليس إلَّا كيساً فارغاً طار مع الهواء، وحطَّ في وسط الشارع. مَهوُوسون بالأمن، وهذا جيِّد، ويدل على أنهم ما زالوا خائفين، من الجيِّد أن يظلُّوا خائفين، مرتعدين منَّا، حتَّى دون أن نفعل شيئاً، فكيف لو فعلنا؟

انعطف والدي، إلى الجانب الآخر من الشارع، وصرخ، عندما كاد أن يدهس حمامة بريَّة، حطَّت قرب الرصيف، تستريح هنيهة، على الأرجح

قبل مواصلة طريقها نزولاً إلى وادي جهنَّم، ولكنه عبَّر عن سعادته، عندما نجح في تخطِّيها، وهو يعود إلى شارع السلطان سليمان، وأكمل إلى باب الخليل، فبِركَة السلطان، وعندما لاحت لنا طاحونة الهواء الضخمة، سألته، ويبدو أنه كان يتوقَّع ذلك: «هذه قصَّتها قصَّة، ترتفع هناك مقابل جبل صهيون، لا لكي تطحن القمح، وإنما كصدى ذكرى لأوَّل مشروع يهودي خارج بلدة القُدْس القديمة، ارتبط بالثري اليهودي البريطاني موسى منتيفيوري، الذي بنى الطاحونة قبل أكثر من قرن، وبعدها بسنوات تمكَّن من الحصول على فرمان من السلطان العثماني ببناء أوَّل حيٍّ خارج أسوار القُدْس القديمة، لإيواء فقراء اليهود. وطلب مونتيفيوري الذي شغل منصب عمدة لندن وساطة الملكة فيكتوريا لدى السلطان، والحُجَّة مساعدة يهود القُدْس، بسبب مجاعة ضربت فلسطين. ولا يوجد ما يشير إلى أن السلطان نفسه اهتمَّ بتأثير المجاعة على أجدادنا. ونجحت المساعي، ونُقلت الأرض من مِلْكِيَّة البطريركيَّة الأرثوذكسيَّة لحاكم القُدْس أحمد باشا آغا العسلي الدزدار، الذي دعا ناس القُدْس للاستماع لفرمان السلطان بشأن بناء الحَيِّ اليهوديِّ الجديد، ويبدو أن الحِسَّ المبكِّر لدى الناس بشأن أيِّ مشروع صهيوني جعلهم يرفضون الاستماع لفرمان سلطان المسلمين، ويتحجَّجون بإقامة الصلاة».

من أين لوالدي كلُّ هذه المعلومات؟ يُفاجِئُني كثيراً، وهل عندما أكبر سأكون مثله مليئاً بالمعلومات؟

وانتبهتُ لوالدي وهو يُكمِل: «زار مونتيفيوري فلسطين سبع مرَّات، وفي إحدى المرَّات، واجهه مثقَّف من عائلة الخالدي طالباً منه، إذا كان يحبُّ اليهود حقَّاً، أن يُعلِّمهم المهارات الزراعيَّة، بدلاً من توزيع الهبات السنويَّة عليهم التي تُسمَّى الحلوكاه، والواقع، يا بُنيَّ، أن ناس القُدْس من مسلمين ومسيحيِّيْن ويهود عاشوا ينتظر كلٌّ منهم حلوكاه أو الصُّرَّة،

تأتي من الخارج، وتُوزَّع عليهم، يحدوهم شعور بأنهم مندوبون عن أصحاب الديانات الثلاث القلقة في مدينة الله».

حلوكاه وصُرَّة؟ قبل أن أُعلِّق قال والدي: «عندما يعيش المرء في مدينته، يعيش ببساطة، ويواجه الصعوبات والفقر، وليس عليه انتظار مكافأة على عيشه في بيته».

ولم يتوقَّف: «للحَيِّ اسم صعب عليكَ، ولكنه أيضاً يُسمَّى حيَّ يمين موشيه، ويمكن ترجمتها بإحسان موسى. هل انتبهتَ لشيء؟ هل لَفَتَكَ شيء؟ تمعَّنْ في ما توحي به لفظة يمين في ثقافات الشرق القديم، وحتَّى الآن، أُمُّكَ تنصحكَ بالأكل باليمين، والدخول إلى الحمَّام، وإلى أماكن أخرى باليمين، وإلَّا فلن تحصل البَرَكَة، المخاصمة لأرضنا المقدَّسة منذ قرون».

السابع والخمسون

انعطف والدي يساراً نحو حَيِّ الثوري، وما زال لديه الكثير عن المونتفيوري، ويبدو أنه رَقَّ لحالي، واكتفى بما قاله، عله يُكمِل في ظرف آخر، وخلال نزولنا إلى قريتنا، يبدو أن والدي لاحظ شيئاً، فخرجت من فمه كلمة: آه ..! وأوقف المَرْكَبَة على جانب الطريق، ونزل منها، ونزلتُ خلفه، وسمعتُهُ يتمتم: إنه الراهب السوريُّ، وعندما نظرت أسفل الشارع على جانب وادي الربابة الأعلى، رأيتُ أبانا بوللو، يُلَمْلِمُ أطراف ثوبه، ويستعدُّ للنزول إلى حيث أوقف مَرْكَبَته.

انتبه والدي إلى وجود شخص بجانبه يسمع ما يتفوَّه به ويرصد ردود فعله، فحاول جرَّ الانتباه إلى جانبٍ آخر قائلاً: «انظرْ، إنها مقبرة القَرَّائين التي حدَّثتُكَ عنها».

ونزل أمامي في طرقة ترابيَّة، وكنتُ أستطيع رؤية قريتنا مثل قمع متَّسع من الأعلى على جانبَي جبل الزيتون، ودير (أبونا إبراهيم)، ويصغر حتَّى نهاية وادي الربابة، وعندما يضيق، يشكِّل ما يظهر وكأنه فرج امرأة. كيف خطر لي هذا التوصيف في تلك السنِّ؟

وإلى الشمال أرى كنيسة نِيَّاحَة العذراء بقُبَّتها الكبيرة، التي تحيط بها أربع قباب أصغر، تعلو أربعة أبراج مخروطيَّة، وجرسيَّة عملاقة، تُشرف على أنحاء القُدْس، «إنها نسخة عن كنيسة رومانيَّة على نهر الراين، مِعْمَار روماني في بيئة شرقية»- همس والدي وهو يواصل النزول، ولكنه علم ما شغلني للتوِّ، هذا ما يُحيِّرني أحياناً في كبار السنِّ، عندما يتبيَّن لي بأنهم يعرفون ما أفكِّر به، أو يخطر لي.

عندما اقتربنا من مقبرة القَرَّائين، كان الظلام قد حلَّ، ولم يكن فيها سوى بضعة قبور متفرِّقة، خلفها بقايا مقبرة، قال والدي بأنها رومانيَّة، محفورة في الجبل وكأنها مغارة، طلب منِّي والدي الانتظار بينما دخل إلى المقبرة الرومانيَّة، وقدَّرتُ بأنه يقتفي أثر أبينا بوللو، وربَّما يريد أن يعلم لماذا جاء إلى المقبرة في هذا الوقت، وعندما عاد لاحظتُ عجوزاً تقترب منَّا، تفترُّ شفتاها عن ابتسامة مطمئنَّة، وعندما وصلتْنا سألتْ إذا كانت هذه فعلاً مقبرة القَرَّائين.

ميَّز والدي المرأة بأنها مصريَّة من لهجتها التي تشبه لهجة سعاد حسني في فيلم سينما الحمراء، وعلمنا بأنها يهوديَّة مصريَّة من طائفة القَرَّائين، جاءت من الرَّمْلَة، لتتفقَّد المقبرة، وتحديداً قبر والدها، الذي دُفن هنا قبل النكبة. ولم يكن العثور على قبر والدها صعباً، على ضوء القمر بين بضعة قبور، فنظَّفتُ البلاطة المستطيلة التي تُغطِّيه، وسألتُ والدي إذا كان مسموحاً لها أن تُجدِّدها، فقال والدي بأنه ليس مُخوَّلاً بمثل هذه الأمور، وشَكَتِ العجوز من أن الحكومة الإسرائيليَّة وبلديَّة القُدْس لا تهتمَّان بهذه المقبرة وكأن المدفونين فيها ليسوا يهوداً، وشَكَتْ ممَّا وصفتْهُ التمييز ضدَّ أبناء طائفتها من قِبَل المؤسَّسات الدينيَّة اليهوديَّة.

قال والدي، بأن المشكلة بالنسبة إلينا، هي الاحتلال، وبأنه لم يكن هناك مشكلات بين اليهود والعرب بمسلميهم ومسيحيِّيهم، قبل وصول طلائع الحركة الصهيونية.

قالت العجوز بأنها لا تُفضِّل الحديث في الأمور السياسيَّة، وإنها توافق والدي على ما قاله، مشيرة إلى أن أبناء طائفتها اعتبروا أنفسهم عرباً، وما همّهم فقط هو وجودهم في الأماكن المقدَّسة، وقاطعوا الحركة الصهيونية، ولكنْ، مَنْ قرَّر مآلات الأوضاع في الأرض المقدَّسة، جعل الانقسام واضحاً بين اليهود والعرب.

«هناك من كبار السنِّ من طائفتنا الذين انتقلوا للعيش في الرَّمْلَة، ما زالوا يتحدَّثون بين أنفسهم بالعربيَّة»- قالت العجوز.

وروت ما اعتبرتها طُرفة، عن رسالة، أرسلها واحد من أبناء الجالية القرَّائيَّة اليهوديَّة بالقُدْس، خلال إحدى فترات الحكم الإسلاميِّ، إلى صهره المقيم في الفسطاط، يحثُّه فيها على العودة إلى أسرته في القُدْس، جاء فيها:

«من المفضَّل أن تأكل البصل في بيت المَقْدِس بدل الدجاج في مصر».

ضحك والدي، وضحكت العجوز، وضحكتُ أنا لضحكهما.

وبدا مزاج المرأة رائقاً، مكَّنها من رواية ما يشبه الطُّرفة، وهذه المرَّة من تاريخها العائلي، فقالت: «طلبت جَدَّتي، من جَدِّي، الذهاب إلى القاهرة، لزيارة أهلها، ولكنه كان فقيراً أكثر من اللازم، فلم يستطع المسكين تدبُّر أمره، ولعلَّه لم يجد ممَّنْ لجأ إليهم من أغنياء اليهود، أو ممَّنْ أعتقد أنهم أيسر منه، إلَّا ردّه، ولكنَّ الجَدَّة، لم تيأس مثله، وبدلاً من إعلان فشلها ورفع الراية البيضاء، قرَّرت أن تبادر، وفي يوم استيقظ الجَدُّ، فلم يجدها، واحتاج لساعات، وربمَّا يوم أو أيَّام، ليدرك، أنها توجَّهت إلى محطَّة قُدْس شريف في الطَّالِبِيَّة، وركبت القطار، لتصل العريش، فالقاهرة، وتنزل عند أهلها، ولم تعد إلى الجَدِّ، الذي قضى في القُدْس، دون أن يلتقيَ الجَدَّة اليهوديَّة القويَّة».

سألها والدي، عمَّا حصل لاحقاً للجَدَّة والعائلة؟ فأجابت: «جئنا إلى هنا، إلى بلادكم، فلم تحتملْنا بلادنا، واعتبرونا أعداءَ، وضيَّقوا علينا، وأصبحت لفظة يهودي، أو يهود، سُبَّة، وعار يتلبَّس صاحبها أو صاحبتها، وانتهت فجأة قرون من التعايش، كيف ولماذا؟ لا أعرف حتَّى الآن. لقد سبقنا والدي إلى هنا، الذي جاء يبحث عن أبيه، ويجمع أخباره، وقضى ليس بعيداً من هنا، عندما حدثت المشكلات بين العرب واليهود، بالقرب

من طاحونة مونتفيوري، وكان حظُّه جيِّداً، بأنَّه وجد مَنْ يدفنه في مقبرة القَرَّائين، ويجد صاحب الفضل علينا، إخبارنا بلحظات والدي الأخيرة ومكان دفنه، وعندما وصلنا القُدْس، زرنا القبر، وأعددنا النقش عليه الذي يحمل اسم الوالد، وانتقلنا إلى الرَّمْلَة، وجئتُ اليوم، لزيارته، وأنا غير متأكِّدة بأنه ظلَّ كما كان، خشينا منكم أن تُخرِّبوه، انتقاماً من كلِّ شيء يهودي، ومن محاسن الصدف، أنني تعرَّفتُ عليكما».

قال والدي، بأننا لسنا كما تُصوِّرنا الدعاية الصهيونية، فحافظنا على المقبرة، وذكَّرها، بعيش اليهود اليمنيِّيْن معنا في قريتنا، ولكنها بدت أنها لا تتذكَّر، وفوجئتْ بحكاية اليهود اليمنيِّيْن.

اضطُرَّ والدي، لتقديم شرح مختصر لها، ولكنه أيضاً كان يستهدفني، لكي أعرف أكثر وأكثر عن تاريخ قريتنا.

قال والدي: «وصلت طلائع اليهود اليمنيِّيْن، إلى القُدْس في عام 1882م، هائمين على وجوههم كما يقال، جوعى وعطشى، جاؤوا حاجِّين، مدفوعين بقصص دينهم عن القُدْس، أو بحثاً عن ملجأ أفضل من بلدهم، قد يكونون عانوا هناك شَظَف العيش، وشَظَف التحيُّز ضدَّهم، ومن حُسن حظِّهم أن مجموعة أخرى من الهائمين كانت وصلت إلى القُدْس، لأسبابٍ دينيَّة، ولكنْ، من مكان آخر، من أميركا البعيدة، وأسَّسوا الكولونياليَّة الأميركيَّة، وعندما رآهم مؤسِّس الكولونياليَّة وجلس معهم، وحادثهم، وقدَّم ما استطاع من مساعدة، فشعر في لحظة صفو، تفتَّح فيها ذهنه، أن هؤلاء اليهود التائهين الفقراء، لابسي الأسمال البالية، ضعاف البنية، وسمر البشرة، لن يكونوا إلَّا بقايا نسل سبط جاد، وأكَّد لنفسه ولجماعته ذلك، استناداً للكتاب المقدَّس، وذهب في التأكيد خطوة، ليؤكِّد بأن وصول هؤلاء إلى القُدْس، وعودتهم إلى صهيون، ما هو إلَّا تحقيقاً لنبؤات الكتاب المقدَّس».

ضحكت العجوز المِصْريَّة، وتمكَّنتُ من ملاحظة ملامح الإعياء على وجهها التي أظهرتْها ضحكتها، وهي تطلب من والدي تأكيداً على قصَّته، فقال لها بأن القصَّة مؤكَّدة، وتابع: «فرح أعضاء الكولونياليَّة بأبناء جاد، فساعدوا بإيوائهم وإطعامهم، ووجدوا في وصولهم إلى هنا، طالعاً حسناً، مشيرين إلى أن جاد يعني بالعبريَّة: طالع حسن، ولكن نبوءات الكتاب المقدَّس، والطوالع الحسنة، وحماسة الإغاثة، ستفتر بعد حين، ولم يجد ضيوف القُدْس من اليمنيِّيْن، إلَّا كهوف سِلْوَان، ليلجؤوا إليها قريباً من مقبرة اليهود، وطَنْطُوْر فرعون، وسيندمجون في أجواء قريتنا، وتصبح حارتهم حارة اليمن».

بدا لي بأن والدي يمكنه الحديث عن يهود اليمن، إلى ما لا نهاية، ولكنه لاحظ، بأن الوقت يدهمنا.

اسودَّ الظلام على القُدْس، وعرض والدي على العجوز إيصالها إلى أقرب مكان تريده في القُدْس الغربيَّة، فقالت بأنها تطلب فقط أن نسمح لها بمرافقتنا حتَّى بداية الشارع، ومن هناك ستعرف طريقها، وهذا ما حدث، وخلال صعود الطريق المتربة، وضعت العجوز أكثر من مرَّة يدها على كتفي، مستندة عليه، وهي تدعو لي بالتوفيق في الدراسة وفي العمل وفي إيجاد ابنة الحلال في الوقت المناسب، وأنا سعيد بلهجتها المصريَّة، وتمنَّيتُ لو أن لُور معنا، لتسمع مثلي هذه اللهجة خارج دُوْر السينما.

عندما وصلنا المنزل، لم يكن لديَّ أيُّ نَفسٍ في أيِّ شيء، سوى الانزواء في مكانٍ، أحاول فيه استجماع ما حدث لي في هذا اليوم الغريب، من العطوة في رأس العَمُود، إلى السينما، فالمتحف، وأخيراً مقبرة القَرَّائين، والعجوز المصريَّة، ولكنْ، لوالدتي، كما هي العادة، رأي آخر، فالطعام دائماً بانتظاري.

رجوتُ والدي أن يسمح لي أن أمضيَ اليوم التالي مع لُور، ولكنه مانع، أمَّا والدتي، فقالت بين الجِدِّ والسخرية:

- أصبحتُ أخشى عليكَ من هذه البنت ..!

فردَّ والدي:

– عليكِ أن تخشِي على بنات الناس من ابنكِ، لو عرفتِ إلى أين يأخذها ..!

هل رآني والدي في السينما أم أنا الذي رأيتُهُ أم كلٌّ منَّا رأى الآخر؟! ولكنْ، ماذا لو عرفت والدتي مع مَنْ كان زوجها يحضر فيلماً رومانسيَّاً، واقفاً مستمتعاً؟

والدي يوحي ويرمز ولا يتكلَّم بصراحة، ولا أعرف ماذا يعرف بالضبط، وأنا أيضاً من الصعب أن أواجهه، وأقول له: ماذا كنتَ تفعل مع مريم التشادية؟ ولا أعرف كلَّ شيء عنه، بدا لي غامضاً، رغم أنني أقضي وقتاً طويلاً معه، وأرافقه في بعض مشاويره.

قال:

- السَّبْع نخّ، حضِّر نفسك غداً صباحاً ..!

لسعني صوته، وأفاقني من تخيُّلاتي، وتساؤلاتي.

الثامن والخمسون

استغلَّ والدي والعائلةُ تَضَعْضُعَ وَضْع السَّبْع بعد واقعة ضرب إسماعيل، وما تبعها من عقد الصلح، للضغط عليه للذهاب إلى مقام النبي موسى، والتخلُّص من إدمانه.

في صباح اليوم التالي، انتظرتُ مع والدي في مَرْكَبَته قدوم السَّبْع، وعندما أطلَّ في الوقت الذي بدأ فيه والدي يتأفَّف من تأخُّره، طلب منِّي والدي النزول من المَرْكَبَة، لكي يصعد السَّبْع إلى جانبه، ثمَّ أصعد أنا، بحيث يكون السَّبْع بيني وبين والدي، وكأنه يريد أن يسجنه بيننا، مطمئنّاً إلى أن قريبه لن يُغيِّر رأيه.

التزم السَّبْع الصمت، بينما حاول والدي، خلال طريقنا إلى أريحا، قطع الصمت بحديثٍ عامٍّ عن المواقع التي نمرُّ بها، والتلال الهامدة المنتشرة في برِّيَّة القُدْس، وأشار والدي إلى البيوت القِرْمِيْدِيَّة التي بدأت تنتشر على التلال، بعد مصادرة الاحتلال لأرضنا، التي تُسمَّى خان السَّلاَونة، وعندما اقترنا من نقطة سطح البحر، التي حدَّدها البريطانيُّون، وثبَّتوا ذلك على حجرٍ أبيض، اقترح والدي أن ننزل قليلاً، لنستريح، ولكنَّ السَّبْع تكلَّم، مشيراً إلى أنه لم يعد يفصلنا على وصولنا إلى المقام سوى مسافة قصيرة، فنرتاح هناك.

لم يردِ السَّبْع أن نلاحظ توتُّره، وربَّما غضبه لذهابه معنا، مقهوراً، مغلوباً على أمره، ومن الواضح أنه لم يكن أمامه، إلَّا الرضوخ، لرغبة العائلة، بعد ما سبَّبه لها، بعد واقعة ضرب إسماعيل من إحراج.

بعد نحو كيلو متر، انعطف والدي إلى الجنوب، في طرقةٍ فرعيَّةٍ بين التلال المتباينة الارتفاع، حتَّى ظهر بعد قليل المقام بقبابه المتعدِّدة.

وجدنا أمام باب المقام شخصاً متمدِّداً على فرشةٍ رفيعةٍ، وعلى بُعد منه جمل، وعرفنا فيما بعد بأنه يُركِّب الزوَّار على جمله، ويلفُّ بهم لفَّة، مقابل مبلغ معيَّن.

دخل والدي إلى المقام، وخلفه السَّبْع، ثمَّ أنا، لنجد الشيخ عبد المعين، يحمل خرطوماً بلاستيكيَّاً، ويرشُّ المياه على أرضيَّة الساحة السماويَّة للمقام، وقال وهو يستقبلنا، بأن مصدر المياه، الآبار المنتشرة في الساحة، والتي تمُلأ بالماء بطريقةٍ عجائبيَّة، ويعتقد بأن النبي موسى نفسه يحرص على أن تكون دائماً ملأى بالمياه.

لم يُعلِّق والدي على كلام الشيخ عبد المعين الاستهلالي، وإن كان غير مقتنع به، ولم يسأل عن الطريقة العجائبيَّة، وقدَّم السَّبْع، للشيخ عبد المعين:

- هذا هو سَبْعنا ..!

قال الشيخ عبد المعين وهو يُحرِّك عِمَامَته السوداء إلى الخلف قليلاً:

– أهلاً بالسَّبْع وبأهل السَّبْع، نحن نحتاج إلى السَّبْع في هذا المكان، ينتظرنا عمل كثير، لا يقدر عليه إلَّا السباع ..!

وطلب منَّا الذهاب معه، إلى أمام مسجد المقام الذي يحوي قبر النبي موسى المفترَض، حيث جلسنا على مقاعد، وخلفنا بناء مغلق ببوَّابة حديديَّة حديثة، عرفنا أنه المكان الذي يُحشَر المدمنون فيه.

جاء الشاي الذي قال الشيخ عبد المعين، إنه صُنع على نار، ومن ماء الآبار، وليس هناك مثل الشاي المكوَّن من ماء الأمطار، والمطبوخ على

نارٍ هادئة، وأخذ يتحدَّث عن ما فعله ورفاقه في المقام، وكأنه يقدِّم تقريراً لوالدي، الذي ساعده في الوصول إلى هذا المكان.

قال الشيخ عبد المعين: «عندما سُمح لنا باستخدام المقام، وعلينا أن نشكركَ، يا أبا كافل، لما بذلتَهُ من جهد، وقدَّمتَهُ من مساعدة، ومَنْ لا يشكر الناس لا يشكر الله، فلم نضيِّع وقتاً، وبَنَيْنا حمَّامات، ومغطساً صحِّيَّاً، ومطبخاً، وأصلحنا عدَّة غرف، وتدفَّق إلينا المدمنون، ولم نكن نصدِّق أنه في بعض الأيَّام كان يصلنا من خمسين إلى سبعين مدمناً، ولم يكونوا كلُّهم من العرب المسلمين والمسيحيِّيْن، بل جاءنا أيضاً مدمنون من اليهود».

أبدى والدي استغرابه من مسألة اليهود هذه، فردَّ الشيخ عبد المعين: «المُخدِّرات لا تفرِّق بين دِيْن وجنس وقوميَّة، والمدمنون إجمالاً يعرفون بعضهم بعضاً، أو يتعاطون معاً، عموماً هناك طُرُق متشابكة، تجعلهم يلتقون، وعندما يجيئنا المدمون العرب كان من الطبيعي أن يلحقهم رفاقهم اليهود».

وأضاف بعد أن شعر باقتناع والدي: «كانت أيَّامنا الأولى كُلُّها همَّة ونشاط، ولم نصدِّق في البداية هذا النجاح، ولم يبخل علينا أهل الخَيْر في تقديم المساعدة اللازمة لتمويل مركز الفطام».

سأل والدي:

- كيف تعالجون هؤلاء وأنتم لستُم أطبَّاء؟

ابتسم الشيخ عبد المعين وقال:

– ليس لدينا أطبَّاء بشكلٍ دائم، وإنما لدينا مرشدون اجتماعيُّون، وابتكرنا طريقة للعلاج، فعندما يأتي إلينا المدمن طواعية، ينخرط مع

المجموع، ويصيبه رشح لمدَّة أسبوع وإسهال، وبعدها ينهض مثل الحصان، بفضل العناية الإلهيَّة، كما سيحصل مع أخينا السَّبْع، الذي سيعود إليكم حصاناً أصيلاً، كما كان.

لم يُبْدِ السَّبْع ردَّة فعل، واستمرَّ في النظر إلى الأرض، وكأنه يتدبَّر ما سيحصل له بعد قليل، ومكوثه في هذا المكان المنعزل، وحيداً، بعيداً عن أُمِّه، وعن شوارع القُدْس.

سأل والدي، الشيخ عبد المعين، بجِدِّيَّة:

- ولكنْ، ألَا تعتقد معي بأن السرَّ الإلهي وحده لا يكفي في العلاج؟

لم يجب الشيخ، وتدخَّل مرشد اجتماعي، جلس معنا وهو يسمع والدي يطرح سؤاله:

– انظرْ للمكان، إنه يوحي بالسرِّ الإلهي؛ العزلة والسكينة يساعدان على العلاج، إضافة لذلك، فإن بعض الأطبَّاء يتردَّدون متطوِّعين للمساهمة في علاج المدمنين.

أضاف الشيخ عبد المعين، على ما قاله المُرْشِد الاجتماعيُّ:

– كما أعلم، فإن الكريزة التي تصيب المدمن، هي نوع من الأوهام تصاحبها آلام في الجسم، وكذلك آلام أمراض مصاب بها الشَّخص أصلاً، وعندما كانت تحدث مع أحدهم مضاعفات مَرَضِيَّة، كنَّا نُحوِّله إلى المستشفى».

بدأ والدي يطمئنُّ أكثر فأكثر، إلى المكان الذي سيودع فيه قريبه، وسأل عن نسبة النجاح، فأجاب الشيخ عبد المعين:

– عليكَ أن تصدِّقني، عندما أقول بأننا نجحنا في علاج نصف المعالجين، والمهمُّ، أن معظم الذين نجوا، لم يتخلّوا عن زملائهم السابقين،

فيقدِّمون لهم كلَّ أشكال المساعدة، وبلغ الارتباط والانتماء للمركز، أن البعض زوَّجناه، ووجدنا له عملاً، أو ساعدناه ماليَّاً، ليشقَّ طريقه في الحياة.

تدخَّل المُرْشِد الاجتماعيّ، عندما رأى أن الصورة التي يقدِّمها الشيخ عبد المعين ورديَّة:

– التجربة ليست سهلة، وواجهنا مشكلات عديدة، وما زلنا نواجه، وأهمُّ تلك المشكلات عدم وجود متابعة بعد العلاج، فيجب أن يرافق عملنا توعية للأهالي والمجتمع، وعليكم أنتم أيضاً في القُدْس، أن تساعدونا أكثر، فظاهرة المخدِّرات في البلدة القديمة خصوصاً، بدلاً من أن تتقلَّص تزداد، وتستفحل، نتيجة الاكتظاظ، والبطالة، وسياسة الاحتلال.

قال والدي:

- ماذا علينا أن نواجه أوَّلاً؟ كلُّ المشكلات تضرب رؤوسنا مرَّة واحدةً، فتُدوِّخنا، ولا نعرف ماذا نفعل.

قال الشيخ عبد المعين:

– لاحقنا الاحتلال إلى هنا، في البداية ضغطت شرطة أريحا على بعض مَنْ يتلقَّون العلاج هنا، لتقديم شكاوى ضدَّ اللجنة المُحمَّديَّة، بدعوى أننا نضرب المدمنين، ونحتجزهم في زنازين النبي موسى، ودهمتْنا قوَّات من الجيش وضبَّاط المخابرات، واتَّهمونا بإخفاء مطلوبين من الفدائيِّيْن الذين يتسلَّلون عبر نهر الأردن، لكنهم، لم يعثروا على أيِّ دليل.

قال والدي:

- ليكن الله بعونكم، إنها معركة بقاء وصمود.

شرح الشيخ أكثر عن مداهمات قوَّات الاحتلال:

– طوَّقوا المقام، ونشروا قوَّاتهم، وأخرجونا مخفورين، بما علينا من ملابس إلى الخارج، وأجبرونا على الوقوف ووجوهنا إلى الحائط، وأيدينا مرفوعة، وسط ترهيب، فكلُّ مَنْ يحرِّك يده ليُريحَها، يتلقَّى ضربةً على صدغه أو ظهره، أو شَلُّوتاً على مؤخِّرته، كلُّ احتلال أتى إلى بلادنا فعل الشيء نفسه، أرادوا إذلالنا، وقهرنا، وكما أخبرني والدي عن احتلال الإنجليز، سأخبر أولادي بما فعله وسيفعله هذا الاحتلال، لطالما تعرَّض بيتنا في القُدْس القديمة، لدَهْم الإنجليز، الذين كانوا يطوِّقون

المنازل، ويخرجون من فيها، ويفتِّشونها، ويسرقون كلَّ ما يجدونه داخلها، وله ثمن، خصوصاً ما خفَّ وزنه، وارتفع ثمنه، كالأقلام المذهَّبة، أو التحف الصغيرة التي راكمتْها العائلات، وتوارثها الأبناء، وغير ذلك، وعندما طوَّقنا اليهود، سرقوا أموالنا القليلة التي بقيت مع أغراضنا في داخل المقام.

علَّق والدي، مُبدِياً غضبه، بينما أكمل الشيخ عبد المعين، دافعاً الحديث إلى ذرى دراميَّة:

– نعاني كثيراً، يا أخي، وفي الشهر الماضي، دهمت قوَّات الجيش منازل إخوة لنا في اللجنة المُحمَّديَّة، واعتقلوا ثمانية منهم، وقدَّموهم للمحكمة، بتهمة ضرب المدمنين وعلاجهم بالإكراه، وتراوحت الأحكام ما بين عامَيْن إلى أربعة أعوام، رغم الفضيحة التي شهدتْها أروقة المحكمة الصوريَّة، عندما قال أحد الشهود، بأنه لم يتعالج في النبي موسى، ولا يعرف أين يقع، ولكن المخابرات ضغطت عليه ليشهد زوراً، وإن لم يفعل، فستُلَفِّق المخابرات تهمةً أمنيَّةً له.

وأضاف:

– نحن مهدَّدون بالإغلاق النهائي، والصحافة الإسرائيليَّة تُحرِّض علينا،

يأتي الصحافيُّون إلى هنا، ويرون ما نفعله على أرض الواقع، وعندما يعودون لمكاتبهم، ليكتبوا تقاريرهم، يصفوننا بالإرهاب.

شعر والدي، بأن لحظة الحسم، التي كان يُؤجِّلها، بفتح الحديث وطرح الأسئلة، بوجود السَّبْع، كي يطمئنَّ الأخير، قد حانت، فنهض وقال للشيخ عبد المعين:

- أستودعكَ سَبْعنا.

وأمسك بيد السَّبْع، وأنهضه عن كرسيِّه، وربَّت على كتفه، وهو يقول:

- أنتَ في أيدِ أمينة، يا أخي، وسآتي لاحقاً لأزوركَ، لن أتركَكَ وحدكَ.

وغادرنا المقام.

التاسع والخمسون

في اليوم التالي، صَعِدْتُ إلى القُدْس، بعد خروج والدي إلى عمله بفترةٍ، ولم يكن ما شهدتُهُ في مقام النبي موسى، ليغيبَ عن بالي، وشعرتُ بتعاطفٍ مع السَّبْع، وتساءلتُ كيف أمضى ليلته الأولى وسط الشيوخ، وهل يمكن أن يكون الشيخ عبد المعين، بكلِّ هذه البراءة التي قدَّم نفسه بها؟ ولم يتورَّط أبداً في ضرب المدمنين؟

في طريق العودة، بدا والدي متشكِّكاً، فانتقل شكُّه إليَّ، ومع ذلك لم أعرف لماذا لم يكن أمامه إلَّا رمي قريبه إلى يد الشيخ عبد المعين وصحبه؟

قال والدي ساخراً، بأن الشيوخ يمكن أن يعملوا أيَّ شيء ..!

للسَّبْع قَدَرٌ يحميه، ولي أيضاً قَدَري الذي يسيِّرني، ولا أعرف التضاعيف التي سيسوقني إليها، كما فعل في الأيَّام الماضية.

وصلتُ باب المغاربة متعَباً، ولكنني لم أسترح على أيِّ حجر بجوار السُّور، وأنا أرى سُلَّماً طويلاً، يُنصَب على الباب، وعمَّالاً عرباً منشغلين، تحت إمرة مسؤول يهوديّ، فالسلالم في القُدْس ليست مجرَّدة أو محايدة، لها دائماً ما خلفها، من سُلَّم كنيسة القيامة الجامد في مكانه، إلى السلالم الكثيرة التي استحدثها المحتلُّون، حول سور القُدْس، لإيصال اليهود والسيَّاح إلى أماكن ومواقع جرت حفريَّات فيها، بأكبر قَدْرٍ من الأمان، خشية السقوط في حفرٍ، وتجنّب سقوط الحجارة القديمة الكبيرة عليهم.

عندما اقتربتُ منهم تبيَّن لي بشكل واضح ما يفعلونه؛ إنهم يثبِّتون

رمزاً أعلى الباب، وأسفله يُظهِر النقش البارز بحروفٍ عربيَّة متشابكة، تدلُّ على قِدَمه.

ولم يكن الرمز الجديد المستحدث سوى النجمة السداسيَّة، ولكنها هنا ليست خَاتَم سليمان، وأقلّ خطوطاً وتشكيلاً، وأكثر عمليَّةً من النجمة السداسيَّة التي تظهر في أكثر من موقعٍ على السُّور.

قال لي أحد العمَّال، عندما سألتُهُ:

- إنها نجمة داود ..!

بدا المسؤول اليهوديُّ مستعجلاً لإنهاء العمل، كي لا تتعطَّل كثيراً حركة الدخول والخروج إلى ومن القُدْس القديمة، بينما تتزايد أعداد السيَّاح والمتديِّنين اليهود الذين يدخلون من الباب إلى حارة المغارة، التي لم يعد لها وجود، وأضحت ساحة حائط المبكى فضاءً لدقِّ الرؤوس على الحائط القديم الطويل، تقرُّباً للربِّ، واحد من أرباب القُدْس، الذي تعترف به، المجموعة التي انتصرت، وسيطرت على المدينة المقدَّسة، فَأَعْلَت من مكانته.

قلتُ للعامل:

– ما أعرفه بأنها خَاتَم سليمان ..!

- خَاتَم سليمان؟ هذا ما أسمعه لأوَّل مرَّة. إنها نجمة داود، رمز اليهوديَّة تُشكَّل، ببساطةٍ، وسهولةٍ، فقط بوضع مثلَّثَيْن معاً معكوسَيْن أو متشابكَيْن ..!

– ولماذا يضعونها هنا؟!

- لا أعرف لماذا يضعونها على الباب هنا تحديداً، ربَّما لسهولة ذلك، نسبة إلى باقي أبواب السُّور الكبيرة والمتعالية..!

- خَاتَم سليمان أو نجمة داود، لماذا لا يتركون الباب على حاله؟

- النجمة هي رمز الاحتلال الجديد، هي بداية لما لا يعلم غير الله ماذا سيفعلونه في الحجر والبشر في الأيَّام التالية ..!

فكَّرتُ بسؤال العامل، لماذا ينخرط في هذا العمل، وهو يعرف الهدف منه؟ ولكنني تراجعتُ، فلكلٍّ منَّا ظروفه، والعمل لدى المحتلِّين الجدد، أضحى مقبولاً لدى ناسنا في القُدْس، وغيرها من مُدُن فلسطينيَّة.

تمنَّيتُ لو ألتقي الآن مريم التشاديَّة، أو أبا روحي المغربي، لأفهم منهما كيف يتغيَّر التشكيل السداسيُّ، من خَاتَم للمجد إلى نجمة للاحتلال؟

الرموز لا تبقى على حالها، إنها في حالة تأويل، وتشكيل، وإعادة تفسير، أجد نفسي مبلبلاً مرَّة أخرى في هذه المدينة، صعبة الفهم.

دخلتُ من الباب، والعمل ما زال جارياً لتثبيت النجمة، وبدت القُدْس القديمة رغم شمسها الساطعة الحارَّة، بلدة رطبة، تخترق الشمس جدرانها، فتنبث قلقاً، مدينة تطفو على قلق، لم أشعر بهذا أنا فقط، بل تخيَّلتُ بأن اليهود المتديِّنون بسوالفهم الطويلة، وأغطية رؤوسهم السوداء، ونساءهم بأرديتهنَّ المحتشمة، وهم يُسرعون إلى الحائط، ينطلقون، وهم على قلق، من أن تفوتهم نوبة بكاء، أو أن يتغيَّر كلُّ شيء وهم يضربون رؤوسهم في الحائط، كأن تندلع الحرب فجأة، أو أن يصحى الموتى على جبل الزيتون ورأس العَمُود، ويسرعوا إلى هنا، فيعرفون بأن يوم الدَّيْنونَة جاء، ولا يدرون ماذا سيفعلون، بنسائهم في الجانب الآخر، حيث يُصلِّين مراعيات الحدود التي وضعها رجالهنَّ في الفصل بين الذكور والإناث.

وعندما انعطفتُ من وسط البيوت المتلاصقة شديدة القِدَم في حارة اليهود، إلى شارع باب السِّلْسِلَة، كان الرجال والنساء يُسرعون نحو المسجد

الأقصى، وكأنهم يخشون أن يصلوه، ولا يجدوه، فكلُّ خطوة سريعة كفيلة بطمأنة القلوب، وتخفيف الهواجس.

على باب باحة حارة المغاربة، التي أصبحت ساحة المبكى، رجال أمن، ولكنْ، يكاد وجودهم يبدو غير مُؤَثِّر، بعكس الحال في باب السِّلْسِلَة، حيث يبدو الشارع وكأنه ساحة حرب؛ نقاط وحواجز عسكريَّة، وجنود بُثُّوا في كلِّ زاوية، يُوقِفون الناس، ومَنْ لا يُوقِفُوه، تلاحقه أعينهم اليقظة.

انتبهتُ إلى ما يجري على يساري؛ جنود يخرجون من المكتبة الخالديَّة، يخفرون شابَّيْن، أحدهم يرتدي كوفيَّة بيضاء، ولكنه يبدو غير عربيٍّ، وبدت عليه الكوفيَّة مهلهلة، وكأنها وُضِعَت على رأس لا يناسبها، أدركت كيف يمكن للزِّيِّ الإفصاح عن لواعجه كالبشر مثلاً.

بينما سار الجنود، بالشابَّيْن نزولاً في الشارع، تجمَّع عددٌ من الناس، وخرج من المكتبة رجلٌ أبيض الوجه، يرتدي نظَّارة طبيَّة، وسمعتُهُ يخاطب المتجمِّعين موجهاً لوماً مُوارِباً لهم، قائلاً: هل تأكَّدتُم الآن بأنهما من الأصدقاء وليس الأعداء؟

عرفتُ بأن الاثنَيْن جاءا من بريطانيا، لأغراضٍ بحثيَّة، ووجدا في المكتبة الخالديَّة موقعاً للانطلاق في أبحاثهما، ولكنَّ أهالي الحارة عاملوهما بتحفُّظ، خشية أن يكونا مدسوسَيْن من جهة معادية؛ ولكنَّ سلطات الاحتلال أيضاً كانت تتحفَّظ اتِّجاههما، ويبدو أن عملهما ضايقها، فاقتحمت المكتبة، وخفرتْهما.

قال الرجل، الذي علمتُ بأنه من عائلة الخالدي، إحدى عائلات القُدْس التي تتوارث الوظائف والزعامة، مُنتقِداً المبالغة في التحفُّظ تجاه الغرباء من قِبَل ناس الشارع:

- مع أنني وُلدتُ هنا وشببتُ، إلَّا أنني عندما أعود إلى الشارع والمكتبة، أجد مَنْ يسألني عن هُوِيَّتي، يعتقد البعض بأنني يهودي أو أجنبي، فالحرب بَلْبَلَت الناس، وبَلْبَلَتْنَا، وزادت من منسوب الشكِّ لدينا، أصبحنا نشكُّ في كلِّ شيء، إنها ثقافة المستهدف، صحيح أنهم يستهدفوننا، ويخطِّطون لاقتلاعنا، لكنْ، علينا أيضاً أن ننتبه ونُميِّز بين الصديق والعدوِّ، وعلينا أن لا نخسر الأصدقاء الذين يزدادون وهم يرون ممارسات إسرائيل العدوانيَّة بحقِّنا.

سَرَتْ همهمة بين الناس الذين بدو وكأنهم مجموعة أفراد متفرِّقين، لكلِّ واحد منهم موَّاله الحزين، وغير قادرين على ضَفْرها في لحنٍ واحد.

أُعجبتُ بنفسي على توصُّلي لهذه الصورة في وصف ناس البلدة القديمة، وتصوَّرتُ كيف ستستقبل لُور هذا التوصيف منِّي، وهل ستُقدِّر ذكائي أم أن البنات إجمالاً لا يهتممْنَ بذكاء الرجال، وإنما بشيئَيْن، كما سمعتُ سمسار موقف المُصْرَارَة أبا العبس يقول، وهو يفرد يده، ويحرِّك إبهامه على باقي أصابعه، إشارة إلى النقود، ثمَّ ينقل يده إلى أسفل بطنه، إشارة إلى الشيء الثاني الذي يهمُّ المرأة في الرجل؟!

t.me/yasmeenbook

الستون

تركتُ الناس يتناقشون فيما جرى، ويبتكرون سيناريوهات لما سيجري مع الأجنبيِّيْن، وواصلتُ دربي في أزقَّة البلدة القديمة، وعندما خرجتُ من باب العَمُود، لم أفكِّر في قطع الشارع، والوصول إلى موقف المرَكَبَات في المُصْرَارَة لأرى والدي، خشيتُ من لقائه، وتخوَّفتُ ممَّا سيقوله عن رؤيتي في السينما مع لُور، أو ربَّما تخوَّفتُ من مواجهته وسؤاله عن وجوده فيها مع مريم التشاديَّة، ربَّما اعتبر ذهابنا إلى النبي موسى هُدنة، وسيفتح اليوم، ما أجَّل فتحه، يوم أمس.

نظرتُ مَليَّاً لمدرسة شميدت، سحرني حجر الطُّبْزَة، ولمسات مدرسة العمِّ كوكو الحجريَّة على الواجهات، كم أحبُّ هذا الحجر الذي لا تشبه القطعة منه القطعة الأخرى، وهذا سرُّ جماله، أو أحد أسراره كما قال لي والدي مرَّة، ووصف البناء بهذا الحجر، بأنه ربَّما مثَّل العنفوان الألماني، أو أراده كذلك العمّ كوكو، ولكنه عنفوان هادئ يشي أكثر ممَّا يفصح.

سأرى حجر الطُّبْزَة في كلِّ مكان في القُدْس، وخصوصاً في بعض مقاطع السور العظيم، الذي سحرني وما يزال.

سِرتُ نحو المتحف، ودخلتُ من البوَّابة الرئيسة، وأنا أقول بثقةٍ للحارس اليهوديِّ، بأنني متوجِّه نحو منزل أبي نقولا، ضحك الحارس، ولا أعرف السبب، وأطلق ما بدا أنها نكتة، باللغة العبريَّة، ولعلَّه فوجئ بأنني لم أشاركه الضحك.

وحدستُ بأنه قصدني ولُور، بكلامه الضاحك، لعلَّه أراد تزجية وقته،

بالتفكُّه على الولد الذي كُنتُهُ، وهو يراه متوتِّراً قليلاً، يطلب الدخول إلى القصر، ولعلَّه استكثر وجود القصر حتَّى الآن بيد أبي نقولا، وقال لنفسه بأنه وهو يُبدي ودولته تسامحاً، مع دخولي الآن، فإن هذا لن يستمرَّ طويلاً.

ولكنْ، كيف يكون هذا التهديد المبطَّن مضحكاً؟ هكذا تخيَّلتُ وتوقَّعتُ، وأنا أعبر من أمام الحارس، لأجد أبا نقولا، وهو يُقلِّم شجيرات في الحديقة، وبدا منشرحاً نسبيَّاً، وهو ينادي على لُور، معلناً حضوري.

عندما جلستُ ولُور أمام قصر الشيخ، قالت لي بأن جَدَّها سعيد اليوم، بعد أن وصلتْهُ أخبار جيِّدة عن أبي حديد، أحد الجنود الذين أُصيبوا خلال الحرب، ونُقلوا إلى مدرسة الرشيديَّة المجاورة، التي استخدمها الجيش الأردنيُّ كمركز إسعاف خلال الحرب، وكان أبو نقولا يقدِّم ما يستطيع فعله للجنود الموجودين في المدرسة، خصوصاً بعد تضييق الحصار عليهم، مع سيطرة الجيش الإسرائيليِّ على مزيد من أحياء القُدْس.

اقترب أبو نقولا منَّا، وقالت لُور:

- أكْمِلْ له حكاية الرشيديَّة، حتَّى آتيَ بالشاي.

جلس أبو نقولا بقربي، ثمَّ قال:

– حاولتُ إيصال رسالة للقادة الميدانيِّيْن، بأن مركز إسعاف واحد في الرشيديَّة لا يكفي، فإذا حوصر وهو قريب من سور القُدْس، والمتحف الذي سيكون هدفاً للجيش

الإسرائيليِّ، لموقعه الاستراتيجيِّ، فلا شكَّ سيجد الجرحى أنفسهم في وضع صعب، ولا بدَّ من وجود مراكز إسعاف أخرى.

لم أرد قَطْع استرسال أبي نقولا، مع تذكُّري السبب الذي جعلني آتي إلى هنا، وأنا أنظر جهة المتحف، متخيِّلاً كيف يمكن للعمِّ هاريسون، الخروج الآن من الجدار والتوجُّه نحونا. ترى ماذا سيقول لنا؟ وكيف سيرمي التحيَّة؟

وماذا سيكون ردُّ أبي نقولا؟ هل سيُفاجَأ أم أنه يعلم؟! وكيف لا يعلم رغم مجاورته للوجه القناع طوال عقود؟!

واصل أبو نقولا، وهو لا يعرف ما يمور داخلي:

– مع نُذُر الحرب، وضعتُ نفسي، تحت إمرة المسعفين في الرشيديَّة، وزوَّدتْهم بما أقدر عليه من شاي وقهوة، وسهرتُ عندهم، ونحن نتحدَّث بثقة عن النصر المقبل، واحتساء القهوة على شواطئ تلِّ أبيب ويافا وحيفا وعكًّا، وكدنا نتشاجر على مَنْ سيدفع الحساب، ونحن نسعد على مقاهي مُدُننا التي طالت غيبتنا عنها، ولكنَّ الأمور كما تعلم لم تأتِ وَفْقَ حساب البيدر، وبدا الجرحى من الجنود الشبَّان يُنقلون إلى الرشيديَّة، ودللْتُ المسعفين على طريق مختصرة من حديقة المتحف، إلى قصر الشيخ، فالرشيديَّة، لتجنُّب الشارع الرئيس، ولجتُهُ في الحرب، وكُلُّ جريح يأتي ومعه قصَّته المؤلمة، جميعهم بدوا مصدومين من نتائج المعركة، حتَّى وصل أبو حديد، الذي ظلَّ يقاوم في المُصْرَارَة، بعد جرحه، وفقدانه الوعي تقريباً، ولم يكن يُعلَم بأنه حيٌّ أو ميت، عندما حمله رجلان، وأتيا به إلى الرشيديَّة، وفي لحظة صحو، حدَّثني وكأنه يعرفني منذ زمن، فطلب منِّي إبلاغ عائلته باستشهاده، وأعطاني عنوانها في الأردن، وأوصاني بأولاده، وغير ذلك من أمور بدت لي خاصَّة، وأدركتُ أنه تفوَّه بها لي، لأنه وجدني الشَّخص الوحيد أمامه الذي عليه أن يثق به، متوقِّعاً نجاتي من الحرب، متخيِّلاً وجودي في قصر الشيخ، ولا أعرف لماذا اعتقد ذلك طوق أمان لي.

انجذبتُ لحكاية أبي نقولا، فسألتُهُ مستعجلاً معرفة النهاية، وناسياً ما قالتْهُ لُور عن أخباره الطيِّبة:

- ماذا حدث مع أبي حديد؟ هل استُشهد، ولم يُعثر على جثمانه؟

– لا لا، الأمور يدبِّرها الله، أحياناً، أكثر من توقَّعات البشر، فعندما احتلَّ اليهود الرشيديَّة، اقتادوا أبا حديد مع غيره من الجرحى لباب الأسباط،

إلى نقطة تجمُّع لهم، وكنتُ أراهم من مخبئي هنا، وهم ينقلون الجرحى، وأسمع ضجيجهم، ونشوتهم بنصرٍ سريع، وعلمتُ لاحقاً بأن باب الأسباط لم يكن إلَّا محطَّة، نُقل بعدها الأسرى إلى معسكرات الاعتقال، واعتقدتُ بأن أبا حديد لا شكَّ استُشهد، ولم يعرف أهله بما حدث له، وكيف لهم أن يعرفوا؟ وعشتُ على قلق، حتَّى وصلتْني رسالة منه، يُخبرني فيها بأنه نجا، وبصحَّةٍ جيِّدة، وأنه بعد محطَّة باب الأسباط، نُقل إلى المستشفى، وبعد تلقِّيه العلاج، جُمع مع بضعة أسرى من رصفائه، وسُلِّموا إلى دولتهم. فرحتُ برسالته، وبنجاته، النجاة من الحرب، للجريح أو غير الجريح، هي ولادة ثانية، قد تكون صعبة، وتحتاج إلى فترة نقاهة، وعناية، بل تحتاج إلى أكثر من ذلك، ويصبح المهمُّ طول فترة الاستشفاء من صدمة الحرب، فالبعض لا يعودون مثلما كانوا أبداً، والبعض الآخر يعودون، ولكنْ، بنتوءات في أرواحهم لا تندمل.

صمت أبو نقولا قليلاً وهو ينظر إلى اللاشيء، وكأنه يستحضر أيَّام الحرب أمامه، ويراها على شاشة سينما كبيرة:

– اليهود ملاعين، صدمونا، ونحن كنَّا نعتقد بأننا سننتصر عليهم بسهولة، أطلقوا في سماء القُدْس القنابل المضيئة، وكانت جديدة علينا، وأحالوا ليل بعض المناطق إلى نهار ببطاريَّات الإضاءة، وهم يتابعون احتلالهم، وتطهير شوارع المدينة من جنودنا وشبابنا، ورموا منشورات من السماء على الجنود، تستهدف المعنويَّات، حثُّوهم فيها على الاستسلام، وما زلتُ أحفظ ما خطُّوا وما بثُّوا: أيُّها الجندي، قادتُكَ خدعوكَ فتركوكَ، أولادكَ ينتظرونكَ، اهربْ، باب المغاربة مفتوح ..!

تدخَّلتُ:

- -باب الزبالة ..؟!

– وهل كانوا سيسمحون لنا بغير باب الزبالة مَهْرَباً؟ ولم يكن أمام

جنودنا المصدومين، بالجنود المنظَّمين المتقدِّمين، بأجهزتهم الحديثة، وخطوط إمدادات غير منقطعة، إلَّا أن يخلعوا ملابسهم العسكريَّة، ويفرُّون.

- جميعهم فرُّوا؟

– المجانين فقط مَنْ قاتلوا وثبتوا واستشهدوا، قضوا في بطولات فرديَّة ..!

أطلَّت لُور، بيدَيْها صينيَّة الشاي، وهي تدندن، كما هي عادتها في معظم الحالات، ووضعت الصينيَّة على طاولة صغيرة بيني وبين أبي نقولا، وبعد أن تذوَّق أبو نقولا الشاي، نهض حاملاً مقصَّاً لتقليم الورود.

الواحد والستون

أمسكتْ لُور يدي بسرعة، وكأنها كانت تنتظر نهوض جَدِّها، لتفعل ذلك، وتسحبني إلى الواجهة الخلفيَّة للقصر، وهي تقول: «انظرْ إلى هذه التوابيت المَرميَّة، دَقِّقْ في الرسومات، أبطال، وآلهة رومانيَّة، وأساطير يونانيَّة، بقيت شاهدة على زمانها، في زماننا. هل انتبهتَ إلى ما تَحت قدمَيْكَ؟ البلاط البلدي الذي نمشي عليه، الذي أتولَّى تنظيفه الآن وحدي، بعد أن كنتُ أساعد جَدَّتي أو والدتي في تنظيفه، لقد ترقَّيتُ، وأضحيتُ منظِّفته الوحيدة».

ضحكتُ على كلامها، ولم أضحك، لم أفهم سرَّ اندفاعة لُور هذه، ولكنها لم تترك لي فرصة السؤال أو التفكير، وسحبتْني إلى الطابق الأسفل في قصر الشيخ، وهي تقول سأُطلعكَ على سرٍّ عظيم. ما هذا السرُّ؟.

قادتْني في ما سمَّتها مخابئ، للانتقال من الطابق الأوَّل إلى الطابق الأرضي، وهي تمسك يدي، وشعرتُ بقلبي يخفق، لعلَّه من اكتشافي مَلْمَس يدها الناعم، في هذا الظلام، وتساءلتُ إلى أين تقودني؟ وماذا ستفعل بي؟ في أيَّة وهدة سترمينني، وترمي نفسها عليَّ؟ خفق قلبي.

قالت لي: «انظرْ» لم أستطع في البداية رؤية ما هوِ الموجود، بسبب حِدَّة الظلمة، التي بدأت تنكسر شيئاً فشيئاً، فتبيَّنتُ ما قالت لُور بأنه بَدٌّ، والبِدُّ هو معصرة الزيتون القديمة التي استخدمتْها أجيال من عائلة الخليليِّ، وعائلات القُدْس الأخرى، وأدهشني حجر الرحى الضخم، الذي كانت تُحرِّكه الحيوانات المستعبدة، فيطحن ثمار الزيتون، ويُحوِّلها إلى زيت.

تذكَّرتُ مباهج الزيت، عندما كنتُ أرى والدي يغمس خبزه الساخن في صحن الزيت، ويزدرده، تاركاً جزءاً من السائل الأصفر، الذي يميل إلى اللَّون الأخضر، عندما يكون طازجاً، مهروساً للتوِّ في المَعْصَرَة، على شفتَيْه، فيلحسه بلسانه مُتلذِّذاً.

شعرتُ بأنني أتنفَّس هواءً راكداً، ورطوبة مخضرمة تلتصق بجسدي، فأردتُ الخروج بسرعة. قلت لِلُور: «جئتُ لأعرف إذا ما كنَّا رأيناه معاً في المتحف حقيقةً أم خيالاً؟ وهل العمُّ هاريسون صورة على جدار أم ظلال تتحرَّك وتحكي؟».

ضحكت لُور وهي تقول: «ماذا يهمُّكَ من كلِّ هذا؟ وهل الآن وقته؟»، وضربتْ على رأسي بخفَّة: «عليكَ دائماً أن تُشغِّل رأسكَ هذا، ولا تستخفّ بقدراتي»، وبشكلٍ مفاجئ، اقتربتْ منِّي، وطبعت قُبْلة على فمي، قُبْلة قصيرة، حسبتُها دهراً، وأنا أشعر بسخونة شفتَيْها. تراجعتُ خجلاً، ولم أعرف ماذا عليَّ فعله، هل أردُّ لها القبلة؟ ولكنني لم أمتلك الشجاعة على المبادرة، فطلبتُ منها أن تقودني إلى الخارج، لأنني أريد العودة إلى المنزل، وصَعِدْتُ خلفها بطريق المخابئ المظلمة، حتَّى رأيتُ الشمس أخيراً، وكانت ساطعة أكثر ممَّا توقَّعتُ!

قالت لُور: «هل أنتَ متأكِّد بأنكَ لا تريد أن ترى المتحف مرَّة أخرى، وتتأكَّد ممَّا تريد التأكُّد منه؟».

لم أعد أعرف ما أريد، ولكن تدخُّل أبو نقولا الذي عاد للجلوس مكانه، حسم تردُّدي.

قال أبو نقولا: «تعال، يا كافل، اجلسْ هنا، سأتكلَّم مع كُوْهِين، لتدخل أنتَ ولُور إلى المتحف».

نهض أبو نقولا جهة المتحف وهو ينادي على كُوْهِين، المسؤول المناوب في المتحف، الذي اعتقد أبو نقولا بأن لديه دالَّة على هذا الخواجا الذي

يمثِّل السلطة الجديدة المسيطرة على المكان الذي يضمُّ لقانا الأثريَّة.

قالت لُور وهي تبتسم ابتسامة ذات مغزى: «لا تغضبْ، يا كافل، اعتبر قُبلتي وكأنها لم تحدُث، أو يمكنكَ الاحتفاظ بها كذكرى، مَنْ يعلم ماذا تُخبِّئ لنا الأيَّام».

شعرتُ بأنها تهزأ بي، بالفتى الغِرِّ، الذي لا يُقدِّر قُبل البنات الجميلات أمثالها، بينما أخذت تُردِّد مقطعاً من أُغنيَّة شعبيَّة عن زريف الطول، الذي ذهب، ولن يعود، تاركاً لدى محبوبته غُصَّةً لا تُمحى.

أحيانا أنسى أن لُور مغنِّية شعبيَّة، ولا أتذكَّر، إلَّا عندما تعبِّر بصوتها وكلمات الأغاني، عن نفسها.

أعجبني صوت لُور، كما كان يعجبني ويدهشني دوماً، بحفظها للمقاطع الشعبيَّة المغنَّاة المؤثِّرة، وسرعة بديهتها، وذكائها، وخصلات شَعْرها، وعينَيْها. بدأتُ أحسُّ الآن ما خسرتُهُ، بعدم ضمِّها إليَّ وشمِّها وتقبيلها، ولعنتُ خجلي القرويَّ.

عاد أبو نقولا وهو يقول: «كُوْهِيْن سمح لكما بالدخول، ولكنْ، بشرط أن لا تُحدثوا ضجيجاً، فتُزعجوا الزوَّار، ولا تُخرِّبوا شيئاً».

ماذا يمكن أن نُخرِّب؟

قال أبو نقولا: «عليكما أخذ الحذر، حتَّى لا يقع أيُّ شيء، ويُكسَر».

الثاني والستُّون

سحبتْني لُور من يدي، كما فعلت كثيراً سابقاً، وكأنها تجرُّني جرّاً، تسحب هذا الغِرَّ الأهبل، إلى ما تعرف، وما تحبُّ، ولدى وصولنا مدخل المتحف، أصبحتُ أقف بجانبها.

طلبت منِّي التراجع قليلاً لأرى النقوش التي تُزيِّن المدخل والواجهة الأماميَّة، فلبَّيتُ أمرها، دون تفكير أو نقاش، وأنا أشعر بخدرٍ متأخِّر في شفتَيَّ، تركتْهُ سخونة شفتَيْها، خُدِّر لساني، فانقدْتُ لها بدون تعليق أو كلام أو اعتراض.

قالت: «انظرْ ...»، انتبهتُ إلى أنها تستخدم فعل الأمر هذا كثيراً، فنظرتُ بينما تشير إلى نحتَيْن بارزَيْن، الأوَّل يمثِّل محارباً بشَعْرٍ طويل، مغطَّى جزء منه بقُبَّعة على الرأس، ويتدلَّى من ثوبه سيف، ويبدو جالساً مستظِلّاً تحت شجرة نخل، ويقابله نحت ثانٍ، يمثِّل محارباً بوجه طفولي، ويبدو أصغر سنّاً من الأوَّل، بشَعْرٍ أقصر، وبقُبَّعةٍ تشبه قُبَّعة الأوَّل، ويستند إلى رمحٍ، وهو يستظلُّ على الجانب الآخر من شجرة النخيل.

سألتْني:

- هل فهمتَ؟

– لا لم أفهم.

سعدتُ، لأن عقدة لساني تحرَّرتْ.

عادت لتقول مرَّة أخرى: «انظرْ، دقِّقِ النظر في الأحرف اللاتينيَّة بجانب

المحارب الأوَّل؛ إنها آسيا، ولدى المحارب الثاني خُطَّت كلمة إفريقيا، وأراد الفنَّان، أن يُمثِّل لقاء قارَّة آسيا بإفريقيا، هل تعرف نحن، في أيَّة قارَّة، نقع؟».

– أعرف أننا في آسيا، ولكنْ، لماذا آسيا وإفريقيا على جدار متحفنا؟

لم تتح الفرصة لِلُور للإجابة، عندما ظهر رجل متوسِّط الطول ونحيف، يعتمر طاقيَّة صغيرة تشير إلى أنه يهوديّ متديِّن، وتكاد لا تفارق الابتسامة وجهه، والتي تظهر على تقاطيعه بشكلٍ قهري، وكأنه لا دخل له في الأمر، وإنما مجرَّد شخص محايد إزاء مَنْ يتحكم بتعابير وجهه.

همست لُور:

- هذا كُوْهِيْن، لا تُكثِر من الكلام أو الأسئلة، استمعْ فقط.

حيَّانا كُوْهِيْن، ويبدو أنه سمع سؤالي لِلُور أو أنه خمَّنه، فقال:

– بعكس هاريسون المتأثِّر بأوروبا، فإن الفنَّان البريطانيّ إريك غيل الذي نحت الرسومات على جدران المتحف، لم تحضر القارَّة العجوز إلى ذهنه. فهُوِيَّة غيل وفلسفته الفنِّيَّة ترتبط بمعتقداته الدينيَّة، فهذا الفنَّان ترك الأنجليكانيَّة، في الثلاثينيَّات من عُمُره، ليصبح كاثوليكيَّاً، ما الفرق؟ لماذا فعل؟ وكيف فعل؟ ليس مُهمَّاً! المهمُّ أنه رفع شعار: «الفنُّ الحقيقيُّ هو، في الحقيقة، دِيْني»، ودِيْني بالنسبة إليه أن يَنحت حسب قوانين الإله، وإن كلَّ فنٍّ وُجد ليس من أجل الربح، هو فنٌّ دِيْني،وكما ترون

هذه فلسفة، وليست فنَّاً، ولكنه أبدع، وأعتقد أنه كان مُدرِكاً لحجم موهبة المبدع الذي يسكن داخله.

وعندما لم نُعلِّق أنا أو لُور، واصل كُوْهِيْن:

– تأثَّر غيل بفنِّ النحت في العصور الوسطى. يقول معاصروه بأنه نحت

رسومه بدون وضع نماذج مسبَّقة، ويبدو أنه أخذ، وهو المتديِّن، بالحكمة العربيَّة: الاتِّكال على الله عبادة الصادقين.

ضحكتْ لُور، أمَّا أنا، فجهدتُ بأن يكون ذهني حاضراً، وأنا أشدُّه بحواسِّي، كي لا يفلت منِّي، ويصبح لا يستوعب شيئاً من هذا الضخِّ الذي أتعرَّض له، ولم أكن مستعدَّاً له أبداً.

قال كُوْهِيْن، بأن غيل أنجز عشر منحوتات، تُمثِّل حضارات تعاقبت على البلاد، والذي حدَّدها كما يلي: البيزنطيَّة، والكنعانيَّة، والإسلاميَّة، وحضارة بني إسرائيل، واليونانيَّة، والرومانيَّة، والصليبيَّة، وحضارة بلاد ما بين الرافدَيْن، والمصريَّة القديمة، والفينيقيَّة.

وتقدَّم أمامنا، ودخل الباب، وعندما سِرتُ خلفه وخلف لُور، شاهدتُ وجه هاريسون مثبَّتاً على الجدار، كما تركتُهُ أوَّل أمس، فحاولتُ تنبيه لُور، ولكنها تجاهلتْني، وحثَّتْني بعينَيْها لمواصلة السير.

في الساحة الداخليَّة توقَّف كُوْهِيْن، الذي بدا سعيداً بأن يكون دليلاً لي ولُور، في ما كان متحفنا.

قال كُوْهِيْن:

– كما قلتُ لكما، فإن أعمال غيل هي إرضاء للإله، كما أراد، ولأنه عمل سابقاً في الكنائس، فإنه تبنَّى أسلوب النحت المباشر الذي يحمل المعاني الكثيرة، وتأثَّر بفنون النحت في العصور الوسطى. شخصياته البسيطة ذوات الأجساد الممدودة والمثيرة للإحساس، استقاها غيل من الحجارة نفسها، وكثيراً ما كان يبدأ النحت مباشرة دون عمل نموذج مصغَّر مسبَّقاً، كما سبق وقلتُ، متخيِّلاً الشخصيَّات من الصورة الطبيعيَّة للحجر، وعليكما إدراك أن ذلك، ليس بالأمر السهل أبداً.

توقَّف كُوْهِين، رافعاً رأسه إلى الأعلى، لوهلةٍ، وكأنه يريد أن يتذكَّر شيئاً، ويخفي أعصاب وجهه المرتخية، التي تجعله المبتسم الدائم، ثمَّ قال:

– «في البداية أتمعَّن في الحجر، ثمَّ أنحتُ ما أرى» هكذا كان يقول غيل، وهو ينحت مرتدياً كوفيَّة محلِّيَّة، لتقيه حَرَّ الشمس، كما كتب لزوجته، وزِيَّاً فلَّاحيَّاً عربيَّاً، ويزيِّن المنحوتات بكتابات وآيات دينيَّة، فأصبحت جزءاً من عمل هذا الفنَّان الزاهد، الذي وصل البلاد، بعربون صداقته مع هاريسون المحبِّ، الذي استدعاه ليُنجِز منحوتات المتحف، وكُلُّه ثقة به. يُخيَّل لي، بأن الصداقة في الفنِّ ضروريَّة، وإلَّا لما تمكَّن غيل من أن يُبدع، ويُطوِّع الحجر، ويُنطِقَهُ.

أصبحتُ أشعر أكثر بثقل وجودي هنا، وأنا أرزح تحت وطأة القُبلة، التي يبدو أنها احتاجت لوقتٍ، كي تُظهِر مفعولها فيَّ. كيف يحدث هذا؟ وما هو سرُّ القُبلة التي انتهت، وبقي مفعولها الذي يحضر الآن بقوَّة؟ حتَّى إنني أجد صعوبة في فهم ومتابعة هذا الكُوْهِيْن.

وجد كُوْهِيْن سُلَّماً، يبدو أنه وُضِعَ عرضاً، فصَعِدَ عليه، ليُرِيَنا منحوتات غيل، للحضارات التي مرَّت على فلسطين، ولم يُثِرْ انتباهي عندما ذِكْرُها، إلَّا ذكر حضارة بني إسرائيل، بدا ذلك وكأن رأس رمح وخزني، وأشعرني بتضاؤل قومي، وتمنَّيتُ لو أنني أكبر قليلاً لأواجه كُوْهِيْن، وأقول له، بأن هذا تلفيق، ولكنه يبدو أنه عرف ما أفكِّر فيه، فقال:

– لا .. ليس تلفيقاً، مثلما ذِكْرُهُ للحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ليس تلفيقاً، نحن هنا في حضرة متحف مهنيٍّ علميٍّ.

جاءنا صوت كُوْهِيْن من أعلى السُّلَّم، وهو يشير إلى منحوتة تُمثِّل شخصاً يرتدي الكوفيَّة، ويعتلي دابَّة:

– هكذا مثَّل الحضارة العربيَّة ..!

لم أفهم في البداية، فتابع كُوْهِين:

– الرجل العربيُّ يُمثِّل النبي مُحمَّد، في رحلته إلى القُدْس، على ظهر الدابَّة التي تُسمُّونها البُرَاق. وعندما وصل النبي مع الملاك جبريل إلى القُدْس، خرق الملاك بإصبعه السور، وربط البُرَاق، ثمَّ نزل الاثنان، عنه.

شعرتُ بغضبٍ عارم، وأنا أرى نحتاً، يظهر فيه النبي مُحمَّد، الذي قال لنا أُستاذ الدِّيْن في المدرسة إنه لا يمكن تصوُّره، أو تصويره، وإنَّ رَسْمه أو رَسْم أيٍّ من الصحابة هو حرام في حرام.

ما هذا الحرام الذي ارتكبه غيل؟ صرختُ. فحاولتْ لُور أن تهدِّئني، وطلبتْ منِّي تخيُّل غيل، بردائه الفلسطينيِّ، وكوفيَّته وهو ينظر للصخر، وينحت وجهاً سمحاً للبراق.

قال كُوْهِيْن:

– نعم، هو صوَّر البُرَاق، وما يرتديه ليس الكوفيَّة، وإنما شبيه بتاج مَلَكيٍّ، أنا آسف، تسرَّعتُ في قراءة النحت ..!

شعرتُ بأنني يجب أن أغادر، وأنا لا أريد تصديق كُوْهِيْن، الذي تراجع ليحتوي غضبي، قائلاً بأن تأثير مشهد النبي وهو يعتلي البُرَاق، أثرَّ كثيراً على آخرين جاؤوا إلى القُدْس، ولكنْ، لا أحد يريد أن يعترف بالتثاقف، الذي يميِّز هذه البلاد، الجميع يتأثَّر بالجميع، ويأخذون عن بعضهم بعضاً، وعندما يذكِّرهم أحدٌ بذلك، يغضبون، ويثورون، ويُثيرون الزوابع.

قال وقد وضع قناع الجِدِّيَّة على وجهه: «عندما طلبتْ ميليسا، ملكة الصليبيِّيْن التي حكمت القُدْس من الفنَّان أن يُنجز لها زخرفة على نسخة الإنجيل الخاصَّة بها، لم تُفاجَأ عندما تسلَّمتْهُ وهي ترى المسيح على

حمارٍ، يكاد يطير من جبل الزيتون إلى القُدْس، في دخوله المظفَّر له يوم الشعنونة، ليجد الناس تُلوِّح بسَعَف النخل، هل فكَّرتْ حاكمة القُدْس، التي نعيش فيها الآن، ونحكمها نحن اليهود، بالحمار الطائر؟ وعلاقته بدابَّةٍ أخرى تشبهه، طارت في سماء القُدْس، في زمنٍ سابق، وحطَّت على هيكلنا».

لم أستطع تحمُّل استفزاز كُوْهِيْن، واكتفيتُ بالقول: «عن أيِّ هيكل تتحدَّث؟ إنه أقصانا، وليس هيكلَكُم».

ابتسم كُوْهِيْن، وراق مزاجه أكثر: «قلتُ لكَ إنه التثاقف، عندما تنبَّأ السيِّد المسيح، بتدمير هيكل اليهود في القُدْس، وبأنه «لا يترك ههنا حجر على حجر»، وهذا ما تعرفه لُور جيِّداً، كان في الواقع، يؤكِّد واحدة من نواميس الأرض المقدَّسة، التي تبدو وكأنها خلال ثمانية آلاف عام، لم تكن إلَّا ورشة كبيرة لإعادة التدوير، ليس فقط الثقافي، ولكنْ، المادِّيّ، فالمعابد اليهوديَّة ستُقام على أنقاض الهياكل الوثنيَّة، والكنائس ستحذو حذوها، ولاحقاً المساجد، وثمَّة نقاش نجده لدى الإخباريِّيْن العرب القدامى حول أخذ هذه الأعمدة أو تلك من دُوْر عبادة سابقة، لتُبنى في دُوْر عبادة لاحقة».

لم أعد أفهم كثيراً على كُوْهِيْن، الذي تعامل معي، وكأنني مختصٌّ أو باحث أو حامل شهادة عليا، ولكنه طلب منَّا أن نتبعه وهو يخرج من المتحف، ويقف في الساحة أمامه، ناظراً إلى سور القُدْس، الذي يفصله عنَّا الشارع، ولكنْ، كان بإمكاننا من موقعنا العلي، أن نرى من منتصف السور إلى أعلاه، وطلب منَّا أن نُمعِن النظر في أحد الحجارة المكوَّن منها السور، وبدا لنا مختلفاً، حجر تركتْهُ يد حجَّار أو فنَّان دون أن تُكمِلَ حفر اللوحة عليه، وما كان يمكن له أن يُثيرَ انتباهنا لولا تنبيه كُوْهِيْن لنا.

قال كُوْهِين: «دَقِّقا النظر، لو نظرنا إلى أيِّ جانب من سور القُدْس، سنقرأ تاريخ المدينة من اختلاف أنواع الحجارة المَبنيَّة، تُدمَّر المدينة من الاحتلالات التي لا تتوقَّف، وتُبنى من جديد بحجارة الأمم المهزومة والمنتصرة. سيجد الباحث حجارة كثيرة في جدران المباني، في غير مواقعها الصحيحة، وإنما تمَّ التعامل معها كمجرَّد حجارة في ورشة التدوير وإعادة التدوير التي لا تنتهي».

أضاف:»هذا الحجر الذي تريانه، من الواضح أنه في غير مكانه، وكان ضحيَّة لإعادة التدوير، فتمَّ التعامل معه كحجرٍ فقط، دون الاعتبار لما أراده الحجَّار في النقش الذي قد لا يكون كاملاً بسبب عوامل الزمن، أو ما أراده من دفع له لإنجاز تشكيل أو حفر أو رمز ما. فهذا الحجر الغامض، المَنسيّ، المتواري، بين آلاف من حجارة السور، يحافظ على نفسه، حتَّى يُردَّ اعتباره في يومٍ ما».

نطقتْ لُور، وكان لا بدَّ لواحدٍ منَّا أن يُعلِّق على رؤية يهودي يحتلُّ متحفنا، ويقدِّم رؤيته لسورنا: «القُدْس، مدينة الحجارة، وتدويرها، ما تهدمه الاحتلالات تبنيه احتلالات أخرى، وتواصل المدينة القَدَرِيَّة رحلتها، ونظلُّ نحن فيها، مثل هذه الحجارة، قد تُهدَم وتُشتَّت، ولكنها تعود مَبنيَّة من جديد».

فرحتُ بكلمات لُور، ولا أعرف إذا قالتْها بعفويَّة أم أنها فكَّرت بها وتدرَّبت عليها، لتختمَ حوارنا مع كُوْهِين، أو هكذا أردتُ وتمنَّيتُ، أريد الخروج من هنا، إلى رحبة شوارع القُدْس.

طلبتُ من لُور أن نتحرَّك، فخرجنا، بعد أن شكرتُ كُوْهِين، وطلبتُ منه أن يسمح لنا أن نعود مرَّة أخرى، قال كُوْهِين:

– يمكنكما العودة مرَّات، ويستطيع صديقكِ الصغير هذا أن يسأل

ما يحلو له من أسئلة، فغداً سيكبر، ويعرف، وتُجسر الهُوَّة بيني وبينه، مَنْ يعشْ يَرَ ..!

تجاهلتُ ملاحظته، لم يكن يهمُّني سوى المغادرة، ونحن خارجون، حرصتُ على التأكُّد من وجود هاريسون مكانه، ليحميَ ما أنجزه، ولكن لُور سحبتْني بسرعةٍ، وعندما أصبحنا في الخارج، كنتُ قد نسيتُ كُوْهِيْن وثِقَله بسرعة. قلتُ لها، وأنا أضع يدي على فمي، بأنني أريدها مرَّة أخرى، فضحكت:

- هي مرَّة أولى وأخيرة حتَّى إشعار آخر، لا تكن طمَّاعاً ..!

صدَّتْني لُور، عندما تشجَّعتُ، وسخرتْ عيناها منِّي عندما خفتُ وتراجعتُ، أيُّ امرأة من النساء صديقتي هذه؟!

الثالث والستون

عندما جاء والدي في المساء، لم يكن يحمل سوى أخبار وصفها بالزِّفْت؛ لقد هرب السَّبْع من مقام النبي موسى، ولم يعثر عليه الشيخ عبد المعين وصحبه رغم بحثهم الحثيث عنه.

أبدت والدتي قلقاً، وطلبت أن يظلَّ الأمر سرَّاً بيننا، حتَّى لا يصل إلى أُمِّ السَّبْع، وتوجَّهتْ نحوي بالتحذير، وكأنني الوحيد في هذا المنزل الذي يمكن أن يفشي سرَّاً، ولا يؤتمَن على شيء. لا يثق الكبار في الصغار أمثالي، يبدو أنهم، عندما كانوا صغاراً، لم يكونوا أهلاً للثقة.

تضايقتُ وصرختُ في وجهها، معلناً حَرَدِي، ولكنَّ أُمِّي حاولت أن تُصلح ما خرج منها، قائلة: «لم أقصد سوى التذكير بأننا علينا ثلاثتنا أن نكون حريصين».

بالطبع لم أُصدِّقها، خذلتْها عيناها، وكذَّبتْها، أعرف أُمِّي عندما تكون صادقة، وعندما، تكون كاذبة.

استغللتُ غضبي كي لا أتناول الطعام، وعندما اقترب موعد نومي، نادى عليَّ والدي، قائلاً:

_استعدّ ليوم الغد.

أراد أن يعلن تجديد ثقته بي، وليمسح ما علق من كلام أُمِّي بي وأغضبني، وفي اليوم التالي صحوتُ مستعدَّاً.

استيقظ بَاسِيلْلُوْسْ، مبكِّراً كعادته، سار في طريق الكاردو، الذي أسَّسه

الكفَّار، طريقاً باذخة إلى معبد أَفْرُوْدِيْتْ، وهو يتأمَّل الأعمدة وتيجانها، وفجأة رأى رجالاً ونساءً يسيرون معاً، وبعضهم يتبادلون القبلات، بين المتاجر والبسطات التي تبيع تذكارات، وتماثيل صغيرة لأَفْرُوْدِيْتْ العارية، وهِرمِسْ إله الرعاة، وطِيْخَا آلهة الحظِّ، وديُوْنِيْسُوْسْ إله النبيذ، وعندما وصل كنيسة القيامة، وجد أن حارسها فتح بوَّابتها الكبيرة المزخرفة للتوِّ، رمز القوَّة الصليبيَّة المسيطرة على القُدْس، مازحه متسائلاً إذا كانت أَفْرُوْدِيْتْ وبناتها قد صحونَ من النوم، وعلمنَ أن المعبدَ لم يعد معبداً، ولكنَّ الحارس لم يكن في مزاج للمزاح، لأسبابٍ غير معروفة، فلم يرد، وبدا أنه مستعدٌّ للشجار، إذا استمرَّ الفنان في غَيِّه.

استشعر بَاسِيْلُوْسْ ثِقَل الحارس، وتجمَّد دمه، فدلف إلى غرفته، في القسم المخصَّص لنسخ الزخارف، بعيداً عن ضجيج الزوَّار والحُجَّاج والمؤمنين الذين يتقاطرون إلى مكان دفن الربِّ قبل قيامته وصعوده، آتين من خلف البحار، كما فعل هو قبل عشرين عاماً، باحثاً عن فرصة عمل في المجال الذي يُتقنه، أو خُيِّل له ذلك، فالتحق بورشة الزخارف في هذه الكنيسة محاطاً بالحجارة التي تكاد تنطق، وينبعث منها نور أبيض شفَّاف، لا يُرى في أحيانٍ كثيرةٍ.

في هذا اليوم كان بَاسِيْلُوْسْ مهموماً، أو الأصحّ قَلِقَاً، وهو يحسب المدَّة المتبقِّية له لزخرفة كتاب الأناشيد الخاصِّ بالمَلِكَة، التي كان يسمعها منطوقة بصوت الملك سليمان نفسه، وهو يتغزَّل ببنات أُوْرُشَلِيْمْ وحبيباته الكثيرات، ملوِّحاً بخاتَمه وهو يرتديه في إصبعه الأوسط.

لم تكن الملكة القويَّة، والممسكة بالحكم، بأنامل تبدو حريريَّة، تتلاعب بالفُرْسان الأقوياء الطموحين، لترضى بأقلَّ من الخيال المبدع، كما سمعها تقول بحنو، عندما فاجأت الفنَّانين بزيارةٍ عقب صلاة الأحد.

ولكن الحنو يخيف في أحيانٍ كثيرة أكثر من القسوة، خصوصاً عندما لا يستطيع تفسير ما عنتْهُ الملكة الجميلة بالخيال المبدع، تاركة له حرِّيَّة الخلق والإدهاش.

فتح دِرْجَاً، وتناول منه الرسومات التجريبيَّة لبعض اللوحات التي سيزخرفها بمائيَ الفضَّة والذهب، وهو لا يعرف كيف تصوَّر المسيح، راكباً حماره، آتياً من جبل الزيتون، إلى القُدْس، بينما يُلوِّح ناسها بسَعَف النخل له، وعندما دقَّق في الرسم التجريبي، رأى قوائم الحمار ليست على الأرض، وإنما مرتفعة، والحمار طائر في الهواء، لم يكن سوى حمار مجنَّح، رآه في غاية الروعة، ولكنه خاف من هذه الروعة، فطلب من الربِّ المعونة، وهو يحاول تذكُّر، كيف يمكن لحمار المسيح أن يطير بدلاً من السير الهُوَيْنَى، ليدخل مدينته مظفَّراً. طرد كلَّ الوساوس التي تضرب رأسه منذ أيَّام، ويعزوها لقلَّة إيمانه، وخيالات الشيطان، التي يزرعها فيه، وسلوك بنات الصليبيِّيْن المائع خلال الصلوات في الكنيسة وبعدها في شوارع القُدْس، وتمنعهنَّ مثلما تفعل البنت لُور مع ولد يصغرها، ولا يعرف إذا كان يحبُّها أم لا؟

وتساءل الفنَّان المزخرف، إذا كانت بنات القُدْس، فعلاً، صليبيَّات، من صُلب الفرسان الشجعان أم أنهنَّ من نُطف الفلسطينيِّيْن المحلِّيِّيْن؟ فالفرق واضح في سلوكهنَّ وسلوك اللواتي يهاجرنَ حديثاً إلى القُدْس، قاطعات البحار، الفرق بين ميوعة المجموعتَيْن واضح، ميوعة خفرة، وأخرى سافرة، وأشدُّ ما كان يقهره رؤية الصليبيَّات بنات البلد، وهنَّ يُبدينَ إعجاباً واندلاقاً تجاه الفرسان الجدد الآتين إلى هنا لبدء مسيرة إيمان طويلة، وكأن زمَّار الحَيِّ لا يُطرِب.

لعن القُدْس وبناتِها، واعتقدَ أنهنَّ السبب في تعكُّر مزاجه، وهو محتار كيف سيُنهي زخرفة الكتاب، بحمارٍ مجنَّحٍ، قد يُغضِب الملكة.

وفجأة، وكأنه تذكَّر شيئاً كان يراه أمامه، ولكنه غاب عن فكره، صرخ: النبيُّ العربيُّ، النبيُّ العربيُّ، إنه نبيٌّ عربيٌّ.

وفجأة أيضاً، ظهر كُوْهِين من غير مناسبة، ليشرح كيف تصوَّر غيل فلسطين، ملتقى قارَّتَيْن، واحدة بيضاء وأخرى سمراء، وخاطب بَاسِيلْلُوْسْ قائلاً بأنه عليه إدراك بأن منحوتات غيل على جدران المتحف ربَّما أكبر مجموعة منحوتات نُفِّذت ضمن مخطَّط، منذ الفترة الصليبيَّة.

نَحَتَ غيل، وكَاتَبَ زوجتَهُ، وصلَّى، وهو يرنو لذلك الفلسطيني السيِّد الإله، من أقرب نقطة على الأرض، صَعِدَ منها إلى السماء ..!

ولكنَّ بَاسِيلْلُوْسْ لم يكترث، وظلَّ يردِّد: نبيٌّ عربيٌّ، نبيٌّ عربيٌّ.

صحوتُ من النوم، وأنا أردِّد: نبيٌّ عربيٌّ، نبيٌّ عربيٌّ، واحتجتُ لبرهة لأعرف بأنني استيقظتُ من حُلْمٍ، أو أنني عشتُ تجربة أخرى غريبة، كتجربتي ولُور مع مهندس المتحف.

الرابع والستون

عندما وصلنا إلى نقطة سطح البحر، شعرتُ بطنين في أُذُنيَّ، وقال والدي هذا أمر طبيعي، وطلب منِّي وضع إصبعي في كلِّ أُذُن ونَفضها، وتوقَّف لأخذ استراحة، وليحيِّي الرجل الذي يرتدي جلباباً أبيض، يحمل مَنْ يرغب على جمله، ووجد في المكان، من اليهود والزوَّار، مَنْ يحبُّ تجربة ركوب الجمل في جولةٍ صغيرة جدَّاً في الموقع، وتخليد اللحظات بالكاميرا قبل النزول إلى قاع العالم نحو أريحا والبحر الميت.

بدا التوقُّف في نقطة مستوى سطح البحر لدى البعض كأنها تجربة ضروريَّة، في النزول الجارف نحو الأسفل، فالمسافة بين القُدْس وأريحا قليلة، ولكن الفرق في المناخ كبير، وكأن المسافر ينزل بسرعةٍ من قمَّة زُحلوقة إلى أسفلها، كما يفعل الأطفال مندهشين فرحين، بعكس الكبار النازلين إلى أريحا والبحر الميت، يبدون قلقين، أو مُسْتَفَزِّين.

قال والدي، بأن في مساحة فلسطين الصغيرة ثمَّة أربعة أو خمسة أنواع من المُناخُ، يتنقَّل المسافر، في ساعات قليلة، بينها، ويشعر بها.

رحَّب مُحمَّد، وهو من عشيرة الجَهَالين بوالدي، وتمازحا كصديقَيْن قديمَيْن، وحملني ووضعني على الجَمَل البارك، وأنا خائف، ثمَّ أنهض الجَمَل، وأمسك بالحبل الذي يطوِّق عنقه، وسار بي بضعة أمتار، وهو يطلب منِّي عدم الخوف والابتهاج، ولكنْ، من أين ستأتي البهجة وقلبي يكاد يقفز من مكانه مع كلِّ خطوة للجَمَل، بينما أُمسك بشدَّة بقطعة الخشب الموضوعة على ظهر الجَمَل، بمثابة سرج، أو أكبر قليلاً، تناسب حجم الجَمَل؟!

وعندما أَهْبَطَ مُحمَّد الجَمَلَ، شعرتُ بقلبي يستعدٌّ للعودة إلى مكانه ببطء، وعندما نزلتُ أسرعتُ إلى والدي.

علمتُ أن مُحمَّداً ينتمي إلى عشيرةٍ بدويَّة من بئر السَّبْع، امتهنت الترحال، وكانت برِّيَّة القُدْس جزءاً من نطاق ترحالهم قبل النكبة، ولطالما حطُّوا رحالهم في منطقة سطح البحر هذه، وبعد النكبة شُرِّدوا من ديارهم، وأصبحوا لاجئين، وبخلاف اللاجئين الآخرين الذين جُمِّعوا في مخيَّمات، أو سكنوا القرى والمُدُن، فإنهم فضَّلوا الانتقال من صحرائهم في النَّقَب، إلى هذه البرِّيَّة التي تشبه الصحراء.

وأحضر والد مُحمَّد جَمَلاً، وامتهن بجانب الحجر الأبيض الذي وضعه البريطانيُّون للإشارة إلى مستوى سطح البحر، إركاب الزوَّار على الجِمال، وورث ابنه المهنة عنه، ووصف مُحمَّد ذلك، بمَثَلٍ شعبي: «جَمَل محل جَمَل برك».

قال: «احتلال يبرك مكان احتلال، وابن يبرك مكان أبيه، وجَمَل يبرك مكان جَمَل، هذه بلادنا، بلاد الدوَّامات التي لا تنتهي».

ولكنه أصبح بعد الاحتلال آخر جمل برك، مطالباً بكثير من الأوراق؛ رخصة، وحسن سلوك من المخابرات، وشهادة طِبِّيَّة للجَمَل، وغيرها.

قال مُحمَّد لوالدي:

- إنني أعاني، يا صديقي ..!

– كلُّنا نعاني، وعلينا أن نصبر ..!

وكان لدى مُحمَّد الكثير ليقوله، عن تهجير القبائل البدويَّة من منطقة الخان الأحمر، تمهيداً للشروع في بناء مستوطنة يهوديَّة ضخمة.

- يريدون فرض أمر واقع على الأرض، حتَّى يصعب انسحابهم.

– القويُّ عائب، وما أُخذ بالقوَّة لا يُستردُّ بغير القوَّة.

وأضاف والدي:

– سينصرفون في النهاية، مثلما انصرف كلُّ محتلٍّ.

- أخشى أن يكون هؤلاء مختلفين عن غيرهم.

لعشيرة مُحمَّد تاريخ طويل مع المحتلِّين، يعود لقرون كما قال، ولم ينتصر المحتلُّون دائماً عليهم، لأنهم كانوا يلوذون دائماً إلى الصحراء، ووادي عربة، الذي لا يعرف دروبه إلَّا أبناء الصحراء، ولم تتمكَّن دول عظمى من الدخول إليه، كالعثمانيِّيْن، طوال أربعة قرون، هي مدَّة حكمهم - كما أكَّد مُحمَّد.

– ولكنَّ البريطانيِّيْن كانوا أشطر ..!

قال والدي ممازحاً، وعلمتُ أنه يشير إلى واقعة دهم الجيش البريطانيّ للجهَالين في منطقة سطح البحر، خلال الثورة الكبرى في الثلاثينيَّات، وسرقة أموالهم وذَهَبِهم، الذي جمعوه ثمناً لما باعوه من أغنام لأهالي القُدْس.

واستمرَّ والدي:

– ولم يعد الذهب حتَّى الآن ..!

- وكيف سيعود، يا صديقي؟ ذهب البريطانيُّون، وأخذوا ذهبنا معهم، وتركوا لنا اليهود، ليطردونا من بئر السَّبْع، ولاحقونا إلى هنا ليطردونا، إلى حيث لا نعرف، سيبنون هنا مستوطنة كبيرة، يقولون بأن هذه الأراضي هي أراضي جفتلك، أي أراضي السلطان العثماني، والسلطان الجديد يملك أراضي السلطان القديم، وكأننا كشعب، ليس لنا أرض أو وطن.

وأضاف:

- حتَّى في جبل البابا يريدون طرد البدو. أهدى الملك حسين أرض الجبل للبابا، عندما جاء قبل النكسة بثلاث سنوات إلى هنا، ، ولكنْ، يبدو أنهم لا يهمُّهم البابا، أو حتَّى الماما ..!

ضحك والدي قائلاً:

– علينا إفشال خططهم.

- طالما معي جَمَلي، فسأظلُّ هنا، غصباً عنهم. لن أغادر.

قال مُحمَّد بأن البدو لا يسكتون على الظلم، وروى حكاية رُجُم الباشا التي بدأت تُنسَج خيوطها، عندما دهم الجنود العثمانيون مضاربَ البدو، بأوامر من ثُريَّا باشا، لتحصيل الضرائب على مواشيهم، وكان ذلك يتمُّ بقسوةٍ ومطاردة للبدو الفقراء، الذين يلوذون إلى الكهوف، ويتقدَّمون في الصحراء هرباً من ظلم الباشاوات، الذين لا يتذكَّرون البدو إلَّا عندما يريدون جمع الأموال، وإذا لم يجدوا مالاً، يُصادرون الدوابَّ، ويقتادونها إلى القُدْس، ويُجبرون تجَّار المدينة على شرائها، بالثمن الذي يطلبه الباشاوات.

وفي تلك المرَّة، اقتاد شاكر باشا الذي قاد الحملة ضدَّ البدو الدوابَّ والرجال، وهو في طريقه إلى القُدْس، فاجأه مَنْ تبقَّى من فرسان البدو، وشتَّتوا رجاله، وأنقذوا رجالهم، ودوابَّهم، وقتلوا الباشا المعتدي، وأمر ثُريَّا باشا بدَفْن شاكر باشا في الموقع الذي قُتِل فيه، تكريماً لما اعتبرها بسالته في القتال ضدَّ البدو، بعكس رجاله الذين هربوا، ولكنَّ عائلة الباشا القتيل قرَّرت نقله إلى القُدْس، ليُدفَن بجوار سورها، تكريماً دينيَّاً له، وليكون من أوائل الناهضين يوم الدَّيْنونَة، وأمر ثُريَّا باشا كلَّ مَنْ يمرُّ بموقع القبر القديم وَضْع حجر تكريماً آخر لذكرى الباشا شهيد الواجب، ومع الوقت اختلط الأمر على الناس، فجماعتنا من البدو، أخذوا برمي الحجارة تشفِّياً بالباشا القتيل وجنود الحكومة، يرمون الحجارة مأمورين،

وهكذا تكوَّن الرَّجْمُ، ومع مرور الزمن، لم يعد أحد يعرف القصَّة الحقيقيَّة لما حدث قبل تسعين عاماً.

قال والدي:

– علَّ ناسنا ينجحون في قبر العديد من المحتلِّين، وسنرمي الحجارة، ونصنع رُجُوماً، تظلُّ شاهدة، رمزاً لنضالنا، وعبرة لكلِّ مستعمر، وليزورها أحفادنا ويتذكَّروا بطولات أجدادهم، ويَروُوها على مدى الزمن.

ضحك مُحمَّد قائلاً:

- أنتم اقتلوا، ونحن سنتكفَّل بالحجارة، ليس مثل البدوي ليضطلع بذلك ..!

ردَّ والدي:

– عمل الأفراد لا يكفي لتحرير الأرض ومَنْ يدبُّ عليها.

قال مُحمَّد، بأن البدو، يعيشون الآن في قهر بعد النكسة، ولم ينسوا بعد عام الكسرة؛ كسرة بئر السَّبْع، كما يسمُّون النكبة.

لاحظ والدي ممازحاً:

– يعني أنتم تعتبرون ما جرى وكأنه غزوة بدويَّة، هُزمتُم فيها..!

ردَّ مُحمَّد:

- طبعاً لا، جاءت إلينا باحثة تُدعى صوفي، لتُوثِّق الرواية الشفويَّة، خصوصاً بعد أن اشتهر حصار شارون لنا، وجمعت الأغاني التي أثبتت أن البدو كانوا وما زالوا جزءاً من الشعب الذي فَوْلَذتْهُ النكبات، فأُمَّهاتنا ما زلنَ يهزجنَ:

يحرم عليا لبس مناديل العِزة

للي قتلوا شهدا غزّة

يحرم علي قصّ الشليش

للي قتلوا في أرض العريش

يحرم عليا تزهير الخرقة

للي قتلو في برقة

يحرم عليا لبس المناديل

للي قتلوا في أرض الجليل

يحرم عليا الكحل في العين

للي قتلوا في وادي حنين

وأضاف بعد أن أعاد ذِكْر بعض المقاطع، بأن صوفي ريختر ديفرو، ذاكراً الاسم الثلاثي بتفخيم، رأت في ما جمعتْهُ من أغانٍ وأهازيج رواية نسائيَّة بدويَّة، مضادَّة للصور المسبَّقة عن عُزلة البدو، وضمور مشاعرهم تجاه الجماعات الأخرى.

ما همَّني في حديث مُحمَّد أكثر ذكْره لحصار شارون، فطلبتُ من والدي بصوت خفيض، أن يشرح لي، فردَّ بصوت أعلى من المعتاد: «اسأل عمَّكَ مُحمَّد، وهو سيُجيبكَ»، ويبدو أن العمَّ مُحمَّد لم يكن بحاجة لإعادة السؤال، فأجاب وهو ينظر إليَّ مباشرة:

- بعد ازدياد حالات تهريب الأسلحة من هذه البرِّيَّة، واتِّهام البدو، بتسهيل ذلك، وتهريب الفدائيِّيْن، جاء شارون، وحاصر مضاربنا، ومنع دخول الغذاء والخضراوات والكاز إلينا، وبعد أسابيع من الحصار الذي لم يؤثِّر في معنوياتنا، جاء شارون مرَّة أخرى، وجلس مع كبارنا، وقال بأنه مستعدٌّ أن يفكَّ الحصار حالاً، إذا تسلَّم المتَّهمين عن تسهيل دخول السلاح والمخرِّبين، من شرق النهر، ليقتلوا اليهود ويفجِّروا ممتلكاتهم، فردَّ عليه الشيخ مفلح بقوَّة: فَشَرْت، يا شارون، ليس لدينا مَنْ نسلِّمه لكَ، ويمكنكَ أن تحاصرنا للأبد، ولن يؤثِّر علينا ذلك، ولن نهتمّ، ستتعب

وتُجهد جنودكَ، ولن نتعب، فأكلنا من حليب دوابِّنا، والبطاطا والبندورة التي عرفناها أمس لسنا بحاجة إليها، يمكن أن يعيش المرء بدونهما، ونحن لا نحتاج أكثر من حلالنا، الإنسي والحيواني، وما تُنتجه من حليب وألبان وأجبان تعيننا على إنتاج شياطين صغار، سيكبرون ويواصلون مسيرتنا في مواجهة الشرِّ وغضب الطبيعة. انكسر شارون، وبعد أيَّام، فكَّ الحصار، وما زلنا في مضاربنا صامدين، ونحن نعلم ما ينتظرنا.

ضحك والدي، وهو يتساءل عن كُنه الحلال الإنسي، ويجيبه بشكل موارب مُحمَّد، وهو يضحك، ويزدادان بالضحك، وأنا لا أكاد أفهم شيئاً، غير حدسي بأنهما يتجنَّبان الحديث المكشوف والمباشر أمامي.

لفت انتباه مُحمَّد طائر أبو سعد، الذي حطَّ بجناحَيْه الكبيرَيْن، على النتوء الصخري الذي لا يبعد سوى عدَّة أمتار، وقال:

- إنه يبحث عن الماء، يقطع مسافات طويلة، ليحطَّ هنا، ومصيبة إذا وجد نفسه محاصراً في هذه الصحراء، إنه ليس كالبدو، يمكن أن يدبِّر حاله.

– ربَّما يواجه أيضاً في بيئته أمثال شارون، من الطيور والجوارح والمفترسات، وتدرَّب على مواجهة الظروف الصعبة.

قال والدي.

عندما ترى أُمِّي بنيتي الضعيفة، وهي تراها كلّ يوم كذلك، خصوصاً عندما يقترب موعد الأكل، تصف رِجْلَيَّ بأنهما مثل رِجْلَيَّ (أبو سعد)، ضعيفتَيْن، ونحيلتَيْن، ولا تُصدِّق بأنهما يمكنهما حملي. ولطالما نادتْني ساخرة: أبو سعد، وهي تتحسَّر لأنني لا آكل مثلما يجب أن يفعل بقيَّة خلق الله، لكي يسمنوا، ويكسبوا صحَّةً.

قال والدي، بأن مالك الحزين، الذي نسمِّيه (أبو سعد)، يجعل من نفسه حارساً للمياه، يمكن أن يقف على شاطئ البحر ظمآن، ولكنه لا

يشرب من مائه، خشية أن ينقص ماء البحر، ويظلَّ حزيناً مهموماً، ويمكن أن يموت عطشاً، مكتفياً بعشقه للبحر، مفتخراً بأنه لا يؤذي أحداً، بينما يؤذي قلبه نقص قطرة من ماء البحر، ويُشعل الغَيْرَة فيه.

وحثَّ والدي مُحمَّداً، على الاهتمام بـ (أبو سعد)، والطلب من ربعه عدم صيده ومضايقته، فضحك مُحمَّد على مشاعر والدي الجيّاشة الحنونة قائلاً:

- مالنا ومال (أبو سعد)؟! ولماذا نريد مضايقته؟! إنه لا يفيدنا في شيء، يمرُّ من هنا، باحثاً عن المياه، ونحسده، لأنه يتنقَّل في بلادنا بحرِّيَّة، بينما نُطارَد نحن في بلادنا، هو يأتي قاطعا بحاراً ووهاداً وجبالاً، ضيفاً ثمَّ يغادر، بينما هم يأتون ليقتلوا، ويسرقوا البشر والحجر، ويقيموا أطول فترة ممكنة، ويغادروا آخذين معهم ما سرقوه منَّا، وتاركين لنا مائة مشكلة ومشكلة، خلَّفوها هنا، لتشغلنا حتَّى موعد مجيئهم المقبل، ليت كلّ الآتين من خلف البحار، مثل (أبو سعد).

أحببتُ أن يعود مُحمَّد إلى سيرة شارون، ويبدو أنه تذكَّر أن حديثاً لم ينهه عن القائد الإسرائيليّ، فقال: «هل تُصدِّقان؟ مرَّة دخلت دكَّاناً في أريحا لأشتريَ زجاجة تمبو، وإذا بي أقف بجانب شارون، بلباسه العسكريّ، جاء أيضاً ليشتريَ الزجاجة المرطبة، أفكِّر الآن، إذا كنتُ حينها قادراً على قتله؟ ولو كنتُ فعلاً كذلك، فهل كنتُ سأقتله، وأحمي ناسنا من شروره؟!».

هزَّ والدي رأسه، دون أن أفهم، إذا فعل ذلك أسفاً أم شغله أمر ما، ذكَّرتْهُ به سيرة شارون.

الخامس والستون

ودَّعنا مُحمَّد، وانطلقنا نحو مقام النبي موسى، وعندما ظهرت قبابه المتعدِّدة، سألتُ والدي: «لماذا كلُّ هذه القباب؟ ربَّما واحدة أو اثنتان تكفي».

ضحك والدي: «ألَا ترى الجمال الكامن في امتداد القباب بجانب بعضها؟ عموماً كلُّ قُبَّة تعلو غرفة، هي نمط من المِعْمَارِ المحليِّ، يُسمَّى العقد الصليبيّ، أو العقد الروميّ، أو العقد العربيّ، تخيَّلْ كيف يمكن أن ننسب نمطاً معيَّناً لأممٍ مختلفة، الأثر الحضاري لأُمَّةٍ أو جنس، يصبح مُلكاً عامَّاً، ينتمي للحضارة الإنسانيَّة، وقيمة كلِّ أمَّة، بمقدار إسهامها في الحضارة الإنسانية».

واصل: «هذا العقد المتقاطع فنٌّ عبقريٌّ، وهو، في الواقع، عبارة عن قوسَيْن، متقاطعَيْن ومتعامدَيْن، بحيث تكُوِّن أربعة أهلَّة للبيت، مرتكزة على أربع رُكب موزَّعة على زوايا الغرفة الأربع، ويعتبر هذا النوع من العقود الأكثر شيوعاً في بلادنا، لأنه يمتاز بالقوَّة والمتانة في حمل البيت، وحتَّى في حمل عدَّة طوابق معاً».

وأخذ والدي دَفَّة الحديث إلى ضفَّة أخرى: «عليكَ أن تتصوَّر، يا بُنيَّ، أن هذه البرِّيَّة القاحلة التي نسير عليها، كانت الحياة تدبُّ فيها خلال مواسم النبي موسى السنويَّة، والتي توقَّفت بعد الاحتلال، ولو أصغيتَ السمعَ للتلال المحيطة بنا، لسمعتَها تردِّد ما خزنَتْهُ من منظومات، اسمع، كما أسمع ماذا تقول:

يا زوَّار موسى/سيروا بالتهليل

يا زوَّار النبي موسى/عقبال الخليل

يا زوَّار موسى/زوروا بالعدّة

يا زوَّار النبي موسى/عقبال الحُجّة

يا زوَّار موسى/زوروا بالدرفة».

أوقف والدي مَرْكَبَته بجانب المقام، وهو ما زال يتنغَّم، عندما رأينا امرأتَيْن ورجلَيْن، يقفون بجوار سور المقام الشماليّ.

ردَّ والدي السلام، وتبيَّن أن المجموعة تستعدُّ لتثبيت بلاطة حجريَّة، كشاهدٍ لقبرٍ، من قبور المقبرة الكبيرة المتَّسعة حول جهات المقام، التي أنتبهُ لها لأوَّل مرَّة، ففي الزيارة الماضية عندما أحضرنا السَّبْع إلى هنا لم أنتبه إلى المقبرة التي علمتُ بأن مئاتٍ من الغرباء مدفونون فيها، والفدائيِّيْن، وشهداء الحرب الأخيرة، والمتسلِّلين من الأردن، الذي قتلهم الجيش الإسرائيليّ. يَدفن الناس موتاهم هنا، مدفوعين ببَرَكَة النبي موسى، وغموض البرِّيَّة وصمتها، وسهولة الدفن هنا، التي تكاد تكون بدون إجراءات رسميَّة، وكأن مَنْ يُدفن فيها، من المهمَّشين، والهامشيِّيْن، والخارجين على نواميس الناس المعتادة.

كُتب على البلاطة اسم الميت، وعامَي ميلاده ووفاته، وعبارة: من يافا، واستمعنا إلى قصَّته من شقيقته الكبرى، بينما الصغرى، تستمع دامعة، لحكاية لا بدَّ أنها سمعتها وكرَّرتْها كثيراً، في حين انشغل زوجاهما بتثبيت البلاطة، بالإسمنت.

قالت جورجيت بأن شقيقها متري درس في الكُلِّيَّة العربيَّة في القُدْس التي أدارها الأُستاذ الخالدي، وكانت بمثابة دار للمعلِّمين، يقصدها المبرِّزون من طَلَبَة فلسطين مستمتعين برعاية الخالدي التربويَّة والعلميَّة والأبويَّة، ومتأثِّرين بترجماته وكُتُبه حول دَوْر الحياة العقليَّة، ونظريَّات فرويد،

ومبادراته التي لا تنتهي، وإشراكهم، في مشروعه لرعاية أبناء الشهداء، أيتام الثورات المتتابعة في فلسطين، وتأسيس معهد لهم في دير عمرو قرب القسطل، ونشط متري مع رصفائه في حملات التبرُّع التي أطلقها أُستاذهم، كحملة الشلن، ومَنْ لا يستطيع من الأعيان والمقتدرين دفع شلن واحد شهريّاً؟ وكحملة الخروف، ولكن الأُستاذ وجد صعوبة في إقناع مَنْ يزورهم في القرى بعدم ذبح خروف ترحيباً به، وعوضاً عن ذلك تقديم ثمنه لصالح المعهد، وأيضاً كحملة الإذاعة، ولم يجد الأُستاذ صعوبة في إقناع الفنَّانين من إحياء ليالي طرب في القرى والمُدُن، يذهب ريعها للمعهد، وبينما يتنقَّل الأُستاذ مع المغنِّين من مكان إلى آخر، صحبه تلاميذه الخلَّص مثل متري.

وعندما سقطت القسطل، وحدَّق الخطر على دير عمرو، تسلَّل مدير المعهد، مع أبناء الشهداء، الذين وصلتهم نُذُر النكبة إلى القُدْس تاركين قلوبهم في المعهد الذي بُني على خِرْبَة جرداء منحدرة.

خرجوا من المكان الذي ناموا ودرسوا وحلموا فيه، بمستقبل أفضل، جزعين، وخائفين، إلى المجهول.

حرص الأُستاذ الخالدي على اختبار نظريَّاته التربويَّة في المعهد، فجعل من الأيتام بناة، يضطلعون بالخدمات الرئيسة بأنفسهم لأنفسهم، وانتدب متري ليساعد في إدارة المعهد الذي تحوَّل إلى منشأة كبيرة متعدِّدة، فيها الملاعب، كمدارس اليهود المتقدِّمة، وقسم لبيع منتجات الطَّلَبَة كعسل النحل الذي يُربُّونه، وما يخرج من مركز الخياطة، وتحوَّلت دير عمرو، من سباتها الطويل إلى حياة تدبُّ في ثماني عشرة بناية.

وأشرف متري مع عمَّاله الأيتام خصوصاً مَنْ دخلوا فترة الفتوة، على تسوية الأرض، وبناء السلاسل الحجريَّة، وزراعة هذه المدرَّجات، وكان

يعمل مع الآخرين في الطهي والتنظيف وغسيل الملابس، ودرَّب بعضهم على الحِلاَقَة.

ولم يكن في خَلَد الخالدي، الذي أعطى دير عمرو جزءاً مُهمّاً من روحه أن مشروعه سينتهي بهذه السرعة، بانتصار العصابات الصهيونية، ولكن هذا ما كان، حيث وصل الصهاينة إلى منزل الخالدي القريب من مبنى الكُلِّيَّة العربيَّة على جبل المُكَبِّر، أعلى قريتنا، فرحل إلى بيروت.

شرحت جورجيت الظروف الصعبة التي أدَّت بالخالدي إلى الرحيل، بعد أن أبدى والدي امتعاضه على رحيل قادة الرأي العامِّ، خلال النكبة، تاركين شعبهم بدون قيادة، أو دراية.

قالت جورجيت بأنها قابلت زوجة الخالدي، عندما سافرت مرَّة إلى اليونان، لتجد وسيلة للاتِّصال بشقيقها متري، فروت لها الزوجة اللبنانيَّة التي تركت بيروت لتسكن مع زوجها في القُدْس، وتعيش لحظات المعاناة.

روت لها الستّ عنبرة: «عندما اشتدَّت الاضطرابات، وتوالت التعدِّيات علينا من اليهود، ووُضعت حواجز الجيش الإنجليزي على الطُّرُقات، وتوتَّر الجوُّ بيننا وبين جيراننا في مؤسَّسة المدرسة الزراعيَّة للبنات اليهوديَّات، وكانت ترأسها مسز بن زفي، حيث أصبح زوجها أوَّل رئيس جمهوريَّة لإسرائيل، ولم يكن يفصل بيننا وبين هذه المدرسة إلَّا حاجز من الأسلاك، وكان حُرَّاسها يقذفوننا ليليَّاً بطلقات، يردَّ عليها حُرَّاسنا، ويمتنع علينا النوم، كما يتملَّك الفزع أطفالنا، الذين أصبحوا يذهبون إلى مدارسهم بالسيَّارات المصفَّحة، وقد يعودون أحياناً وهم يرتجفون رعباً لما قد يصادفهم من الحوادث المؤلمة في طريقهم، وكنَّا نسمع عن أعمال القصف التي تتعرَّض لها البيوت يوميَّاً، فتتهدَّم وتصبح أنقاضاً. كما أن تبادل النيران كان لا ينقطع ليلاً ونهاراً بين المستعمرات اليهوديَّة والقرى العربيَّة القريبة من منزلنا في الكُلِّيَّة العربيَّة، وكذلك بدأت الاغتيالات تتبادل، فهنا طبيب يهودي يُغتال،

فلا تمضي أيَّام أو ساعات حتَّى ينال الاغتيالُ طبيباً عربيَّاً، وما إن يصيب القنص أُستاذاً جامعيَّاً من جهة حتَّى يصاب آخر حالاً من الجهة الأخرى، وإذا صدف أن خرجنا لحاجة ملحَّة من منزلنا، تحسُّباً لما قد يصيبنا من طلقات جيراننا الذين لا يفصل بيننا وبينهم سوى حاجز من الأسلاك، فلم يبقَ أمامنا إلَّا الرحيل، وكنَّا نحسبه مؤقَّتاً، ولمَّا عزمنا عليه، وحان حينه، انقبضت قلوبنا، وتهاوت منَّا الأعصاب»[6].

ولم يعش الأُستاذ الخالدي طويلاً في بيروت بعد تركه القُدْس، لقد ضعف قلبه، وهوى وهو يفكِّر في الكُلِّيَّة العربيَّة، ومعهد دير عمرو، ويبدو أن سوء النحس لحق أيضاً تلامذته مثل متري.

عندما حدثت النكبة وتفرَّق طَلَبَة الكُلِّيَّة العربيَّة، لم يتمكَّن متري من العودة إلى يافا، وبقي في القسم الشرقيّ من القُدْس، وانتقل لاحقاً للعمل معلِّماً في بغداد، وأجرت العائلة اتِّصالات، لكي تلتقي به، ووسَّطت خوري الطائفة، وفعلاً حصلت على موافقة السلطات الإسرائيليَّة المختصَّة، وحضرت من يافا إلى بوَّابة مَانْدِلْبَوْم، على أن يأتي متري من عمَّان، ويرى عائلته خلف الأسْيِجة التي تحيط بالبوَّابة، وانتظرت العائلة متري، وطال انتظارها ولكنه لم يأتِ، وأُصيبت بخيبة أمل، هل من المعقول بأن الابن المشتاق نسي الموعد مع العائلة التي يكاد أفرادها يموتون شوقاً لرؤية الابن؟ ولكنها تبيَّنت أن هذا لم يكن سوى أمر بسيط، مقارنة بالخبر الفاجع الذي وصل؛ وقع حادث سير في طريق النبي شعيب ومتري في طريقه إلى القُدْس وفارق الحياة، بينما كانت عائلته تنتظر؛ لتردَّ لها رؤيته الحياة التي بَلْبَلَتْها النكبة، وها هي نكبة أخرى تُدمِّر كلَّ شيء.

ولم يمضِ إلَّا أقلّ من عام حتَّى احتلَّت إسرائيلُ القُدْس كاملة، فجاءت العائلة، وزارت القبر الذي دُفن فيه متري قرب النبي موسى، وجاءت اليوم لتضع شاهداً على قبره، تكريماً لما تصفه العائلة بالشهيد؛ شهيد العائلة، وشهيد الوطن المتشظِّي، والنكبة المستمرَّة، والنكسة المقيمة.

السادس والستون

ترحَّم والدي على متري، وأبدى عواطف زائدة تجاه عائلته، وقال لي بأنه ضعيف جدَّاً تجاه أهلنا الذين بقوا في أرضهم، ولم يتشتَّتوا عام النكبة، وصنعوا قصص صمود في ظروفٍ بالغة الصعوبة.

وتمتم: «ليت كلّ شعبنا صمد في أرضه، ولم يتشظَّ في بلاد العرب والعجم».

خُيِّل إليَّ بأن أسلوب أبي روحي المغربي حلَّ في والدي، الذي عرض المساعدة في تثبيت شاهد القبر، ولكن العائلة التي يندمل جرحها شكرتْهُ بودٍّ.

أمام باب المقام استقبلنا الشيخ عبد المعين، قائلاً بأن لديه أخباراً سارَّة؛ لقد عثروا أخيراً على السَّبْع، ولكنَّ الأخبارَ السارَّة تتبعها أخرى غير سارَّة؛ لقد قرَّر جيش الاحتلال إغلاق مركز الفطام لمدَّة ستَّة أشهر، بدعوى احتجاز المدمنين قصراً، وضربهم.

استبشر والدي بالعثور على السَّبْع، وشكر الشيخ عبد المعين على الجهد الذي بذله ورفاقه في مركز الفطام، مثمِّناً نضالهم، بالطريقة التي يجيدونها.

دخلنا لنأخذ السَّبْع، الذي نبتت له لحية سوداء، ويدخِّن بشراهة، وبدون أن يقول أيَّة كلمة، أو يردَّ على تحيَّة والدي له، تبعنا خارج المقام.

وعندما انتظرتُ ليصعد السَّبْع إلى جانب والدي في المَرْكَبَة، طلب منِّي، بصوتٍ مبحوح، أن أصعد، لأنه سيركب بجانبي، ليستنشق القليل من الهواء الآتي من الشُّبَّاك.

سارت المَرْكَبَة، والتفتُّ إلى عائلة متري المنشغلة بجانب قبره، وشعرتُ باتِّساع الروح، الذي يلازم المرء في البرِّيَّة، ليحويَ متري وباقي الموتى الغرباء في المقبرة التي تحيط بالمقام، وتمتدُّ في البرِّيَّة.

انتابني حزن غامض الكُنْه، وكأن متري يخصُّني جدّاً، وشعرتُ بعواطف تجاه جورجيت، وكأن جذراً قديماً، ممتدّاً في هذه البرِّيَّة، يجمعنا، وهبطت روحي، وأنا أعلم بأنني لن ألتقيَها ثانية.

عندما أصبحنا على طريق أريحا - القُدْس، نصعد من قاع العالم، إلى مدينته المقدَّسة، أخذ السَّبْع يصفر بلحنٍ شجيٍّ، وفجأة أخرج رأسه من الشُّبَّاك، وصرخ بشكل مزلزل، فأثار الخوفَ لديَّ، بينما تماسك والدي، الذي تفاجأ، ثمَّ طلب منه أن يُدخِل رأسه، خشية من الشرطة التي قد تُوقِفنا، وتُحرِّر مخالفة، ولكن السَّبْع لم يستجب، إلَّا بعد أن تجاوزنا نقطة سطح البحر، فاعتدل بجانبي، وبدأ يحكي: «عندما وصلتُ نقطة الصفر، ، بلا مال ولا عمل، وتوتَّرت علاقاتي العائليَّة، وافقتُ على أن آتيَ إلى النبي موسى، لأُعالَج، ليس خوفاً من أحدٍ، أو رضوخاً لأحدٍ، فأنا ما زلتُ السَّبْع الذي يخيف ولا يخاف، له مهابته واسمه، وفي اليوم الأوَّل أخبرتُ الشيخ عبد المعين، عن حقيقة وضعي، والموادّ التي أتعاطاها، وتلقَّيتُ علاجاً أوَّليّاً، ولكنَّ الأمر تفاقم في الأيَّام اللاحقة، بدلاً من أن يتقهقر، فأُصبتُ بالكريزة، ولم أعد أُدرك ما يدور حولي، وفي لحظة نظرتُ إلى مئذنة مسجد النبي موسى، فخُيِّل إليَّ أنها برج عسكريٌّ، وأنني أقبع في السجن أو داخل معسكر جيش، وعليَّ أن لا أستسلم، فخلعتُ حذائي بسرعةٍ، ولا أدري كيف بدأتُ أتسلَّق المئذنة، وقفزتُ من إحدى نوافذها على سطح المقام، وهربتُ إلى الصحراء المحيطة، أدوس على الحجارة المدبَّبة التي تلسع قدمَيَّ، وتعقر باطنها هارباً إلى أرض ليِّنة الوطء، ولكنني لا أجدها وأنا أسمع أصوات تناديني من خلفي باسم عائلتي أو كُنيتي السَّبْع، ولكي أُخفي شخصيتي ولا يتعرَّف عليَّ الجيش الذي يلاحقني، كما تهيَّأ لي، أخذتُ بخلع ملابسي، واستمررتُ بالركض المجنون،

وبقيتُ بالملابس الداخليَّة فقط تسترني، ثمَّ تخلَّصتُ منها، فشعرتُ بأنها تضيق عليَّ، وتُطوِّق جسدي، وتكاد تلتهمه وتضعفه. تهتُ في الصحراء أربعة أيَّام، وأنا لا أعرف مَنْ أنا، ومَنْ أكون، جعتُ، واضطُررتُ لشرب بولي، ونمتُ في أيِّ جحر يصادفني، غير مبالٍ بحيوانات البرِّيَّة، التي تتناهى أصواتها إليَّ من كلِّ مكان، كنتُ أنام مقرفصاً، يلسعني برد الصحراء، ضامَّاً رِجْليَّ بيديَّ، وعندما أستيقظ لا أستطيع النهوض، فأُدحرج نفسي إلى الأسفل، فأُصاب بجروحٍ، وأبدأ أتحسَّس التراب الرطب، لأضعَهُ على جروحي، ثمَّ أتمالك نفسي، وأواصل السير مترنِّحاً».

قال والدي للسَّبْع: «حمداً لله على سلامتكَ، أنتَ لا تعرف كم قلقنا عليكَ، وكم ستسعد أُمُّكَ بكَ، إننا نحبُّكَ، يا سَبْعنا، ولن نتخلَّى عنكَ أبداً».

أكمل السَّبْع وكأنه لم يسمع كلام والدي: «طرتُ مع الصقور الصغيرة التي تحوم في البرِّيَّة، لاصطياد الأفاعي، ورفعتُ صوتي ردَّاً على صراخ بنات آوى، وتحدَّثتُ مع الأرواح، ورافقتُ راعي النبي موسى الذي خرج من قبره الطويل في مقامه، ومشى إليَّ، وأمسكني بيدي، وقادني إلى المقام، وهو يؤكِّد لي بأن سيِّده نبيّ الله أوصاه بي، وبأنني لن أُصاب بمكروهٍ بوعدٍ ورعاية منه».

استمرَّ السَّبْع بهذيانه، كما وصف ذلك والدي لاحقاً، بينما كنَّا ندخل قريتنا، التي لم يتغيَّر فيها شيء منذ مغادرتنا، وهذا ما سبَّب لي إزعاجاً، كانت جورجيت ومتري يحتلَّان جزءاً من روحي، غير الموجودة في القرية البائسة، كانت هناك متروكة في البرِّيَّة.

أوقف والدي مَركَبَته عند العَيْن، وطلب منِّي الذهاب إلى منزلنا، بينما رافق السَّبْع إلى منزله.

السابع والستون

حان وقت توديع الصيف، صيف القُدْس الفوَّار الحارّ. حضرتِ الرطوبة، ومزاج أيلول المتوتِّر، وعدتُ إلى المدرسة، وأنا لم أرَ لُور، منذ واقعة القُبلة، وعشتُ أحلام يقظة، أرى فيها نفسي مع لُور في مخابئ قصر الشيخ، وهي تُقبِّلني، أو في الطابق الأعلى، مُمدَّدَيْن بجانب بعضنا، ونحن نرى قُبَّة الصخرة، من النافذة الطويلة، تتلألأ بلونها الذهبيِّ، سعيدَيْن بالتصاقنا، وعندما أستيقظُ من هذه الأحلام، لا أجد في نفسي الشجاعة للصعود إلى القُدْس، ورؤيتها، وفكَّرتُ أكثر من مرَّة، في انتظارها أمام مدرسة المأمونيَّة، لأختبر ردَّ فعلها، عندما تراني، ولكنني كنتُ أجبن دائماً، ولا أعرف لماذا لم تبادر هي، فتأتي إليَّ في القرية، واعتقدتُ بأنها لم تعد ترى فيَّ إلَّا فتىً جباناً خائفاً، لا يستحقُّ صداقتها، وهذا ما أخذ يؤلمني، ويُوغِل في العَظْم.

يزداد ثقل الخريف في القُدْس عندما يتأخَّر المطر على أوانه، ولا تمنُّ علينا السماء بمطر الفتوح، أو ترمي علينا كمِّيَّات قليلة منه، فيتأثَّر مزاج الناس، وفي قريتنا حيث ما زال الذين لم يتركوا البساتين، ولم يهجروها إلى سوق العمل الإسرائيلي، تُبلبلهم تبدُّلات الطقس، ويرنون إلى السماء راجين، آملين.

بعد أسابيع من رجوع السَّبْع من النبي موسى، كنتُ في المنزل، أتغدَّى مع والدتي، وفي حضني قطَّتي وَزَّة، بعد عودتي من المدرسة، عندما دخل والدي وعلى وجهه علامات غضب وحزن، قال بسرعةٍ، بأن السَّبْع حاول الانتحار، والله يستر، ووضع أغراضاً جلبها معه في المطبخ، ثمَّ انطلق إلى منزل والدة السَّبْع، ولحقتُهُ تاركاً وَزَّة في حيرة وربَّما صدمة تَخَلِّيَّ المفاجئ

عنها، رغم طلب أُمِّي منِّي إكمال الطعام، فلم يكن لديها أهمُّ من إكمال طعامي الذي تُحدِّد نوعه وكمِّيَّته، ولم أكن أكره شيئاً أكثر من كرهي للطعام، وإكراهي على تناوله، حتَّى إن والدتي ربطت منحي نقوداً بتناولي كمِّيَّات، تحدِّدها من الطعام، ولم تكن تروق لي طريقة إمساكها العصا، ومنحها الجزرة، ولطالما شجَّعني والدي على ما اعتبره تمرُّداً، قائلاً: «تمرَّدْ، يا صغير، وحاول ألَّا تفعل شيئاً في حياتكَ لا يروقكَ».

سمعتُ والدة السَّبْع تقول لوالدي وهي تنشج: «لقد شرب فَنْدُوْر، راح دمَّر شبابه، ودمَّرني».

ليست المرَّة الأولى التي أسمع فيها لفظة فَنْدُوْر، فهي كانت المادَّة المفضَّلة والأكثر توفُّراً لدى مَنْ يرغب بالانتحار، ففي هذا الخريف، انتشر خبر محاولة انتحار إحدى الفلَّاحات، وسمعتُهم يقولون: «لقد شربتْ فَنْدُوْر»، ولم يكن أمام فلَّاحات قريتي سوى الفَنْدُوْر، يشربنَهُ، عندما يقهرهنَّ زوج أو ظروف حياة.

حضنَ والدي والدة السَّبْع وهو يقول لها: «يا خالة، إنشا الله خير»، وطبع قُبْلة على رأسها المغطَّى بخرقةٍ بيضاء، ثمَّ استفسر منها عن المستشفى التي نُقل إليها السَّبْع، وطلب منها المكوث في المنزل مع زوجته الجديدة، حتَّى يعود بأخبار السَّبْع، ولكنه علم بأن الزوجة الثانية حردت وهي معتزلة في منزل والدها، ولم تكن عودتها إليه، بعد عودته من النبي موسى سوى مرحلة مؤقَّتة؛ أي نوع من إعطاء فرصة وتمنٍّ، لعلَّ وعسى، ولكنَّ أدوات التمنِّي اللغويَّة لا تستجيب، وربَّما لا تصلها المدخلات بشكلٍ صحيح، فلا تفهم ما يريده منها البشر الذين يردِّدونها، فتظلّ محايدة وصلدة، لا تستجيب.

ركبتُ مع والدي، وصَعِدْنا إلى مستشفى المقاصد على جبل الزيتون، ودخلنا إلى غرفة العناية المركَّزة، حيث يرقد السَّبْع، كان مستلقياً على

السرير، ثُبِّتت في جسمه أنابيب عدَّة، بينما أنبوب إبرة الكيلو (الجلوكوز) يضخُّ في شرايينه نقطة إثر نقطة.

طمأن الطبيبُ الوالدَ على صحَّة السَّبْع قائلاً: «إذا مضت الساعات القليلة المقبلة على خير، فسيعيش أكثر منِّي ومنكَ، وأنا واثق أنها ستمضي، لديه جسم يمكنه من المقاومة».

وأضاف: «لقد شرب كمِّيَّة كبيرة من الفَنْدُوْر، ولولا نقله سريعاً إلى المستشفى، لربَّما كان في عداد الأموات، يستخدم فلَّاحونا الفَنْدُوْر، وهو مسحوق أبيض كمبيد حشرات بكثرة، يضعونه بين أوراق القرنبيط، والنباتات الأخرى، رغم معرفتهم بخطورته، وبأنه يمكن أن يقتل البني آدم، إذا تناوله كما فعل حبيبنا السَّبْع».

قال والدي: «اعتاد الفلَّاحون في بساتين سِلْوَان على استخدامه، ومع ذلك لا يمتْ أحد، لقد تعوَّدنا عليه، لا شيء يمكن أن يهزم أجساد الفلَّاحين».

ردَّ الدكتور: «هذا من مُخلَّفات الجهل، لا أحد يعرف مقدار السموم التي تدخل أجسادنا، ونحن نأكل خيرات الأرض».

قال والدي: «كما تقول أنتَ، إنها خيرات الأرض»، فردَّ الدكتور: «إنها فعلاً خيرات، لكننا لا نعرف مقدار تحوُّلها كناقلة للسموم البشريَّة، التي ندخلها نحن في ثناياها».

لا أعرف إذا توفَّرت للسَّبْع القدرة على سماعنا، أو أنه تجاهلنا، ربَّما خجلاً من والدي، لفعلته، أو لفشله حتَّى في اختبار موته.

عندما ابتعدنا عن غرفة العناية المركَّزة، جرى حديث بين الدكتور سليم ووالدي، عن ظروف المستشفى الصعبة بعد الاحتلال، ومحاولاته للسيطرة

عليه، ونقص الأموال، وإبعاد أطبَّاء إلى خارج البلاد، لنشاطهم الوطنيِّ، واعتقال آخرين، ومع ذلك فإن ما بقي من الأطبَّاء يبذلون جهودهم، وقال الدكتور بلهجةٍ حماسيَّة: «المسألة بالنسبة إلينا ليست فقط طبِّيَّة، وطبيب ومريض، ولكنها وطنيَّة».

جاء الدكتور سليم إلى القُدْس، من قرية الحِصْن الأردنيَّة، وعمل جرَّاحاً في مستشفى الهوسبيس الحكوميّ، الذي أسَّسه، ثمَّ أسَّس مستشفى صغيراً، وبعد الحرب مباشرة، وضع المحتلُّون يدهم على مبنى مستشفى المقاصد الذي لم يكن قد اكتمل بعد، ووضعوا على مدخله يافطة، كُتب عليها: «منطقة عسكريَّة - ممنوع الدخول»، ووجد الدكتور نفسه أمام اختبار ومواجهة مع المحتلِّين، فقرَّر، مع رفاق له، فتح مستشفى المقاصد، فأزالوا اليافطة، ونقلوا إليه معدَّات المستشفى الصغير، وأصبح مديراً للمقاصد، وتصدَّى لجيش الاحتلال عندما جاء ممثِّلون عنه، يسألون عن مَنْ تجرَّأ وأزال اليافطة، فأخبرهم بأن المستشفى تعمل، حتَّى لو لم يكتمل البناء، وجعلهم يشاهدون مرضى على أسِرَّة، جلبهم مسبَّقاً، ولم يكن جميعهم، ولم يتجاوزوا عشرة مرضى، ولكنهم تطوَّعوا، ليمثِّلوا أدوار المرضى، لأسبابٍ وطنيَّة.

وتداولت طرفة، فيما بعد، عن أحد المرضى المزيَّفين، الذي ظلَّ يصرخ وهو يضغط على معدته، بشكلٍ مبالغ فيه، حتَّى بعد خروج الجنود، ولم يقتنع من كلام الأطبَّاء بأن الأمر قد انتهى، وبإمكانه الصمت، أو حتَّى حمل أغراضه والمغادرة، ولكنه يبدو أنه لم يصدِّق ما قيل له، وأراد لعب الدَّوْر الوطنيّ المناط به إلى ما بعد النهاية.

تواصل الدكتور سليم مع المؤسَّسات المسيحيَّة، التي رفدت المستشفى، بممرِّضات قانونيَّات، تابعات للفاتيكان.

عندما تلفن الدكتور سليم، للقاصد الرسولي في القُدْس، عارضاً عليه المعضلة، قال الأخير ممازحاً:

– ولكنكَ شيوعيّ، كيف يمكن لمسيحيٍّ تقيٍّ مثلي الوثوق بكَ؟!

- المسيح، بدفاعه عن الفقراء، كان أيضاً شيوعيًّاً، يا أبانا ..!

– تُشبِّه نفسكَ بالمسيح ..!

- القُدْس هي التي جعلتْنا نشبه بعضنا، جاء هو إلى القُدْس في مفصل تاريخي، وها نحن نشهد مفصلاً تاريخيًّاً، قد يكون أصعب، ومع نفس الأعداء ..!

– سأقف معكَ، وأرجو أن لا يعرف البابا بذلك، وإلَّا لَطَقَّ ومات، فهو لا يطيق سيرة الشيوعيِّيْن ..!

- أشكركَ، سيُرجِّح ذلك ميزانكَ لدى الربِّ الذي تجسَّد بشراً، وسار على هذه الأرض، وخلفه الفقراء والمساكين ..!

في جوابه، الذي لا يُميِّز بين يهود قدامى، ومستعمرين جدد، لم يكن الدكتور سليم، كما يعتقد والدي جاداًّ، وإنما كان يمازح القاصد الرسولي، ويَحُكُّ له على موضعٍ يروق للأخير، يساوي فيه بين يهود الأزمان.

قال والدي: «الأديان في بلادنا تتنافس، رغم ما يجمعها وهو كثير، وعلى كلِّ يهوديٍّ أو مسيحيٍّ أو مسلمٍ، يسير في القُدْس أن يحمل، بالنسبة إلى مغايريه، وِزْرَ أفعالِ أسلافه، غير المحبَّة للمغايرين».

اعتقل المحتلُّون الدكتور سليم لمدَّة شهر، بدعوى، عدم الإبلاغ عن جرحى من الفدائيِّيْن دخلوا المستشفى، وخلال اعتقاله، مورست عليه ضغوط كبيرة، لترك المستشفى وتسليمه للمحتلِّين، لموقعه الاستراتيجي على جبل الزيتون.

كان الدكتور سليم معروفاً لأبناء قريتنا والقرى المجاورة ولأبناء مدينة القُدْس، بتعاطفه مع الفقراء، وتقديمه العلاج مجَّاناً، وإجراء عمليَّات استئصال المرارة بسرعةٍ، وبسهولةٍ، ومجَّاناً لمَنْ لا يستطيع الدفع.

قال والدي، بأن المحتلِّين، سيعتقلون الدكتور سليم مجدَّداً، لأنه لا يريد تقديم أيَّة تنازلات، وسيرمونه خارج البلاد.

وهو ما حدث فعلاً، بعد أيَّام؛ ولكن المستشفى استمرَّ، وإن بصعوبات كثيرة واجهنه.

الثامن والستون

خرجنا من المستشفى، فلفحتنا نسائم نديَّة تهبُّ على جبل الزيتون، وتضرب وجهَيْنا، قال والدي مشيراً إلى الشمال: «هناك في كنيسة أبانا ترقد الشاعرة الأميرة ..».

ويبدو أنه أراد أن لا يُكمِل الحكاية، بعد أن رمى بقطعةِ فضولٍ ناحيتي، ويعرف بأنني سألتقطها، ولن أتركها، أو أتركه بسهولة، يهرب من إكمالها، فطلبتُ منه أن يحدِّثني عن هذه الأميرة، فقال بعد أن اشترى كاسة قهوة من كشك قريب من المستشفى وزجاجة مشروب غازي لي: «على إحدى تلال جبل الزيتون الخالد هذا، ترقد أميرة أوروبيَّة، أعادت الاعتبار، لأحد الأماكن التي يُعتقَد أنها مرتبطة بحياة السيِّد المسيح في القُدْس، ليس بعيداً عن ما يُعتقد أنه مكان صعود المسيح إلى السماء التي أتى منها، بعد أن غضب من القُدْس وناسها، هاجياً المدينة في إحدى النصوص الخالدة: أُوْرُشَلِيْمْ، يا أُوْرُشَلِيْمْ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرَّة أردتُ أن أجمع أولادكِ كما تجمع الدجاجةُ فراخَها تحت جناحَيْها، ولم تريدوا. وصلت الأميرة (دلا توردوفرن) التي عاشت بين عامَي (1809-1889م)، إلى فلسطين، قبل قرن من الزمان، واشترت ستَّة دونمات من الأرض، وبعض البيوت القديمة على جبل الزيتون، وبحثت عن إحدى المغارات الثلاث، الأكثر قُدسيَّة لدى المسيحيِّيْن، وهي مغارة المهد في بَيْت لَحْم، ومغارة القبر المقدَّس في القُدْس، والمغارة التي علَّم فيها المسيح تلاميذه، واشتهرت باسم مغارة «أبانا الذي ..» نسبة إلى الصلاة

الربَّانيَّة التي تُعتبر أهمَّ صلاة في المسيحيَّة، وتُعرَف على نطاق واسع باسم (إيلونا)، والتي تعني جبل الزيتون باليونانية».

بعد أن صَمَتَ والدي لمدَّة دقيقة تقريباً، ارتشفَ فيها المزيد من القهوة، اختبر فيها مقدار صمتي وصبري، وربَّما فهمي، وأنا أتلقَّى جرعات حكايته الجديدة، حتَّى عاد ليواصل حكايته: «أعلنت الأميرة تمكُّنها من العثور على المغارة، بمساعدة شابٍّ فرنسي، اسمه كلرمون غالو، ثمَّ بمساعدة امرأة اسمها فيوليت لدوك، وبَنَتْ رواقاً جميلاً على نسق كنيسة بيزا في إيطاليا حول المغارة، ثمَّ بنت دير الكرمل في هذا المكان».

خطر على بالي سؤال والدي حول قدرته على حفظ الأسماء والتواريخ، التي بدت لي صعبة الحفظ، وروايتها بكلِّ هذه الطلاقة، ولكنه استأنف رواية الحكاية: «قصَّة حياة الأميرة كما تقدِّمها الروايات المسيحيَّة فيها الكثير من القَصِّ الأسطوريِّ الذي رافق حكايات أخرى عن نبيلات من خلف البحر المتوسِّط هجرنَ حياة البذخ، والمجون، وجئنَ إلى أرضنا المقدَّسة، ليبدأنَ حياة جديدة، في محاكاة غربيَّة، لقصَّة رابعة العدويَّة، التي ترى مقامها من هنا، غير بعيد عن كنيسة إيلونا».

وأمسك رأسي، وقرَّبه إليه، وكأنه شعر بأن في داخله تمور أسئلة، ولا أعرف كيف يعرف الآخرون بما يجري داخل هذا الرأس، والتي تضاربت داخله المعلومات من شأن أميرة أجنبيَّة، إلى رابعة العدويَّة التي افترض والدي بأنني أعرفها، ولكنه قال بعطفٍ بالغ: «أنا أكبر منكَ بكثير، يا بُنيَّ، وعندما تصبح في مثل سنِّي، وتسأل، وتجرِّب، وتعرف، وتزور، وتقرأ، ستحفظ ما لم أستطع حفظه من أسماء وتواريخ وحكايات، هذه بلادنا، التي علينا أن نتلمَّس حكاياتها وتواريخها وناسها».

ثمَّ ضحك وهو يقول: «عليكَ عندما تكبر، أن تُدقِّق فيما أذكره من

أسماء ووقائع، وتصحِّح ما تستطيع إلى ذلك سبيلاً، فأنا دائم التشكُّك في ذاكرتي، وعلى الأرجح، فإنني أخطئ في بعض الأسماء».

تمشَّينا نحو قبر رابعة العدويَّة، وواصل والدي الحديث: «أهدت الأميرة المكان إلى فرنسا، التي أعلنت أنها ستُرمِّمه، وتُعيد المغارة كما كانت في زمن المسيح، التي تقول الروايات الدينيَّة، إنه كان يلجأ إليها، بعد أن يمضيَ نهاره في الهيكل اليهوديّ داعياً إلى معتقده الجديد، وفي الليل يأتي إلى المغارة، باعتبارها مكاناً أكثر أمناً، يُعلِّم فيها تلاميذه، وأيضاً ليستريح، بعد عنائه مع اليهود ونضاله ضدَّ الصيارفة، ومستغلِّي الناس العاديِّيْن، وعليكَ أن تتصوَّر الطريق التي يقطعها من القُدْس إلى هنا، بدون قبور كما هو الوضع الآن، وهو مفعَم بأفكاره الثوريَّة، لم يكن له صبر على الظلم الذي رآه، والأفكار البالية التي حكمت قومه، فأرادها ثورة، تحرِّر الناس والبلاد، من الأوهام، والجشعين، والمرابين، وعندما فشل، قرَّر الخروج من المدينة، مودِّعاً ناسها وأهلها، بألمٍ وغضبٍ».

وبعد أن صَمَتَ، قال وكأنه نسي شيئاً من الحكاية: «عليكَ أن تعلم، بأن المسيح، كان ثائراً، ولكنْ، بمعايير عصره، يشبه مثلاً جيفارا في عصرنا، وإذا دقَّقتَ في الأيقونات التي تُمثِّل المسيح في الكنائس، ستجد شخصاً يشبه جيفارا إلى حدٍّ ما».

سألتُهُ عن النبي مُحمَّد والأنبياء الآخرين، وإذا كان يعتبرهم أيضاً ثوَّاراً، فأجاب: «نعم؛ الرسالة المُحمَّديَّة هي رسالة ثوريَّة في وقتها ومكانها، وكذلك كان إبراهيم، الذي ثار على قومه، وعرَّض نفسه للحرق بالنَّار، لتمسُّكه بمبادئه، ونفس الأمر ينطبق على موسى وصالح وغيرهما من الأنبياء».

دُهشتُ من البساطة التي يتحدَّث بها والدي عن الأنبياء، بدون تكلُّف،

أو ألقاب تفخيميَّة أو مقدَّسة، مثلما يتحدَّث عن الملك حسين، وملوك العرب الآخرين. كان لدى والدي أسلوبه وقناعاته التي لم يفصح عنها كاملة لي.

اعتذر والدي عن عدم إعطائي كلّ القصَّة عن الكنيسة والأميرة، لأنه كما قال بأنني سأكتشف ذلك بنفسي وبطريقتي، إذا كنتُ أهلاً للمعرفة وحبّ البلاد.

وأمام إلحاحي، تراجع قائلاً: «في فترة العثمانيِّيْن الأخيرة، ومع سماح سلاطين الإمبراطوريَّة التي كانت تَغُذُّ السير إلى الأُفُول، ببناء دُوْر عبادة للمسيحيِّيْن من مختلف الطوائف المحلِّيَّة والأجنبيَّة، جاءت الأميرة إلى إيلونا، ورغبت بكتابة الصلاة الربَّانيَّة في المكان باثنتَيْن وثلاثين لغة، والآن فإن لوحات السيراميك التي تملأ المكان، خُطَّت عليها تلك الصلاة بمائة وسبعين لغة، وَوُهِبَتْ لوحات الأبانا هذه من جميع الكنائس، ومنها البروتستانتيَّة، والأرثوذكسيَّة، والأنجليكانيَّة. وترقد الأميرة التي لولاها لربَّما بقي المكان مَنسيَّاً، في مدخل رواق الكنيسة، تكريماً لتكريسها سبعة عشر عاماً من عُمُرها من أجل المحافظة عليه، وفوق القبر، يمكن رؤية جَرَّة تحتوي على قلب والدها البارون السياسي والشاعر المشهور في بلاده».

تخيَّلتُ بأن القلب الموضوع في جَرَّة، على قبرٍ، ليس بعيداً عنَّا، ما زال ينبض، وربَّما تتسارع دقَّاته عندما يعلم بأن اثنَيْن من ناس البلاد، يتحدَّثان عنه في هذه اللحظات.

قال والدي: «نعم، ربَّما ينبض، ولكنْ، ليس كما تتوقَّع وتتصوَّر. إنه ينبض على طريقته، بدون دماء تُضخُّ فيه، وتحرِّكه، وتُبقيه حيَّاً، حبُّه للقُدْس يجعل قلبه يعيش سكينته، ولكنها سكينة فوَّارة، وغير مستكينة».

وأضاف والدي: «مَنْ يحبُّ القُدْس لا يموت، قد يتماوت، ولكنه يشعر

بنا، ويسمع ما نحكيه عنه، وربَّما يتدخَّل، ويشاركنا الحديث والتساؤلات، ويسألنا عن مآلات المدينة».

سعدتُ بكلام والدي، ربَّما هذا ما حصل لي ولُور، مع العمِّ هاريسون. ألَم يعشق هو القُدْس ويُفضِّلها على مُدُن العالم؟ ولكنه لم يمكث فيها إلى النهاية، حتَّى دُرَّتُهُ مبنى المتحف، لم ينتظر ليشارك في افتتاحه، ربَّما غضب من القُدْس، فليس من النادر أن تُغضِب محبِّيها، فحتَّى المسيح غضب منها وعليها، وذرف دموعه راثياً لناسها.

التاسع والستون

تمنَّيتُ، للحظةٍ، لو أن القلبَ يخرج من الجَرَّة، ينطُّ منها، ويسير أمامنا، ولكنني لم أذهب بعيداً في حُلْمِ يقظةٍ، فقد وصلنا إلى مُطِلٍّ جبل الزيتون الأسطوريّ، أمام فندق الأقواس السبعة، الذي تظهر أمامه قُبَّة الصخرة الذهبيَّة تتلألأ وتزهو، وكذلك سور القُدْس، الذي يُطوِّقها بلطفٍ، مع المسجد الأقصى وقباب وأروقة وأسبلة ومساطب ومنابر، عديدة، ولكنه غير قادر على إخفائها، أو على إخفاء مساجد وكنائس وقباب منازل البلدة القديمة.

قال والدي، وهو يبتسم: «بالنسبة إلى الملك سليمان، مالك الحيوانات والجنِّ، لم يكن أيُّ مكان في العالم يعادل هذا الذي نقف فيه، ليتنزَّه، وحوله المئات من زوجاته وجواريه، يقال بأن عددهنَّ ألف، وربَّما ثلاثة آلاف، مَنْ يدري؟ ومَنْ يعلم؟ إنه مشهد ساحر للقُدْس، سحر الملوك وزوجاتهم وجواريهم، وانتقل السحر إلى العالم، فتدفَّق ناس العالم إلى هنا، ومنهم مَنْ جُنَّ، وستلتقي كثيراً من هؤلاء المجانين، مرضى القُدْس، الذي لا يستطيعون تخيُّل أنهم ساروا على نفس دروب السيِّد المسيح، ابن الأرض، وابن السماء، الثائر، والواعظ، والفادي، والشهيد».

تذكَّرتُ الشهيد موسى، وتخيَّلت كيف لو أنه ما زال عائشاً، فإنني قد أراه في الأسفل في وادي جهنَّم، قرب طَنْطُوْر فرعون، أو الجُثْمَانِيَّة، أو كنيسة سِتنا مريم، يلعب، أو يشاكس الحُجَّاج، ويتأمَّل في اللوحات المدهِشة على واجهات الكنائس التي تبدو من أسفل، وكأنها ألواح، أنزلتْها السماء عبر جبل الزيتون.

واصل والدي عن مجانين القُدْس: «تخيَّلْ نفسكَ لو أنكَ تشعر بأنكَ تسير على الدروب التي سار عليها ابنُ الربِّ، ثمَّ الربُّ نفسه؟».

سرت قُشَعْرِيْرَة في بدني، وأنا أتخيَّل بأن المسيح هو ابنُ الربِّ أو الربُّ نفسه، ولم أستطع فهم كيف يمكن لسيِّدنا المسيح أن يكون نبيَّاً، ثمَّ ابناً للربِّ، فالربَّ.

حاول والدي تبسيط الأمور: «أنا مثلكَ لا أعرف كيف حدثت هذه التحوُّلات، ولكنْ، هناك مَنْ يؤمنون بها، تعدَّدت أسماء المسيح وصفاته، بين واقعيَّة وأسطوريَّة، وإيمان المسلمين به يختلف عن إيمان المسيحيِّيْن، وحتَّى هذا الاختلاف موجود بين المسيحيِّيْن أنفسهم».

لم يعد لديَّ رغبة في مواصلة والدي الحديث في هذا المجال، ويبدو أنه شعر بذلك، وأحسَّ بالنفق الذي أدخلني به كلامه، فقال محاولاً إغلاق فُوَّهَة الكلام بماءٍ منعش: «تصوَّرْ، بأن أجمل وصف لسيِّدنا المسيح جاء من مكان غير متوقَّع أبداً، من الإمام الغزالي، الذي عاش في الزاوية الغزاليَّة أعلى باب الرحمة الذي نراه من هنا».

لم أرغب بأن يواصل والدي استعراض معلوماته عن الغزالي أو غيره، فلم يعد في مُخِّي الصغير الآن متَّسع لمزيد، فسألتُهُ عن الوصف الذي يتحدَّث عنه، فأجاب باقتضاب وببطء: «نبيّ القلب».

تمكَّن والدي من إدهاشي فعلاً، وأنا أتأمَّل هذا الوصف، ولا أعرف لماذا أثَّر فيَّ بسرعةٍ، وخفَّف من توتُّري وقلقي.

نظرتُ إلى القُدْس الساحرة، من المُطلِّ، الذي قال والدي، بأن أجدادنا كانوا يُسمُّونه القعدة، وعندما اختلف الأَهالي مع دائرة الأوقاف حول مِلْكِيَّة هذه الأرض، رُفعت القضيَّة إلى المحكمة التي قضت بأن الأرض تعود للأوقاف، فبُنـيَ بإشراف الحكومة الأردنيَّة فندق الأقواس السبعة، وتذكَّر والدي كيف عُقد فيه أوَّل مؤتمر للمجلس الوطنيّ الفلسطينيّ وتأسيس

منظَّمة التحرير، التي عارضها الملك حسين في البداية، ولكنه حضر المؤتمر برفقة الشقيري، أوَّل رئيس للمنظَّمة.

وسرد والدي أسماء رؤساء دول عربيَّة وغير عربيَّة، استضافها الملك في هذا الفندق، مثل رئيس تونس بورقيبة، وملك المغرب الحسن الثاني، وشاه إيران بهلوي، وغيرهم.

وروى كيف كان يصعد مع رصفائه إلى المُطِلِّ، من جانب مسجد مُحمَّد الفاتح في رأس العَمُود، ويختلسون النظر إلى الضيوف الكبار، وهم يدخلون، بإجلال إلى الفندق، ويفتحون الأحاديث مع أفراد من الحواشي التي ترافق الزعماء الكبار، ويتندَّرون على لهجاتهم، ويضحكون ويمرحون، بينما القُدْس أمامهم صامتة، وربَّما كانت تعلم وهم لا يعلمون، بأنهم لن يتمكَّنوا من العودة إليها، بعد عامَيْن أو ثلاثة، وها هو الفندق، وبعد الحرب حاولت حكومة الاحتلال بيعه، ولكنها لم تتمكَّن، لأنه حسب القانون، ما زال ملكاً للحكومة الأردنيَّة، ولاعتراض الأميركيِّيْن، فأُحيلت إدارته لمجموعة الإنتركونتننتال، كَحَلٍّ يمكن أن يرضيَ الطرفَيْن، ولمدَّة عشرين عاماً، يمكن خلالها أن يُغيِّر الله الأحوال بأحسن منها، أو أسوأ، المهمُّ وضع الفندق في ثلَّاجة التأجيل المؤقَّت.

سرنا خارجين من المُطِلِّ، ووالدي ينهي روايته حول كنيسة الأميرة النائمة في حضن جبل الزيتون: «الحكايات والأساطير تعيش في نُسْغ التاريخ بفلسطين، ولا تتوقَّف، في عام 1915م، مثلاً زعم أحد الرواة، أنه أُلهم إليها ببناء كنيسة مكرَّسة لقلب يسوع الأقدس في القُدْس، لأنه بهذه الطريقة ستنتصر فرنسا في الحرب، ويستقرُّ العالم، ويعيش بسلام، ولكنْ، لا أحد استطاع إكمالاً لكنيسة، لأن المغارة هي لجميع أصحاب المسيح، ولا أحد يستطيع أن يحتكرها لنفسه، هكذا قيل. لم تُكمَل الكنيسة، ولم يحلَّ السلام في العالم، والمدينة التي دبَّ في شوارعها نبيُّ السلام، أو نبيُّ القلب، ما زالت تفتقد سلامها الخاصَّ، وكُلُّ جهة تريد احتكارها لنفسها، فيزيد الألم، ويتعمَّق، ودائماً ما ينسون بأن لها أهلاً وناساً. إنهم ينسون سكَّانها».

السبعون

بعد بضعة أمتار، نظر والدي إلى دَرَج، وقال وكأنه تذكَّر شيئاً: «عليكَ أن تدخل إلى هذا المكان، سنُسلِّم على العمِّ صالح».

نزلتُ في ذيل والدي على الدَّرَج القصير، ودخلنا إلى ما بدا أنه حوش مسكون بعدَّة عائلات، ولكنَّ اللافتة على المدخل تشير إلى موقع باسم قبور الأنبياء وسط المنزل، أصبحنا أمام مدخل أعلى دَرَج، يفضي إلى قبوٍ مركزيّ، دخلنا، وألقى والدي التحيَّة على العمِّ صالح، وهو رجل بلحيةٍ بيضاء، ممتلئ الجسم قليلاً، رحَّب بوالدي ضاحكاً، وأخذه في حضنه وهو يقول: «أهلاً برائحة الحبايب والصداقة العائليَّة التي لا تموت».

ردَّ والدي بعبارات مجاملة، وعندما دخل سائح وسائحة، تَرَكَنا العمُّ صالح، ليستقبلَ الضيفَيْن باشّاً، قائلاً لهما بأن رسم الدخول لكلِّ فرد هو خمس ليرات، وتحدَّث معهما بالإنجليزيَّة بتواصل ودون تلعثم، وكأنه يُلقي نصَّاً مُلزَمَاً بحفظه، عن الموقع المحفور في الصخور، والذي حدَّده اليهود في القرون الوسطى بأنه يحوي قبور الأنبياء زَكَرِيَّا، وحَجِّي، ومَلَاخِي، وأنا أسمع بالاثنَيْن الأخيرَيْن، لأوَّل مرَّة.

تصاغر والدي، ليصل إلى قامتي، فحضنَني، وهو يترجم لي ما يقوله العمُّ صالح: «بعد تحديد هُوِيَّة ساكني القبور من قِبَل اليهود، تبنَّى المسيحيُّون ذلك، ولم يكن أفضل من هذا المكان المميَّز بتِقْنِيَّة القبور المحفورة، وإطلالته على مدينة القُدْس، ليُنسَبَ لشخوصٍ توراتيَّة، تنبَّهت الكنيسة الأرثوذكسيَّة الروسيَّة للموقع، في أواخر القرن التاسع عشر، واشترتْهُ من عائلة العمِّ صالح، لبناء كنيسة في المكان الاستراتيجي المُطِلِّ على

بلدة القُدْس القديمة وسِلْوَان ووادي الجوز، إلَّا أن احتجاجات يهوديَّة على الخطط الروسيَّة نقلت القضيَّة إلى المحاكم، وفي عام 1890م قضت محكمة عثمانيَّة، بأن صفقة الشراء مُلزِمَة، وتراجع الروس عن بناء الكنيسة، ووافقوا على عدم عرض رمز أو أيقونات مسيحيَّة في الموقع، وأن يظلَّ متاحاً لجميع الناس من مختلف الديانات».

أشار العمُّ صالح للضيفَيْن بالدخول من النفق الأيمن، ويدوران، ليكتشفا بأنفسهما أكثر من ثلاثين قبراً محفوراً في الصخور، إضافة إلى كهفَيْن، وليعودا، إلى نفس المكان الذي انطلقا منه، وأعطاهما شمعتَيْن.

بعد أن أنهى العمُّ صالح مع الزائرين، نظر إلينا، مواصِلاً كلامه، وكأنه لا شيء اعترض تواصلنا، ولكنَّ سيرة القبور والأنبياء هي التي طغت الآن على الحديث. قال والدي:

– إلى أيِّ مدى أنتَ واثق بأن هذه القبور تخصُّ أنبياء يهود؟

ردَّ العمُّ صالح، وكأنه توقَّع هذا السؤال، أو أنه أجاب عليه مراراً:

- علماء الآثار، أعادوا تاريخ الموقع إلى القرن الأوَّل قبل الميلاد، في حين يُفترَض أن الأنبياء المذكورين في التوراة الذين نُسب إليهم الموقع عاشوا قبل ذلك بقرون.

– يعني أنه ليس له علاقة بهم؟

سأل والدي، فرحاً، لعدم وجود علاقة لأنبياء يهود بقطعةٍ من أرضنا، وسألاحظ لاحقاً، مثل هذا الفرح لدى ناسنا، عندما يسمعون عن فشل الحفريَّات الأثريَّة الإسرائيليَّة في إثبات علاقة لليهود بأرضنا.

- كثير من المواقع ليس لها علاقة بهم وبنا وبغيرنا. الديانات الإبراهيميَّة الثلاث استحوذت على تاريخ القُدْس، وعلينا أن نُسايرَهم، ويعرف الجميع الحقائق، ولكنهم يُفضِّلون عنها التخيُّلات.

سمعنا صوتاً يُلقي السلام، ولكنني لم أتنبه لصاحب الصوت، حتَّى نزل درجات المدخل، وسلَّم علينا مُصافِحاً، وعندما عرفني، خصَّني بسلامٍ حارٍّ، ضاغطاً على يدي قائلاً:

– أنتَ أيضاً هنا، أيُّها المكتشف الصغير؟

لم يكن الزائر سوى العمِّ جورج، ابن الجَدِّ جريس، الذي تعرَّفتُ عليه في كنيسة القيامة، وقد تذكَّرني، ولاحظتُ بأنه أطال شَعْره، وأطلق لحية صغيرة، وبوجهه الأبيض المُشرَب بحمرة، بدا أنه يشبه السيَّاح الأجانب.

عرَّف العمُّ صالح والدي على العمِّ جورج، قائلاً بأنه فنَّان ومثَّال، سيكون له شأن، ولكنه طارح للأسئلة، ومن الواضح أن روما أثَّرت عليه.

رحَّب والدي بالعمِّ جورج، وتبادلا معاً بضعة جمل، ذكَّرا أنفسهما، بأنفسهما، وقال والدي، إنهما التقيا قبل ذلك، قرب مار إلياس، في طريق القُدْس الجديدة بعد النكبة، قبل سفر العمِّ جورج إلى روما.

أشرك العمُّ صالح العمَّ جورج في النقاش الدائر مع والدي، فقال العمُّ جورج:

– لا يجب أن ننساق إلى سلاحهم، وعلينا تحييد علم الآثار، فلا هو ولا أيُّ كتاب مقدَّس يعطي حقَّاً لشعبٍ، في أرض شعب آخر ..!

انتبه العمُّ صالح، لصوتٍ بدا كأنه ارتطام، فنظر إلى الخلف، ورفع صوته متسائلاً إذا كان حدث شيء، وعاد ليُكمِلَ قصَّة الموقع:

- اكتشف الآثاريُّون في الموقع نقوشاً يونانيَّة، تؤكِّد بأن القبور أُعيد استخدامها في القرنَيْن الرابع والخامس الميلاديَّيْن، من قِبَل المسيحيِّيْن، ومن بين هذه النقوش: «ضَعْ إيمانكَ بالله، لا مخلوق بشري خالد». وأنا أقول دائماً لمَنْ يسألني إذا كانت القبور تخصُّ الأنبياء حقَّاً، ضع حقيقتك محلَّ اختبار، ثمَّ قرِّرْ، فلا مخلوق بشري يعرف حقيقة هذه القبور حقَّاً.

لم يوافق العمُّ جورج على ما قيل، مؤكِّداً بأن تطوُّر تِقْنِيَّات علم الآثار، قادرة على كشف الكثير، بينما استمع والدي باهتمام لحديث العمِّ صالح، وهو يؤكِّد فرادة هذه القبور، والتِّقْنِيَّة التي استُخدِمَت فيها، ووافق العمُّ صالح والدي على ذلك.

تدخَّل العمُّ جورج:

– رغم فرادة الموقع، الذي يبدو كمقبرة عائليَّة، أو مَلَكِيَّة، إلَّا أنه لا يختلف كثيراً عن القبور التي اكتُشفت في المناطق المحيطة بالقُدْس، وتعود إلى الفترة الرومانيَّة

المبكِّرة في فلسطين، ما بين القرن الأوَّل قبل الميلاد والقرن الأوَّل بعد الميلاد، وتمكَّن الآثاريُّون من تحديد نحو 900 مقبرة عائليَّة و60 مقبرة فرديَّة، في محيط يبعد نحو 4 كلم حول القُدْس. ومعظم هذه المقابر محفورة في الصخر، ووُثِّقَت محتوياتها من التوابيت، والفخاريَّات، والأوعية الزجاجيَّة، والأوعية الحجريَّة، والعُملات الشخصيَّة، والعظام البشريَّة، بالإضافة إلى النقوش والأسماء، ونُشِر ذلك بلغات مختلفة، من بينها الإيطاليَّة.

- هذا كلام مُهمٌّ ..!

وافق العمُّ صالح العمَّ جورج على قوله، وتدخَّل والدي:

– لا شكَّ بأن هذه البحوث ترسم صورة منوَّعة لسكَّان القُدْس في تلك الفترة، من خلال معرفة عادات الدفن، وكذلك عن طبيعة المدينة. علَّ منَّا مَنْ يتنبَّه ويدرس ويحلِّل، ويقدِّم حكايتنا عن مدينتنا، بدلاً من تركها للآخرين الإسرائيليِّيْن، أو الذين يأتون من خلف البحر، يحفرون، ويستخرجون، ويقرِّرون، وينشرون.

عاد السائحان من جولتهما، ونقدا العمَّ صالح بدل رسوم الدخول، التي تناولها باشَّاً راسماً ابتسامة يبدو أنه تعوَّد على رسمها في مثل هذه الحالات.

وبينما كان السائحان يصعدان الدَّرَج خارجَيْن، بتراخٍ، سأل والدي، وكأنه تنبَّه لأمرٍ ما، عن علاقة الروس الحاليَّة بالموقع، فأجاب العمُّ صالح:

- كما ترى أنا مَنْ أُدير الموقع، ولا يتدخَّل الروس في عملي، خصوصاً وأن علاقتهم ساءت كثيراً مع اليهود، بعد الحرب، إثر قطع العلاقات الدبلوماسيَّة، وعانوا من اعتداءات على أديرتهم، حيث قُتِلَت راهبات، وزعمت حكومة الاحتلال أن مرتكبي الجرائم أفراد متطرِّفون، تصرَّفوا منفردين، في حين أُقدِّر بأن ذلك غير صحيح، وأعتقد أن الحكومة أرادت توجيه رسائل مختلفة للروس، وهناك مَنْ يفترض أن القتيلات عملنَ لصالح المخابرات الروسيَّة، وأن إسرائيل أرادت أن تُوصِل، بقتلهنَّ، رسالة شديدة، بأنها لن تتهاون أبداً.

هزَّني الحديث عن قتل الراهبات، وأدخلني في نفق، بدا لي غامضاً، وشعرتُ بأنني أحتاج إلى الكثير، لأعرف عن ما يجري في القُدْس.

صَمَتَ العمُّ جورج، وهو يستمع باهتمام، ولم يُعلِّق، بينما أخذ العمُّ صالح يشرح عن الانقسام في الكنيسة الروسيَّة، بين الحمر، أنصار الثورة الشيوعيَّة، والبيض المناهضين لها، ولم أفهم كثيراً ما قيل، وأكَّد العمُّ صالح فوائد مِلْكِيَّة الروس للموقع:

- لو أن الموقع ما زال بأيدينا، وباسمنا، لسيطر اليهود عليه فوراً، وهودوه، مثلما يفعلون حولنا، من بناء القبور اليهوديَّة، التي حاصرتْنا بالفعل، ومَنْ يدري ماذا سيحدث غداً؟

ودَّعْنا العمَّ صالح، والعمَّ جورج، وعُدْنا إلى حيث أوقفْنا المَرْكَبَة أمام المستشفى، نزلنا من طُرقة ضيِّقة، نحو الجُثْمَانِيَّة، تنتشر قبور اليهود على جانبَيْها، وكنيسَتَي الدمعة، ومريم المجدليَّة، ما كان مثيراً هو الحجارة الصغيرة على قبور اليهود، التي تظهر وكأنها بقايا لعبة داما قديمة، لم يُكمِل اللاعبون فيها اللعب. قال والدي: «كلُّ مَنْ يزور قبراً يضع عليه

حجراً صغيراً؛ صرارة، يتناولها من أرض المقبرة أو يجلبها معه، ومع تجمُّع الصرار على القبر، يمكن لساكنه أن يعرف مِنْ عددها معزَّته لمَنْ تركهم خلفه، ويريد كلُّ زائر أن يؤكِّد حضوره، حتَّى عندما يلتقي بعزيزه الميت، بعد أن يموت، سيُخبره بأنه لم ينسه، ولم يُقصِّر بحقِّه، والدليل الصرار التي وضعها على القبر، الذي إذا حكى، فإنه سيشهد على حبِّه وإخلاصه».

تذكَّرتُ اليهود المتديِّنين، الذين يزورون قبراً في كهفٍ صغير أمام مدرستنا، وعندما نقتفي أثرهم بعد أن نُنهيَ الدوام، نرى الصرار الصغير على القبر، فنزيلها عابثين، بما فعلوه، تدفعنا شيطنتنا وكرهنا لوجودهم على أرضنا.

لم يكن عدد الصرار على القبور متساوياً، وبعض القبور لم يكن عليها أيُّ صرارة؛ إنها علامات الحُبِّ التي يقس بها، بعدد الصرار، السائرون فوق الأرض أو المدفونون تحتها.

سرنا بموازاة وادي النار، ووصلنا إلى العَيْن؛ بعد أكثر من ساعة ونصف من مغادرتنا، عدنا إلى منزل أُمِّ السَّبْع، التي بدت مُنهكَة، وكأنها استكانت إلى مصيرٍ مظلم، لا أمل بإضاءته.

قدَّم والدي تقريراً موجزاً عن حالة السَّبْع، مضيفاً من عنده ما يرفع المعنويَّات، وقال ضاحكاً: «السَّبْع بسبعةِ أرواح، إذا كان نجا من انتقام الجنود الإسرائيليِّيْن، بعناية إلهيَّة، فهل سيتخلَّى عنه الله في محنته هذه؟».

قالت أُمُّ السَّبْع مستنكرة: «ومَنْ قال إنه نجا؟».

ردَّ والدي: «الله يعلم ما في القلوب، وما تخفيه السرائر. إنه فقط يجرِّب السَّبْع، الذي سيخرج أقوى من قبل، مُقبِلاً على الحياة والناس، لا تقلقي، يا خالتي».

صَمَتَتْ أُمُّ السَّبْع، وكأن الكلام، هذه المرَّة، لا يعنيها.

الواحد والسبعون

في المنزل؛ كانت أُمِّي تنتظرنا، وقد حضَّرت العشاء، وعندما دخلنا المنزل، سألتْ لتطمئنَّ على حالة السَّبْع، ثمَّ أعلنتْ بأن الطعام جاهز.

لم أكن أفكِّر بالطعام، كنتُ ما أزال مأخوذاً بحكايات ملك قديم، وأميرة نائمة، فبدأتُ أروي لها ما سمعتُهُ عن الملك سليمان، بينما والدي يراقب مبتسماً، وأُمِّي تُلحُّ على تناول الطعام أوَّلاً، ثمَّ الحديث عن ما أريد من مواضيع.

تدخَّل والدي:

- سأعدكَ بأن كافلاً سيأكل حتَّى يُصابَ بالتخمة، إن تمكَّنتِ من كسبه، كما أفعل، برواية الحكايات، احكِ له حكاية.

تشجَّعتُ بهذه المقايضة، وقد لاح أمل تأجيل ازدراد الطعام، وألححتُ وأنا أُمسك ثوب أُمِّي، وأضع رأسي على بطنها:

– احكِ لي حكاية، أرجوكِ ..!

ووسط الابتسامات والأصوات، وافقت أُمِّي:

- تعال هنا، اجلسْ بجانبي، وأنتَ، يا رجل البيت، لا تتدخَّلْ، فقط اسمعا ..!

وسمعنا: «كما أصبحتَ تعلم، فإن النبيَّ سليمان، عليه السلام، مُنح القدرة على تسخير الإنس والجنِّ، والطيور، والحيوانات، وعندما بدأ ببناء قصره في القُدْس، أراده مفخرة القصور، حتَّى تُسحَر به بدر البدور، بلقيس

ملكة اليمن، عندما يطلبها، فتأتي بين رمشة عين وإغماضها، فشغَّل كلَّ جسم يطير، أو على الأرض يسير، وويل لمَنْ يفكِّر بمخالفة أوامر سَيِّدنا سليمان، فالعقاب له بالمرصاد، وفي مرَّة ألحَّ رئيس العمَّال على مقابلة النبي سليمان المشغول بشؤونه وشؤون خلق الله، وعندما تسنَّى له ذلك، طلب سيِّدنا سليمان منه أن يقول ما عنده بسرعةٍ، ودون تأخير، فأخبره رئيس العمَّال، بأنه لاحظ بأن أحد النسور، أصبح كثير التأخُّر عن العمل، رغم أنه كان من أكثر المُجدِّين، وطلب من النبي سليمان الإذن باتِّخاذ ما يلزم ضدَّه، ولكنَّ سليمان، الذي اشتُهر بحكمته وتعقُّله، طلب من رئيس العمَّال التريُّث، وعدم اتِّخاذ أيِّ إجراء، حتَّى يصله أمر النبي، الذي قرَّر أن يراقب النَّسْر بنفسه، فهو لم يكن ليطمئنَّ لأيِّ كلام من حاشيته، خشية أن يكون خلفها غايات معيَّنة، ولحظ فعلاً أن النَّسْر المقصود يحطُّ في موقع العمل، متأخِّراً، وينظر حوله، ليتأكَّد أن لا أحد لاحظ تأخُّره، ثمَّ ينضمَّ للعمَّال، فقرَّر سيِّدنا سليمان استدعاء النَّسْر الكسول بعد جدٍّ، والمتباطئ بعد كَدٍّ، وعندما مَثَلَ النَّسْر بين يدَي سيِّدنا، خائفاً، ومرتجفاً، طمأنه سيِّدنا، وأمره بأن لا يخاف، والمطلوب منه فقط، أن يُبرِّر تأخُّره، وكسله في العمل، وكثرة تأمُّله وضيقه، بعد أن كان مُجِدَّاً، مُحِبَّاً لعمله، والمهمُّ أن يقول ما لديه بدون كذب، فليس مثل الكذب يمكن أن يوديَ بصاحبه إلى التَّهْلُكَة، خصوصاً في مملكة سليمان العادلة. وافق النَّسْر، وبعد أن نفض جناحَيْه الطويلَيْن تحيَّة لملك الإنس والجنِّ والطير والحيوان، قال: يا سيِّدي سليمان، يا مالك الأرض ومَنْ عليها، من إنس وجان، الذي يسمع همس النمل، ويعرف دبَّة الجمَل في أيِّ أرض تكون، ويستشعر مواطن الجمال، حتَّى لو كان في اليمن السعيد، ويعرف أنواع النساء. يا سيِّدي، في عُشِّي، تعيش والدتي المُسنَّة، وقد وهنت، وكُسر جناحاها، وتهدَّلا، وسقط ريشها، فلا تقدر على الطيران، ولا الاعتناء بنفسها، وهي التي طالما اعتنت بي، ولم تجعلْني أجوع صغيراً، بعد أن غادر والدي العُشَّ،

ولم يعد حتَّى الآن، ولا نعرف عن أراضيه شيئاً، وعلَّمتْني الطيران، لأعتمد على نفسي، ولم تُكلِّفْني شيئاً لنفسها، والآن فإنني في كلِّ صباح أجلب لها الطعام طازجاً، بعد أن أطير وأعود إليها حاملاً ما أراد لي الله صيده، وأضعه أمامها، وأساعدها في ازدراده، وبعد أن أغطِّيها وأطمئنَّ عليها، أنظِّف نفسي، وأطير إلى موقع القصر، ولكن عقلي ليس هنا، وإنما هناك، هذه قصَّتي، يا مولاي».

اعترض والدي، قائلاً بأن الحديث في الحكاية الأصليَّة عن والد النَّسْر، وليس عن أُمِّه، ولكن أُمِّي واصلت، وكأنها لم تسمعه:»..وبشكلٍ لم يتوقَّعه النَّسْر المهموم، ضحك سَيِّدنا سليمان، وأثنى عليه، لبرِّه بوالدته، وجزاءً له على ذلك منحه إجازة مفتوحة ورخصة بحمل والدته، وقت ما أراد، وجلبها إلى حدائق سَيِّدنا التي كانت بقريتنا في ذلك الزمن، مكان البساتين التي نزرعها حاليَّاً، والترويح عنها».

رغم أن النعاس كاد أن يغلَبني، إلَّا أنني عرفتُ ما تريد أُمِّي إيصاله إليَّ، لقد كانت تعرف بما سنواجهه سويَّاً في مقبل الأيَّام، النساء يعرفنَ، ويُدركنَ، ويحدسنَ، أمَّا أمثالي من الأولاد، فلا يعرفون.

لاحظ والدي بأن حكاية أُمِّي فعلت سحرها بي، فتدخَّل منافساً لها، بحكايةٍ أخرى، قال بأن الكاتب الروسي تولستوي خطَّها بعد أن قطعت جبالاً ووِدياناً وبحوراً، من قُدْسنا، إليه هناك بعيداً، في بلاد الثلج.

«في زمن القِدِّيسين والأتقياء، الذين كانت القُدْس تَنْغَلُ بهم، عاش الأخوان جان وجون كزاهدين مؤمنين، على جبل الزيتون، ينزلان كلّ صباح إلى القُدْس، ليعملا، ويعودا مساءً، ويقضيا يوم الأحد في البيت، يُصلِّيان، ويدعوان الله، أن يديمَ عليهما حُبَّه ورضاه عليهما، وسعادتهما بحياتهما.

وفي صباح أحد الأيَّام، نزلا إلى القُدْس، وقبل وصولهما الجُثْمَانِيَّة، افترقا كلٌّ إلى عمله، وفجأة لاحظ جان بأن شقيقه جون تسمَّر في مكانه،

ينظر إلى شيءٍ ما، واستغرب معتقداً بأن أمراً مريباً حدث لشقيقه، فتقدَّم إليه، ليرى ما يستوجب الدهشة والتسمُّر؛ إنه لَمَعَان أصفر يعمي العيون، وأدرك جان بأن شقيقه لا يعرف كيف يتصرَّف بهذه الأكوام من الذهب، فخاطبه قبل أن يصل إليه، بأنه لا بأس بالذهب، إذا كان سيُستخدَم في مصلحة الناس، ولكنَّ جون سار وكأنه لم يسمع كلام شقيقه، الذي عندما وصل إلى الأكوام اللامعة، كان يعرف ما عليه فعله، بعكس شقيقه الزاهد، فخلع ثوبه، وعبَّأه بالذهب، وأكمل طريقه إلى القُدْس، وأودع ما جمعه من ذهب لدى صاحب نُزُلٍ يعرفه ويثق به، وعاد مرَّة أخرى ليجلب ما تبقَّى من الذهب، وعندما

أيقن أنه جمع كلَّ الكَنْز الذي اعتقد أن الله أرسله له، قرَّر أن يهبه لخلق الله، فاشترى أرضاً، وبنى ثلاث بنايات كبيرة، واحدة لإيواء الأرامل والأيتام، ومصحَّاً للمرضى، والبناية الثالثة خصَّصها للحُجَّاج الذين يأتون إلى القُدْس وللمتسوِّلين الذين جمعهم من شوارع المدينة، واستدلَّ على ثلاثة شيوخ أتقياء، فأوكل لكلٍّ منهم إدارة واحدة من البنايات الثلاث، وأعطاهم ما تبقَّى من ذهب بقي لديه، وبعد ثلاثة شهور قضاها في القُدْس، أنجز عمله، صَعِدَ إلى جبل الزيتون، ليلتقيَ شقيقه، ويستأنف معه حياتهما السابقة، وفي الطريق، قرب كنيسة الدمعة، ظهر له ملاك الربِّ، حزيناً غاضباً عليه، لأنه أخذ الذهب، وكان عليه أن لا يفعل، مثل شقيقه التقي، حتَّى لو أنه استخدمه في أمورٍ خيِّرة، وأخبره الملاك بأن الشيطان هو مَنْ وضع الذهب في الطريق، لكن شقيقه تغلَّب على الإغواء، بينما جان لم يقاوم، فلم يقتنع جان بما قاله الملاك، وحاول أن يدافع عن نفسه، بينما الملاك يقرِّعه قائلاً: أنتَ لست جديراً بالعيش مع جون الذي وهب نفسه إلى الله، وكان على جان أن يدرك، بأن ما فعله لم يكن بإرادة الله، وإنما استجابة لأوامر الشيطان، وها هو الملاك بنفسه يخبره ما أراد الله، فبكى متضرِّعاً طالباً الغفران، نادماً، فأخلى الملاك الطريق أمامه، وسمح له

بالالتحاق بأخيه في منزلهما، وفي اليوم التالي، كان جان وجون يستأنفان سيرتهما الأولى وسعيهما لإرضاء الله، ونبذ الشيطان وسُبُله».

نمتُ وقد شبعتُ من الحكايات التي طوَّحتني إلى سباتٍ عميق، فلم أستيقظ منه إلَّا صباح اليوم التالي، آملاً، ولا أعرف لماذا لا يريد الله، استخدام الذهب في أمور الخير؟ وبدلاً من المضي للإجابة عن هذا التساؤل، اكتشفتُ أن أُمِّي قد حضَّرت الفطور، ولم تفكِّر بتحضير حكاية لي، وكأن ما جرى بالأمس يظلُّ هناك.

إنها لا تنسى أبداً تحضير الطعام ..! أمَّا أنا، فأملتُ لو أن الله يضع في طريقي كومة ذهب، لأعطيتُ جزءاً منه لوالدَيَّ، وفعلتُ بالباقي مثلما فعل جان.

الثاني والسبعون

عاد السَّبْع إلى عمله دليلاً سياحيَّاً، دون ثقة من والدي بأن قريبه عرف طريقه أخيراً، بعد فترة نقاهته التي أمضاها في منزله، واستقباله الأقرباء والأصدقاء والفضوليِّيْن، ولكنَّ حماسة السَّبْع لم تعد كما كانت، مع استمرارِ حَرَد زوجته، ورفضه تطليقها، رغم نصائح والدي بتلبية رغبتها، ونسيان جنس النساء مرَّة واحدة وإلى الأبد، قائلاً له: «الحياة، بدون نساء أحلى، اسأل مجرِّباً»، ولكن السَّبْع أراد أن يُثبت لنفسه، ولزوجته، وللناس، أنه مع متَّسعٍ من الوقت، سيكون رجلاً، كامل الفحولة، وكان على يقين، على الأغلب، بأنها فرصته الأخيرة، التي لا يجب أن يُضيِّعها.

لم أعد أرى السَّبْع كثيراً، كما في السابق، وحتَّى والدي لم يعد لديه الاهتمام نفسه بقضيَّة قريبه وصديقه المتعِب والمتعَب، إضافة إلى أن اعتداء السَّبْع على إسماعيل، ومعضلته مع المخدِّرات، أصابتا والدي بنفور نسبيٍّ منه، وكان لديه ما يشغله، ويجعله يعود متأخِّراً إلى المنزل، ويتجنَّب اصطحابي معه، في العطل الأسبوعيَّة، إلى المُصْرَارَة، كي أساعده في العمل.

واستغلَّ كلَّ وقت متاح له في المنزل، ليتحدَّث معي، ويروي لي حكايات القرية، واصطحبني إلى وادي جهنَّم، وتسكَّعنا بالقرب من طَنْطُوْر فرعون، والأضرحة الأخرى، ودخلنا نفق العَيْن، ووصلنا إلى البِركَة، وصَعِدْنا غرباً إلى وادي الربابة، وقال لي ونحن ننظر إلى الوادي: «عام النكبة، كنتُ صغيراً مثلكَ الآن، أو أكبر قليلاً، وأنتَ في موقف مشابه، تشهد النكسة، فجأة ورغم انشغال الناس بالمعارك، والشهداء، لاحظنا نزول عدد من

الرجال من وادي الربابة هذا، وتبيَّنَّا لاحقاً، أنهم لم يكونوا سوى البرص والمجذومين، المرضى في مستشفى البُرْص والجُذَام في الطَّالبِيَّة، الذي كان يضمُّ المرضى العرب واليهود، ويُعتبر مستوطنة وحيدة، تجمع العرب واليهود المرضى، الذين كان الناس يخشونهم، خوفاً من العدوى، ولكنْ، بعد احتلال الطَّالبِيَّة، وسيطرة العصابات الصهيونية على فِلَلِها وقصورها الفخمة، وعلى مبنى مستشفى البُرْص الكبير والمميَّز الذي صمَّمه صاحبنا كونراد شيك، تفكَّكت المستوطنة».

همستُ: «العمُّ كوكو ..!»

ابتسم والدي، وأضاف: «ماذا يمكن أن يفعل ناسنا بهؤلاء المجذومين والبُرْص، والنَّار تشتعل فوق القُدْس؟ أين يمكن إيجاد مبنى مثل الذي طُردوا منه مكوَّناً من طابقَيْن، وحوله بضعة دونمات، تطلُّ نوافذه المقوَّسة والأنيقة وشرفاته على الحدائق المزروعة بالفاكهة؟».

مشى والدي قليلاً مُطرِقاً، وخشيتُ أنه نسي ما كان يتحدَّث عنه، فسألتُهُ عن ما حصل للمساكين المجذومين والبُرْص، فتنهَّد وقال: «أخيراً تحمَّلتِ العبءَ الكنيسةُ الموارافيَّةُ التي أدارت المستشفى، ووضعت المرضى المساكين في الحجر الصحِّيِّ. فمفاجآت الحروب لا تخطر على بال، وعندما يُشعلها مَنْ هم خارج أسوار المشافي، والأديرة، وملاجئ العَجَزَة، لا يكون لديهم الاستعداد أبداً لتحمُّل تبعات أفعالهم، هناك من المجذومين مَنْ هربوا إلى الجبال، خشية من الناس، الذين سيلاحقونهم، وربَّما يقتلونهم، ومَنْ سيحاسب مَنْ في غمرة المعارك، وتصاعد النار وانتشارها واستعارها في كلِّ مكان في القُدْس وحولها؟؟».

وحكى والدي عن سيل اللاجئين الذين شرَّدتهم الحرب، ولجؤوا من قراهم غرب القُدْس، وهاموا مصدومين، إلى قريتنا: «كما قلتُ لكَ مفاجآت الحرب ومفارقاتها، لا تخطر على بال، فمن بين اللاجئين، كانت

امرأة ترتدي الثوب الفلَّاحي، ولكنْ، تبيَّن لنا أنها يهوديَّة، متزوِّجة من لاجئ، فلجأت معه، وعاشت في القرية، البعض تعامل معها كيهوديَّة، وبعضنا الآخر كمسلمة، وعندما ماتت، دُفنت في مقبرة باب الرحمة».

وعندما سألتُهُ عن هُوِيَّتها، فوجئتُ عندما أخبرني، بأنها جَدَّة الشهيد موسى لأُمِّه، قائلاً، بأنه من الجيِّد أنها رحلت قبل أن تشهد رحيل حفيد لها في مثل سنِّه الصغير، وتشرب حسرته، برصاص بني جنسها.

وأضاف: «في فترةٍ، تعاملنا معها نحن الأطفال، كمجنونةٍ، أو نصف مجنونة، عندما نُهرع خلف الكبار إلى منزلها، بعد إشعالها النار. كانت مصابة بوسواس قهري، يجعلها تُشعل النار، وعندما ننظر إلى سقف منزلها وجدرانه، نرى السواد الذي يُغطِّيها، والناتج عن إشعال النار، أعتقد الآن، أنها ربَّما عانت من غربةٍ عميقة، وهي تعيش كعربيَّةٍ، أو زوجةٍ لعربيٍّ، تشردَّت معه على يد قومها السابقين، وفَقَدَا أملاكهما ومنزلهما، وعيشتهما المستقرَّة في قريتهما، أتذكَّر أن مأساتها تفاقمت، بعد أن عاشت سنوات طويلة، بعد وفاة زوجها، لتقضيَ، في النهاية، محروقة بالنيران التي أشعلتْها».

الحكايات الحزينة، يرويها والدي بشجنٍ، ولكنه لا يتوقَّف عندها طويلاً، فينتقل إلى غيرها، وكأنه بسرعة طَوْيِهَا يطوي ما يمكن أن تخلِّفه من حزنٍ وألم لديَّ.

قال والدي: «بيتُ جَدِّكَ كان في حارة اليمن، التي أخذت اسمها من وجود اليهود اليمنيِّيْن فيها، كما أصحبت تُعرَف، جاؤوا من اليمن، ولم يسكنوا في الأحياء اليهوديَّة، وفضَّلوا العيش معنا عرباً بجانب عرب، العادات والتقاليد نفسها، ويمكن لي أن أرسم لكَ صورة ورديَّة عن ذلك التعايش، وهو ما حدث بالفعل، فكثير من أبناء الحارة المسلمين رضعوا من أثداء الأُمَّهات اليهوديَّات، وحدث العكس أيضاً، واستمرَّ هذا التعايش

حتَّى الثورة الكبرى، لم تكن العصابات الصهيونية، لترضى بهذا النموذج، فبدأتْ بإطلاق النار على منازل اليهود، واستمرُّوا بذلك، حتَّى هجَّروهم، مجبرينهم على ترك قريتنا، قد تسأل ماذا فعلنا لنمنع ذلك؟ في الواقع لم يستطع أهلنا فعل أيِّ شيء، وهم قليلو الحيلة، ويواجهون ما تُدبِّر لهم بريطانيا، التي لم تفعل شيئاً بحقِّ المجرمين مطلقي النار من الصهاينة، على يهود اليمن».

أضاف والدي عن والده: «كان لدى والدي مرارة، وخلتُهُ متحمِّساً أكثر من اللازم لذلك التعايش الذي يتحدَّث عنه، فهو عندما يحبُّ شيئاً أو يتحمَّس له، يراه مثالياً: «عندما قرَّر جَدِّي شراء منزل جاره اليهودي، فأخذ جَدَّكَ، ونزلا إلى تلِّ أبيب، بحثاً عن صاحبه كريم، الذي أضحى اسمه كُوْهِين، في بيئته الجديدة، وعندما التقياه، رحَّب بهما كأخوَيْن له، وسلَّمهما صكَّ المِلْكِيَّة، وقبل الدفعة الأولى، وطلب منهما أن يُكمِلا الدفع، بدون أن يضغطا على أنفسهما، وهو ما حدث».

ومع سرعة الأحداث والتوتُّر والقتل، لم يعد أحد يرى الآخر، ولم يعد أيٌّ من اليهود اليمنيِّيْن، إلى قريتنا زائراً، أو سائلاً، وروى لي والدي، كيف أنه عندما سمع خبر انتهاء الحرب العالميَّة الثانية بهزيمة هتلر من الراديو الوحيد الموجود في بيت المختار، صَعِدَ إلى القُدْس، وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً، فنشرة الأخبار التي يستمع إليها الأهالي، تأتي على التاسعة، ويكون ذلك إيذاناً، بعودتهم إلى منازلهم، والنوم، ليستيقظوا مبكِّرين، ويذهبوا إلى حقولهم، ولكن جَدَّكَ المهموم لم يستطع النوم، ومن القُدْس القديمة توجَّه إلى شارع يافا، حيث رأى المحتفلين اليهود متجمِّعين في الشارع، يرقصون، ويهتفون بأن دولتهم اقترب تأسيسها، فراقب جَدُّكَ الأمر وهو يزداد غُصَّة، ويتساءل عن مصيرنا نحن أصحاب البلاد، وفجأة التفت إلى شخصٍ يربِّت على كتفه، ولم يكن إلَّا مجايله وجاره موسى اليهودي، وبعد أن تصافحا، وتذكَّرا الأيَّام الماضية، قال له

موسى، بأن الصهاينة كسبوا الجولة الكبرى، وليس لليهود أبناء البلاد أمثاله، إلَّا الذوبان مع التوجُّه الجماعي، وتصافحا وودَّعا بعضهما، وانتقل الجَدُّ إلى منطقة فندق الملك داود، وجمعيَّة الشبَّان المسيحيَّة، ومثلما كان الحال أمام سينما صهيون وساحة صهيون، وجد اليهود يرقصون، ويُلوِّحون بأعلامهم، وكاد القهر يقتله، وهو يشعر بأن فلسطينه ذهبت، وانتهى الأمر، وبقي يتجوَّل حتَّى الحادية عشرة، وعاد إلى قريتنا من وادي الربابة، وجلس مهموماً وكأن الظلام المخيَّم على الوادي استوطن روحه، ونزلت دموعه وهو يتساءل: ماذا حدث لنا؟ أين سنذهب؟ ما هو مصيرنا؟ وعندما وصل أخيراً إلى المنزل، وجد والده ينتظره، فأخبره بما رأى وبما سمع، وكيف أن ما سمَّيناهم يهود اليمن، هم وسط اليهود، يهود البلاد، وقد حسموا أمرهم، وكان يشعر بأن العالم أيضاً حسم أمره إلى جانبهم، فبعد اليوم، لن يكون هناك يونس البحري يصدح من إذاعة برلين العربيَّة، ويُصدِّقونه، لقد أصبح العالم عالماً واحداً يقف مع اليهود، أمَّا المفتي الذي وضع ثقله في حضن هتلر، فخسر، وخسرنا معه الرهان».

ونحن نمشي، لاحظ والدي ثعلباً يركض، ونبَّهني لأرى كيف يركض، ثمَّ يقف وينظر إلينا، وشرح لي قليلاً عن الثعلب الأحمر، وكيف أنه شخصيَّاً يحبُّه، لذكائه، وعدم غروره، وتقديره المحسوب لإمكانيَّاته، وكأنه يُمرِّر لديَّ درساً، علَّني أستفيد منه في الأيَّام المقبلة.

قال والدي وكأنه يستأنف حديثه السابق: «قال جَدِّي لجَدِّكَ، عندما استمع له مقهوراً: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، ولكنْ، ما شغل والدي، هو انتصار بريطانيا في الحرب، وتحرُّك العصابات الصهيونية، ولكننا لم نتحرَّك، نسفوا جناحاً في فندق الملك داود، مستهدفين البريطانيِّيْن، وفجَّروا نادياً ليليَّاً، فسقط على رؤوس الجنود البريطانيِّيْن وضبَّاطهم، وسقط شهيد من قريتنا يعمل سفرجيَّاً، وفي يافا، اختطفوا ضبَّاطاً، وعذَّبوهم، قدَّموا أنفسهم كحركة تحرُّر من البريطانيِّيْن».

ثمَّ تدفَّق حديث والدي عن المعارك التي وصفها بالشرسة التي جرت في وادي الربابة، مع المحاولات المتكرِّرة للعصابات الصهيونية للمرور منه، لاحتلال قريتنا، والبطولات التي أبداها المقاومون، ضمن خطط تسمح بتقدُّم أفراد العصابات الصهيونية في الوادي، بتغطية من نيران رفاقهم في جبل النبي داود، ثمَّ الانقضاض عليهم، وتكبيدهم خسائر جَمَّة، إلى درجة أنّ مَنْ عاشوا تلك الفترة كانوا يتحدَّثون بفخرٍ، عن كيف كان اليهود يتركون جثث ضحاياهم في أرض المعركة، ولا يستطيعون سحبها، حتَّى تأكلها الوحوش.

ورغم حماسة والدي لما سمعه من والده وأترابه، ويرويه لي الآن، إلَّا أنه صَمَتَ عندما سألتُهُ، إذا كنَّا نحن الطرف المنتصر وقتلنا الكثير من اليهود المسلَّحين الذين حاولوا اغتصاب أرضنا، واحتلال قريتنا، وطردنا من منازلنا، فلماذا اليهود هم الذين انتصروا في النهاية؟

الثالث والسبعون

قادني والدي في مغامرات لاكتشاف المغارات القديمة، والكهوف، والآبار، والقبور على جانبَي وادي الربابة، وهو يخبرني بأن اليهود يعتبرونه المكان الذي كان أسلافهم في الأزمان القديمة، يحرقون فيه أطفالهم، كنوعٍ من القرابين والتقدمات للملوك والآلهة، عندما كان الملوك بمثابة آلهة متعطِّشة للدماء، والآلهة لا يُرضيها سوى رائحة اللحوم المشويَّة، ولا يروي غرورها إلَّا دماء الأطفال القرابين، ولم يكن ليخطر على بالها أو على بال الآباء المفعمين بالخوف والآلام، بأنه لا ذنب لهؤلاء الأطفال، ليُعبِّدوا طريق رضا الآلهة عن شعبها. لم تكن عائلات الأطفال والآلهة لتعرف معانٍ كثيرة من بينها البراءة، براءة الأطفال سيِّئي الحظِّ.

لماذا لم تنفع دماء الكبار، ولم تقبل بها الآلهة؟ مَن الذي سأل الآلهة؟ وبماذا أجابت؟ ولمَنْ قبل الكبار بتكليفهم سفح دماء الصغار؟ وهو ما فعلوه بكلِّ رضا وتقديس.

كان والدي يهرب من أسئلة الحاضر إلى الماضي. أرْعَبَتْني دماء الأطفال التي خلتُها تعود خضراء، وتروي نباتات وأشجار الوادي، ولكنَّ والدي عاد وأكَّد: «إنها حكايات، يا بُنيَّ، حكايات تُؤَوِّل وتترى وتكبر وتصغر. القُدْس مدينة الحكايات التي تُؤلَّف من خيالٍ جامح، لقد حافظت على وجودها بالحكايات، التي اختلف الناس في مراحل مختلفة على تأويلها، فشقَّت الصفوف، وأسالت الدماء، وفي أحيانٍ ليست قليلة كانت سبباً في تدميرها، ولكنها كانت دائماً تنهض من بين دمارها، كيف يحدث هذا؟ لا تسألني، إنه لغز هذه المدينة القَدَرِيَّة».

وأضاف، وكأنه أمسك طرف خيط مؤكِّد: «يا بُنيَّ، القُدْس مدينة نصِّيَّة، قد لا تفهم ذلك الآن، ولكنْ، عليكَ أن تعرف كيف يسيطر عليها المسيطرون، بما يُؤوِّلون عنها من نصوص وكتابات، من تلك التي أنزلتْها السماء، وتلقَّفها البشر، إلى التي نسجها الرحَّالة والغزاة والأفَّاقون عن القُدْس التي أرادوها لهم، لهم وحدهم، فانتصروا بما نصُّوه عنها».

أعلى الوادي أشار والدي، من بعيد، إلى مقبرة طائفة القَرَّائين اليهود، التي لدينا معاً قصَّة معها، فلم ننسَ بعد المرأة المصريَّة، والراهب السوريّ.

قال والدي، بأن من أسرار القُدْس صمود هذه المقبرة القديمة، لطائفةٍ نُبِذَت من باقي الطوائف اليهوديَّة الأخرى، التي اعتبرتْها كافرة، وإذا أراد أحد أفرادها الزواج من طائفةٍ أخرى، كان يُجبَر على اعتناق دِيْن آخر كالإسلام مثلاً، ثمَّ يرتدُّ مرَّة أخرى إلى اليهوديَّة، حتَّى يوافقوا على زواجه، كنوعٍ من الإذلال الغريب، الذي يجعله مجلَّلاً بعار انتماء لطائفة منشقَّة، لا تؤمن إلَّا بالتوراة، وتنبذ التلمود، وينتمون إلى رجل، اسمه عنان بن داود، ذكره والدي باطمئنان، وكأنه يعتقد بأنني أعرفه.

سألتُ والدي، إذا كان يعتبر اليهود القَرَّائين فلسطينيِّيْن مثلنا، فقال: «نحن عرب، منَّا المسلمون والمسيحيُّون واليهود، وحتَّى قبل الغزوة الصهيونية، كان يهود فلسطين مثلنا مثلهم، ولكنَّ الأفكارَ، والاحتلالَ، والاستحواذَ، تُغيِّر الهُوِيَّات، ولكَ في يهود اليمن جيراننا مثلاً، وعِبرَة».

سألتُهُ عن أبينا بوللو، الذي لم يعد يظهر في المناسبات، وغير المناسبات، أو على الأقلِّ، لم أعد أراه، قال والدي بمسحةِ حزن: «لقد اعتقلوه ..!» ثمَّ أكمل: «اعتقله المحتلُّون، بتهمة نقل أسلحة للفدائيِّيْن هنا في الأرض المحتلَّة، بمَرْكَبَته التي تملكها الكنيسة، مُستغِلاًّ التصريح الممنوح له، بالتنقُّل بين لبنان وفلسطين، عبر رأس الناقورة، وعندما يُوصِل

السلاح بسلامٍ إلى هنا، يُفرِّقه على نقاطِ ميِّتة، متَّفق عليها مسبَّقاً مع القيادة في الخارج، دون أن يعلم هو إلى أيٍّ مناضلين سيذهب، ودون أن يعلموا هم مَنْ هو هذا الرجل الخارق، الذي يجلب لهم السلاح».

سألتُ: «كيف عرف المحتلُّون هُوِيَّة الرجل الخارق؟».

أجاب والدي: «لا شكَّ بوجود عميل لهم أو أكثر وسط الفدائيِّيْن في الخارج، أرسل معلومات مُفصَّلة، أو ناقصة تحتاج إلى استكمال، فتحرَّكت المخابرات، وتكفَّلت بالباقي حتَّى قبضت عليه، ولأن وضعه حسَّاس، كرجل دِيْن يتبع الفاتيكان، رصدتْهُ المخابرات، وتأكَّدت من هُوِيَّة رجل السلاح الخارق، عندما أوقفت مَرْكَبَته، وكأنها شرطة سير تريد التأكُّد من صلاحيَّة المَرْكَبَة. ولكنَّ رجال الشرطة هؤلاء اهتمُّوا أكثر بفتح الأبواب وإغلاقها، وهم يروزون ثقلها، ليتأكَّدوا، قبل أيِّ شيء، إذا كانت مخابئ للأسلحة المهرَّبة أم لا؟ وعندما تأكَّدوا، تركوه يذهب، ولكنهم كانوا مستعدِّين جيِّداً لمراقبته، ومعرفة أين يذهب بالأسلحة».

تشوَّشَ فكري قليلاً، وتضاربت الصور، وخطر على بالي شيء:

- مقبرة القَرَّائين .. ذلك اليوم.

ضحك والدي قائلاً:

– دهم الجنود والمخابرات المقبرة، وبحثوا في القبور القديمة خلفها.

- ماذا وجدوا؟

– لا أعرف، وعليكَ أن تتوقَّف عن السؤال، وتعرف متى تسأل ومتى تتوقَّف.

لم أفهم ماذا يريد أن يُوصِل لي والدي؟ ولكنني أيقنتُ بوجود سرٍّ، لا يجب عليَّ معرفته، ويعرفه والدي، ويُجنِّبني ثقل معرفته هنا والآن، فرضيتُ بالصمت، ولكنَّ عقلي لن يتوقَّف عن التفكير، أو التخمين، فلم أكن غبيَّاً.

عدنا إلى منطقة البساتين، ووالدي، يقتفي، كما قال، آثار أوَّل روائيَّة حصلت على جائزة نوبل، يريد إشراكي في أيِّ اكتشاف، يمكن العثور عليه في الموقع، يدلُّ على ما حدث قبل أكثر من ثمانين عاماً، وقبل بزوغ القرن العشرين، بسنواتٍ قليلة، عندما غادرت عائلات من شمال السويد، لأسبابٍ تتعلَّق بفهم معيَّن للكتاب المقدَّس، أوحى لها بأن نهاية العالم اقتربت مع نهاية قرن وبداية قرن، واستقرَّت في بساتين سِلْوَان، لتعيش الحياة التي عاشها المسيح، وتتنفَّس الهواء الذي تنفَّسه في القُدْس، وتتلمَّس دروبه، وتتحسَّس الأماكن التي قصدها، والتي جلس فيها مع حواريِّيه، وموقع موته وانبعاثه.

سألتُهُ عن الذي فعلتْهُ هذه العائلات في قريتنا، فأجاب: «عاشت حياة الفلَّاحين المتقشِّفة، واستعدَّت ليوم الدَّيْنونَة، وكان أفرادها على ثقةٍ تامَّة بأنها آتية قريباً، وليس أفضل من بلد المسيح ليغادر منها المرء الأرض إلى السماء، كما حدث مع المسيح نفسه».

وواصل دون أن يترك لي مجالاً لأيِّ سؤال: «ناسنا استقبلوهم، وقدَّموا لهم الأرض، واستفادوا منهم ماليَّاً ولو بشكلٍ قليل، وساعدوهم في الأعمال الزراعيَّة، وعندما طالت إقامتهم، ولم يأتِ الخلاص، وازدياد المشكلات، وفقدان أفراد من هذه الأُسَر، لم يبقَ منها الكثير هنا، وقرَّر بعضها العودة إلى السويد من حيث أتت، تاركين بلاد الربِّ، للربِّ».

وما علاقة أديبة نوبل؟ أجاب والدي: «وصلت سلمى لاغرلوف إلى القُدْس، ونزلت في فندق أمبريال في باب الخليل، وتتبَّعت حكايات السويديِّيْن، وكتبت عنهم مَلحَمَة روائيَّة في جزءَيْن بعنوان القُدْس، شدَّتْني حكايتها وحكاية غرباء قريتنا الذين خيَّب الربُّ أملهم، بقرب الانضمام إليه في سمائه».

لم أرتحْ لكلام والدي، ونبرة صوته، وشعرتُ بأنه يخبِّط في الكفر، ولكنه شرح: «أنا أتحدَّث عن اعتقاداتهم، وليست اعتقاداتنا».

وغيَّر الموضوع بسرعةٍ، وهو يقول: «كرَّمتِ السويدُ سلمى لاغرلوف، بوضع صورتها وهي تضع قُبَّعة ضخمة على رأسها، على الورقة النقديَّة من فئة العشرين كرونة».

زرنا بئر أيُّوب التي عندما كانت تفيض، تأتي فرقة من الجيش العثمانيّ، لتعزف للناس الذين يأتون من القُدْس وقراها، للاستماع للموسيقى ورؤية المياه المتدفِّقة، ويظهر فجأة باعة القهوة، التي يفضِّلها الزوَّار المقتنصون للحظات صفو، بعد المطر الغزير الوفير، فيُمتِّعون أنفسهم، بالجلوس، أو التمشِّي، بينما خرير الماء يصنع موسيقى تخترق آذانهم، وتسكن أرواحهم، وكان يأتي العمُّ كوكو، ليستمتع، وليراقب، ويسجِّل، ويسأل، ويستنتج، وربَّما لا تكفيه كاسة قهوة، لتعدل مزاجه، فيُخرِج من جيب سترته، زجاجة عَرَق صغيرة، ويجترع منها عدَّة دفقات، تُدفئه.

وأخبرني عن الحُجَّاج الأقباط الذين كانوا يتدفَّقون على البئر، عندما يملؤون شوارع القُدْس صخباً، خلال عيد الفصح، وتكون زيارة البئر طقساً، وكأن حجَّهم لفلسطين، لا يكتمل دون شرب ماء من البئر، أو إطلاق أهازيج، وزغاريد تنطلق من أفواه القبطيَّات:

على بير أيُّوب، يا مقدّس
بدك تزور، وتقدّس
تمَّ الموعود
على بير السامريَّة، يا مقدّس
على بير السامرية
بدّك تزور، وتقدّس

دي زيارة هنيّه
على الكنعانيَّة، يا مقدّس
على الكنعانية
بدّك تزور وتقدّس
دي زيارة سنويّة

أحبَّ ناسُنا الأقباط، وخفَّة ظلِّهم، وابتسامات القبطيَّات، وحسَّ الفكاهة الزائد لديهنَّ، وفتحوا منازلهم، للزائرين والزائرات، وربطت بعضهم صداقات مع الحُجَّاج الذين لم تكن زيارة واحدة للقُدْس، لتروي شَغَفهم الديني، فيأتون مرَّات، ولم تكن الموانع موجودة كما هي الحال الآن.

ومِن الأقباط مَن استقرَّ في القُدْس، التي أصبح فيها مدرسة قبطيَّة ومقبرة، إضافة طبعاً إلى البطريركيَّة الملاصقة لكنيسة القيامة وكنائس في أريحا وبَيْت لَحْم، وغيرها من مواقع.

تأسَّيتُ، لأن كلَّ ذلك لا يحدث الآن، عمد والدي إلى سطلٍ مربوط بحبلٍ، وأنزله إلى قاع البئر، وسحبه، فوصل الماء يتراقص ويفيض على جوانب السطل، الذي وضعه والدي على الأرض، وغرف منه، وشرب، وطلب منِّي فعل ذلك وهو يقول: «هذا أعذب ماء في قريتنا، شرب منه أجدادنا وهم مطمئنُّون، في حين لم يشربوا من العَيْن، وإنما اغتسلوا بمائها التي طهَّرتهم من النجس، ومن الأوساخ، رغم أنها التي أسَّست لنوعيَّة جيناتهم التي جعلتْهم دائماً وسيمين. هكذا يقولون، وليس مُهمَّاً إن صدَّقتَ ما قيل أو لم تُصدِّق».

ولكنَّ الأمر لم يكن دائماً فيما يتعلَّق بحكايات بئر أيُّوب مبهِجاً، وهو ما أراد والدي تذكيري به.

روى لي عن البريطانيِّيْن والأستراليِّيْن، وعنفهم الشديد، عندما كانوا

يقتحمون القرية، منذ انبثاق ضوء الشمس، ويطلبون من الأهالي التجمُّع على البيادر، تاركين منازلهم مفتوحة، ومشرعة للجنود ليفتِّشوها، ويدمِّروها، بحثاً عن أسلحة الثوَّار المزعومة.

في الوقت الذي يبدأ فيه المحقِّقون والجنود على البيادر بفرز الناس، ووضع الأطفال والنساء في جهة، وترك الرجال في جهةٍ أخرى، يبدأ التعذيب، وينتقون مجموعة من الرجال، يُجبرونهم على قطع ألواح الصبَّار الخضراء، ويفردونها على الأرض، ويطلبون من المغضوب عليهم السير حُفاة على الأشواك، ومع تقدُّم التحقيق، وقرب غياب الشمس، يطلبون من النساء والأطفال العودة إلى المنازل المنهوبة، ليحينَ دَوْر الرجال الذين يتمُّ تطويقهم بجنودٍ يحملون الهِراوات، ينقضُّون عليهم، ويُخلِّف ذلك جرحى وشهداء، مثلما حدث مع شقيق جَدِّ والدي، الذي أتتْهُ ضربة على رأسه، ففشختْهُ، وعندما نُقل إلى منزله، بعد انفضاض حلقة الضرب، لم يتمكَّنوا من إصعاده إلى مشافي القُدْس، فلم تكن الشوارع قد فُتحَت بعد في القرية، فنزف حتَّى الموت.

قال والدي: «لدى البريطانيِّيْن حِسُّهم المخابراتي، الذي يجعلهم ينتقون عدَّة رجال، يعتقدون أنهم يعرفون أمكنة تخبئة السلاح، أو يستعينون بأبي كيس، وهو جاسوس محليٌّ، يُغطُّون رأسه بكيس، تاركين فتحتَيْن في الكيس، لتسمحا للعينَيْن بالرؤية، ويهزُّ رأسه عندما يُعرَض أمامه أحد الرجال، ومن طريقة الهزِّ يعرف البريطانيُّون إذا كان الرجل خطيراً في عُرْفهم أم لا، ويأخذون ضحايا هزِّ رأس الجاسوس، فيحفرون في الأرض حفرات بطول قامة الرجال، ويضعونهم فيها، فلا يظهر من الرجل سوى رأسه، ويظلُّون كذلك يعانون، تضربهم الشمس والرياح والتراب، حتَّى يُقرُّون بما يعرفونه أو لا يعرفونه».

وحدث مع أحدهم ما رواه والدي: «بعد يومَيْن لم يحتمل عبد الرحمن العطش، والجوع، والشمس، فأعلن للجنديِّ الأستراليِّ الذي يحرسه بأنَّه قرَّر أن يُعلِمهم عن مكان السلاح، فأخرجوه من الحفرة، وسار أمامهم إلى بئر أيُّوب، وعندما وصل الحافَّة، حدث ما لم يتوقَّعه أحد؛ رمى نفسه في البئر، من شدَّة العطش، أراد أن يروي ظمأه، بأكثر الطُّرُق سرعة، وتهوُّراً، ولكنه لم يكن يدري، وربمَّا كان يدري، أن في ذلك حتفه، المهمُّ بالنسبة إليه أن لا يموت من العطش، أراد اختيار موته، رطباً، منعِشاً، مرتوياً من ماء النبي أيُّوب».

نزلنا إلى عَيْن اللوزة، وغُصَّة استشهاد عبد الرحمن مستقرَّة في مُخِّي، ولكنَّ والدي أراد بنزولنا إلى عَيْن اللوزة تغيير الموضوع، فأخبرني عن العَيْن: «غسل العيون الملتهبة في عَيْن اللوزة يساعد على شفائها، ويعتقد المسيحيُّون بأن المسيح الذي شفى الأعمى بالتراب الممزوج بريقه في عَيْن سِتنا مريم، أرسله المسيح إلى هذه العَيْن، ليغسل عينَيْه، وعليكَ أن تلاحظ كيف تتقاسم عيون قريتنا الأدوار الدينيَّة، والاجتماعيَّة أيضاً».

أحبَّت والدتي مشاويرنا أنا ووالدي، وشاركتْنا في بعضها، وأصبحت تصفني، بالمغامر الصغير، وتطمئنُّ أكثر على أن زوجها يُولِي عائلته الصغيرة الاهتمام الواجب، ولم يعد مثل السابق يمضي وقتاً أكثر مع مريم التشاديَّة، وباقي أفراد شلَّته، ولكنْ، يبدو أنها لم تكن تعلم الكثير، وتكتفي بظواهر الأمور، أو ما يريد والدي أن تعرفه عنه.

كان كلُّ شيء حولنا يتغيَّر بسرعة، من حفريَّات البروفيسور عازار، وغضب الناس المتصاعد بشأنها، وخوفهم على تدمير سور القُدْس، واقتحامات اليهود المتكرِّرة للمسجد الأقصى، وإحياء الدفن بكثافة في مقبرة اليهود، والزيارات اليهوديَّة التي لا تتوقَّف إلى العَيْن والبِركَة،

والإشاعات بأن اليهود سيستولون على منازل في قريتنا، ويرموننا خارجها، وغيرها من أمور جعلت الناس يعيشون في قلقٍ، مع ازدياد اختفاء شباب القرية؛ كانوا يُخفرون إلى سجون الاحتلال الجديد.

في مثل هذه الظروف، جاء الخبر الصاعق، بأن السَّبْع انتحر برمي نفسه من فوق طَنْطُوْر فرعون، ونُقل إلى المستشفى، بين الحياة والموت.

ولكن السَّبْع عاش هذه المرَّة، أيضاً.

الرابع والسبعون



اشتقتُ لِلُور كثيراً، وغلبَني الشوق، وانتصر على خجلي، فصَعِدْتُ إليها، والتقيتُها، وتسكَّعنا في شوارع القُدْس، وتسلَّلنا أكثر من مرَّة إلى المتحف، لتُعرِّفني برؤيتها ولغتها وشَغَفها، بالآلهة القديمة، وملكات الجمال، والخليفة الأموي الضاحك، الواقف على أسدٍ رابض، وأَفْرُوْدِيْتْ البيضاء بدون ذراعَيْن، والفرعون المصري الذي يبدو أنه غير مرتاح في سجنه الجديد، أو سجَّانيه الجدد، يدلُّ على ذلك وجهه الحزين المحاصر بخصلتَي شَعْر ثقيلتَيْن، وفقدان ذراعَيْه.

- هذا رمسيس الثالث، الذي غزا بلادنا، العظيم المنتصر لم يجد إلَّا فنَّانين محلِّيِّيْن، لا يُتقنون صنعتهم، لينحتوا له هذا التمثال من حجر البازلت، ويزيِّنون رأسه بغطاءٍ مَلَكيٍّ عليه كوبرا، ويتزنَّر بتنُّورة مثل النساء، تُغطِّي فخذَيْه، وعلى صدره قِلَادَة كبيرة من الخرز، وينتعل زوج صنادل ..

قاطعتُ لُور، لأستوعب ما تقول، وعندما وجدتْني قليل الفهم، قالت بأنها ستتحدَّث من الآخر:

- كما قال لي كُوْهِيْن، فإنه يعتقد بأن هذا التمثال البائس للفرعون المنتصر لم يكن إلَّا تمثالاً دعائيَّاً، شيء يشبه ما تبثُّه إذاعة إسرائيل لنا، وصوت علي عمَّار الجَهْوَرِيّ، يهدف إلى عرض القوَّة المصريَّة بعد احتلال أرض كنعان.

وقادتني إلى نُصْبٍ من البازلت أيضاً، يعرض فيه الفرعون سيتي الأوَّل لانتصاراته في فلسطين، التي لم يكن اسمها كذلك، ويظهر فيه أسماء

المجموعات الخارجة عن قوانين الفرعون، والمنشقَّة، والمرتزقة، والمنبوذة، التي أخضعها، ومن بينها قبائل العبيرو، التي تمنَّت لُور لو أن سيتي محاهم من الوجود، لأنهم أحفاد العبرانيِّيْن الذين يحتلُّون المنحف الآن، وإنها امتلكت الشجاعة لتُخبر كُوْهِين بذلك، ولكنه ضحك ولم يُعلِّق، ثمَّ قال لها:

– عندما تكبرين ستفهمين، فأكاذيبنا تشبه أكاذيبكم، أو أن أكاذيبكم ردُّ فعل على أكاذيبنا ..!

– أنتِ، أيضاً، بحاجةٍ لأن تكبري، أيَّتها الفيلسوفة ..!

قلتُ بلهجة تشفٍّ واضحةٍ ..!

ولكنَّ ذلك لم يؤثِّر في لُور، كان لديها ما تريد إيصاله:

- النصُّ على النُصْب غير واضح تماماً، والسبب أنه استُخدم في فترة لاحقة كمدخلٍ في مبنى من العصر البيرنطيِّ بمدينة بيسان ..

لم أدعها تُكمل، فقلتُ:

– إعادة استخدام، هذا ناموس الأرض المقدَّسة ..!

أحنت لُور رأسها موافقة، للتلميذ الشاطر، الذي أصبحتُهُ.

وقفنا أمام تابوت كبير، مزخرف الجوانب، تضطجع عليه امرأة، مادَّةً رجلَيْها، وتنظر بوجهٍ أنثويٍّ منتصب وقويٍّ نحو اللامرئي.

قالت لُور:

- هذه جَدَّتي الأمازونيَّة ..!

سألتُها:

– وماذا تعني بالأمازونيَّة..!

ردَّت ضاحكة:

عندما تكبر ستعرف ..!

– حتَّى أنتِ، يا لُور ...!

وعندما تمعَّنتُ في تمثال المرأة، رأيتُ ما يشبه الرجل بجانبها.

- إنهما زوجة وزوج وُضِعا في داخل التابوت الرخاميِّ، ولكنهما غير مكتملَيْن، لا بدَّ أنهما لم يجدا مَنْ يُكمل تمثالَيْهما اللذَيْن سيُخلِّدان صورتَيْهما بعد الموت، ربمَّا لم يملكا المال الكافي، أو لم يجدا المَثَّالين الذين يمكنهم إكمال المهمَّة، بكلِّ هذه الروعة. إنهما جسدان في جسدٍ، وروحان في روحٍ، اكتملا بموتهما.

قالت لُور بلسان الخبيرة والفيلسوفة، التي وجدت في المتحف واحتها الدافئة، جزيرة محتلَّة، فأعادت احتلالها لنفسها، تلجأ إليها نهاراً بمعرفة جيرانها المحتلِّين، أو تتسلَّل ليلاً، لتشعر بقدرتها على أن تكون حُرَّة. تلك الحُرِّيَّة المشوبة بالمغامرة والمخاطرة ونشوة الانتصار على المحتلِّ المُدَجَّج بالسلاح والقوَّة المعنويَّة.

لم يكن كلام لُور الخبيرة مقنعاً لي، فتساءلتُ، كيف يمكن للمضطجعين فوق التابوت الذي نسمِّيه ناموساً، يغدقان المال لنحت المعارك بين اليونانيِّيْن والأمازونيَّات، بينما لا يجدان ما يكفي لإكمال تمثالَيْهما، أو تمثالهما المشترك.

الخطوط والعضلات والأعضاء الأنثويَّة والذكريَّة والسيوف وأدوات الحرب والأحصنة وأوضاع الجنود والأمازونيَّات في ملابس الحرب، وغيرها من تفاصيل نافرة مدهشة، أخذتْني إلى مكانٍ قَصِيٍّ، لم أتوقَّع الذهاب إليه، ولم أعرفْهُ أصلاً، وها أنا أصله بفضل لُور.

– ما كلُّ هذه العَظَمَة؟!

هتفتُ، فطلبت منّي لُور الحديث بهدوء، كي لا أُزعج المحبوسين في هذه التماثيل والتشكيلات الحجريَّة، وأغطية النواميس، والنقوش الشخصيَّة والعامَّة، وغيرها في هذا العالم الذي أبدعه مثَّالون وحجَّارون، ولعلَّهم كانوا يُدركون بأنهم سيعيشون وتعيش أعمالهم، حتَّى يأتيَ ولد وبنت من القُدْس، يتناقشان ويسألان حولها وحولهم.

قالت لُور:

- هذا يشير إلى قوَّة جَدَّاتنا الأمازونيَّات المحاربات اللواتي يحاربنَ الجنود بندٍّ وببسالةٍ، ولا تنسَ بأنني حفيدة لإحداهنَّ، لطالما افتخرتُ بجَدَّتي اليونانيَّة ..!

لَفَتَ نظري على واجهة التابوت الشماليَّة نحتان بارزان، لما يشبه الأحصنة المجنَّحة المتقابلة، يفصل بينهما تشكيل حجري على شكلِ عَمُود، فتذكَّرتُ البُرَاق، والحمار الصليبي المجنَّح.

– التثاقف ..!

قلتُ وكأنني أكتشف شيئاً.

ردَّت لُور بلهجة الخبيرة:

- الجميع يأخذ ويقتبس من الجميع، يُطوِّرون ويُغيِّرون ويتخيَّلون، وما يصلنا هو ما أراد آخر مقتبس متثاقف أن يصلنا، ولكنه بالتأكيد ليست الحقيقة، علينا أن لا نُصدِّق كلَّ ما يقال لنا في المدارس والكنائس والمساجد ..!

هزَّتني كلمات لُور، ولم أُعلِّق. إنها تعرف الكثير، وينتظرني الكثير، لأُعرِّفه عن قُدْسي.

طلبتُ من لُور المغادرة، فأضحيتُ أعرف نفسي أكثر، ومتى يتوقَّف مُخِّي الصغير عن الاستيعاب والفهم وهضم ما يُلقَى إليه مرَّة واحدة، بغير

ميعاد، وفي أكثر الأحيان، قبل هضم ما أُلقِيَ له سابقاً، ولكنها قالت بأنها جهَّزت لي مفاجأة، ولم تتركني أُخمِّن:

- الخليفة ..!

أمسكت لُور بيدي، ودلفنا إلى قسمٍ مُقَبَّب، تظهر فيها الجاريات، والراقصات معلَّقات بجدران جِصِّيَّة مزخرفة، وتماثيل لطيورٍ، ووجوهٍ لرجالٍ ولنساءٍ، جُلبت جميعها من قصر هشام في أريحا، الذي سُمِّي على اسم الخليفة الأموي، ولكنه، في الواقع، لم يكن صاحب القصر، كما قالت لُور، وكأنها تدافع عن الحقِّ والعدل.

وأضافت: «بنى الخليفة الأموي الوليد الثاني بن يزيد قصره الشتوي، في خِرْبَة المَفْجَر، ولكنَّ سوءَ الحظِّ كان من طالعه، فتهدَّم القصر، بفعل زلزال، قبل أن يشغلَه، ولازمه سوء الحَظِّ هذا، لقرونٍ، فعندما أُعيد اكتشاف القصر؛ نُسِب خطأً إلى الخليفة هشام، وربَّما ما يعزِّي الوليد، أنه ينتصب تمثالاً بين راقصاته وجواريه، ولعلَّه يستذكر رجع صدى حركاتهنَّ وأرواحهنَّ، ترى مَن التي أحبَّها أكثر من غيرها واصطفاها من بينهنَّ أم أنه مثل الملك سليمان، تعدَّد، وأسرف، ومُنِح قوَّ ة عشرات الرجال؟! يا للرجال! أين رجال اليوم، من رجال الأمس؟!».

أحرجني كلام لُور غير المتوقَّع، ولتخفيف وطء حديثها، ابتسمتْ، وضحكتْ هازئة، لتوضِّح بأنها لم تكن إلَّا هازئة، برجال الأمس، من ملوك وخلفاء.

قلتُ، لأنه كان عليَّ القول: «ولكنه، لم يسمع أصواتهنَّ ولم يرَ حركاتهنَّ أصلاً، بفعل الزلزال».

ردَّت: «لا تكن واقفاً لي على الواحدة، عليكَ أن تمرِّر، وعموماً ما رأيكَ لو نسأل الخليفة نفسه؟!»، ثمَّ بحركة تمثيليَّة قالت وهي تنتحي وتمرِّر

يدها أمام بطنها: «تكلَّمْ، يا مولاي، ما رأيكَ في كلام هذا الولد الغِرِّ، كثير الأسئلة؟».

تقدَّم تمثال الخليفة بضعة سنتمترات، وتنحنح وهو يتحدَّث: «ماذا أقول، عندما أقول، بعد كلِّ قرون الصمت هذه؟ بسبب إحدى صدف التاريخ الماكرة وغير المفهومة، وما أكثر ما عشتُ مثل هذه الصدف، فقدتُ أحقِّيَّتي المعنويَّة، بقصري الشتويِّ، وسيُنْسَب هذا الذي حوى ضمن ما يحوي واحدة من أكبر الأرضيَّات الفُسَيْفِسَائيَّة في العالم - نتاج التلاقح الثقافي الإسلاميّ - البيزنطيّ - لخليفة آخر أكثر شهرة منِّي.

فكَّرتُ كثيراً في الأمر، بعد أن رفعوني من تحت الأنقاض، ولكنْ، لأكون منصفاً، لا أستطيع تحميل المسألة للإنجليز الأوغاد الذين أسَّسُوا دائرة الآثار الفلسطينيَّة، ونبشوا في خِرْبَة المَفْجَر، إلَّا إذا تمكَّن باحث من زمانكم هذا إثبات وجود مؤامرة كونيَّة على خليفة المسلمين اللاهي كما وصفوني في الكُتُب المغرِضة. ولكنني أحيلها لتلك الصدف غير المتوقَّعة، التي قَذفت أمام المنقِّبين بلوحة تحمل اسم العمّ هشام، الذي خلَّفته في حكم إمبراطوريَّة أجدادنا. كيف لم أنتبه لتلك اللوحة؟ وماذا كانت تفعل في قصري وهو يُشيَّد؟ لعلَّ أحدهم دسَّها، وكان ثاقب النظر، يسبر نفق المستقبل، ويعلم ماذا سيحدث بعد قرونٍ طويلة، ستتبدَّل فيها الأوضاع في أرضكم المقدَّسة. مَنْ كان يعلم بأنني سأنطق، وأُفرِّج عن نفسي أمام فتى وفتاة من هذه القُدْس، بعد صمت طويل .. طويل، خلتُهُ سيستمرُّ إلى الأبد، وسأظلُّ معتقلاً فيه مقيَّداً، لا أتحرَّك، ولا يُحرِّكني أحد، حتَّى موظَّفي المتحف الأوغاد.

أُعجبتُ بالآثاريِّ الفلسطينيِّ الذي شارك في التنقيب، أظنُّ اسمه ديمتري، ديمتري ماذا؟ آه آه إنه من تلك العائلة التي سُلب منزلها في المُصْرَارَة، نعم، اسمه ديمتري برامكي، الذي وَجد في الموجودات الباذخة

فرصة لدارسة الأوضاع الاقتصادية - الاجتماعيَّة في قصورنا، نحن الذين دانت لنا الدنيا، والشعوب، والأعراق.

ولكنه الحسد والشؤم الذي لازمني، رغم إقبالي على الحياة، فاتُّهمتُ بأنني أعاني من أمراضٍ نفسيَّة وعُقدٍ جنسيَّة، وحاجج خصومي، بجداريَّات قُصير عمرة الإباحيَّة، وتماثيل الراقصات في قصر المَفْجَر، ولكن الواقع، كما أصبحتُم تعرفونه، بأنني لم أتمكَّن من تغذية عينَيَّ، بتقاطيع الراقصات الحجريَّات، في ديوان القصر، ولم أختبر حتَّى التخمة الروحيَّة في مسجده، ولا متع الحمَّامات الرومانيَّة؛ فمدينة الزلازل زلزلت قصري قبل أن أقطنه، فقطنتُ أنا الذي لم أقطن كرسي الخلافة إلَّا فترةٍ قصيرةٍ؛ أكثر من عام بقليل، ماذا أقول للحسَّاد وكَتَبَة التاريخ الظالمين، الذين تشفَّوا بخليفة المسلمين الماجن، الذي قتله مناوئون، وحملوا رأسي إلى دمشق، لينصبه خليفتي يزيد على رمحٍ في المسجد، ولم يجد شقيقي سليمان عزاءً لموتي إلَّا القول: بُعداً له، أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً ..! وأمور أخرى أفظع .. أفظع .. أفظع ..!

حتَّى أنتَ، يا سليمان؟ كم مرَّة أمثالي من شخوص التاريخ صرخوا حتَّى أنتَ، يا فلان؟ ما أكثر الشخوص، وما أكثر فلالنة التاريخ!

ويا له من عزاء، يا سليمان، يا أخي، وأنتَ من لحمي ودمي ..!

وحتَّى أنتَ، يا سيوطي، تقول بأنني نويتُ الحجَّ إلى بيت الله الحرام، والسبب تناول الخمر فوق الكعبة ..! ألَا ينفع شرب الخمر إلَّا فوق بيت الله الحرام؟! يمكن فعل ما حرَّمه الله بعيداً عن بيته، فهو أسلم وأجمل.

لماذا أرادوا شيطنتي، وأنا لم أكد أجلس على العرش حتَّى رفعوني عنه؟! حتَّى إنهم جعلوني أمثولة في أسطورة سَنِيَّة عن اثنَي عشر خليفة، في مقابل أسطورة الشيعة الاثنَي عشَريَّة. والاستناد إلى حديث، يستند إليه سُنَّة الإسلام وشيعته عن الرسول الكريم، عن أن أمر الإسلام سيظلُّ قائماً

وعزيزاً حتَّى يمضي اثنا عشر خليفة، كلُّهم من قُرَيْش، يا للقبيلة العتيدة، التي مثل القطط تأكل أولادها، ليأكل لحمهم الأشقياء من أولادها».

أمعنتُ النظر في التمثال الورديِّ الذي يتحدَّث، وفي الرجل الملتحي المبتسم، وسيفه في غمده، ويوجد تحت رجلَيْه أسدان رابضان مطيعان، وهو هنا مُطِلٌّ على قُبَّة الصخرة، مأثرة أجداده.

ولكنه لم يتركني أكثر عرضة لأفكاري وتأمُّلاتي، فقال: «سأكون دائماً على موعدٍ مع الزلازل، إنها قَدَري، فالزلازل السياسيَّة أطاحت بي وبرأسي، والزلازل الأرضيَّة أطاحت بقصري، وفي زلزال حزيران الأخير، وقبل أن ينتقل المتحف من أيدي العرب الأمينة، إلى أيدي اليهود اللئيمة، وعندما سمعتُ بما يجري خارج المتحف، تمكَّنتُ في غمرة الفوضى، من التحرُّك، بعد الصمت الطويل، لأطلَّ من الشُّبَّاك؛ ولأطمئنَّ على سير المعركة بعد أن تناهى لسمعي بيانات النصر المبكِّرة، وفي أسوأ كوابيسي، لم أكن أدري، بأنني سأكون أحد ضحايا الهزيمة المُدَوِّية، وسأظلُّ سجيناً هنا، إلى وقتٍ لا أستطيع تقديره، ربَّما يستمرُّ قروناً أخرى».

وعندما صَمَت الخليفة فجأة، وعاد تمثالاً بابتسامةٍ بلهاء، لم أجد لُور بجانبي، لقد اختفت ..!

الخامس والسبعون

خرجتُ من المتحف مفزوعاً ، لأجدَ لُور تقف أمام قصر الشيخ بانتظاري وهي تضحك، وقبل أن أسأل عمَّا حدث، قالت:

- فزعتُ، مثلما أنتَ فزعتَ، أردتُ المزاح معكَ، فتحوَّل الأمر إلى جِدِّيٍّ، فهربتُ قبل حصول ما لا يُحمَد عقباه، فهؤلاء الأمويُّون مخيفون، ألم تدرس كيف فعلوا بأحفاد الرسول العربيِّ؟!

ووسط ذهولي، وعدم فهمي موقف لُور، أخذت تشرح لي عن زخارف المتحف، التي نفَّذها فنان الخزف الأرمنيّ أوهانسيان، وكأن حديث الخليفة جرى منذ زمن مضى، ولم نسمعه سويَّةً قبل قليل، وقادتْني، عبر أزقَّة البلدة القديمة، إلى حارة الأرمن، ودلفنا إلى معملٍ صغير، قريب من دير مار يعقوب، خُطَّ على أعلى واجهته: معمل قُبَّة الصخرة، عُرضت على واجهته، خلف الزجاج، صحون وأشكال مختلفة مزخرفة بألوانٍ جذَّابة، ولاحظتُ أن الجدران أيضاً مليئة بالمعروضات المزخرفة.

سلَّمتْ لُور على رجلٍ طويل، حنطيِّ اللون، شَعْره مصفَّف بعناية، وبعد أن تبادلا التحيَّات، والتمنِّيات، استأذن بأدب، وانحنى وهو يتركنا.

استغربتُ لهذا الأدب والانحناء من رجل بدا مهيباً وأكبر منَّا، فسألتُها عن هُوِيَّته، فقالت وكأنها تقرِّر أمراً:

– إنه نادريان ..!

- ومَنْ هو نادريان هذا؟!

– ألا تعرف نادريان؟! وتقول إنكَ من القُدْس! مَنْ لا يعرف نادريان؟!

- يا ستّي، أنا لا أعرفه.

أخذت تدندن:

«يا حَلَّاق، اعملِّي غِرَّة

وفَرِّحْلِي قلبي شي مَرَّة»

ووجَّهت كلامها إليَّ وهي تضحك:

«تحركَش ابن الجيران

اللي عيونه لَبَرَّة»

ثمَّ قالت بجِدِّيَّة: «طروب، ألم تسمع بطروب أيضاً؟».

وأضافت: «جاءت الستُّ طروب من بيروت إلى القُدْس، لتُصفِّف شَعْرها عند نادريان، وعندما تأثَّرتْ بما فعله بشَعْرها، غنَّت له هذه الأُغنيَّة، ولكنْ، للأسف ..».

- على ماذا تأسفين؟

– لعلَّها لم تكن تعلم بأنه ليس له مَيْل.

- مَيْل لمَنْ؟

– ليس لمَنْ، وإنما مَيْل عن .. خَلَصْ، إذا مش فاهم، بكرة ستفهم ..!

ولم تعطني فرصة لأجيب، وإنما دخلت الورشة، وأنا في عَقِبِهَا مُستفَزٌّ، سلَّمت لُور على رجلٍ اسمه مناويل، وقف من خلف طاولته التي يعمل عليها، وسلَّم علينا، وطلب منَّا الجلوس على كُرْسِيَّيْن متقابلَيْن أمامه، ثمَّ حدَّثنا عن جَدِّه، الذي وُلد في قرية صغيرةٍ شرقي تركيا، وحقَّق نجاحاً، في مهنته، قبل وصوله إلى فلسطين، حيث أنتج البلاط والخزف لمبانٍ مهمَّة في تركيا، ومصر، وشبه الجزيرة العربيَّة.

وصل أوهانسيان، الذي طُردت عائلته من تركيا في ظروف الحرب العالميَّة الأولى، إلى فلسطين، بمساعدة السِّيْر مارك سايكس، الذي ارتبط اسمه بخرائط تقسيم المنطقة.

قال مناويل: «علاقة جَدِّي بسايكس جاءت بمحض الصدفة، التقيا في مصر، خلال عمل والدي هناك، ويبدو أن رجل المستعمرات المتمرِّس كان مُحبّاً للخزف، وأُعجب بفنِّ جَدِّي، فقال له: تعال معي إلى القُدْس، سنُتَوِّجَها عاصمة هذا الشرق، وستُكَلِّلُها بخزفكَ، وهذا ما حدث، جاء جَدِّي مع سايكس، إلى القُدْس، وفي أوَّل عيد ميلاد بالقُدْس الجديدة، قُدْس البريطانيِّيْن، اصطحبه إلى كنيسة المهد ببَيْت لَحْم، لحضور قُدَّاس منتصف الليل، في أوَّل قُدَّاس بعد انتصار الحلفاء، ظهر مندوبا فرنسا وبريطانيا المنتصرَتَيْن في الحرب، كضيفَيْن رئيسَيْن، وقبل عام فقط كان يجلس مكانهما ممثِّل السلطة المحلِّيَّة العثمانيَّة، جلس جَدِّي خلف سايكس، ليكون تحت الطلب إن احتاج شيئاً، أو طلب مساعدة، أو لزوم التدخُّل لأيِّ طارئ أو سبب مفاجئ، لا شيء غير متوقَّع في شرقنا، مَنْ يدري أيَّة ردَّة فعل يمكن أن تصدر عن متعصِّبٍ للحكم السابق؟! قدَّم اثنان من الرهبان الفرنسيسكان تحيَّةً وتقديراً لبيكو، شريك سايكس في اتِّفاقيَّة تقسيم العالم العربي، فالعيد للكاثوليك، وسيطر على قاعة الكنيسة، صوت البطريرك الجَهْوَرِيّ، وأصوات الشمامسة، وعندما انتصف الليل، قُدِّمت شمعة كبيرة لبيكو، وعندما انتهى القُدَّاس، تبع جَدِّي سايكس، وكانت السماء تمطر في الخارج، وأغرقت شوارع المدينة التي سيعجب المرء من كيفيَّة تغيير جِلْدها بسرعة من محتلٍّ إلى آخر، ولم يكن الناس يعلمون، في تلك الأيَّام، على الأغلب، إنْ كان بكاء السماء فرحاً أو حزناً. حمل جَدِّي المظلَّة ليحميَ رأس سايكس من المطر، وعادا إلى القُدْس التي ستكون موطن جَدِّي، الذي أحبَّها في المطر، ومَنْ يدري، ربَّما لو لم تمطر السماء، وترسل عطفها إلى سكَّان القُدْس، لَمَا أحبَّها جَدِّي، وظلَّ

فيها، و لَمَا كنتُ أجلس هنا، مَنْ يدري؟! ربمّا كنتُ الآن أرمنيًّاً مصريًّاً، أو لبنانيًّاً، أو سوريًّاً، فالأمطار مثل الأقدار، يمكن أن تُحدِّد هُوِيَّاتنا، وعندما تفعل، نتمسَّكِ بها، ونذود عنها، رغم أنها مجرَّد نتاج صدف فقط».

صمت مناويل قليلاً، ليقدِّر انفعالنا بحكايته، وردَّة فعلَيْنا على تنظيره عن الهُوِيَّات، ولكنه قوبل بصمتي، وبابتسامة لُور، التي انتبهتُ كيف يمكن أن تكون فاتنة وساحرة، ثمَّ أكمل: «ساعَدَ سايكس جَدِّي، على الاستقرار في القُدْس، ليبدأ مسيرة مهنيَّة منفتحة على جميع أصحاب الأديان في بلادنا، وعمل في ترميم خزف قُبَّة الصخرة، ويبدو أن هذا العمل جلب له شهرةً، فجعل اسم ورشته التي افتتحها هنا على اسم قُبَّة المسلمين الذهبيَّة، ومنها خرجت الأعمال الخَزَفيَّة التي تُزيِّن المتحف».

وردّاً على سؤال لِلُور، قال مناويل: «حسب أصحاب الاختصاص، فإن ما قدَّمه جَدِّي المرحوم، للمتحف، كان الأهمّ في مسيرته الفنِّيَّة، حيث استعمل تِقْنِيَّة، تُسمَّى الخطَّ الجافَّ (كواردا سيكا)، وصمَّم زخارف لم تتكرَّر في أعماله الأخرى».

تناولنا القهوة في معمل قُبَّة الصخرة، وأثار تبسُّط لُور مع مناويل غَيْرَتي، وما كان يجب أن أغار، ولكنني لم أستطع إخفاء مشاعري، فطلبتُ منها أن نستأذن للمغادرة، ولكنَّ مناويل أصرَّ على اصطحابنا في جولةٍ على حارة الأرمن، التي تُشكِّل كما قال، سدس مساحة بلدة القُدْس القديمة، وتأسَّى على تجاهُل الأرمن ودورهم البارز الثقافيّ والاجتماعيّ والحياتيّ والسياسيّ، من خلال تجمُّعهم في القُدْس الذي يُشكِّل ما يشبه دويلة صغيرة، صمدت طوال قرون رغم أنواء السياسة الصعبة، وآخرها الحرب الأخيرة.

هكذا يرى مناويل هُوِيَّته، بجذورٍ ضاربة في الأرض، وليس فقط نتاج أمطار أو أقدار، كما قاله قبل قليل.

وقف مناويل أمامنا في مدخل دير مار يعقوب المهيب، وهو يضحك،

وعندما بدأتُ بتهجئة النقش على لوحةٍ حجريَّة قديمةٍ في المدخل، أدركتُ لماذا يضحك مناويل، الذي طلب منَّا التدقيق في اللوحة، وهو يقول: «البطريرك الأرمنيُّ الأوَّل في القُدْس كان يُدعى أبراهام، وهو الذي حصل على مرسوم اعتراف رسميٍّ من الخليفة المسلم العربيِّ عمر بن الخطَّاب لدى تسلُّم الأخير المدينة، لتأخذ الطابع العربيَّ تدريجيَّاً، وعدَّد هذا المرسوم حقوقَ وامتيازات الكنيسة الأرمنيَّة في الأراضي المقدَّسة حرصاً على حمايتها وسلامتها، وهو يختلف عن ما اصطُلح عليه العهدة العمريَّة التي وضع فيها عمر بن الخطَّاب أُسُس التعامل بين المسيحيِّيْن والمسلمين، ومنح فيها الأرستقراطيَّة القُرَشيَّة المنتصرة امتيازات في القُدْس».

استشعرتْ لُور بأن ذِكْر الأرستقراطيَّة المنتصرة، التي لم أفهم معناها، قد تكون أزعجتْني، فهمستْ في أُذُني:

- علينا أن نسمع أيضاً أصوات المغلوبين، وليس فقط أصواتنا.

بينما واصل مناويل حديثه:»... ولكنْ، هناك ما يشير إلى أن الأمورَ لم تكن دائماً على النحو الذي يُرادُ لها، مع تعاقُب الحُكَّام المسلمين على البلاد، ويمكن استنتاج ذلك ببساطةٍ من مرسومٍ صدر عن السلطان المملوكي الظاهر أبي سعيد مُحمَّد المنقوش أمامكم، ويجدِّد فيه حقوق الأرمن، ويلعن كلّ ملعون ممَّنْ يُلحِق الأذى أو يُحدِث ظلماً بهذا المكان المقدَّس.

ضحكنا جميعاً على تكرار اللعن في النقش، بينما حرص مناويل على إفادتنا، بأنهم يحتفظون أيضاً بعهدٍ أصدره الخليفة الراشدي الرابع عليّ بن أبي طالب، يؤكِّد إنصاف المسيحيِّيْن في القُدْس، وعهد مماثل، يحمل توقيع معاوية بن أبي سفيان، خصم عليّ اللدود.

ولم أعد أنتبه كثيراً لمناويل، وهو يشرح عن دير مار يعقوب مفخرة

الأرمن في القُدْس معتبراً كنيسته، وَفْقَاً للتسلسل الزمنيِّ، أوَّل كنيسة في التاريخ، ويُدعى مار يعقوب، المؤسِّس الأوَّل لهذه الكنيسة في الإنجيل، الأخ الروحي للمسيح.

تنبَّهتُ إلى وجودنا في المتحف الأرمني، المليء بالصور القديمة، بالأبيض والأسود، التي تُوثِّق لِمَا وصفها مناويل الهولوكست الأرمنيّ، الذي حدث بأيدي العثمانيِّيْن وسلاحهم.

وجدتُ نفسي في زمنٍ غير زمني، حتَّى بعد أن خرجنا من المتحف، وسرنا في الحَيِّ الأرمني، محاصرين بظلال المجازر، التي بدت لي أنها وقعت للتوِّ، وعلى طول الطُّرُقات عُلِّقت رسوم لخرائط، تُوضِّح مواقع المجازر.

قال مناويل: «لم تكن المذابح التي تعرَّضنا لها نهاية الأحزان، واستقبالنا للآلاف من ضحاياها في القُدْس، فكان على البطريركيَّة الأرمنيَّة أيضاً، أن تكون على موعدٍ جديدٍ مع الألم خلال عام النكبة، بسبب وقوعها بين مواقع الثوَّار الفلسطينيِّيْن، والحيِّ اليهوديِّ، وتعرَّضتْ لقصف العصابات الصهيونية آنذاك، ورغم سقوط آلاف القذائف المتنوِّعة على الكاتدرائيَّة إلَّا أنها لم تُصَب بأذى، وكذلك نجا أبناء الطائفة الأرمنيَّة الذين لجؤوا إلى الكاتدرائيَّة».

لم أُصدِّق ما قاله مناويل، وهل الأسلحة الصهيونية لا تقتل إلَّا فلَّاحي قريتنا، والتفتُّ إلى لُور التي فهمتْ ما أفكِّر به، فقالت: «عندما يقرِّر ربُّنا أن يرأف بقومٍ، فإنه يفعل ذلك». وألحقتْها بغمزةٍ، وكأنها تقول: أتَّفق معكَ فيما تفكِّر فيه، ولكنْ، عليكَ أن تمرِّر، وأن لا تقف عند كلمة، قالها مؤمن، مؤمناً، أو مبالغاً. أعجبتْني الغمزة، وأعادت لي ثقتي، كرفيق للُور، لا أحد يمكن أن ينافسَني، حتَّى هذا المتفلسف مناويل.

ورغم ذلك، بقيتُ غير مصدِّق، كيف يمكن للناس أن ينجوا من آلاف

القذائف التي يمكن أن تسقط على رؤوسهم؟ بينما كان بإمكان قنَّاص، متحصِّن في موقعٍ ليس بعيداً عن الموقع الذي نحن فيه الآن، بطلقةٍ أو أكثر، أن يُردِيَ حُلْوَة زوجة مختار قريتنا قتيلة.

واصل مناويل حديثه، وكأنه لم يسمع ما قالتْهُ لُور، ولم ينتبه، لانفعالاتي، أو لم يهتمّ بها: «حسب التقليد الأرمنيِّ على مَنْ يعتنق المسيحيَّة أن يحجَّ إلى القُدْس على الأقلِّ مرَّة واحدة في حياته، وعلى مرِّ العصور حجَّ إلى الأرض المقدَّسة الكثير من مشاهير ملوك الأرمن، والملكات، ورجال الدولة، والأمراء، وأناس من جميع الأوساط الاجتماعيَّة، حاملين معهم هدايا تذكاريَّة، تركتْ بصمةً مميَّزةً في نقل الحضارة الأرمنيَّة إلى القُدْس، وأوَى دير مار يعقوب الآلاف من الحُجَّاج حتَّى الحرب الأخيرة، عندما تغيَّر كلُّ شيء، مع بدء حقبة الاحتلال الجديد، وبشكلٍ لا يُصدَّق، وبدلاً من قدوم الأرمن إلى القُدْس، تغيَّر الاتِّجاه، وبدأ نزيف هجرة الأرمن من القُدْس إلى الخارج، طلباً للأمان والاستقرار».

قال مناويل جمله الأخيرة متأثِّراً، وخلتُ أنه خنق دموعاً، كانت مستعدَّة لتُذرَفَ من عينَيْه.

السادس والسبعون

جال بنا مناويل، وتحدَّث كثيراً، ولم أعد أستمع لما يقوله، وغاظني استمتاع لُور بالجولة، والطلب منِّي بين الفَيْنَة والأخرى، الانتباه إلى الأضرحة في الكنيسة، أو الجدران الملوَّنة بالأزرق والأبيض، وقناديل الزيت المصنوعة من الفضَّة، والمُدَلَّاة من قُبَّة مقنطرة عالية، ونقوش صُلْبان أرمنيَّة صغيرة الحجم، على الجدران نَقَشَهَا الحُجَّاج، وكُلُّ مجموعة من هذه الصُّلبان كانت تُمثِّل عدد أفراد عائلة الحاجّ، وكذلك الشموع المضيئة على المذبح، وهي المصدر الوحيد للضوء، وتخيَّلتُها تعيش حالة رومانسيَّة، يضفي عليها ضوء الشموع ألقاً، لا يمكن تجاهله.

قال مناويل: «توصف كنيستنا بعلبة المجوهرات، فهي تختلف عن باقي الكنائس في القُدْس، ببنائها الجميل، الذي تمكَّن من تحقيق معجزة البقاء لمدَّة ألف عام، ويمكن لكما، وأنتما من محبِّي المتاحف، أن تنظرا لها باعتبارها متحفاً، وتُمتِّعا أعينكما بمذابحها الذهبيَّة، وثُريَّاتها الفضِّيَّة، والزخارف المبهرة، وفيها الكَنْز، كَنْز مار يعقوب، الذي لم يكن يُفتَح إلَّا في المناسبات، أو احتفاءً بزيارات شخصيَّات مرموقة».

تمكَّن مناويل من لفت انتباهي بحديثه عن الكَنْز، فطلبتُ رؤيته، وأنا أشعر أكثر وأكثر بأنني علاء الدِّيْن أو السندباد، يجوس أزقَّة القُدْس القديمة الغامضة والساحرة، راقني هذا الشعور وتبدُّل حالتي المعنويَّة.

تلفَّتَ مناويل حوله، وكأنه يحترس من شيءٍ ما، ثمَّ قال: اتبعاني، وتبعناه، أنا ولُور، ونحن ننظر لبعضنا بعضاً، مستشعرين من خلال تجاربنا

في متحف روكفلر، ما يمكن أن يواجهنا من مفاجآت، ورجال يخرجون من قماقمهم المحبوسين فيها ليتحدَّثوا إلينا، ويتركوننا مذهولَيْن، متسائلَيْن.

وقف مناويل أمام غرفة مُجلَّلة بستائر حريريَّة ثخينة، وهتف بصوتٍ ضعيف أراد أن يُضفيَ عليه وقاراً وغموضاً: افتحْ، يا مار يعقوب، ودفع الباب بيده، لنجد أنفسنا وسط مغارة علي بابا الحقيقيَّة.

بعد لحظات صمتٍ، تطوَّع مناويل للشرح عن الأيقونات المزخرفة، وملابس رجال الدِّيْن المبهرة، والتيجان الذهبيَّة التي لا يمكن وصفها من شدَّة جمالها ولمعان الذهب والحجارة الكريمة عليها، وكؤوس القرابين الفخمة، والصُّلبان المُرصَّعة بفصُوصٍ نادرة، والصولجانات، والقلائد.

ألْهَبَ ما رأيتُهُ خيالي، وأنا أحاول التأكيد لنفسي، بأنني في مغارةٍ حقيقيَّة، وحاولتُ لمس كؤوس القرابين، لأتأكَّد من حجارتها الكريمة، ومجلَّدات المخطوطات المذهَّبة، والإشعاعات المتلألئة والأنوار المشعَّة المتدفِّقة من كلِّ شيء في الغرفة.

قال مناويل: «بماذا تُحسَّان؟ هل دهمتكُما أحاسيسُ ناعمةٌ، تتحلَّق حول الألوان الصافية الهادئة المنبعثة؟ هل انطبع لديكما، بأن هذه الفصُوص المذهلة، من لؤلؤٍ وماسٍ، وزُمُرُّدٍ، وياقوتٍ، وغير ذلك، تموج بنورٍ، ولكنْ، من غير تدفُّق، وبتنقُّل سلس من أحمر وأخضر، وأزرق وأصفر؟».

تسمَّرتُ أمام مجموعة من العِصِيِّ التي تعلوها صُلْبان ذهبيَّة كبيرة، تبدأ كلٌّ منهما، وإن بتشكيلات مختلفة، بتضافر حَيَّتَيْن، تنتهيان برأسَيْن متقابلَيْن.

لماذا تكثر الحَيَّات في القُدْس؟ هل للحماية؟ من مسجد الحَيَّات على بُعد أزقَّة من هنا إلى قبر سيِّدنا سليمان غير المعروف مكانه بالضبط، ولكنه بالتأكيد قريب من هنا. الصورة التي رسمتْها والدتي بالكلمات منقوشة في عقلي: «كلَّف ربُّ العزَّة حَيَّة كبيرة، رهيبة، قرناء، حراسةَ قبر سيِّدنا

سليمان المجهول، والذي دُفن فيه أيضاً خَاتمَه، وكلُّ مَنْ يقترب من القبر، لأَخْذ الخاتم، تحرقه وتُحوِّله رماداً».

وجاءني صوت أُمِّي وهي تؤكِّد، بأن شخصاً يُدعى جانشاه، تمكَّن من معرفة موقع قبر سليمان، وزاره، ليسرق الخَاتَم السحري، ولكنه بالطبع فشل، وخاب، وأصبح لقلَّة فهمه وتدبيره رماداً، بعكس السندباد، الذي علم موقع القبر، وزاره، دون أن تكون السرقة من غاياته، فنجا جوَّابُ الآفاق غير الطامع في ملكٍ، أو مال.

هكذا يجب أن تكون أخلاق المغامر، يكفيه التجربة، وحسُّها، وألقُها، وإرواء شَغَفه، الذي لا يرتوي عادة.

وضع مناويل يده على كتفي: «إنها رموز، إذا كنتَ من القُدْس، عليكَ التدرُّب على فَكِّ الرموز، وحَلِّها، وصُنعِ رموزكَ الخاصَّة».

وأضاف موجِّهاً كلامه لي ولِلُور: «كلُّ ما تريانه هنا، وصل القُدْس، من أرمينيا وقيلقيا، كهدايا مَلَكيَّة، حملتْها أيدي المبعوثين والحُجَّاج الورعين والمؤمنين، لتلبية رغبات أُناس أكثر إيماناً، أرادوا أن تكون لهمْ ذكرى في القُدْس، وكما يقول البطريرك أليشا الثاني: إنها الأُمنيَّات العظيمة، وإيمان النفس الأرمنيَّة، جَلَبَتْ إلى قُدْسنا جمالَ فنِّها وروعته، وأودعتْهُ هنا في هذا الكَنْز».

مَنْ هو أليشا؟ ليس مُهمَّاً، ليس الآن وقت السؤال، ربمَّا مناويل نفسه لن يستطيع الإجابة، وأنا أراه مبهوراً مثلنا، وكأنه يرى، ما نرى، لأوَّل مرَّة.

تقدَّمنا مناويل إلى الباب، معلناً انتهاء الزيارة، وقال بعد أن أصبحنا جميعاً خارج المغارة السحريَّة: أَغْلِقْ، يا مار يعقوب. ولكنْ، هذه المرَّة بدا لنا أقلَّ جِدِّيَّة، ومبعثاً على الابتسام، فنظرتُ إلى لُور، وابتسمنا، ولعلَّ مناويل لاحظ ذلك، وابتسم مثلنا.

أصبحنا خارج الكنيسة، والدير، دون أن يفارقنا السِّحر. قادنا سيرنا في طرقات حارة الأرمن، إلى شارعٍ رئيس، يقع عليه مسجد الديسيّ، وبجانبه مدرسة تلموديَّة يهوديَّة، أمامهما موقف مَركَبات، استحدثتْهُ حكومة الاحتلال بجانب سور القُدْس من الداخل.

قال مناويل: «حقُّ الجار وغصب الاحتلال ..!».

وعرف بأننا بحاجةٍ إلى توضيحٍ، فأكمل: «عندما اعترض الأرمن، جيران مسجد الديسيّ، في زمنٍ بعيد على ارتفاع صوت الأذان، استجاب المسلمون لجيرانهم ومواطنيهم، فأخفضوا الصوت، ولكنَّ الأمر اختلف، بعد أن أضحى المسجد في مفهوم الاحتلال الإسرائيليِّ جزءاً من حارة اليهود، التي لم تعد هي نفسها حارة اليهود قبل الحرب، وهجر الناس المسجد الذي يزيد عُمُره عن سبعمائة عام. ويُفضِّل معظم المسلمين الصلاة في المسجد الأقصى، بسبب الحسنات الكثيرة المضمونة، ولا يغامرون بالصلاة في مسجدٍ، قد تكون فيه الصلاة خطرة في الحياة الزائلة، وبحسناتٍ أقلّ بكثير في الآخرة الباقية».

رأينا أولاد اليهود المُتديِّنين بسوالفهم الطويلة، يركضون أمام المسجد، ويتسلَّقون الباب، ومنهم مَنْ يصعد إلى سطحه.

عندما ودَّعنا مناويل، وضغط على يدي، طالباً منَّا العودة مرَّة أخرى، شعرتُ بأن الحياة تدبُّ في عروقي من جديد، وأحسستُ بطَعْمٍ للهواء الذي أتنفَّسه، خصوصاً، وإن لُور ما زالت بجانبي، ونسير معاً في أزقَّة القُدْس القديمة.

لا شيء يعدل لديَّ التسكُّع مع لُور في شوارع مدينتنا.

ثانٍ
سِفْرٌ للحزنِ والحياة

الأوَّل

كما يحدث دائماً معي، لم تسر الأمور، كما تمنَّيتُ مع لُور، وقعتْ أحداث شغلتْني عنها قبل تبخُّرها واختفائها من المتحف وقصر الشيخ وشوارع القُدْس.

عندما عدتُ في أحد تلك الأيَّام المفعمة بالحياة والشوق والمطاردة في أزقَّة المدينة المقدَّسة، وأنا مُمسك بيد لُور، إلى المنزل، صُعِقْتُ بأن والدي لن يعود، لقد اعتقله المحتَلُّون الجدد، وعلمتُ بأنه شارك مع فدائيَّة بزرع عبوة في سوق محني يهودا، في القُدْس الغربيَّة، ولاحقاً عرفتُ أن رفيقته مريم التشاديَّة استُشهدت، أمَّا هو، فأُصيب.

اعتُقل لاحقاً أفراد خليَّة والدي كأبي روحي المغربي، والشيخ نعيم، ومحمَّد الجَهَالين صاحب الجمل في سطح البحر وآخرين الذين استفادوا من الأسلحة التي جلبها أبونا بوللو من لبنان، عبر معبر رأس الناقورة، وعجَّلوا بوضع قنابل في دُوْر سينما وأسواق، بعد اعتقال الراهب وانكشاف أمره، وأصبحوا على يقين بأن الوصول إليهم مجرَّد وقت، فَمَنْ وصل إلى رأس نبع السلاح سيصل إليهم.

ومن الأماكن التي وُضِعَت فيها القنابل، وبعضها لم ينفجر، ومَن انفجر منها، خلَّف أضراراً بسيطة، منزل حنَّا العَرْعُور في شارع القُدْس - الخليل، وأمام باب بيت حِنَّة في البَقعة، وتحت مقعد في ميدان صهيون، حيث جلسنا يوماً أنا ولُور، والتقينا العمَّ حنَّا.

خطَّطتْ خليَّة والدي لوضع قنبلة أو أكثر في منطقة حارة المغاربة

قرب الحائط الغربي للمسجد الأقصى، الذي يبكي عليه اليهود، وقنبلة لا تأثير لها في المسجد الأقصى، والهدف إثارة المشاعر بيننا وبين اليهود، تعجيلاً للثورة الشعبيَّة التي تمنُّوها وسعوا إليها؛ ولكنْ، حدث ما عطَّل هذه الخطَّة.

أتذكَّر الآن، كيف وصلتُ المنزل، الذي تجمَّع أمامه عدد من الجيران والأهالي، مضطربين، وكأنهم أمام منزل تُوفيِّ صاحبه للتوِّ، وأتوا ليكونوا مع عائلته، في ظرفٍ عصيب.

اقترب منِّي بعض الجيران، وأحاطوني، ليُرافقوني إلى الداخل، مُشكِّلين درع حماية لي من مفاجآت قلقة، لم يدركوا كيف سيستقبلها الصغير رفيق والده ووحيده.

تقدَّم منِّي السَّبْع، قائلاً: «اتركوه، إنه كبير كفاية، ليفهم الدنيا، ويتحمَّل قَرَفَهَا، عليه منذ الآن أن يكون رجلاً».

لم أعر انتباهاً لِوَزَّة، التي وقفت بجانبي تموء، مقدِّمة ما لديها من مشاعر، ولعلَّها أدركت ما يجري، فعذرتْني على سوء تصرُّفي، رأيتُ أُمِّي تجلس في منتصف الغرفة تقريباً، على واحدة من الفرشات المفرودة، وبجانبها أُمُّ السَّبْع، ومحاطة بنساء الحارة والقريبات، ويبدو أنها أجهشت في البكاء قبل وصولي، لأنني شعرتُ بِنَهْنَهَتِهَا، ورأيتُ بقايا سائل ينزُّ من أنفها، تجفِّفه بمَحْرمة في يدها.

خيَّمتْ على المنزل سحابة حزن وترقُّب ثقيلة؛ عندما اقتربتُ من والدتي أدركتُ بأنها لم تستيقظ من الصدمة، بينما العمُّ مهتمٌّ باستقبال الأقارب والمعارف والحديث معهم، وتبادل المعلومات، وترديد عبارات التهوين ممَّا حدث، وأدركتُ بأن مهمة أُمِّ السَّبْع التدخُّل لتهدئة الوالدة، عندما تشعر بأن الأخيرة ستترك لأحزانها فرصة التعبير الصريحة.

لم أعرف ماذا عليَّ أن أفعل، في مثل هذا الظرف، الذي كان عليَّ

وعلى أُمِّي توقُّعه! فلُذتُ بالصمت والتنقُّل بين مجلسي أُمِّي وأُمِّ السَّبْع والنساء اللواتي تزايد عددهنَّ، وبين العمِّ الذي يضطلع بالدَّوْر الذكوري، وعليه إخفاء أيَّة مشاعر فاضحة، والاكتفاء بإمساك الحبال، وعدم تركها أو شدِّها، وبثّ الأمل، والدعوة للتمهُّل، والتيقُّن، والاستزادة من المعلومات، وعدم القنوط من رحمته تعالى.

كان على أُمِّي أن تتلقَّى أخباراً متناقضة وصادمة، قبل وصولي، عن الانفجار الذي هزَّ محني يهودا، وليس هناك أسوأ من الأخبار المُجزَّأة، تصل لامرأةٍ تراوحت الظنون لديها من أسوئها؛ موت زوجها، إلى احتمال إصابته بعجز، في سنِّه المبكِّرة هذه.

عاشت أُمِّي على قلقٍ، تتلقَّى نتف الأخبار، من راديو إسرائيل باللغة العربيَّة، ذي النبرة العدائيَّة والمتشفِّية عن ما تصفهم بالمخرِّبين الذين فجَّروا السوق، ومن متطوِّعين، أغلبهم حسني النيَّة، يظهرون دائماً في مثل هذه الظروف، حتَّى تأكَّد بأن والدي، الذي نفَّذ العمليَّة، مع مريم التشاديَّة، لم يستشهد.

لم أتفاجأ بأن تكون مريم التي كانت دائمة لطيفة معي، هي رفيقته في العمليَّة، فطوال الفترة الماضية شعرتْ بأن شيئاً يجمعها مع والدي، وأنه ليس فقط الذي اعتقدتْهُ أُمِّي، وتسبَّب ذلك بمناوشات بينها وبين زوجها، أزعجتْني كثيراً، وحرمتْني من النوم المريح بينهما، حيث كانا ينامان بعد موجات الصراخ والتهديد والعويل، كلٌّ بمفرده، وينسياني، ولم تؤنسني إلَّا وَزَّة.

ستتغيَّر زوايا النظر تجاه والدي ومريم عندما أُشيع بأنهما كانا متزوِّجَيْن، ولعلَّ مصدر الإشاعة التنظيم الفدائي الذي ينتميان إليه، الذي أراد توفير حماية معنويَّة لمريم، وصدّ موجات القيل والقال، التي قد تمسُّ شرف امرأة شوهدت وهي ترافق والدي كثيراً في شوارع القُدْس وأزقَّتها وزواريبها، دون

أن تعبأ بذلك وهي حَيَّة، تعيش بيننا، وتتنفَّس نفس الهواء، وتُحلِّق بأحلامها بعيداً، ولكن الموت، خاصَّة إذا كان استشهاداً، لا يتعلَّق بها وحدها، أو بوالدي، أو حتَّى بعائلتنا الصغيرة، وإنما بشرف أعلى وأكبر، يُسمَّى في القُدْس شرف الوطن، ولكنْ، واحدة على الأقلِّ من سكَّان القُدْس، لم يكن ذلك يعني لها سوى طعنة زوج، لصبرها، وحُبِّها، وتدبيرها، واهتمامها.

أمَّا أنا، فلم يُزعجني أبداً، وقد أصبحت مريم في عالمٍ آخر، ولن أراها مجدَّداً في شوارع القُدْس وحاراتها، أو في قريتنا، أن يكون قد جمعها شيء مع والدي، طالما شككتُ به، وعندما يخطر ببالي ذلك، تحضر صورة لُور التي تكاد لا تغيب عنِّي، وأنا لا أعرف بالضبط ما الذي يجمعنا سويَّاً، ولكنه شيء قد لا يمكن تفسيره، وإنما إحساسه، من كلَيْنا، أو واحد منَّا، هو أنا فقط. تحضر صورتها، لأتفهَّم تصرُّفات والدي ومشاعره، التي لا شكَّ تشبه مشاعري تجاه لُور، والتي لا أستطيع التحكُّم به، ولعلَّ والدي، أيضاً، لم يتمكَّن من ذلك أيضاً. فعاش بقلبٍ واحد بين امرأتَيْن، ولكنْ، كيف يمكن لأُمِّي أن تتفهَّم؟

سأعذر والدي، ومريم التشاديَّة، وتخيَّلتُ في لحظاتٍ معيَّنة، كيف لو كانا متزوِّجَيْن في ظروفٍ علنيَّة، أن يكون لي أخ منهما، أسود البشرة، بعينَيْن لامعتَيْن مثل عينَي مريم، أصعد معه وهو يكبر إلى القُدْس، وأكون دليلاً له في كشف أسرارها صعبة الاكتشاف، رغم صغرها بالنسبة إلى مُدُنٍ أخرى في العالم.

بالطبع لن يدوم مشهد اليوم الأوَّل في المنزل طويلاً، سيخفت الاهتمام في الأيَّام التالية، وعلينا الخروج من حالتنا، أنا وأُمِّي، لنفعل ما يتوجَّب أن نفعله إزاء اعتقال والدي.

من الصعب الآن، مثلما كان أيضاً من الصعب رواية هذه الرواية، بعد

كلِّ هذه الأعوام، وصف مشاعري في حينها؛ مشاعر طفل اختفى والده وصديقه من حياته فجأة، ولكنَّ الدعمَ المعنويَّ من الأهل وناس القرية، جعل شعور الفقد والفراغ الذي انتابني يتحوَّل إلى مشاعر فخر ولد بوالده البطل، رغم محاولة السَّبْع التقليل ممَّا فعله الوالد، فسمعتُهُ عندما زارنا في المنزل رفقة والدته لمؤازرتنا أنا وأُمِّي كما كانا يفعلان، وقد مضت أيَّام على اعتقال والدي:

- في سوق خضار شعبيَّة، فعلتَها، يا شامان؟ اعتقدتَ بأن وعيكَ سيُنير طريقكَ، وتعرف خلاصكَ، ألم تكن تردِّد دائماً بأن تعليم المجالس أفضل من تعليم المدارس، وأن علم الرأس برَّ علم الكرَّاس، وأنتَ خرِّيج مدرسة الحياة؟! ألَا يكفي عائلتنا واحد مثلي، لن يكون له دَوْرٌ في الحياة؛ حياته، وحياة غيره، فتأتي أنتَ لتفشل؟!

– حرام عليكَ، لقد فعل والد كافل ما يمكن فعله، ضمن الإمكانيَّات الضئيلة، ورغم ذلك لا يستحقُّ إلَّا اللَّوْم منكَ ..!

تَدَخَّلَت والدة السَّبْع مدافِعة عن مَنْ تعتبره مثل ابنها، مدفوعة بمراعاة مشاعر زوجته وابنه الصغير.

وشعرت بأنها أرادت أن تُكمِلَ، فتُعيِّر السَّبْع، بفشله، وغيره من جنود ومتطوِّعين في منع احتلال القُدْس، ولو نجحوا في ذلك، لما احتُلَّت البلاد، ولا تشرَّد العباد، ولا فكَّر أمثال والدي بالمقاومة، ومواجهة جيش الاحتلال القوي، الذي هزم عدَّة دول عربيَّة مجتمعة مرَّة واحدة.

لم تُعلِّق والدتي على كلام السَّبْع، وكانت في حالةٍ من المقت والحزن المقيم، جعلتْها في بعض الليالي، تشتم والدي، لأنه تركنا وحدنا، وفعل ما فعله. همست لي مرَّة: «أنا الآن امرأة وحيدة وشابَّة، أخاف أن ينهشني بعضهم؛ يطمعون بي، لأن رَجُلي أصبح غائباً، ولن يُقدِّروا أن سبب غيابه

هو من أجلهم، قريتنا ظالمة لا تَرحم، كنتُ على استعداد أن تشاركَني مريم التشاديَّة فيه، على أن تلعب بعقله، وتجرَّه إلى ما فعله، كي يظهر أمامها بطلاً صنديداً».

وأضافت: «لم يكن بحاجة لتلك البطولة، ألَا يكفيه زوجة مُحبَّة ومطيعة، وولد ذكي محبوب؟ لم يكن بحاجة لإفلات زمام مغامرته، وغرائز اندفاعه للمجهول، كان عليه كبحها. ألم يفكِّر بي؟ طيِّب، لا أريده أن يفكِّر بي. ألم يفكِّر بكَ، وبمستقبلكَ؟ ألم يتصوَّر كيف ستنمو وتكبر وحيداً في شوارع قريتنا وأزقَّة القُدْس، دون حماية، ورعاية، ومراقبة؟».

وبعد أن صمتت، قالت وكأنها تذكَّرت شيئاً: «ليته كان صريحاً معي بشأن مريم، لباركتُ زواجه، وقبلتُ بأن أكون نصف زوجة، على أن لا أكون زوجة، امرأة معلَّقة في عنق الزمن».

حضنتْني أُمِّي، بينما دموعها تنهمر على رأسي، أشعر بها ساخنة، حارَّة، ومالحة، تتذوَّقها شَعْراتي التي شعرتُ بها تقف وكأنها مجسَّات استشعار، لن تهدأ أبداً منذ الآن وحتَّى يوم غامض يسكن في غياهب الآتي، أدركتُ بأنه لن يأتيَ سريعاً، فما جرى، قد جرى، وسيجري طويلاً.

قالت من بين دموعها: «أنتَ الآن رَجُلي، ورَجُل البيت، عليكَ أن تعيَ ذلك، يا كافل، أنتَ الآن كافلي، وكافل البيت، وكافل نفسكَ، عليكَ أن تكون على قَدْر المهمَّة التي كلَّفكَ بها القَدَرُ الذي لا يعرف العواطف، إنه فقط يُفاجِئنا بأعمالنا وأسرارنا، رغم أنه كان علينا أن لا نُفاجَأ، وكان عليَّ توقُّع أن والدكَ سيفكِّر بخلاصه، ناسياً خلاصنا. ليس مثل الزوجة يمكن أن تعرف بماذا يفكِّر زوجها، فهي تحسُّه وتخترق مخَّه، وتعود بما تريد أن تعلم. ماذا سيكسب عندما يُضحِّي من أجل شعبه، وينسى شعبه الأهمَّ؛ أهل بيته؟ لقد تخلَّى عنكَ مثلما تخلَّى عنِّي! لماذا؟ ومن

أجل ماذا؟ فقط من أجل تلك البطولة التي توقَّع أن يرى رجع صداها في عينَي مريم، هل فعل ما فعل من أجل لحيظات قليلة بعد عودتهما من ساحة الوغى، قلقَيْن، يحضنان بعضهما، وينظر في عينَيْها وهو يبتسم للمعانهما؟ هل توقَّع أن يرى في عينَيْها دنيا غير دنيانا أنا وأنتَ؟ قد يقول إنه فعل ذلك من أجل الناس، هل فعلاً فعل ما فعل، لكي يحتلَّ مكانة في أعين الناس؟ ألم يعلم أنهم سينسونه بسرعةٍ مثلما نسوا غيره؟ لن يكون بطلهم الأوَّل، ولا الأخير، ماذا سيتذكَّرون: المساكين، الشهداء الشباب على أسوار القُدْس وأبوابها أم المطاردين لجنود الاحتلال أم بطولات معارك النكبة؟ هل اعتقد بأنهم سيُطلقون اسمه على حجرٍ أو بستان، أو وادٍ، كما فعلوا مع الشهيدة حُلْوَة؟».

الثاني

لم يوازِ حزن أُمِّي، على حالنا بعد اعتقال والدي جريحاً، سوى فجيعتها على هدم منزلنا، بل إن حزنها الأوَّل لا يمكن مساواته بما حدث لها بعد هَدْم منزلنا وتشريدنا.

قالت بحزن: «عندما يغيب عمود البيت، فالبيت سيسقط»، مفجوعة بغياب والدي، داخل السجن.

علمنا من المحامية الشيوعيَّة اليهوديَّة فولا، بأن قوَّات الاحتلال قرَّرت هدم منزلنا، ومنزل عائلة مريم التشاديَّة، مثلما فعلت مع منازل فدائيِّيْن اعتُقلوا سابقاً، لتنفيذهم عمليَّات ضدَّ أهداف إسرائيليَّة.

بعد اعتقال والدي، ذهبتُ مع والدتي، إلى مكتب المحامية فولا، التي تولَّت الدفاع عن العديد من الفدائيِّيْن المعتقلين، لأسبابٍ وصفتْها بأنها ضميريَّة، وتعبيراً عن رفضها لاحتلال ما تبقَّى من الأراضي الفلسطينيَّة، التي سقطت في الحرب الأخيرة، ومن بينها القُدْس الشرقيَّة.

حاول السَّبْع أن يأتيَ معنا أكثر من مرَّة، ولكنَّ أُمِّي رفضت، ولم تقبل أيضاً عرضه بتقديم أيَّة خدمات لنا، ما دام والدي في المعتقل، ولم أفهم سبب رفضها، وتصوَّرتُ العكس؛ لو أن السَّبْع هو مَن اعتُقل، فإن والدي لن يترك والدته أبداً.

ولم تُجب والدتي عن سؤالي حول رفضها خدمات السَّبْع، وفهمتُ أن للأُمَّهات، أو بعضهنَّ مثل أُمِّي، رؤاهنَّ، واختياراتهنَّ، التي قد لا تكون مفهومة لديَّ.

كان عليَّ ووالدتي، الخروج من باب الخليل، وقطع الخطِّ الوَهْمي بين القُدْسَيْن، وقبل الوصول إلى مقبرة ماميلا، نعطف يميناً، إلى شارع كورش، الملك البابليّ، الذي ساعد اليهود خلال السَّبْي البابليّ، وهو نفسه، كما سمعتُ لاحقاً، ذو القرنَيْن، المذكور في القرآن الكريم، ونصعد درجاً كئيباً في عِمَارَة كئيبةٍ، إلى مكتب المحامية، ونجلس في الرواق الصغير أمام غرفة المكتب، مع مساعدها إيفان، حتَّى تتفرَّغ لنا، وتكون جاهزة لاستقبالنا.

كان إيفان ودوداً، قصيراً، بكرش صغير، وشَعْر صغير مجعّد، بوجه يغلب عليه الاصفرار، هادئاً، يتكلَّم ببطء في الخمسينيَّات من عُمُره، شارك في الحرب عام النكبة ضمن الهَجَناه، واحتلَّ قرىً فلسطينيَّة، وقَتَلَ فلسطينيِّيْن، وفَقَدَ يده اليمنى، في تلك الحرب، واستعاض عنها بيدٍ حديديَّة، أخافتْني حتَّى اعتدتُها. وبعد تأسيس دولة إسرائيل، تبلورت أفكاره باتِّجاه الشيوعيَّة، فانضمَّ للحزب الشيوعيِّ الإسرائيليِّ، وأفرزه الحزب للعمل مع فولا، بسبب إصابته، وإذا كان شارك في حرب النكبة محارباً، فإنه عارض الحرب الأخيرة، ويطالب بالانسحاب من الأراضي التي احتلَّتْها دولته، وإقامة دولة فلسطينيَّة بجانب دولة إسرائيل.

هذه التفاصيل عن مبادئ إيفان السياسيَّة لم تكن في ذهني بمثل هذا الوضوح الذي أذكره الآن، وبدت لي غير منطقيَّة آنذاك، وتمنَّيتُ لو وُجِدَتْ لُور معي، لكي تستمع وتناقش، ونحدِّد سويّاً موقفاً، من مبادئ إيفان وأمثاله.

عُرفت فولا بمواجهتها للمحقِّقين والقضاة الإسرائيليِّيْن، ونشاطها المحموم، من المكتب إلى المحاكم، إلى زيارات السجون، وكتابة المقالات، في جريدة الاتِّحاد الشيوعيَّة التي تصدر في حيفا، والتي هي أشبه بالشهادات عن ما يتعرَّض له المعتقلون من تعذيب.

وشاع بين أهالي المعتقلين، بأنها مكروهة جدّاً ومنبوذة من قِبَل دولتها،

وقيل بأن بعض القضاة، الذي يمكن للواحد منهم أن يحكم ببضعة سنوات على معتقل، فإنه يحكم أضعافها عندما تكون فولا محاميته.

كانت فولا تتقاضى أتعاباً من المعتقلين، ولكنها تعفي المعتقلين الشيوعيِّيْن أمثالها من ذلك، تعبيراً عن حِسٍّ رفاقي اتِّجاههم، وللأسف لم يكن ذلك يشمل والدي الذي لم يكن منتمياً للحزب الشيوعيِّ، فتكفَّل عمِّي بدفع الأتعاب، على أقساط.

عندما تكون فولا جاهزةً لاستقبالنا، تعطي إشارةً إلى إيفان، أو أننا نعلم بذلك عندما يخرج من مكتبها مراجع أو مراجعة، وعندما نصبح داخل المكتب تهبُّ من خلف طاولتها، إذا كانت جالسة، مرحِّبة بعبارات، هي مزيج من العربيَّة والعبريَّة، ولم يكن من النادر أن تأخذ أُمِّي بالأحضان أو تُقبِّلني، ثمَّ تضعنا في صورة الوضع القانوني للوالد، والتحدِّي الذي واجهنا بشدَّة هو قرار هدم المنزل، وبعد فترة من متابعتها الأمر في محكمة العدل العليا الإسرائيليَّة، تمكَّنتْ من وقف هدم منزل عائلة مريم التشاديَّة في البلدة القديمة، لأنه منزل يقع ضمن ملكيَّة الأوقاف، وكذلك لقيمته الأثريَّة والتاريخيَّة، وكانت تعرف بأن سلطات الاحتلال لن تُقدم على هدم منزل مريم، وإن كانت هذه السلطات، في غمرة نشوة النصر، هَدمت حارة المغاربة بكاملها، فإن ذلك تمَّ لهدف سياسي وتوسُّعي لصالح الاستيطان اليهودي، وعَيْن هذه السلطات على باقي أحياء القُدْس القديمة ومنازلها، للتوسُّع والاستيلاء عليها. أمَّا بالنسبة إلى منزلنا، فإن المحكمة العليا رفضت استئناف فولا الذي قدَّمتْهُ باسمي واسم والدتي، مشفوعاً بشهاداتٍ، بأننا لا نملك غيره، وأننا سنتشرَّد في حالة هدمه، ونحن لسنا لنا علاقة بما فعله والدي، ولكن منطق الاحتلال يختلف عن منطقنا الإنساني، وتبريرات فولا القانونيَّة، التي ذهبت بعيداً، مستنكرة عمليَّة والدي ومريم، التي استهدفت مَدَنِيِّيْن، ولكنَّها من حسن الحظِّ،

لم تخلِّف ضحايا، طالبةً من القضاة تصوُّر حالة رجل وامرأة وجدا أنفسهما وقد احتُلَّت مدينتهما، ولم يجدَا ما يعبِّرا عن رفضهما للاحتلال، إلَّا ما فعلاه، مؤكِّدة أنهما لم يتصرَّفا إلَّا بردة فعل عشوائيَّة، ومَنْ يحتلُّ بلداً عليه توقُّع ردَّات الفعل العشوائيَّة والمزُلْزِلَة.

وقالت فولا: «عليكم الانسحاب الآن، وليس غداً من الأراضي المحتلَّة، وتملكون الشجاعة للتفاوض مع قادة منفِّذي العمليَّات، ليس هناك حلٌّ آخر، وستفعلون ذلك، ولكنْ، قد يكون الوقت قد تأخَّر كثيراً، وشوَّهكم الاحتلال، لا يمكن لشعب يحتلُّ شعباً آخر، ويبقى حُرَّاً».

حاولت والدتي التماسك، وفعلت ذلك من أجلي، وقالت، بأن مَنْ بنى بيتاً، يمكن أن يبنيَ غيره، وعشنا أسابيع في حالة توتُّر، لأننا لم نعرف متى سيأتون لهدم المنزل.

وأذكر كيف عاشت وَزَّة أيضاً ذلك معنا، لم تهدأ أو تستكن، وهي تتنقَّل بيني وبين والدتي وأُمِّ السَّبْع التي لم تفارقنا، وعبَّرت عن وضعنا بمنغوم ردَّدتْهُ بطريقتها:

حبيبي عَ العين غايب

وأنا قلبي عليه ذايب

يا ربِّي تنجيه وأشاهد

ورد خدّه والياسمين

واستبدَّ بها الحزن:

زعق طير الحمام وقال ما جين

وأل أوعدوني اليوم ما جين

نشدتك بالنبي يا بير ما جين

ولا وردن عليك اليوم طراش الحبابا؟

وأضافت:

زعق طير الحمام وقال: «ما جوش
ها اللي وعدوني اليوم ما جوش»
سألتك بالنبي يا بير ماجوش؟
ولا وردك طرش الصحابا؟

ولكنها تخرج سريعاً من هذا الجوِّ الحزين، لتواسيَ، وترفع معنويَّات والدتي، قائلة، بأن الله يمكن أن يُغيِّر، ليس حالنا فقط، ولكنْ، حال الدنيا، إلى حالٍ آخر، ولا يحتاج ذلك منه، إلَّا مقدار رمشة عين.

ولكنْ، للأسف ما تمنَّتْهُ أم السَّبْع لم يحدث، وأعتقد أنها كانت تعلم، بأنه لن يحدث.

حضرت قوَّة كبيرة إلى حارتنا، وطوَّقتْها، وأعلن الجنود عبر مُكَبِّرات الصوت فرض حظر التجوُّل عليها، وطلبوا من الجيران إخلاء منازلهم، والخروج خارج نطاق الطَّوْق، خلال نصف ساعة، ومَنْ لا يفعل ذلك، فعليه تحمل مسؤوليَّة رفضه، أمَّا بالنسبة إلينا، فأُعطينا نفس المهلة لإخراج ما نريد إخراجه من المنزل. فلم يلتزم أهل الحارة، والأقارب وبعض من أهل القرية بقرار حظر التجوُّل، وهبُّوا لمساعدتنا لإخراج أثاثنا وحاجياتنا، ونقلها إلى منزل أُمِّ السَّبْع.

حرصتُ على إخراج وَزَّة، ونقلها إلى منزل أُمِّ السَّبْع، في حين أن السَّبْع كان الأنشط في نقل أغراضنا إلى منزل والدته، وعندما تجاوزنا النصف ساعة، تدخَّل الضابط عبر مُكَبِّر الصوت، وطلب من الجميع المغادرة، ومَنْ يريد أن يخالف الأوامر ويظلَّ في المنزل، فسيجد نفسه تحت الركام، رفضت أُمِّي المغادرة، وقالت: «أريد أن أموت تحت ركام بيتي»، ولكنَّ أُمَّ السَّبْع والجارات تمكَّنَّ من سحبها، وهي تصرخ وتبكي، وتُثبِّت أقدامها

على الأرض، وتحاول الإفلات لشقِّ ثوبها من أعلى، وهو ما تفعله نساء قريتنا عندما يُنكَبْنَ بموت عزيز، وبدا لي أنها، وهي تدرك، بأنها ستفقد منزلها نهائيَّاً، فضَّلت الموت تحت ركامه، لم تفكِّر بي أو بغيري في تلك اللحظة، وإنما في فقدها لبيتها الذي عنى لها حياتها، ودنياها، وبهدمه ستبدأ رحلة تشرُّد، لم تكن مستعدَّة لها أو توقَّعتها، عندما كانت حياتها تسير، بأقلِّ قَدْر من المنغِّصات، خلال وجود والدي، وحتَّى لو كانت المنغِّصات تُنغِّص عليها حياتها، فهي تراها الآن، وهي تفقد بيتها، وكأنها لا شيء، أو لم تتعرَّض لها.

ماذا عنى لها البيت في تلك اللحظات؟ سوف أعود دائماً بذاكرتي للحظاتها تلك، لأسأل وأتساءل، أنا مثلها نُكِبْتُ، ولكنني لم أستشعر الخطر مثلها، لقد أيقنتُ بأنها وهي تفقد سقفاً تأوي أسفله، حتَّى لو كانت بدون زوجها، ووحدها مع ابنها، فقدت غطاءً، وأصبحت مكشوفة، والأعين الغريبة جاهزة، للنظر والبحلقة.

أصبحنا جميعاً خارج الطَّوْق، ننظر إلى ما سيجري، وساد صمت عميق؛ سببه خوض الناس للتجربة الأولى في هدم منزل بقريتنا. فأن تسمع عن هدم منزل في مكانٍ آخر أو قرية قريبة أو بعيدة هو شيء، وأن ترى جدراناً، وأسقفاً، وقواطع، وأبواباً، ونوافذ، تكتشف أنكَ كنتَ تبادلها التحيَّات، والعواطف، والأشواق، وهي شاهدة على فرحكَ وحزنكَ، تنهار بسرعةٍ ومرَّة واحدة، عندما يضغط أحدهم على أزرار التفجير، فلا ترى منها سوى الغبار الأبيض هو شيء آخر، فكلُّ شيء في منزلنا استحال غباراً، صَعِدَ قليلاً إلى الأعلى، ولكنه لم يُشكِّل غيمة أو يتطاول أكثر من اللازم، فسقط على الأرض.

عندما غادر الجيش المنطقة، ركضتُ خلف أُمِّي نحو ما كان بيتنا، سقطت أُمِّي مغشيَّاً عليها، وهبطت أُمُّ السَّبْع نحوها وهي تُولول، وتقول:

«حرام ما تفعلينه بنفسكِ، إن لم يكن من أجلكِ، فمن أجل ابنكِ، الذي يحتاج إليكِ، انهضي، يا أُمَّ كافل، انهضي، يا حبيبتي»، ثمَّ غرقت أُمُّ السَّبْع بالبكاء.

أمام هذا المشهد، تصلَّبت عضلات وجهي، ولم أشعر بعينَيَّ؛ خلتُهما تغوران في الداخل أكثر فأكثر، فلم أعد أرى شيئاً، ولم أحسّ إلَّا بمسحوق غضب يخترق جسمي، ويستقرّ في معدتي، التي شعرتُ بألمٍ حادٍّ لا يطاق فيها، يصعد إلى الأعلى، ويجمِّد رأسي. إنها مسامير مُدبَّبة من جميع الجهات، تُغرَز في المعدة، وتخترقها، ولكنْ، دون أن تسيل الدماء.

تنبَّه إليَّ السَّبْع، فطوَّقني بذراعَيْه، وسحبني، وعندما أدرك بأنني ما زلتُ متشبِّثاً بالأرض، لا أتحرَّك، حملني، وأخذني إلى منزلهم، ووضعني في غرفته التي لم يهنأ فيها بعروسَيْه، وعندما استيقظتُ، كنتُ معهم نتحلَّق حول طعام العشاء الذي أعدَّتْهُ أُمُّ السَّبْع، بينما كانت أُمِّي ما زالت مذهولة، لا تُصدِّق أنه لم يعد لها منزل، تأوي إليه، منذ الآن.

«البيت هو الحياة التي نتنفَّسها» قالت وبدأت تنشج من جديد.

«الآن لم يعد لنا بيت» قالت وهي تنظر إليَّ، تتوسَّل تعزيةً أو ردَّاً، ولم أعرف بماذا أُجيب، ولم أعرف ماذا سيواجهني، وأنا بدون بيت، وذلك السقف، الذي رسم عليه مُخِّي أحلاماً، ونقش حكايات في لحظات الأرق، وأنا ممدَّد على فرشةٍ، أمَّا الآن، فقد فقدتُ ذلك، وأصبحتُ مثل أُمِّي بدون سقف، وما أصعب على المرء أن يمضيَ بدون سقف.

الثالث

رفضت أُمِّي عروضاً بالسَّكَن لدى عمِّي، أو لدى أيٍّ من أقاربها، وأصرَّت على استئجار بيت، بأسرع وقت، ولم تلتفت إلى رجاءات أُمِّ السَّبْع، بأن نمكث في بيتها أطول فترة ممكنة، لم تكن أُمِّي مرتاحة بالمكوث في بيتٍ فيه رائحة رجل، رغم معرفة الناس بأحوال السَّبْع، ولا شكَّ لديَّ بأنها أُصيبت بارتياب شديد، من أيِّ كلام يمكن أن يصدر عن ناس قريتنا، فأرادت، بما استطاعت، تجنُّب ما يمكن أن يؤدِّي إلى القيل والقال الذي قد يطالها، ويصيبني برذاذه.

بسبب مزاج أُمِّي، وتحفُّظها، عشْنا على أعصابنا في بيت أُمِّ السَّبْع، رغم أن الإقامة راقت لي، وراق لي معرفة السَّبْع عن قرب، وأنا أراه يأكل، وينام، ويستحمُّ، ويلقي النكات، ويحاول الترويح عنِّي، وانتشالي من الهُوَّة التي وجدتُ نفسي فيها، وكأنها قَدَر غير متوقَّع.

انتقلنا بعد أسبوع إلى منزلٍ جديد، ساعدنا الأقارب والجيران على نقل الأثاث إليه، وتنفيذ ما يحتاج إلى ترميم، وبعكس ما توقَّعتُ، احتجتُ إلى فترة، كي أعتاد الإقامة في البيت، خصوصاً وأنني أضحيتُ بدون وَزَّة، التي رفضت مغادرة ركام بيتنا القديم، وعندما ذهبتُ أكثر من مرَّة لإحضارها، تهرب منِّي، ولا تُمكِّنني من إمساكها، بل إنها فتحت فمها اتِّجاهي، عندما لم يعد بإمكانها الهرب، وظهرها إلى جزء من حائط مهدَّم، ووجهها إليَّ، وأرسلت رسالة تهديد جِدِّيَّة.

وأصاب أُمِّي المتشجِّعة للانتقال إلى هذا المنزل نوع من الوهن، فلم تُبدِ اهتماماً، بعد ترتيب الأمور الأساسيَّة في المنزل، بوضع ما تبقَّى، فيما

يجب أن يُوضَع فيه، وكان بإمكان زوَّارنا ملاحظة مجموعة من بواقي الأثاث متراكمة فوق بعضها في مدخل المنزل، مُشكِّلة كراكيب، تعكس مزاجنا الذي لم يرقْ بعد.

من هذا المنزل أصبحنا ننطلق أنا وأُمِّي لزيارة والدي في سجن نابلس، فنستيقظ مبكِّراً، أو الأصحّ تستيقظ هي مبكِّراً، وتُحضِّر الإفطار لي ولها، نحاول ازدراد الطعام في هذه الفترة المبكِّرة، ولكن المعدة تكون نائمة، وخامدة، لا تُرحِّب بأيَّة لقيمات، حتَّى لو طرَّتْها رشفات من شاي غُلِيَ مع مَرمِيَّة على نار البابور، فتُصرُّ والدتي شطائر، وتطمئنُّ عليها في كيس، تطلب منِّي حمله، وتضع ما تبقَّى من الشاي في سخَّان، ولا تنسى حَبَّة الليمون، التي قد أحتاجها، إذا اضطُررتُ إلى التقيؤ خلال الطريق، فكثير من الفِتيَة والأطفال لم يحتملوا طول الطريق، التي لا تتجاوز السبعين كلم، ولعلَّ الرحلة في حافلة قديمة تتطوَّح على طريق ظهر الجبل، في مرتفعات فلسطين الوسطى، ونزولاً وصعوداً في مرتفعات اللُّبَّن، التي تشبه طريقها أفعى تتلوَّى، لا تترك المعدة إلَّا وقد أثارتْها، ولا تتركها هامدة، ومستكينة أبداً، فتُحدِث ألماً غائماً، يصعد من البطن إلى الفم والرأس، ويكون العلاج لنا، بالنسبة إلى أُمَّهاتنا هو الليمون؛ مصّه، أو تناول ما يقدر المصاب بالغثيان منه، وعادة لا يكون قادراً، فهدير المعدة يكون أقوى وأصعب.

تحتاج المعدة، إلى وقتٍ، لتنمو، وتتدرَّب، وتتعلَّم، حتَّى تقوى وتصلب، وتتغلَّب على منعرجات الطُّرُق الطويلة.

نصعد مبكِّراً إلى المُصْرَارَة، لننتظر حافلة الصليب الأحمر التي تتوقَّف هناك، في موقف المَرْكَبَات الذي شهد ذكرياتي مع والدي وصحبه، وما تبقَّى منهم عندما يروننا يتقدَّمون لسؤالنا عن أحواله في السجن، مع دعوات بأن يفكَّ الله أسره، وخلال هذه الأَصْباح التي تسبق صعودنا إلى الحافلة، تعرَّفتُ على مَنْ حَلَّ مكان أبي روحي المغربي في العتالة، وحمل أغراض الناس، وعلى مزيد من زبائن مطعم العِكِرْمَاوِي، فعندما

يتأخَّر انطلاق الحافلة، لسببٍ أو لآخر، وعادة ما يحدث هذا، أترك أُمِّي وأنطلق إلى المطعم، لأخذ جرعات بصريَّة وسمعيَّة، كنتُ أحتاجها، تساعد على حفظ توازني، متذكِّراً، بشوقٍ شديد، الوالد وصحبه، وزبائن المطعم القدامى.

تعرَّفتُ على شاعر، يُطلق على نفسه أو يطلقون عليه الصُّعْلُوك المَقدِسيّ، لا يتناول الحمَّص، قبل أن يُلقي عدَّة أبيات، يقابلها الجالسون على المقاعد بالتصفيق، وهو يشبه أبا روحي في هجوه للحُكَّام العرب، ولكنَّ الشاعر الصُّعْلُوك المَقدِسيّ مدَّ حبل هجوه، ليشمل الوجوه التقليديَّة، التي لم تأخذ موقفاً قاطعاً من التعاون مع إدارات الاحتلال المختلفة، وفي الوقت ذاته، لم تقطع حبلها الممتدَّ إلى الملك.

وكان يحلو للصُّعْلُوك ذِكْر أسماء وجهاء القُدْس، في أشعاره، شاتماً، وذاكراً المثالب، ومتعرِّضاً لأعراضهم، وعندما يسمع اعتراضاً من أحدهم، يصرخ في وجهه: «ألَا تعلم، يا وجه السعد، بأن أخلاق نسائهم، كما هو حال مؤخِّرتي الخرائيَّة».

وعندما يحاول هذا الأحد تلطيف الجوِّ مع الشاعر الصُّعْلُوك قائلاً: «طبعاً، يا عمُّ، يحقُّ للشاعر ما لا يحقُّ لغيره»، يستفزُّ الشاعر، ويقول غاضباً: «يحقُّ للشاعر ما لا يحقُّ لهذا»، مشيراً إلى أسفل بنطاله.

الصُّعْلُوك المَقدِسيّ كان يعبِّر عن مشاعر جيل في القُدْس، يُقدِّس الفدائيِّيْن، وإن بدا ظهوره وعدده قليلاً، تعايش وتقاطع مع نوع آخر من الذين لا يريدون العودة للوراء؛ أيَّام حكم الملك، ويندفعون إلى العمل في الورش الإسرائيليَّة، في حين يستمرُّ نزيف الهجرة بينهم، فيما بدت الصورة العامَّة في القُدْس صوراً لتناقضات، بدت أنها متعايشة معاً.

في مرَّات عديدة، تظهر بجوار الصُّعْلُوك المَقدِسيّ، الشاعرة ليلى عمَّار التي بدأت تحصد شيئاً من الشهرة، بعد صدور ديوانٍ شِعْريٍّ لها،

ظهر مطبوعاً بخطِّ يد الشاعر الصُّعْلُوك، الذي أبان عن موهبة الخطِّ لديه، مزجت فيه أشعاراً بالعَامِّيَّة الفلسطينيَّة تمجِّد البطولات، بالشِّعْر الفصيح.

لا تحبُّ ليلى الصمت، وكانت كثيرة التدخُّل، خلال حديث الصُّعْلُوك المَقدِسيّ، وتضطرُّ أحياناً للوقوف، خلف الطاولة التي صُفَّت عليها صحون الحمُّص والفول، وسط الأحاديث المتداخلة، لكي تفرض الاستماع إليها، فيطلبون منها إلقاء قصيدة من جديدها، فتعدل وقفتها، فتظهر أطول، بينما تختفي ساقاها التي تظهرهما تنُّورة قصيرة، خلف الطاولة، بشَعْرٍ قصيرٍ، وفم صغير، تتدفَّق منه الكلمات:

«طَلَّت البارودة والسَّبع ما طَلّ

يا بوز البارودة بالندى مبتلّ».

خُيِّل إليَّ بأنها تُغنِّي للسَّبْع سَبْعنا، وعندما ذكرتُ ذلك لأُمِّي، قالت بأن هذه الأبيات الشعبيَّة كانت الأُمَّهات الفلسطينيَّات يُردِّدنها حزناً على مَنْ ذهبوا إلى حرب السَّفَر بَرلِكْ، ولم يعودوا، ويُسمِّينَ مثل هذه الأغاني الشلعيَّات، لأنها تشلع قلوب الأُمَّهات المحطَّمة حزناً على أبناء ذهبوا في حروب العثمانيِّيْن، غصباً، ودون أن يكون لهم مصلحة، أو اقتناع في ذلك.

«مَنْ يذهب إلى الحرب، لم يكن يعود منها أبداً»- قالت أُمِّي بحزن، وكأنها تعيش حالة مثل حالة تلك الأُمَّهات المكلومات.

وعرفتُ، بأن ليلى، وهي تستعيد الشلعيَّات القديمة، تحاول التمويه على الرقابة الإسرائيليَّة، وهي تقصد شهداء الثورة المعاصرة.

قيل بأن الصُّعْلُوك المَقدِسيّ يساعد ليلى عمَّار بإمكانياته اللغويَّة والشِّعْريَّة، وذهب بعضهم إلى التشنيع أكثر على الشاعرة، بإشاعة أن الصُّعْلُوك هو في الواقع مَنْ يكتب قصائدها.

ولكنني مَجَجْتُ هذه الإشاعة، وكرهتُها، فالشاعرة ليلى، وبعكس

الصُّعْلُوك المَقدِسيّ الذي قيل بأنه يسكر كثيراً، ويتعتعه الخمر، تتغنَّى بالفدائيِّيْن والمعتقلين، وعندما علمتْ بأنني ابن فدائيٍّ معتقل، طلبتْ أن تزورنا في المنزل، وتستمع لبطولاته وحكاياته خلف القضبان.

أحببتُ لقاءات المطعم الصباحيَّة هذه، وأخبرتُ والدي، خلال الزيارات، بالكثير عنها، وطلب منِّي، نقل رسالته للشاعرة ليلى، بأنه وزملاءه يقدِّرون التزامها الشِّعْريَّ والوطنيَّ.

واعتبرتُ نفسي صديقاً لليلى عمَّار، بعد أن منحتْني نسخةً من ديوانها، الذي طبعتْهُ دار علاء الدِّيْن التي أسَّسها ميشيل وصديقته، وكتبت عليه إهداء: «إلى الفلسطينيّ الصغير». فسعدتُ كثيراً بهذا الفلسطيني الصغير، وكأنها تمنحني شرفاً، ووساماً، مؤكِّدة فلسطينيَّتي التي أعتزُّ بها، خصوصاً وأن شعوري بأنني ابن مناضل، يتعاظم.

حضرتُ أُمسيَّتَيْن أو أكثر لليلى عمَّار في نادي الموظَّفين، الذي بدأ ناشطو الأحزاب والفصائل في القُدْس ينتسبون إليه، كفضاءٍ يعبِّرون فيه عن أفكارهم واستقطاب غيرهم، ولاحقاً فضاء يتناحرون فيما بينهم للاستحواذ عليه.

ولكنَّ فرحتي بصداقتي مع ليلى لم تطلْ كثيراً، لأسبابٍ لا أعرفها، خفض صوتها، ولم تعد تظهر في فضاءات القُدْس، وكأن تفتُّح شاعرة في مدينتنا يشبه وردة مقصوفة العُمُر، لا مكان لها، بين الورود طويلة العُمُر، والأشجار راسخة الجذور، فغابت ليلى عمَّار، وكأنها سحابة صيف.

ولم يتوقَّف لزمنٍ لوك سيرتها المزعومة، مع الصُّعْلُوك المَقدِسيّ..!

الرابع

عندما يُجهِّز مندوب الصليب الحافلة التي يقودها السائق المسنُّ أبو أحمد، ويطمئنُّ على عدد الزائرين من الأهالي، ويدقِّق الأسماء، ويستعدّ للانطلاق، ينادي عليَّ مستعجلاً، مدَّعياً الغضب، صارخاً بأنني أُأخر الجموع التي صحتُ مبكِّراً قاصدةً هدفها، مستعينة بالله وحمايته، فأترك المطعم، وأتَّجه لأخذ مكاني في الحافلة قرب والدتي.

أحاديث أهالي المعتقلين عن أبنائهم لا تتوقَّف، ويستفسرون من بعضهم بعضاً عمَّا جرى للمعتقلين الآخرين، وعن توقُّعات المحامين لفترات الحكم، وحرص المحامية فولا على تأجيل جلسات المحاكم، عندما تكون الأوضاع متفجِّرة بفعل عمليَّة، نفَّذها فدائيٌّ أو أكثر، حتَّى لا يؤثِّر ذلك على القضاة العسكريِّيْن الثلاثة الذين يقودون المحاكم العسكريَّة، التي تُصدِر أحكامها، كما تؤكِّد فولا دائماً، بأوامر من الشاباك الإسرائيليّ، وأنها لا تتمتَّع بأيَّة استقلاليَّة، فكلُّ ما يتعلَّق بالشعب المحتلِّ، لا يخضع لأيَّة قوانين، وهذا منطق الاحتلال في كلِّ مكان.

وعن دَوْر فولا في ظلِّ هذا الوضع المعقَّد، كانت تقول: «أنا أُقطِّع نفسي، بين الشاباك والمحاكم وإدارات السجون، وكُلٌّ منهم يريدون تقطيعي وأكل لحمي، ولكنني أقاوم، بطريقتي، مثلما يفعل أبناؤكم، أُحقِّق نجاحات ولو صغيرة، أرضى عنها، وهي مفيدة للمعتقلين، وأُخفق كثيراً، فأتعلَّم، وأُناور، وأستمرُّ».

وهناك مَنْ لا يُحبِّذ توكيل فولا، لأن القضاة العسكريِّيْن يضخِّمون الحكم على المعتقل، فقط لأن فولا هي محاميته، انتقاماً، فيلجؤوون إلى محامين

فلسطينيِّيْن، خرقوا قرار نقابتهم بالإضراب، وعدم المثول أمام المحاكم الإسرائيليَّة، وهم قلَّة، لم يقتنعوا بقرار الإضراب الذي قرَّرتْهُ قيادة النقابة في عمَّان، رفضاً للاحتلال ومحاكمه.

بعد أن تقطع الحافلة شوطاً، ينبري الأُستاذ عزمي، وهو معلِّم في المدرسة الرشيديَّة، وشقيق فدائيٍّ محكوم بالسجن المؤبَّد، لشرح المعالم التي سنراها طوال الطريق، ويبدأ بالتململ في مقعده، والنهوض، مع وصول الحافلة بيت حنينا على شارع القُدْس - رام الله، والطلب منَّا النظر إلى بنايَتَيْن متجاورَتَيْن، يقول بأن الملك حسين استخدمهما لدى زيارته للقُدْس، حتَّى ينتهيَ العمل في قصره المهيب، على تلِّ الفول القريب، والذي لم يكتمل أبداً، متأسِّياً على حال بيت حنينا، التي أضحت مقصداً لأفراد الطبقة الصاعدة، والمتطلِّعة، يدلُّ على ذلك بيوتهم الحجريَّة الجميلة، التي تُظهِر ذوقاً مختلفاً.

وكما أصبح متوقَّعاً من الأُستاذ عزمي، فإنه يصمت قليلاً، ويتنهَّد ليقول:

– أبو رقيبة ..!

ونستعدُّ لنسمع ما سمعناه سابقاً، ولكنْ، يبدو أن وقعه لم ينتهِ إغراؤه:

– عندما جاء أبو رقيبة، إلى هنا، وزار بيت حنينا، ورأى منازلها، دعا للصلح مع اليهود، متعجِّباً، كيف يمكن لمَنْ يبنون مثل هذه البيوت الفخمة محاربة إسرائيل، ولكننا لم نقبل نصيحته، وخرج الناس إلى الشوارع يشتمونه، وها نحن بدلاً من تحرير ما أخذوه في النكبة، ننكس، ونصبح جميعنا في الهواء سوا ..!

يسأل أحدهم، وكأنه يعلم الإجابة عن قصر الملك، فيجيب الأُستاذ عزمي:

- حلال على البدو، لقد استوطنوه، هم وحلالهم ..!

ثمَّ يردف بلازمة، عُرف بها: «كلُّ الحقِّ على فيليب» متوقِّعاً أن يضحك مستمعوه، وهو ما يحدث، وعندما استفسرتُ عن فيليب هذا، قال لي بأنه واحد من المؤرِّخين العرب الذي تَأَمْرَكَ، وكَتَبَ تاريخنا على هواه، وما زلنا ننهل من كُتُبه دون علم أو تفحُّص.

يهدأ الأُستاذ عزمي في مقعده، استعداداً لجولةٍ أخرى، وبعد أن تتجاوز الحافلة البيرة ورام الله، وفي كلِّ مرَّة، يشير إلى المنازل المتشابهة والمتلاصقة التي نراها أسفلنا من زجاج الحافلة، بأننا نمرُّ بالقرب من مخيَّم الجلزون للاجئين الذين بنت لهم وكالة الغوث هذا المخيَّم، حتَّى يعودوا في يوم من الأيَّام لقراهم التي طُردوا منها، وها هي الأيَّام تمرُّ وتكرُّ، والحروب تترى، وهم ما زالوا في مكانهم.

درس الأُستاذ عزمي في القاهرة، وعاد بشهادةٍ في اللغة الإنجليزيَّة، وزوجة مصريَّة سمراء نحيفة، تحضر أحياناً معنا في حافلة الزيارة، وتبدو متحمِّسة للفدائيِّيْن، ويصفها زوجها، بفخرٍ، وكأنه يبرِّر زواجه من غير فلسطينيَّة، أو ليؤكِّد على حُسن اختياره، بأنها ناصريَّة، من عائلة وطنيَّة، تحبُّ وتناصر الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، حتَّى بعد رحيله.

ورغم قلَّة حديثها، إلَّا أنه أصبح لها الكثيرات من المُحبَّات داخل الحافلة، معجبات بوطنيَّتها، ولهجتها، التي هي نفس لهجة عبد الحليم، وعبد الوهاب، وسعاد حسني، ونجلاء فتحي، وأُمِّ كلثوم، والشيخ عبد الصمد، ومحمَّد الكحلاوي، وعبد المطَّلب، وقائمة طويلة من الأسماء، تسأل نساء الحافلة، عنها، المصريَّة الهادئة.

عندما يطلُّ من بُعدٍ معقول، برج البردويل، مُطِلَّاً على وادي الحراميَّة، يطلب الأُستاذ عزمي من القريبين منه الانتباه إلى المبنى الحجري، قائلاً: «سنمرُّ بالقرب من برج البردويل، هو خِرْبَة مكوَّنة من مبانٍ قديمة، وآبار

ومعاصر، نسي الناس لما أُسست هذه المستوطنة القديمة في هذا المكان الاستراتيجي، ولا اسم صاحبها».

ويضيف بعد إيقانه بأن مستمعيه سيُصغون مشنِّفين آذانهم: «بردويل، ليس إلَّا الملك الصليبي بلدوين، الذي جلس على عرش مملكة القُدْس الصليبيَّة، ولكنَّ الاسم حُوِّر وحُرِّف، ليصلنا كما يُلفَظ الآن: البردويل، وفي بعض المناطق التي ما زالت فيها آثار بلدوين قائمة، يُضفون على الاسم المحرَّف أبعاداً قوميَّة، مثل القول عن بناية، تحمل اسمه في منطقة الخليل، بأن بانيها هو الأمير بردويل بن راشد، لقد بردل ناسنا بلدوين واحدة من مكر التاريخ».

وعندما تجتاز الحافلة عدَّة قرى، وتنعطف يساراً بمحاذاة قرية سَنْجِل، يقول الأُستاذ عزمي، بأنها أخذت اسمها من قائد صليبي اسمه سان جيل، وتحوَّر الاسم حتَّى أصبح كما تُعرَف به الآن.

ويزيدنا أكثر، بأنه يوجد في القرية بئر يوسف؛ الجُبُّ الذي ألقى أخوة النبي يوسف أخاهم فيه، ولكنَّ بعض الرجال كبار السنِّ في الحافلة يعترضون، مشيرين إلى مواقع أخرى في البلاد، يقال بأنه في كلِّ منها جُبُّ يوسف، فيتراجع الأُستاذ عزمي قائلاً: «.. دائماً نقول المعلومة التي لدينا، ثمَّ نتبعها بقول: الله أعلم، وليس مثله يعلم ما تُخبِّئه الأرض في بطنها، وما تُظهِره على صدرها».

تصل الحافلة، بعد قليل، قمَّة مرتفعات اللُّبَّن، ويكون على سائق الحافلة أبي أحمد، الذي يرتدي الكوفيَّة، أن يتوخَّى الحذر، وهو ينزل بحافلته، عبر انحناءات الطريق الأُفْعُوَانِيَّة، بينما يروي الأُستاذ عزمي، الذي نراه واقفاً في منتصف الحافلة تقريباً متشبِّثاً بعامودٍ حديديّ طويل مثبَّت بسقف الحافلة الداخلي، حكاية سائق آخر، اسمه أبو أحمد، أو أبو مُحمَّد، كان يقود على نفس هذه الطريق في ظلِّ الاحتلال، ولكنه احتلال آخر، غير

هذا الاحتلال، وركَّاب حافلته من الجنود البريطانيِّيْن الذاهبين لقمع الثورة المستعرة، فماذا يفعل؟ كيف يمكن أن يساهم في الثورة، ويمنع أذى هؤلاء الجنود؟ يفكِّر، أو لعلَّه لم يفكِّر، ويقرِّر، أن يميل بالحافلة إلى أقسى حَدٍّ، ويُدهورها، ومعها يستشهد، ويموت الجنود الإنجليز.

حكاية مؤثِّرة، يتلقَّاها أهل الأسرى بالإعجاب، وتتمتم أُمَّهات المعتقلين بأدعيةٍ، تطلب من الله أن يشمل الشهيد سائق الحافلة بحُسن رعايته، أمَّا الرِجال، فيقولون، بأنه هكذا يجب أن يكون الرجال، وإمَّا فلا. وتفعل الحكاية، في الأهالي، مفعولاً مُطمئِناً، مُعزِّياً، بأنهم ليسوا أوَّل مَنْ ضحَّى، وأن هناك مَنْ سبقهم، وما يحدث لهم من آلام يتجرَّعونها تَجَرَّع مثلها غيرهم، وعندما يُعمَّم الألم، وتُؤمَّم الأحزان، لتعمَّ، تُرطِّب النفوس المكلومة، ولو إلى حينٍ.

لدى الأُستاذ عزمي حكايات أخرى عن مرتفعات اللُّبَّن، وخانها الرابض في الأسفل، الذي استراح فيه الرحَّالة، والكُتَّاب، والمغامرون، والحُجَّاج، والغزاة، ورجال الدِّيْن، والتائهون، وعابرو السبيل، وغيرهم الكثير، ولم يكن من النادر أن تتوقَّف الحافلة بجوار الخان، وينزل الركَّاب، ليغسلوا وجوههم، من العَيْن المجاورة له، ويملؤوا مطراتهم بالماء، ومنهم مَنْ يقصد الاستراحة المقابلة، وهي عبارة عن غرفة أمامها فسحة صغيرة، يصعد إليها بدَرَج قصير، ويطلب فنجاناً من القهوة أو الشاي، أو مشروباً غازيَّاً، قبل أن يستعجل أبو أحمد الجميعَ لمواصلة الطريق.

ينظر الأُستاذ عزمي إلى أعلى المرتفعات، وهو بجانب الاستراحة، ويُعجَب بأشجار اللَّوْز المُطِلَّة علينا في الوادي، ويقصُّ حكاية أُستاذ مثله، كَتَبَهَا إميل حبيبي، عندما جاء الأُستاذ وحبيبته إلى هذا المكان الساحر، وقطف غصن من شجرة لَوْز، وطلب من حبيبته الاحتفاظ به، ولم يكن الاثنان يدركان، بما سيحدث بعد فترة قصيرة، فوقعت النكبة، وأنكبتْهما، وفرَّقتْهما، فبقي الأُستاذ العاشق في بلدته بالقسم المحتلِّ عام 1948م،

وبقيت حبيبته في القسم الذي لم يُحتلّ إلَّا بعد عشرين عاماً، وعندما وحَّد الاحتلال الجديد البلاد، أخذ الناس على طرفيَ البلاد المحتلَّة يتزاورون، ويطمئنُّون على بعضهم، ويستعيدون تواريخهم وذكرياتهم المشتركة، ولكن الأُستاذ العاشق كان قد نسي قصَّة الحُبِّ، ويرويها لزوَّاره، باعتبار أن بطلها واحد آخر غيره، فالنكبة محت ذاكرته، وأَنْسَتْهُ، والنكسة، لم تُعِدْها له، بعكس حبيبته التي احتفظت بغُصن اللَّوْز، وبذكرى حبِّها لحبيب نُكِب ونُكِس، ولن يعود كما كان أبداً.

يشيد الأُستاذ عزمي، مازجاً السخرية، بالجدِّ، بالنساء وذاكرتهنَّ الحديديَّة، راثياً للرجالِ الذين يشبهون السمك في ذاكرتهم، فيضحك ويعلِّق مَنْ يقف بجانبه، ويزداد الضحك.

للأُستاذ عزمي سور من غضب، ولكنه محسوب؛ سمعتُهُ مرَّة، وأنا أجلس بجانب أُمِّي في المقعد خلفه، يرفع صوته مخاطباً جاره:

– زهقتُ من تدريس التاريخ، لم يعد بوسعي تلقين التلاميذ أكاذيب.

يوافقه جاره على أكاذيب التاريخ، فيؤكِّد الأُستاذ عزمي:

– الأكاذيب موجودة أصلاً في المقرَّر، وبعد تدخُّل الاحتلال في المنهاج، أصبح الأمر أزرى، فأخرُجُ عن المقرَّر، وأُحلِّق بالطلَّاب إلى أسئلة، تمُكِّنهم من حمل مفاتيح للمعرفة.

ثمَّ يستدرك:

– ولكنْ، لا أعرف إلى أيِّ مدى سيستمرُّ ذلك، أخشى من تقرير لمدرِّس، أو حتَّى لتلميذ، يؤدِّي بي إلى الفصل، أو ربمَّا السجن ..!

ويُنهي حديثه بلازمته: «ألم أقلْ بأن الحقَّ على فيليب؟».

عندما نصل إلى سجن نابلس في مدخل المدينة، نجد أمامنا العشرات من الأهالي ينتظرون، والجنود لا يسمحون لهم بالدخول سريعاً لرؤية أولادهم

خلف القضبان، وخلال ساعات الانتظار الطويلة، نقصد متنزَّه جمال عبد الناصر قُبالة السجن، وتشتري لي والدتي شطيرة فلافل، وتحتسي هي القهوة، وهي مهمومة. أسمع حديثاً بينها وبين نساء مثلها، ينتظرنَ زيارة زوج أو ابن أو أخ عن القهوة ومزاج مَنْ يشربها، وبأنها تدلُّ على حساسيَّة أعصاب مَنْ يشربها من رجال ونساء، يجدون ويجدنَ فيها سلوى وملاذاً.

قالت أُمِّي: «لولا القهوة، لجُننتُ ..». تبدو أُمِّي في حديثها مع الأخريات مختلفة قليلاً عن تلك التي أعرفها، وتيقَّنتُ من ذلك، عندما لمحتُها، بعد ابتعادها عنِّي، وهي تشرب القهوة، وفي فمها سيجارة، وتتحدَّث مع امرأة أخرى.

لأوَّل مرَّة أراها تُدخِّن، ولآخر مرَّة، وشعرتُ بأنها أُمٌّ كاذبة، تُخفي عنِّي سجائرها، وأشياء أخرى، ولكنني لم أستطع مواجهتها، وفضح مكنوناتي اتِّجاهها، كنتُ أجبن من أن أفعل ذلك، وأنا أُحبُّها، ورَجُلها المتبقِّي، الذي تَعقد عليه آمالاً.

أُمضي أوقات مع أطفال السجناء، وكثير منَّا يشعرون بالفخر، وأقلّ حزناً من الأُمَّهات، نتبادل أخباراً وحكايات عن آبائنا، مبالغاً فيها، ولكننا نُصدِّق أنفسنا، وما يمكن أن يكون أسراراً عن سجين، نتجنَّب ذِكْره أمام ابنه، كإشاعة عن مدى اعتراف الأب، ومقدار صموده في التحقيق، أو انهياره، وكلُّها شذرات أخبار نسمعها من الكبار، وتختزن في أدمغتنا، بدون تحليل، أو تدقيق.

بعد ساعات عندما يُسمَح لنا بالدخول، أركض في الرواق المقسوم، قسمَيْن، يفصل بينهما شبك حديديٌّ، وأجلس على المقعد قُبالة والدي، فتلحقني والدتي، ولا تكفي نصف الساعة المخصَّصة لنا، للكلام الذي نستعدُّ لقوله لوالدي، ولا أعرف كيف يمضي الوقت سريعاً جدَّاً، وعندما يُنهِي رجال الشرطة الزيارة، بأصواتٍ حادَّةٍ وصارمةٍ، نخرج ببطء منحني

الظهور، ومنكسري القلوب، ونعود حزينين إلى الحافلة، التي تُعيدنا إلى القُدْس، وبعكس ما حدث في الصباح، في رحلة الذهاب، لا يتحدَّث أهالي المعتقلين كثيراً في الإياب، يكاد يكونون جميعاً مصابين بصمت ما بعد صدمة الزيارة، وإن تحدَّث أحدهم، فيسكون حديثاً أشبه بالهمس، أمَّا الأُستاذ عزمي، فيلوذ بالصمت بجانب زوجته المصريَّة.

وعندما يستفسر أحدهم عنه، مفتقِداً صوته وحيويَّته، يجيب آخر ضاحكاً: «أكيد، الحقُّ على فيليب»، يسمع الأُستاذ ذلك، ولكنه يستمرُّ في صمته.

نصل منزلنا الجديد، وقد جُنَّ الليل، ولا أجد صديقتي وَزَّة، التي لم تفارق منزلها الأوَّل مثلما فعلنا، أفتقدها، وأحتاجها لتُؤنِس وحدتي، وأنا أستعيد ملامح والدي، وكلامه، ووصاياه، ولكنني أشعر دائماً بكسرِ حَدَثَ، وبفجوة حُفرت بيننا، وأخشى أن لا تُردَم أبداً، وكان هذا أشدّ ما يؤلمني، ويظلُّ يخِزني، وأنا أُقلِّب حديثنا، وأتقلَّب على الفرشة، متخيِّلاً وَزَّة في حضني، تشخر مستدفئة، حتَّى يظهر الصباح، وأستعدَّ للذهاب إلى المدرسة، كسولاً، حزيناً، وحيداً، بدون ظَهْر.

الخامس

تُعلِّمني زيارات والدي الكثير عن الناس والحياة، وتُبرِز اهتماماتي الوطنيَّة أكثر من أيٍّ وقت مضى، إلى درجة قناعتي بأنني دخلتُ دائرة المناضلين المقاومين، وهكذا ينظر إليَّ أترابي، بل ويرون بأنني أبرُّهم وطنيَّة، وينتظرون منِّي فعل الكثير، وما هذا الكثير سوى تجمُّعنا، بعد غياب الشمس، ورشق مَرْكَبَات اليهود الذين يأتون لزيارة النفق والعَيْن والبِرْكَة بالحجارة، والاختباء سريعاً، قبل انتباههم، ومعظمهم مسلَّحون.

قد لا تصل حجارتنا إليهم، ولكنها، في أحيانٍ كثيرة، تُصيب زجاج المَرْكَبَات، لأننا نستغلُّ انشغالهم، في الفرجة، فنستهدف مَرْكَبَة، أوقفها صاحبها بعيداً نسبيَّاً.

تطوَّر نشاطنا، إلى خطِّ شعارات على الجدران، مقلِّدين شعارات، رأيناها أو سمعنا بها، أو أتتْنا من خلال إذاعة الفدائيِّيْنْ التي تبثُّ من عواصم عربيَّة، فكتبْنا: «فتح مرَّت من هنا»، واجتهدنا لتحذير عملاء الاحتلال، بأكبرِ قَدْرٍ من التهديد، فكتبْنا: «الأفعى السوداء تتحدَّى العملاء»، وكتبْنا على أوراق استللناها من دفاتر مدرسيَّة، تحذيرات لمَنْ يقال عنهم عملاء، ورميناها بعد صلاة العشاء أمام منازلهم.

حاولتُ خلال الزيارات إبلاغ والدي بنشاطي الوطني، من خلال العبارات الملغزة، والإشارات، ليس فقط كي لا يفهم علينا رجال الشرطة، ولكنْ، أيضاً كي لا أُثير انتباه أُمِّي، التي تترك في كلِّ زيارة، مثلما تفعل باقي الأُمَّهات والرجال، مكانها للسلام على باقي السجناء، الذين تشارك أهلهم المعاناة، وعندها أخبر والدي بصراحة أكثر عمَّا أفعله مع رفاقي،

يُثني عليَّ طالباً منِّي عدم التورُّط أكثر، وتوخِّي الحذر، ويحدِّثني عن اليقظة الثوريَّة، وأشياء أخرى أسمع عنها أوَّل مرَّة، ولكنْ، لم يكن لديَّ الاستعداد للأخذ بنصحه.

خلال الزيارات تعرَّفتُ على نماذج من السجناء، لم يكونوا كلُّهم وطنيِّيْن، ولكنهم اعتُقلوا لأسبابٍ جنائيَّة، وأحدهم، كان مثار تعليقات الزوَّار، أمثال الأُستاذ عزمي.

يرتدي هذا السجين نظَّارة طبيَّة، تَظهر أكبر من وجهه، ورأسه الذي يعتلي جسداً نحيلاً، علمتُ بأنه كاتب روايات ذات طبيعة بوليسيَّة، أو تحوي ألغازاً، ومن بينها رواية بعنوان: المجرم المَحمِيّ بالقانون، والتي تدور حول الخمور، وما تفعله بشاربها، الذي عندما يسكر، يرتكب الفواحش، كما حدث لبطلة الرواية التي فَقَدَتْ شرفها، دون أن تدري، عندما استيقظتْ، بعد ليلة، تَعْتَعَهَا السُّكْر فيها، بجانب رجل في منزل لا تعرفه، فتندم، وتندم، حين لا ينفع الندم.

كان هذا السجين الكاتب معروفاً لأمثال الأُستاذ عزمي، الذي كان يصرُّ في كلِّ زيارة يظهر فيها السجين خلف الشبك، أن يُحيِّيه مُلقِياً تعليقاً جارحاً، أعرف ذلك من خلال ردَّات فعل السجين، ومِن مَنْ يسمع كلام الأُستاذ عزمي، ويذكره لاحقاً.

وتحرَّج والدي عن إخباري حكاية السجين الكاتب، واكتفى بوصفه بأنه شخص سيِّئ، ولكنني سأعلم من خلال أبناء السجناء، بأنه أُلقي القبض عليه بتهمة اغتصاب طفل، وعندما علمتُ بذلك، انتهزتُ أوَّل زيارة، لأُدقِّق في ملامح السجين الكاتب، فبدا لي أنه ليس الشخص الذي يمكن أن يرتكب فظيعة كالتي سمعتُها عنه، ولكنَّ أُمِّي، التي تحدَّثتُ معها في الموضوع، بمواربة، وبتلميح، قالت: «المظاهر لا تعبِّر عن المحاضر»، وأن عليَّ التعلُّم عدم الحكم على الناس من خلال هيئاتهم الخارجيَّة، وإنما

من خلال تجربتهم، وليس مثلها يمكن أن يقدِّر ذلك، وقد رأت كيف تخلَّى عنَّا الكثيرون، بعد اعتقال والدي، أو لم يعودوا يُبدون اهتماماً به وبنا، كما حدث في بداية معاناتنا.

وكان عليَّ معرفة الكثير عن معادلات المظاهر والمحاضر، وما يجري في مجتمعنا، بشكل أبكر من اللازم، وهو ما حدث بالنسبة إلى قاتلة زوجها مع عشيقها الذي لم يكن سوى صديقه الصدوق.

في تلك الأيَّام، عُرفت حكاية زهيرة الجميلة التي وصُفت بأن جمالها فتَّان، وغير عادي، بعد مقتل زوجها، واعتقالها مع شريكها.

لم أرَ زهيرة، ولم أعرفها، ولكنني رأيتُ صديقها الشابَّ ذا الشَّعْر الطويل المنسدل على كتفَيْه، من خلف شبك الزيارة.

كان مَرِحَاً، يشي وجهه الأبيض بطيبة، يتحدَّث بهدوء، لوالده الذي يزوره، وهو الوحيد الذي يفعل ذلك.

سأعرف بأن السجين العاشق كان صديقاً للزوج، قبل زواجه من زهيرة، فاتنة الرجال، وباثَّة الفرقة بينهم، التي تزوَّجها زوجها، رغم تنبيهات أصدقائه وعائلته بأن اختياره قد لا يكون مناسباً، فسُمعة زهيرة لم تكن جيِّدة، وأنها عرفت شبَّاناً قبله، ولكنه لم يستجبْ، وذهب إلى الآخر، خلف عشقه لها، فتزوَّجا.

ولم يدرِ الزوج، بأن علاقةً ما ربطت بين زهيرة وصديقه، رغم أن رائحة العلاقة فاحت، وبعد سنوات من عدم الإنجاب، أنجبت له زهيرة، ثلاثة أطفال، في ثلاث سنوات متعاقبة، ولملاحظة ما، جعلت عائلته تجتمع به، وتشكِّك في بُنُوَّته لأولاده، ولكنه استهجن ما يقولونه، فطلبوا منه إجراء فحص ما، يُثبت أنه ليس عقيماً.

ناور الزوج، وهو لا يريد أن يُصدِّق، أو أنه صدَّق، وكابر، وتحمَّل، ولكن

إرادة الأهل، قد لا يكون لها ردٌّ، عندما يُلَحُّ عليها، فوافق على إجراء الفحص، ليُريحَهم، ويُثبتَ لهم خطأهم.

ويا ليتَهُ لم يوافق، سأسمع ذلك من أكثر من شخص من أهالي السجناء، وهم يشعرون بغُصَّةٍ.

عندما علمت زهيرة بنيَّة زوجها إجراء الفحص، كان لا بدَّ لها أن تتحرَّك، فاتَّفقت مع عشيقها، وصديق زوجها، انتظار الأخير تحت دَرَج مدخل المنزل، بعد غياب الشمس، وترصُّد الزوج، الذي ما إن وصل، حتَّى انهالت عليه سكاكين الزوجة والصديق، فخرَّ على الأرض، دون أن يتمكَّن، من توجيه اللوم، أو إعلان مفاجأته من الغدر غير المتوقَّع، أو ليصرخ: «حتَّى أنتُما، يا ...».

حملت زهيرة وشريكها الزوج، إلى سريره، وغطَّياه، لتخرج تندب وتشدّ شَعْرها، إلى منزل عائلة الزوج، لتُخبرهم بمفاجأتها، وهي غير قادرة على تصديق ما حدث لزوجها، أو كيف حدث؟ ومَنْ فعل ذلك؟ ولماذا يُفعَل ذلك في الرجل المسالم الذي لم يؤذِ أحداً؟

وعندما تدافعت العائلة والجيران والأقارب إلى المنزل، ليشهدوا على ما حدث لمَنْ يعرفونه بطيبته، وسيرته الحسنة، لم تتوقَّع زهيرة أو شريكها الذي يبكي صديقه أن تتقدَّم عينان صغيرتان، لا تعرفان فداحة ما حدث.

بينما كانت زهيرة تستلُّ سكِّينها، وتضرب زوجها، ويفعل صديقها مثلها، كانت العينان، تقفان أعلى الدَّرَج، وتشاهدان ما يحدث مع والدتها ووالدها وصديقه، دون أن تعرف كُنْه ما يفعله الكبار.

تقدَّمت الطفلة الابنة، وهي تشير بصمتٍ وببراءة: «ماما وعمُّو هما مَنْ أحدثا كلَّ هذا في بابا».

ستنقلب الدنيا على زهيرة وعشيقها، وسينالاً ضرباً من غاضبين،

وسيحاول البعض التدخُّل، والانتظار لمعرفة صِدْق ما تفوَّهت به الطفلة، ويتدخَّل آخرون، لجرِّهما إلى مركز الشرطة، ليس لإنقاذهما، ولكنْ، لإنقاذ مَنْ قد لا يتردَّد بقتلهما في فورة غضب.

في تلك الزيارات، علمتُ بأن القاتل يطالب بالاعتراف بأُبُوَّته للأطفال الثلاثة، الذين أضحوا في رعاية الجَدِّ الذي يعرف الحقيقة، ولكنه لم يكن لديه الاستعداد للتنازل عن الأطفال لقاتل وقاتلة.

أتعلَّمُ من تلك الزيارات الكثير، ليس فقط في السياسة والوطنيَّة، ولكنْ، في أمور ربمَّا كنتُ سأحتاج عُمُراً أطول، لأعرفها عن الناس.

السادس

في إحدى الزيارات التي رافقتُ فيها أُمِّي إلى السجن، لم أكن أعلم ما تُخبِّئه، ولا أعرف كيف علمت الأُمَّهات العجائز اللواتي جئنَ ليزرنَ أبنائهنَّ المعتقلين، ما أبلغتْهُ أُمِّي لوالدي، بأنها تريد الطلاق، ما دام اختار طريقه، فهي تريد أن تختار طريقها.

ظلَّت والدتي صامتة، طوال الطريق، ولم يَثِرْ انتباهها أيٌّ من كلام الأُستاذ عزمي، ولم تبتسم للازمته: «الحقُّ على فيليب»، الذي لم تقرأ له شيئاً، ولكنَّها سمعت بها، من خلال حصيلة ثقافتها التي استقتْها من الصحف، والروايات الأدبيَّة الرائجة، التي توسِّع اهتمامها بها، لتشمل ما تنشره المجلَّات اللبنانيَّة من مسلسلات قصصيَّة مترجمة مصوَّرة، تظهر صور الممثِّلين والممثَّلات الأجانب.

وبقيتْ صامتة، ونحن ننتظر في متنزَّه جمال عبد الناصر، ولاحظتُ بأنها أكثَرَتْ من عَبِّ القهوة، ولم تهتمّ بما سأتناوله من طعام، على غير عادتها، في مثل هذه الظروف.

لم نجلس إلَّا قليلاً مع والدي، وقد لا أكون انتبهتُ كفاية لكلام أُمِّي المضطرب لوالدي، ولكن هذا لم يكن مُهمَّاً.

تحوَّل رواق الزيارة المقسوم بين المعتقلين وعائلاتهم، ويحوِّل الشبك، دون تماسِّ الطرفَيْن، إلى ميدانٍ عامٍّ، تتلقَّى فيه أُمِّي الشتائم من العجائز من الأُمَّهات، باعتبارها خائنة الأمانة، التي يجب أن تحافظ عليها ما دام زوجها في السجن مضحِّياً من أجلها وأجل الوطن. ألَا يكفيه أنه خلف

القضبان، مدفوناً وهو حَيٌّ؟ ألَا يجب عليها أن تحتمل هي الأخرى من أجل الوطن؟ ماذا سيقول الناس عن امرأة تخلَّت عن زوجها السجين؟

قالت إحداهنَّ مؤنِّبة أُمِّي بشدَّة:

- ليست منَّا مَنْ تتخلَّى عن زوجها في محنته.

وقالت أخرى:

– متى كنَّا، كفلسطينيَّات، نتخلَّى عن أزواجنا، خصوصاً في مثل هذه الظروف؟ ماذا سيقول عنَّا الآخرون؟ يا شماتة اليهود فينا.

وقالت ثالثة:

- ماذا رأت نساء اليوم، ممَّا رأيناه عندما كنَّا في مثل أعمارهنَّ؟ لقد عشنا الظروف العصيبة، وشهدنا الويل، وعشناه، نلبِّي طلبات البيت، والأولاد، والأزواج التي لا تنتهي، ونصبر على قهر الحَمَوات المتجبِّرات، ومع ذلك لم تكن الواحدة منَّا لتُفكِّر بترك زوجها، فكيف إذا كان مناضلاً، ومن خيرة الرجال؟ أهكذا نُكافئ الفدائيِّيْنْ؟ ألم تفكِّري في حالته وهو يعيش صدمة تخلِّيكِ عنه في السجن، بين أربعة جدران؟ كان في مصيبة، فأصبح في مصائب.

قالت رابعة:

– ماذا دهاك، يا أُمَّ كافل؟ ضعي اعتباراً على الأقلِّ لرَجُلِكِ الصغير، ماذا سيقول عن أُمٍّ تتخلَّى عن والده؟

وجدت أُمِّي نفسها ترفع صوتها تحاول توضيح موقفها، بأن زوجها لم يستشرها عندما أراد أن يصبح فدائيَّاً، تاركها وحدها مع طفلها الذي يحتاج الكثير، وبأنه، في الحقيقة والواقع، لم يفكِّر بها ولا بابنها، واندفع نحو نزوات عقله إلى مجهولٍ، لم يقدِّره حقَّ تقدير، ولكنَّ كلامها لم يكن مسموعاً، مع

انضمام جميع أهالي المعتقلين تقريباً في موقفٍ موحَّد ضدَّها، وظهرت أمامهم كأنها عارية من قِيَمهم الجماعيَّة.

بدا لي بأن أُمِّي، حسب القول المأثور، عصفورة تغرِّد خارج السرب، بل خارج الخارج، ولعلَّها لم تتوقَّع ردَّة الفعل الغاضبة، تجاه شأن شخصي، ستدفع هي ثمنه أكثر من غيرها.

حزنتُ جدَّاً على الموقف الذي حُشرَت فيه والدتي، وكأنها فأرة وقعت في مصيدة، وانتهت حِيَلها، رغم عدم قناعتي بقرارها، فأنا رأيتُ في والدي بطلاً، يمكن أن أتباهى به أمام الناس، وافترضتُ أن تكون أُمِّي مثل باقي الأُمَّهات زوجات المعتقلين، تقبل أن تُضحِّي مثل زوجها، وتمضي في الحياة، كما يجب عليها أن تفعل، مثلما فعل مَنْ سبقنْها، في تجرُّع مرارة الأَسْر، معتقِداً أن هذا هو الأمر الطبيعي، ولكنّ أُمِّي أصرَّت على موقفها، بعنادٍ غير مفهوم بالنسبة إليَّ.

ما الذي غيَّرها، ومنحها القوَّة والإصرار؟ خلال الفترة القليلة بعد اعتقال والدي، أصبحت أُمِّي امرأةً أخرى.

وعندما نظرتُ لوالدي شعرتُ بأنه يريد أن يقول شيئاً، ولكنَّ ما يجري خنق صوته، حتَّى لو أراد الحكي، فلن يسمعه أحد، في هذه السوق الشعبيَّة الضاجَّة بالأصوات والاتِّهامات.

حاولتُ الوقوف بين أُمِّي والمنتقدات، ولكنني كنتُ فتى قليل الحِيْلة، وسط أصوات اللَّوم، الكثيرة المستنكرة العالية، لقد ارتفعتْ أعلى من قامتي، وقدرتي على وقفها. أشعرتْني بضآلتي، وزادت قهري، وحزني، موزَّعاً بين أُمِّي ووالدي.

تضاءلت أُمِّي، هُزِمَت في المواجهة. إنها ليست المواجهة الأولى

التي تجد نفسها مفروضة عليها، منذ اعتقال زوجها، فصدمة الاعتقال، والركض في المحاكم المتعبة القاهرة، ومراجعة المحامية فولا، وهدم المنزل، واللجوء إلى منزل أُمِّ السَّبْع، ثمَّ البدء من جديد في منزلٍ جديد، ليس بعيداً عن ركام البيت القديم، جعلها كلُّ هذا تدور في دوَّامة، بدت أنها لن تنتهي.

كيف تعاملتْ أُمِّي مع كلِّ هذه التحدِّيات التي وجدت نفسها أمامها، دون تحضير، أو تجارب سابقة، وبشكل مفاجئ؟ لاحظتُ تفاوتاً في قدراتها ومشاعرها وردود أفعالها، ولكنَّ كلَّ ذلك نَظَمَهُ خيط واحد، بدا التمسُّك به غير مأمون في مرَّات عديدة، ولكنها لم تُفلته من يدها، وهي تتعكَّز عليَّ، كما قالت لي، ربمَّا بدافع المجاملة، أو إقناع نفسها بوجود رجل بجانبها، تستمدُّ منه الكثير، أو تتمسَّك بحبلها من أجله، بعد أن أضحى الرجل الآخر، بوجوده بعيداً في السجن، خارج المعادلات، بل إن وجوده هناك هو مَنْ تسبَّب بكلِّ ما عانتْهُ، من ارتدادات لزلزال الاعتقال.

لم تكن أُمِّي بطلة بالمفاهيم الاجتماعيَّة السائدة، وهذا أقلَقَني، خصوصاً عندما بدأتُ أقرأ ذلك في عيون مَنْ أعرفهم وأعرفهنَّ من جيلي، ومن الأكبر سِنَّاً، بخلاف ما كان عليه الوضع في الفترة التي تلت اعتقال والدي، عندما أُحطتُ بمشاعر الفخر الفيَّاضة. ولم أجد ما أدافع فيه عنها، أمام مجموعتي من ضاربي الحجارة، إلَّا القول، بأنني أَعْرَفُ الناس بأُمِّي، ورميتُ لهم كذبة، بأن الأمرَ ليس كما أُشيع عنه، وإن خلفه أسراراً لا أستطيع البوح بها، مُلمِّحاً إلى أن ما فعلتْهُ أُمِّي حدث بالاتِّفاق مع والدي، خدمة لأمرٍ جَلَل.

مَنْ يُصدِّق كذب الأطفال؟ قبل رصفائي كذبتي دون أن يُصدِّقوها، ولكنَّها كانت المخرج، لنبقى معاً وأوفياء لما نذرنا له أنفسنا، وهو أكبر منَّا كأفراد.

السابع

لماذا فعلت أُمِّي ما فعلتْهُ؟ هذا سؤال أُمِّ السَّبْع لها، عندما جاءت إلينا، بعد الزوبعة التي أثارتْها أُمِّي خلال زيارة والدي الأخيرة.

فوجئتُ بأنه لم يكن لدى أُمِّي إجابات واضحة، أو محدَّدة. ربمَّا لم تعد تملك الحُجَّة أمام أُمِّ السَّبْع، التي أوقفت أسئلتها الناريَّة، وأخذت بالهدوء تدريجيَّاً، وهي تجلس بجانب أُمِّي التي وضع رأسها على صدر المرأة الأكبر منها سنَّاً، وأجهشت بالبكاء، قالت أُمُّ السَّبْع وهي تحاول تهدئتها وتبكي هي الأخرى، ولكنْ، بوتيرة أقلّ بكثير من أُمِّي:

- فعلتِ ما لم نستطع فعله نحن نساء هذه القرية الظالمة لنسائها، لماذا علينا دائماً أن ندفع ثمن ما يرتكبه رجالنا، بغضِّ النظر عن دوافعهم؟

وارتفع صوتها بمنظوم حزين، اخترق قلبي الصغير:

صبرنا صبر الخشب تحت المناشير

وإيش صبرك، يا خشب تحت المناشير

صبرني حِكم ربِّي والتقادير

وأضافت، تروي حكاية، وكأنها تريد أن تُسرِّي عن أُمِّي:

- عندما تزوَّجتُ، وبدأتُ أُجهِّز أوَّل طعام بحضور حماتي، قالت لي: قبل أن تفعلي أيَّ شيء، عليكِ أن تُسمِّي، ثمَّ تُردِّدي: ببَرَكَة الأخوَيْن اللذَيْن لم يخونا بعضهما أبداً. وما هي قصَّتُهما، يا عمَّتي؟ قالت حماتي: في قديم الزمان، وُجد اثنان من الأخوة، من صُلْبِ رجل واحد، وبطن أُمٍّ واحدة، على

قطعة أرض، ورثاها من الأب والأمِّ، الأخ الأوَّل لم يكن متزوِّجاً، والثاني كان متأهِّلاً، ولديه أولاد، ونشطاً في زراعة الأرض قمحاً، وعندما تطرح الأرض ثمرها، يُشفق المتزوِّج على أخيه غير المتزوِّج، فيحمل ما يستطيع من قمحه، ويقدِّمه لأخيه متأسِّياً لحاله، لعدم وجود زوجة أو أبناء لديه، أمَّا الأخ الأعزب، فيحمل منتجه من القَمْح، ويضعه في الأرض التي يزرعها شقيقه، شعوراً منه بأنه يستحقُّ ذلك أكثر منه، لتحمُّله عبء الزوجة والأولاد، وهكذا ظلَّا يفعلان، مفضِّلاً كلٌّ منهما الآخر عن أخيه، وعندما نقلا، أخيراً، القَمْح إلى الطاحونة، ظلَّت تطحن، وتطحن، ويخرج منها الدقيق إلى ما لا نهاية، وذلك ببَرَكَة محبَّتهما.

طلبتْ أُمُّ السَّبْع شُربةَ ماء، فأسرعتُ إلى شُربة الماء الفخاريَّة، وناولتُها لها، فأنا أعرف أنها تحبُّ شرب الماء من فم الشُّربة مباشرة، ووضعت الشُّربة أمامها، احتياطاً لحاجتها للماء مرَّة أخرى، ثمَّ تابعت:

- ويقال إن الأرض المباركة التي وُجد فيها الأخوان، هي التي بُنيت عليها القُدْس، قُدْسنا المقدَّسة، ولكنْ، أين أهلها الآن، من أهلها السابقين، المتراصِّين، المحبِّين لبعضهم بعضاً؟!

صَمَتَتْ أُمُّ السَّبْع، ربمَّا لتتحسَّس ردَّ فعل أُمِّي، ثمَّ أكملت وكأنها تذكَّرت شيئاً:

- وقيل بأنه عندما تمَّ تذرية القَمْح على البيادر في جبل الزيتون، لفصل الحَبِّ عن الزُّوَان، ملأ الحَبُّ سفوح الجبل من كثره، تماماً في المناطق التي تحتلُّها قبور اليهود الآن، ولم ينتهِ، وظلَّ يتمدَّد، والناس تُعبِّئ منه، وارتفع الزُّوَان، من كثره، إلى سماء الله السابعة، التي يُسمُّونها العَرُوبَاء.

وبعد أن تنهَّدت قالت بأسى:

- نحن الآن في زمن الزُّوَان، نعيش العَرُوبَاء المغبرة، يا ربُّ عفوكَ ورضاك ..!

تذكَّرتُ حكاية جان وجون، وتأمَّلتُ في الحكايات التي تُبنى على شخصَيْن، شقيقَيْن، وتأسَّيتُ لأنني وحيد، وكأنني أكتشف ذلك للمرَّة الأولى. ماذا فعلت حكاية أُمُّ السَّبْع بي؟

غَفَتْ أُمِّي على صدر أُمِّ السَّبْع، وفي مرحلة لاحقة، نقلتْها هذه إلى غرفتها، وتمدَّدت بجانبها، بينما بقيتُ أنا خارجاً، محتاراً فيما ستُخبِّئه لي الأيَّام.

سأعتبر تلك الليلة مفصلاً حياتيّاً مُهمَّاً بالنسبة إليَّ. إنه بمثابة ولادة ثانية لي، أنا خارج معادلات الأكبر منِّي سِنَّاً، من والدي الذي تقرَّر مصيره لسنواتٍ طويلةٍ مقبلةٍ، إلى أُمِّي التي تحاول البحث عن مصيرها خلال السنوات المقبلة أيضاً.

شعرتُ بأنني نضجتُ، وفهمتُ، وبأنني لن أعود محور البيت، كما اعتقدتُ سابقاً، وأن عليَّ تلمُّس خطواتي المقبلة، وشعرتُ بحاجتي إلى لُور، لتشهد ولادتي، ونُضجي، ولكنْ، ما أبعد المسافة بيننا الآن.

الثامن

لم أعد أطيق المنزل الجديد؛ أشعر بالاختناق وأنا داخله، أشعر بأنه ليس لي، مجرَّد قفص مسجون داخله أنا وأُمِّي، فأصعد إلى القُدْس، عصراً، وأقصد المُصْرَارَة، متسكِّعاً بالقرب من موقف المَرْكَبَات، ومطعم العِكِرْمَاوِي، وأشقُّ على العمِّ جبر، لأرى الإصدارات الجديدة من الصحف والمجلَّات.

عندما وقفتُ أُحدِّق في عينَيْن كبيرتَيْن على غلاف بالأسود والأبيض، قال لي العمُّ جبر:

- نعم، إنها فولا تكتب عن المعتقلين، ومنهم والدكَ..!

قرأتُ اسم الكتاب بصوت مرتفع قليلاً: «بأُمِّ عيني»، وتحسَّستُهُ، عندما ناولني العمُّ نسخة منه، وزنتُ ضخامته، بدا لي كبيراً، وأخذتُ أُقلِّب صفحاته، لأرى ما خطَّتْهُ فولا عن والدي، وقضيَّته، وحكايات رفاقه، وهدم منزلنا.

عرض عليَّ العمُّ إعارتي نسخة من الكتاب الذي أصدرتْهُ دار علاء الدِّيْن، لأنه علم بأنني قد لا أستطيع دفع ثمنه، وحتَّى لو معي الثمن، فإنه أراد منحي قراءة مجَّانيَّة، والاحتفاظ بنقودي القليلة لي.

أخذتُ نسخة من الكتاب، وأنا عازم على دفع ثمنها لاحقاً، لأحتفظ بالنسخة، للذكرى وللمستقبل، ما دامت حكايتنا موجودة بين دفَّتَيْه.

قال العمُّ:

- عليكَ أن تتوقَّف عند وصف فولا، لمشاعركَ أنتَ وأُمُّكَ لدى هدم منزلكما، إنها ترى بأن تأثير هدم المنزل على عائلات المعتقلين يكون في أحيانٍ كثيرة أكبر وأعمق من تأثير الاعتقال نفسه، وغياب الزوج أو الابن أو الشقيق.

قلتُ:

– نعم، إنها تجربة صعبة، عندما تفقد والدكَ باعتقاله، فيبقى لكَ سقف تأوي إليه وجدران تختزن الذكريات والحكايات، ولكنْ، عندما تُهدم الجدران، ويسقط السقف، تجد نفسكَ في العراء.

نبَّه العمُّ:

- تقول فولا، بأن صدمة هدم المنزل تكون أكثر على النساء، خصوصاً الأُمَّهات، وإنها صدمة لا تتآكل بسهولة، ويلزمها مراجعة الأطبَّاء النفسيِّيْن.

سرحتُ قليلاً فيما حدث لأُمِّي، وبدا لي الحديث عن الطبِّ النفسي جديداً. هل أُصيبَت أُمِّي فعلاً بمرض نفسي، جعلها تضطرب، وتعلن قطيعتها مع والدي؟ هل أعاني أنا أيضاً؟ لماذا لا أشعر بذلك؟ هل أُكابر وتكابر أُمِّي؟ ماذا سيقول الناس لو علموا بمرض أُمِّي النفسي؟ هل سينعتونها بالمجنونة؟

نبَّهني كلام العمِّ جبر نقلاً عن كتاب المحامية فولا، إلى أمورٍ لم أكن لأنتبه إليها، واعتبرتُها عاديَّة، وقَدَرِيَّة، رغم عدم عاديَّتها، فأيَّة عادية في أن أفتح عينَيَّ على احتلال، وأفقد والدي وصديقي، ثمَّ أُصبح في منطقةٍ وسطى بينه وهو السجين، وبين أُمِّي التي لم تفق من صدمتها.

حضنتُ كتاب فولا، وكأنني أحضن شيئاً عزيزاً عليَّ، شعرتُ بنبضات قلب والدي تخرج من صفحات الكتاب، وتخاطب دقَّات قلبي.

لم أحبّ كتاباً، كما أحببتُ كتاب فولا، سأحتضنه دائماً في أيَّامي

المقبلة، وأتصفَّحه، وأصافح اسم والدي في سطوره، وأتعلَّم من حكايات فدائيِّيْن آخرين، عرفتُ بعضهم من خلال الزيارات إلى السجن، وعرفتُ أفراداً من عائلاتهم، وسأعلو بمشاعر الفخر بوالدي وبهم.

كيف يمكن أن تتشكَّل الحروف، حكايات تتخلَّل تضاعيفي، وتسندني، وتشجِّعني؟ خلتُ لمرَّات كثيرة بأن فولا لم تكتب كتابها، وتخطّ حروفها إلَّا لي.

شكرتُ العمَّ جبر، ومضيتُ وأنا أحتضن الكتاب، إلى الجانب الآخر؛ إلى المُصْرَارَة، ويبدو أن المشاعر الفرحة الممزوجة بحزن شفيف وفخر صامتٍ وأملٍ يلوح، ظلَّت تلازمني، عندما فوجئتُ بالعمِّ جورج، يتقدَّم نحوي، ويقول لي:

- بحثتُ عنكَ طويلاً، أيُّها الفتى ..!

سلَّم علي، وتقاصر قليلاً، ليطبع قُبلة على جبيني، قائلاً:

- أين كنتَ مختفياً، أيُّها الصغير المشاكس؟

كيف عرف العمُّ جورج بأنني مشاكس؟ وهل أنا فعلاً مشاكس؟ وماذا قصد بالمشاكسة أصلاً؟

لم أسأله هذه الأسئلة مكتفياً، بسعادتي بلقائه، وكأنني كنتُ متوقِّعاً ذلك أو انتظرتُهُ، وأنا أشعر بأنه مبعوث والدي إليَّ، أو أن قَدَرَاً ما أرسله إليَّ، وكان يجب أن يفعل كي لا أُترك وحيداً في شوارع مدينتي.

عزمني العمُّ جورج على عصير خرُّوب، وجلسنا بالقرب من مطعم العِكرْمَاوِي، وهو يتلذَّذ بالعصير، مشيداً بمنتجات بلدنا، التي لا تشبه أيَّ منتجات في بلدان أخرى، وهو يستطيع تقرير ذلك، لتجربته في السفر إلى إيطاليا ودولٍ أوروبيَّة، ولتعامله الدائم مع السيَّاح والزوَّار في كنيسة القيامة.

قال لي العمُّ جورج: «بحثتُ عنكَ بعد اعتقال والدكَ، وحزنتُ أكثر

بعد هدم المنزل، ولكنْ، كما تعلم، فهذا ما يفعله الاحتلال، كلُّ احتلال، وعلى كلِّ شعب، أن يصمد، صمودكَ يكون بالتفاتكَ إلى والدتكَ، والعناية بها، والتخفيف عنها، وليس بالمشاكسة».

أيَّة مشاكسة؟ لعلَّه يعلم بما أفعله ورفاقي في مَرْكَبَات المستوطنين.

لم أجرؤ على سؤاله عمَّا يقصد بالمشاكسة، وقد خمَّنتُها هذه المرَّة، بينما بدا أنه لم يكن مستعدَّاً للإفصاح. لقد اكتفى بالتلميح والغمز.

حدَّثني عن مستجدَّات العمل في الكنيسة، والحجَّارين العرب الذين سمَّاهم: خليَّة القيامة، الذين يطَّلعون بترميم الأعمدة وحجارة الكنيسة ورخامها، وعن استمرار والده المعلِّم جريس في تشكيل رؤوس الأعمدة، بيدَيْه الماهرتَيْن.

بدا لي الحديث عن أفراد الخليَّة مثاليَّاً، والعمُّ جورج يقدِّم لي بعض شخوصها، دون أن أعرفَهم أو ألتقيَهم، واعداً بتعريفي عليهم لاحقاً.

سألتُهُ عن النسوة اللواتي اعتصمنَ في كنيسة القيامة، قال بأن الاعتصام استمرَّ ثلاثة أيَّام، وكان من المقرَّر أن يستمرَّ حتَّى ينتهيَ الاحتلال، ويغور بدون رجعة، ولكنَّ النساء لم يتمكَّنَّ من الاستمرار وحدهنَّ، وبدون تخطيط ودعم، ولم يكن الاحتلال ليسمح لهنَّ بالاستمرار، فاعتقل السيِّدة عصام قبل أن يُبعدَها خارج البلاد برفقة ابنتها فيحاء، واعتقل أُخريات من قادة الاعتصام، ومَنْ تبقَّينَ لم يتمكَّنَّ من إكمال المشوار.

قال العمُّ جورج، بأننا أصبحنا صديقَيْن، وبأنه لن يتركَني أتجوَّل وحدي في شوارع القُدْس وأزقَّتها، وطلب منِّي انتظار يوم الخميس عصراً، حيث سيمرُّ على منزلنا، بمَرْكَبَته، ويُسلِّم على أُمِّي، لننطلقَ في جولةٍ أولى.

لم أرتح لمسألة السلام على أُمِّي. لم أُقدِّر كيف يمكن أن تستقبل ذلك؟ ولم أعرف ماذا سيكون انطباعه عنها؟ وهل سيُدرك مدى صدمتها؟

التاسع

لا أعرف إذا كانت أُمِّي حصلت على الطلاق أم لا، ولكنها تعاملت مع الأمر وكأنها امرأة وحيدة مُطلَّقة، عليها قبل كلِّ شيء، أن يكون لديها مصدر رزق مستقلّ، فبقرارها الانفصال عن والدي، ستتوقَّف كلُّ قَطْرات المساعدات التي يمكن أن تصلها، من عمِّي، أو من الشيخ عبد ربِّ النبي، الذي عُرِف عنه جمع التبرُّعات لصالح عائلات المعتقلين، وغيرها من عائلات متضرِّرة من الاحتلال، أو من متعاطفين ومتعاطفات مع القضايا الوطنيَّة.

ووصلها، بشكلٍ سرِّي، وتكتَّمت عليه، مساعدة باسم حركة فتح، من ابن قريتنا المسؤول العسكري في الحركة، عندما كان الفدائيُّون في عمَّان، قبل طردهم إلى سوريا ولبنان، عقب أيلول الأسود، الذي وصل صداه إلى القُدْس، وطرق أبواب منازل قريتنا، وطُرُقاتها، عندما عيَّن الملك حسين جنرالاً في جيشه من قريتنا، رئيساً للحكومة العسكريَّة التي واجهت الفدائيِّيْن.

ولم يكن مفهوماً لكثيرين، كيف يكون جنرال جيش الملك من قريتنا، ومسؤول الفدائيِّيْن من قريتنا أيضاً، ولكن الجنرال لم يصمد كثيراً أمام الانتقادات، فذهب إلى القاهرة، وأعلن استقالته، بضغط من ابنته، التي أعلنت من إذاعة الفدائيِّيْن في بغداد براءتها عنه، وتخلِّيها عن أُبُوَّة رجل يحارب الفدائيِّيْن، وبعد وصوله القاهرة، زار برفقة الابنة أبا عمَّار، حاسماً موقفه نهائيَّاً، مفارِقاً الملك.

أصبح الجنرال حديث قريتنا، وتبيَّن أن الجميع من كبار السنِّ يذكرونه،

ولديهم ما يَروُونه عنه، خصوصاً في تلك الأيَّام العصيبة بعد إعلان قرار التقسيم، واندلاع الحماس، كثورة بركان لدى الشباب، الذين سعوا للتسلُّح، وجاء تجَّار السلاح من شرق الأردن إلى قريتنا، وانتشروا مجموعات في ساحة بئر النبي أيُّوب، يعرضون البنادق الإنجليزيَّة، والفرنسيَّة، وهي نوعان: القصيرة، والطويلة، بالإضافة إلى العثمانيَّة، والألمانيَّة، والبلجيكيَّة، وجميعها قديمة من مخلَّفات الحرب العالميَّة الأولى، تركها أصحابها، أو لم تعد مفيدة لهم، فباعوها بأثمان بخسة للبدو المتنقِّلين بين البلاد، وبعض البدو حصلوا على كمِّيَّات منها بطُرُقهم الخاصَّة، أي بدون دفع ثمنها، وعلى الأرجح جمعوها كمخلَّفات للجيوش المهزومة، فلا يهتمُّ المهزوم، إلَّا بالهرب خفيفاً، فيترك سلاحه، أو يخفيه، ربَّما ليعود إليه مرَّة أخرى، إذا سنحت الفرص، ولكنها لا تسنح، عادة للمهزوم، الذي عليه التواري، محاولاً التعايش مع عار الهزيمة. ليس في الدنيا، مثل عار الهزيمة، سيقول لي والدي، ناقلاً عن والده.

لم يكن شباب القرية يعرفون طبيعة السلاح، وصلاحيَّاته، فتدخَّل محمود، الشاويش في البوليس الإنجليزي، الذي يضع ثلاث شرطات على كتفه، ليتأكَّد من كلِّ بندقيَّة يشتريها أحد الشبَّان، ومن صلاحيَّة مجرى الطلقات، إذا كانت صالحة أم مكرمجة، وينصح بشراء الإنجليزيَّة، لتوفُّر الذخيرة، التي تُسمَّى زِهاب، ولكنها كانت لهذا السبب، هي الأغلى، ويصل سعرها إلى مائة جنيه فلسطيني، أمَّا باقي أنواع البنادق، فتتراوح أسعارها ما بين الأربعين إلى الخمسين جنيهاً، أثمان مرتفعة بالنسبة إلى شباب قريتنا الفقراء، ولكن البلاد بالنسبة إليهم أغلى، ومصيرها أهمّ من كنوز الدنيا، التي لم تتوفَّر لهم، فباعوا ذهب النساء، وقِطَع أراضٍ، ومحاصيل البساتين، من أجل البنادق التي ستذود عنهم، وتطرد المعتدين.

لم تكن شهوة شراء البنادق مقتصرة على شباب قريتنا، فنزل إلى الساحة شباب القُدْس، والقرى المجاورة. وبدت الساحة في قريتنا كسوقٍ حُرَّة،

خصوصاً وأنه لم يكن بإمكان التجَّار، الصعود إلى القُدْس، بسبب الوجود الإنجليزي المكثَّف فيها، فجاء إليهم الشارون المتحمِّسون للمعارك المقبلة التي ستكون حاسمة بالنسبة إلى أرضنا المقدَّسة.

اشترى جَدِّي بندقيَّة فرنسيَّة قصيرة، مخزنها تحت السبطانة، تُدفع إليه، رصاصة، فرصاصة، ويتَّسع المخزن لخمس طلقات فقط، ومعها زِهَابُها خمسون طلقة، وكان ذلك في حينه صفقة جيِّدة، باركها الشاويش، متمنِّياً أن يكون فعلها على قَدْر نيَّات جَدِّي، وتوقه للفداء والتضحية.

بدأ الشاويش يدرِّب الشبَّان على إطلاق النار على تَنَكَة، ولم يكن يُسمح للواحد أن يُطلِق أكثر من خمس طلقات، للحفاظ على الذخيرة، وعليه أن يكون قد تعلَّم من هذه الطلقات الخمس التسديد على الهدف، ولا يجازف بتضييع هذه الفرصة، فالفرص محدودة، والذخيرة محدودة، والطلقة التي تذهب هباءً لن يكون هناك مَنْ يُعوِّضها.

وبدأ الشاويش يلعب دور الرائد، لدى أهلنا في تلك الفترة، ولطالما يُطرَح السؤال في المضافات، عندما يُطرَح موضوع ما، ماذا قال الشاويش في الأمر؟ ويؤخَذ ما قاله على محمل الجِدِّ، وظلَّ الشاويش الذي لا يكذب ربعه، شرطيّاً حتَّى رحلت بريطانيا، وانضمَّ لاحقاً للجيش الأردني، وتدرَّج في المناصب، ليصبح من قادته المهمِّين، وأخيراً، رئيس الحكومة العسكريَّة التي شكَّلها الملك، لتُحارب الفدائيِّيْن، قبل لجوئه للقاهرة، وانشقاقه.

مَدَّني والدي بمعلومات إضافيَّة عن الظروف التي عاشتْها القرية عقب قرار التقسيم، وكيف أن جَدِّي الذي سمع عن صدور القرار من نشرة التاسعة من إذاعة القُدْس الهادرة من راديو المختار، نام على قلق، هذا إذا تمكَّن من النوم فعلاً، وصبَّح في اليوم التالي، صاعداً إلى القُدْس، وعندما وصل باب العَمُود، رأى الناس متجمِّعين، يحملون البيارق، التي طالما حملوها في طريقهم لمقام النبي موسى، ولكنْ، هذه المرَّة صَعِدُوا نحو

القُدْس الجديدة، اتَّجهوا إلى الباب الجديد، والنوتردام، وصولاً إلى ساحة بنك باركليز، فالبلديَّة والبريد، ووجد جَدِّي نفسه بينهم، في بداية شارع يافا، ولكنَّ المصفَّحات الإنجليزيَّة كانت جاهزة تنتظرهم، تنتصب على أبراجها رشَّاشات البرن، ولم يكن البوليس الإنجليزي، ليسمح للغاضبين الهائجين بالوصول إلى الأحياء اليهوديَّة، ففتح النار عليهم، بدون تحذير، فهجُّوا وتفرَّقوا، وهربوا نحو ماميلا، وأصبحوا بين مقبرتها وفندق بالاس، وقد زاد غضبهم وقهرهم، فحتَّى التعبير عن ما سينتظرهم ممنوع من قِبَل الإنجليز، فتوجَّهوا إلى مستودعات التجَّار اليهود في الشمَّاعة، وبدؤوا بإشعال النار، في محلَّات المانيفاتورة التي تُوزِّع البضائع على التجَّار الصغار، وامتدَّ الحريق، كعدوى في جوِّ القُدْس الرطب، أواخر الخريف، ولم يكن للحرق أن يشفيَ غليل الغاضبين، فالمسألة، بالنسبة إليهم، كبيرة؛ تقسيم وطنهم، ولم يستوعبوا كيف يمكن لوطنٍ أن يصبح وطنَيْن؟

ومَنْ هم أولئك الذين يجلسون هناك، يديرون العالم، ويقرِّرون مصيره، وتقسيم فلسطين؟ لماذا؟ وكيف؟ وهل يملكون الحقَّ في تقسيم بلدٍ، ومنح الآتين من خلف البحار قسماً منه؟ في أيِّ عُرْف وأيِّ قانون؟

أصبحت مقدِّمة الغاضبين الهائجين، في باب الخليل، فصَعِدُوا من جديد، فغلُّهم لم يُفتَّت عضده، وتبعهم الآخرون، مرَّة أخرى إلى بنك باركليز، الذي أغلق البوليس ساحته، وظهر أعلى درجات البنك، مدير البوليس في القُدْس، بقامته المعروفة، وسَحْنته العريضة، يدير رجاله، واصطدمت عينا جَدِّي، بصحن توتياء يلمع على الأرض، ولم يعرف كيف تقاصر ليلتقطه؟! ومثَّل رامي قرص بارعاً، فقذفه باتِّجاه رجال البوليس، وبدون أن يقصد وصل رأس مدير البوليس، ولكنْ، في اللحظة المناسبة، أمال هذا، الرأس، بهدي الفطنة، وكأنه يناور في معركة، فنجا من الصحن المحلَّق في الهواء، ومع ارتطام الصحن بجدار البنك الدائري، فتح رجال المدير النار على الغاضبين بدون انتظار الأوامر، فعندما يُستهدَف المدير،

لا تُنتظَر الأوامر، وارتقى ستَّة شهداء فوراً، وتفرَّق الغاضبون، وعاش الجَدُّ أيَّاماً وهو يشعر بغُصَّة، مُحمِّلاً نفسه مسؤوليَّات الذي قضوا في سبيل الوطن والقضيَّة، دون أن يعلم، بأنه سيرتقي عدد لا يمكن حسابه، من أجل القضيَّة التي تتعقَّد أكثر فأكثر.

ولم يكن ارتقاء الشهداء الستَّة في القُدْس، إلَّا إيذاناً، للعصابات الصهيونية، لتنطلق في عمليَّات تفجير بالأحياء العربيَّة في المدينة، ورُميت القنابل والبراميل المتفجِّرة على الناس في باب العَمُود، وبالشوارع، وفي الأسواق، إيذاناً بالجحيم المقبِل على مدينة السلام، والحرب، والأديان.

في أيَّامي هذه سأعرف شيئاً عن قرار التقسيم، وكيف يمكن للقوَّتَيْن الكبيرتَيْن، بعد الحرب العالميَّة الثانية، أن تُقرَّا تقسيم وطني؟ وكيف يمكن لرجل ضمير أن يرفض ذلك، لأسبابٍ أخلاقيَّة؟ وكلُّ هذا بفضل القراءة، وأحاديث والدي السابقة، عندما كان حُرَّاً، يتنفَّس هواء قريتنا وأوديتها، ويشرب من مائها.

أُعجبتُ بالجنرال كارلوس روميولا، رئيس الوفد الفلبيني، لجلسة الجمعيَّة العامَّة التي ستُصوِّت على قرار تقسيم وطني، قال: سنُصوت ضدَّ التقسيم. في الأيَّام السابقة، استثمرت الوكالةُ اليهوديَّةُ كلَّ العلاقات الممكنة في العالم للإقناع، واستخدمت كلَّ الفنون التي تعرفها، كي تُصوِّت الدول، على قرار تقسيم وطني، ولكنَّها عجزت أمام الجنرال، الذي جرَّب صغيراً، معنى أن يعيش المرء مُستعمراً.

مرافعة الجنرال فَتَنَتْنِي، وأذكر كيف كان والدي يتوقَّف عند كلِّ حرف وهو يعيدها على مسامعي: «إن الحكومة الفلبينيَّة ترى أن الحقوق التي منحتْها سلطة الانتداب - وإن أقرَّتْها أيِّ اتِّفاقيَّة دوليَّة لاحقاً - لن يُبطِل حقَّاً تليداً لشعب يريد أن يقرِّر مستقبله السياسي، وأن يحافظ على الوحدة الإقليميَّة لأرضه الأُمِّ. وإننا لنرى في القضيَّة جوهراً أخلاقيَّاً في

المقام الأوَّل. وإن محكَّ القضيَّة يتعلَّق باستعداد الأمم المتَّحدة لتحمُّل المسؤوليَّة عن فرض سياسة، لا يخفى على أحد أنها تتعارض مع المطامح الوطنيَّة المشروعة لشعب فلسطين، وإن الحكومة الفلبينيَّة تأبى على الأمم المتَّحدة أن تقبل على نفسها مثل هذه المسؤولية». على الأرجح، كان الجنرال، الدبلوماسي، والصحافي والكاتب، يعلم ما ينتظره. استرجعه رئيسه إلى البلاد فوراً. وتلقَّى الرئيس برقيَّة من أميركا، تُحذِّره، من التصويت ضدَّ قرار تقسيم وطني. التهديد الأميركي لم يكن بدون أساس، إنه يتعلَّق بحزمة مساعدات، قرَّرها الكونغرس للبلد الذي يعتمد على المساعدات الأميركيَّة.

لم يكن ذلك كافياً، بالنسبة إلى الوكالة اليهوديَّة. وفي منتصف الليل، اتَّصل صديق يهودي للرئيس الفلبيني يقيم في لندن، ليؤكِّد له ما يجب أن تُصوِّت عليه بلاده، بشأن بلادي.

مواقف الجنرال الأخلاقي، الذي وضع قرار تقسيم وطني في إطاره القانوني والأخلاقي، أثارت حفيظة الكبار. في اجتماع أممي، عُقد في باريس عام 1948، عيَّره نائب وزير خارجيَّة الاتِّحاد السوفيتي قائلاً: «أنتَ مجرَّد رجل صغير، من بلد صغير»، فردَّ عليه مَنْ وُصف بأنه «صبي حافي القدمَيْن من السياسة»، بأن داود الصغير بحجره الذي قذفه في عَيْن العملاق أفشل تصرُّفه.

أسطورة داود نُسجَت في بلادي. اليهود جعلوه ملكاً، ونحن أردناه نبيَّاً، بعد ثلاثة آلاف عام، ها أنا أقذف الحجارة، مثل داود تماماً، على مَنْ أراهم أقزاماً صغاراً، يُدنِّسون مياه قريتي، وهم يفعلون ذلك، قتلوا موسى.

العاشر

في يوم الخميس، انتظرتُ العمَّ جورج، وعندما وصلتْ مَرْكَبَته، خرجتُ إليه، بعد إطلاقه للبوق، بينما وقفتْ أُمِّي على باب المنزل، تراقبني. رفع العمُّ جورج يده مُحيِّياً والدتي، التي شعرتْ بالاطمئنان لوجودي معه.

ردَّت والدتي على تحيَّة العمِّ جورج، برفع يدها، ويبدو أنه قنع بهذا المقدار من التعارف مع والدتي، ورضي برضاها على اصطحابي معه.

عندما جلستُ بجانبه في المَرْكَبَة، قال:

- من أين سنبدأ جولتنا في قُدْسنا؟

احترتُ، فقلتُ له، بأنني أقبل باختياره، ولم يكن لديَّ، في الواقع، خيار آخر، فقال:

- الرموز، رموز الفرسان ..!

تذكَّرتُ رموز المتحف الفلسطينيّ، ولُور، وشعرتُ بأنني أفتقدها الآن، وتمنَّيتُ لو كانت معنا، ونحن نصعد بالمَرْكَبَة نحو بِركَة السلطان.

توقَّف العمُّ جورج، على بُعد مئة متر تقريباً أعلى بِركَة السلطان، وقبل أن ينزل من المَرْكَبَة، ناولني كاميرا، قائلاً:

- عليكَ أن تتولَّى التصوير الآن ..!

قلتُ له بأنه لم يسبق لي التقاط الصور، فطمأنني قائلاً: «ليس عليكَ سوى تثبيت الكاميرا، والضغط على زرِّ التصوير، المهمُّ لا تُحرِّكها، ثَبِّتْها بيدَيْكَ».

وقفنا قُبالة جدار بناية قديمة مصفرَّة، مُطِلَّة على وادي الربابة، وتظهر منازل قريتنا أسفل الوادي. ولفت انتباهي اللوحات الحجريَّة البيضاء الناصعة على الجدار القديم للبناية التي يميل لونها إلى الاصفرار، قال العمُّ جورج:

- هذا مستشفى العيون ..!

قلتُ مستغرباً:

– أعرف بأن المستشفى في الشيخ جرَّاح ..!

- صحيح، ولكنه بدأ من هذه البناية التي يملكها الفرسان.

وشرح لي عن فرسان مالطا، بقايا فرسان الأسبارتيَّة في الحروب الصليبيَّة، الذي برزوا مع فرسان الهيكل، ولأنهم اهتمُّوا بالمشافي، فبعد تقهقر الصليبيِّيْن، استقرُوا في مالطا، وتخلَّوا عن سيرتهم القتاليَّة، وتمسَّكوا بدلاً منها بسيرة صحِّيَّة، فبنوا وأداروا المشافي، ومنها مشافٍ في القُدْس وبَيْت لَحْم، أمَّا فرسان الهيكل الأكثر شهرة وبأساً الذين صارعوا المسلمين، فانتهوا نهاية دراميَّة، ليس على أيدي الأعداء المسلمين، ولكنْ، بنيران المسيحيِّيْن؛ لقد حُرقوا لاتِّهامهم بالهرطقة، ولم يكن ذلك السبب.

– ما هو السبب؟

- على الأرجح اقتصادي، طمعت الدول المسيحيَّة بأملاكهم.

تمعَّنتُ في الرموز البيضاء التي قال العمُّ جورج، إن كلَّاً منها يمثِّل رمز نبالة لفارس من الفرسان، تبرَّع بمبلغ من المال للمستشفى، فَوُضع الرمز تكريماً له.

الرموز المتناثرة يجمعها تقريباً الشكل الواحد؛ العريض من الأعلى، والحادُّ من الأسفل، وتبرز من خلال النحت صور لأسودٍ، بأشكالٍ مختلفة، متمدِّدة، وبأجنحة، ولطيورٍ، وعصافير، وتشكيلات هندسيَّة، وصُلْبان، وغيرها ممَّا لم أتبيَّنه بدقَّة.

قال العمُّ جورج:

- مازالت بعض العائلات في الغرب تفخر بأنها تملك رموز نبالة، تتوارثها، وتحافظ عليها، وفي حين هُزم الصليبيُّون، فإن الفرسان يعودون، بدون سلاح، وبهدوء وبأموالهم، ليتركوا رموزهم على جدراننا.

وروى لي ما اعتبرها طُرْفَة:

- عندما عُيِّن البطريرك فاليرجا بطركاً للاتين في الأرض المقدَّسة، كأوَّل بطريرك منذ الحروب الصليبيَّة، وضع عينه على بيت جالا، معقل الأرثوذكس، وساعد فاليرجا في اقتحام الحصن الأرثوذكسي، تراجع نفوذ الأرثوذكس في إسطنبول عشيَّة دنو حرب القرم (1853-1856م)، وتزايد النفوذ الكاثوليكي المعادي، ودعم السفارة الفرنسيَّة والباب العالي. وتمكَّن فاليرجا من تجاوز الصعوبات العديدة، وبنى المعهد الإكليركي وكنيسة سيِّدة البشارة، وكان متوقَّعاً أن يضع شعار فرنسا التي ساعدتْهُ، ولم يكن ليكتملَ البناء بدون تلك المساعدة، إلَّا أنه فاجأ الجميع، وحفر شعار النبالة الخاصَّ بعائلته، على الحجر الرئيس في قنطرة المدخل، وما زال حتَّى يوم الناس هذا يحيِّر الناس الذي يتأمَّلون رموزه دون فهمها.

ابتسم العمُّ جورج، وابتسمتُ لابتسامته.

أضاف:

- اشتهرت بيت جالا بحجَّاريها، الذين يدقُّون الحجارة، ويحفرونها، والذي المعلِّم جريس، هو مَنْ نقش كثيراً من هذه الرموز، نقلاً عن الورق الذي يرسلونه، وأنا اقتفيتُ أثره، سأُريكَ إن كنتَ مهتمَّاً.

طبعاً أنا مهتمٌّ، ويدرك العمُّ جورج اهتمامي، وإلَّا لما أتى بي إلى هنا، سعيداً بأنه يراني مميَّزاً، ويحترم اهتماماتي.

بعد أن علَّمني التقاط الصور ميدانيَّاً، قائلاً بأننا سنرى النتيجة بعد

تحميض الصور، انطلقنا في المَرْكَبَة إلى الشيخ جرّاح، لنقف أمام مستشفى العيون واللوحة التذكاريَّة التي نُقش عليها بعناية أسماء المؤسِّسين وصفاتهم كفرسان في مؤسَّسة القدِّيس يوحنَّا، يحملون أوسمة، ما لفت انتباهي منها وسام الحمَّام.

هزَّ العمُّ جورج رأسه وهو يطلب منِّي القراءة بصوت مرتفع، ثمَّ قادني خلفه إلى داخل المستشفى، ووقف في ساحة سماويَّة أصغر من ساحة المتحف الفلسطيني، ولكنها تُشبهها بالرموز المنتشرة إلى الجدران الأربعة المحيطة بالساحة.

قال العمُّ جورج:

- انظرْ لرموز النبالة هذه، لقد حفرها والدي، وأنا حفرتُ رمزاً واحداً، تعال لأُريكَ إيَّاه.

نظرتُ إلى الأعلى لأرى الرمز الذي حفره العمُّ جورج، بتكليف من فرسان القدِّيس يوحنَّا، فرأيتُ رمزاً واحداً مكرَّراً ثلاث مرَّات، يمثِّل حيواناً خُرافيَّاً مُخرِجاً لسانه، ومُظهِراً مخلبه، مستعدَّاً للهجوم.

سألتُ العمَّ جورج عن معنى ما رأيتُهُ، فقال:

- هذه رموز تُعبِّر عن ثقافة تختلف عن ثقافتنا، ما زال أصحابها يعيشون في الماضي، ويستوحون منه مُثُلَهم، عليكَ أن تعود يوماً إلى هنا، وقد كبرتَ، لتدرس وتبحث، وتُخبرنا.

استعرضتُ مع العمِّ جورج باقي الرموز، وهي خليط من طيورٍ، ورؤوس ثيران، وأسودٍ غير عاديَّة، ومخلوقات أسطوريَّة، وأفاعٍ، ومرساة على شكل صليب، وآلهة قديمة، وكفِّ فاطمة، ولكنْ، هناك رمز لفت انتباهي بشدَّة، ولم يكن غامضاً أبداً.

قال العمُّ جورج:

- إنه رمز الملك، لقد أنجزه والدي، وكُلِّف بذلك بعد تبرُّع الملك للمستشفى، إنه أيضاً فارس.

رمز الملك مكوَّن من تاج، وزنابق، ووشاح، ورايتَيْن، وطير العقاب فارداً جناحَيْه، وكرة أرضيَّة، وسنابل ذهبيَّة وسعفة نخيل، وغيرها من رموز، أكبرتُ قدرة المعلِّم جريس على نقشها وتوضيحها.

تذكَّرتُ كيف كان يضع والدي رأسَهُ برأس الملك، الذي يملك كلَّ هذه النِّبَالَة، بينما ليس لوالدي أو لعائلته أيُّ رمز أو شعار.

إذا كان الملك ملكاً وفارساً، فوالدي أيضاً، وإن لم يكن ملكاً، ولا يحبُّ الملوك، فارس وبطل.

طلب منِّي العمُّ جورج أن أتبعه إلى الخارج، ووقفنا أمام مدخل خلفي للمستشفى، ثُبِّتَت بجانبه لوحة حجريَّة، حُفر عليها: المهندس المِعْمَارِي والمصمِّم اسمبسون.

قال العمُّ جورج فرحاً:

- اسمبسون هو مَنْ أشرف على بناء المستشفى، وعمل معه والدي، وتعلَّم منه، ومنحه شهادة، بأنه عمل معه، كانت دائماً مثار اعتزاز المعلِّم جريس، وهي التي فتحت أمامه أبواب كنيسة القيامة، لينحتَ ويُبدع. فَمَنْ عمل مع اسمبسون تخرَّج حِرْفِيَّاً ماهراً.

شعر العمُّ جورج، بأننا أطلنا أكثر من اللازم بين الحجارة والرموز، والفرسان، والنبلاء، والملوك، فقرَّر أن نغادر.

توجَّهنا إلى البلدة القديمة، أصرَّ العمُّ جورج على أن نتناول الغداء في مطعم صغير في بداية شارع العطَّارين، جلسنا في الحيِّز الضيِّق الذي يشغله مطعم قِرّش، منتظرين أسياخ الكباب، التي هلَّت علينا، مع البندورة، والبصل، والفلفل، والرائب البلدي.

بعد أن تغدَّينا، أصرَّ العمُّ جورج على توصيلي إلى المنزل، ولكنني استأذنتُهُ بالنزول مشياً من القُدْس إلى قريتنا، فالمسافة أسهل وأقرب. وافق بعد أن تأكَّد بأن هذه رغبتي، ودَّعني وهو يطلب منِّي أن أُسلِّم على والدي في أوَّل زيارة للسجن.

شعرتُ، ولا أدري لماذا، بأن والدي معنا في هذه الأثناء ..!

الحادي عشر

انطلقتْ أُمِّي للعمل في القُدْس الغربيَّة، في تنظيف منازل اليهود، ولم يكن لها خيار آخر، ولم تعد لزيارة والدي مرَّة أخرى، وكان عليَّ الذهاب وحدي أو رفقة عمِّي، عندما تسمح له إدارة السجون، لزيارة والدي.

تجنَّب والدي خلال الزيارات الحديث عن الانفصال أو الطلاق، وأظنُّ أنه فعل ذلك، لتجنُّب أيِّ مساس بكرامته، أو خدش صورة هذا الكرامة خصوصاً لديَّ. طلب منه عمِّي، تقدير حالة والدتي، التي عانت من صدمة اعتقاله، وهدم المنزل، مشيراً إلى أنه ليس للناس نفس القدرات على التحمُّل، ومواجهة الصدمات المفاجئة، وغير المفاجئة. واكتفى والدي بهزِّ رأسه، وتوصية عمِّي على أن ينتبه إليَّ أكثر.

في البداية كانت أُمِّي تذهب للعمل بزِّيها الفلاَّحيِّ، وبعد فترة تخلَّت عن خِرقتها البيضاء، لصالح قُبَّعة قادرة على لَمِّ شَعْرها كُلِّه تحتها، واختارت أخيراً زِيَّاً أكثر عمليَّةً، مكوَّناً من تنُّورة طويلة نسبيَّاً، وبلُّوزة سوداء، وغطاء رأس أسود، وكأنها امرأة في حِدادٍ دائم، وفي الوقت ذاته يشي زِيُّها بامرأة ترثي عُمُراً مقصوفاً قبل الأوان، ولكنها قادرة على مواصلة الطريق.

سأظلُّ أذكر تلك الأُمسيَّات، وأنا أنتظرها أمام الباب، أو بجانب النافذة، أرقب وصولها قرب العَيْن، من عملها المجهد، الذي يظهر على طريقة مشيتها، واسوداد عينَيْها وغورهما، وعندما تصل تحتضنني، وتطمئنُّ إذا كنتُ قد أكلتُ الطعام الذي حضَّرتْهُ أم لا، وتقصد المطبخ لتعدَّ العشاء لنا، وأحياناً تحكي لي عن اليهود الذين تخدم عندهم، وعن صفاتهم،

وطُرُق تعاملهم المختلفة معها، وكنتُ أعتصر ألماً، وأشعر بمهانة كبيرة، كابن تعمل أمُّه عند اليهود، الذي فجَّر والده قنبلته فيهم.

وبفطنتها، تحاول طمأنتني، بشكلٍ غير مباشر، وهي تتحدَّث عن طيبة مَنْ تعمل لديهم، وكيف يُحسنون معاملتها.

وتضحك أحياناً وهي تقول: «كلُّ شيء فيهم جيِّد، سوى أنهم يهود».

أصبحتُ أعرف أسماء مَنْ تعمل لديهم، وأسماء الأبناء والبنات وأعمارهنَّ، وبعض من حكاياتهم، وأزعجني ذلك، عندما بدأتُ أُدرك أن معرفتي هذه، التي تتسرَّب إليَّ من أُمِّي، تُقلِّل كرهي لهم، كمحتلِّين لأرضنا.

كانت أُمِّي تروي حكاياتها لي، من واقع حياتها الجديدة، وكأن حكايات القُدْس، وناسها وملوكها، وأنبياءها، انتهت أو تبخَّرت، أو تنتمي لمرحلة أخرى سابقة وقديمة.

لم يطل عمل أُمِّي كثيراً في منازل اليهود، حتَّى استدلَّت على عمل في منزل العَرْعُور، على طريق القُدْس - الخليل، الذي آل إلى مؤسَّسة إسرائيليَّة تُعنى باحتياجات الشبيبة، وأصبحت هي المسؤولة عن تنظيف المنزل العربيِّ، الممنوع على أصحابه الدخول إليه أو استخدامه، والذي كان ضمن خطَّة والدي ورفاقه بتفجيره بمَنْ فيه من الغرباء.

عملت والدتي كما فهمتُ منها، في منزل العَرْعُور، الذي تغيَّر اسمه إلى (تحنتا) الذي لم أفهم معناه، ولم تفهمه أُمِّي كذلك، وبدا يُعرَف بهذا الاسم الغريب، بينما أخذ اسم العَرْعُور يتوارى.

بدا الارتياح واضحاً على أُمِّي في عملها الجديد، فهو أقلُّ جهداً وأقلّ مرارة من تحكُّم ربَّات المنازل اليهوديَّات اللواتي كانت تعمل لديهنَّ، حيث بدت تظهر شكوى متأخِّرة منهنَّ، بعكس ما أظهرتْهُ لي سابقاً، وبدت متكيِّفة

مع ربِّ العمل الجديد الشابِّ رامي، الذي لم يكن يُثقِل عليها في العمل، وأصبحت تشكر فيه كثيراً، وكان عليَّ أن أُصدِّقها، ولم يكن لديَّ خيار آخر، أردتُ تصديقها، لأشعر بأنها مرتاحة نسبيَّاً، وأُخفِّف من وخز ضميري الذي لا يكفُّ عن لومي، لأنني عاجز عن مساعدتها، فما دمتُ رجلاً فعلاً، فعليَّ أن أتصرَّف؛ هذه هي وظيفة الرجال في بلدنا، وإلَّا لما كانوا رجالاً، ولكنْ، ماذا كان بوسعي أن أفعل غير تلقَّي نظرات أترابي القاسية، فأصمت مقهوراً؟!

لم يتوقَّف ألمي وأنا أرى نفسي، غير قادرٍ على مساعدة أُمِّي، وأتمنَّى لو أن الزمن يجري جرياً، لأُنهيَ المدرسة، والجامعة، وأعمل لأصرف على البيت، وأجعلها تترك العمل، لأقتل نظرات الآخرين، التي أشعر بأنها تلاحقني أنا وحدي، رغم أن أُمِّي لم تكن الوحيدة، من قريتنا، التي تعمل لدى اليهود.

خروج أُمِّي للعمل لدى اليهود، هو جزء من ممارسة بدت خجولة، ثمَّ اتَّسعت، مع متطلَّبات واقع ما بعد الاحتلال، عندما فُتح سوق العمل الإسرائيليِّ واسعاً أمام شباب وشابَّات القُدْس، بعد الاحتلال الأخير، وأضحى الاستقلال الاقتصاديّ للنساء مقرِّراً إلى حدٍّ كبير في شكل حُرِّيَّتهنَّ التي يُمارِسْنَها، خصوصاً أن مساهمتهنَّ في مصاريف منازل عائلاتهنَّ، أضحى ضرورة، لا تستغني عنها عائلاتهنَّ.

جاء ذلك، بعد أشهر مريرة عاشها ناسنا، بعد الحرب مباشرة، ووصفها بعضهم بالمجاعة، التي تشبه مجاعة ما بعد النكبة، ولكن المجاعة الأخيرة لم تطلْ كالمجاعة الأولى.

وعندما كنتُ أطرح على أُمِّي إمكانيَّة التوقُّف عن عملها، تحتضنني، وتؤيِّدني الرأي، وتتعهَّد بأنها على ثقة بأنني عندما أكبر قليلاً فقط، فإنني سأكون قادراً على الاطِّلاع بمتطلَّبات بيتنا، وإنها ستلتزم البيت، تُنظِّف،

وتُحضِّر طعامي، وتختار لي بنتاً حُلْوَةً، وابنة ناس معروفين، لتشاركنا المنزل.

وقالت:

- هل تعتقد بأنني مبسوطة في عملي؟ بالطبع لا، ولكنني مضطرَّة، ولن يكون ذلك سوى مرحلة، حتَّى ننجو، لا بدَّ أن ننحني للعاصفة، حتَّى لا تقتلعنا، إنهم يريدون اقتلاعنا، ولكننا ننحني، ونعمل لديهم، ونظلُّ في بلادنا، هذا أفضل ممَّا فعله والدكَ.

لم يعجبْني غمزها على ما فعله والدي، الذي لم يفعل سوى ما يجب أن يفعله أيُّ شخص يجد وطنه مُحتلاًّ، وما أفعله الآن مع أترابي، وأخشى أن تعرفه أو يتسرَّب لها فعلاً.

وقد شككتُ بأنها تعلم بنشاطي، معتقدة بأن تأثير والدي، حتَّى وهو في سجنه، ما زال كبيراً عليَّ.

قالت لي مرَّة:

- لا تغلطْ، يا بُنيَّ، ولا تذهب في دربٍ مسدود، أنتَ تعلم تأثير فعل والدكَ علينا، لقد كدنا نضيع، ولكنْ، إنْ غلطتَ أنتَ، فسنضيع، أنا تحديداً، سأطفش في الشوارع، والأودية، والبراري، أنادي الوحوش، لتأتيَ وتلتهمَني.

الثاني عشر

خلال تسكُّعي في مساءات المُصْرَارَة، بعد الدوام المدرسي، لاحظتُ أكثر من مرَّة الحَلَّاق الأرمني نادريان يجوس في المكان، ويتبادل الحديث مع السائقين، ويتوقَّف كثيراً مع سمسار الموقف أبي العبس.

لم أبادر، ولا مرَّة، للحديث معه، وتذكيره بنفسي، وبلقائنا في حارة الأرمن، شيء فيه كان يجعله مهاباً، وكأنه ابن عائلة أرستقراطيَّة من الأمراء التي ضلَّت طريقها، فاستقرَّت في حارةٍ في القُدْس، وأمعن هو في الضلالة، فيجوس مثلنا في المُصْرَارَة.

ولكن انطباعي هذا لم يكن دقيقاً، عندما كنتُ أجد نفسي قريباً منه، وأسمعه يتحدَّث، فيخرج صوته ناعماً، خفيفاً، لا يكاد يُسمَع.

الإشاعات التي لم يكن عقلي قادراً على تصديقها، تترى عن الحَلَّاق، ويتعامل معها من فيها المُصْرَارَة، بالابتسام، وإلقاء الطرف، وبالغمز، واللمز، والرمز، ربَّما كي لا يعلم واحد مثلي بما لا يجب أن يعلمه عن الحَلَّاق.

اكتشفتُ صفةً في الحَلَّاق، وهي غضبه المكتوم، عندما يحاول أحدهم الحديث معه، فيقابله بالصمت والاشمئزاز، وهي طريقته في التعبير عن ضيقه بشخص أساء إليه، أو في سبيله لفعل ذلك.

ذاع صيت الحَلَّاق، كحَلَّاق شاطر، حتَّى الذين يغمزون من قناته، يعبِّرون عن إعجابهم، بسيرته المهنيَّة، ويحسدونه، على النساء الجميلات، اللواتي يظهرنَ برفقته، وأحياناً، يسير وهو يتأبَّط ذراعَي امرأتَيْن، تبدوان سعيدتَيْن،

وفخورتَيْن بالحَلَّاق الشاطر، طويل الشَّعْر، والذي تتدلَّى من عنقه سلسلة ذهبيَّة، تنتهي بأيقونة للسيِّدة مريم العذراء.

فوجئتُ مرَّة، وأنا أتسكَّع في المُصْرَارَة، بامرأة تقترب، وأدركتُ بسرعة أنني أعرفها، وعندما أصبحتْ بجانبي، تقدَّمتُ إليها، وصافحتُها بحرارة، وسط دهشتها، حتَّى عرَّفتُ الستَّ جورجيت على نفسي، ولقائنا في النبي موسى.

دعوتُها إلى فنجان قهوة، وجلسنا على الكراسي المبعثرة، ليس بعيداً عن مطعم العِكِرْمَاوِي، وعبَّرتْ عن أسفها عندما علمتْ باعتقال والدي، وشتمتِ اليهود، وأفعالهم، وقالت، بأننا لسنا وحدنا مَنْ نعاني، بل هم أيضاً، في يافا يعانون، رغم أنهم يحملون الهُوِيَّات الإسرائيليَّة.

ويبدو أنه كان لديها رغبة في الحكي، والفَضْفَضَة، ونحن ننظر إلى سور القُدْس، وحركة الناس، بينما تلسع وجهَيْنا رياح نهاية الخريف.

أخبرتْني كيف كان منزلهم في حَيِّ المَنشِيَّة، الذي دمَّرتْهُ دولة الاحتلال، بعد تهجير سكَّانه عام النكبة، ولم يتبقَّ منه إلَّا مبنى، وعلى طول بضعة كيلومترات، هيَّأت كورنيش البحر، على أنقاض منازل المهجَّرين إلى خارج فلسطين، باستثناء بضع عائلات، انتقلت للعيش داخل يافا القديمة.

سألتُها عن المبنى المتبقِّي من حَيِّ المَنشِيَّة، فأجابت بأن المحتلِّين حوَّلوه إلى متحف، يروي كيفيَّة احتلاله من قِبَل العصابات الصهيونية، وفي مدخله علَّقوا العَلَم الإسرائيليَّ الذي رفعه المنتصرون على مسجد حسن بك، لدى الهجوم على الحَيِّ.

سألتُها عن مسجد حسن بك الذي لم يهدمه المحتلُّون، فأجابت: «إنه أكثر من مسجد، وحسن بك أكثر من شخص، بفضل رجل تنبَّه مبكِّراً

للأخطار الصهيونية المحيقة بالأرض الفلسطينيَّة، يمكن للسائر على كورنيش شاطئ يافا، أن يرى مسجداً صامداً، كرمزٍ عربيٍّ، وسط الفنادق والمنشآت اليهوديَّة. فيما كان يُعرَف يوماً ما بحَيِّ المَنشِيَّة».

صمتت جورجيت، لترتشف قهوة من فنجانها: «أتعلم، يا كافل، تعرَّض هذا الشاطئ، الذي يُعدُّ الآن واحداً من أنظف الشواطئ في العالم، بسبب الاهتمام الإسرائيليِّ به على مدار الساعة، إلى هجمات متتالية، عصفت بفضائه العربيِّ، بعد هدم حَيِّ المَنشِيَّة وتشريدنا، لذا يكتسب وجود المسجد الذي يحمل اسم رجل أحبَّ يافا وناسها، وبُني عام 1914م، بُعْداً رمزيّاً مُهمّاً، بالنسبة إلينا، ولهم».

كيف، يا ستّ جورجيت؟ لم أسأل، كي لا أقطع حبل أفكارها، وأنا أُلاحظ، بأنها تتحدَّث، وكأنني لم أعد موجوداً، وإنما تُحدِّث نفسها، أو طيفاً ما، لعلَّه الشقيق النائم تحت التراب قرب النبي موسى.

«ويعود الفضل لحسن بك بصري الجابي الدمشقي، الحاكم العثماني ليافا بين عامَي 1914-1917م، في بناء هذا المسجد، فهذا الرجل الذي تشير مصادر عدَّة إلى صفاته الإيجابيَّة التي تميَّز بها، على عكس كثيرين من القادة العثمانيِّيْن المحلِّيِّيْن تنبَّه مبكِّراً إلى المخاطر الصهيونية، وحارب النشاط الصهيوني، والهجرة اليهوديَّة، وهو ما جعله يوصَف في الأدبيَّات الصهيونية المتداولة حتَّى الآن بـ طاغية يافا، واتَّهمتْهُ الحركة الصهيونية باستخدام الأساليب الحديديَّة في التعامل مع عناصرها. مثل اعتقال أفرادها وطردهم خارج البلاد. والإشارة هنا إلى مطاردته للعناصر الصهيونية التي تحمل جنسيَّات أجنبيَّة وطردها، ورأى فيهم وكلاءَ لدولٍ أجنبيَّة، لتنفيذ مشاريع انفصاليَّة. وعندما رأى تمدُّد الحَيِّ اليهوديِّ في يافا، النواة التي شكَّلت مدينة تلِّ أبيب الحاليَّة، قرَّر بناء مسجده، لوقف هذا التمدُّد باتِّجاه يافا».

أُعجبتُ بنباهة حسن بك، ولكن جورجيت لم تترك لي فرصة للتعبير عن إعجابي أو أيّ تدخُّل لي خلال حديثها، فواصلت: «وفي عام 1921م، قدَّمت المنظَّمة الصهيونية في لندن تقريراً بعنوان: فلسطين خلال الحرب، للمؤتمر الصهيوني الثاني عشر. جاء فيه بأن حسن بك: كان أقسى من جميع المسؤولين الأتراك، وأشار التقرير إلى أن حسن بك لم يتورَّع على أن يقود بنفسه حملات مداهمة بعد منتصف الليل، لاعتقال نشطاء صهاينة. وقد يكون من العجب أنّ ما تضمَّنه التقرير في وصف مساوئ حسن بك من وجهة نظر صهيونية، يتطابق مع ما تمارسه قوَّات الاحتلال الإسرائيلي الآن، خلال عمليَّات دهم المنازل الفلسطينيَّة واعتقال المواطنين، كما حدث مع والدكَ».

ها هي الستُّ جورجيت تنتبه إليَّ، وتشير لوالدي، ولكنها أكملت دون سماع أيِّ تعليق منِّي: «وزعم التقرير بأن حسن بك أجبر الكثير من أصحاب الممتلكات على التنازل عنها، والتوقيع على وثائق تفيد بذلك، لأغراض تجميل المدينة، بدون مسوِّغ، في إشارة إلى أن ذلك أحد أساليبه في محاربة النشاط الصهيوني».

توقَّفت الستُّ جورجيت، وهي ترتشف آخر قطرة من فنجان القهوة، وتنظر حولها، وكأنها تبحث عن شخصٍ يُسعفها بفنجان ثانٍ.

سألتُها إذا كانت ترغب بفنجان قهوة آخر، فهزَّت رأسها نافية مبتسمة شاكرة، وتابعت حديثها عن حسن بك: «سمعنا من أهلنا بأن حسن بك كان يطلب المال باستمرار من المؤسَّسات اليهوديَّة، من أجل تشييد مشاريعه العمرانيَّة بما فيها مسجده، ومدارس أخرى، وأن اللجان الممثِّلة لليهود كانت تُبدي حماسة لذلك؛ كي تتجنَّب غضبه، ولا نعرف الحقيقة من غيرها، والله أعلم، المهمُّ أن ما بقي من حسن بك الآن هو المسجد

الجميل الذي يحمل اسمه، وأصبح يقع بين يافا وتلِّ أبيب، وإن كان على المستوى البعيد فشل في منع تمدُّد تلِّ أبيب جنوباً، لتصبح مفخرة المشروع الصهيوني الناجح، إلَّا أنه بقي، رغم العداء الصهيوني له، والذي ما زال مستعراً حتَّى الآن، كسلسلة الاعتداءات التي تعرَّض لها وسط مجموعة من أفخم الفنادق الإسرائيليَّة».

أخذت جورجيت نَفَساً، يبدو أنها كانت بحاجة إليه، إلَّا أنها اضطرَّت إلى نفخ الهواء من فمها، مع انتباهنا، لضجيج مرتفع، يصلنا من جهة الموقف. وقفنا، وأسرعتُ، وهي خلفي إلى حيث يتقاطر الناس، ويُشكِّلون حلقةً حول شخصَيْن، عرفتُهما على الفور، أحدهما السمسار أبو العبس بزِيِّه المتواضع، يحمل بيده سيفاً، ويُلوِّح به لشخصٍ أضخم منه جسداً، وهو يسحُّ عَرَقَاً، بينما الشخص الآخر مذهول من المفاجأة، والخوف، إلى درجة سيقول البعض لاحقاً، إنهم رأوا بقايا بوله على بنطاله.

بدأت تتَّضح الصورة، السمسار يهدِّد الحَلَّاق بالقتل، ولكنْ، لماذا؟ لا أحد يعلم، وإن كان أبو العبس كان يصرخ: خَوَل .. خَوَل، أريد أن أُريحَ الناس من شَرِّكَ ..!

وحين لم يجد أحداً يردعه، ربَّما من هول الصدمة، يستمرُّ في الصراخ: سأُطهِّر القُدْس منكَ ..!

بهتت الجموع المتحلِّقة، والتي لم يحاول أيٌّ منهم التدخُّل، ربَّما لم يُصدِّقوا بأن السمسار يمكن أن يفعلها، وقد عُرِف بعلاقته الحسنة مع الحَلَّاق أم أنهم خَشُوا التدخُّل أم أنَّ بعضهم تمنَّى أن يُنفِّذ السمسار وعيده، للتخلُّص من الحَلَّاق وسيرته التي يتداولونها.

انتبهتُ للستِّ جوجريت تقف بجانبي، وتُمسك بيدي، وكأنها شعرت بأنها في هذه اللحظة مسؤولة عن أمني، وسلامتي، وحاولتْ دفعي إلى

الخلف، كي لا أرى مشهداً متوقَّعاً، لا يجب أن يراه مَنْ هم في سنِّي، ولكنها لم تدرك بعد، بأنني كبرتُ قبل الأوان، وتجاوزتُ سنِّي، وفجأة تركتْ يدي، واندفعتْ نحو الحَلَّاق، لتحميَهُ من سيف السمسار المتهوِّر، ولكنها ما إن وصلتْهُ، وحضنتْهُ، ورأسها بالكاد يصل كتفه، لتدفعَهُ بعيداً، وتُخرِجَهُ من الحلقة، حتَّى وَجدتْ نفسها تسقط فوقها، وبجانبها رأسه الذي أطاح به السمسار.

أشحتُ بنظري عن ما حدث، بينما بدأ السمسار ينظِّف الدم الذي علق على سيفه بطرف قميصه، ويخرج من الحلقة نحو الموقف، ليتابعَ عمله الذي تركه من أجل شأنٍ صغير، نفَّذه، وها هو يعود. توجَّهتُ إلى جورجيت، لأُخرِجَها من هذا الجحيم، غير المتوقَّع، ولكنَّ اختراق الجمع الذي حوَّطها كان صعباً جدَّاً، حتَّى تنبَّه أحد، وكان يجب أن يتنبَّه أحد، إلى هول ما وقع قبل لحظات، فصرخ طالباً الانفضاض، حتَّى تتمكَّن أُختنا المحترمة، من النهوض والخروج.

رأيتُ جورجيت تتَّجه نحوي، من بين جدار الناس، وتمُسك يدي، وتسير أمامي، دون أن تقول أيَّة كلمة.

بعد دقائق، وقد جلسنا على درج باب العَمُود، قالت: «فظيع .. فظيع، ما الذي حدث بالضبط؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ من أين أتت كلُّ هذه الوحشية؟».

الثالث عشر

حدَّثتْني والدتي كثيراً، عن طبيعة عملها، ومعاملة رامي الحسنة لها، ولكنني لم أكن مطمئنّاً، خشيتُ عليها وقلقتُ بشكلٍ لا يمكن وصفه، وزرتُها أكثر من مرَّة في مكان عملها؛ فاجأتُها، فبدلاً من أعود من المدرسة إلى البيت، كنتُ أصعد وادي الربابة، ناظراً إلى البساط الأخضر الذي يُغطِّيه، والكهوف القديمة، والتفتُّ إلى مقبرة القَرَّائين، متذكِّراً والدي وأبانا بوللو، واليهوديَّة المصريَّة، وأتساءل إذا كانت تصوَّرت عندما جاءت لزيارة المقبرة، بأنها ستلتقي فدائيَّاً، اكتشف، بالصدفة، أين يُخبِّئ راهب سوريٌّ السلاح للفدائيِّيْن، ويخطِّط لزرع القنابل في المصالح اليهوديَّة، ليقتل يهوداً احتلُّوا أرضنا. كيف يمكن أن تتصوَّر وهي تختبر معاملته وحنوّه على يهوديَّة مثلها؟

سيقول لي والدي لاحقاً، بأنه لم يكن يعلم هُوِيَّة مَنْ ينقل السلاح للفدائيِّيْن، والصُّدْفة هي التي جعلتْهُ يعرف مبكِّراً أن أبانا بوللو هو الفدائيُّ المجهول، وتمنَّى لو أنه لم يعرف، لأنه أضحى تحت ثِقَل معلومات كان لا يجب أن يعرفها، والأسلم في العمل الفدائي السرِّيِّ، أن كلَّ فدائي يعرف فقط أقلَّ قَدْر من المعلومات، حتَّى لو اكتشف، يتوقَّف التحقيق عند ما يعرفه، ولم تكن معرفة والدي بهُوِيَّة مهرِّب الأسلحة، إلَّا عبئاً، سيُحدِّد طريقة عمله مع الخطط التي وضعها ورفاقه، دون أن يعلم هؤلاء الرفاق، لماذا يُصرُّ والدي على تنفيذ هذا التفصيل أو ذاك، ولم يكن، بالطبع، قادراً على إخبارهم، بأن مهرِّب الأسلحة قد يكشف في أيَّة لحظة، ما دام هو نفسه كشفه، حتَّى لو حدث ذلك بمحض الصدفة، فللشاباك عيون كثيرة، ومبثوثة في أكثر من مكان.

«عندما تدخل ميداناً ما، عليكَ أن تعلم بأنكَ لستَ وحدكَ، الذي يلعب ويفكِّر ويخطِّط، عليكَ الانتباه دائماً لوجود طرف آخر، يفعل ما تفعله، ولكنْ، ضدَّكَ، وفي مواجهتكَ»- قال لي والدي في إحدى الزيارات.

عندما أصل أعلى الوادي، أُلقي نظرةً عليه وعلى قريتنا، وأُحاول لَمْلَمَة ما مررتُ به خلال الفترة الماضية، وكأنني محارب يحتاج إلى استراحة مراجعة وفهم ما جرى، وما سوف يجري، ثمَّ أنعطفُ نحو حَيِّ الثوري، فشارع القُدْس - الخليل، وأنا أقطع الشارع، ضربتِ الحروفُ عينَيَّ، فاقتربتُ من المنزل الحجري، الذي بدا قديماً، عَلَت الأوساخ حجارته، ولكنَّ الأحرف المنقوشة على اللوحة الحجريَّة الحمراء الغامقة، بدت وكأنها تتراقص، لتجذب نظري إلى ما خُطَّ عليها، من البسملة، والآية الكريمة (لئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)، المستخدمة لدى أصحاب البنايات المسلمين والمسيحيِّيْن، ويبدو أن صاحب المنزل أبو سارة لم يكتفِ بالبسملة، لإظهار هُوِيَّته الدينيَّة، فحرص على وضع تاريخ البناء بالسنة الهجريَّة، ما يوافق خمس سنوات قبل نكبته ونكبة شعبه.

استدعيتُ والدي والشيخ نعيم، وسمعتُهما يشرحان، يقول والدي: «يبدو أن حرصه على إظهار هُوِيَّته الدينيَّة لم يصدر عن عقلٍ متعصِّب، ففي حديقة المنزل، يظهر تمثال بجناحَيْن، وُضِعَ على عمود، نُحِتَ من نفس حجارة المنزل، يحاكي المخلوقات في الأساطير الإغريقيَّة». ويردُّ عليه الشيخ نعيم بالإيجاب، ويضيف: «لم يهنأ أبو سارة كثيراً في منزله، فالقُدْس كانت على موعدٍ مع احتلالٍ جديد، وما أكثر احتلالاتها، وتمكَّنت العصابات الصهيونيَّة، من احتلال قسم من حَيِّ الثوري، وأسكنت في منازله بعضاً من موظَّفي دولتها التي أنشأتْها على الأرض الفلسطينيَّة التي احتلَّها. ولم يُبدِ موظَّفو الاحتلال الذين سكنوا المنازل في الثوري امتناناً، بل كانوا كثيري الشكوى، لوضعهم في منازل على خطِّ وقف إطلاق النار، ممَّا يعني حاجتهم لبدل مخاطر».

وعيتُ على نفسي وأنا أُردِّد: «أين ذرتِ الأيَّام (أبو سارة)؟»، ولم أعد أسمع صوتي والدي والشيخ نعيم، في حين لَفَتَ نظري شبابيك المنزل المجاور، حيث تتراءى أعمدة الحديد المتقاطعة، وكأنها صُنِعَت في أبدٍ، لتعيشَ في أبدٍ.

لم يُغيِّر المستوطن الجديد للمنزل العربيِّ، الذي وضع فيه الشُّبَّاك وزجاجه، رغم تغيُّر الأذواق وتبدُّلها. ويبدو أنه يحرص على إبقائه مغلَقاً. هل يخاف من عودة الأنفاس التي اعتقد أنه طردها؟

حصل عليه كغنيمة حرب، بزجاجه، وحديده، وحجارته، وأنفاس ساكنيه وأرواحهم، في أمكنة أخرى طاردت الأرواح المستوطنين الجدد، فهربوا، كما حدث في منازل عَيْن حوض، حتَّى سكنها فنَّانون، لا يخافون من الأرواح، وبإمكانهم، إبداع أعمالهم الفنِّيَّة، بضمير لا يُؤنِّب.

ما دام الأمر غنيمة حرب ..!

انتبهتُ، فجأة، إلى نقش باهتٍ على باب مغلَق، ووقفتُ أتأمَّله، وأحاول قراءته جاهداً، فكّ حروفه، وفجأة سمعتُ صوت الشيخ نعيم، وكأنه يقف خلفي، ويعرف بماذا أفكِّر: «على عجلٍ ..!».

واصل الصوت: «كأن صاحبه كان يعلم بما ستؤول إليه الأمور في الأرض المقدَّسة، وهو يبني بيته عام 1943م. فطلب، وهو يُنهي البناء، على الأرجح، من الحجَّار أن ينقش على حجرٍ ما يُظهِر هُويَّته الدينيَّة. يظهر على واحدة من حجارة المدخل نقش من عدَّة أسطر، لم تُراعَ فيه فنون النقوش المحلِّيَّة، وإنما غلب عليه الطابع العملي، واكتفى النقَّاش بكتابة لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله، وتاريخ البناء 1361هـ، دون ذِكْر اسم صاحب المنزل. ولتحسين مظهر النقش، حفر النقَّاش، إطاراً عُلويّاً من مثلَّثات؛ نوع من الزينة الهندسيَّة الساذجة».

حزنتُ، كيف يمكن لشخصٍ، مهما كانت هُوِيَّته، قبول الاستيلاء على منزل شخص آخر، مهما تكن هُوِيَّته.

وكأن الشيخ نعيم سمع ما أفكِّر به، فابتسم، وقد أصبح في مواجهتي، وواصل كلامه: «لا نعرف إذا سكن صاحب المنزل فيه أم لا، ولكنَّ المؤكَّد أنه بعد سبع سنوات، من حفر النقش على عجلٍ، على حجرٍ محليٍّ، سقط المنزل في أيدي العصابات الصهيونية، وما زال ..!».

وما زال الشيخ نعيم، مثل والدي، ورفاقهما، خلف القضبان في سجنٍ إسرائيليٍّ، تصلني أصواتهم، ويحضرون بهيئاتهم، القضبان غير قادرة على حبس أرواحهم.

بعد لحظات، أجد أُمِّي تقف بالقرب من بوَّابة منزل العَرْعُور السابق، هل هي غنيمة حرب أيضاً؟ أمنع نفسي من التفكير بأُمِّي على هذا النحو، وأنا أراها تستنشق هواءً نقيَّاً، أو في المطبخ تصنع قهوة أو شاياً لرامي وضيوفه.

ربمَّا تكون نساء غيرها غنائم حرب، وقعنَ ضحايا لمشغِّليهنَّ اليهود، أمَّا أُمِّي، فلا يمكن أن تكون كذلك، وكيف يمكن أن تكون، التي يفوح عطرها في المنزل، وتترك جزءاً منها في تضاعيف المكان، الذي أنام وأصحو فيه؟

رامي في الثلاثينيَّات، في عُمُر أُمِّي تقريباً، غزا الشيب شَعْر رأسه مبكِّراً، من الكوادر الحكوميَّة الإسرائيليَّة التي اختيرت لمواهبها وقدراتها لإدارة بعض الملفَّات الشائكة كالمتعلِّقة بالشبيبة ومشكلاتها وقضاياها.

استغربتُ دائماً كيف تعايشت والدتي بسرعةٍ مع وضعها الجديد هذا في العمل، وهي التي اقترنت بفدائيٍّ مصاب، وما زال في المعتقل، ومع استمرار حوادث القتل، على يد جنود الاحتلال، والاستيلاء على منازل مواطنينا، والجَوّ المغبرّ بالعمليَّات الفدائيَّة والقمع في القُدْس، ولكنَّ هذا ما حدث، ليس بالنسبة إلى أُمِّي فقط، ولكنْ، لمعظم الناس، الذين أصبحوا، فجأةً، ومن غير توقُّع، في ظلِّ حكومة دولة جديدة، هي الرابعة

أو الخامسة خلال سبعين عاماً. لقد انتقل ناسنا من السيطرة العثمانيَّة، ومجاعة الحرب العظمى الأولى وأمراضها وأوبئتها، إلى بريطانيا العظمى، فالنظام الأردنيُّ، وقبله الوجود المصري، والآن تحت سيطرة الإسرائيليِّيْن، بدون قيادات جامعة، فالهزيمة ما زالت طَرِيَّة، وبعض الأعين تتَّجه إلى شرق النهر، حيث بقايا الوجود الفدائيِّ، وآخرون من الأعيان تَوزَّع ولاؤهم بين الملك ودولة الاحتلال، ومعظمهم لم يجد تناقضاً بأن يُوزِّع الولاءَ بين الملك ودولة اليهود.

ستُحيِّرني شخصيَّة رامي، ولم أستطع تحديد موقف قاطع منها، فهو وإن كان يتصرَّف بودٍّ معي عندما أزور أُمِّي، ولا تشكو هي من معاملته، إلَّا أنه يحتلُّ منزل العَرْعُور، ويُمثِّل دولة تُكشِّر، مع كلِّ يوم جديد، عن أنيابٍ حادَّةٍ جديدةٍ لها.

حكت لي والدتي، عن موقف رامي، عندما رأى رجلاً مُسنَّاً يصعد الدرجات، ويطلب بأدبٍ رؤية المكان، لأنه كان حتَّى لفترة قريبة منزله، الذي اختار حجارته الحمراء، والخطَّاط الذي نقش اللوحة التذكاريَّة التي ما زالت أعلى المنزل، وشكَّل الشرفة المُطِلَّة على الشارع الفوَّار بالحركة، وغيرها من تفاصيل.

لم يمانع رامي، ولم يُعلِّق، وطلب من أُمِّي مرافقة العَرْعُور في جولته، ففعلتْ، لتكون المستمعة الوحيدة للشاهد على ضياع منزله، مثلما استمعتُ إليه أنا ولُور عندما التقيناه قرب عِمَارَتِه في شارع يافا.

قالت والدتي: «ربمَّا لو كان المدير شخصاً آخر، غير رامي، لكان رفض السماح للعَرْعُور بالدخول، خصوصاً بعد ما تعرَّض له المنزل على يد والدكَ وصحبه».

أخذنا نُميِّز بين يهوديٍّ طيِّب، وآخر أقلّ طيبة، بين المجنَّد الذي قَتَلَ واحتلَّ، وهو نفسه الذي يمكن أن نكون عمَّالاً لديه أو تحت إمرته، وهو نفسه

أيضاً، الذي يخدم فترة من الزمن كلّ عام في جيشه، الذي يقمعنا ويحتلُّنا.

هل أُصِبْنا بالانفصام؟ وهل كان لدينا أيٌّ خيار؟ وهل؟ وهل؟ أسئلة ستُرافقني لاحقاً، وتكبر كلَّما أكبر، عندما ستُتاح لي الفرصة للنظر لما حدث من زوايا مختلفة.

الرابع عشر

لم يكن مقتل الحَلَّاق، واعتقال السمسار ليمرَّ كسحابةٍ عابرةٍ في سماء القُدْس، انتشر القيل والقال، والقصَّة التي أراد الناس تصديقها بأن عشيقاً قَتَلَ عشيقه، بعد أن عاير الحَلَّاق السمسار، بوضاعته بالنسبة إلى حَلَّاق الأرستقراطيَّات، والمغنِّيَّات، وبنات الذوات.

قد تكون هذه هي القصَّة، وقد لا تكون كذلك، وبالنسبة إليَّ، فإن المشهد الذي انطبع في مُخِّي، ليس رأس الحَلَّاق المدحرج، كما يمكن التوقُّع، ولكن هيئة السمسار المتأهِّب، الجاهز للانقضاض، وكأنه يخوض معركة حياة أو موت دفاعاً عن كرامةٍ مسلوبةٍ. لعلَّه لم يفكِّر، وهو يلوِّح بالسيف أمام الحَلَّاق، وربَّما توقَّع الأخير، حتَّى اللحظة الأخيرة، أن ما يحدث هو مزحة ثقيلة، سيقول كثيرون، بأن ما وقع كان يجب توقُّعه، فلا مكان في القُدْس للتُّرَّهَات، وحتَّى لو كان السمسار تجاوب مع رغبات الحَلَّاق، فيجب التوقُّع، بأنه سيصحى يوماً ما، وينتقم لسمعته، ويكفِّر عن ما ارتكبه من موبقات.

لم تنشر الصحف الفلسطينيَّة التي صدرت بعد الاحتلال تفاصيل عن الجريمة رغم اهتمامها بنشر الأخبار عن ما حدث، واعتقال أبي العبس، واستنكار الأرمن لما حدث مع الحَلَّاق، وتظاهر عدد منهم في المُصْرَارَة، وفي حارة الأرمن، وفحوى لائحة الاتِّهام التي قُدِّمَت لاحقاً بحقِّ السمسار.

ولكن الصحافي أمنون الذي لا يغيب كثيراً عن المُصْرَارَة، وبسطة العمِّ جبر، ومطعم العِكِرْمَاوِي، بدأ بإعداد تقرير صحافي عمَّا حدث، وأرسل في طلبي، كواحدٍ من شهود العيان، وحرص العمُّ جورج على حضور لقائي مع الصحافي أمنون، على طاولة أمام المطعم.

رويتُ لأمنون ما رأيتُهُ، ولكنَّ ذلك لم يُثِرِ اهتمامه، وحدستُ بأنه لم يقابلْني فقط بسبب ما حدث للحَلَّاق، ولكنْ، لأمرٍ آخر، لم أكن سمعتُ به من قبل.

سألني عن شخص اسمه يعقوب، عاش في القُدْس، قبل أكثر من أربعين عاماً، ومات قتلاً، في ظروف مشابهة لما حدث مع الحَلَّاق الأرمنيِّ.

لماذا يسألني أنا؟ قال أمنون بأكثر الطُّرُق كياسة، بأن إشاعة أحاطت بيعقوب وهو رجل دِيْن يهودي أرثوذكسي، بأنه كان على علاقات مع شبَّان من قريتنا في عشرينيَّات قرننا العشرين، وأرجعت أوساط يهوديَّة سبب اغتياله لتلك العلاقات.

سألني أمنون، إذا كنتُ سمعت ولو شذرات كلام، في مجالس القرية عن يعقوب، أو أن والدي قبل اعتقاله أتى على سيرته؟ وأجبتُهُ مندهشاً بالنفي، لأنني أوَّل مرَّة أسمع بيعقوب اليهودي هذا.

أخرج أمنون من حقيبته الصغيرة ورقةً مطبوعة، تبيَّن لي أنها صورة عن إعلان وُزِّع عقب مقتل يعقوب، وطلب منِّي قراءته. بجانب صورة لشخص رأسه خالٍ من الشَّعْر تقريباً، يضع نظَّارة على عينَيْه، وينظر للكاميرا بجِدِّيَّة، وبدون ابتسام، ثمَّة أسطر بثلاث لغات منها العربيَّة: «حكومة فلسطين» وبخطٍّ عريض: «200 جنيه مكافأة» ثمَّ بخطٍّ رفيع: «إن المبلغ المذكور أعلاه يُعطى لأيِّ شخص، أو أشخاص، يقدِّمون إخباريَّة تؤدِّي إلى إلقاء القبض والحكم على القاتل أو قَتَلَة الدكتور يعقوب لومان، الذي أُطلق عليه الرصاص، وقُتل نحو الساعة 7.45 من مساء يوم 30 حزيران، خارج المستشفى على طريق يافا - القُدْس».

وبخطٍّ صغير: «تُقدَّم الإخباريَّة إمَّا كتابة أو شخصيّاً إلى أيِّ نقطة بوليس، أو إلى مساعد المفتِّش العامِّ لقسم تحرِّي الجنايات المركزيَّة بالقُدْس، صندوق البريد نمرة 431، وتعامل يتمّ الكتمان».

والتوقيع: «مركز البوليس العامّ بالقُدْس 8 تمّوز 1924، الإمضاء أ.ش. مفروكو رادتوا - نائب مفتِّش البوليس والسجون العامّ».

بعد أن تمعَّنتُ في الإعلان القديم، سألني أمنون إن كنتُ فهمتُ شيئاً؟ فأجبتُهُ بالنفي، وأنا أنظر للعمِّ جورج، طالباً منه بعينَيَّ المساعدة.

قال العمُّ جورج كلمات عامَّة مطمئنة، مشيراً إلى أن قضيَّة قتل مثل هذا النوع، ستنساها القُدْس، التي ستشهد مقتل العشرات، وربَّما المئات، في ثورات وانتفاضات وحربَيْن طاحنتَيْن مدمِّرتَيْن.

قال الصحافي أمنون: «ما زالت قضيَّة الدكتور يعقوب غامضة، ولكنها بعكس الأمر لديكم، إذا كانت قُدْسكم نسيَتْها، فإن قُدْسنا لم تنسَها، وأعاد مقال الحَلَّاق التذكير بها، فكلاهما عُرفا بمَيْلهما للرجال، وإذا كان منكم مَنْ قتل الحَلَّاق، فربَّما حدث ذلك أيضاً في ذلك اليوم البعيد في شارع يافا، لقد أحبَّ ذلك الرجل العرب».

وأكمل ضاحكاً: «والعرب، كما تعلمان، يقتلون مَنْ يُحبُّهم».

ضحكنا، وردَّ عليه العمُّ جورج قائلاً، بأنه ليس مثل العرب وفاءً، وعليه أن يُبحر في بحور الشعر العربي، ليتمعَّن ويستمتع.

قال أمنون: «قضيَّة الدكتور يعقوب الغامضة أعقد ممَّا يظنُّ بعضنا، وقد يكون مفاجِئاً أن أوَّل عمليَّة اغتيال يرصدها مجتمع القُدْس اليهوديّ وقعت على خلفيَّة ميول صاحبها الجنسيَّة، وإن كان ذلك غير مؤكَّد، ما نعلمه أن الدكتور يعقوب، في ذلك المساء الحزيراني، كان يسير في شارع يافا متَّجهاً إلى الكنيس اليهوديِّ، بينما كان رجل آخر ينتظره خلف أحد المباني، أطلق عليه ثلاث طلقات، أرْدَتْ يعقوب قتيلاً».

أضاف أمنون: «الدكتور يعقوب كان يحمل الدكتوراة في القانون،

وهو شاعر وصحافي، وُلد ونشأ في هولندا، ومن غُلاة الأرثوذكس اليهود، ولكنه أيضاً، وهنا المفارقة من مِثْلِيِّي الجنس. أصدر رواية تتضمَّن مشاهد مِثْلِيَّة في هولندا قبل هجرته إلى فلسطين، وبعد ما أثارتْهُ هذه الرواية من نقمةٍ عليه، حاول وأعوانه شراء كامل الطبعة الأولى من الرواية، وله أيضاً قصائد مشابهة ذات مواضيع لُوطيَّة».

لم يكن مثل هذا الموضوع ليروقَ لي، وشعرتُ بتقزُّز، من رواية أمنون الهادئة عن هُوِيَّة الدكتور يعقوب الجنسيَّة.

ويبدو أن أمنون أحسَّ بمشاعري، فأضاء على جوانب أخرى من حياة الدكتور يعقوب: «كان لديه جانب آخر، فقد تبنَّى قضايا اليهود الأرثوذكس مدافعاً عن تمثيلهم في المجتمع اليهوديِّ الذي أخذ بالتكوُّن في ظلِّ الانتداب البريطاني، وأيضاً كتب وعمل ضدَّ الحركات الصهيونية، التي كانت تسعى للسيطرة على المؤسَّسات اليهوديَّة والتحكُّم فيها، وعندما اغتيل كان على وشك السَّفَر إلى لندن، لِلِقاء مسؤولين بريطانيِّيْن، في محاولة لإحباط خطط المنظَّمات الصهيونية العاملة في فلسطين آنذاك على الشؤون اليهودية».

وخلص أمنون: «ويمكن أن يكون ذلك سبباً كافياً لهذه المنظَّمات لاغتياله، وهو عادة ما يذهب إليه قسم من المؤرِّخين، الذين يُحمِّلون منظَّمة الهَجَناه مسؤوليَّة الاغتيال، ولكن هذه المنظَّمة أنكرت دائماً مسؤوليَّتها عن ذلك، وألصقت التهمة بالعرب، بدعوى أنهم قتلوا يعقوب لاستيائهم من اتِّصالاته المشبوهة مع الصِّبْيَة العرب، ولكن هذا الادِّعاء لم يؤيِّده أيُّ شيء من الحقيقة، على الأقلِّ حتَّى الآن».

تدخَّل العمُّ جورج: «يجب أن تلصقوا أيَّ شيء، تُنفِّرون منه بالعرب؟».

ضحك أمنون: «وبعد كلِّ هذه السنوات الطويلة على اغتياله، ما

زال ملفُّ الدكتور يعقوب مفتوحاً، فبعض اليهود الأرثوذكس ينظرون إليه كشهيد، وباسمه تُنظِّم الكثير من الأنشطة الخيريَّة، وأيضاً فإن بعض المجموعات المِثْلِيَّة في أمستردام تستخدم أجزاء من قصائده اللُّوطيَّة».

يا ساتر! ما هذا الحديث الذي أجد نفسي وسطه؟

قال العمُّ جورج: «إذا أردتَ كتابة تقرير موضوعي، عليكَ البحث عندكم، وليس عندنا».

ردَّ أمنون: «سأذكر ذلك على لسانكَ في تقريري، ولكنني سأحتاج إلى وقت، وسأزور قريتكم، يا سيِّد كافل، والقرى المجاورة».

تدخَّل العمُّ جورج متحدِّثاً باسمي: «ولكن السيِّد كافل لن يستطيع مرافقتكَ، أو مساعدتكَ، هو لا يعلم شيئاً عمَّا حدث في تلك السنوات البعيدة».

قال أمنون: «بالطبع، أعرف ذلك، ولكنني اعتقدتُ أن فتىً نبيهاً مثله يعرف الكثير، قد يكون سمع نتفاً من أخبار، قد تساعدني، لأقدِّم تقريراً متوازناً».

حدث نقاش بين العمِّ جورج وأمنون، عن ماهيَّة التقارير المتوازنة، وعن دَوْر الصحافة في نشر الحقائق، وعن الفرق بين صحافتنا التي تخضع للرقابة الإسرائيليَّة، وصحافتهم التي تتمتَّع بحرِّيَّة.

ولكن أمنون أوضح، بأن هناك أبقاراً مقدَّسة لا يجوز المساس بها في الصحافة الإسرائيليَّة، كالقضايا الأمنيَّة والعسكريَّة، وفي ظنِّه أن قضيَّة الدكتور يعقوب قد تدخل في هذَيْن الجانبَيْن، مستغرباً لماذا لم تنشر الشرطة البريطانيَّة التي حقَّقت في قضيَّة القتل تقريرها عن ذلك!

ودَّعنا أمنون، الذي كان عليه استجواب المزيد من شهود العيان، وأصرَّ العمُّ جورج على توصيلي بمَرْكَبَته إلى قريتنا.

في الطريق، طلب منِّي العمُّ جورج الانتباه على نفسي، وعدم مقابلة أشخاص مثل أمنون وحدي، والحديث مع الجميع، بكلامٍ مقتضب، فليس مثل الثرثرة يمكن أن تكون مُهلِكَة لصاحبها.

أنزلَني العمُّ جورج أمام المنزل، وهو يؤكِّد عليَّ بأن أنتبه لنفسي، ممَّا جعلني أشكُّ في أنه يعلم بما أفعله ورفاقي في مواجهة المستوطنين اليهود.

طمأنتُ أُمِّي التي كانت قد عادت قبلي بقليل، من عملها، وتستعدُّ، بعد تغيير ملابسها، لتحضير الطعام، لنتناوله معاً. سأُحبُّ مثل هذه الطقوس التي أجلس فيها إلى أُمِّي، نأكل ونتحدَّث.

الخامس عشر

«كم عدد الدول التي احتلَّت القُدْس بعد صلاح الدِّيْن؟ لماذا سَمَّوْا باب المغاربة، بهذا الاسم؟ كان على القُدْس سور، غير هذا السور، فاستعصت على المسلمين، فكَّر قائد جيش المسلمين بماذا يفعل ليفتح القُدْس، التي هي الجنَّة بالنسبة إليه، فلم تتأخَّر الفكرة عليه كثيراً، وهو يقصد هدفاً دينيَّاً نبيلاً، فاستنجد بأبي مدين الرجل الصالح من المغرب، قائلاً له: يا أبا مدين، جنود الله غير قادرين على اقتحام سور مدينة الله، وأنتَ تعلم بأنها الجنَّة، فَمَنْ يدخلها، يستنشق هواءً غير الهواء، وينشرح صدره، ويأتيه رزقه من حيث لا يحتسب، وتحيط به النساء الجميلات، والخدم الأوفياء، والمماليك الجاهزين لحمايته.

تلقَّى أبو مدين الخطاب، وخاطب رجاله الصالحين: مَنْ يريد أن يذهب معي إلى الجنَّة؟ فاستجاب له أربعون صالحاً مؤمناً، من مؤمني تلك الأيَّام، وليس من كذَّابي أيَّامنا هذه. سار بهم أبو مدين أيَّاماً وليالٍ، قطعوا صحارى وبحاراً وأنهراً، حتَّى حطُّوا أخيراً في الرَّمْلَة، ناموا ليلتهم هناك، في الموقع الذي سيُسمَّى لاحقاً مسجد المغاربة، صلُّوا، وبالطبع كان الإمام مغربيَّاً والمؤذِّن مغربيَّاً، والمصلُّون مغاربة، وناموا مستكينين للراحة بعد تعب ومشقَّة. وفي اليوم التالي، سأل أبو مدين مرَّة أخرى رجاله: مَنْ سيواصل معي الطريق إلى الجنَّة؟ لم يستجبْ هذه المرَّة إلَّا عشرة، لقد هدَّ التعب والمسير عضد الباقين، الذين ماتوا في الرَّمْلَة، ودُفنوا حول المسجد، وما زالت قبورهم هناك إلى يوم الناس هذا.

سار أبو مدين، برجاله العشرة، غير قانط، ولا حزين، فهو يعرف ما هو مُقدِم عليه، وعندما وصل مشارف القُدْس، وصَعِدَ إلى جبل المُكَبِّر، استغرب قائد المسلمين كيف يمكن لعشرة رجال اقتحام أسوار القُدْس المنيعة، ولكن أبا مدين طمأنه، وكشف عن خطَّته. في ذلك الزمن، عندما كان حارس كلِّ باب من أبواب القُدْس يقرع الجرس، يُفتَح الباب، فقال أبو مدين، انتشروا، وعندما يقرع كلُّ حارس جرسَهُ، تقدَّموا، واقطعوا رقبته، وهذا ما حدث، نزلوا من الجبل إلى قريتنا، وصَعِدُوا إلى القُدْس التي فُتِحَت للمغاربة الأتقياء، وخُلِّد اسمهم بباب المغاربة، لأنه سُمِّي بذلك، لأن مغربيّاً فتحه، كما حال الأبواب العشرة، وعندما جاء وقت الأذان، أذَّن العشرة معاً، وزلزلت أصواتُهم المدينة، ليعرف الآخرون المنتظرون، بأن القُدْس سقطت في يد المسلمين. القُدْس المدينة الوحيدة في العالم التي لا يعمّر فيها ظالم، ويمنحها الله لعباده الصالحين، وعندما لا تكون في أيديهم، كما هو الحال الآن، فهذا يعني أن الله يختبرهم».

كانت أُمُّ السَّبْع تحاول التسرية عنِّي برواية هذه الحكاية، بينما أُمِّي تسمع وهي تعدُّ الشاي، وما إن أتت حاملة صينيَّة الشاي، حتَّى سمعنا قرعاً صاخباً على الباب، فطلبت أُمِّي منِّي فتح الباب، وعندما فعلتُ، وجدنا ثُلَّة من شرطة الاحتلال، تقتحم المنزل، وتصبح بيننا.

طوَّقت شرطة الاحتلال المنزل من جميع الجوانب، وكأنهم في مهمَّةٍ حربيَّة، لا تحتمل الخطأ.

سأل مسؤول الدوريَّة، عنِّي، فاندفعت أُمِّي نحوهم وهي تصرخ، وكأن أفعى لدغتها للتوِّ:

- ماذا تريدون منه؟ إنه طفل، ولد صغير، لم ينبت ريشه.

أعاد المسؤول السؤال، غير آبه بأُمِّي، فقلتُ بصوت مرتفع، أردتُهُ قويّاً متحدِّياً:

- أنا كافل ..!

قال المسؤول بصوتٍ خفيض:

- لدينا تبليغ لكَ، للمقابلة في المَسْكُوبيَّة.

وسلَّمني ورقة، كُتب فيها بأنه عليَّ الذهاب صباحاً إلى المَسْكُوبيَّة لمقابلة ضابط الشاباك المُكنَّى أبو كفاح.

أبو كفاح؛ كان معروفاً بالنسبة إلى أهل قريتنا، بأنه المسؤول في الشاباك عنها، والذي يتابع أمر أبنائها، ويبثُّ الجواسيس، ويجمع المعلومات، ويعتقل، ويضرب.

تدخَّلت أُمِّي:

- لماذا؟ ماذا فعل هذا الصغير؟ دولة الظلم لن تطول، وأنتم ظلمتم.

ردَّ المسؤول:

- لو سمحتِ، لا نريد كلاماً طويلاً كبيراً، هذا هو التبليغ، وإذا لم يأتِ غداً، فسيصبح ابنكِ، بالنسبة إلينا، مُطارَداً لدولة إسرائيل.

وغادر وخلفه رجال شرطته. وعندها تقدَّمت والدة السَّبْع إليّ مطمئنة، بأن الأمرَ، لا شكَّ بسيط، ولو أنه لم يكن كذلك، لما انتظرت حكومة إسرائيل حتَّى الغد لأذهب إليها، ولكان رجال الشرطة أخذوني معهم الآن.

حزنت أُمِّي كثيراً، وشعرت بالقهر، بينما واصلت أُمُّ السَّبْع دورها كمطمئنة ومهدِّئة:

- يا ابني، لكلِّ واحد منَّا كتابه المكتوب إليه، كما ذكرتُ لكَ قبل قليل،

كيف أن الواحد ترابه ينادي عليه، وهو ما حدث مع المغاربة الذين بقوا في الرَّمْلَة، ودُفنوا فيها، مع أنهم عندما انطلقوا كانت القُدْس غايتهم، ولكنَّ الله لم يردْ. أمَّا الماء، فأنتَ عليكَ أن تسير لتشربه، وكلُّ واحد له شربة ماء في بلدٍ سيمشي إليه ليشربها، انظر ما حدث لأبيكَ، له ماء داخل القضبان المسوَّرة، فذهب ليشربه، رغم أن طعمه أمرُّ من العلقم، أمَّا الخبز، والرزق، فهو الذي يمشي إليكَ، وإنشاء الله رزقكَ سيكون دائماً وفيراً، وسيسير إليكَ.

لم أفهم كثيراً على أُمِّ السَّبْع، ولم يكن مُهمَّاً أن أفهم، ولكنَّ المهمَّ هو أن تصلني كلماتها المطمئنة، وإن لم تصلني أنا، فعلى الأقلِّ تصل لأُمِّي.

بعد استيعاب صدمة التبليغ، كان لا بدَّ من نقاش هادئ، والتخطيط لكيفيَّة التصرُّف غداً. اقترحت أُمُّ السَّبْع أن نبعث وراء عمِّي، لكي نشاوره، ولعلَّه يرافقني إلى المَسْكُوبيَّة غداً، بينما فكَّرتُ بأن أذهب صباحاً إلى كنيسة القيامة، وأطلب من العمِّ جورج مرافقتي، ولكنَّ أُمِّي أصرَّت بأنها هي التي ستأتي معي.

قالت أُمُّ السَّبْع لها، بأن عليها عمل، وإن غيابها المفاجئ قد يزعج رامي، والمسؤولين عنه وعنها.

ردَّت أُمِّي، وكانت ما زالت مُستفَزَّة:

- ليغوروا كلُّهم، المصائب تتوالى علينا منذ أن وطئوا بلادنا.

واتَّفقنا أن أذهب إلى دار عمِّي، لأخبره، ولكنه لم يكن بحاجة لتبليغه بالأمر، فعندما سمع بتطويق منزلنا، جاء إلينا، ليطمئنَّ، ويطمئننا.

قال عمِّي مهوِّناً من الأمر:

- الموضوع بسيط. إنهم يحاولون دائماً إثارة الضجيج على كلِّ ما

يفعلونه، حتَّى لو كان أمراً سخيفاً، يسعون دائماً لإحداث أكبر قَدْر من الصدمة.

وعندما غادر عمِّي أخيراً، كنَّا قد قرَّرنا أن أذهب برفقته، على أن نُطمئنَ أُمِّي، بعد عودتنا سالمين، كما أكَّد عمِّي وهو يبتسم ابتسامة ثقة واطمئنان.

باركت أُمُّ السَّبْع الأمرَ، ورأت أنه التصرُّف الأنسب، فبالنسبة إليها، فإن الرجال هم الأقدر على التعامل مع اليهود، وليست النساء.

السادس عشر

لم أنم جيِّداً تلك الليلة، أمَّا أُمِّي، فإنها لم تنم، صحوتُ أكثر من مرَّة على نحيبها المكتوم، وخُيِّل إليَّ أنها تكلِّم نفسها، ولم تكن مقتنعة أبداً أن الأمر سيكون بسيطاً.

أيقظتْني أُمِّي، ولعلَّني غفوتُ ودخلتُ في نوم عميق، مع اقتراب الفجر، وكانت قد جهَّزت الفطور، ولكنني لم أكن في مزاج لتناول أيِّ شيء.

أصرَّت أُمِّي على أن أتناول ولو لقمة، لأكسر السُّفْرَة، وهي تعلم، بأنني سأظلُّ على جوع بطني، باقي النهار، فازدردتُ بضغط منها وإشرافها لقيمات، غمستُها بالزيتون والزعتر، ولم أكن لأُنجز في ذلك دون جرعات من الشاي بالمِرَمِيَّة.

جاء عمِّي، وانطلقنا سويَّاً إلى القُدْس، بعد دقائق أصبحنا في باب الخليل، ففكَّر عمِّي أن نقصد القِشْلَة القريبة، ليسأل شرطيَّاً فلسطينيَّاً من معارفه. ففي الحرب الأخيرة، عندما احتلَّ اليهود القِشْلَة، وجدوا فيها الشرطة العرب، فعرضوا عليهم العمل معهم، فوافق بعضهم، وأُسندت إليهم مهمَّات، كالحراسة في المسجد الأقصى، ومساعدة المحقِّقين اليهود، في قضايا جنائيَّة، وغيرها.

سرتُ خلف عمِّي، وعندما وصلنا القِشْلَة، وجدنا أبا السعيد، يقف أمامها مع بعض زملائه، قبل الانطلاق إلى أعمالهم، وكانت فرصة جيِّدة بالنسبة إلى عمِّي، فهمس لي: «وكأنه ينتظرنا، صباحنا سيكون خير إنشاء الله».

استمع أبو السعيد جيِّداً لعمِّي، وقال له وكأنه معتاد على ذلك: «كما تعلم، فإننا نحن لا نهشُّ ولا ننشُّ، خصوصاً في القضايا الأمنيَّة، المسألة كلُّها لدى الشاباك، ولكنْ، كن مطمئنّاً، إنها مجرَّد فركة أذن لكافل، إنهم يحاولون، إحباط الفِتْيَة منذ البداية، حتَّى لا يفكِّروا بأعمالٍ أكبر عندما يكبرون».

اعتذر أبو السعيد، بأكثر العبارات مبالغة، لأنه لا يستطيع أن يقدِّم المساعدة، ولكن ذلك لم يكن مقبولاً، على ما بدا، بالنسبة إلى عمِّي، فما إن ابتعدنا قليلاً عن باب القِشْلَة، حتَّى قال: «صباحنا سيكون سيِّئاً، بعد مقابلتنا مع هذا الفلسطيني الذي يرتدي زِيَّ الشرطة الإسرائيليَّة، ويضع شعارها على رأسه».

قطعنا الميدان بين باب الخليل وشارع يافا، والذي كان يُسمَّى ميدان اللنبي، وسمَّاه المحتلُّون الجدد ميدان جيش الدفاع الإسرائيليّ.

قال عمِّي: «احتفل اللنبي، باحتلاله القُدْس من العثمانيِّيْن، في هذا الميدان، وعندما احتلَّ الإسرائيليُّون القُدْس كاملة، غيَّروا الاسم، ليناسب الاحتلال الجديد، وإن شاء الله بعد أن نستعيدها، سنُطلق عليه اسماً مناسباً، كميدان الشهداء مثلاً».

تذكَّرتُ حكاية جَدِّي والمظاهرة التي حدثت هنا، وسقوط الشهداء، وأمامي ينتصب بنك باركليز، فَلَفَتَ عمِّي نظري إلى الحرفَيْن الأوَّلَيْن من اسم البنك، وقد شُكِّلا بالإنجليزيَّة، على حمايات الشبابيك، وبدأ الصدأ يغطِّيهما.

قال عمِّي: «الودائع الفلسطينيَّة في البنك غير معروف مصيرها حتَّى الآن، على الأرجح استولى عليها الإسرائيليُّون، كما استولوا على مبنى البنك، خلال المعارك الطاحنة التي جرت في المنطقة عام النكبة».

عندما قطعنا الشارع لفتت انتباهي اللوحات التي وضعها الإسرائيليُّون

بالقرب منِ بنك باركليز، وتَشرحُ بثلاث لغات، مدعومة بخرائط، ما حدث عام النكبة، من وجهة نظر إسرائيليَّة: «كانت المعارك التي دارت حول فندق النوتردام من أكثر معارك إنقاذ القُدْس حسماً خلال حرب 1948م، قادت المعارك الضارية التي دارت مع الجيش الأردني في فندق النوتردام خلال حرب 1948م إلى توقُّف عمليَّات هذا الجيش لغزو القُدْس الغربيَّة، ما ضمن بقاء القُدْس تحت السيادة الإسرائيليَّة، وعودتها إلى وضعها التاريخي كعاصمة لدولة إسرائيل».

وعلى لوحة مجاورة، كُتبت أسماء جنود العصابات الصهيونية الذين سقطوا خلال المعارك في هذا المكان، وعددهم 23 شخصاً.

قال عمِّي: «لكلِّ محتلٍّ روايته عن القُدْس».

قلتُ: «ولكلٍّ نُصْبه».

وضع عمِّي يده على شَعْري، وكأنه يريد أن يقول لي: «أحسنتَ»، وقال وكأنه تذكَّر شيئاً: «هل تعلم بأن اللنبي بنى نُصْباً، يخلِّد احتلاله للقُدْس، ليس في ميدانه، ولكنْ، في حَيِّ روميما، حيث تسلَّم البريطانيُّون صكَّ استسلام القُدْس من رئيس البلدية؟».

طبعاً لا أعلم، أمور كثيرة في القُدْس وعنها لا أعلمها، وأُفاجأ بها. كنتُ وعمِّي وكأننا بحديثنا عن ماضي القُدْس القريب نحاول تأخير ما سنُقبل عليه، ونقدِّر بأنه لن يكون سهلاً.

مررنا بين البنايات الروسيَّة التي استولى عليها البريطانيُّون، وورثها الإسرائيليُّون، حتَّى وصلنا المكان الذي ينتظر فيه المراجعون، والمستدعون.

استفسر عمِّي من بعض الموجودين، على ما يجب أن نفعله، وتلقَّى الإجابة ذاتها تقريباً، بأن لا قوانين معيَّنة هنا، وعلينا الانتظار، حتَّى ينادوا علينا.

سيطول الانتظار كثيراً، وسنستفسر، من أيِّ شخص دخل قبلنا وخرج، ولكنْ، لا أجوبة مناسبة لوضعي، فلكلِّ شخص هنا وضعه الخاصُّ، الذي يُكيِّفه الشاباك أو الشرطة أو الجيش على مقاسه.

علمنا من البعض أنهم يأتون كلّ يوم منذ فترة، يمُضون يومهم هنا، حتَّى يخرج من الباب جندي يقول لهم بأن عليهم أن يأتوا غداً، ويستمرُّ اعتقالهم النهاري دون التحقيق معهم. ويدخل آخرون ولا يخرجون، والانتظار سيِّد المواقف هنا.

كان لا بدَّ أخيراً، أن يبرز أحدهم بزِيِّه العسكريِّ، وينادي على اسمي، وعندما تقدَّم عمِّي ممسكاً يدي، لم يُسمَح له بالدخول، قائلاً:

- المطلوب فقط.

ولم يكن المطلوب إلَّا أنا، كان للكلمة وقع عليَّ، وشعرتُ بأنني مُهمٌّ، إلى درجة لم يتوقَّعها أحد، حتَّى عمِّي، الذي بدا بلا أهمِّيَّة.

أمسكني الجنديُّ من يدي، وأدخلني، ولم أتمكَّن من رؤية عمِّي، الذي أُصيب بخيبة، وهو الذي أتى بي، وسيعود، إن لم أخرج، وحيداً إلى قريتنا، ماذا سيقول لأُمِّي؟

هل سيُقرُّ بأنه لم يستطع حمايتي أو العودة بي كما اصطحبَني؟

السابع عشر



ربط الجندي غِمَامَة على عينَيَّ، وتأكَّد من شدِّها خلف رأسي، وأوقفَني بجانب جدار، وشعرتُ بأنه ذهب، وتركني. لا أعرف إلى أين غادر، ولماذا تركني وحيداً.

مع استمرار تعميتي ووقوفي وتعبي، شعرتُ بأنني دخلتُ في انتظارٍ سيطول، ففي مثل ظروفي، تطول الثانية أو الدقيقة لتصبح ساعة، مع توقُّف الشعور بالزمن، وعدم استطاعتي تحديده.

بعد فترة، حسبتُها أشهراً، أمسك أحدهم بيدي، وقادني، وفتح باباً، لأجد نفسي داخل غرفة، تبيَّنتُها مع إزالة الغِمَامَة عن عينَيَّ، فركتُ العينَيْن، ولكنهما لم يتعوَّدا على الإبصار مرَّة أخرى بسرعة، كان عليهما تحمُّل صدمة الإنارة من جديد، بعد عيشهما في ظلامٍ مغبش.

رأيتُ رجلاً يجلس خلف مكتب صغير، فعرَفْتُ بأنه المحقِّق، الذي أشار للجندي خلفي بالمغادرة، وطلب منِّي الاقتراب منه، والجلوس على مقعدٍ في مواجهته.

تمعَّنتُ في المحقِّق الذي يرتدي، على عادة رجال الشاباك، الزِّيَّ المدنيَّ، وكنَّا نُسمِّيه (سافيل)، وهي تحريف للكلمة الإنجليزيَّة الدالَّة على الزِّيِّ، ولا أعرف كيف تسلَّلت إلى لهجتنا.

لفتت انتباهي الطاقيَّة الصغيرة على رأسه، ووجهه الحليق الأحمر، وابتسامته العريضة، وقميصه الأبيض.

قال:

- أهلاً بالبطل كافل ..!

- ....

- البطل لا يُنجِب إلّا أبطالاً، تراكَ فخوراً بوالدكَ؟

- ....

- هل تعرف لماذا أنتَ هنا؟

أجبتُ متلعثماً:

- لا .. لا أعرف.

ضحك المحقِّق:

- منذ البداية تستهين بأبي كفاح؟

يحمل رجال الشاباك أسماء كوديَّة عربيَّة، يختارها بعضهم بعناية، ويكون لها علاقة بالقضيَّة الفلسطينيَّة، والثقافة العربيَّة.

- لا أستهين بأحدٍ ..!

- بل تستهين. هل تعتقد بأنني جلبتُكَ إلى هنا، لتُضيِّعَ وقتي؟

ضغط على زرٍّ، وبعد لحظات، بقي فيها صامتاً ينظر إليَّ، دخلت مجنَّدة تحمل صينيَّة، عليها فنجانا قهوة، وضعتْهما على الطاولة أمامه.

طلب منِّي احتساء القهوة، فرفضتُ، لأنني اعتقدتُ بأنها قد تكون مسمومة، فأصرَّ على أن أحتسيَ، قائلاً، بأن من أصول الضيافة العربيَّة تقديم القهوة، وعدم رفض الضيف احتساءها.

أمسكتُ فنجاناً، وقرَّبتُهُ من شفتَيَّ، للتخلُّص من الضغط الذي يمارسه أبو كفاح، بينما هو شفط رشفة من فنجانه بصوتٍ مرتفع.

وضع الفنجان على الصينيَّة قائلاً:

- نريد الآن، بعد احتساء القهوة أن نكون جِدِّيَّيْن، ولا نُضيِّع وقتاً، كي تعود لأُمِّكَ المسكينة المكافحة، التي عانت من مغامرات والدكَ غير المحسوبة ولعبه مع دولة إسرائيل، هل لا تريد أن تعود إليها سريعاً؟

– بلى، أريد ..!

- إذنْ، تعاوَنْ معي، وكُنْ واضحاً، فأنا الذي أستطيع حمايتكَ في هذا المكان، أنتَ جرَّبت كيف فعل بكَ الجيش، وضعوا غِمَامَةً على عينَيْكَ، وأوقفوكَ، وعندما طلبتُ منهم أن يأتوا بكَ رفضوا، أرادوا أن يقرصوا أُذُنكَ، وما رأيتَهُ لا شيء ممَّا ستراه منهم، والحلُّ هو التعاون معي، والردُّ على أسئلتي.

منذ دخولي إلى غرفة أبي كفاح، وأنا متوتِّر أكثر ممَّا كنتُ عليه وأنا واقف في الخارج أعاني ألم الانتظار.

– سأردُّ على أسئلتكَ ..!

- إذنْ، قلْ لي لماذا أنتَ هنا؟

– لا أعرف ..!

- بل تعرف، وتعرف، عليكَ أن تُخبرنا بأسماء رفاقكَ، الذين أخبرونا عندما جلبناهم إلى هنا عنكَ. والمَثَلُ يقول: ألف ذقن ولا ذقني، هم باعوكَ، فلماذا لا تُخبرنا عنهم وتنفذ بجلدكَ، وتعود لأُمِّكَ؟! أنتَ لا تُقدِّر أُمَّكَ جيِّداً، هذه الأُمُّ الصابرة المصابرة، ألم تسمع المَثَلَ: ألف عين تبكي، ولا عين أُمِّي تبكي ..!

– لا أعرف ..!

- أقرَّ أصحابكَ بما تفعلون في مَرْكَبَات المدنيِّيْن الإسرائيليِّيْن، فلم نحبسهم، أطلقنا سراحهم، عادوا إلى منازلهم، أمَّا الذين مثلكَ ركبوا رؤوسهم، فقدَّمناهم للمحاكم، وحبسناهم.

– أنا لم أفعل شيئاً ..!

ردَّ أبو كفاح ساخراً:

- البراءة تكاد تُنقِّط من عينَيْكَ، يا مسكين ..!

– صدِّقْني ..!

- أنا لا أُصدِّق الكذَّابين، أنتَ كذَّاب، يا كافل، وضيَّعتَ فرصتكَ ..!

ضغط على نفس الزرِّ، فدخل جندي، أنهضَني من مقعدي، ووضع الغِمَامَة على عينَيَّ، وسحبني خارج المكتب، لعلَّه أوقفَني في نفس المكان السابق.

بدأتُ في مونولوجي الخاصِّ الذي لا ينتهي، عن رفاقي الذين تحدَّث عنهم أبو كفاح، ومقدار ما يعرفه عنَّا، وماذا سيفعل بي؟ وأين عمِّي وأُمِّي الآن؟ هل ذهب عمِّي ليُخبرَها بأنني دخلتُ ولم أخرج حتَّى الآن أم أنه ينتظرني في الخارج، وعينه على الباب كي لا يُفتَح وأخرج منه دون أن ينتبه؟!

تصوَّرتُ بأنني لن أخرج من هذا المكان، وسأنضمُّ إلى والدي في سجنه الطويل، ولكنْ، ماذا عن أُمِّي؟ ماذا ستفعل بنفسها؟ وهي التي تنتظر لأكبرَ وأصبح سيِّد المنزل، وأُريحها من العمل لدى اليهود وتبعاته.

بقيتُ على هذه الحالة ساعات طويلة، كما قدَّرتُ، وشعرتُ بالإنهاك من الوقوف، وحاولتُ مرَّة أن أُجرِّب الجلوس، وظهري إلى الحائط، أهبط ببطء، ولكنْ، ما إن أصبحتُ على الأرض، حتَّى شعرتُ بيدٍ تهوي على وجهي، وصوت يصرخ بالعبريَّة، فوقفتُ بسرعةٍ.

جاء مَنْ يسحبني من مكاني، وأمضي معه، وأنا أعمى لا أرى شيئاً، أسمع صوت وضع مفتاح في باب، ويد تدفعني إلى الداخل، تحسَّستُ الجدران حولي، فاكتشفتُ بأنني وُضعتُ في مكانٍ صغير، بدأت ظلمة عينَيَّ تعتاد ظلمة الزنزانة، وقرَّرتُ إزاحة جزء من الغِمَامَة لأرى أكثر، رفعتُ

يدَيَّ الاثنتَيْن، وأزحتُ طرف الغِمَامَة من أسفل، ولأني لم أجد مَنْ يُوقِفني، ولم تهوِ يد على صدغي، وسَّعتُ دائرة الرؤية، حتَّى فككتُ عقدة الغِمَامَة من الخلف، لأجد نفسي ليس في زنزانة، وإنما مرحاض، فَتْحَتُهُ سوداء، من تراكم الأوساخ.

جلستُ بالقرب من الفتحة، وسعدتُ بمَدِّ رِجليَّ والاستناد إلى الحائط، وقرَّرتُ أن أُريح جسدي قَدْر استطاعتي، استعداداً لجولات التحقيق المقبلة، مقدِّراً بأن اللقاء الأوَّل مع أبي كفاح لم يكن إلَّا اختباراً صغيراً، وتخيَّلتُ جولات تحقيق صعبة، يتخلَّلها تعذيب وضرب، وفي النهاية سنوات حكم عالية.

قرَّرتُ أن أصمد في التحقيق، وأرفع رأس والدي، ليفخر بي كما فخرتُ به، عندما نلتقي في السجن، لأسمعه يقول لرفاقه:

- هذا ابني كافل الذي حدَّثتُكُم عنه، وسيرته على لسان كلِّ مناضل حُرٍّ..!

غفوتُ قليلاً أو كثيراً، لن أعرف أبداً، المهمُّ بأنني شعرتُ بأنني نمتُ، وأنا أفكِّر في والدي، ودون أن يقتحم خلوتي أيُّ جندي، ليضربَني أو يقودَني للتحقيق، أو ليعيدَ وضع الغِمَامَة على عينَيَّ.

بعد فترة فُتح الباب، ورأيتُ شرطيَّاً يرمي نحوي بقطعة خبز وكيس صغير فيه نصف خيارة، وثلاث أو أربع حبَّات زيتون، ويمضي. فرحتُ بأنه لم يُؤنِّبني لخلعي الغِمَامَة.

حاولتُ الأكل، ولكنني لم أستطع، لم أشعر بالجوع، أو بحاجتي للطعام، كان عقلي مكرَّس كلِّيَّاً لما سيحلُّ بي، ويبدو أن معدتي قدَّرتْ ذلك، فلم تُلحّ على مطلبها الدائم، ورقَّت لحالي، فلم ترسل وخزاتها ودقَّاتها.

سأنام نوماً متقطِّعاً في المرحاض، ولن أعرف الوقت في ظلمته، ولكنني

علمتُ بأن الليل دخل عليَّ، وأنا هنا معتقَل في المَسْكُوبيَّة، وبأن عمِّي لا بدَّ عاد إلى قريتنا، وميَّل على منزلنا، وها هو يتبادل الحديث مع أُمِّي وأُمِّ السَّبْع، التي لن تترك أُمِّي في مثل هذا الظرف، وغيابي لأوَّل مرَّة عن المنزل.

تخيَّلتُ حديثهم، والجهد الذي بذله عمِّي لتهدئة أُمِّي، ووعدها بأنه سيأتي في اليوم التالي لينتظرني، ولن يعود إلَّا ويدي بيده، يقودني مشياً في شارع يافا، وندخل معاً باب الخليل، ونمرُّ في حارة الأرمن، ونخرج من باب النبي داود، وننزل إلى قريتنا.

ولكنني، بدل النزول إلى قريتنا، هبطت في قاعٍ، خلتُهُ لن ينتهيَ، ولم أفقْ منه، إلَّا على صوت المفتاح في باب المرحاض، الذي وضعتُ رأسي بجانب فَتْحَتِهِ السوداء.

الثامن عشر

لم أعرف كيف تمكَّنتُ من قضاء ليلتي على الأرض الباردة، وبجانب فَتْحَةِ المرحاض؟ هل شعرتُ بالبرد؟ وكيف غفوتُ ومُخِّي لا يكفُّ عن التفكير؟

قادني الشرطي - يبدو أنني أصبحتُ في عهدة شرطة المعتقل بدلاً من الجيش - إلى الكابتن أبي كفاح، ولكنْ، هذه المرَّة، وجدتُ نفسي في مكتبٍ مختلفٍ، أو هكذا تصوَّرتُ.

جلس أبو كفاح خلف مكتب أكبر من الأوَّل، يرتدي قميصاً ملوَّناً، مستعدَّاً لمواجهتي.

لم يطلب لي قهوة أو شاياً، وطلب منِّي أن أحكي القصَّة. أيَّة قصَّة؟ لم يُفصِح، عليَّ أن أعرف وحدي ذلك.

قلتُ له بأنه ليس لديَّ أيَّة قصَّة، ولا شكَّ أنه لاحظ ثقتي الزائدة عن يوم أمس، ومحاولتي الظهور أمامه بأقلّ قَدْرٍ من الانفعال والخوف. لقد مدَّني والدي وهو بعيد عنِّي، ومعتقل مثلي بكثيرٍ من العنفوان. كنتُ مستعدَّاً للمواجهة، متحمِّلاً النتائج، وكأنه ليس لديَّ ما أخشاه، فوالدي في السجن، ولن يخرج منه إلَّا بعدة مدَّة طويلة، ولُور لن أراها مرَّة أخرى، وأُمِّي التي تحمَّلت غياب والدي، وعرفت طريقها بعيداً عنه، ستتحمَّل أيضاً غيابي، أمَّا وَرْدَة، فإنني أعلم مكانها، ويمكنني زيارتها أو جلبها، ولو بالقوَّة إلى منزلنا الجديد عندما أخرج، ولم أدرِ لماذا لم أستخدم القوَّة معها حتَّى الآن!

أقف أمام (أبو كفاح) عارياً، إلَّا من إيماني، نعم ليس مثل إيماني بنفسي، قدرة على مواجهة ممثِّل الاحتلال هذا.

فَطِنَ أبو كفاح إلى أنني ما زلتُ واقفاً، والشرطيُّ خلفي، وبإشارة منه خرج الشرطي، وجلستُ بطلبٍ منه.

قال أبو كفاح:

- لا شكَّ بأنكَ تعلم، بأنني حتَّى الآن كنتُ لطيفاً معكَ، لأن هذا ما يعكس حقيقتنا، ولو كنتَ في سجن عربيٍّ، لَمَا رأيتُ أحداً تهمس له أو تبادل الحديث معه، عليكَ أن تسأل الأكبر سنَّاً في حَيِّكم، لتعرف كيف كانوا يُعامَلون من قِبَل الدولة التي سبقتْنا، ولهذا استقبلتُم احتلالنا بفرحٍ، فتحنا لكم ورشنا، ووفَّرنا لكم الأعمال، وجرت الأموال في أيديكم، ولكن بعضكم يرفس النعمة، كوالدكَ، ولكنه ينتمي إلى أقلِّيَّة، ولكنَّ الأكثريَّة، ولله الحمد، لا تشغل نفسها بالسياسة، يخرج الرجل، والآن المرأة أيضاً، إلى العمل، للعودة مساءً بكومة ليرات لإعاشة باقي العائلة.

توقَّف ليفحص وقع كلامه على وجهي، الذي حرصتُ على جعله بلا ملامح، وكأنه قطعة من جُلْمُود، لا تستوعب ولا تفهم ما يقوله هذا الـ أبو كفاح.

- ولكنكَ لم ترَ إلَّا الوجه الجيِّد لنا، صحيح بأننا لا نقتل الأطفال ولا نضربهم، ولا نشرب دمهم، ولكننا لسنا سُذَّجاً، ويمكننا أن نفعل الكثير، إلَّا إذا قرَّرتَ الحديث، ورواية القصَّة، حتَّى تُسرِعَ إلى والدتكَ.

– ليس لدي قصَّة لأحكيَها.

- اسمعْ، يا كافل، إذا بقيتَ حماراً لا تتكلَّم، فبإمكاني أن أقطع لكَ أهمَّ عضو لديكَ، وتبقى عائشاً، نادماً، بدونه، هل تعرف ما هو؟

عرفتُ ماذا يقصد أبو كفاح، وتحت إلحاحه أجبتُ:

– تقصد العَيْن؟

- لا، ليس العَيْن، يا حبيب أُمِّه.

– الأُذُن؟

- لا، هناك أهمُّ من السمع، يمكن للمرء أن يعيش أطرش.

– اللسان؟

قهقه أبو كفاح، وقد راقتْهُ اللعبة:

- إذا قطعنا لسانكَ، لن تخسر الكثير، بل سيفرح الناس، وترتاح أُمُّكَ من أسئلتكَ وأجوبتكَ، أن تكون أخرس ليس بالأمر الجَلَل.

– لم يبقَ سوى الأنف، أو اليدَيْن، أو الرِّجْلَيْن؟

- لا هذا ولا تلك، أنتَ تعلم كيف ستكون حياتكَ عندما تكتشف لُور بأنكَ بدون دَنْدُوْلة.

فوجئتُ، عندما ذكر اسم لُور، أردتُ أن أُصدِّق بأنه لم يذكر اسمها، وأنني لم أسمعه جيِّداً.

ماذا يعرف عنِّي وعن لُور؟ حاولتُ استرجاع اسمها كما لفظه، ولكنني فشلتُ، قد لا أكون سمعتُ جيِّداً.

قطع تفكيري، ضغطه على الزرِّ، ودخول الشرطي لأخذي.

أخرج الشرطي غِمَامَة، وربطها على عينَيَّ، وقادني هذه المرَّة، إلى ما قدَّرتُ أنها ساحة السجن، وأوقفَني بعيداً عن جدار يمكن أن أستند إليه، وعمد إلى رَبْط يدي خلف ظهري، ولم أحتج إلَّا لثوانٍ قليلة، حتَّى شعرتُ بأن يدَيَّ تُخلَعَان من الأعلى، وتنفصلان عن الكتف.

قدَّرتُ بأن قصَّتي بسيطة، ولو لم تكن كذلك، لاستخدم (أبو كفاح) أساليبه الهمجيَّة التي أعلمها، وسمعتُ عنها، ولَمَا كان ما زال يتسلَّى معي، وكأنني طفل صغير لا يعرف شيئاً.

عزمتُ على الصمود، والسخرية منه، وعدم تمكينه من هزيمتي، وسأتحمَّل أيَّة ظروف سيضعني فيها، ولن أستسلم مهما بلغت شدَّة التعذيب.

شعرتُ ببرد، جعل جسدي يرتجف قليلاً، وفكَّرتُ كيف سأمضي الليلة على هذه الحال، إن أبقوني في مكاني.

قدَّرتُ بأنهم نسوني، ويبدو أنهم لا يعرفون ماذا سيفعلون معي، إلَّا إذا كانوا سيُخضعونني للتحقيق مرَّة أخرى في الليل.

في حومة هذه الأفكار، شعرتُ بيد تسحبني، وتجرُّني، حتَّى وصلتُ مكاناً، حرَّرني فيه الشرطي الذي يجرُّني من الغِمَامَة، ومن قيد يدَيَّ، وطلب منِّي تحريكهما، وعاد لي حينها الألم من جديد، إبراً تُغرَس فيهما.

سألني الشرطي إن كان معي أيَّة أغراض، فنفيتُ، فسألني عن بطاقة الهُوِيَّة، فأخبرتُهُ بأنني لم أصل سنَّ السادسة عشر، حتَّى أستصدر بطاقة.

طلب منِّي السير خلفه، وقطعنا رواقاً، لنصل إلى غرفة، فأخرج مفتاحاً من سلسلة مفاتيح، فيها العديد من المفاتيح، وفتح الباب، ودفعني إلى الداخل.

وجدتُ نفسي في غرفة فيها سجناء عرب ويهود، وأمنيِّيْن مثلي، وجنائيِّيْن، وبدا لي أن لا أحد يهتمُّ بالآخر، حتَّى اقترب منِّي سجين، طلب منِّي إخباره قصَّتي، فعرف اسمي، وسبب اعتقالي، فأخذني إلى برشه،

وقدَّم لي تفَّاحة، معتذراً بأنه لا يوجد لديه غيرها، وفَّرها من العشاء، طالباً منِّي الصبر حتَّى الصباح، حيث نخرج جميعاً إلى الفطور.

وطلب منِّي، محذِّراً، أن لا أثرثر مع أحدٍ، وإن سألني أيُّ سجين سؤالاً، أجيب باختصار، وعلى قَدْر السؤال، وضرب مثلاً إذا سألني سجين عن اسمي، فأعطيه اسمي الأوَّل، وليس الاسم كاملاً، وإذا سألني عن اسمي الثاني، فأكتفي بالإجابة بإعطائه اسم والدي وهكذا، لا كلام زائداً في السجون، وإذا عدتُ إلى التحقيق، وهو أمر استبعدَه، أن أكون مختصراً، وقويّاً أمام المحقِّق الذي سيحاول إبهاري بمعلومات ينثرها خلال التحقيق، ليجعلني أعتقد أنه يعرف الكثير، ولكنه، في الواقع، لا يعرف، وإنما يريد أن يعرف، ولو كان يعرف لَمَا تجشَّم جلسات التحقيق.

طمأنني الأخ سعد، كما قدَّم نفسه لي، بأنني سأغادر على الأرجح غداً، وإن ما حدث معي، ليس إلَّا قرصة أُذُن، ومحاولة من المحتلِّين لتحييد أكبر قَدْر من ناسنا.

قال:

- يعرفون بأنكَ ابن مناضل، وأرادوا أن يصدموكَ، ويُحيِّدوكَ، فلا تفكِّر بأيِّ عمل وطني ضدَّهم.

لم أُخبِرْ سعداً بنشاطي ورفاقي في إقلاق راحة المستوطنين الذين يقصدون قريتنا، ولم يحاول، من جهته، معرفة ما لا يجب معرفته.

التاسع عشر

لاحظتُ على برش سعد صفحةً من جريدة عبريَّة، عليها صورة الحَلَّاق نادريان، وصورة عن إعلان المكافأة الخاصّ بالدكتور يعقوب.

سألتُ سعداً عن المكتوب في الجريدة، وخمَّنتُ أنه بقلم الصحافي أمنون، فأجابني سعد بالإيجاب، وقال «إنهم شطَّار في اختيار العناوين»، مشيراً إلى أن أمنون نشر تقريره بعناوين صارخة: «القُدْس مدينة الاغتيالات، الشذوذ الجنسي في القُدْس، ما بين أوَّل اغتيال وآخر اغتيال».

طلبتُ منه قراءة التقرير، أو تلخيصه، فرحَّب، بعد أن علم حكايتي مع الصحافيِّ أمنون، وكوني شاهداً على مقتل نادريان.

«لا توحي أجواء مدينة القُدْس المعبقة بالماضي، بتاريخ المدينة الدمويّ، الذي لا يليق بمدينة صغيرة مقدَّسة من الأديان التوحيديَّة الثلاثة، ولكن الواقع أن هذه المدينة كانت مسرحاً لأحداث ومؤامرات، كان لها تأثيرها الإقليميّ والدوليّ، طوال قرون من تاريخها. وخلال السبعين عاماً الأخيرة، وقعت فيها عدَّة عمليَّات اغتيال، معظمها معروف، ولكن بعضها لم يحظَ بالتحقيق الكافي حتَّى الآن.

وما يجمع بين هذه الاغتيالات، أنه في مدينة القُدْس تُرتكب الاغتيالات، سواء كانت سياسيَّة أو على خلفيَّات جنسيَّة، بصرف النظر عن الدِّيْن أو العِرْق أو الجنسيَّة.

وقد يكون مفاجِئاً أن أوَّل عمليَّة اغتيال وقعت على خلفيَّة ميول صاحبها

الجنسيَّة، وإن كان ذلك غير مؤكَّد، فإن آخر عمليَّة اغتيال وقعت، لا شكَّ، على هذه الخلفيَّة.

أوَّل عمليَّة اغتيال كان ضحيَّتها الأديب اليهودي الدكتور يعقوب الذي اغتيل في حزيران عام 1924م في شارع يافا، غرب القُدْس.

اتُّهم العرب باغتياله، لوضع حَدٍّ لما شاع عن علاقته بأولاد العرب من القرى المجاورة للقُدْس، ولكنْ، لم يوجد أيُّ دليل على ذلك، ومن الغريب أن سلطات الانتداب البريطانيَّة أقفلت التحقيق، ولم تصل إلى الجاني.

لماذا أقفل البريطانيُّون التحقيق؟ وهل صحيح أن منظَّمة الهَجَناه هي التي صَفَّتْه، لميوله للسلام مع العرب؟!

سيظلُّ ملف الدكتور يعقوب، الذي أغلقه البريطانيُّون، مفتوحاً، فلا يجب التهاون في قضيَّة مقتل يهودي وأديب له مكانة اجتماعيَّة، ولا بدَّ من فتح التحقيق مجدَّداً».

ويمضي تقرير أمنون إلى الوسيط الضحيَّة: «يُعتبر اغتيال الوسيط الدولي الكونت برنادوت، عام 1948م، أحد أشهر الاغتيالات التي وقعت في البلاد، والتي تحمل أكثر من مغزى، وكُتب عنها الكثير، وفي الوقت ذاته أكثر الاغتيالات وضوحاً من حيث الجهة التي نفَّذتْها، وهي عصابة أرجون بقيادة مناحيم بيغن، والسبب أيضاً معروف.

برنادوت هو ابن شقيق الملك غوستاف الخامس، ترأَّس الصليب الأحمر السويديَّ، واكتسب سمعة طيِّبة داخل القارَّة الأوروبيَّة، أهَّلتْهُ لأن يضطلع بمهمَّة نقل عرض الاستسلام الألماني إلى الحلفاء عام 1945م، وشارك في عمليَّات تبادل الأسرى في الحرب العالميَّة الثانية، كان كلُّ هذا سبباً لأن تُرسله الأمم المتَّحدة مبعوثاً لها إلى البلاد، للتوسُّط بين

اليهود والعرب. وتمكَّن من تحقيق الهدنة الأولى في حزيران 1948م بين الأطراف المتحاربة، وهي الهدنة التي استفادت منها العصابات الصهيونية كثيراً، وأقنع هذه الأطراف بالتفاوض في رودس فيما بعد، وقدَّم برنادوت مقترحات لحلِّ القضيَّة، من بينها بقاء القُدْس بيد العرب، مع إعطاء اليهود استقلالاً ذاتيَّاً في شؤونهم الدينيَّة، وضمّ منطقة النَّقَب إلى حدود الدولة العربيَّة.

كانت هذه المقترحات السبب في إقدام العصابات الصهيونية على اغتياله يوم 17 أيلول 1948م في ميدان هابالماه سانت بالقُدْس الغربيَّة».

استمرَّ سعد في القراءة: «توجد أوجه شبه كبيرة بين حادث اغتيال الملك عبد الله على عتبات المسجد الأقصى في القُدْس عام 1951م، واغتيال برنادوت، أهمّها أن الحادثَيْن وقعا على خلفيَّة حرب عام 1948م، وإذا كان متطرِّفون صهاينة هم مَن اغتالوا برنادوت، لأسبابٍ سياسيَّة، فإن مجموعة فلسطينيَّة نفَّذت اغتيال الملك الأردنيِّ لأسبابٍ سياسيَّةٍ أيضاً، رأت أنه مسؤول عمَّا آلت إليه الحرب.

وحدث ذلك عندما أطلق الشابُّ المَقْدِسِيُّ مصطفى عشو النار على الملك الأردنيِّ الذي كان يستعدُّ للدخول لأداء صلاة الجُمُعة، وبرفقته حفيده المُحبَّب الحسين بن طلال، أربع طلقات، أصابت الملك عبد الله في رأسه وصدره، فأدَّت إلى مقتله على الفور، بينما نجا الحفيد بأُعجُوبة، وأصبح فيما بعد ملكاً على الأردنّ.

كان عبد الله قد وصل إلى الضفَّة الغربيَّة من مملكته، بعد أربعة أيَّام من اغتيال الزعيم اللبناني رياض الصلح في عمَّان على يد أعضاء من الحزب القومي السوري، انتقاماً لإعدام أمين عامّ الحزب أنطون سعادة.

وقبل وصوله إلى الضفَّة الغربيَّة تلقَّى إنذارات، ولكنه أصرَّ على المجيء،

ومن المفارقات أن فتوى طلبها الملك عبد الله من الشيخ المرافق له سهَّلت للقاتل تنفيذ مهمَّته بسهولة، حيث سأل عبد الله إذا كانت الصلاة تجوز وهو لابس حذاءه، فأفتاه الشيخ بالقول:»جافٌّ على جافٍّ، جائز بلا خلاف»، فانحنى حرَّاس الملك ومرافقوه لخَلْع أحذيتهم، فيما بقي الملك واقفاً هدفاً سهلاً للقاتل، الذي تحيط بشخصيته الغموض، فهو شابٌّ بسيط، كان انضمَّ لفرقة التدمير بالقُدْس التي شاركت في القتال ضدَّ العصابات الصهيونية، وروى كثيرون أنه في يوم الاغتيال كان يحمل المسدَّس، وهو متَّجه، عبر شوارع القُدْس القديمة، إلى المسجد الأقصى ويُخبر الناس، بين المزاح والجِدِّ أنه متَّجه لاغتيال الملك الأردني.

وقاد التحقيق إلى الجنرال عبد الله التلّ قائد معركة القُدْس الذي انشقَّ ولجأ إلى مصر، والدكتور موسى الحسيني الذي أُعدم مع آخرين.

ويتَّفق مختلفون ومؤيِّدون للملك الأردني، على الغموض الذي أحاط باغتياله، مثل الأب اللاتيني إبراهيم عيَّاد الذي اعتُقل على ذمَّة القضيَّة، وبرَّأتْهُ المحكمة، وقال في شهادة بأن تحقيقاً جدِّيّاً في اغتيال الملك الأردني لم يُجْرَ، ومثل أنور الخطيب رجل الملك المخلص، ومحافظ القُدْس والوزير في أكثر من وزارة أردنيَّة، الذي اتَّهم المخابرات البريطانيَّة بعدم التحقيق الجدِّيِّ في حادث الاغتيال، طارحاً، مثل عيَّاد، أسئلة كثيرة، أهمّها مَن الذي كان له مصلحة في اغتيال عبد الله؟ وكيف نُفِّذت العمليَّة بتلك السهولة؟».

علَّق سعد على بعض ما جاء في التقرير، وكنتُ متلهِّفاً على معرفة ما كتبه أمنون عن مقتل الحَلَّاق: «وآخر اغتيال وقع في القُدْس، وما زال حديث المدينة، هو مقتل الحَلَّاق الأرمني المعروف نادريان على يد عشيقه، وبطريقة دراماتيكيَّة تراجيديَّة، لا يتصوَّر أحد أنها يمكن أن تحدث

في القُدْس، إلَّا إذا استدعى القرون الماضية السحيقة التي كان الناس في القُدْس يقدِّمون أضاحي بشريَّة للربِّ، خشيةً منه، أو حُبَّاً به، أو لأسبابٍ لم نعرفها حتَّى الآن».

تابع سعد القراءة: «هناك مَنْ يتَّهم الشرطة بأنها تتلكَّأ في إعلان نتائج التحقيق، لأن الضحيَّة عربيٌّ، ولو كان يهوديَّاً، لَمَا تباطأتْ، ولكانت استجابتْ لمطالب رأي عامٍّ يهوديٍّ، ولكنْ، في أيِّ شيء يتعلَّق بالقُدْس الشرقيَّة، فإن الأمر يختلف. قد لا تكون مثل هذه الاتِّهامات صحيحة، ورفضها الناطق باسم الشرطة عندما توجَّهنا إليه، ولكنه ولا غيره يستطيعون نفي التمييز في التعامل بين شطرَي القُدْس، حتَّى بعد إعلان توحيدها، كعاصمةٍ أبديَّة لدولتنا، وعلمنا أن مجموعة من الشواذِّ اليهود سيأتون من تلِّ أبيب للتظاهر من أجل كشف الحقيقة، كلّ الحقيقة، حول مقتل الحَلَّاق الأرمنيِّ، فلماذا أقدم العشيق على قتله، وبهذه الوحشيَّة، التي يقول البعض بأن العرب وحدهم، يتميَّزون بها؟! وبالطبع فإن أسرة التحرير لا توافق على هذا الرأي، ولكنها تنقله، لكي يطَّلع القُرَّاء على مختلف جوانب هذه القضيَّة المحيِّرة».

سألني سعد، عن حقيقة ما حدث. ورويتُ له ما شاهدتُه، وبدا متأثِّراً، مؤكِّداً بأن الحقيقة ماتت في الحقيقة، مع موت الحَلَّاق، ولا يمكن الجزم بصحَّة ما سيدَّعيه السمسار القاتل.

العشرون

تناولتُ الفطور مع السجناء، خرجتُ معهم إلى المطبخ، وجلستُ بجوار سعد، الذي طمأنني مجدَّداً بأنني سأخرج، وأغادر السجن، مشدِّداً عليَّ بأنني لا يجب أن أعود مرَّة أخرى.

- ولكنني لستُ أنا مَنْ يُقرِّر ذلك، الاحتلال يمكن أن يعتقلني في أيِّ وقت، ولأيِّ سبب.

وضع سعد يده على شَعْري، وقال بحنو:

– المرَّة الأولى سببها الاحتلال، أمّا المرَّة الثانية، فستكون أنتَ السبب.

لم أفهم عليه، ولم يرقْ لي ما قاله، وكأنه يُبرِّئ الاحتلال، ويبدو أنه عرف ما أفكِّر به، فقال:

- علينا أن نكون دائماً أذكى من الاحتلال، إنه يسبقنا بخطوة أو أكثر، وعلينا أن نُغيِّر المعادلة، أن نسبقه دائماً، وإلَّا فإننا لن نتغلَّب عليه.

لم أشأ مجادلة سعد، الذي سأظلُّ أذكره بالخير، لوقوفه معي في السجن، وسط المزيج البشري الغريب الصادم بالنسبة إليَّ، ومن الاثنَيْن، سعد، والمزيج البشري، تعلَّمتُ الكثير خلال ساعاتي الماضية.

اقترب موعد الغداء، ولم يُنَادَ عليَّ من شرطة السجن، ولم أسمع الكلمة السحريَّة: «شحرور»، أي إفراج.

حدَّثني سعد عن نفسه وسبب اعتقاله، ولكنْ، باقتضاب، قائلاً بأنه مثل مئات الشباب الذين اعتقلهم الاحتلال، لأنهم فكَّروا بقول كلمة لا

للظلم، واحتلال الأرض، وتشريد الشعب، مشيراً إلى أنه سيتمُّ نقله من معتقل المَسْكُوبيَّة، قريباً، بعد انتهاء التحقيق معه، إلى سجن مركزي، وتقديمه لمحكمة عسكريَّة، سيكون لدى قضاتها الحكم جاهزاً، بعد أن قرَّره الشاباك.

شعرنا بجلبة عند الباب، ورأينا تجمُّعاً للبعض، ينظرون من خلف القضبان لشرطي يحمل ورقة، وسمعتُ اسمي يُتناقل بين السجناء.

قال سعد: «جاءك الفرج، استعدّ». لم أعرف ماذا أفعل، أمسكني، ومضينا نحو الباب، وحين تأكَّد الشرطي من هُوِيَّتي، طلب من المتجمِّعين الانفضاض والتراجع، حتَّى أتمكَّن من المرور.

سألني الشرطي، بعد أن أصبحتُ خارج الغرفة، إذا كان لديَّ أيَّة أغراض في الأمانات، فأجبتُهُ بالنفي. سرتُ وراءه، لأجد نفسي أمام باب كبير، فتحَهُ شُرطي آخر، قال لي: «مع السلامة، لا تجعلْنا نراكَ مرَّة أخرى».

سرتُ قليلاً، فوجدتُ نفسي في شارع الأنبياء. عرفتُ طريقي، فواصلتُ السير، أنظر إلى معالم الشارع التي تفحَّصتُها يوماً مع لُور، وكأنني أُعيد اكتشافها، وبأنني لم أُسجَن فترة قصيرة فحسب، وإنما أنا العائد بعد سنوات إلى شارعي. هذا إحساس السجين عندما يخرج، يشعر بقيمة كلِّ ما تركه خلفه، من لحظات، ومواقع، ومشاهد.

استبعدتُ أن يكون عمِّي ينتظرني أمام بوَّابة السجن الرئيسة، لأنه لا يعرف متى سيُفرَج عنِّي، فواصلتُ المسير حتَّى المُصْرَارَة، ولم ألحظ أيَّاً من الأشخاص الذين أعرفهم، ولم أجد في مطعم العِكْرِمَاوِي إلَّا بضعة أجانب، دفعهم حبُّهم لحمُّص القُدْس، لتذوُّقه بأصابعهم، ولاحظتُ أن الرجل الكبير مؤسِّس المطعم يتململ ويبتسم ابتسامة صفراء، فأحسستُ بأنه يستعجل رحيلهم ليُغلقَ المطعم.

مطاعم الحمُّص في القُدْس تُغلَق بعد الظهر، واقتراب العصر، وعندما

تسأل أيَّ صاحب مطعم منهم عن سبب عدم تأخُّرهم، تجد الإجابة جاهزة، وموحَّدة:

- يمكن للرجل أن يفطر ويتغدَّى عندنا، ولكنه يجب أن يتعشَّى عند امرأته ..!

يا للمسؤوليَّة الاجتماعيَّة لحمُّص القُدْس ..!

وسيتابع الحمامصي، وكأنه يُلقي بحكمة السنين:

- الخاسرون مَنْ لا يبدؤون يومهم بتوقيت حمُّص القُدْس ..!

توقَّفتُ أمام باب العَمُود، كأنني أراه لأوَّل مرَّة، متخيِّلاً سِنان والسلطان سليمان، يتحدَّثان حول هندسته، وكيف يجب أن يكون مدخلاً رئيساً للقُدْس المقدَّسة.

لا يمكنني أن أظلَّ هكذا، لا أعرف إلى أين أتَّجه، فهناك مَنْ يجب إخبارهم بالإفراج عنِّي، وأوَّلهم أُمِّي، فكَّرتُ بالذهاب إليها، وأُفاجئها في مكان عملها، ولكنني فكَّرتُ، وتراجعتُ خشية من ردَّة فعل رامي غير المتوقَّعة على اعتقالي، وتصوَّرتُ بأنني سأُسبِّب إحراجاً لأُمِّي، التي لم يكتفِ زوجها بأن ينضمَّ للفدائيِّيْن، فها هو الابن أيضاً يجرِّب حظَّه، في دربِ، قد تكون مُهلِكة.

دخلتُ من باب العَمُود إلى البلدة القديمة، وعندما واجهني الخيار بين طريق باب الواد، وطريق خان الزيت، وجدتُ نفسي أسير في الثانية، وكأنني فعلاً قرَّرتُ إلى أين سأذهب.

أمام سوق العطَّارين، دلفتُ إلى اليسار، وسرتُ بمحاذاة الكنيسة اللوثريَّة، وسوق أفتيموس، وأنا أتأكَّد، بعينَي، إذا ما كان نقش البداية والنهاية في مكانه أم لا.

وقفتُ في ساحة كنيسة القيامة، لم يتغيَّر شيء، الزوَّار والحجَّاج يملؤون

الساحة، والسُّلَّم الخشبي ما زال في مكانه، لا يُثير انتباه أحد.

ولجتُ إلى الكنيسة، شعرتُ بثقل الهواء، الذي يحمل أنفاس الناس من مختلف الجنسيَّات الذين جاؤوا يقتفون أثر خطوات السيِّد المسيح، ممزوجة بروائح البخور المختلفة.

رآني العمُّ جورج، فأقبل عليَّ باشَّاً، مُهنِّئاً، قال وهو يحضنني:

- ماذا فعلتَ بنا، أيُّها الصغير؟

رويتُ له سريعاً ما حدث معي، وأخبرني عن قلقه عليَّ، ومحاولته تتبُّع أيّ خبر، يمكن أن يخرج من المَسْكُوبيَّة عنِّي.

قال بأن عليَّ أن أصعد الدَّرَج معه نحو كنيسة الجُلْجُلَة، لأنه عليه الانتهاء من عمل ما، ثمَّ سيكون لدينا الوقت لنتحدَّث.

العمُّ جورج يُشرف على تثبيت حامل شموع جديد في الكنيسة أكثر أماناً من السابق، وصمَّمه، لكي يحصر مساحة وضع الشموع، وأرضيَّته رمل وماء، حتَّى لو سقطت الشمعة، لا يشكِّل ذلك أيَّ خطر على الزوَّار.

تأمَّلتُ العمَّ جورج وهو يُثبِّت حامل الشموع مع آخرين، والذي عمل عليه، كما فهمتُ منه، أربعة شهور، شملت الرسم والتصميم والتنفيذ، وصنعه من الحجر المحلِّيِّ الأحمر، مع المَرمَر التركي.

بدا لي العمُّ جورج، كأنه ينفِّذ عملاً ليس له علاقة بهذا المكان الذي تسمع فيه تمتمات الزوَّار وهمساتهم التي أرادوا أن تكون وَرِعَة قَدْر الإمكان، وإنما يضع لمسات أخيرة على عملٍ فنِّيٍّ، بدا فرحاً كيف تشكَّل من الحجر، في مزيج محسوب مع المَرمَر.

قال لي العمُّ جورج، بأنه سعيد، بوضع حامل الشموع بين رأسَي عامودَيْن ضخمَيْن، نفَّذهما والده، فانتبهتُ إليهما وإلى الأخاديد التي حفرها المعلِّم جريس، فجعلتِ الحجر المَلَكِيَّ ينطق.

سألتُهُ عن الحجر المَلَكِيِّ، ولكنه ليس هو ما أجاب، وإنما المعلِّم إسحق الأكبر منه سنَّاً، والذي يعمل مع المعلِّم جريس وآخرين في ترميم حجارة الكنيسة.

قال المعلِّم إسحق: «نحن لا نعمل فقط في الترميم، ولكنْ، أيضاً في تجهيز الكتل الحجريَّة المستخرَجة من محاجر أُمِّ الشرايط في مدينة البيرة، كرؤوس وقواعد أعمدة. هذا الحجر يُسمَّى بالحجر المَلَكِيِّ، ومن ميرته ليونته، وقربه من الحجارة في كنيسة القيامة».

استأذن المعلِّم إسحق لقرب موعد صلاة العصر، واتَّجه إلى مسجد عمر القريب للصلاة.

قال العمُّ جورج: «لا شكَّ بأنكَ جائع». أجبتُهُ، بأنني لا أشعر بالجوع، وسأحتاج إلى وقت حتَّى أعود لأشتهيَ الطعام.

ضحك العمُّ جورج قائلاً: «أفهم عليكَ، ولكنْ، علينا أن نتناول شيئاً».

خرجنا من الكنيسة، وصَعِدْنا غرباً إلى مسجد عمر، فسويقة علون، ودلفنا إلى مقهى، يُديره وليم، طلب منه العمُّ جورج أن يعدَّ لنا شطائر خفيفة.

قال العمُّ جورج وهو يجلس قُبالتي على طاولة صغيرة: «أنا أعرف كم تكره النصائح، ولكنكَ كبرتَ، وتعلم أنتَ بأن مُخَّكَ أكبر من عُمُركَ، وها قد أصبح لكَ تجربة. تجربة السجن، كتجربَتَي الغربة والجيش، تصقل الرجل، وتُفَوْلِذُ معدنه، والدكَ لن يكون سعيداً بسجنكَ، إنه يريدكَ أن تُكملَ دراستكَ، حتَّى تستطيع أن تخدم وطنكَ جيِّداً، وسأقف إلى جانبكَ دوماً، عليكَ أن تَعِدَ نفسكَ قبل أن تعدَني بأن تنتبه لنفسكَ، وتتوقَّف عن كلِّ نشاط جرَّبتَهُ، المقاومة بالنسبة إليَّ تأخذ معنى آخر، هو الصمود».

اتَّفقتُ مع العمِّ جورج على أن أنتظره يوم الخميس، ليأتيَني إلى المنزل، ونذهب سويَّاً إلى منطقته، إلى مار إلياس.

الواحد العشرون

وصلتُ المنزل، قبل عودة أُمِّي. جاء عمِّي، وجاءت أُمُّ السَّبْع، عانقني عمِّي بشوق، واستطعتُ أن أشعر بخلجاته الدافقة، وقبَّلتْني أُمُّ السَّبْع، ولم تتمكَّن من حبس دموع، نزَّت من عينَيْها، وهي لا تكفُّ عن القول: «حبيبي، الله نجَّاك منهم، لعنة الله على اليهود، وعلى أولاد الحرام الذين يعملون معهم».

جاء السَّبْع، ولم يُبدِ أيَّة عواطف، واكتفى بالقول: «لقد أصبحتَ رجلاً، مَنْ يُسجَن في عُمُرِكَ، فإنه يتحوَّل إلى رجل حقيقي، ولكن هذا لا يعني أن عليكَ أن تُكرِّرها، الرجولة وحدها لا تكفي لمواجهة هذا الاحتلال، اسألني أنا».

حضرت أُمِّي أخيراً، وعندما دخلت المنزل، ورأتْني، اندفعتْ إليَّ، وحضنتني، وهي تقذف بحقيبتها.

قال عمِّي: «وعدتُكِ بأنه سيخرج، وقلتُ لكِ بأن غيبته لن تطول».

قالت أُمِّي: «لو تأخَّرتَ يوماً آخر، لأصبحتُ مجنونة، ودرتُ في الشوارع، منفوشة الشَّعْر، أصرخ وأصرخ».

بعد أن شبعتْ، مؤقَّتاً من حضني ولثمي، لم تستطع أُمِّي أن تنسى في غمرة لهفتها عليَّ، واجباتها الاجتماعيَّة تجاه ضيوفها، فاستأذنت لتصنع شاياً، ولحقتْها أُمُّ السَّبْع.

لم أكن أعلم بأن أُمِّي وأُمَّ السَّبْع، عندما غادرتا، تركتاني مع رجلي

العائلة؛ عمِّي، والسَّبْع، لأنال قسطي من النصائح، واستخلاص العِبَر.

قال عمِّي: «أوَّلاً وأخيراً الحمد لله على سلامتكَ، لكنْ، يا بُنيَّ، لا يمكننا أن نعلم أبداً إذا كانت المرَّة المقبلة ستكون مثل هذه، مجرَّد فركة أُذُن، أنتَ لم تعد صغيراً، وعليكَ أن تعلم، بأن الشاباك، عندما أطلق سراحكَ، فإنه بثَّ عيوناً خلفكَ، عليكَ أن تعلم بأنكَ الآن بتَّ مُراقَباً، وعليكَ التوقُّف عن الجري مع الأولاد، أُمُّكَ لن تتحمَّل ضربَتَيْن، يكفي ما حدث لوالدكَ..».

شعرتُ بأن عمِّي قد اقترب من البكاء، وهو يتحدَّث بحرارة ولوعة، وكأنني سأُعتقل فعلاً مرَّة أخرى، فَصَمَتُّ، ليُكمِلَ السَّبْع: «الله يرضى عليكَ، يا كافل، أنتَ لم تعرف، ماذا حصل لنا خلال الفترة التي غبتَ فيها، أُمُّكَ وأُمِّي لم تكفَا عن النواح، وكأنكَ ذهبتَ ولن تعود، علينا أن نُضحِّيَ، ليس من أجلنا، ولكنْ، من أجل غيرنا، هذه هي الرجولة الحقَّة، والبطولة الحقيقيَّة، وليس مثل الأُمِّ يمكن لواحدٍ منَّا أن يراعيَ مشاعرها. عليكَ الآن أن تنتبه لأمرٍ واحدٍ فقط هو دروسكَ».

كان يمكن لحلقة التقريع، واستدرار العواطف، أن تستمرَّ طويلاً، لولا عودة أُمِّي وأُمِّ السَّبْع، بالشاي.

هلَّ علينا المزيد من الرجال والنساء، من الجيران والمعارف، وكان لا بدَّ من إجراء الفصل، طلب عمِّي منِّي مساعدته، في نقل بضعة كراسي أمام المنزل، ليجلس عليها الرجال، وجلب أولاد الجيران كراسٍ إضافيَّة، في حين جلست النساء في الداخل على الفرشات.

اندمج الرجال في حديث، وكأنه مسامرات، واندمجت النساء في الداخل، ولم يكن يقطع الحديث سوى أباريق الشاي والقهوة، وشوكلاتة سيلفانه، التي تأتي للرجال من الداخل، حيث تطوَّعت شابَّات لمساعدة أُمِّي في إكرام الضيوف.

تحدَّث الرجال عن الاحتلال ومشكلاته، والتضييق على الناس، واستهداف قريتنا بالاستيطان، وقال أحدهم: «سيستولون على المباني، ويزحفون ويسكنون بيننا».

وذكروا والدي بالخير، واعتبروه بطلاً، خلَّف بطلاً، وعندما ينتبهون لوجودي، أو يتذكَّرون بأن جمعتهم هذه لم تكن إلَّا بسببي، يُوجِّهون النصح لي، بالهدوء، وعدم الانجرار وراء العواطف، مؤكِّدين أن أفضل نضال بالنسبة إليَّ هو الدراسة. أهزُّ لهم رأسي، دلالة على الموافقة، وتعبيراً عن الاقتناع، ولكن ذلك لم يُعبِّر عن حقيقتي، فتجربة الاعتقال المُرَّة، شعرتُ بتبخُّر ألمها عندما لفحتْ وجهي نسمات الحرِّيَّة، ولا أشعر الآن، إلَّا بقدرتي على مواصلة نضالي، وإن كان ذلك بإمكانيَّاتي الصغيرة، حتَّى تتوفَّر لي إمكانيَّات أكثر، وأشبك مع الفدائيِّينْ.

ظهر رفاقي أمام المنزل، ولكنهم لم يقتربوا أكثر ليجلسوا مع الكبار، ويستمعوا لهرجهم، فاتَّجهتُ نحوهم، للتنحِّي جانباً، وكان أوَّل ما أرادوا سماعه، إذا ما كنتُ قد اعترفتُ في التحقيق على أيٍّ منهم، ليأخذوا حَذَرَهُم.

وعندما علموا بصمودي ومواجهتي لأبي كفاح، الذي وصفتُهُ بالشخص الضحل، الذي لا يُخيف نملة، حَيُّوني، وأخبروني بأنَّهم عزموا على الخروج ليلاً ملثَّمين، ليخطُّوا على الجدران شعارات تُهنِّئني بالسلامة، وتُحذِّر العملاء، ومن هذه الشعارات: «الأفعى السوداء تتحدَّى العملاء». لقد اختاروا اسماً لمجموعتنا، ورغم أنهم لم يستشيروني، راقني الاسم، فليس مثل الأفعى السوداء يمكن أن تُخيف العملاء، وتُقلِق نومهم، وتُجبرهم على التوقُّف عن إمداد أبي كفاح بالمعلومات عن مناضلي قريتنا.

ولكنَّ شعوراً بالخوف تسلَّل إليَّ، عندما تصوَّرتُ العملاء وهم ينقلون

نصوص الشعارات إلى أبي كفاح، ومنها ما هو مذكور فيها اسمي، فقلتُ لهم، بأن ذلك يؤكِّد بأنني فعلاً من جماعة الأفعى السوداء المخيفة، وطلبتُ منهم أن لا يُهنِّئوني على جدران قريتنا، ويكفي الاهتمام الشعبي بي في منزلي، الذي يشكِّل رسالة إلى أن شعبنا لن يتخلَّى عن مناضليه.

اقتنع الرفاق بحجَّتي، واستأذنوا كي يُكملوا التحضيرات، ليملؤوا الجدران باسم الأفعى السوداء، التي ستكون أملنا في الانعتاق.

عندما عدتُ مكاني أمام المنزل، لأجلس مع الرجال، لم ينتبه معظمهم لعودتي، إلَّا أن عينَي عمِّي الصقريَّتَيْن، لم تغفلا عنِّي، فسحبَني من يدي، ودخلنا إلى المنزل، وجرَّني إلى المطبخ، وسط حَيْرَة أُمِّي التي سألت عن الأمر، ولكنَّ عمِّي قال لها بأنه موضوع شخصي بين رجل ورجل.

طلب منِّي عمِّي القَسَمَ، بأن لا أرى رفاقي الأولاد مرَّة أخرى، تمنَّعتُ في البداية، ثمَّ أقسمتُ له بأن يكون إخلاصي لأُمِّي ولمنزلي ولعمِّي، ولكنه طلب منِّي حذف اسمه من القَسَم، وضغط على يدي، إشارة إلى أنه صَدَّقَني، ورمزاً لتعاهدنا على المضي في الحياة، بأقلّ قَدْرٍ من الخسائر، ولكنه، مثلي، لم يكن ليعلم حجم الخسائر التي تنتظرنا.

الثاني العشرون

وصل العمُّ جورج، في موعده يوم الخميس. عدتُ من المدرسة، التي أصبحتُ فيها معروفاً أكثر من أيِّ وقت مضى، أو الأصحّ، أصبحتُ، أنا العائد من معتقل المسْكُوبيَّة، في مركز اهتمام الطَّلَبَة والمعلِّمين.

تقرَّب إليَّ المزيد من الزملاء، وأرادوا أن أحكيَ لهم، ما جرى في المَسْكُوبيَّة، وتعامل المعلِّمون معي بحذرٍ ما، رأيتُ في عيونهم فضولاً، وحماسةً، وحبّاً، وفي الوقت ذاته، لم يرغبوا بقَطْع خيط الهيبة بينهم وبين أحد طلَّابهم. ولكنْ، في أحد الأَصْباح، طلب منِّي المعَلِّم عبد الفتَّاح، أن آتيَ إلى غرفة المعلِّمين، خلال الفرصة بين الحصص، ورغم أنني زعلتُ قليلاً؛ لأنني سأُضيِّع فترة الفرصة القصيرة، ولن أتناول شطيرتي التي حضَّرتْها أُمِّي، أو أشتري شيئاً من المقصف، إلَّا أن الفضول عوَّض قليلاً عن الزعل. دخلتُ غرفة المعلِّمين، وجدتُ ثلاثة أو أربعة جالسين حول الطاولة، ومثلهم يقفون يتحدَّثون، وعندما دخلتُ، رحَّب بي المعلِّم عبد الفتَّاح، ونبَّه زملاءه لوصولي، فجلسوا، ودخل آخرون، وانضمُّوا إلينا.

قال المعلِّم عبد الفتَّاح، بكثير من الحذر: «يا كافل، أنتَ ابننا، وأكْبَرْنا فيكَ مواقفكَ التي دفعتَ ثمناً لها في المسْكُوبيَّة، وأحببنا الاطمئنان عليكَ».

ونظر إلى المعلِّم إبراهيم، ليُكمِل الحديث: «يا كافل، في الدُّنيا، دائماً هناك أولويَّات، وبالنسبة إلى طالب مثلكَ، فإن مكانه هو المدرسة، والمدرسة فقط، وعندما تكبر تكون لديكَ كلُّ الحرِّيَّة، من أجل أن تختار».

أردتُ القول، بأن الاحتلال لم يترك لي خياراً، وبأنهم أكبر منِّي، ولم يفعلوا شيئاً تجاه الاحتلال، ولكنني صمَّمتُ وأحجمتُ، حتَّى انتهت الفرصة، وقُرع الجرس، فخرجتُ إلى صفِّي.

لفتُّ انتباه الكبار، باعتقالي في المَسْكُوبيَّة، وجميعهم، لم يروا في ما فعلتُهُ وأدَّى إلى اعتقالي أمراً يستوجب التنويه، وإنما النصح والزجر. ماذا أفعل؟

ركبتُ بجانب العمِّ جورج، في مَرْكَبَته، وصَعِدْنا نحو بِرْكَة السُّلطان، وسرنا في نفس الطريق الذي قطعتُهُ يوماً، ويبدو الآن بعيداً، متوارياً في مكانٍ قَصِيٍّ بالقُدْس، مع والدي والشيخ نعيم، أستمع لهما، وأرى بعيونهما المنازل الفلسطينيَّة، التي أُخذَت من أصحابها، ليسكنها آخرون.

عندما أطلَّ دير مار إلياس، قال العمُّ جورج: «الدير صامد في مكانه منذ قرون، تمرُّ الجيوش من أمامه، وتتبدَّل الدول، وتتوقَّف القوافل بين مصر والشام، لتشرب من بئر كاديسما بجانبه، وهو لا يتحرَّك».

أوقف العمُّ جورج مَرْكَبَته، أمام منزل ريفي، يفصله عن دار القصَّاص شارع صغير، الذي كان قبل الحرب الطريق بين بَيْت لَحْم والقُدْس، ومنه تتفرَّع طريق إلى دير مار إلياس، وخلفه التلَّة التي شغلها معسكر الجيش الأردنيّ، الذي ما زالت بقاياه تظهر من بعيد.

أمام منزل العمِّ جورج تتناثر الأعمدة الحجريَّة، وتماثيل لوجوهٍ مكتملة وأخرى، غير مكتملة، وأجزاء من أعمدة، وكلُّها تدلُّ على مهنة وهُوِيَّة أصحاب المنزل الحِرْفِيَّة.

جلست والعمُّ جورج، في باحة المنزل، تنتشر أمامنا حقول الزيتون، التي تفصل بَيْت لَحْم عن القُدْس، وبقايا القناة التي حملت المياه من بِرَك سليمان إلى القُدْس.

روى لي العمُّ جورج عن علاقته بالمكان، ونشأته قريباً من خطوط التماسِّ، التي تحطَّمت في الحرب الأخيرة.

وتذكَّر الجنود الذين عرفهم في المعسكر، وقائده، الذي اتَّفق معه والده، على أخذ بقايا الطعام الزائد عن حاجة الجيش، مقابل دينارَيْن في الشهر، يدفعهما الوالد.

قال الوالد لقائد المعسكر: «سأُخلِّصكَ من البقايا»، وهو ما كان يحتاجه قائد المعسكر، والجنود الذين أحبُّوا العمَّ جورج.

قال العمُّ جورج: «كنتُ أكبر منكَ قليلاً، عندما أصبحتُ أذهب إلى المعسكر، لجَلْب بقايا الأكل، لنُطعمَهُ للدجاج، والخِرَاف، والخنازير، التي نُربِّيها، ومع الوقت، طلب قائد المعسكر أن يحسب حسابي في الأكل، فأجلس مع الجنود على طاولة واحدة لأتناول الطعام، وكأنني واحد منهم».

سألتُهُ ولا أعرف لماذا، إذا ما كانوا يربُّون الخنازير حتَّى اليوم؟ ابتسم العمُّ جورج: «أعرف بأن لديكَ فوبيا تجاه الخنازير، أنتَ لستَ مسؤولاً عنها، وإنما التحريم الديني، أحترم جميع الأديان، وأراها، خصوصاً في بلادنا متقاربة، ويُخيَّل إليَّ كثيراً بأن مُتَّبعيها لا يريدون أن يعرفوا ما لدى أتباع الدِّيْن الآخر».

وأضاف: «أنا على عكسكَ نشأتُ وأنا أسمع عن هوشة الخنازير، التي انتشرت إبَّان الاحتلال البريطاني، جاء الإنجليز إلى بلادنا، واكتشف أهلنا قلَّة الخنازير التي لدينا، والتي لا تُلبِّي حاجة الجيش المولَع بلحم الخنازير، فبدأ الجميع، ومن بينهم عائلتي، في تربية الخنازير، مستفيدين من موقعهم البرِّيِّ هنا بعيداً عن بَيْت لَحْم والقُدْس، ولكنْ، مثل كلِّ هوشة، كان لا بدَّ لها أن تتضاءل، فتضاءلت مع خروج الجنود المحبِّي للحم الخنازير، فمُنِيَ البعض بالخسائر، وبالنسبة إلى عائلتي، استمرَّت في تربية الخنازير، وإنْ

على نطاق ضيِّق، وبعد الحرب، لم يعد لدينا أيَّة خنازير، لنُربِّيها».

طلب منِّي العمُّ جورج، بعد احتساء الشاي، أن أتبعه إلى المعسكر المتهدِّم، سار وأنا خلفه، نمشي على الصخور، ونطلع وننزل، حسب طبوغرافيَّة التلَّة، وهو يُريني أقسام المعسكر، وبقايا ميس الجنود، والمطبخ، ومكتب القائد، والمرحاض، وصهريج المياه، وغيرها.

قال العمُّ جورج، وهو يتحرَّك بين آثار المعسكر، الذي قُصف في الحرب: «عشتُ في هذا المكان، بين منزلنا، والمعسكر، ودير مار إلياس الذي توقَّفت فيه الصلوات، بعد النكبة، والشارع الجديد، الذي مرَّ عليه الملك حسين، وكبار المسؤولين، وضيوف الملك، والبابا بولس السادس، الذي زار الأرض المقدَّسة، وجاء إلى بَيْت لَحْم، ووقفتْ بجانب منزلنا جَدَّتي اللاتينيَّة، ولم نكن نعرف أنها تريد أن ترتكب إحدى حماقاتها، فما إن هلَّت مَرْكَبَة البابا، حتَّى اندفعت إليها غير آبهة بالحرَّاس، وتمكَّنت من لَمْس يد الباب، وزعمت أنها أيضاً أخبرتْهُ بأنها كاثوليكيَّة مثله تماماً، وعاشت تروي الحكاية، بتفاصيل عديدة، وهو ما تفعله حتَّى الآن، بعد نحو عشر سنوات على الزيارة».

قدَّم لي العمُّ جورج شرحاً عن مواقع الجيش الأردنيّ، التي امتدَّت مقابل المعسكر أيضاً، وعن ما بذله الجيش لمنع محاولات التسلُّل إلى داخل الأراضي التي أصبحت تحتلُّها إسرائيل، وعندما وقعت الحرب، اختفت الحركة من المعسكر، ولم يُرَ أيٌّ من الجنود.

أخذتْني ذكريات العمِّ جورج إلى عالم يتفتَّح أمامي لأوَّل مرَّة: «في إحدى الأيَّام، انتبهنا إلى أن أجراس الدير تُقرَع، فاستغربنا، ما الذي جعلها تكسر الصمت الطويل؟ وعندما ذهبتُ ووالدي إلى الدير عرفنا بأن ذلك تمَّ من أجل قائد المعسكر الجديد، الذي أصبح يحضر الصلاة كلّ يوم

أحد، ونحضر معه أيضاً، ولكن الأمرَّ لم يطلْ كثيراً، فوقعت الحرب، وفي يوم الاثنَيْن، عندما علم والدي وباقي رفاقه الحجَّارين في كنيسة القيامة بأن الرصاص لعلع في سماء القُدْس، غادروا موقع عملهم، وعادوا إلى بَيْت لَحْم سيراً على الأقدام، متَّخذين من طريق وادي النار الصعب مساراً لهم، لأنهم ظنُّوه سيكون بعيداً عن القصف الإسرائيليّ، وبعد الظهر، وصلوا إلينا هنا، دعا والدي رفاقه للنوم عندنا، ولكن العمَّ إسحق اعتذر وقال بأنه لم يتبقَّ إلَّا بضعة كيلومترات، ليصلوا إلى منازلهم، ونصحنا بترك المنزل، والمغادرة إلى بيت جالا حيث أقاربنا، حتَّى يتبيَّن الخيط الأسود من الأبيض، فلا شيء مضمون في وقت الحرب، ولكن والدي رفض، وفي ذهنه مرأى اللاجئين الذين تدفَّقوا علينا، خلال النكبة، ولم يرد تكرار تلك التجربة. نمنا يوم الاثنَيْن في المنزل نستمع للراديو، ونُشنِّف الآذان إلى الخارج، لمحاولة تقدير الموقف، من صوت القنابل والقذائف. وفي اليوم التالي الثلاثاء، استشعر والدي الخطر، وذهبتُ معه إلى جيراننا دار القصَّاص التي لم يبقَ فيها سوى الدكتور العازب، عرض عليه والدي المغادرة معنا، ولكنه رفض، قائلاً: عندما يأتون سأتحدَّث معهم بالفرنسيَّة، وأرفع الراية البيضاء، وستسير الأمور على ما يجب أن تسير عليه، ففي الحرب أيضاً يمكن لمَنْ يمتلك أداة تفاهم كلغة أجنبيَّة، اكتسبها جارنا من دراسته في السوربون، أن تُنقذه. لقد سئم جارنا الحروب، وخلال وجوده في لبنان، أُصيب باكتئاب خلال أزمة 1958م، عندما رفض الرئيس كميل شمعون، قطع العلاقات مع الدول الغربيَّة التي هاجمت مصر، خلال أزمة السويس. وكان الدكتور يعمل مع الأمم المتَّحدة حينها، عندما خَبِرَ بوادر حرب أهليَّة، وتدخُّلاً أميركيَّاً، فعاد ليقطن الدار الفخمة التي بناها والده الفخور بأبنائه وبناته الذين كان يلفظ أسماءهم منغَّمة: الشكر والتوفيق والنصر والمنصور. تضايق والدي من رفض الدكتور، خصوصاً وأن حالته

النفسيَّة لم تكن خافية عليه، ولم يكن أمامنا إلَّا المغادرة بدونه، نمنا في بيت جالا، وفي اليوم التالي الأربعاء، طلب منِّي والدي مرافقته لنعود إلى المنزل، لتفقُّد الحيوانات التي نُربِّيها، فهي لا تعرف عن الحروب شيئاً، وصلنا المنزل، وبدا الباب مخلوعاً، وعندما دخلنا، اكتشفنا بأن جيش الاحتلال وصل إلى هنا، ورمى قنابل على المنطقة، بما فيها المعسكر الخالي، الذي غادره الجنود في اليوم الأوَّل للحرب، بعد أن جمعنا ما تبقَّى من حيوانات نجت من القصف في زريبة استحدثناها مؤقَّتاً، ذهبتُ ووالدي إلى دار القصَّاص لنطمئنَّ على الدكتور، الذي رأيناه، أمام غرفته، ولكنه لم يكن بإمكانه النطق، بدا ممدَّداً على الأرض هامداً، وعليه بطَّانيَّة، جلسنا في المنزل، وقدَّرنا أن الجنود عندما اقتحموا المنزل، ظهر لهم على الباب، ليُحدِّثهم بالفرنسيَّة، ولكنهم أردوه قتيلاً، ويبدو أن جنديَّاً، وهو خارج بعد تفتيش الدار، وضع البطَّانيَّة على الجثَّة. تألَّمنا لما وقع للدكتور، وكان علينا أن نغادر من جديد إلى بيت جالا، فلا أحد يتوقَّع ماذا سيحدث، فنحن في حالة حرب، وعلينا أن نُبلِّغ عائلة الدكتور بما حدث، وفي اليوم التالي الخميس، عدنا لكي ندفن الدكتور، في الجهة المقابلة للمنزل، في المكان الذي دُفن فيه والده».

توقَّف العمُّ جورج ليمسح ما بدا لي دمعة، أو ليمنعها من النزول على خَدِّه: «كان علينا أن نُسرع في إتمام الجنازة، حملنا جثمان الدكتور، وقطعنا الشارع، وصَعِدْنا إلى التلَّة المجاورة، وجهَّزنا قبراً بشكل سريع، ودفنَّاه بدون مراسم دينية».

قال العمُّ جورج، ونحن نقف أمام دار القصَّاص: «هذه الدار شاهدة على حياتنا هنا خلال نصف القرن الماضي، منذ أن بناها صاحبها خليل، حتَّى الآن. وفي عام النكبة استوطنها الجيش المصري، الذي غادر بعد هزيمتنا في الحرب، تاركاً الدار وقد تضرَّرت، وبعد النكبة، غادر العمُّ خليل

إلى القاهرة، ليُطالبَ بتعويضات عن خسارته، ولكنه عاد بعد سنوات، وقد خسر الكثير، وبدون نتيجة. وهكذا تمضي الأيَّام».

أسرَّ لي العمُّ جورج، بأنه سيسافر إلى إيطاليا، فخفق قلبي خشية فقداني لصحبته، وشعوري بأنني تحت حمايته. قال: «سأذهب، ولكنني سأعود، لا يمكن أن أتحدَّث عن الصمود، وأهرب، عليَّ إكمال دراستي والعودة».

ثمَّ ربَّت على كتفي: «عندما أعود ستكون قد كبرتَ، كما تتمنَّى، وسأجدكَ راعياً لأُمِّكَ، التي هي أكثر واحدة في الدُّنيا بحاجةٍ إليكَ».

الثالث والعشرون

لن يُقدَّر لوالدتي العيش كثيراً، لتختبر قُدرتي على كفالتها وكفالتي، وهو ما كان كلانا يتطلَّع إليه، ليصبح حقيقة، وبسرعةٍ، بينما في الواقع اضطلعت هي بدورَي المرأة والرجل في البيت، ولم تُفلح ولادتي الثانية إلَّا بتوليد مزيد من الشقاء لها، مع مَيْلي نحو الجنوح، والتمرُّد، وعدم سماع كلامها.

قالت: «أنتَ تُراهِق وتُرهِق، ولا يجب أن تكون كذلك». ولعلَّها لم تُقدِّر الحالة التي عشتُها، ولم تَقدِر على فهمي.

ستفارق أُمِّي الحَياة بعد أقلَّ من عامٍ من اعتقال والدي، بموتٍ مفجِع، لم يُنهِكْها عملها الجديد فقط الذي لم تتصالح معه أبداً، ولكن قلبها تآكل، وجسدها ذَوَى، وعقلها لم يستوعب ما جرى لها، وفي آخر مرَّة دخلت مستشفى المقاصد لم تكفّ عن البكاء، كانت تشعر بدنو نهايتها، ولكنها نجت من المرض، ولم تكن إلَّا نجاة مؤقَّتة، فالمرض ليس هو أقصى الأشياء التي يمكن أن يتعرَّض لها الإنسان. درس يتعلَّمه المرء مبكِّراً، خصوصاً إذا عاش في القُدْس.

جاء عمِّي إلى المدرسة، واصطحبني إلى منزله، وهو ينقل لي الخبر المفجِع تدريجيَّاً، ولكنني أدركتُ أن أمراً مخيفاً يتعلَّق بأُمِّي قد حدث.

مكثتُ في منزل عمِّي، الذي امتلأ بالمُعزِّين والمُعزِّيات، وبعد صلاة عصر ذلك اليوم، صُلِّي على جثمان أُمِّي في المسجد القريب من البِركَة،

التي لا تكاد تفرغ من الزوّار اليهود المدجّجين بالسلاح خشية من أطفال مثل الشهيد موسى، ثمَّ أمسكني عمِّي من يدي، وصَعِدْتُ مع الصاعدين إلى مقبرة باب الرحمة بمحاذاة سور القُدْس الشرقيّ، ووقفتُ بجانب القبر وأنا أراقبهم وهم يوارونها الثرى، بينما كنتُ أتشبَّث بيد عمِّي، وأختلس النظرَ من علٍ إلى وادي النار، فيُطالعني طَنْطُوْر فرعون فارعاً، وضخماً، وصامتاً، وخُيِّل إليَّ أنه بتجهُّمه يقول لي: ستُريكَ القُدْس ما لا تتوقَّعه، وأنتَ محصور بين السُّور، وجبل الزيتون. وأردُّ عليه في سرِّي: ماذا ستُريني أكثر؟!

سمعتُ شيخاً شابَّاً يتمنَّى لأُمِّي جيراناً أفضل من جيرانها، وزوجاً أحسن من زوجها، وأن يُغسِّل جسدَها بالمطرِ والثلج والبَرَد، ويُنقِّي قلبها من الخطايا، كما نُقِّي الثوب الأبيض من الدنس، وفي نهاية كلِّ جملة يقول الجمع: آمين.

قال: يا ربُّ، اجعل مَلبسَهَا السُّنْدُس، ومَشرَبَها الكوثر، ومَسكَنَهَا الفردوس، ووجدتُ نفسي أهمس آمين.

وعندما قرأتُ مع الآخرين الفاتحة على روحها، أدركتُ بأنها ذهبت ولن تعود، وبأنني سأُجرِّب، منذ الآن، كيف ستكون الحياة مع لطيم مثلي.

«مَنْ يفقد أباه يصبح يتيماً، أمَّا مَنْ يفقد أُمَّهُ، فيا ويلاه! يصبح لطيماً»- كانت تقول لي أُمِّي، لتؤكِّد على أهمِّيَّة الأُمِّ، ولتُخفِّف عليَّ من سجن والدي، وغيابه الذي سيطول.

عشتُ فترة في منزل عمِّي، ولكنْ، دون قِطَّتي وَزَّة، التي رأيتُها خلال فترة عزاء أُمِّي، فحملتُها، ومسَّدتُ شَعْرها، وتركتُها، على أمل أن عودتها من خرائب بيتنا المهدَّم الأوّل، ستكون نهائيَّة، ولكنني لم أجدها لاحقاً. فتَّشتُ عنها في خرائب بيتنا القديم، ولكنني لم أجدها، هل هجرتْنا أم أن أحداً سرقها، ليُوجِع قلبي أكثر ممَّا هو موجوع؟!

افتقدتُ لُور، والعمَّ جورج، الذي غادر إلى إيطاليا، ولا أعرف متى سيعود، ولكنه لم ينسني، فأرسل لي مكتوباً من هناك، حمل تعزيته، وكثيراً من النصائح غير المباشرة، أشعرني باهتمامه بكلِّ ما يتعلَّق بي، ووقَّع الرسالة بالصديق المخلص.

وجاءت رسالة من والدي، سلَّمها لنا مندوب الصليب الأحمر. لم تسمح سلطات الاحتلال لوالدي إلَّا بخطِّ أربعةِ أسطر، جهد ليُحمِّلها عواطفه تجاهي.

سأدخل مرحلةً جديدةً من حياتي، بعد فترة بيتِ عمِّي، فقد تقرَّر إدخالي إلى مدرسةٍ داخليَّة، تُديرها الراهبات في القُدْس، بشعورٍ مِن عمِّي وتقدير بأنه يجب أن أتلقَّى تعليماً بمستوى عالٍ، وأن وجودي في أجواء القرية وبين أترابي، قد يؤثِّر على تحصيلي العلميِّ، وأعتقد أن هذا القرار اتُّخذ بموافقة والدي.

زرتُ والدي مرَّات قليلة، ومتقطِّعة، فهو دائم التنقُّل من السجون إلى مستشفى سجن الرَّمْلَة، الذي علمتُ بأنه لا يُقدِّم خدمات طبِّيَّة ضروريَّة للمعتقلين.

خلال الزيارات التي يفصل فيها بيني وبين والدي الشَّبَك اللعين، أُدخِل إصبعي الصغير من فتحة فيه، ليُمسكها والدي، ويُقبِّلها، ويحاول إكمال حكاياته التي تركها خلفه بعد اعتقاله، ويسألني أسئلة لتذكيري بماضينا المشترك، الذي يؤكِّد بأننا سنستأنفه بعد خروجه من خلف القضبان، بعد عشرين عاماً حسب الحكم الذي صدر بحقِّه من المحكمة العسكريَّة الإسرائيليَّة، ولكنَّ هذا لن يحدث أبداً.

عزَّاني والدي، بوفاة والدتي، في أوَّل زيارة له بعد رحيلها المفجِع، ورأيتُ من خلال التفرُّس في وجهه، كم أثقَلَهُ موتها، وبتلك الطريقة، وطلب منِّي،

مثلما طلبت هي، أن أكون رجلاً، وعلى قَدْر المسؤوليَّة. كثرت المسؤوليَّات وتعدَّدت، ولم أعد أعرف ما يُقصَد بها، ما استنتجتُهُ أن أُحافظ على وجودي الفيزيائي، حتَّى يتغيَّر شيء ما، ما زال في عالم الغيب، عليَّ أن أتدرَّب على أكثر شيء أمقتُهُ؛ الانتظار.

في إحدى الزيارات، فوجئتُ بوالدي يُدخِل من فتحة الشَّبَك الصغيرة حَبَّة لَوْز جافَّة، رُسم عليها العَلَم الفلسطينيُّ، وثبَّتها بخيطٍ أسود، وطلب منِّي إخفاءها بسرعةٍ، قبل أن ينتبه الحرَّاس، وفهمتُ منه بأنه أمضى ساعات وهو يحفُّها، ويُغلِّفها بنوعٍ من الشمع، ثمَّ يرسم عليها، وقال لي: احتفظ بها حتَّى أخرج، إنها حبل الصُّرَّة الذي لن ينقطع بيني وبينكَ.

علَّقتُ اللَّوْزَة في رقبتي، وأخفيتُها تحت ملابسي، وكأنها كنز مخبوء، كلمة سرٍّ، وخيط ممتدٌّ يربطني بوالدي البعيد، الذي أنتظر زياراته كلّ شهر إذا سمحت إدارات السجون بالزيارة، بأملٍ وألم.

الرابع والعشرون

بعد عامَيْن على اعتقال والدي، أُعلن عن وفاته في السجن، الموت عندما يضرب، لا يأتي وحيداً، ولا يمكن تأجيله. تذكَّرتُ ما رواه لي والدي، ونحن في مُطِلِّ جبل الزيتون، عن النبي سليمان، الذي كان يُمضي وقته بين زوجاته وجواريه وضيوفه، وفي مرَّة زاره عزرائيل، قابض الأرواح، وجلسا يطلّان على القُدْس، ويتسامران، وحولهما النساء والحيوانات والجنُّ المسخَّرة للنبيِّ، والتي لم تُدهِش ملاك الموت.

وبينما هما جالسان، ظهر أمامها رجلٌ، عرفاه من زِيِّه، بأنه هنديٌّ، وقبل أن يستغرب النبي سليمان، من حضور الهندي المفاجئ، تلطَّفَ عزرائيل، واستأذن من نبيِّ القُدْس، ووقف واتَّجه إلى الهندي، وقبض روحه، هكذا وبكلِّ بساطة، وعاد إلى كرسيِّه، وكأن شيئاً لم يحدث، ويعكِّر صفو جلسته مع سليمان، وهو يقول:

- مكتوب لديَّ بأن أذهب إلى الهند، لأقبض روحه، ولكنه حضر إلى هنا، إلى حتفه، في الموعد المحدَّد، أرسله الله إلى قَدَره المحتوم.

ثمَّ سأل ملاكُ الموت النبيَّ القادر على أشياء كثيرةٍ:

- أين وصلنا في الحديث؟

جاء عمِّي واصطحبني من مدرسة الراهبات إلى منزله، الذي لم يفارقْهُ الناس نهاراً وليلاً، في انتظار جثمان والدي. وسهر الشبَّان أسبوعاً أمام المنزل، وهم يُنشدون الأناشيد الوطنيَّة، ويهتفون بحياة والدي وباقي الشهداء، وأُلقيت كلمات من أشخاص ملثَّمين، لأسبابٍ أمنيَّة، حتَّى لا

تعرف مخابرات الاحتلال هُوِيَّاتهم، وافتقد الناس الشيخ عبد ربِّ النبي، الذي اعتقلتْهُ قوَّات الاحتلال لفترة وجيزة، وبعد التحقيق معه وتعذيبه، نفتْهُ إلى شرق الأردن، أمَّا رفيقه أبونا بوللو، فما زال معتقلاً، ولم تفلح جهود بابا الفاتيكان في إطلاق سراحه.

أتذكَّر من تلك الليالي الشاعرة ليلى عمَّار، التي ظهرت، بعد غياب، لتُلقي قصيدة، تزفُّ فيها والدي، كما قالت إلى حيث خلود الخلود، وبعد أن انتهت من القراءة، حضنتْني، ودسَّت القصيدة في جيبي، وكأنها تُودع لديَّ، وصيةً، عليَّ الاحتفاظ بها.

أنشدت الشاعرة، وهي تتمايل، حسب إيقاع الكلمات:

ستنساكَ وعولُ الجبل على أجراف البحر الميت

سينساكَ البحر الميت، بحر لوط، والشيطان، والإسفلت

ستنساكَ سوسنة جلبوع، ودم الغزال، والحنُّون

ستنساكَ العيون، والوديان، والجبال

سينساكَ وادي الربابة، وجبل الزيتون، وطَنْطُوْر فرعون

ستنساكَ الغزلان، والأيائل، والحمار الوحشي، والحمار الأُنسي

ستنساكَ عَيْن أيُّوب، والنطوف، والهُوِيَّة، والحنية

ستنساكَ عَيْن مريم، وبِركَة ماميلا، وبِركَة السلطان

ستنساكَ الآلهة التي تحبُّ رائحة دم القرابين

ستنساكَ عشتار، وعناة، وتانيت

سينساكَ مردوخ، وبعل، وموت، وبوسيدون

سينساكَ أبناء النور وأبناء الظلام

سينساكَ المسيح، ومعلِّم الصلاح

سينساكَ نوح، وأخنوخ، وهارون، وموسى

سينساكَ أنبياء قريش، والمبشَّرون بالجنَّة، وبالنَّار

سينساكَ الأسينيُّون، والغنوصيُّون، والآريسيُّون

سينساكَ الفاتحون، والغالبون، والمهزومون، والطغاة، والغزاة

سينساكَ الكذَّابون، والصادقون، والثوريُّون، والمتهوِّرون

سينساكَ العملاء، والنبلاء

ستنساكَ الساحة، والمسجد، والكنيسة، والمعبد

ستنساكَ طالبات المرابيل، وراشقات الحجارة

ستنساكَ سِتنا البدرية، والحميديَّة، ونجلاء، وحلوة، وغنَّامة

سينساكَ عصفور الشمس، والدُّوْري، والقُبَّرَة، والهُدْهُد

ستنساكَ النسور، والصقور، والشواهين، والبومة البيضاء

سينساكَ الثعلب الأحمر، وبنات آوى، وقطٌّ الرمال

سينساكَ الرماديُّون، والملوَّنون

سينساكَ الأحرار، والعبيد

سينساكَ الصحافيُّون، والكُتَّاب، والهُواة، والمحترفون

سينساكَ القيسيون، واليمنيون، والعدنانيون، والعرب العاربة، والهاربة

سينساكَ الشركس، والدروز، والموسويُّون، والمحمديُّون، والعيسويُّون

ستنساكَ الأرمينيَّات، والسريانيَّات، والفلَّاحات، والقُدْسيَّات، والتعمُّريَّات، ونوريَّات باب حِطَّة

ستنساكَ مخابرات دول الطَّوْق، ستنساكَ الكنانة الكبرى، وعابرة الأردن الصغرى

ستنساكَ القُدْسيَّات، اللواتي أنشدنَ لكَ نشيد الإنشاد

ستنساكَ البدويَّات، والقدِّيسات، والعربيَّات، والروسيَّات

ستنساكَ أُمَّهات المؤمنين، ونساء الكفَّار، وحرائر بني أميَّة، وسبايا الشام

ستنساكَ مَنْ كانت تُسمَّى فلسطين، ومَنْ ستحمل اسم عابرها الجديد

سينساكَ الأصدقاء، والأعداء، والأشقَّاء، والأتراب

سينساكَ المطبِّلون، والهتَّافون

سينساكَ الروم، والفُرْس، والأنجلو سكسون

سينساكَ دود الأرض، وستنساكَ الشجرة التي كنتَ سمادها

سأنساكَ أنا

أنتَ فقط مَنْ لن تنسى أنكَ قلتَها لا .. لا .. لا، حُرَّة لا نهائيَّة، في كون لا متناهٍ

وطلَّت البرودة، ويوسف ما طلَّ

الخامس والعشرون

كيف واجهتُ خبر وفاة والدي؟ سأسأل نفسي هذا السؤال دائماً. ربَّما لم أتفاجأ بما حدث، وتوقَّعتُ حدوثه. بعد قتل أُمِّي، أصبحتُ أخشى كثيراً على حياة والدي، وتصوَّرتُ بأن سجَّاني الاحتلال سيتخلَّصون منه، بوضع سُمٍّ قاتل في طعامه، وسيطر عليَّ هذا الهاجس، ولطالما تخيَّلتُ كيف سأصحو ليلاً في بيت عمِّي، ويستيقظ عمِّي وأفراد عائلته، على صوت مَرْكَبَة تتوقَّف أمام المنزل، تحمل جثمان والدي، ينزل منها جنود، يحملون الجُثْمان، ويرمونه أمام عتبة المنزل، ويغادرون، بتشفٍّ وغطرسة.

كان وضع والدي الصحِّيِّ، في مستشفى سجن الرَّمْلَة يتدهور باستمرار، وهو مستشفى، ولكنه ليس بمستشفى، يمكن لمعتقلٍ أسير مريض أن يُمضيَ فيه طوال فترة سجنه، دون أن يُقدَّم له سوى المُسكِّنات، هذا إذا توفَّرت.

حظيتُ خلال أيَّام العزاء، بعناية عمِّي وزوجته وأولاده، والأقارب، ووالدة السَّبْع، التي أخذتْني أكثر من مرَّة لأنام في منزلها. بدا لي أنها تغيَّرت كثيراً، لم تكن تلك المرأة التي تحدَّت التقاليد، وتقدَّمت لترقص أمام الرجال في عُرْس السَّبْع، ولم تكن أيضاً تلك المرأة الغاضبة من تصرُّفات ابنها، أو الحزينة عليه بعد الحادث الأخير، أو التي كانت أقرب منِّي إلى أُمِّي، رأيتُها امرأة أخرى، خفيضة الصوت، تمشي وكأنها تتمايل، لا تستطيع رِجْلاها حملها، ولا تأتي في حديثها على سيرة السَّبْع أو والدي، وبدا لي ذلك غير مفهوم من أُمٍّ أرضعت الاثنَيْن من حليبها، وتتذكَّر والدتي بكثيرٍ من الحُبِّ والشوق.

حاصرت قوَّاتُ الاحتلال موقعَ المنزل، بنصبِ حواجز طيَّارة على مداخل الحَيِّ، وتفتيش الأشخاص الذين يقصدون بيت العزاء، والتدقيق في هُوِيَّاتهم، ولم يكن من النادر أن تمنع هذه القوَّات خصوصاً الشبَّان من الوصول إلى المكان، أو اعتقالهم، ورغم ذلك كان الناس يتسلَّلون من المنازل، ليصلوا إلى منزل عمِّي، وتطوَّع أصحاب المنازل لتسهيل مهامِّ التسلُّل، كنوعٍ من التضامن العميق، مع جارهم الفدائيِّ الشهيد، ورغم التدابير الاحتلاليَّة الأمنيَّة، إلَّا أن نشطاء التنظيمات، تمكَّنوا من تهريب البيانات السرِّيَّة التي تنعى والدي، وتُندِّد بجريمة قتله، كما سُمِّيت وفاته، في سجون الاحتلال، نتيجة ما وُصف بأنه إهمال طبِّيٌّ، بعد إصابته في العمليَّة وسجنه، وعدم تقديم العلاج المناسب له.

وأخيراً سمحت سلطات الاحتلال بتسليم جثمان والدي ليلاً، ودُفن في المكان الذي أحبَّ في مقبرة باب الرحمة، مُطِلَّاً على الجبل الذي توقَّع أن يتحوَّل إلى أكبر مقبرة في العالم، بعد أن اشتُهر باعتباره المكان الذي وجدت فيه الحَمَامَةُ غصنَ الزيتون، وأسرعت تحمله إلى النبي نوح التائه في اللُّجَّة، وحاول العمُّ كوكو حمله إلى القُدْس، التي عرفها، من خلال حماماته المنقوشة على المنازل التي صمَّمها، ومات قبل أن يعرف أيَّ مصير ينتظر مدينته.

سمحت السلطات لبضعة أفراد من العائلة، بالمشاركة في الدفن، وحرص عمِّي على تقديم اسمي للسلطات، ضمن القائمة القصيرة التي ستُشارك في الدفن. صَعِدْنا إلى سور القُدْس الشرقيِّ، وكانت المقبرة مُطوَّقة بعددٍ كبيرٍ من الجنود، الذين أخفوا وجوههم بسِناج أسود، دهنوه عليها، وكأنهم يخوضون حرباً بعيدة عن هذا المكان الذي يسكنه الأموات، أو ينتظرون عدوَّاً، سيُباغتهم من خلف بحار، كما حدث للمسلمين في الحروب الصليبيَّة، ففي وادي جهنَّم أسفلنا تجمَّعت جحافل الصليبيِّيْن، وبَنَتِ الجسور، لتصل إلى سورٍ غير هذا السُّور العثمانيِّ، وتقتحم المدينة،

وتسيل دماء سكَّانها، لتُوغِل به أقدام أحصنتهم. كيف سبحت الأحصنة في دماء سكَّان المدينة؟ صورة لفروسيَّة القرون الوسطى أم لإرهاب فرسانها؟ الفروسيَّة والإرهاب تحتاجان، كلاهما، لدماء سكَّان القُدْس، لتزكيتهما في سجلِّ حكايات الناس.

القمر الذي ظهر بدراً في سماء القُدْس تلك الليلة، كشف عن وجود الكثير من الجنود، الذين بدوا كأصنامٍ لا تتحرَّك، وُضِعَ كلٌّ منها في موقعه، كتمائم في مواجهة انتقام سكَّان القبور الذين قد لا يروقهم كلُّ هذا التدنيس لصمتهم الليليِّ، ولتراب أرضهم الذي يُرجَّح أنه ليس سوى رفاتهم المتآكل على مرِّ قرون من استقبال الجثامين المتعدِّدة والمختلفة، من جثامين الأولياء ورجال الله الصالحين، إلى رجال الأوطان المقاتلين، والأطفال المغدورين مثل صديقي موسى.

اقشعرَّ بدني، عندما جيء بوالدي محمولاً على بساط الرحمة في رحلته الأخيرة نحو رحمته تعالى، ولكنه ليس كأيٍّ بساط رحمة، وإنما حمَّالة يحملها جنود، يحرسهم جنود، ويحيط بنا وبهم جنود، وبينهم ضابط بلباسٍ مدنيٍّ، عرفتُ أنه من المخابرات. تمعَّنتُ في الحمَّالة، هل سُجِّي عليها نفس الشَّخص الذي كنتُ وإيَّاه نقف على الشارع، أسفل هذه التلَّة ونطلُّ على الوادي يحكي وأنا أسأل، ونعتقد أن الدنيا لن تنتهي حتَّى نُنهي الحكايات التي سيحكيها لي؟ هل يشعر بي مثلما أشعر به؟ ما هي الحكاية الأخيرة التي أحبَّ أن يحكيَها لي ولن يتمكَّن بعد الآن من حكايتها؟

قبل اعتقاله، بيوم، قال لي بأنه سيحكي لي حكاية الملك داود وابنه سليمان، وكيف الأخير كان أكثر فطنة من أبيه، عندما قضى بين صاحب الأغنام والفلاَّح.

وبينما كنتُ متَّجهاً لأنام، غير قادر على الاستماع لحكايات إضافيَّة، قال: «عليكَ التذكُّر، بأن الابن يمكن أن يبزَّ أبيه، ويسبقه، في سباقات الدنيا التي لا تنتهي».

وضعوا الحمَّالة، وطلب رجل المخابرات من عمِّي أن يقترب، ليكشف عن وجه أبي ويؤكِّد بأنه فعلاً شقيقه، وليس شخصاً آخر. تقدَّم عمِّي، وكشف عن الوجه، وحاول أن يتماسك، وهو يومِئ برأسه، بينما الدموع تُفلت من عينَيْه، تسمَّرتُ في مكاني، لا أعرف بالضبط ما عليَّ فعله، هل أتقدَّم لأودِّع والدي أم أظلُّ في مكاني؟! ولكنَّ عمِّي المكلوم، الذي كان يرتجف، أمسكني من يدي، واقترب من والدي، حاول رجل المخابرات التدخُّل، ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، عندما لمس تصميم عمِّي، الذي طلب منِّي أن أُقبِّل والدي سريعاً، خائفاً عليَّ من أيَّة لحظات زائدة، قد تثير المشاعر، قائلاً: «إنه هناك، حيث لا يُظلَم أحد، بعد أن ظلمتْهُ الدنيا، من الأفضل أن لا نُثقِل عليه، وندعه لسكينته، إنه يشعر بنا، ويعذرنا».

لن أنسى ما حييتُ مَلْمَسَ الشفتَيْن الباردتَيْن، والفَمَ الذي يفترُّ عن ابتسامةٍ عريضةٍ، وكأنه يحكي لي ويبتسم، شعرتُ بيد ترفعني، بلا أيَّة عاطفة، عن الجسد، لأجد نفسي في حضن عمِّي الذي أمسك يدي، وضغط عليها بشدَّة، أراد إيصال أكبر قَدْر من شحنة حنان وتحدٍّ إليَّ، بينما تولَّى شيخ المراسم الدينيَّة لدفن والدي، بعد أن أفتى بأنه ما دام شهيداً، فلا يتوجَّب تغسيله، وخلال ذلك، انتبهتُ إلى عمود قصير أعلى السُّور، يخرج باتِّجاه جبل الزيتون، تذكَّرتُ ما قاله لي والدي يوماً، بأن السلطان سليمان القانوني، عندما بنى سور القُدْس، أخرج هذا العَمُود، ليُربَط فيه الصراط المستقيم، يوم الدَّيْنونَة؛ لقد أراد ترك مساهمته الملحوظة في يوم الإنسانيَّة الكبير الآتي، حيث تزول العصبيَّات والرُّتَب والطبقيَّة، ولن يعودَ هناك فرق بين الفلَّاح وابن المدينة، وبين الغفير والوزير، وبين الصُّعْلُوك والسلطان، ولا بين اليهوديِّ والعربيِّ - كما قال لي والدي، والتفتُّ إلى جبل الزيتون، وكانت بعض أجزائه تتلألأ بالإنارة،

بينما أجزاء أخرى تغطُّ في نومٍ عميق، أمَّا في الوادي، فإن البدرَ كشف عن طَنْطُوْر فرعون، الذي بدا لي لونه بلون الغَسَق، وخُيِّل إليَّ أنه يتحرَّك نحونا، بجسده الثقيل، ولكنْ، قبل أن يصل، طلب منَّا رجل المخابرات النزول إلى القرية، هل رأى مثلي طَنْطُوْر القُدْس يتقدَّم ويتحرَّك أخيراً، فخشي ممَّا هو آت، وقرَّر إنهاء تدابير موت والدي؟! لا أعرف، وسمعتُ الضابط الملول يحذِّر عمِّي من استمرار مظاهر التجمهر والغناء والهتاف في منزله، وقال له بلهجةٍ، أرادها محلِّيَّة:

- شوف خبيبي، استجبنا لطلبكَ وسلَّمناكَ شقيقكَ، رغم أنه مُخَرِّب، فجَّر في أحد أسواقنا، ليقتل مدنيِّيْن، منَّا ومنكم، وأمثاله عندما يموتون نحتجزهم في الثلَّاجات، حتَّى يُكملوا فترات محكوميَّاتهم، فالقانون عندنا يسري على الحَيِّ وعلى الميت، وليس مثلما الحال عند العرب، فلا قانون إلَّا قانون القويِّ، والقويُّ كما تقولون يا خبيبي عايب، أو ندفنهم في المقبرة، ونعطي كلَّ واحد منهم رَقْماً، ومثلما كنَّا كويسين معكَ، عليكَ أن تقابلنا أيضاً بنفس المشاعر. خَلَص؛ أخوك صار عند ربّنا، والحياة لازم تمشي، وأنتَ لازم تفهم.

لم يجبْ عمِّي، وأومأ برأسه علامة الموافقة، ولكنَّ الأمورَ لم تجرِ، كما طلب رجل المخابرات، وربَّما لم يكن عمِّي قادراً على تنفيذ ما طلبه.

السادس والعشرون

نقل عمِّي ما سمعه من رجال المخابرات، للشبَّان المتحمِّسين، ورجاهم أن يقدِّروا الظروف، دون الإفصاح عن أيَّة ظروف يقصد، ولكنهم لم يكونوا في وضع يمكن أن يعبؤوا به برجاء أخ شهيد، أو بتهديد رجال مخابرات، فاستمرُّوا في التعبير عن غضبهم على رحيل والدي، الفدائي الجريح، في سجن العدوِّ.

اعتقل الجنود عمِّي لعدَّة أيَّام، بعد اقتحام منزله، لعدم التزامه بما أُمر به، وتفريق الموجودين، وعدتُ إلى مدرستي، وحيداً بدون جناحَيْن، طيراً فرداً، قُصَّ جناحاه، بموت والدَيْه، يشبه تلك العصافير البلديَّة اليتيمة، التي تعود مع أفواجٍ من العصافير، قبل غروب الشمس بقليلٍ إلى شجرة الصَّنَوْبَر القريبة من بيتنا المهدَّم، وبينما تجد باقي العصافير، بسرعة محيِّرة أعشاشها، فتسكن إليها، وتهدأ حتَّى فجر اليوم التالي، فإن العصافير التي تعود وحيدة، بدون أُمَّهاتها وآبائها اللواتي والذين قد يكونوا قُتلوا على يد صيَّاد متهوِّر بلا قلب، أو غدرهم الزمان، فتخلَّفوا عن العودة لأيِّ سبب كان، تظلُّ تتنقَّل من غصنٍ إلى آخر، غير مستدلَّة على العُشِّ، أو إنها، لأسبابٍ نفسيَّة غير قادرة على الحطِّ فيه وحيدة، أو أن عصافير أخرى استولت عليه، وقد علمت بمصير الأمِّ أو الأب، أو كلَيْهما معاً.

الشعور بأن عالمي في القُدْس يتبدَّد أصبح ملازماً لي، فعندما أنظر حولي، أو أفكِّر فيهم، لا أجد أُمِّي ولا أبي، ولا العمَّ جورج، ولا لُور، ولا الشيخ نعيم، حتَّى طَنْطُوْر فرعون بدا بلا ملامح، أَقْلَقَتْني حياديَّته، وكأنه ليس فقط لم يعبأ، بل إنه لم يكن يوماً كذلك.

ستُدبِّر لي الراهبات سَفَراً طويلاً للتعلُّم في الخارج، نظراً لتفوُّقي، وظروف يُتْمي، ووافق عمِّي على ذلك، وربَّما سعى إليه. قال وهو يودِّعني في مطار اللدِّ:

- أعرف محاذير سَفَرِكَ وأنتَ فتى إلى بلادٍ مجهولة، قد يكون مستقبلكَ فيها أفضل من هنا، وعلى الأرجح ستطويكَ تحت جناحَيْها، ولكنني آمل أن لا تنسانا، لكَ بالقُدْس قبران في أقدس بقعة بالعالم، وللأسف هذا سرُّ الدِّماء التي لا تتوقَّف فيها، لا أريدكَ أن تعيش وسط الدِّماء بعد الآن، عليَّ أن أقرِّر الأفضل لكَ الآن، وعندما تكبر قَرِّرْ ما يحلو لكَ، ولكنْ، عليكَ أن تعلم بأن قلب عمِّكَ سينبض دائماً بحبِّكَ، واستعجالاً لعودتك، كبيراً، مؤهَّلاً، وفي كلِّ الظروف أرجو أن تسامحني إذا أخطأتُ التقدير، أقول لكَ ذلك لأننا قد لا نرى بعضنا مرَّة أخرى.

وعندما حطَّت الطائرة في مطار هيثرو، انتابتْني قُشَعْرِيرَة الاغتراب، وشعرتُ بأن سكِّيناً فصلتْني عن جسدي، وبأنني صرتُ بلا جسد، وعندما صحوتُ في اليوم التالي، بعد ليلة بكاء حارٍّ تحت الغطاء، في غرفةٍ جماعيَّة باردة، كانت تسبقني أخبار اندلاع الحرب في البلاد التي تركتُها، والتي سيُسمِّيها المصريُّون، حرب أكتوبر، والسوريُّون، حرب تشرين، والإسرائيليُّون لن يقبلوا بغير اسم حرب يوم الغفران، بديلاً.

وفي أيَّام تالية، سأسمع كثيراً عن شارون، ودوره في الحرب، مقترناً بثغرة الدفرسوار، التي عدَّ نفسه بطلها، ونُشرت صوره في الصحف وهو يضع على رأسه خِرْقَة بيضاء تُغطِّي جرحاً ما.

تذكَّرتُ محمَّد الهذالين، وضحكتُ، هل كان فعلاً قادراً على اغتيال شارون؟

ثالث
سِفْر للبقاء والحزن والحياة

الأوَّل

حاولتُ أن أنسى قريتنا والقُدْس، ومضيتُ قُدُماً، وحتَّى لغتي العربيَّة كدتُ أنساها، في غمرة الدراسة الداخليَّة وقضاء العطل لدى عائلاتٍ تبنَّتْني، والاندماج في مجتمع جديد، وتكوين صداقات وعائلة. في البداية كنتُ دائماً في انتظار رسائل عمِّي وأولاده، ولكنْ، في فترةٍ لاحقة، لم أعد حتَّى أفتحها، تعلَّمتُ ذلك من ولدٍ هنديٍّ، يسبقني بعامَيْن في العُمُر والمدرسة، كوَّن حكمته الخاصَّة في العلاقة بأهله الذين يُمطرونه برسائل ونصائح، وقال لي: عليَّ أن أعيش هنا واقعي، ومن الأفضل لهم الاحتفاظ بنصائحهم لهم، هم بحاجة إليها أكثر منِّي، ولا ينقصني هنا أيَّة لواعج عن وطنهم، وطني هنا إلى أجلٍ لا أعرفه. هذه هي الحقيقة التي إن لم أدركها، فسأظلُّ معلَّقاً بين عالمَيْن، وإذا استمرَّ تأرجحي، فسأسقط في هَوَّةٍ عميقةٍ.

كانت هذه ولادتي الثالثة، ونُضْجي الذي سيجعلني أنجح، في موطني الجديد، وأُحقِّق شيئاً من ذاتي، بوعيٍ لما أردتُه، وأفعله.

تذكَّرتُ مشاهد السقوط التي تسكنني من الصراط إلى وادي النار، واقتنعتُ تدريجيَّاً بأن وقتها ليس الآن، وحتَّى يوم الدَّيْنونَة، عليَّ تَجَنُّب التأرجح والسقوط، ومحاولة العيش قبل الصعود إلى سور القُدْس، وبدء السير على الصراط، ولكنني، في مرحلةٍ ما، قرَّرتُ استعادة لُغتي، وهو ما نجحتُ فيه بشكلٍ لم أتوقَّعه، وعدتُ إلى رسائل عمِّي وأولاده، لألتهمَها، ولكنْ، قد يكون الأهمّ رسائل وصلتْني من فتاة القُدْس التي لم أنسَها، وقاومتُ فتحها، حتَّى آن الأوان.

أنا الآن في القُدْس، عدتُ أخيراً، لدراسة عَرْضَيْ عمل من جامعة بير زيت والجامعة العبريَّة لتدريس الأنثروبولوجيا، وأكتب هذه القصَّة التي لم تفارقْني أحداثها أبداً.

عدتُ مع ابني إلى نفس الأماكن، لأرويَ له القصَّة التي عاشتْني وعشتُها. يوم أمس نزلتُ إلى طَنْطُوْر فرعون، شعرتُ بيد أبي شلومو، ضخمةً، ومُشعرةً، تخرج من الصخر، تمتدُّ نحوي، وكدتُ أفقد توازني، تذكَّرتُ ذلك اليوم، الذي غادرتُ فيه المنزل، وأنا أحمل زوَّادة طعام لوالدي، حضَّرتْها أُمِّي، بعد أن عدتُ من المدرسة، كما أصبحتُ أفعل في أحيانٍ عديدة، مشتاقاً للمِصْرَارَة وأجوائها، وفي محاولة إيجاد فرصة للقاء لُور، التي لم تعد تأتي إلى قصر الشيخ إلَّا في العطل الأسبوعيَّة والدينيَّة وغيرها من عطل، بعد أن انتقلتُ من المدرسة المأمونيَّة في القُدْس، إلى مدرسةٍ داخليَّة في رام الله.

وعندما تصل، تقف في حديقة المتحف، وتنادي على أبي نقولا مبتهجةً بصوتٍ مرتفع: «جَدِّي، يا جَدِّي، ها أنا أتيتُ، افتحْ لي الباب».

يتأخَّر أبو نقولا أحياناً في فتح الباب، يثقل سمعه مع مرور العُمُر، وعندما تدخل، يقطف وردة، ويقدِّمها لحفيدته الأثيرة. حوَّل أبو نقولا الأراضي التي تحيط بالمتحف من الداخل إلى حديقةٍ حقيقيَّة، وزرعها، ليس فقط بالورود، ولكنْ، أيضاً بالخضراوات، لقد أبان عن معدنه كفلَّاح متمرِّس، في هذه البُقعة من القُدْس.

ستقول له لُور، كما تفعل دائماً، وهو الذي عيَّرها يوماً عندما قطفتْ وردة، قبل أن ننطلق في مشوارنا إلى القُدْس الغربيَّة:

- الورد أنقذكَ من اليهود، والورد أيضاً أنقذني، عندما رميتُ عليهم الوردة، أحدثتُ بلبلة بينهم ..!

أوصَتْني أُمِّي كثيراً، لأحترس وأنتبه، ولكنْ، مِنْ ماذا؟ هذا ليس مُهمَّاً، بالنسبة إلى أُمِّي عليَّ الاحتراس من كلِّ شيء، وأن لا أجعل شيئاً يعيقني عن الوصول إلى والدي، وإذا لم أجده أبحث عن أبي روحي وأنتظر عنده، حتَّى يعود والدي بمَرْكَبَته، من مشوارٍ، حُمِّل فيه أغراضاً للناس.

وقفتْ والدتي على عتبة المنزل تراقبني، وشعرتُ وكأن قلبها يسير معي، وأنا أنطلق من قرب العَيْن إلى وادي جهنَّم، أنظر إلى المغارات والأضرحة، على جانبَي الوادي، وإلى قبور اليهود القديمة وما استجدَّ منها، وعندما وصلتُ طَنْطُوْر فرعون، شعرتُ كما أشعر دائماً لدى الاقتراب منه، بأن مغناطيساً يجذبني إليه، ولكنني لا أستجيب، وفي ذهني والدي الذي قد يقلق عليَّ إذا تأخَّرتُ، ووصايا أُمِّي التي بدا أنها تعرف، أكثر ممَّا قدَّرتُ، ممَّا عليَّ الاحتراس منه، ولكنْ، هذه المرَّة بدت قدرة المغناطيس على الجَذْب أكبر من قراري بعدم الاقتراب منه، فوجدتُ نفسي أتَّجه نحوه، وبدا لي الضريح عملاقاً بالنسبة إلى قامة طفل مثلي، ولقامة أيِّ رجل طويل، وفجأة رأيتُ دخاناً يخرج من خلفه، يدعوني للاقتراب نحو مجهول غامض، فتسلَّقتُ الصخور من جانبه، وأطللتُ لأرى أصدقاء الشهيد موسى الثلاثة: عيسى، وأحمد، وإلياس، وبصحبتهم مُحمَّد الأكبر منهم سِنَّاً، يتحلَّقون حول نار مشتعلة، خلف طَنْطُوْر فرعون، الذي يُخفيها عن المارِّين في الوادي.

مُحمَّد هو أكبر المتنمِّرين الذين أعرفهم، وأضخمهم جُثَّة، من نَوَرِ باب حِطَّة، مشاغب متمرِّس، لا يهمُّه معلِّم، أو مدير مدرسة، يدفع ثمن اعتدائه على الطلَّاب، ومشاغبته، بصدرٍ رحب، أو الأصحّ بيدٍ رحبةٍ مشرعة، عندما يوقفه المدير في الصباح، وأمام كلِّ الطلَّاب يمدُّ يده، فارداً كفَّه، ليتلقَّى ضرباً بالخَيْزُرَانَة، قصاصاً له، بعد شكوى تلميذ أو عائلته، أو مديرة مدرسة البنات المجاورة، حيث يحلو لمحمَّد التلصُّص على البنات، واعتراض طريقهنَّ، وهنَّ عائدات إلى بيوتهنَّ من يومٍ دراسيٍ متعبٍ ومُملٍّ.

وفي أحيانٍ ليست نادرة، يقلب وجبة القِصَاص، إلى مشهدٍ ساخرٍ، عندما يسحب كفَّه من أمام خَيْزُرَانَة المدير، قبل أن تصل الكفَّ، ويكرِّر ذلك مرَّات متتالية، بينما المدير يستشيط غضباً، وتجعل تموّجات وجه مُحمَّد المبتكرة الساخرة الطلَّاب يضحكون.

كان يتغلَّب على عدالة المدير الخَيْزُرَانيَّة، بإضحاك الطلَّاب عليه، أو عليهما، ولم يزده القِصَاص المتكرِّر إلَّا إيغالاً في التنمُّر.

ضحك الأولاد الثلاثة عندما رأوني، بينما كشَّرَ مُحمَّد، وعندما اقتربتُ منهم، طلبوا منِّي الابتعاد، والعودة إلى الوادي، وإكمال سيري، حتَّى لا يبرد طعام والدي، ولكنني شككتُ بأنهم يُخفون عنِّي أمراً مُهمَّاً، ولا بدَّ لي أن أعرفه، اعترض مُحمَّد بشدَّة على وجودي، فلقد أدرك مخاطر ما سيقودني إليه فضولي.

كان مُحمَّد يضع عصبة على رأسه، ويبدو أنه الأكثر انشغالاً من الثلاثة الآخرين، ومع إلحاحي لمعرفة ماذا يفعلون، طلب منِّي التقدُّم، وسألني بلهجةٍ أُستاذيَّةٍ إذا كنتُ أستطيع التخمين ماذا يفعلون؟ نظرتُ إلى النار المشتعلة، ورأيتُ بضعة قضبان حديديَّة موضوعة على الحجارة التي تشتعل النار تحتها، ولكنني لم أستطع أن أُخمِّن ماذا يجري بالتحديد، وعلمتُ منهم، بالتدريج، أنهم يصنعون سهاماً، لاستخدامها في قوس النَّشَّاب، بتطويع قضبان حديديَّة على النار، أمَّا لماذا يصنعونها؟ فعلمتُ أنهم يخطِّطون للانتقام لمقتل موسى الصغير، بقَتْل حارس العَيْن اليهوديِّ.

أولاد يسقون الحديد، ماذا يعني ذلك لولدٍ مثلهم؟ كيف فكَّروا بذلك؟ وكيف علموا أنهم باستطاعتهم فعل ذلك؟ قال مُحمَّد، بأنها الطريقة المتوفِّرة لديهم، فهم لا يملكون سلاحاً، ولا يستطيعون تدبيره، وهو يفعل ما يجيده النَّوَر: حديد، مع مقادير محسوبة من النار، والماء، والهواء.

لم أُقدِّر حينها، ولم يقدِّروا بالتأكيد، خطورة ما يفعلونه، ويكشفونه لي هكذا بكلِّ بساطةٍ، وبراءة الأطفال الثوَّار، طالبين منِّي أن أحتفظ بالسرِّ، على أن يجعلوني أشترك معهم إذا أردتُ، أو على الأقلِّ يمكنني القدوم إليهم في الأيَّام التالية، لرؤية كيف يصنعون السهام، بعد سَقْيها بالنَّار، مؤكِّدين بأنهم سينجحون في ذلك، ويُنتجون سهاماً مدبَّبة، كالحقيقيَّة التي رآها مُحمَّد على شاشة السينما.

أدركتُ بأنني ما دمتُ أعلم ما كان لا يجب أن أعلمه، فإنني صرتُ واحداً من المجموعة، دون أن أحتاج إذناً أو قبولاً منهم، حتَّى لو لم أشاركهم جميع مراحل خُطَّتهم.

ومع ذلك، لم آخذ ما قاله لي الثلاثة وزعيمهم مُحمَّد، الذي سيضطلع على الأرجح بدور النَّشَّاب، على محمل الجِدِّ، ولم يستطع عقلي الصغير معرفة كيف سينجح هؤلاء الصغار في صنع سهام، بواسطة النار، ومع ذلك، فكَّرتُ أن أُشركَ والدي بسرِّي، ولكنني خشيتُ من العواقب؛ أن يحكيَ لأهلهم مثلاً، وعندها سأظهر أمامهم كمخبرٍ سيِّئ تعيس، سيلاحقني عاري، وربَّما يعاقبونني، فالانتقام هو نصيب مَنْ يفشون الأسرار، خصوصاً إذا كانت من النوع الذي يؤدِّي كشفها إلى عواقب، لا يمكن توقُّعها، وفي حالة الأولاد الثلاثة وزعيمهم مُحمَّد، فإن الاحتلال لن يرحمهم أبداً، ولن يرحم مَنْ علم بخُطَّتهم. لقد علمتُ من والدي، كيف أن الاحتلال يحاكم مَنْ يعلم عن عمل فدائيٍّ، ولا يخبر مخابرات الاحتلال، مهما صغر هذا العمل أو بدا غير مهمٍّ، فالتهمة جاهزة في محاكم الاحتلال العسكريَّة: «عدم إخبار»، وبموجبها اعتُقل العديد من الفتيَة والشُّبَّان لمجرَّد علْم أحدهم صدفةً، أن قريباً منهم أو لهم، يحوز مسدَّساً أو بندقيَّة أو رصاصةً، بغضِّ النظر إذا علموا أنه سيستخدم ما بحوزته أم لا؟ واعتقل الاحتلال جاراً لنا، لأنه رأى راعياً وهو يُخبِّئ بندقيَّة قديمة من زمن الإنجليز في بئرٍ، بوادي

سِتنا مريم، وعندما كُشف أمر الراعي، وتحت التعذيب دلَّ المُحقِّقين إلى البئر، وأخرجوا البندقيَّة الصدئة التي اعتاد الراعي على إخراجها كلّ فترة وأخرى، لتزييتها، واعترف بأن جارنا رآه مرَّة وهو يُزيِّت البندقيَّة قبل إعادتها إلى مكانها السرِّيِّ، فاعتقلوه، وأمضى ستَّة أشهر في السجن. يتعامل الاحتلال بجِدِّيَّة مع أيِّ تهديد، حتَّى لو كان صغيراً أو ضئيلاً، ولم يردِ ترك أيِّ شيء يمكن أن يتسبَّب بقلقٍ مستقبليٍّ.

الثاني

كان عليَّ إكمال طريقي إلى والدي، فصَعِدْتُ إلى القُدْس قلقاً محتاراً ممَّا رأيتُ، وعندما وصلتُ المتحف، ألقيتُ نظرةً من بعيد على قصر الشيخ مطمئنَّاً أنّ لي فيه صديقة أفتقدها وأُحبُّ صحبتها كثيراً، ثمَّ أكملتُ سيري في شارع السلطان سليمان بمحاذاة سور القُدْس المهيب، حتَّى وصلتُ المُصْرَارَة، وكما توقَّعتْ أُمِّي، لم أجد والدي، ولكنني رأيتُ أبا روحي يُحمِّل أغراضاً في إحدى الشاحنات الصغيرة، وعندما انتهى عزمَني على أكلة كبدة، قائلاً إنه يحتاج هذا النوع من الطعام المغذِّي، ليستمرَّ عتَّالاً وملاكماً، وأخذ يُحدِّثني ونحن جالسون على الرصيف في المُصْرَارَة نأكل الكبدة المشويَّة، التي اشتراها من محلِّ المشاوي المجاور، ويحبُّها مع البصل، عن دَوْره كملاكم، وفُوجئتُ عندما أخبرني، بأنه في معظم المباريات يتمُّ مسبَّقاً الاتِّفاق، على مَنْ سيكون المنْتَصِر ومَنِ المنهزم، وكم سيتقاضى كلٌّ منهما، وضحك قائلاً:

- تخيَّلْ، أدخل المبارزة وأنا أعرف بأنني سأُهزَم، وسأتلقَّى عدَّة ضربات متَّفق عليها مسبَّقاً، ثمَّ آخذ أتعابي، وأنصرف ..!

– لا أفهم عليكَ، كيف تقبل أن تكون مهزوماً، وهناك فرصة لتنتصر وتُظهِر قوَّتكَ ..!

- هذا ما يحدث، وهذه شروط اللعبة، تماماً كحال عربنا، لا يليق بهم النصر، هُزمَت دولتنا التي كانت تحكمنا، وكأن هزيمتها مخطَّط لها، ومتَّفق عليها، وقبضتْ ثمن ذلك، مثلما يحدث معي، تصوَّرْ ..!

لم يُدرك عقلي الصغير، كيف يمكن لأبي روحي، فعلاً، أن يدخل حلبة الملاكمة، وهو يعرف بأنه عليه أن يتلقَّى الضرب ويخسر، وأخبرتُهُ بأنني، في الواقع، لا أستطيع تصديق الأمر.

هتف أبو روحي: «الأمازونيَّات»، وأمام تعابير وجهي المتسائلة قال: «الأمازونيَّات؛ النساء المحاربات القويَّات الفوضويَّات المتمرِّدات؛ يمكن للواحدةِ منهنَّ، أن تصطنع هزيمة، في مصارعة مع رجلٍ، لأنها تحبُّه، وترغب به زوجاً، إنهنَّ سيِّدات التواري، فالأمازونيَّة، يمكن أن تتزيَّا بزِيِّ الرجال، وهي تحارب خارج مجتمعها لإخفاء هُوِيَّتها الأنثويَّة، ويمكن أن تعلن مفاجأة بكشف وجهها الجميل، عندما يوشك الذكر الأهبل على الفوز عليها، لتصدمه وتجعله حائراً، وفي أيَّامنا هذه، يمكن أن يُهزَم الملاكم أو المصارع، بدون أن يتوارى، من أجل مبلغ صغير من المال، يؤكِّد قبوله، مكرَهاً، لشروط اللعبة، وخضوعه لها، وبذلك يضمن أن لا يُطرَد خارج مجتمع القتال الصغير في القُدْس».

قلتُ له أعرف الأمازونيَّات، رأيتُ صورهنَّ منحوتة وهنَّ يصارعنَ الرجال، وتحسَّستُ انحناءاتهنَّ البارزة، وعضلاتهنَّ.

واصل أبو روحي، وكأنه لا يريد أن يستمع إليَّ، مستحوذاً بحكايته الخاصَّة عن الأمازونيَّات: «يا بُنيَّ، نحن نلاكم ونصارع، ونتدَّرب بإمكانيَّاتنا القليلة، نحاول تقليد ملاكمي أميركا، ونتابع مبارياتهم، ونقلِّدهم، وليس مهمَّاً إذا كنتُ أقبل الهزيمة، من أجل تقديم عرض للناس، لا يعرف المرء فينا، إلى متى يمكن، في مثل ظروفنا، أن نستمرَّ في تقديم عروضنا، أشعر أنها مرحلة مؤقَّتة، نلاكم ونصارع فيها أنفسنا، فالآتي كما أشعرُ أعظمُ».

أخافني حديث أبي روحي، وكنتُ ما أزال مشغولاً بما رأيتُهُ ممَّا يفعله الأشقياء الأربعة، ولم أتصوَّر أبداً أنهم يمكن أن يصنعوا سِهاماً حقيقيَّة

قادرة على الإصابة، والقتل، وأفكِّر في طريقة بديلة، أبسط وأسهل، ممَّا يجاهدونه بالنار، فأقدح مُخِّي، ولكنه لا يستجيب.

وانتابني إحساس، بأن أصدقائي الأشقياء يشبهون الأمازونيَّات، في وجهٍ من الوجوه، يذهبون إلى قَدَرهم، بصنع سِهام، قد لا يُجيدون صنعها، وهم يعرفون ذلك، ولكنهم، من أجل الردِّ على جريمة قتل موسى، وهو متطلَّب سيظلُّ معلَّقاً في سماء قريتنا، قرَّروا أن يُنزِلوه إلى أرضها، ويعيشوا تجربة الانتقام، ومثل الأمازونيَّات اللواتي يتنازلنَ، ويَغْضُضْنَ النظر عن هزيمة يَقبلنَها، من أجل متطلَّب العشق، سيقبلون رضاهم عن التجربة، وحتَّى لو انتهت إلى أن تكون مجرَّد تجربة، فحسبهم أنهم سعوا إليها لإراحة روح الشهيد موسى.

الثالث

.. وأنا أشعر بأنني أفقد توازني، تتلاطم ذكرياتي في رأسي، وتَدُقُّه بشدَّة، وكأنها ضربات الأمازونيَّات بقبضاتهنَّ القَويَّة، إلَّا أن رؤيتي لشخصٍ يجلس على مبعدةٍ من طَنْطُوْر فرعون، ويراقبني، جعلني أعود إلى واقعي؛ طفل كبر هناك، ويعود إلى هنا، مشوَّشاً، وفضوليَّاً كما كان.

يرتدي الرجل قُبَّعةَ قشٍّ، ونظَّارة شمسيَّة، وتتدلَّى من رقبته عدَّة أغراض، لم أتبيَّنها بدقَّةٍ، وعندما اقتربتُ منه خاطبني بإنجليزيَّة أميركيَّة خالصة: «يبدو أنكَ مثلي لستَ من هذه البلاد المقلقة، آمل أن لا تكون أنتَ أيضاً أتيتَ لأن لكَ حساباً مع أبشالوم، لم تُنهه».

لم أكن بحاجةٍ إلَّا لهذا الكلام، حتَّى تنعقد بيني وبين مَنْ عرفتُ أنه عالم آثار أميركي متخصِّص في الفترة البيزنطيَّة، كيمياء مؤقَّتة.

قلتُ له: «أنا من هنا، وليس من هنا، ويبدو أنكم أنتم أيضاً ما زلتم تسعون خلف طَنْطُوْر فرعون، مثلنا أيضاً. ألم تُنهوا حسابكم معه؟».

أخبرني أن اسمه جيمس سترينج، بروفسور من جامعة جنوب فلوريدا، وبشَّرني بأنه عُثر على نقش، يؤكِّد أن ما نسمِّيه بطَنْطُوْر فرعون ليس له علاقة بأبشالوم، وإنما بزَكَرِيَّا، والد يوحنَّا المعمدان وربَّما أيضاً بيعقوب. أيُّ يعقوب فيهم؟ وما أكثرهم في أرضنا المقدَّسة.

لكنْ، هل يمكن بكلِّ هذه البساطة، الإطاحة بصاحبي أبي شلومو؟ أين ستذهب الحكايات والتخيُّلات؟

قلتُ: «يا لطَنْطُوْرِكَ، يا فرعون ..»

قال: «أبشالوم هذا لا ينتهي الحساب معه أبداً، حُبِّرت آلاف العظات ومئات الكُتُب عنه، باعتباره مارقاً، ونبيَّاً، وخيِّراً، وشرِّيراً، ولكنه توفيِّ قبل ألف عام من بناء هذا الضريح، والنقش الذي اكتُشف على الضريح يدلُّ على علاقته بالنبي زَكَرِيَّا، وليس به».

علَّقتُ: «مسكين أبو شلومو، لو تركتموه لنا، لكان أفضل له»، ورداً على سؤاله شرحتُ له بأننا نُدلِّع أبشالوم، فنسمِّيه: أبو شلومو.

سألتُهُ جدِّيَّاً هذه المرَّة: «ما هي علاقة بروفسور أميركي بطَنْطُوْر القُدْس؟!».

قال لي: «قد نحتاج إلى خارطة طريق صغيرة، لأشرح ذلك. فالنَّقْش الذي تصدَّيتَ للحديث عنه، أوَّل مَنْ نبَّهنا إليه شخص يصف نفسه بأنثروبولوجي فيزيائي، ولا تسألني ماذا يعني ذلك؟ أنتَ أيضاً بروفيسور، وعليكَ أن تعرف ذلك أفضل منِّي. إنه يُدعى جَوّ زياس، قال إن الكتابة على طَنْطُوْركم، وهي باللغة اليونانيَّة، تكاد تكون مُحِيَت، بفعل عوامل الزمن، وبسبب رشق القبر بالحجارة من الغاضبين على أبشالوم، خلال فترات طويلة، يفعلون ذلك كلَّما تذكَّروا أفعاله في والده، لذا لم يستطع الناس قراءتها».

علمتُ أن قصَّة زياس مع النَّقْش بدأت عندما وقعتْ تحت يدَيْه صورة بالأبيض والأسود لمدخل الضريح المهيب، فاستطاع تمييز أحد الحروف عليها، فالتقط الإشارة جيمس هذا الذي أراه أمامي، يروي لي بأنه جلس شهوراً - والمبالغة واضحة في كلامه - أمام الضريح، حتَّى استطاع أن يتأكَّد أنه بالإمكان رؤية الكتابة على النَّقْش.

قال:»راقبتُ الضريح في أشهر الصيف، قبل الغروب فقط، بسبب مقدار الضوء والظلِّ، اللذَيْن يسمحان لي بتأكيد ما افرضتُهُ«.

واستعان جيمس، كما قال، بخبير الكتابة القديمة الأب إميل بيش، حيث حدَّد الاثنان أن النَّقْش يعود إلى القرن الرابع الميلاديِّ، والكتابة عليه هي: «هذا أثر جنائزي لزَكَرِيَّا الشهيد الورع أبي يوحنَّا». وأن الضريح، قد يكون، بُنيَ بعد عشر سنوات من تبنِّي الإمبراطوريَّة الرومانيَّة للديانة المسيحيَّة، ومن حسن حظِّ جيمس، أن معظم الأبنية الكنسيَّة في الأراضي المقدَّسة بُنيت في تلك الفترة. ولذلك لم يَبْدُ ما تحدَّث عنه بعيداً عن المنطق بالنسبة إليَّ، ولكنني أكَّدتُ له بأنه لن يستطيع حلَّ مشكلة تاريخ الطَّنْطُوْر وباقي الأضرحة، وأن النَّقْش لا يمكن أن يؤكِّد أنها بُنيت في فترة كتابته، حيث أصبحت الديانة المسيحيَّة هي الدِّيْن الرسمي للإمبراطوريَّة، وانتشرت مثل هذه النقوش، بعد أن بدأت حملة لتحديد بعض المواقع الإنجيليَّة، وليس مستبعداً أن أتباع الديانة التي أصبحت الديانة الرسميَّة، وضعوا النَّقْش على الضريح الذي كان قائماً فعلاً، في حين أن علماء الآثار، بغالبيتهم، يُرجعون فترة بناء الأضرحة إلى قبل الميلاد، وهذا ما يمكن أن يفسِّر تأثير البناء المصري عليها.

عجب جيمس لحماستي، واهتمَّ ليسمع قصَّتي عندما أخبرتُهُ بأنني عندما كنتُ أمرُّ صغيراً من جانب الطَّنْطُوْر، أشعر بقوَّة مِغناطيسيَّة، تجذبني إليه، ليحتويَني داخله، ولكنني أقاوم وأقاوم، لم أكن أرغب بأن أصبح، فجأةً، في داخل الطَّنْطُوْر، ولا أعرف كيف أخرج منه.

ضحك جيمس، ممَّا سمَّاها نباهتي المبكِّرة، وأخبرني بأنه اكتشف نَقْشاً آخر في المكان، وأنه استطاع قراءة كلمة واحدة فقط عليه، هي الاسم: شمعون.

قلتُ له: «شمعون، داود، موسى، كافل، لم يعد يهمُّني. في هذا الوادي، وتلك البيوت، ثمَّة وفرة في أسماء الملوك والأنبياء، الذين يشاركوننا قديمهم، ويتحكَّمون في مصيرنا».

عندما هممتُ بالمغادرة قال لي: «بصفتكَ العلميَّة، تستطيع أن تُقدِّر بأن هذا الكشف الذي حدَّثتْكُ عنه ربمَّا يكون الأهمَّ منذ عقود».

شعرتُ أنه دائماً مطلوباً منَّا أن نقدِّر الأشياء، والمواقف، ونحدِّد، ولكنني لم أستطع أن أقدِّر، قبل سنوات طويلة، ما سينتج عنه عدم تبليغي والدي عن ما يفعله الأشقياء الأربعة في هذا المكان، خلف الطَّنْطُوْر الصامت أمام سعي الناس لفكِّ غموضه، ربمَّا وهو يراقبنا، يضحك، أو يبتسم، أو محتاراً من قلَّة حيلتنا، وغبائنا، وقصورنا.

الرابع

ياسين

في عصر ذلك اليوم الذي أوشك على الانتهاء، وبدا ذلك واضحاً من ظلال الشمس التي ضربت قُبَّة الصخرة الذهبيَّة، وهي في طريقها للغروب، التي تظهر من فوق سور القُدْس، غبتُ عن ناظرَي أبي روحي المغربي، وحكاياته عن الملاكمة والأمازونيَّات، وشَتْمه الذي لا يتوقَّف للعرب، وسرتُ في شارع السلطان سليمان متوجِّهاً إلى متحف روكفلر. دخلتُ من بوَّابة المتحف الرئيسة إلى قصر الشيخ، فطالعني أبو نقولا المحبُّ للتاريخ وللشجر، وهو يروي مزروعاته، ومن بينها الوَرْد الجوري. ترك الخرطوم مرحِّباً بي، فيما ظهرت أمام باب القصر لُور بوجهها الأبيض الذي حِرتُ في بياضه المشرب بحمرة محيِّرة، هي الأخرى، تبتسم، وتظهر غمَّازتاها وكأنهما حبَّتا مِشْمِش مجوَّفتان من الاستواء.

جلستُ إلى أبي نقولا، وهو ينظر للورد المتطاول، كالأشجار، وسألتُهُ عن شَغَفه بالورد، ليُجيبَني بحكايته التي لا يملُّ من تكرارها، عن كيف أنقذتْهُ وردة، ومَنْ تنقذه وردة، يعش كثيراً، وهو ما لم يرده أبو نقولا، الذي اتَّخذ جلسة أكون فيها أمامه، ويستطيع أن يتابع الريَّ، وهو ينظر إليَّ وإلى الورد:

«كان ذلك قبل الاحتلال، في زمن حُكْم الملِك، الذي أمَّم المتحف قبل الاحتلال بفترة وجيزة، ليصبح حكوميَّاً، بعد أن ظلَّ تحت الإدارة البريطانيَّة رَدَحاً. يأتي الزوَّار والسيَّاح إلى المتحف ليروا مخطوطات البحر الميت التي شغلت الناس، والتماثيل القصيرة، لجواري بني أميَّة، التي

جُلِبَت من قصر هشام في أريحا، ولُقَى تعود لفترات سحيقة، نُقلت إلى المتحف من التنقيبات الأثريَّة العديدة في أرض فلسطين. وفي ذلك النهار، عندما دخل وفد سياحي، لفت نظري شابٌّ أشقر، أزرق العينَيْن، بشَعْرٍ طويلٍ مُسْدَلٍ على الكتفَيْن، ذكَّرني ببدويٍّ أعرفه، كان يزورنا في قريتنا، ولا أعرف ما الذي جعلَني عندما اقترب منِّي أن أقطف وردةً، وأُقدِّمها له، هكذا مدفوعاً برغبةٍ داخليَّة، لا أعرف كُنْهها، للترحيب بهذا الغريب الآتي إلى بلادنا، ولعلَّه قطع بحوراً من أجل ذلك. أخذ الشابُّ الوردة ممتنَّاً وضاحكاً، وسألني بعربيَّة مكسَّرةٍ عن اسمي وعن وظيفتي في المتحف، وطلب منِّي الإذن، ليلتقط مجموعة من الصور لقصر الشيخ، ودفعني حماسه للقصر لاصطحابه في جولةٍ داخليَّة إلى الطابق الأوَّل، الذي يفضي إلى راوية، الموقع الذي أستقبل فيه عائلتي، والذي طالما شهد نوم ما بين عشرة إلى عشرين منهم، عندما يهلُّون مرَّة واحدة، فتضع زوجتي الفرشات بجانب بعضها بعضاً، وينام الجميع فرحين، مستمتعين، ثمَّ اصطحبتُهُ إلى الطابق الثاني، ودُهِش عندما رأى قُبَّة الصخرة الذهبيَّة تلألأ خلف أسوار القُدْس، وأراد أن يقول شيئاً، ولكنه تراجع، مكتفياً بابتسامة، وقُدتُهُ نزولاً إلى معصرة الزيتون في الأسفل، وعندما ودَّعني ضغط على يدي بشدَّة، وعبَّر عن أمله بلقائي مرَّة أخرى، قبل أن ينضمَّ لباقي رصفائه الذين سبقوه إلى المتحف».

أشعل أبو نقولا سيجارة، ليكون في مزاجٍ يمكنُّه من إكمال الحكاية بطريقةٍ تترك تأثيراً على مستمعه الوحيد الآن: «دارت الأيَّام، وهذه المرَّة سريعاً، وجاءت الحرب، وتقدَّم اليهود نحو المتحف، لموقعه الاستراتيجي، أسرعتُ إلى الباب المفضي إلى الحديقة العامَّة الخارجيَّة، لأفتح الباب، وكنتُ أسمع، وأنا في طريقي، هرجاً عالياً، وتضرب أُذُنيَّ أصواتٌ غير مفهومة، وقبل أن أصل الباب، كان الجنود قد خلعوه، ولم أكَّد أُصدِّق

عينَيَّ، عندما اصطدمتُ بفرقة الجنود، ولم تكن لعينَيَّ أن تخدعاني هذه المرَّة على الأقلِّ، إنه هو، الأشقر الذي أعرفه يتقدَّم الفرقة، مَنْ أهديتُهُ وردة، وتمنَّى أن نلتقيَ قريباً، وها هو الموعد يتحقَّق، وبسرعةٍ لم أتوقَّعها. قال لي وكأنه يُصدِر أمراً، لا تَخلعِ القُبَّعة عن رأسكَ، ظلَّك بقربي، وتصرَّفْ وكأنكَ واحد منَّا، ومهما رأيتَ لا تُبدِ انفعالاً، أريد حمايتَكَ، لن أسمح لهم بقتلِكَ أو اعتقالِكَ».

وأضاف الأشقر لأبي نقولا: «كلُّ هذا لأنكَ كنتَ طيِّباً معي، وقدَّمتَ لي وردة، وعندما أطلب منكَ العودة إلى مكانكَ، يا أبا نقولا، أَغلِقْ عليكَ الباب، ولا تخرج حتَّى يُسمحَ لكَ ولغيركَ من سكَّان القُدْس بالخروج، وإذا لم تلتزم بالتعليمات ربَّما لن أكون هنا لأنقذكَ مرَّة أخرى، أنتَ لا تعرف ماذا كانوا سيفعلون بكَ لو لم أكن هنا».

ما رآه أبو نقولا، خلال الأيَّام القليلة التي ظلَّ فيها بالمتحف، بدا لي مفزعاً، وكأنني أسمع به لأوَّل مرَّة: «اسمعْ، يا بُنيَّ، ما رأيتُهُ يشيب له الوِلْدَان، ماذا سأقول عمَّا فعله الأنجاس؟ قتلوا أمامي نحو عشرة من موظَّفي وجيران المتحف، في البداية كان القتل عشوائيَّاً، كلُّ مَنْ يرونه أمامهم، يُردُونه قتيلاً، ثمَّ غيَّروا تكتيكهم، وأخذوا بوَضْع مَنْ يمسكونه خصوصاً مَنْ يعتقدون أنه من الجيش، أو من الشبَّان المقاومين، في نقطة معيَّنة، تتغيَّر باستمرار في حديقة الورود التي شقيتُ من أجل جعلها تفوح بعطر مزروعاتها، وبعد قليل تقصف الطائرة النقطة، فيتحوَّل الرجل إلى أشلاء، وقد تسألني عن موقف الجندي الأشقر، الذي أنقذني، وأقول لكَ، بأنه هو مَنْ كان يقود هذه الفظائع، وبعد أربعة أيَّام، نظر إليَّ، وقال بأنه سيغادر إلى موقع آخر، وعليَّ أنا أيضاً أن أغادر، وأعود إلى عملي بعد أن تهدأ الأحوال، ولكنني كيف يمكن أن أغادر في مثل هذه الظروف، وسط النار والدماء؟ قال: دبِّرْ حالكْ، ولم يكن أمامي سوى أن أُدبِّر حالي،

فانطلقتُ إلى نصف جبيل البعيدة سيراً على الأقدام، لم أكن أعلم بأن نقولا انطلق ليطمئنَّ عليَّ، وسرتُ في طُرُقٍ ملتوية، ووصلتُ نابلس، بعد ثلاثة أيَّام، ورأيتُ المدينة الخَرِبَة، وأفواج اللاجئين الذين نصبوا خياماً على عجلٍ، وتمكَّنتُ من تدبير توصيلة بمَرْكَبَة شخص أعرفه من قريتنا، وعندما وصلتُ، فوجئ الناس بي، وفوجئتُ بهم، وقادوني إلى قائد المخفر، ليستفسرَ منِّي على ما حدث في القُدْس، وعندما أخبرتُهم الحقيقة، وأن اليهود سيطروا على المدينة، انتفض القائد، وشتمني، واقترب منِّي ليصفعَني، بدعوى نشري لأخبارٍ كاذبة في زمن الحرب، ولكنَّ الشباب الموجودين، ومن بينهم الخوري، تصدُّوا له، وجاءتْني فكرة، وطلبتُ منه أن يفتح الراديو، فأخرجه من السحَّارة التي خبَّأ فيها أيضاً لَمْبَة الكاز، ففي زمن الحرب، مُنعَت الإضاءة، ودُهِنت الشبابيك بالنيلة، لتصبح زرقاء، فلا تَكشف لطيران العدوِّ ما بداخلها، وكأن القَدَر يريد أن يساعدني، فما إن تحرَّك مؤشِّر الراديو، حتَّى صدح صوت المذيع: أهلاً بكم من إذاعة أُوْرُشَلِيْم القُدْس».

وجدتُ نفسي متأرجحاً بين فضولي لمعرفة نهاية حكاية الجَدِّ أبي نقولا، ورغبتي برؤية لُور، ويبدو أن الجَدَّ شعر باضطرابي، فختم حكايته: «لن أُطيل عليكَ، يا بُنيَّ، فأنا أيضاً لديَّ عمل في الحديقة، المهمُّ أن الموجودين عندما عرفوا بأن ما قلتُهُ صحيح، انتفضوا ضدَّ قائد المخفر، وهجموا عليه، وكادوا يقتلونه، وكُلٌّ منهم يتذكَّر فعلة شائنة له بحقِّه، ولكنني، رغم إجهادي وجوعي، تدخَّلتُ لحمايته، فخرج من المخفر مسرعاً، مغادراً القرية، مع مساعديه، فهجم الشباب على الملفَّات المخبَّأة، وممَّا عثروا عليه تقرير، رفعه القائد في خوري القرية إلى المخابرات بنابلس، أنه شيوعيٌّ، ينتمي إلى حزب منحلٍّ وهدَّام، وعندما قرأ الخوري ذلك، ضحك وقال: كلُّ هذا بسبب العزومة؛ والعزومة

المقصودة، أن القائد عزم نفسه غصباً عند الخوري، وطلب منه أن يذبح له دجاجة، ويشويَها، ولكن الخوري رفض الخضوع للابتزاز، وعندما وصل القائد مساءً إلى دار الخوري قرب الكنيسة، جلس وانتظر العشاء، الذي لم يأتِ أبداً، فتجرَّع الإهانة، وهو يتجرَّع كأس الشاي الذي قدَّمه الخوري له، ونهض متوعِّداً محذِّراً».

لم أعرف ماذا أقول لأبي نقولا، وأنا أراه ينهض متمتماً باسم ابنه الذي لم يجده عندما وصل قريته؟ هل استمتعتُ بحكايته، وحزنتُ لحزنه وفقده أم أنني لم أعرف ماذا أقول؟ وماذا كان يمكن للفتى الذي كُنتُهُ أن يقول؟ سعدتُ بأنه أنهى حكايته، مع ظهور لُور إلى جانبي، فهمستُ في أُذُنها، فطلبتُ الإذن من جَدِّها، لتأتيَ معي في رحلة استكشاف للقُدْس. أبدى أبو نقولا تردُّداً، وأصرَّ على معرفة إلى أين سنذهب بالضبط، فقلتُ له: طَنْطُوْر فرعون، فطلب منَّا توخِّي الحذر وعدم الاقتراب من مقبرة اليهود، أو مناوشتهم، أو الحديث معهم.

الخامس

نزلتُ ولُور نحو كنيسة سِتنا مريم، وكنيسة الجُثْمَانِيَّة، وانعطفنا يميناً إلى وادي جهنَّم، وفي الطريق، رويتُ لها حكاية أصدقائي الأربعة، كان السرُّ أكبرَ من أن يحتويَهُ صدري الصغير، ظلَّ يمور حتَّى خرج، على شكل سؤال: ماذا يمكن أن نفعل لنكون شركاءَ معهم في عمليَّتهم الفدائيَّة المقبلة؟ ولم أكن أنا وهي نحتاج إلَّا إلى مصطلحات مثل فدائيّ وفدائيِّيْن، حتَّى يدبَّ فينا الحماس، وأتركها تتحدَّث عن ما تعرفه عن هؤلاء الذين يريدون أن يحرِّرونا من اليهود المغتصبين، وتحمَّستْ إلى درجة أنها أسرَّت لي بسرٍّ، طلبتْ منِّي أن لا أفشيَهُ، فأكَّدتُ لها ذلك، وأنا غير متأكِّد إذا كنتُ سأفي أم لا، شَغَفي بسرٍّ ستُطلعني عليه حفَّز كلَّ حواسِّي. قالت لُور، بأنها استيقظتْ، وجَدُّها، في تلك الليلة، على صوت طَرْقات على الباب، فخافت أن يكون أحد من الجيش أو الشرطة أتى ليخفرها، بعد أن شكَّت بأن جولاتها في أروقة المتحف، بعد أن يغلق أبوابه وفي أيَّام العطل، قد كُشِفَت، وفكَّرتْ كيف يمكن أن يكون موقفها أمام جَدِّها، الذي يثق بها، عندما يعلم بأنها تُقدِ م على ما يمكن أن يحرجه ويطيح بوظيفته، وجرجرته إلى قسم الشرطة في قِشْلَة باب الخليل، وربَّما أيضاً تعرّضه للضرب.

حاولتُ انتهاز الفرصة لأسألها عن حكايتنا مع العمِّ هاريسون، وكيف خرج من الجدار يمشي على قدمَيْه، ليرويَ لنا، ولكنَّ اندفاعها المشحون بعاطفةٍ متَّقدةٍ وهي تروي سرَّها، حال دون طرح أيَّة أسئلة.

صمت الجَدُّ، وطلب من لُور، بإشارة منه، المحافظة على الصمت،

ليتأكَّد من وجود شخص فعلاً يطرق في هذه الساعة على الباب، ومعرفة مَنْ هو؟

أمام لحظات الصمت التي قالت لُور، وهي تضحك إنها سمعت فيها دقَّات قلب جَدِّها الخائف والمترقِّب، سمعا طرقاً خفيفاً على الباب، وكأن الطارق عرف بحالهما في الداخل، وأراد بعث رسالة طمأنة بأنه ليس عدوًّاً، أو مارقاً، وإنما قد يكون صديقاً، أو قريباً، وَجَدَ نفسه في القُدْس تائهاً، أو تعطلت به السُّبُل، فلم يجد سبيلاً إلَّا الالتجاء لأبي نقولا؛ عنوان أهل قريته في المدينة المقدَّسة، ونقطة التواصل.

تشجَّع الجَدُّ ونهض نحو الباب، ووضع أُذُنه عليه، ليتأكَّد من جديد من أيَّة حركة خلفه، وعندما سمع طَرْقةً أخرى، سأل عن اسم الطارق أو هُوِيَّته، وعندها جاء صوته خافتاً وكأنه همس: «افتحْ، يا عمِّي، لا تخفْ».

- مَنْ أنتَ؟

– لا تَخَفْ، عندما تفتح ستعرف.

ويبدو أنه لم يكن أمام الجَدِّ إلَّا أن يفتح الباب، فأيُّ نقاش زائد قد يُنبِّه ناساً لا يجب أن ينتبهوا، ويُشكِّل انتباههم خطراً لا يعرف أبو نقولا إلى أين سيؤدِّي، فدلف منه شخص ملثَّم، بدا هو الآخر خائفاً، من حركة يدَيْه وتعابير وجهه، وعرَّف على نفسه بسرعةٍ بأنه أحد الفدائيِّيْن، الذين تسلَّلوا عبر نهر الأردن، لتنفيذ عمليَّة ضدَّ جنود الاحتلال الذين يقتلون الناس في القُدْس، كي يرتدعوا، ويعلموا أن للقُدْس أصحاباً لا ينسون أهلهم فيها.

هكذا بسرعةٍ، ومرَّة واحدة، ودون تمهيد؛ فدائيٌّ بشحمه، ودمه، ولسانه، ولثامه الذي أسفره، يقف أمام جَدٍّ وحفيدة.

لم يعرف الجَدُّ ماذا يقول، بينما استبدَّ الفضول بلُور، التي أرادت أن

تسمع أكثر من هذا الفدائيِّ، الذي لم يضيِّع وقتاً وهو يمدُّ خيوط التعارف مع أبي نقولا، وعندما علم مَنْ هو ومِنْ أين هو، أخبره عن فدائيِّيْن من قريته في معسكرات الفدائيِّيْن شرق النهر، تعرَّف أبو نقولا عليهم، وسأل مطمئنّاً على عددٍ منهم، وهدفه معرفة إذا كان الفدائيُّ كاذباً أم صادقاً؟

قال أبو نقولا:

- ألَا تعلم أن وجودكَ هنا يُشكِّل خطراً، عليكَ، وعلينا، وأن حُرَّاس المتحف اليهود قد يكونوا لاحظوا تسلُّلكَ إلى هنا؟

قال الفدائيُّ الذي قدَّم نفسه باسم جبر:

– راقبتُ المتحف والمنطقة أنا وزملائي. اطمئن، كلُّ شيء تمام، عليكَ أن تكون مطمئنّاً عندما تتعامل مع أناس مثلنا. صحيح أننا نضع حيواتنا على أكفِّنا، رخيصة من أجل فلسطين، ولكننا، لسنا بذلك الغباء، نفكِّر، ونخطِّط، ونُناور، ونتقدَّم ..!

- نحن، كما لا بدَّ أنكَ تعرف، ناس على قَدْر حالنا، لا نحتمل بطش الجنود بنا من جديد، بعد ما لقيناه في الحرب الأخيرة؛ قتلوا ولدي، وهذه ابنته هي ما تبقَّى لي من رائحته.

أمسك الفدائيُّ جبر أبا نقولا، وضمَّه إلى صدره، مواسياً، ومتمتماً بعبارات عزاء في ابنه الشهيد، ثمَّ قال:

– كلُّنا كان لنا نصيب من إجرام المحتلِّين، ونحن وأنتم همُّنا واحد، لا تقلقْ، يا عمِّي، نحن لم ننتفض إلَّا لنمسح دموعكم، ولا نجعلها تسقط مرَّة أخرى. فعلنا مثلما تفعل كلُّ الشعوب التي تُحتَلُّ، امتشقنا البنادق، ومثلما حدث مع الشعوب المحتلَّة، سننتصر، الاحتلال لن يدوم، وبين بدئه ونهايته، علينا التَّسلُّح بالصبر، والفهم، والصمود. إن وجودكَ هنا في

القُدْس هو صمود، والصمود مقاومة، أنتم كالأنصار في الحروب، الذين يقاتلون خلف خطوط العدوِّ.

وأفصح الفدائيُّ عن مطلبه؛ إنه يريد بطَّانيَّات، لكي يتغطَّى بها وزملاؤه الذين اختفوا قريباً من هنا، وسط شجيرات حديقة المتحف العامَّة.

طلب الجَدُّ من جبر، أن يمكث قليلاً، ليشرب الشاي، وهو ما كان ينتظره الأخير، فوافق، وبعد شرب الشاي الذي أعدَّتْهُ لُور بحماسةٍ، وتشديد جبر على أن لا يعرف أحد بما جرى الليلة، وقال ذلك أكثر من مرَّة وهو ينظر إلى لُور، وكأنها هي التي ستكون سبباً في إفشاء السرِّ، الذي قد يقود لاعتقاله ورفاقه أو قتلهم من قِبَل جنود الاحتلال. أخذ البطاطين، واتَّفق مع الجَدِّ، على أنه بعد أذان الفجر بنصف ساعة، عليه أن يخرج إلى الحديقة، ويستعيد البطاطين، لأن الفدائيِّيْن سيكونون قد غادروا، ولن يعودوا إلى المكان نفسه مرَّة أخرى، شاكراً الجَدَّ وحفيدته التي لن تنبس بأيَّة كلمة عن ما رأتْهُ، وأن الفدائيِّيْن سيعتبرون مساعدة الجَدِّ وصمت الحفيدة عملاً نضاليَّاً، لن ينسوه، عندما تتحرَّر الأرض، ويُفكُّ أسر العباد، ويُطرَد اليهود إلى حيث أتوا.

السادس

عندما اقتربنا من الطَّنْطُوْر، كانت لُور ما زالت في غاية الحماسة، ليس فقط لأنها عاشت تلك الأحداث مع الفدائيِّ جبر، ولكن لأنها ترويها لشخصٍ تثق به، رغم أنه أصغر منها قليلاً، ولكنها تراه أصغر ممَّا هو في الواقع، لتُلبِّي نزعتها نحو قيادته بسهولةٍ وبعلم الخبيرة وتجربتها، وهي على ثقةٍ بوطنيَّته وبقدرته على كتم الأسرار الثوريَّة، ولذا فإنها أرادت أن تُكمِلَ الحكاية، ولكنْ، بعد أن أخذت عليَّ عهوداً باسم أنبياء الله ورُسُله، والخضر الأخضر وسِتنا العذراء، بأن لا أكشف لأيِّ أحد ما ستُخبرني به، وبالطبع، منحتُها العهود التي طلبتْها، وكنتُ على استعداد لأن أمنحَها أيضاً أكثر وأكثر من الأيمان الثقيلة.

قالت لُور، وبصوتٍ أخفت من العادة، وكأن أحداً يمكن أن يسمعنا: «بعد أن غادر جبر لم أستطع النوم، ونظرتُ، وأنا على سريري، إلى جَدِّي المستلقي على الأرض لأتأكَّد من ذهابه في نومٍ عميق، حتَّى أتمكَّن من تحقيق رَغبتي التي بدت لا تُقاوَم، وبعد انتظار، ورغم أنني لم أتأكَّد إلى أيِّ مدى ذهب جَدِّي في رحلة النوم، نهضتُ وفتحتُ باب القصر، وأنا أُغطِّي رأسي، واتَّجهتُ يساراً نحو حديقة المتحف، لألتقيَ جبر، الذي رأيتُهُ وهو يقضي حاجته واقفاً خلف شجرة، وعندما رآني، بدا أنه فُوجِئ، وشعرتُ بالقلق يحتلُّ جسده، فطمأنتُهُ، بأنني أريد أن أُكمل حديثنا الذي بدأ بحضور الجَدِّ، وأخبرتُهُ بدون مواربة بأنني عندما أقسمتُ على عدم فضح سرِّه وسرِّ أصحابه، قرَّرتُ أن أتطوع فدائيَّة معهم».

أجلس جبر لُور، بعيداً عن أصحابه الذين قال بأنهم يغطُّون في نومهم،

وأنه يتولَّى حراستهم، واستفسر منها عن بعض التفاصيل، ووعد بأن يرسل اسمها، إلى قادة الفدائيِّيْن، في قواعدهم شرق النهر، وبأنه سيوصي بها خيراً، وعندما يأتي الجواب قريباً، سيتَّصل بها بطريقته، ويُعلمها باسمها الحركيِّ، ثمَّ طلب منها العودة إلى القصر، قبل أن يفيق جَدُّها، وطبع قُبْلة على جبينها.

ونظرتْ نحوي؛ لتعرف مدى تأثُّري بمسألة قُبْلة الجبين، وعندما رأتْني صامتاً، قالت، بأنه بين الفدائيِّيْن دائماً هناك قُبلات أخويَّة، ثمَّ اقتربتْ منِّي، وطبعتْ قُبْلة على خَدِّي، الذي أعتقد بأنه احمرَّ خجلاً من هذه المباغتة، وتدفَّقت الدماء في عروقه أكثر من اللازم.

عندما أكون بعيداً عن لُور، أعيش أحلام يقظة معها، وبصحبتها، أجد نفسي جباناً خجولاً، ولعلَّها تدرك ذلك تماماً، فتقبل وتمتنع عندما تريد.

ما أزعجني، أن لُور، لم تقدِّم اسمي إلى جبر، ليُدرجَهُ ضمن قائمة الفدائيِّيْن، وشعرتُ بأنه بعدم تذكُّري، وتجاهلي، برغم ما بيننا، من مغامرات وقُبل متفرِّقة، ما زالت تعتبرني غير أهل، لأكون رفيقاً مساوياً لها.

شعرت لُور بي، من دون أن أتكلَّم، ونظرتْ إليَّ بحُنُوٍّ وهي تمسك يدي، وتخفيها، وهي تضغط عليها بين يدها، وقالت:

- اسمع، سأُخبركَ شيئاً، فقصَّتي مع الفدائيِّ جبر لم تنتهِ، وقبل مغادرتي إلى القصر، أعطاني مَحْرَمَة مغموسة بالدماء، وأخبرني بأنها دماء زميل له، استُشهد بعد أن تمكَّنت المجموعة من اجتياز نهر الأردن، وتعرُّضها لإطلاق نارٍ كثيف، وعندما أُصيب الفدائيُّ، طلب من جبر أن يخرج مَحْرَمَة من جيب بنطاله، ويغمسها في دمه، ويذهب إلى المسجد الأقصى، ويغسلها، لتشرب التربة دمه، كما أحبَّ وأراد، عندما نزل في الدوريَّة مع رصفائه الفدائيِّيْن، بعد أن يقتل ما يستطع من الجنود الإسرائيليِّيْن، ولكنَّ الله لم يرد، ولتدابيره الاحترام الواجب.

قلتُ لها مندهشاً:

– الآن فهمتُ. إنه لقائي الأوَّل معكِ، وبدون موعد أو تعارف مسبَّق.

- أترى؟! ما جمعنا هو مهمَّة فدائيَّة، حتَّى لو كنتُ أخفيتُ عليكَ الأمر في حينه، فأنتَ كنتَ جزءاً من المهمَّة، يا رفيقي العزيز ..!

شعرتُ لوهلةٍ، بأنها في ذلك اليوم، عندما ذهبنا إلى المسجد الأقصى، استغفلتْني، وجعلتْني جزءاً من مهمَّتها، ولكنني سرعان ما بدَّدتُ سوء الظنِّ، وأنا أُعجب بذكاء لُور المدهِش، وهي تحتوي زعلي، بكلِّ هذه السلالة، وتترك أثراً لا يُمحى، وأنا أتساءل: ماذا تخبِّئ أيضاً هذه البنت من أسرار؟

وواصلنا المسير، نتنفَّس حبّاً، وأسراراً، كفدائيَّيْن حقيقيَّيْن ..!

السابع

وقفنا أمام طَنْطُوْر فرعون، تمُسك لُور يدي بيدها، كما أفعل الآن مع ولدي، تضرب الذكريات جوارحي، وكأنها ليست ذكريات، وإنما أحداث حدثت أو ستحدث للتوِّ.

وقفنا في مواجهة الضريح الضخم، غير آبهين بالزوَّار الذين يمشون في وادي جهنَّم، مقتفين آثار الأنبياء القدامى، بعضهم يلتقط الصور، والبعض الآخر يمشي خفراً وكأنه في حضرة آلهة، لا يتوجَّب إزعاجها، وإلَّا فإنها لن ترتدع عن انتقامها، وعندما لم نرَ دخاناً، سألتْ لُور بتشكيك:

- أين وجدتَهُم؟ هل أنتَ متأكِّد أنهم كانوا هنا؟

– نعم، إنهم خلف الطَّنْطُوْر.

تسلَّقتُ أمامها الصخور، وتبعتْني وهي تمسك بي، فلم أرَ أحداً من الأربعة، ولكنني هتفت:

_كانوا هنا ..!

صدَّقتْ لُور على كلامي، ونحن نجوس في المكان الذي رأيت فيه النَّشَّابين الأربعة، وهم يطرقون الحديد مستوياً، ويحدِّدون رؤوس السهام، ويدبِّبونها، كي تستقرَّ بعد إطلاقها في الصدور، فتُدمي وتجرح وتقتل. يا لجرأتهم، وقوَّة مبادرتهم!

كان للموقع رائحة الحديد، والنشاشيب، التي تمَّ إخفاؤها. قدَّرتُ بأن الأربعة غادروا الموقع، ليعودوا إليه لاحقاً، غداً أو بعد غد لإكمال عملهم،

وفجأة وقعت عيناي على الأرض، فرأيتُ سهماً غير جاهز، فالتقطتُهُ، وأريتُهُ لِلُور، لتصدِّقني. في تلك اللحظات ما همَّني هو أن تُصدِّقني، وأن تعلم بأنني لم أكذب عليها، وبأنني وإيَّاها سنصبح بانضمامنا للأربعة من الفدائيِّيْن الحقيقيِّيْن الفاعلين، دون انتظار مرسال من وراء النهر، كما تنتظر هي، وأنه بإمكاننا أن نقرِّر لأنفسنا أسماءنا الحركيَّة، ونضع خططنا، وننفِّذها. دُرْنا في الموقع، نشير إلى بقايا النار، ونتمتم ونهمهم متحمِّسَيْن، وما همَّني هو البحث عن المكان الذي خبَّؤوا فيه الأسهم، تملَّكتْني رغبة جامحة في رؤية تعابير وجه لُور وأنا أُريها الأسهم التي صنعها أولاد من قريتنا، لم تنقصْهم الحماسة، ولا الذكاء ولا الإرادة. وبشكلٍ غير متوقَّع أبداً، سمعتُ لُور تطلب منِّي أن أهرب، بدا أمراً حاسماً لا يُناقَش، ولا أعرف كيف جرت الأمور، وجدتُ نفسي أقفز عن الصخور، وأركض في وادي جهنَّم، شاعراً بأن طَنْطُوْر فرعون يركض خلفي متثاقلاً، يحول بيني وبين مَنْ توقَّعتُ أنهم يركضون خلفي، وأن المسافة بيننا مع استمرار الركض تتباعد، وبعد أن قدَّرتُ بأنني أصبحت في أمانٍ، جلستُ خلف صخرة صغيرة، والتفتُّ إلى الخلف، وهالني ما رأيتُ؛ كان متديِّنون يهود يقبضون على لُور، ويسيرون بها باتِّجاه الجُثْمَانِيَّة، كما فعل جنود رومان قبل ألفَي عام بالسيِّد المسيح، حيث يوجد رجال شرطة، كما خمَّنْتُ

الثامن

بالطبع، لم أجد البروفيسور عازار، يُنقِّب خلف الأسوار، لقد رحل ولن أعرف أين دُفن؟ هل دُفن في جبل الزيتون، ليكون من أوائل المستيقظين يوم الدَّيْنونَة؟ ولكنني، ويا للمفاجأة! التقيتُ حفيدته دكتورة الجامعة العبريَّة أستير، تحفر قريباً من حَفريَّات جَدِّها، وبعد أن تعارفنا، أخبرتْني بأن التوفيق حالفها أكثر من جَدِّها، الذي بحث عن آثار ملوك الإسرائيليِّيْن، فكشف عن دار الإمارة الأمويَّة - كما قالت باسمة، وأضافت ضاحكة:

– عليكم أن تكونوا ممتنِّين لنا، فلولانا لما علمتُم عن مدى اهتمام أجدادكم الأمويِّيْن بالقُدْس.

قلتُ:

- إنها لفتة العدوِّ..!

بدت أنها لم تفهم، كما ظهر على تعابير وجهها، فقلتُ، وأنا أتذكَّر الشيخ عبد ربِّ النبي:

- أبدى الكاتب الدرامي إيسخسيليوس تعاطفاً مع الفُرْس المهزومين، في حربٍ، كان هو مشاركاً فيها، وحتَّى ربّ العهد القديم، كثير الغضب والزعل، أشفق، على نينوى الكافرة، وعطف على شعبها وبهائمها.

ضحكتْ، ويبدو أنها لم ترغب بأخذ الحديث بهذا الاتِّجاه، فقالت، بأنه يَسُرُّها أن تناقش مكتشفاتها مع عربيٍّ من أبناء البلاد، خصوصاً وأنه قد يصبح زميلاً لها في الجامعة العبريَّة.

قلتُ لها مازحاً:

- منذ الآن سأعتبركِ زميلة، رغم أنكِ تبحثين، بشكلٍ غير شرعي في أرضنا، وبدون إذن منَّا ..!

ردَّت:

– عليكم أن تشكروا حفرياتنا غير الشرعيَّة، لِمَا كشفتْهُ لكم ولنا ..!

ثمَّ بعد أن تمعَّنَتْ في وجهي، قالت:

– لا تبدو بوجهكَ الأحمر المدوَّر، وشَعْركَ الأبيض، كعربيٍّ ..!

رددتُ بعفويَّة:

- وأنتِ لا تبدين، بوجهكِ القمحيِّ الصغير، كيهوديَّة ..!

ضحكتْ، فضحكتُ، وأنا أنقل الحديث:

- تعلمين؟ ثمَّة علاقة بين أستير، أستيركم، وشهرزادنا.

– يتردَّد ذلك بين الفينة والأخرى، ما أكثر نبش الباحثين!

- أدرس الأمر الآن، في بحث أعدُّه عن النساء عندما يضطلعنَ بالمهمَّة؛ الحفاظ على نُسْغ الأغصان، ونقل الجينات الثقافيَّة.

ذكَّرتُها بالنقاشات التي كانت تجري في هذا المكان بين الشيوخ وجَدِّها، وكأن أكثر من ثلاثين عاماً لم تمرّ، ولم تُغيِّر ناس الأرض المقدَّسة، ناسنا، وناسهم، ولم أذكر لها بأنني أتذكَّرها عندما كانت تأتي مع جَدِّها، طفلةً شغوفةً بالحفريَّات والآثار.

احتجَّت الدكتورة أستير، وقالت بأنه لن يأتي يوم يمكن أن نقدِّر فيه أهمّيَّة الأرض بالنسبة إلى اليهود، وارتباطهم بها، مؤكِّدة بأن في كلِّ يهوديٍّ بالعالم تسكن أُوْرُشَلِيْمْه الخاصَّة به، تردِّد رجع صدى دبيب الملوك القدامى في صدره.

- قد يكون هذا الكلام صحيحاً، ولكنَّ المسألة تتعلَّق بالاستعمار، أنتم دولة استعمار، وكما حال كلِّ استعمار، تتولَّد لديه رؤى وروايات، وفيما يخصُّ فلسطين، فإن كلَّ غازٍ أو فاتح، يأتي حاملاً السلاح بيدٍ، وكتاباً مُقدَّساً بيدٍ أخرى.

– ولكنْ، نحن لدينا فعلاً كتاباً مقدَّساً، ووعداً إلهيَّاً.

- لا تعطي الكُتُب المقدَّسة، أيَّة كُتُب مقدَّسة، لشعبٍ، أيِّ شعب، الحقَّ في أرض شعبٍ آخر.

بعد لحظة صمت، كتمتْ فيها، كما توقَّعتُ كلاماً أرادتْ قوله، قالت بهدوء:

– دعنا نتجاوز الأمور السياسيَّة، فلن نصل إلى نتيجة، وتعال لأُريكَ ما اكتشفتُهُ من أسوار وجدران ولُقَى، ولا أطلب منكَ أن تعلِّق، فأنا أعرفكم، أيُّها الأكاديميُّون، تُشكِّكون في كلِّ شيء، وفي أيِّ شيء، وعندنا أواجه من الأكاديميِّيْن معارضة وتشكيكاً أكثر من عندكم، لقد قتلتْهم الغَيْرَة، يقولون بأنني مدلَّلة المجتمع الأكاديميِّ، وإنه تتوفَّر لديَّ إمكانيَّات، بينما هم محرومون منها، فأردُّ: وماذا في ذلك؟ مَن يسعى يجد.

أُمسكُ بيد ابني، مشفِقاً عليه، وهو يتعرَّف تدريجيَّاً على المكان الذي نشأ فيه والده، وما زال كما تركتْهُ، وكأنه برميل بارود لا يتوقَّف عن الانفجار. سرنا خلف أستير القصيرة الممتلئة، وكأن والدي يمسك بيدي ويجادل البروفيسور عازار، ما الذي تغيَّر؟ قد يتغيَّر العالم آلاف المرَّات، ولكن هذه الأرض التي تسكنها الأساطير، لن تتغيَّر، ستُعيد دائماً إنتاج ذاتها.

توقَّفت أستير أمام حفرتَيْن في الأرض، هما أقرب إلى قريتي القديمة، من أسوار القُدْس وقالت بثقة: «غرفتان معقودتان من أيَّام الهيكل الثاني، وهما جزء من مبنى عامٍّ ...».

لم أعد أسمع ما تقول أستير، سرحتُ وأنا أنظر إلى منازل قريتي، وأضغط على يد ابني، وأتساءل إذا كنتُ واثقاً فعلاً بأنني أريده أن يعيش في هذا المكان، من بين مختلف الأمكنة في أرجاء المعمورة، التي يمكن أن يعيش فيها. إذا لم أختر أنا مكاني، فليختر هو، ويقرِّر، لن أفرض عليه شيئاً، ليبحث عن خلاصه وحده.

طلبت منِّي أستير، التي لا تَكِلُّ ولا تَمَلُّ من نشر آرائها وتأويلاتها الأثريَّة، أن أتبعها، لتُريني آثار الهيكل الأوَّل، وقالت بأنها تقترح، ربطها بباب الماء المذكور في سِفْر نَحَمْيَا.

ضحكتُ، وأنا أقول لها: «بالله عليكِ، يا دكتورة، أيَّتها الزميلة، لا تُوقِظي الموتى، دعيهم يستريحون، ينتظرهم يوم حساب صعب، استعدُّوا له مسبَّقاً» وأشرتُ إلى مقبرة جبل الزيتون.

ضحكت أستير: «هل تعلم؟ فقط اليهوديُّ الغنيُّ، من أيِّ مكان في العالم، هو مَنْ يستطيع أن يسبق غيره، إلى الجنَّة، يوم الدَّيْنونَة».

قلتُ وأنا أتذكَّر تحذير والدي: «ما الذي يجري؟ تتمدَّد المقبرة اليهوديَّة على جبل الزيتون، لتحتلَّ المشهد، وإذا استمرَّ الدفن فيها الذي يمُنَع أن يكون عموديَّاً، فستتحوَّل القُدْس كُلُّها إلى مقبرة».

قالت أستير: «هل تعلم كم يكلِّف القبر الواحد؟ نحو عشرين ألف دولار في الحدِّ الأدنى، ويصل إلى أكثر من مئة ومئتَيْن ألف دولار حسب قُربه أو بُعده عن جبل الهيكل، تُخوِّل دافعها إلى أن يتمتَّع بحيِّزه الخاصِّ، الذي سيسمح له ركوب حماره، عندما يرث الله الأرض ومَنْ عليها، ويتوجَّه إلى جبل الهيكل، ليقدِّم حسابه، ويدخل إلى الجنَّة».

سألتُها: «هل يشمل المبلغ الذي يدفعه ضمان أن يكون الأوَّل الذي سيُبلَّغ بالنهوض من نوم الموت العميق».

أجابت: «لا أعرف، لن أكون مِن الذين سيتشرَّفون بالدفن على جبل الزيتون، إمكانيَّاتي لا تسمح، أنتَ تعلم ما يمكن أن يتقاضاه أُستاذ في الجامعة، نحن نكشف للأحياء عن آثارهم القديمة، ونُطمئن الموتى، على أنهم دُفنوا في المكان الصحيح نسبة إلى جبل الهيكل، عموماً لا تذهب بالفرح بعيداً على هَبَلنا، فلا تختلف التصوُّرات الإسلاميَّة والمسيحيَّة كثيراً، عن اليهوديَّة، حول أوَّل مكان سيبعث به الله، خلقه، ولكنَّ الأمر المبهج لكم، أن التمتُّع بموتٍ قريب من مكان البعث غير مكلِّف لدى المسلمين والمسيحيِّيْن، وتقولون بأننا احتلال سيِّئ، لقد تركنا لكم الكثير من المقابر».

- ونحن أيضاً فعلنا ذلك، لا تنسي بأن مقبرتكم هي في الأصل ضمن أراضي الوقف الإسلاميِّ.

– مَنْ يمتلك البلاد يحدِّد ما هو الوقف من غير الوقف، يقرِّر ما يريد، ونحن الآن أقوياء، وهي فرصتنا لنحدِّد، ونختار، ونقرِّر، وننفِّذ، حتَّى إننا نعرف مَنْ سيسبق مَن إلى الجنَّة وإلى النار.

اندفعتُ معها في حديث الجنَّة والنَّار: «مَن سيسبق مَن إلى الجنَّة؟ السلطان سليمان، مالك رقاب الأمم، تحسَّب إلى مسألة الأسبقيَّة، فأخرج من سور المدينة الشرقيِّ عاموداً، ليتمكَّن مَنْ سيضطلع بربط الصراط، في السُّور، أن يفعل ذلك بدون عوائق لوجستيَّة، على الأقلِّ، لدينا دهاء يقارب دهاء اليهود».

اصطنعتِ الجدِّيَّة: «المقابر في القُدْس لا يعرف أحد عددها، ويمكن لباحث أن يكتب تاريخها من خلال مقابرها».

قاطعتُها: «وربَّما يقترح أن يضاف إلى أسماء القُدْس التي لا تُعدُّ، اسم مدينة المقابر. هكذا يحوِّل البشر، أبناء الديانة الإبراهيميَّة، مدينتهم المقدَّسة، إلى مدينة المقابر. مضى الزمن الذي كان يمكن للقُدْس فيه، أن تكون مدينة عاديَّة، بِلا خوف وبلا أسوار ..!».

قالت: «لا تقلقْ، هي الآن بلا أسوار فعلاً؛ موحَّدة، طالما ستبقى، وهي باقية بأيدينا».

واستدركتْ: «لا .. ربمَّا علينا القلق، شارون سيزور غداً جبل الهيكل ...».

قاطعتُها: «تقصدين المسجد الأقصى».

ردَّت: «جبل الهيكل بالنسبة إلينا هو المسجد الأقصى بالنسبة إليكم، سَمِّه كما شئتَ، المهمُّ أن لا تؤدِّي زيارة شارون إلى اندلاع العنف».

وفجأة أرادت تغيير الموضوع، فسألت ساخرة: «ترى مَنْ الذي سيُبعث أوَّلاً مِنْ هذا الوادي نبيُّنا أم نبيُّكم؟».

قلتُ لها: «تعرفين؟ المسألة كانت جِدِّيَّة بالنسبة إلى المسلمين الأوائل على الأقلِّ، وذُكر ذلك في التراث الديني، عندما جاء يهودي إلى النبي محمَّد، يشكو مسلماً لطمه على وجهه، لأن الاثنَيْن اختلفا وسبَّا بعضهما، فالمسلم اعتبر أن محمَّداً هو مَن اصطفاه الله على العالمين، فاعترض اليهودي مؤكِّداً أن الله اصطفى موسى على العالمين، ويبدو أن المسلم كانت لديه نوازع عاطفيَّة زائدة، فلطم اليهودي، الذي جاء النبي محمَّداً نفسه شاكياً، فأبدا النبي سماحةً ولطفاً تجاه زميله النبي موسى قائلاً: لا تُخيِّروني على موسى، فإن الناس يُصعقون يوم القيامة، فأُصعق معهم، فأكون أوَّل مَنْ يفيق، فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدري: أكان فيمَنْ صُعق، فأفاق قبلي، أو كان ممَّنْ استثنى الله».

ضحكت أستير مشكِّكة، متسائلة: من أين تأتون بهذه الحكايات

التاسع

تجوَّلتُ في الموقع، وأنا أُري ابني، كيف تبدو قرية والده، هناك في الأسفل عند النبع والبِركَة، وأرى، لأوَّل مرَّة، الحفريَّات الأثريَّة الإسرائيليَّة، في الجهة الأخرى من الشارع، أعلى وادي حُلْوَة.

أخَّر أبو حنيك الإنجليزي، قائد الجيش الأردنيِّ، كتيبةَ عبد الله التلّ يومَيْنْ في الخان الأحمر، منطقة خان السلاونة، وعندما دخلت القُدْس، كانت العصابات الصهيونية، قد أجهزت على الأحياء الجديدة في القُدْس الجديدة، كالطَّالِبيَّة، والبَقعتَيْن الفوقا والتحتا، وتلّ بيوت، والمستعمرَتَيْن الألمانيَّة، واليونانيَّة، ومحطَّة قُدْس شريف، وأجزاء من الثوري.

أدرك التلُّ، الذي أنقذ البلدة القديمة، بعد وصوله، بأن خاصرتها المميتة هي الأحياء الشماليَّة، من جبل النبي داود، إلى الثوري، فجبل المُكَبِّر، ورَمَات رَاحِيْل، وكُلُّها تحيط بقريتنا، فجمَّع المتطوِّعين الكُثر، غير المنظَّمين، الذين كانوا يهبُّون إلى كلِّ موقعة، مثل جَدِّي، وعيَّن على رأسهم عسكريَّاً محترفاً ضابطاً من الجيش، ونشرهم في جبل النبي داود، والمناطق المجاورة، واستعدُّوا، ومعظمهم من قريتنا والقرى المجاورة، للذود عن المواقع، التي إن احتلَّها اليهود، فستكون قريتنا، في مَرمَى نيرانهم، وهو ما كان ليقبله أيٌّ من الأهالي. كيف يمكن العيش مع الموت المهدِّد في كلِّ حين؟!

صدُّوا هجوماً يهوديَّاً، وكلُّهم حماس، ولكنْ، في النهاية، تغلَّبت القوَّة المدجَّجة، بعد وصول الأسلحة التشيكيَّة لهم، ومعها جنود تشيكيُّون

يحاربون إلى جانبهم، فسحقوا سرايا المتطوِّعين، الذين وصلوا القرية، ليلاً خائبين منكِّسي الرؤوس، ولكنَّ النساء، وإن كنَّ لا يشاركنَ في الحروب، كالرجال، إلَّا أنهنَّ أكثر استشعاراً للأخطار منهم، فخرجنَ ليلاً، تقودهنَّ حُلْوَة زوجة المختار، التي عُرفَت كمسترجلة، وأخت رجال، وانتشرت بين المهزومين المنكوسين الخجولين، المطعونين في رجولتهم، تحثُّهم على العودة، إلى الجبل، وصرخت حُلْوَة: «ستنكشف نساؤكم للغرباء، ومَنْ يدري ماذا سيفعلون بنا؟!»، وتابعت تصرخ: «كيف ستَسودُّ وجوهكم أكثر من سواد هذا الليل، عندما ترونهم، يأخذون مكانكم في فُرُش زوجاتكم؟». عزفت حُلْوَة، على الوتر الحسَّاس للرجال الشرقيِّيْن، وأخذت تردِّد وخلفها النساء يردِّدنَ: «يا حيف، يا حيف على الرجال»، فهبُّوا مرَّة أخرى، وصَعِدُوا إلى الجبل، لتطهيره من جديد، تحرِّكهم قوَّة داخليَّة هائلة، بثَّتْها كلمات حُلْوَة، ولم يدروا وهم ينجحون في تحرير الجبل، أن رصاصة انطلقت من المندحرين اليهود، أصابت حُلْوَة في مقتل.

حرَّر رجالنا الجبل، ولكنَّ ذلك لم يكن إلَّا مؤقَّتاً، جمَّع اليهود وحلفاؤهم أنفسَهم، مرَّة أخرى، مدجَّجين بالأسلحة التي وصلتْهم، ودحروا رجالنا إلى وادينا مرَّة أخرى، ولكنْ، هذه المرَّة لم تكن هناك حُلْوَة، لتصرخ: يا حيف، وجرت معارك على امتداد الطريق إلى بَيْت لَحْم، وفي جبل المُكَبِّر، حيث قصر المندوب السامي، لم يعرف بضعة رجال كيف يهربون، وينسحبون، فقبض عليهم المتطوِّعون المصريُّون، ليكتشفوا بأنهم من الجنود التشيك، لماذا أتوا ليُحاربونا؟

كانت الأوامر، التي أصدرها ستالين للتشيك، بتزويد العصابات الصهيونية، بالأسلحة. ولماذا يأمر ستالين بذلك؟ هل بينه وبين قريتنا ثأر بائت، لتجعل أسلحته اليهود يسيطرون على الجبل، ويهدِّدوننا دائماً؟

لم يأمر ستالين، بتزويد العصابات الصهيونية بالأسلحة، بل أيضاً بالجنود، رفاق التشيك، أتوا ليساعدوا في طردنا من أرضنا.

عندما توقَّفت المعارك، سمَّى عبد الله التلّ وادينا وادي حُلْوَة، وأقرأ الآن من موقعي اسم حُلْوَة باللغتَيْن العربيَّة والعبريَّة، على الإشارات التي وضعتْها بلديَّة القُدْس الإسرائيليَّة، فبلديَّة المحتلِّين التي تغزو أرض قريتنا بالمستوطنين، وتُسكنهم في منازلنا، وسط منازلنا، تُبقي على الأسماء القديمة. هل هي لفتة عدوٍّ أم قبول مؤقَّت؟ تُبقي على أسماء مثل حُلْوَة، وصيام، وقرَّاعين، ولكنها تهوِّد البِرْكَة والعَيْن والنفق، وتعلن محيطها جيباً استيطانيَّاً، باسم مدينة داود.

لا أعرف إذا كان ابني فهم كلَّ ما رويتُهُ أم لا؟ ولم يسأل مثلما كنتُ أسأل، ربَّما أجَّل الأسئلة لحين عودتنا إلى الفندق، أو أنه لم يستوعب بعد عالم والده، الذي يراه لأوَّل مرَّة.

وفجأة وفي لحظةٍ ضربت الخطوط الصدئة مجسَّاً في مُخِّي، وعندما بدأتُ أفهم الأمر، قدَّرتُ بأنْ لا أحد يمكن أن يقدِّر قوَّة العلامات، لا المغلوب، ولا الغالب.

في ما تُسمِّيه دولة الاحتلال، أمامي، موقف جفعاتي، على قمَّة وادي حُلْوَة، وعلى بُعد عشرين متراً عن سور القُدْس، تؤكِّد الدولة التي أشرفت على الحفريَّات، التي كشفت عن آثارٍ مهمَّة، تعود لحقبٍ متعدِّدة، ما سبق أن أكَّدتْهُ الحفريَّات بأن القُدْس القديمة؛ أوَّل قُدْس، بُنيت على كتف وادي حُلْوَة.

كتبتِ الدولة على آرمات صفراء باللغتَيْن العبريَّة والإنجليزيَّة، بأن الحفريَّات التي تجري منذ سنوات في الموقع، هي حفريَّات إنقاذيَّة لبناء موقف سيَّارات، لزوَّار الجيب الاستيطاني مدينة داود، الذين يصلون

للدخول إلى المرفق السياحي، والنزول إلى مدخل نفق عَيْن سِلْوَان، وتجربة السير في نفقنا، والوصول إلى بِرْكَتنا.

في موقف جفعاتي لا يتوقَّف العمل، ولا التهويد، ويأتي إلى الموقع قادة دولة الاحتلال الكبار، ومتطوِّعون صغار وكبار، والجموع مفعمة بروح الملك داود، والحقد على أهالي قريتنا، والاعتداء عليهم، وأخذ منازلهم، ولكنْ، أيٌّ منهم لا يرى الآرمة الصغيرة، المثبَّتة أعلى عمود، كان في زمنٍ قريبٍ، على الشارع، والآن داخل الموقع المحتلِّ، والتي تشير إلى واحدةٍ من علامات آخر مَنْ سكن قريتنا، ذات التاريخ التليد، وما زالوا حتَّى اليوم؛ شركة باصات سِلْوَان - الثوري، مع، ويا للفخر! رَقْم الخطِّ: 76.

أستطيع رؤية كيف أن الآرمة صدئت، من تأثير العوامل الجويَّة، ولكنها ما زالت قادرة، حتَّى الآن على الأقلِّ، لتحدِّي الدولة القويَّة، التي حاول والدي هزمها، ولكنها غير قادرة على مواجهة آرمة المقهورين التي طالها الصدأ.

وجدتُ نفسي أصرخ: «لتحيا السيمياء ..!»

وأعادتْني الآرمة إلى زمني؛ عندما كنتُ صغيراً، ومحبوباً.

العاشر

لا أعرف إذا سمعت أستير صرختي أم لا؟ ولكنني انتبهتُ إليها تطلب منِّي الاقتراب منها، لتقول لي: «أتعرف لماذا أنا مندفعة معكَ في الحديث؟ لقد ضحك الحظُّ أخيراً لي، عندما أعلنتُ بأنني اكتشفتُ قصر الملك سليمان، شكَّك باكتشافي، زملائي المحترمون، فلم يريدوا أن يكونوا محترمين معي، ولكنْ، كيف سيكون موقفهم عندما أُعلن عن أمر الاكتشاف الذي يمكن أن يحدث للمرء مرَّة واحدةً في العُمُر؟ تعال لأريكَ ما اكتشفتُهُ.

وقادتْني إلى تحت الزاوية الخَتَنِيَّة التي تظهر كنتوءٍ في سور القُدْس الجنوبيِّ، وطلبت من شابَّة ترتدي الشورت، أن تفتح صندوقاً، وعندما فعلت ظهر ما وصفتْهُ أستير: «كَنزاً يعود للعصر البيزنطيِّ».

أسعدني رؤية المشغولات الذهبيَّة، وأنا أتابع ما تفعله أستير، وهي تحمل سلسة ذهبيَّة لشَمْعِدَان، يحمل رموزاً يهوديَّة، وعملات ذهبيَّة متعدِّدة، تحمل صور أباطرة بيزنطيِّيْن.

لم تعجبْني رطانة أستير الأيديولوجيَّة، وقلتُ لها: «إن وجود الشَّمْعِدَان، في تلك الفترة المتأخِّرة من الحقبة البيزنطيَّة، لا يبدو غريباً، ويمكن أن يكون مستخدماً كحِلْيَةٍ في المجتمع البيزنطيِّ المسيحي المحلِّيِّ».

ولكنها ردَّت بسرعةٍ وحِدَّة، كشفت لي عن وجه آخر لأستير غير الوجه الباسم: «لا أعرف ما هي مصلحتكم في التقليل من الشأن اليهوديّ في

هذه البلاد؟ إن وجود هذه السِّلْسِلَة يعكس الحضور التاريخي لليهود في المنطقة».

وأضافت: «عليكَ أن تُقدِّر حرص اليهود، الذين خبَّؤوا هذا الكَنْز الذهبيَّ، في حُزمةٍ واحدةٍ بعنايةٍ تحت الأرض، إضافةٍ إلى حُزمةٍ أخرى متناثرة على الأرض، ممَّا يشير إلى أنه تمَّ التخلّي عنها في عجلةٍ من أمر أصحابها، ربَّما كانوا مطارَدين، كما هو حال اليهود دائماً، ولكنهم، لا ييأسون، ويظهرون، مرَّة ومرَّات أقوى ممَّا قبل، ممَّا يجعل الأقوام الأخرى، تحسدهم، وتطاردهم من جديد».

قلتُ لها، وأنا أتذكَّر أسئلتي لوالدي وأنا طفل: «اليهود أصحاب الكَنْز، هم فلسطينيُّون، نعتزُّ بهم، وما حدث لهم من آلام مفترَضة هي آلامنا، التي ما زلنا نعاني منها».

قهقهت أستير، وهي تشير إليّ قائلة: «أنتَ محرِّف كبير، يا خبيبي، تريدون الاستحواذ على آلامنا أيضاً، لا يوجد قوم مثلنا في العالم، وعلى مدى التاريخ، قد تألَّمتم مثلما تألَّمنا، ولكنكم ليس فقط لا تريدون الاعتراف بذلك، وإنما تقلِّدوننا».

سألتُها: «كيف؟»

أجابت: «مثلاً عندما تقولون بأن ما تعرَّضتم لهم على أيدينا، هولوكوست، ماذا تعرفون أنتم عن الهولوكوست؟ ما أصابكم منَّا، مهما عظم، لا يمكن وصفه بأنه هولوكوست، الهولوكوست كان من نصيبنا نحن، وليس مجرَّد هولوكست فقط واحد، مثلما حدث مع هذه العائلة اليهوديَّة المسكينة التي خبَّأت ما استطاعت من ذهبها، لتعود إليه لاحقاً، بعد الغزو الفارسي للقُدْس في القرن السابع الميلاديِّ، ولكنهم لم يعودوا، حتَّى جئتُ أنا، لأكشف ليس فقط عن الكَنْز، ولكنْ، عن تلك القصَّة الحزينة، والمؤلمة من تاريخنا الممتدِّ، والمعمَّد، بالكوارث والبطولات».

وجدتُ نفسي متورِّطاً في نقاشٍ لم أُرده، يسمعه ابني، مثلما كنتُ أسمع ما يدور بين الشيوخ وجَدِّ أستير: «ولكن المدوَّنات التاريخيَّة تشير إلى دعم يهود فلسطين البيزنطيَّة للغزو الفارسي، فكيف يمكن أن يكون تأويلكَ منطقيَّاً؟»

يبدو أن أستير تعبت من نقاش هذا الأكاديميِّ، الذي ظهر لها فجأة، والآتي من بلادٍ بعيدة، ليواصِل نقاشاً، بدأه أسلافنا، وهي تعلم، كما أعلم، بأنَّه لا نهاية قريبة له.

بعد فترة صمتٍ، خِلتُ أنها تفجَّرت من جديدٍ: «بعد غزو الفُرس القُدْس، عاد الكثير من اليهود إلى المدينة، وشكَّلوا غالبيَّة سكَّانها على أمل الحصول على الحرِّيَّة السياسيَّة والدينيَّة؛ ولكنَّ السلطة الفارسيَّة، بدلاً من تشكيل تحالف مع اليهود، سعت لدعم المسيحيِّيْن، وسمحت لهم في النهاية بطرد اليهود من القُدْس».

قلتُ: «لا أرغب أبداً بتبديد فرحكِ بكَنزكِ، الذي استخرجتيه من أرضنا، ولكنَّ ما تقوليه يبدو غريباً، مع حقيقة الحرب التي قادها الإمبراطور البيزنطيُّ المسيحيُّ هرقل ضدَّ الفُرْس لاستعادة القُدْس. فيما كانت قوَّة جديدة تطلُّ برأسها من الجزيرة العربيَّة، تتابع ما يجري، وهو ما يمكن استشفافه من سورة الروم في القرآن الكريم، التي تنبَّأت بانتصار الروم، ثمَّ هزيمتهم، وهو ما حدث على يد المسلمين».

قالت: «دعنا من انعطافات التاريخ الكبرى، واسمع ما أعتقده حول هذا الكَنْز، أعتقد بأنه قد يكون مخصَّصاً للمساهمة في بناء كنيس يهوديٍّ جديد بالقرب من جبل الهيكل، إلَّا أنه بسبب الظروف السياسيَّة تمَّ التخلِّي عنه للأبد».

سألتُ: «وهل يكفي كَنزكِ، لبناء الهيكل؟».

أجابت: «أنا قلتُ إنه مساهمة من عائلة أو عائلات، وعموماً فإنه كَنز حقيقيٌّ، مكوَّن من ستٍّ وثلاثين قطعة نقديَّة، تعود إلى عهود أباطرة بيزنطيِّيْن مختلفين، بدءاً من منتصف القرن الرابع الميلاديِّ إلى أوائل القرن السابع الميلاديِّ، إضافة إلى زوجٍ من الأقراط الذهبيَّة الكبيرة، وسبيكة فضَّة، وغيرها، انظرْ إليها، وقَدِّرْ ما يمكن أن تكون قيمتها بأرقام اليوم».

سئمتُ النقاش مع أستير، ولم أرد أن أقدِّر كنزاً ذهبيَّاً، ظهر في أرضٍ، فَلَحَهَا في يوم ما أجدادي، ولم يكن لديهم الحظُّ الكافي للعثور عليه، أو على غيره، حتَّى أتت أستير، لتقول ما تريده، وتحيطه ببروغندا طاغية.

قدَّرتْ هي بأني سئمتُ من الموقع، فكانت كلماتها الأخيرة المودِّعة، إيذاناً، بإنهاء اللقاء، فتصافحنا، على أمل اللقاء في يومٍ ما، ربَّما في الجامعة العبريَّة، زميلاً لها، كما تمنَّت: «لدينا الحُرِّيَّة الأكاديميَّة أفضل من دولكم العشرين أو الأكثر من ذلك، اعذُرني لستُ مختصَّة بالشؤون العربيَّة، ومن بينها السلطة الفلسطينيَّة، ألم تسمع كيف يعتقل عرفات الكُتَّاب، والصحافيِّيْن، والأكاديميِّيْن؟!».

كيف تتشكَّل مقادير البشر؟ ربَّما لو لم يأتِ قوم أستير ويسيطروا على القُدْس، لربَّما كانت تحفر في مكان ما في أوروبا أو أميركا، وتبني سيرة أكاديميَّة بعيداً عن أساطير الأرض المقدَّسة، وربَّما ما كنتُ أنا تغرَّبتُ، ولكنتُ أدير بدلاً منها حَفريَّات آثار عاديَّة في هذا المكان.

لو لم تُحتَلّ القُدْس، لَمَا مات والدي في السجن، وعلى الأرجح كانت أُمِّي ستعيش، وتُعمِّر، وتصبح عجوزاً، تهتمُّ بأحفادها، بعد أن تُنهيَ دَوْرها في تربيتي، ولكنَّ هذا بالطبع لم يحدث، تدهمني صورة أُمِّي، وأنا أفكِّر كيف سأروي ما حدث لها لابني الصغير.

الحادي عشر

تغيَّرت حياة أُمِّي، بعد ذلك اللقاء الجامح مع والدي، خلال زيارته في السجن، الذي أعلنتْ فيه رغبتها بانفصالها عنه، وهو الأمر الذي لم يتوقَّعه أحد، وأعتقد الآن، بأنها استغربت من نفسها وهي تطلب ذلك بكلِّ جرأة. أحياناً لا ندرك ما يمكن أن يخرج منَّا، ولا كُنْه الكامن فينا، ويمكن أن نعبِّر عنه بإرادة قويَّة وصُلْبة، تجعل الواحد منَّا يدرك ما تُخبِّئه ذاته في ثناياه الداخليَّة، دون أن يعرف، أو يقدِّر.

أرادت العيش، بعد ما اعتبرتْهُ تخلِّياً من شريكها عنها بطريقتها؛ أن تعمل وتكسب وتُربِّي ابنها، وتستكمل سيرة عائلة، غاب معيلها، وسيطول غيابه، وهي لا تستطيع لَأْمَ ما اعتبرتْهُ جرحاً أصاب كرامتها، ولم تستطع استيعاب، كيف يمكن لشريكها أن يقرِّر مصير عائلته، هكذا وبكلِّ هذا العنفوان، بدون أخذ رأيها؟!

ولكنها لم تُكرِّهني بوالدي، بل حرصتْ، على أن أزوره في السجن، وأجلس قُبالته، يفصل بيننا شَبَكٌ معدني، يسألني عن أخبار الخارج، ويبثُّ فيَّ ما يستطيعه من أفكار، خصوصاً مع بدء تحوُّله إلى الفكر اليساريِّ، واقتراحه عليَّ، قراءة بعض الكُتُب، التي تكفي أسماؤها، لتُقلِق فتى بعُمُري، مثل كُتُب لينين عن الدولة والثورة، والبلاشفة والمناشفة، وكتاب إنجلز عن أصل العائلة والمِلْكِيَّة الخاصَّة والدولة، ولكنْ كيف لمثلي يمكن أن يحصل عليها؟ فيجيب: مَنْ يبحث يستدلّ.

واستدللتُ ..! عرفتُ طريقي، بخفرٍ، ووَجَلٍ، إلى تلك الغرفة الصغيرة، التي يدلف إليها من خلال رواق واسع، وتضمُّ مجموعات من الكُتُب الحمراء

التي أصدرتْها دار التقدُّم في موسكو، وتحمل اسم دار علاء الدِّيْن للنشر، ويديرها ميشيل وصديقته المسلمة، اللذان قدما من الداخل، داخل فلسطين التي احتُلَّت أوَّلاً، ولم يُعجِبا حارسة الأخلاق؛ ابنة صاحب مكتبة المُعْطِي.

لم أُحبّ لون الكُتُب الأحمر، ولكنّ حُبِّي لوالدي، الذي استولى عليَّ كثيراً، في تلك الأيَّام، جعلني، أحاول فهم الطلاسم التي تحويها.

عندما أتذكَّر تلك الأيَّام، أُعجب لذلك الولد الذي كُنتُهُ، وهو غير قادر على الاعتراف، حتَّى بين وبين نفسه، بعجزه عن الفهم، ولكنَّ حُبَّه الفائض، لوالد، أدرك بحسِّه، بأنه، خسره، ولن يُعوِّضه أبداً، جعله يرطن بمصطلحات كبيرة، وبأسماء كان عليه أن يحبَّهم، مثل: لينين، وماركس، وإنجلز.

وحتَّى عندما نُقل والدي، إلى مستشفى سجن الرَّمْلَة، اصطحبتْني إلى هناك، وانتظرتْ في الخارج، ريثما أُنهي زيارته، كانت تؤكِّد حضورها، كما اعتقدتُ بأنها يجب أن تفعل، وفي نفس الوقت، منعها كبرياؤها من سؤالي عن وضع وظروف والدي السجين المريض، وكأن سؤالها سيخدش الموقف الذي اتَّخذتْهُ، وتمسَّكت به بعنادٍ غريب، وفي مرَّة، عرض عليها رامي، رئيسها في العمل، إيصالنا بسيَّارته إلى الرَّمْلَة، وعندما نقلت لي والدتي ذلك، لم يكن ليمرّ اقتراح رامي بسهولةٍ لديَّ، فكيف سنذهب بسيَّارة هذا اليهوديِّ إلى زيارة والدي الفدائيِّ المريض؟ وماذا سيقول عن ذلك؟ وكيف ستكون ردَّة فعله عندما يعرف بأن والدة ابنه وابنه جاءا بسيَّارة ربِّ عملها اليهوديِّ؟ وبماذا سيعتقد حول العلاقة بين والدتي وربِّ عملها؟

ربَّما يمكنني أن أتفهَّم، وأُصدِّق ما تقوله أُمِّي عن طيبة رامي، واستعداده لتقديم خدماته لامرأةٍ وحيدةٍ، يعرف ظروفها، ولكنَّ الأمر سيختلف بالتأكيد بالنسبة إلى فدائيٍّ سجين ثائر، وما زال يحلم بالثورة، ليس في فلسطين فقط، ويُهلِّل لأخبار الثوَّار، ليس هنا فقط، بل في العالم كُلِّه.

في نهاية الأمر، لم يكن لرأيٍ، أن يكبح قرار أُمِّي، فتوفير مَرْكَبَة نذهب بها بسهولةٍ لزيارة والدي السجين، ونعود إلى منزلنا بدون انتظار وعوائق، مسألة مهمَّة، ومريحة لوالدتي، التي لم يكن بإمكانها أن تتركني أذهب وحدي إلى الرَّمْلَة، وأنتظر حتَّى يُسمَح لي بالدخول لزيارة والدي، وأخرج من الزيارة مهموماً، تتلاطمني الأفكار، بحاجةٍ لمَنْ يشدُّ عضدي.

انطلقنا صباحاً، بمَرْكَبَة رامي، الذي انتظرنا على شارع القُدْس - الخليل الرئيس، جلست والدتي في المقعد الأمامي بجانب رامي، ووضعت سلَّة صغيرة، حضَّرتْ فيها بعض أنواع الفطائر، التي صنعتْها في الفرن بزيت الزيتون، بجانبي في المقعد الخلفي.

دقَّقتُ النظر في رامي، الذي يقود صامتاً، ولا يتحدَّث إلَّا ردَّاً على سؤالٍ أو ملاحظةٍ من أُمِّي، بشأن الطريق، أو الطقس.

وتساءلتُ، بيني وبين نفسي، بماذا يفكِّر، وهو يحمل معه اثنَيْن، لهما علاقة بفدائيٍّ، خطَّط لتفجير البناية التي يعمل بها؟ ولماذا يُقدِم على خدمتنا ويقود فينا إلى الرَّمْلَة؟ هل هو تعاطف مع أُمِّي، التي لم يرد أن تذهب وحدها إلى مدينة لا تعرف فيها أحداً؟

خلال الطريق، قدَّم رامي بصوتٍ هادئ شروحاً عن المناطق التي نمرُّ بها، دون أيَّة تعليقات ذات طابع سياسيٍّ، وكأن القرى والمُدُن والشوارع لم يكن لها أصحاب، شُرِّدوا منها عام النكبة، ويقطنها الآن غرباء، يتمتَّعون بها، ويسكنون بيوتها، ويسيرون في شوارعها، وكأنها لهم منذ آلاف الأعوام.

توقَّف رامي في الطريق، وجلب قهوة له ولأُمِّي، وشاياً لي، وتناول فطيرة مجاملة لأُمِّي، التي حرصت على أن أزدرد ما أرادت من فطائر.

عندما وصلنا السجن، حاول، أن يستغلَّ هُوِيَّته كيهوديٍّ، لمساعدتي في الدخول لزيارة والدي بسرعةٍ، ودون عوائق، ولكنه لم يُفلِح، فعاد إلى حيث نقف أنا وأُمِّي بجانب سيَّارته، ليعتذر ويقول بلهجة المنكسر:

«القانون قانون، هكذا يقولون، أو على الأقلِّ هذا ما يريدونه عندما يتعلَّق الأمر بسجين فلسطينيٍّ».

تركتُ أُمِّي ورامي، ودخلتُ لزيارة والدي، والتقيتُهُ بعد انتظار، وقدَّرتُ بأن أُمِّي ورامي ذهبا ليزجيا الوقت في المدينة، حتَّى أُنهيَ زيارتي.

لم أُخبر والدي عن رامي، ولم يسألني إذا ما كانت أُمِّي قد حضرت معي، وخلال نصف ساعة، شرَّق وغرَّب، وبدا متحمِّساً للاتِّحاد السوفيتي، ومعادياً بشدَّة لأميركا، ومشيداً بكاسترو، وبثوَّار الفيتكونغ، وحثَّني، كما أصبح يفعل في كلِّ مرَّة أزوره فيها، أن أقرأ الكُتُب الحمراء، وعندما أقول له بأنني قرأتُ، يطلب منِّي أن أقرأ وأقرأ.

وقبل أن تنتهيَ الزيارة، أشار إليَّ، بأنه حضَّر هديَّة لي، وبسرعةٍ أدخل طرف مَحْرمَة في أحد ثقوب الشَّبَك، وطلب منِّي سحبها وإخفاءها.

وعندما خرجتُ من السجن، أخرجتُ المَحْرمَة من جيبي، وفُتنتُ بالرسم المتقَن عليها، وبرمزَي المِنْجَل والشاكوش يحيطان بسُنْبُلَتَيْن، تحتضنان عَلَماً أحمر.

وجدتُ أُمِّي ورامي بانتظاري، لم تكن أُمِّي لتسمح لنفسها بأن أخرج دون أن أجدها، ومثلما جئنا، جلست أُمِّي بجانب رامي، وجلستُ في الخلف، وعدنا إلى القُدْس، ولسببٍ ما، ربَّما باتِّفاق مع أُمِّي، أوصلنا رامي حتَّى باب منزلنا، ولم تدعُه أُمِّي لاحتساء القهوة أو الشاي، واكتفت بشُكره، وبدا راضياً.

الثاني عشر

في قريتنا تنتشر الإشاعات أسرع من النار في هشيم بزِّنا، ولا أعرف بالضبط ما لَاكَوهُ عن أُمِّي، أو متى بدأ لُكْهُم، التي لم أشكّ أبداً بسلوكها، ولكن نظراتهم كانت تُفصح عمَّا لا يقولونه في حضوري.

وغذَّى الشائعات، أن والدتي، وافقت على أن يوصلها رامي بسيَّارته إلى قرب العَيْن، بينما يواصل صعوده للقُدْس، إلى مستوطنة النبي يعقوب حيث يسكن.

لم تكن والدتي الأولى أو الوحيدة من قريتنا التي تعمل لدى اليهود، ولم يكن العمل لديهم ليُثير شكوكاً، إلَّا أن حظَّ والدتي الشائك سيؤدِّي إلى ما سيحدث لاحقاً، وسيكسر لديَّ ما لا يمكن للأيَّام أن تُجبره أبداً.

في يومٍ، يمكن وصفه بالمغَبَّر أو بأسوأ الصفات، اختفت فيه الآلهة القديمة التي تسكن قريتنا، في إجازةٍ. عندما أوصل رامي والدتي إلى قرب العَيْن، فُوجِئا، وهي تستعدُّ للنزول، بتطويق ثلاثة ملثَّمين للسيَّارة، وطلبوا منهما النزول، نزلت أُمِّي، ولكن رامي قاوم، ولعلَّه أدرك، في لحظاتٍ، أنهما إزاء عمليَّة اختطاف، ولكنَّ الملثَّمين أجبروه على الترجُّل من السيَّارة، وهم يسحبونه منها بشدَّة مُحدِثين جَلَبة، بينما ركبت أُمِّي، طائعةً، في سيَّارة الملثَّمين، وبجانبها رامي الذي أخذ بتهديد الملثَّمين، مستشعراً قوَّة لديه، تمُكنِّه من التأثير على الخاطفين، الذين انطلقوا بسيَّارتهم اتِّجاه طَنْطُوْر فرعون، وأنزلوهما، واقتادوا رامي إلى خلف الطَّنْطُوْر، بينما ظلَّ أحد الملثَّمين مع والدتي بجانب الطَّنْطُوْر، ومن مكانها سمعتْ صوت إطلاق النار، ولا شكَّ أدركتْ بأنه تمَّ إعدام رامي، رئيسها الإسرائيليّ اليهوديّ في العمل، بكلِّ هذه البساطة.

وعندما عاد الاثنان إلى حيث تقف أُمِّي، قالا لها، بأنه تمَّ التخلُّص من اليهوديِّ المستعمِر الذي يتحرَّش بها، ويعتدي على عرض زوجة فدائيٍّ، وإنه بإمكانها المغادرة الآن وبسرعةٍ، قبل وصول جيش الاحتلال، وأُطلق سراحها، فاتَّجهت مفزوعة عائدة إلى قريتنا، ولكنها لم تَخطُ إلَّا عدَّة خطوات، في وادي جهنَّم، حتَّى أطلق أحد الملثَّمين النار عليها من الخلف، وشاركه الآخرون، فأُصيبت بخمس وعشرين طلقة جهنَّميَّة في ظهرها، وكأنه لم يختر الناس اسم الوادي، منذ خلق الله الناس، إلَّا بسبب حادثة أُمِّي التي كانوا يعرفون بأنها ستقع في يومٍ مغبَّر قاسٍ.

ترك الملثَّمون ساحة الإعدام سريعاً، وقبل دقائق من وصول جنود الاحتلال، لتتوالى الأخبار وتترى بشكلٍ سريع، وكأن الريح تنقلها؛ رامي الذي أُصيب إصابات بالغة، سينقله الإسعاف إلى مستشفى هداسا، وسيعيش، أمَّا والدتي، فستُنقَل إلى مشرحة أبي كبير في يافا لتشريحها، لمعرفة سبب الوفاة، وكأن الرصاصات القاتلة لا تُفصِح، وحدها، عن سبب موت أُمِّي.

وصلتُ إلى موقع إعدام والدتي، مع مَنْ وصلوا من أهالي قريتنا، ولكنَّ جنود الاحتلال لم يسمحوا لنا بالاقتراب من مسرح الإعدام الذي تمَّ إغلاقه مع محيط طَنْطُوْر فرعون، ولم تُفدْني نظراتي التي وجَّهتُها إلى حجارة الطَّنْطُوْر الصلدة شيئاً، ولم يتحرَّك لمساعدتي، لأرى أُمِّي المضرجة بدمائها، ولعلَّه فعل خيراً، كما سأستنتج بعد ذلك. كان الطَّنْطُوْر حينها معي يعرف ما يناسبني أكثر منِّي، فاعترض طريقي، كي لا أرى ما عزمتُ رؤيته.

أعادني عمِّي إلى منزلنا، الذي تجمَّع فيه العديد من الأقارب المصدومين، وأُجريت الاتِّصالات، لاحقاً مع مشرحة (أبو كبير)، لمعرفة وقت التسليم، وجاءت الشرطة الإسرائيليَّة إلى المنزل، واستجوبَني رجالها، أرادوا أن يعرفوا كلَّ ما أعرفه عن رامي وعلاقته بوالدتي، حكيتُ ما أعرفه، ولا أعرف كيف وماذا حكيتُ، وأنا لا أُصدِّق ما حدث، وتجنَّبتُ بشكلٍ

غير واعٍ الإشارة لمشوارنا إلى سجن الرَّمْلَة، فلم أكن في تلك الدقائق التي استُجوِبْتُ فيها واعياً لشيء.

قال الشيخ عبد ربِّ النبي الذي جاء إلى منزلنا، بأنه من نِعَم الله، أنه يجعل الواحد من خلقه لا يُصدِّق ما يحدث أمامه من مصائب، وإلَّا فإنه سيُصاب بالجنون، فعدم التصديق هو الدرع الذي يحيط بالجسد، ليحميَهُ، وبالعقل ليُنجيَهُ. ولكنْ، أيَّة نجاة لي بعد رحيل أُمِّي، وبهذه الطريقة؟!

في اليوم التالي، وصلت أُمِّي، كان المنزل مليئاً بالناس، سُجَّت أمامنا، لم يتركْني عمِّي، وأنا أبكي محاولاً الهجوم عليها، والسقوط على صدرها الذي لم أعد أسمع نَفَسَهُ، أو أُراقب هبوطه وعُلُوَّه، كما فعلتُ كثيراً وأنا نائم بجانبها، ولكنَّ أُمَّ السَّبْع قالت له: اتركْهُ .. اتركْهُ يُودِّعها، إن لم يفعل ذلك، فسيلحقها.

هبطتُ إلى الأرض، ووضعتُ رأسي على صدرها وأنا أبكي، بكائي الأخير على صدرها.

الثالث عشر

اصطحبتُ ابني إلى المكان الذي كنتُ أتوقَّف عنده أنا ووالدي وننظر إلى طَنْطُوْر فرعون، عادني ذلك المشهد الذي لا يمكن أن أنساه، ولا أعتقد أن أحداً من أهل القرية، التي توقَّفت الآن عن أن تظلَّ قرية، وأصبحت تُعرف كحَيٍّ من أحياء القُدْس، نسيَهُ، بعد اعتقال والدي بنحو عام، تأكَّد الناس من أن الإشاعة التي تتحدَّث عن محاولة الانتحار الثالثة للسَّبْع، هي حقيقة، وبأنه لن يعود هذه المرَّة للحياة، مثلما لن تعود أُمِّي، ولن يعود والدي، ولن أعود أنا كما كنتُ.

عاشت أُمِّي، لترى مصير السَّبْع، الذي ضايقها، وحين قالت لي مرَّة تشكو الرجال الذين ضايقوها بعد اعتقال والدي، وانفصالها عنه:

- تصوَّرْ حتَّى السَّبْع ..!

وكأنها تُردِّد صدى صرخة يوليوس قيصر: حتَّى أنتَ، يا بروتس، ولكن القيصر الرومانيَّ الذي طُعن على دَرَجٍ في روما القديمة كان يشكو تبخُّر الوفاء، أمّا والدتي، فكانت تهجو الزمن العِنِّيْن.

ذهبتُ أبحث عن السَّبْع، في كلِّ مكان أتوقَّع أن أجده فيه؛ عند العَيْن، وطَنْطُوْر فرعون، وباب العَمُود، والمُصْرَارَة، وعندما رأيتُهُ أمامي يجلس في مقهى داخل باب الساهرة ملاصقاً لسور القُدْس من الداخل، اندفعتُ إليه، ولكنه بدا ككتلة صلدة بدون أيَّة تعابير، يدخِّن الأرجيلة، بعينَيْن زائغتَيْن، عمَّق الحشيش من غورهما.

صفعتُهُ بقوَّة على وجهه، وعندما أردتُ أن أصفعه مرَّة أخرى، أمسك

يدي، وسحبني بقوَّة لأجلس بجانبه على كُرسيٍّ من خشبٍ وقشٍّ بدون مسند، وثبَّتَ جلستي بيده القويَّة، أو التي ما تزال تحتفظ ببقايا قوَّة، وتوقَّعتُ أن يتكلَّم، ويدافع عن نفسه، رغم أنني لن أقبل دفاعه، فيمكن أن أسمح بأيِّ شيء إلَّا التطاول على أُمِّي، فأنا، بغياب والدي، لم أعد ذلك الطفل الذي سيكتفي بالمراقبة، وسماع حكايات السَّبْع العِنِّيْن.

ولكنَّ السَّبْع لم يتكلَّم، وهو يُجبرني على الجلوس، بيده الثقيلة، وبيده الأخرى يمسك مَبْسِمَ الأرجيلة. قلتُ له:

- لماذا، يا عمُّ السَّبْع؟

- ....

- أليس والدي هو الأعزَّ لديكَ؟ أو ليست أُمِّي أختَكَ التي لم تلدها أُمُّكَ؟

انتبهتُ إلى دموع تنزُّ من عينَي السَّبْع، دون أن ينظر إليَّ، بينما خَفَّتْ قبضتُهُ عنِّي، تاركاً لي حرِّيَّة الذهاب أو صفعه من جديد.

هدأت ثورتي التي خِلتُ بأنها لن تهدأ، وغادرتُ المقهى دون النظر للسَّبْع، وكأنه شيء لم يعد ملحوظاً، ولن يعود له موقع عائلي في حياتي أو حياة أُمِّي.

الرابع عشر

بعد أسبوع، هُرع الناس، إلى وادي جهنَّم، ومن بينهم والدة السَّبْع، ليقفوا أمام طَنْطُوْر فرعون، ويرون السَّبْع، وقد تدلّى بحبلٍ ربطه في النتوء الدائري بين القِنِّيْنَة؛ رقبة الضريح الضخمة، والقَرَنْفُلَة الحجريَّة المفتوحة التي ثُبِّتت، في زمنٍ ما، ولأسبابٍ لا نعرفها، على القِنِّيْنَة، وكأن السَّبْع أراد في موته تقليد أبي شلومو، أو أن الأمر فرضتْهُ طبيعة الطَّنْطُوْر الإنشائيَّة المِعْمَارِيَّة.

في الليلة السابقة، قَصَّ السَّبْع شَعْره الطويل، ووضعه على عتبة منزلنا الجديد، وعندما خرجت أُمِّي إلى العمل، بينما أستعدُّ للخروج بعدها، اصطدمتْ بجديلَتَيْن من الشَّعْر، رجَّحنا أنهما شَعْر السَّبْع، ولكننا لم ندرك، أنه يقدِّم اعتذاره النهائي لنا، مودِّعاً الحياة، مرَّة أخيرةً، وللأبد.

خُيِّل إليَّ أن عينَيْه الجاحظَتَيْن أجهضتا بريقاً، وبأنهما لا يجب أن يكونا كما ظهرا، أو على الأقلّ، لن يكون السَّبْع، راضياً بوضعهما، وربَّما تأسف بأن شَعْره لم يطلْ كفاية، بعد قَصِّه، ليكون حبل مِشْنَقَتِهِ، ولكنْ، ليس كلُّ ما يرغبه المرء يتحقَّق، حتَّى وهو يغادر هذه الدنيا، يرحل، يموت، يذهب إلى غفوته العميقة التي لا يفيق منها، مدفوعاً بعزاء، وجود الآلاف الذي يسكنون مقبرة اليهود، ومقابلها مقبرة المسلمين، وإلى الغرب الجنوبيِّ، مقابر المسيحيِّيْن على جبل صهيون. في القُدْس الموتى أضعاف الأحياء، يتكاثرون كما الأحياء، وكأنها ليست إلَّا مدينة موتى، يسكنون القبور التي تُطوِّق المدينة من كلِّ جانب، وتخترق منتصفها، وتتسلَّل إلى

بلدتها القديمة، حيث تُشكِّل بعض التُّرَب المملوكيَّة والعثمانيَّة مثار فخر ساكنيها، أو قاصديها، كمُحبِّي المكتبة الخالديَّة الذين يجولون بين الكُتُب والتُّرَب.

اقتربت والدة السَّبْع، وأشارت إلى الشبَّان، الذين تطوَّعوا لإنزال ابنها، ومنهم مَنْ يحاول الوصول إلى أعلى الطَّنْطُوْر، الذي طالما وصله السَّبْع، بازّاً أترابه، بأن يتوقَّفوا قليلاً، رفعتْ رأسها، بأكبرِ قَدْرٍ يمكن أن تُحقِّقه، ونظرت إلى الأعلى، محاولة السيطرة على مشاعرها، أو ربَّما إحياءها، وهي التي فَقَدَتْ منها الكثير منذ الحرب وطَرْبَلَة السَّبْع، واعتقال والدي، وقرار والدتي بحياتها الجديدة. لا أعرف إذا تمكَّنتْ من رؤية وجه ابنها أم لا، ولكنها رفعتْ يدَيْها إلى الأعلى وكأنها تخاطب الله، بينما سمعها الناس الذين شكَّلوا حلقة نصف دائريَّة مقوَّسة خلفها وهي تقول: «لماذا؟ وكيف؟ ومَنْ؟ وإلى أين؟ لماذا مكتوبنا يختلف عن مكاتيب الآخرين؟ ولماذا أنا أُمٌّ تختلف عن كلِّ الأُمَّهات، وابنها يختلف عن باقي الأبناء؟ لماذا طَنْطَرُوا طَنْطُوْرَنا؟ ولماذا لا يحاربون إلَّا نحن؟ ولماذا حرب تأخذنا إلى حروب، لماذا؟ لماذا؟».

وسقطت على الأرض، واقترب منها مَنْ يحاول مساعدتها، وإعادتها إلى منزلها، حتَّى يُتدبَّر إنزال السَّبْع، عن طَنْطُوْره، الذي أراد أن يقدِّم له تحيَّة الوداع الأخير، ولعلَّه لن يكفَّ عن تحيَّته بعد استقراره قُبالته، هناك في الأعلى بمحاذاة السُّور المعتَّق، بحجارته الكبيرة التي لم تملّ من الصمت، وعندما يزحزحها من مكانها فاتح أو غازٍ جديد، يعود نفسه، إلى نفس الحجارة، ليُشكِّلها من جديد سوراً جديداً، يُطوِّق المدينة المقدَّسة، ظانَّاً بأنه سيكون عَصِيَّاً على الهدم، ولكنه يُهدَم من جديدٍ على يد قائد جديد، ويُبنَى من جديد، على يد منتصر جديد، من نفس الحجارة القديمة.

عندما خرج المشيِّعون حاملين جثمان السَّبْع من منزله، إلى المسجد المحاذي للبِركَة، حاول أحد الشباب المتديِّنين الاعتراض، وطالب بعدم الصلاة على الجُثْمان، لأن صاحبه خالف تعاليم الله وانتحر، وكادت تحدث مشكلة كبيرة، لا يعرف أحد كيف كان يمكن أن تنتهي، عندما ثارت ثائرة شُبَّان العائلة، إلَّا أن تدخُّل الشيخ عبد ربِّ النبي قلَّلت فرص الاحتكاك، عندما تقدَّم المشيِّعون، ووقف على عتبة المسجد، قائلاً بأن السَّبْع ابننا ومنَّا وفينا، وإن الله وحده يعرف ما في السرائر، وعنده الحساب والعقاب، والثواب والعذاب، ولا يجب أن يحلَّ أحد محلَّه، فهذا هو الكفر الواضح الصريح، وأنه أصلاً لا يجب أن يسمح لأحدٍ، كائناً مَنْ كان، لأن يمنح نفسه مهامَّ الله عزَّ وجلَّ في عليائه، هناك حيث يرانا، ويعرف ما يجري على أرضه المقدَّسة، وأن يؤجِّل الحساب ليوم الحساب، مختبراً كيف يتصرَّف خلقه، الذي هو أصلاً في غنى عنهم، ولكنَّ بوَّابات رحمته تسع الجميع، وعلى مَنْ حاول مزاحمته أن يُسرع ويختار أيَّة بوَّابة يدخل منها إلى رحمة الذي «لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ»- صدق الله العظيم.

ودخل المشيِّعون إلى المسجد بجثمان السَّبْع، وخرجوا منه أيضاً حاملين الجثمان، وصَعِدُوا لدفنه في مقبرة باب الرحمة.

اجتاحتْني تلك الذكرى، وأتحسَّس الآن دمعات على خَدِّي، باكياً أُمِّي، والسَّبْع، وأراهما بمنظورٍ مختلف؛ كضحيَّتَيْن لظروفٍ ربَّما لم يكن لديهما دَوْرٌ في تشكُّلها، فتصرَّفا في نطاق وعي كلٍّ منهما، ورؤيته لرغباته، وحياته، ضمن مناخات وتقاليد قريتنا ومدينتنا المقدَّسة.

أرى كيف تغيَّر الطَّنْطُوْر والوادي الذي سيطر عليه المحتلُّون، وكيف كبرت المقبرة واتَّسعت لتشمل آلاف القبور، متعجِّباً من أين أتى ساكنوها؟ واحتلَّت مشهد جبل الزيتون أمامي، بينما ترفرف الأعلام الزرقاء - البيضاء

على منازل في الجبل، ومنازل في قريتنا، استولى عليها المستوطنون اليهود، الذين سيطروا أيضاً على العَيْن والنفق والبِرْكَة، ووادي حُلْوَة، ووادي الربابة، ويخطِّطون لإزالة مقبرة باب الرحمة، ومن بينها قبر والدي. ربَّما يخشون من أن يكون من أوائل مَنْ يستيقظون يوم الدَّيْنونَة، ويتسلَّق السُّور، ويقف على عمود السلطان سليمان النافر، ويُسرع على الصراط المشدود، بقوَّة سيِّدنا مُحمَّد على السُّور، وسيِّدنا المسيح، على الطرف الآخر، في المكان الذي صَعِدَ فيه إلى السماء. سيجري والدي على الصراط، الرقيق كالشَّعْرة، والحادِّ كالسيف، ليصل المصعد، ويستقبله المسيح، ثمَّ يصعد إلى السماء.

ولكنَّ والدي، قبيل رحيله، لم يعد يؤمن بمثل هذا السيناريو، الذي شكَّك فيه أصلاً، بعد أن أصبح يُعرِّف نفسه، كماركسيٍّ يؤمن بالقوميَّة العربيَّة.

الخامس عشر

تجتاحني ذكرى لُور، التي خُفِرَت إلى سجن المَسْكُوبيَّة، وأمضت هناك بضعة أيَّام، ولم أعرف ماذا حدث لها بالضبط، وإذا ما تحدَّثتْ للمحقِّقين عن أصدقائي الأربعة، أو الفدائيِّ جبر، ولكنَّ ما علمتُهُ، أن أخبارها قُطِعَت فجأة، بعد أن استغنت إدارة المتحف عن خدمات جَدِّها، الذي رحل إلى قريته ومعه حفيدته.

ولا أعرف إذا كانت عرفت ما حلَّ بأصدقائي الأربعة الذين بُحتُ لها بسرِّهم. بعد إلقاء القبض على لُور، أردتُ أن أُحدِّث والدي عن ما يُخطِّط له أصدقائي، وعن اعتقال لُور التي على الأرجح اشتبه بها اليهود المتديِّنون الذين يزورون المقبرة باستمرار، بأنها تُخطِّط لعمل تخريبيٍّ في المقبرة، ولكنني جبنتُ، ولم أعرف كيف أتصرَّف، وحتَّى في اليوم التالي، فكَّرتُ أن أذهب إلى أبي نقولا، ولكنني تراجعتُ في اللحظات الأخيرة. أردتُ إخباره بماذا حدث لِلُور، لكي يتصرَّف، ويبدو أنني خشيتُ من أسئلته وتوجيه اللَّوْم لي، وربَّما الاتِّهام بأنني سبب اعتقالها.

بعد بضعة أيَّام، وصلت الأخبار نتفاً إلى القرية غير مؤكَّدة، ولكن ذلك لم يطلْ كثيراً، فبعد تدفُّق الناس إلى طَنْطُوْر فرعون، الذي طوَّقه جنود الاحتلال، أصبح الخبر مؤكَّداً؛ لقد قضى الأربعة بانفجارٍ غامض، حوَّلهم إلى أشلاءٍ، وجعل أجسادهم تتناثر في وادي جهنَّم. سيلمُّها الله يوم الدَّيْنونَة، لتصعد على الصراط، ولتقف ببابه، منتظرة حسابها، ولكن الشيخ عبد ربِّ النبي، قال بأن الله سيتعامل معهم كالأطفال،

وكالشهداء، وستكون طريقهم إلى الجنَّة سهلة، وهو ما يجب أن يشكِّل عزاءً لأهاليهم المكلومين.

كيف حدث الانفجار؟ هل نتج عن عبوات نسفتْهم كانوا يُحضِّرونها بشكلٍ بدائيٍّ، أو أنهم عثروا عليها، وأرادوا فحصها لاستخدامها ضدَّ أهداف احتلاليَّة أم، وهذا ما رجَّحه الناس، كانوا ضحيَّة كمين، حيث وُضِعَت لهم العبوات، بعد مراقبتهم من قِبَل مخابرات الاحتلال، أو من مجموعة يهوديَّة، رصدتْهم، وتمَّ توقيت العبوات لتنفجرَ بهم؟

صُدِمَتْ قريتنا بما حدث لأربعةٍ من أبنائها، وخُيِّل إليَّ بأنها لن تعود كما كانت، وساد شعور بأن الأربعة تُركوا يواجهون مصيرهم، بينما الكبار، اهتمُّوا بأمورٍ أخرى، شغلهم العمل في القُدْس الغربيَّة، وأخذتْهم الدنيا بعد الحرب والهزيمة إلى مربَّعاتٍ بعيدةٍ عن السياسة، وحتَّى الذين خطَّطوا للعمليَّات الفدائيَّة فكَّروا في تفجير اليهود، ونسوا المناضلين الصغار، الذين أدَّى بهم تفكيرهم للنيل من المحتلِّين إلى مصير مؤلم لا يُنسَى بسهولةٍ، ولا تذهب ما تُنتجه من مشاعر تأنيب ضمير وتقصير، بسرعةٍ.

السادس عشر

عندما تدهمني ذكرى أُمِّي ألوذ من ذاتي إلى ذاتي، أحشر نفسي في حيِّزي؛ سريري في المدرسة الداخليَّة، ولاحقاً غرفتي في منزلي، وقرَّرتُ في مرَّة، ضقتُ وضاقت الدنيا، وسمعتُ صوت أُمِّي يضرب في قلبي، ويطمئنني، ويقول: «أعرف ما تضيق فيه، يا بُنيَّ، وأُدرك لو أنكَ جبل، وتلقَّيتَ بصدركَ هذا الهمَّ كلَّه، لهُدِمْتَ، وتحطَّمتَ، ارفقْ بنفسكَ، وافتحِ الرسائل».

أيَّة رسائل أفتحها؟ عمدتُ إلى رسائل لُور التي وصلتْني على مراحل، ولم أفتحها، مثلما فعلتُ مع باقي الرسائل، ولكنني قرَّرتُ فضَّ إحداها، لن أعود منذ الآن جبلاً، يتلقَّى الهموم بصدره، أريد أن أُفرِغَها، وأبحثَ عن مَنْ يشاركني بها.

أمسكُ مظروفاً أزرق اللَّون، أنيقاً، أُمزِّق حافَّته، لتصطدم عيناي، بخطِّها؛ فتاة القُدْس التي شعرتُ بأنني أحتاجها أكثر من أيِّ وقت مضى.

وفجأةً قرَّرتُ أن أكون ذلك الجبل، الذي يتلقَّى الهَمَّ، فأعدتُ المكتوب، إلى مكانه، ولكنني الآن، وأنا في القُدْس من جديد، أتساءل عمَّا حَلَّ بلُور، فأفتح مكتوبها، فما دمتُ أفكِّر بها، وتجتاحني الذكريات عنها، فمعنى ذلك أنني لم أعد قادراً على المكابرة، ولا بدَّ أن أعرف أين حطَّت بها الدنيا؟

أفتح الورقةَ البيضاء المكتوبة بخطٍّ جميل نسبيّاً، وأقرأ:

«عزيزي كافل،

أرجو، عندما تصلكَ رسالتي هذه أن لا تسأل الأسئلة الغبيَّة، مثل كيف عرفتُ عنوانكَ مثلاً؟ أو من أين حصلتُ عليه؟

الخبر الذي أحسب أنكَ تريد معرفته، وربَّما متشوِّق لسماعه، سأُعلمكَ به مباشرة، ودون مقدِّمات تشويقيَّة؛ لقد نَجَوْتُ.

نَجَوْتُ لأرويَ قصَّتي، وأنتَ نَجَوْتَ، لترويَ قصَّتكَ، ولعلَّ قصَّتَيْنا قصَّة واحدة، قِصَّتنا معاً، وقِصَّتنا مع الآخرين، أو قِصَّتهم معنا.

أظنُّكَ لن تنسى ذلك المساء، عندما فرَّقنا شيءٌ أقوى منَّا، وكُنَّا نحسب، أن القوَّة التي يمكن أن تقهرنا غير موجودة، ولكنْ، هذا ما حدث.

عندما ساقني اليهود الذين تتدلَّى سوالفهم على وجوههم، شعرتُ بأنني وقعتُ في حُفرةٍ، لن أستطيع الخروج منها أبداً، وفكَّرْتُ كيف حدث ما حدث؟ لأجد نفسي مخفورة بين هؤلاء الذين هجموا عليَّ، وكأنني فريسة ينتظرونها منذ زمن.

لا أستطيع وصف مشاعري واضطرابي وبلبلتي، وأنا بين هؤلاء، وشعرتُ بأنهم يقودونني بأنفسهم إلى الجحيم، الذي يتمنُّونه لي يوم الدَّيْنونَة، ولكنهم قرَّروا اتِّخاذ الأمر بأنفسهم، وعدم تركه لربِّ الكون العظيم، في يوم قد يكون بعيداً جدَّاً.

لم يدم وجودي في الحفرة كثيراً، فبدأتُ أخرج منها، مع كلِّ خطوة يتقدَّمونها نحو رأس العَمُود، ليُسلِّموني لمخفر الشرطة هناك.

لم أفهم ما قالوه عنِّي، بالعبريَّة، وهم في عصبيَّة مُستَفَزِّين، ولم أفهم بماذا ردَّ عليهم رجال الشرطة الذين أحاطوني، وكأنهم خشوا هروبي، وأرادوا إقناع أنفسهم، بأنهم لم يتركوا أيَّة ثغرة يمكن أن أنسلَّ منها دون إغلاقها.

غادر أصحاب السوالف المتنمِّرون والغاضبون، دون أن أعرف سبب غضبهم، ووُضعتُ في زِنْزانةٍ مكشوفة؛ غرفة من قضبان، يمكن لأيِّ شرطيٍّ يمرُّ أن يراني من خلالها، ويمكن لي رصد حركة رجال الشرطة في المقرِّ.

أمضيتُ ساعات ومُخِّي تتلاطمه أمواج الفكر، والشكُّ، ووضع

سيناريوهات لِمَا حدث وسيحدث. فكَّرتُ بجَدِّي، وهل علم بما حدث لي؟ وفكَّرتُ بكَ، وبما يمكن أن يكون حدث معكَ، وهل اعتقلوكَ أنتَ أيضاً أم أنكَ سمعتَ صرختي في الوقت المناسب، وتحرَّكتَ، وهربتَ قبل أن ينتبهوا لكَ، أو بسبب انشغالهم بي عنكَ؟

وهل علموا بما يُخطِّط له رفاقكَ الصغار الشجعان؟ عشرات الأسئلة التي لم أجد لها إجابة، ووسط هذا الضغط الذي أتعرَّض له نُقلتُ معصوبة العينَيْن، إلى قِشْلَة باب الخليل، وفي ساعات الفجر، نُقلتُ مرَّة أخرى إلى معتقل المَسْكُوبيَّة.

وكنتُ لم أزل مصدومة، لأنني لم أعرف بالضبط ماذا يعرفون بشأن أصدقائكَ؟ ولا أعرف لماذا يعتقلونني؟

اعتدوا عليَّ بالضرب، بعد أخذ ما معي، ووضعه في الأمانات، ورموني في الزِّنْزَانة، وبينما لا أعرف إذا كنتُ نائمة أم فقط تجتاحني كوابيس وآلام، فُتح باب الزِّنْزَانة، وجرُّوني إلى غرفة التحقيق، واستطعتُ أن أُقدِّر، بأنهم لا يريدون كشف كلِّ ما يعرفونه، ولم يسألوني عن أصدقائكَ، وتركَّزت الأسئلة على سبب وجودي في الموقع، وأعتقدُ أن قبض أصحاب السوالف عليَّ كان خطوة مبكِّرة، ربَّما في خطَّة لرصد الأطفال الفدائيِّيْن، وقد يكون غير ذلك.

لم أعرف ما حدث بالضبط للشهداء الأطفال، وكيف ارتقوا، وهم تحت سماء القُدْس، وارتفعوا نحوها قِطَعاً من لحم.

أعتقد أنكَ تعرف بأن إدارة المتحف، بعد خروجي من المسْكُوبيَّة بأيَّام، فصلوا جَدِّي، ولا شكَّ أن مخابرات الاحتلال هي التي قرَّرت ذلك، وعُدْتُ وجَدِّي إلى نصف جبيل، لأغادر لاحقاً وحدي إلى مدرسةٍ داخليَّة في بَيْت لَحْم.

أعتقد أنكَ تريد أن تعرف بأنني انضممتُ لاتِّحاد الطَّلَبَة السرِّيِّ، وهو

تنظيم يساريٌّ، كان يُصدِر نشرة سرِّيَّة من عدَّة صفحات قصيرة، بأقلّ من حجم الفلوسكاب، ودون انتظام، لكننا عندما نجدها بأيدينا، نحن الطالبات المتحمِّسات، نشعر وكأننا نملك سرَّاً عظيماً، لا يجب البوح به، وأنه سيؤدِّي، في النهاية، إلى تحقيق آمالنا، بالانعتاق من الاحتلال، ومن أفكار مجتمعنا التقليديَّة، التي رغم تقليديَّتها، إلَّا أننا كنَّا نرى وضعنا أفضل من مجتمعات أخرى مجاورة، نتابع ما يجري لديهم من خلال التلفزيون.

كنَّا مجموعة صغيرة، بين الطالبات مهابات الجانب، وتمكَّنَّا من تشكيل مجلس للطَّلَبَة، بمساعدة بعض الراهبات اللواتي جئنَ من أميركا اللاتينيَّة، تلك الأميركا، التي تعادي أميركا، التي تدعم دولة الاحتلال.

كانت الراهبات متأثِّرات بالراهب روميرو، رئيس أساقفة السلفادور السابق، أحد روَّاد لاهوت التحرير في أميركا اللاتينيَّة. دخل القَتَلَة من الطغمة الحاكمة إليه خلال ترؤُّسه لقدَّاس، تهاوى روميرو، وسقط مَنْ وُصِف بأنه «صوت مَنْ لا صوت لهم» على المذبح، ولكن موته لم يقضِ على صوته، فاندلعت حرب أهليَّة في السلفادور استمرَّت طويلاً، وحصدت أرواح الآلاف، وشكَّلت مؤلَّفات روميرو، مثل عنف الحبِّ، وصوت مَنْ لا صوت لهم، الأساس الفعلي لحركة لاهوت التحرير.

أظنُّه مجلس الطَّلَبَة الوحيد بمدرسة ثانويَّة في فلسطين، أو هكذا نظرنا للأمر بفخرٍ كبير، وتشجَّعْنا لإصدار مجلَّة مطبوعة من بضع صفحات، خصَّصناها لزوايا تتعلَّق بالمدرسة وأخبارها، وأخرى للوخز، وثالثة لاطِّلاع الطالبات على ثقافة مغايرة، يتجنَّبها المنهاج.

جمعنا التبرُّعات لاتِّحاد الطَّلَبَة، وشكَّلْنا حلقة صديقات له، وامتدَّ نشاطنا إلى خارج المدرسة، في المظاهرات، وتوزيع المنشورات، والكتابة على الجدران، وتنظيم المزيد من الطالبات، وأتذكَّر الآن، بكثيرٍ من الفخر، تلك الأيَّام المفعَمَة بالجمال، والمخاطرة، والبراءة، والكفاح، والحُبِّ.

أصبحتُ قياديَّة في اتِّحاد الطَّلَبَة، أحضر الاجتماعات في القُدْس ورام الله وبَيْت لَحْم، نتلقَّى الأوامر، ونناقش قليلاً، ونقرِّر أقلّ، ونفرح دائماً بغموض مهامِّنا السرِّيَّة، وعندما تخرَّجتُ في الثانويَّة العامَّة، وبدأتِ الخيارات تُطرَح أمامي للدراسة الجامعيَّة في الخارج، وجدتُ نفسي ملتزمة بقرار الاتِّحاد، بالبقاء في الوطن، والانتساب إلى جامعة بير زيت.

قبل أن أُحدِّثكَ، عن سنوات الجامعة الجامحة، سأُخبركَ بأن جَدَّتي تُوفِّيَتْ بعد مرض قصير، ودُفنَتْ هذه الغريبة في تراب قريتنا، وتزوَّج جَدِّي من امرأة بعُمُر ابنته، والسنوات القليلة التي عاشها معها، أظنُّه كان سعيداً أكثر بكثير ممَّا عاشه مع جَدَّتي، لقد التقى عقل امرأته الفلَّاحة الجديدة مع عقله، وأحبَّا الأرض، وزرعاها، وحافظا على علاقاتٍ واسعةٍ مع أهالي القرية المسلمين والمسيحيِّيْن، رغم أننا في القرية نرفض تقسيم الناس إلى مسلمين ومسيحيِّيْن، وعندما مات جَدِّي، فُتِحَ بيت العزاء له، في منزل جارنا أبي مُحمَّد المسلم، لقُربه من مدخل القرية، قرب مقام سَيِّدنا الخضر، لتسهيل الأمر على المُعزِّين من خارج القرية، التي تعرَّضت لنزيف هجرة لأغلبيَّة أهلها المسيحيِّيْن.

واتَّخذ الشبَّان المسلمون قراراً بالوجود أيَّام الأحد في كنيسة الخضر، خلال الصلاة، ليكونوا بجانب مَنْ تبقَّى من مسيحيِّيهم، وللإبقاء على إقامة الصلوات في الكنيسة.

أنا من الذين هجروا القرية، لأسكن في بير زيت، ولن أُحدِّثكَ كثيراً عن نشاطاتنا في الجامعة، وانتخابات مجلس اتِّحاد الطَّلَبَة، وتنافس الكتل الطلَّابيَّة التناحري، للفوز بثقة الطَّلَبَة، لأن كثيراً من تلك الذكريات، لم تعد مؤثِّرة فيَّ، كما السابق.

في خضمِّ عملي السياسيِّ بحزبي اليساريِّ، الذي انتقلتُ إليه خلال نشاطي في اتِّحاد الطَّلَبَة، تعرَّفتُ عليه، أوَّل مرَّة، التقيتُهُ، كان ينتظرني

على المنارة في رام الله، وبعد تبادل كلمة السرِّ، اصطحبني إلى مكان الاجتماع، الذي سيكون مثل غيره من اجتماعات سابقة ولاحقة، بعكس الاجتماعات أيَّام المرحلة الثانويَّة، فيه الكثير من الكلام، والتخطيط، وعرض للمواقف السياسيَّة، وكيفيَّة الفوز في العمل الاجتماعيِّ المزدحم بنشطاء ونشيطات الأحزاب.

أحببتُهُ، وأحبَّني، ورغم ما بسطتُهُ لكَ، سابقاً، حول المسلمين والمسيحيِّيْن في قريتنا، إلَّا أن الأمرَ سيختلف، عندما سأُخبر والدتي بأنني سأتزوَّج مناضلاً مسلماً، وبالمناسبة هو من قريتكم، يا كافل، ولعلَّكَ تعرفه؛ إنه ابن عمِّ الشهيد موسى.

كنتُ في حالةٍ ثوريَّة، وثقافيَّة، تجعلني أتمسَّك بخياري إلى الآخر، وهذا ما حدث، وباركت والدتي زواجنا، وهو ما عرَّضها إلى نبذٍ من أقربائها القاطنين خارج قريتنا، ولكنَّ هذا لم يهمّني، وإن كان أثَّر فيها.

على فكرة، لم يستطع ميشيل وصديقته المسلمة الصمود في القُدْس، سيُغلقان دار النشر التي حقَّقت رواجاً، وهاجر الاشتراكيَّان، إلى بلاد العمِّ سام، التي طالما لَعَنَاهَا.

الصُّعْلُوك المقدسيُّ أصبح ناقماً على إفساد منظَّمة التحرير للناس هنا، باستقطاب النخب الطلَّابيَّة، والنقابيِّيْن، والكُتَّاب، بإغداق أموال الصمود عليهم، ولكنها لم تكن إلَّا أموال لدعم النفوذ، وكَتَبَ قصائد عرَّض فيها بأعراض سياسيَّات، يعملنَ مع المنظَّمة في الخارج، وكتب في واحدةٍ منهنَّ، ابنة ذوات أصبحت فجأة مناضلة، تجلس على مقاهي القُدْس متغطرسة، متباهية، معارضة لقصيدة قارئة الفنجان لنزار قبَّاني التي اشتهرت بعد أن غنَّاها عبد الحليم حافظ:

جلست والعهر في عينَيْها

تتأمَّل فنجاني المقلوب

السابع عشر

«بعد الجامعة انتقلتُ للعيش في قريتكم مع زوجي، وانتقل معي نشاطي إلى القُدْس، وربَّما ما ترغب بمعرفته، بأننا تمكَّنَّا من التواصل مع مجموعة يساريَّة يهوديَّة، تضمُّ مثقَّفين، وأصدرنا معاً تحايلاً على القانون الإسرائيليِّ مجلَّة باسم أحدهم، كصاحبٍ للامتياز، ولا أريد أن تحزر من أنه الفهد الأسود شارلي، ولكنه لم يعد فهداً أسود، وإنما ماركسيَّاً متطرِّفاً، يؤمن بالكفاح المسلَّح ضدَّ إسرائيل. تصوَّرْ؟

تجربة العمل المشترك بيننا وبين رفاقنا اليهود، انتهت إلى اعتقالهم، واعتقالنا، وفي حين خرجتُ من السجن بعد سنتَيْن، فإن شارلي ورفاقه، وزوجي ورفاقه، أمضوا سنوات أطول.

وخلال وجودهم في السجن، أُفرج عن عددٍ كبيرٍ من أسرانا في سجون الاحتلال، في صفقة تبادل بين دولة الاحتلال والمنظَّمات الفدائيَّة في لبنان، التي أسَرَ مناضلوها جنوداً إسرائيليِّيْن، خلال غزو لبنان.

فرحنا بالذين خرجوا من السجون، ومعظمهم من الذين دخلوا إليها في الفترة التي اعتُقل فيها والدكَ، وحُكموا بأحكامٍ عالية، ومن بينهم أعضاء في خليَّة والدكَ، مثل أبي حلمي المغربي، ومحمَّد الجهَالين، بدويّ برِّيَّة القُدْس، والشيخ نعيم الذي دخل السجن، شيخاً مدفوعاً بعواطفٍ وطنيَّة، وخرج مع ميولٍ إسلاميَّة سياسيَّة.

خروج هؤلاء، وعوامل أخرى، أدَّت إلى اندلاع الانتفاضة الأولى، التي

لا شكَّ سمعتَ بها، وربَّما تابعتَ مجرياتها، وأصبحتْ حديث العالم، ودخلتْ لفظة انتفاضة في قواميس العالم وصحفه ووسائل إعلامه.

وانخرطتْ في الانتفاضة، لأوَّل مرَّة، حركة حماس الإسلاميَّة، التي أرادت تمييز نفسها عن باقي الفصائل الأخرى المنضوية تحت منظَّمة التحرير، فأصبح لدينا فريقان، يتعاونان، ولكنْ، لكلٍّ بيانه الذي يُصدِره معلِناً فعاليَّاته الانتفاضيَّة.

الشيخ نعيم اندفع بسرعة في سُلَّم قيادة حماس، ونشط ميدانيَّاً، وأصبح من المتحدِّثين باسم حركته، ممَّا عرَّضه للاعتقال أكثر من مرَّة.

كُلِّفتُ من قِبَل الرفاق بفَتْح مكتب صحافيٍّ، في عِمَارَة الأولمبيا، لاستقبال الصحافيِّيْن الأجانب، وتقديم خدمات لهم، وتشغيل مراسلين في المناطق كافَّة، لنقل أخبار الانتفاضة للعالم.

كم عدد الشهداء الذين وصلتْني صورهم؟ كم عدد جنازات الشهداء التي شاركت فيها؟ وكم؟ وكم؟ وكم من ساعات نشاط لا تنتهي إلَّا لتبدأ من جديد، واجتماعات متلاحقة، وتنسيق مع الأحزاب الأخرى، ومشكلات، والسعي لحلِّها؟

كانت القُدْس، في تلك الأيَّام، ممتلئة بالفخر، والحُبِّ، والإيثار، وأيضاً، بتسلُّل الإفساد إليها، من زعماء الفصائل الذين خرجوا من لبنان إلى تونس، لبسط نفوذ لهم، فبدؤوا بتخريب الجيل المنتفض. أغدقوا الأموال، واستقبلوا الشخصيَّات الجاهزة لمنح الولاء، ومنها ما كان محسوباً على الملك، أو على الاحتلال.

قُهِرْنا، عندما علمْنا، بأن قيادة تونس، استقبلت زعماء روابط القرى، التي كان الاحتلال شكَّلها، لتكون بديلاً عن المنظَّمة، أيّ مسار تُسرع فيه القيادة؟

المهمُّ، ربمَّا لاحظتَ، عندما ذكرتُ عِمَارَة الأولمبيا، أو تذكَّرتُ، أن في إحدى غرفها، كان مكتب أُمِّ العبد، زوجة المذيع المريب علي عمَّار، الذي كان يستقبل، في برنامجه مكالمات محلِّيَّة تحمل شكاوى، وأعتقد أنه استغلَّ عمله الإذاعي وضائقة المواطنين تحت الاحتلال، حيث الحصول على رخصة قيادة أو خطِّ هاتف أو تصريح سَفَر يستوجب أموراً كثيرة صعبة، منها موافقة المخابرات (وليس مثلما الحال في بلادكم البعيدة - هههههه)، لكي يقوم بحلِّ تلك المشكلات، وما أكثرها، بمقابل ماديٍّ، تمَّ ذلك حين افتتحت زوجته مكتباً للمساعدة، وقصدها الكثيرون، لكونها يهوديَّة إسرائيليَّة، وزوجة لعلي عمَّار الذي يملك علاقات كثيرة في الدوائر الحكوميَّة، وحقَّق مكتبها نجاحاً ملحوظاً، وحقَّقت هي أرباحاً ماديَّة، لا يمكن حصرها.

ولم يكن علي عمَّار أو زوجته اللذَيْن استكانا للطمأنينة مُستغِلَّيْن ضائقة شعب مغلوب على أمره، يدركان أن الضحيَّة في النهاية يجب أن تقول كلمتها، وهو ما حدث عشيَّة عيد الفِصْح اليهوديّ، وعندما كان علي عمَّار يقدِّم برنامجه الصباحيَّ مُستلِذّاً بعمله وسماع شكاوي المواطنين، كساديٍّ نموذجيٍّ، ويمارس أساليبه في امتصاص غضبهم، كان ثلاثة من الشبَّان ينفِّذون خطَّتهم، الأوَّل وقف على باب البناية في الشارع الذي يعجُّ بدوريَّات حرس الحدود، والثاني وقف أمام مكتب أُمِّ العبد، بينما اقتحم الثالث المكتب، ووجَّه مسدَّساً مغطَّى بقماش، كي يخفِّف من صوت الرصاص، وأطلق نحوها عيارات قاتلة.

تخيَّلْ أن كلَّ ذلك حدث، وأنا مشغولة بالأخبار والتقارير والاتِّصال بالمراسلين! كانت العمليَّة جريئة وفي وضح النهار، وفي وجود إحدى المراجعات الفلسطينيَّات التي جعلتها أُمُّ العبد تنتظر الدخول إليها، ربمَّا تحمل طلباً لجمع شمل، أو تصريحاً للسَّفَر إلى الأردن لزيارة ابنها المُبعَد، أو زوجها المريض.

هذا ما حدث، وربَّما أحببتُ أن تعلم، بأن مَنْ أطلق الرصاص، وهو ما علمناه بعد القبض على الخليَّة، وقد لا تُصدِّق (ولماذا لا تُصدِّق؟)، هو شقيق الشهيد موسى، الذي أتى إلى الدنيا، بعد استشهاده.

قد نسأل الآن، إذا كانت أُمُّ العبد تستحقُّ القتل، باعتبارها واحدة من المحتلِّين الذي وُجِدوا في أرضٍ محتلَّة، وَفْقَ القانون الدوليِّ؟ ولكنْ، في تلك الأيَّام، نُظر للأمر من الفصائل الفدائيَّة، بأنه نوع من العنف الثوريِّ المطلوب، بينما انتقد بعض الناس العاديِّيْن، استهداف امرأة، باعتبار ذلك لا يمتُّ للشجاعة أو المروءة بصلةٍ، ولاختلف الأمر بالنسبة إليهم، لو تعلَّق برجلٍ.

من الأخبار الجيِّدة، التي ربَّما تريد أن تعرفها، أن الاحتلال أطلق أخيراً، وبعد تدخُّلات وضغط لا يتوقَّف من الفاتيكان، سراح أبينا بوللو، ولكنْ، ليس إلى القُدْس، وإنما إلى منفاه في روما. وأعلن من هناك بتأثُّر: «الله هو الحقُّ، هو العدالة، ولا بدَّ لليلنا أن ينتهي، ولقيدنا أن ينكسر، وأنا الذي عشتُ في القُدْس طويلاً، وعلى آيات مآذنها صلَّيتُ، وعلى أجراس كنائسها إلى الله تضرَّعتُ، ويدي في أيَّام الشدَّة، إلى أبنائي الأبطال مددتُ، لذلك اعتُقلتُ، وأُبعدتُ ..».

أمَّا الشيخ عبد ربِّ النبي، فأسَّس مع آخرين في عمَّان، التي أُبعد إليها، لجنة تهتمُّ بشؤون القُدْس، وتبحث في كيفيَّة دعم أهلها، ولكنّ الناس في القُدْس يشكون دائماً بأن لا أحد في الواقع يدعمهم، سوى بالكلام والخطابات. تنوَّع ولاء الشيخ بين ياسر عرفات، والملك، وعذره الناس الذين يعرفونه هنا، وتوقَّعوا أن ضغوطاً مُورسَت عليه حيث يقيم.

هل تعرف من أين أكتب رسالتي؟ أجلس الآن بجانب طاحونة باب الخليل الشاهقة، طاحونة المونتفيوري المبنيَّة من حجر القُدْس المحلِّيِّ، أقرأ لكَ ما كتبوا بجانبها: صمَّمتْها شركة هولمان من كانتربري، التي انتدبت

مهندساً للإشراف على تركيب أجزائها التي أُرسلَتْ من الجزر البريطانيَّة إلى بحر يافا، ومنه نُقِلَتْ على الجمال إلى القُدْس عبر طريق باب الواد، ورغم أنها تحمل اسم مونتفيوري، إلَّا أن الذي موَّلها اليهودي الأميركي يهوذا تورو، والهدف تمكين يهود الله في مدينة الله ذاتيَّاً، ومن أجل ذلك أيضاً بُنِيَتْ مطبعة، وأُنشئ مصنع للنسيج.

أُحِبُّ الوقوف قرب الطاحونة التي أصبحت حديقة صغيرة ومُطِلَّاً على أسوار القُدْس القديمة الغربيَّة، وجبل صهيون، ووادي الربابة، وغيرها من مواقع، وبالطبع كان الأمر مختلفاً جدَّاً عند إقامتها، حيث كان يمكن رؤية حَيِّ الثوري، وجبل المُكَبِّر وشارع بَيْت لَحْم.

أجلس في المكان، متمسِّكة بحقِّي فيه كحفيدةٍ، للذين رفضوا الاستماع لفرمان السلطان، أقرأ وأتأمَّل في تاريخ القُدْس، وفي أحيانٍ ليست نادرة، أكتب الرسائل، كما أفعل الآن، وأُكمل دَوْر والدكَ في رواية الحكايات، نروي الحكايات لنفتديَ أعماراً، كما فعلتْ شهرزاد، أو للمقايضة، كما كانت تفعل والدتكَ، بين الحكي والطعام، أو لبثِّ الروح في الجسد والعِظَام، كما فعل والدكَ وجَدِّي. ليرأف بهما تراب الوطن الغالي.

أرجو أن لا أكون قد أطلتُ عليكَ.

اكتبْ لي إذا أحببتَ.

صديقتُكَ

لُور».

الثامن عشر

قبضت مخابرات الاحتلال على أفراد الخَليَّة التي قتلت أُمِّي، ولم تنجح في قتل رامي، بعد وضعهم قنبلة في سينما صهيون بالقُدْس الغربيَّة، وإصابة أحدهم، والقبض عليه جريحاً، وقاد التحقيق إلى القبض على أفراد الخليَّة كافَّة، وأصدقائهم، وأصدقاء الأصدقاء والمعارف والأقارب، فهكذا كان جهاز الشاباك يعمل؛ يتوسَّع في الاعتقالات، وتوجيه التهم، ويقدِّم للمحاكمة، حتَّى الشخص الذي يمكن أن يكون رأى مسلَّحاً يمرُّ، وإن لم يعرف هُوِيَّته. بالنسبة إلى الشاباك، كان على هذا الشخص أن يُبلِّغ عنه.

وخلال التحقيق معهم في معتقل المَسْكُوبيَّة، بدأت تصلنا نُتَفٌ من اعترافاتهم، ومنها ما يتعلَّق بخطف وقتل والدتي، ورأت أُمُّ السَّبْع في القبض عليهم انتقاماً ربَّانيَّاً، كانت تتوقَّعه، وإن لم يكن غير كافٍ، للاقتصاص لدم والدتي البريئة العفيفة، في حين احتار البعض في التناقضات التي كوَّنت وعي أفراد الخليَّة، من قتل امرأة فدائيٍّ، حتَّى لو كانت منفصلة عنه، وتخطيطهم لمقاومة الاحتلال، وزرع قنبلة في سينما صهيون، أمَّا بالنسبة إليَّ، فغطَّت مشاعر الانتقام نحوهم على أيِّ بصيصٍ لديَّ لتبرير ما فعلوه، أو أن مقاومتهم للاحتلال يمكن أن تُقلِّل من مشاعر الانتقام، وفرحتُ بأنه تمَّ اعتقالهم، على أمل التعرُّف على هُوِيَّاتهم مستقبلاً، وأراقب تحرُّكاتهم بعد خروجهم من السجن، ولو بعد خمسين عاماً، وأقتلهم واحداً، إثر الآخر، ضمن خطَّة عليَّ العمل عليها فوراً، وبدون إبطاء. يا للفتى الغِرِّ الذي كُنتُهُ!

بعد إنهاء التحقيق معهم، وُضعوا في سجن نابلس، وترقَّبتُ كيف

سيتعامل معهم والدي، ولكنه أصبح يقيم بشكل شبه دائم في غرفةٍ مع مرضى آخرين في مستشفى سجن الرَّمْلَة، وعندما زرتُهُ بعد القبض على الخليَّة، طمأنني بهدوء، بأن مَنْ قتلوا والدتي سينالون عقابهم، فالتنظيمات داخل السجن لا تتهاون مع مثل هذه الأمور، وسيتمُّ إخضاعهم للتحقيق، للتأكُّد إذا ما كانوا عملاء للشاباك أم لا؟ وإذا تصرَّفوا من وعيهم القاصر أم نفَّذوا خُطَّة، وُضعت لهم من قِبَل المخابرات لإثارة النزاعات بين الناس والتشكيك بالأمن المجتمعي؟ مؤكِّداً أن ما فعلوه مخالف لسياسة التنظيمات الفدائيَّة.

قلتُ لوالدي، مقهوراً، بأنني أشكُّ بأنه سيتمُّ محاسبتهم، وسيذهب دم والدتي هباءً، وسيُنسى.

قال والدي بصوتٍ حزين: «يا بُنيَّ، أعرف الآن أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، بأن بنادقنا، وقنابلنا عمياء، عندما تكون كذلك مع العَدوِّ، فإنها ستصبح أيضاً كذلك مع أهلنا وناسنا، نحن فدائيُّون، نعم، ونفتخر، ولكننا عملنا بردَّة فعل، أين هي النظريَّة؟ أين هو الفكر؟».

وروى لي عن معاناته، بسبب عدم رضا التنظيم الذي ينتمي إليه عن تحوُّلاته الفكريَّة وقراءاته، خصوصاً في الفكر الماركسيّ، وقال لي بأن جهازاً للتنظيم في السجن أُطلق عليه اسم الرَّدْع، أفراده من السجناء ذوي العضلات، جاهزين لضرب أيِّ سجين من تنظيمهم، إذا قرَّرت القيادة بأن تصرُّفاته ستمسُّ هيبة التنظيم، أو تؤثِّر على أفكاره الموروثة.

ما هي الأفكار الموروثة؟ وما هي الأفكار الجديدة؟

«يا بُنيَّ، يحمل الفدائي منَّا البندقيَّة، ويزرع القنبلة، مدفوعاً بعواطفه، وقليلٍ من التخطيط، ولا يعي على نفسه إلَّا عندما يجد نفسه معلَّقاً في زِنْزانة، فتنتابه ذكرياته حول ما جرى، ولماذا جرى؟ وهل كان يمكن أن يجري

بغير الشكل الذي جرى به؟ قد تنتقل هذه التساؤلات مع السجين، بعد انتهاء رحلة عذابه في زنازين التحقيق إلى غرف السجن، حيث تتلاطم الأفكار والأيديولوجيَّات، وفي مرَّات كثيرة تنتهي التساؤلات في زنازين التحقيق، ويصبح السجين فرداً في مجموعة، تسمع وتطيع».

أضاف والدي: «يا بُنيَّ، عليكَ أن تدرك بأن الفدائيِّيْن ليسوا ملائكة، ولا شياطين، هم مثل باقي الناس، ولكن أحلامهم قُطفَت مبكِّراً، ستجد في السجن فدائيَّاً، حُكم عليه 12 عاماً، بعد اعتقاله، ولم يكن قد مضى على زواجه سوى 12 يوماً، وستجد أيضاً شباباً مثل الورود، تركوا خلفهم قصص حُبِّهم، ووعوداً مع السعادة ضربوها لفتياتهم، ورعاة أغنام، دهم الاحتلال حيواتهم، وكهولاً اندفعوا للمقاومة، ومثقَّفين ساروا على هَدي أفكارهم، ستجد مجتمعاً مثل الذي في الخارج، ولكنَّ وضوحه وتناقضاته أكثف بكثير، وفي النهاية نحن بشر، علينا دائماً التأكيد على أهمِّيَّة الوعي، لذا أقول لكَ دائماً عليكَ أن تقرأ، وتقرأ، وتناقش، وتشكَّ، يجب أن لا تُكرِّروا، في المستقبل، تجاربنا».

التاسع عشر

تطوَّرت الأمور بشأن أفراد الخليَّة بطريقةٍ غير تلك التي توقَّعها والدي، أو ما أراد إيصاله لي، خصوصاً بعد تسريب اعترافات لهم، أدلوا بها أمام قيادتهم في السجون، شرحوا فيها أن المقصودَ كان قتل رامي، وإنهم قتلوا والدتي، لسببٍ رأوه وجيهاً، وهو شفقة عليها، مؤكِّدين بأنها بريئة وشريفة، وستظلُّ كذلك، يشهد عليها طَنْطُوْر فرعون الصامد عبر التاريخ، كتجذُّر شجر الزيتون المعمّر في الجُثْمَانِيَّة، والذي رغم صمته، يعلم ببراءتها، مثلما كان شاهداً على خيانة يهوذا للمسيح، وفي كلِّ عصر يهوذا جديد، ويهوذا الجبان الخائن في ظرفنا كان رامي.

هل هذا ما توقَّعتُهُ، وأنا أنتظر ما سيفعله الفدائيُّون بأفراد الخليَّة؟ تبرير لقتل أغلى إنسان في الكون، بالنسبة إليَّ. شفقة؛ كيف؟ ولماذا؟ وماذا تعني بالضبط، أن تقتل امرأة وحيدةً تجاهد لتنجو وهي ممسكة بيد ابنها، الذي تُرك وحيداً، ووالده المناضل في السجن؟! كيف يمكن لأبناء الأسرى أن ينجوا؟ مَنْ لهم بعد غياب الأب، وفي حالتي والأُمِّ؟

وصلنا في الخارج، ما قاله زعيم الخليَّة في السجن: «بالنسبة إلينا كانت هذه المرأة العفيفة الشريفة - امرأة الفدائيّ المبادر،الذي لم ينتظر، في الوقت الذي كانوا غيره ما زالوا يعيشون صدمة الاحتلال - طُعماً للنيل من المستوطن اللعين، ولكننا بعد تصفيته، وعليكم، يا أهلنا الأحبَّاء أن لا تُصدِّقوا ادِّعاءات الاحتلال بأنه لم يمتْ، فهذا ما يدخل في نطاق حربهم النفسيَّة ضدَّنا، وسماحنا لها بالانطلاق إلى بيتها، فكَّرتُ بحجم

المعاناة التي ستتعرَّض لها، ليس فقط من القيل والقال في مجتمعنا الذكريّ المتخلِّف الذي لا يرحم، ولكنْ، أيضاً من مخابرات الاحتلال التي ستعتقلها وتحقِّق معها وتُخضعها للتعذيب، وقد تفشي ما يمكن أن يكون لديها من معلومات عن رفاقٍ لزوجها، لم يعترف بها لدى اعتقاله مصاباً، فقرَّرت إراحتها من المعاناة المرتقبة، ويكفيها أنها شريفة عفيفة أمام الله الذي يعرف السرائر، ففتحتُ بندقيتي وفرَّغتُها في ظهرها، وكذلك فعل رفاقي، والحمد الله، سقطتْ على الأرض سريعاً، بدون أن تعاني، وربَّما بفضل الله، لم تشعر بموتها السريع والشريف، وهي تستقبل أرضنا الطاهرة المباركة، شهيدة، أو نحسبها كذلك، ولا نُزكِّي على الله، الواحد الأحد، أحداً».

وممَّا جاء في الرسالة أيضاً: «نحسدها بأن دمها تشرَّف بأن تشربه ترابنا، وهو ما يتمنَّاه كلٌّ منَّا، هي السابقة، ونحن اللاحقون، بإذن واحدٍ أحد، لا تضيع لديه المظالم، والمطالب، الذي يعرف ضعف خلقه وقوَّتهم».

هذا مضمون الرسالة المُهَرَّبَة من السجن، التي كُتبت بحروفٍ صغيرةٍ، تكاد لا تُقرأ، التي أعطاني إياها عمِّي، واحتجتُ لمُكَبِّر، ابتعتُهُ من مكتبة المُعْطِي حتَّى أقرأها، متحمِّلاً الفضول السمج لابنة صاحب المكتبة، ولم تزدني، الرسالة إلَّا حقداً على القَتَلَة، ولكنها بدت كافية لعمِّي وباقي أفراد العائلة، ليس لأنهم اقتنعوا بما جاء فيها، ولكنْ، بسبب التعقيد الذي اكتنف القضيَّة كلَّها، ففي النهاية مَن ارتكب الجريمة معتقلون لدى الأعداء، وسيُواجهون أحكاماً طويلة بالسجن، ليس بسبب موت أُمِّي، ولكنْ، لمحاولتهم قتل رامي، الذي نجا ممَّا سمَّاه عمِّي: «النضال العَبَثِيّ، الذي يقتل الأقرباء، ويفشل في قَتْل الأعداء».

وبوجود القَتَلَة في السجن، في قضيَّة وطنيَّة، أُسقط حقُّنا العشائريُّ،

حسب قوانين مجتمعنا، واكتفى عمِّي والعائلة، باستقبال جاهة كبيرة من فعاليَّات القُدْس وقُراها، استقبلناها في ساحة العَينْ، جاءت لتؤكِّد طهارة أُمِّي المؤكَّدة، وبراءتها، ووطنيَّتها، وتنتقد، بخفر الرصاص العَبَثِيّ الذي أودى بحياتها، وتعزو ما حدث للتصرُّفات الطفوليَّة البريئة.

كلُّ ذلك لم يُعدْ لي أُمِّي، ولم يُشكِّل عزاءً لي، حتَّى الآن.

سأتدرَّب سريعاً على محاولة النسيان، فالدنيا تسير ولا تنتظر البطيئين والمتأخِّرين، ولكنْ، كيف يمكن لي أن أنسى؟ ما زال جرحي، حتَّى بعد كلِّ تلك السنوات نَدِيَّاً.

على الأرجح، فإن القَتَلَة أُطلِق سراحهم، وهم الآن يجوبون القُدْس، ربَّما كأبطالٍ، قضوا سنوات في السجون، ويتبوَّؤون مناصبَ في السلطة الفلسطينيَّة، وعلى الأرجح أيضاً فإن قلَّة مَنْ يذكر مصير والدي ووالدتي، أمَّا بالنسبة إليَّ، فلا شكَّ أن لا أحد يذكرني، أو يتذكَّر ما كابدتُهُ، لقد أخرجوني، في هذه المدينة، من حساباتهم مبكِّراً.

الحسابات الفَرْدِيَّة، مهما عظمت، تتضاءل في القُدْس، أمام الأهداف الكبيرة الجمعيَّة.

العشرون

«عزيزي كافل

سأذكر دائماً من الانتفاضة، التعاضد بين الناس، وتوقهم إلى الانعتاق، والعيش بحُرِّيَّة، ولكن ذلك، كما تعلم لم يحدث، وحدثت بدلاً منه، أمور غريبة، صدام غزا الكويت، وأميركا غزت الكويت والعراق، وأغلقت دولة الاحتلال القُدْس أمام أهالي الضفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة.

خرج زوجي وحبيبي من السجن، ولكنه لم يعد حبيبي، ولم أعد حبيبته، فانفصلنا، ثمَّ تطلَّقنا، وانشقَّ حزننا، هو في جهةٍ، وأنا في الأخرى، وخرجتُ من قريتكم، إلى حارة النصارى في القُدْس القديمة، وسكنت بجانب كنيسة القيامة، وكُلُّ ما ترتفع عيناي لرؤية السُّلَّم الخشبي، أتذكَّرك. ولعلَّكَ تريد أن تتذكَّر وتعرف ما لم أعرفه أنا وأنتَ عنه.

وأُحبُّ أن تعلم أن في كنيسة القيامة أيضاً توجد مغارة كنوز، يسمُّونها خزانة الأواني المقدَّسة، أو حافظة التحف، وأُسمِّيها خزانة الأسرار. تسلَّلتُ إليها وأنا أشعر وكأنكَ رفيقي في رحلة الاكتشاف، نرى معاً ونتحسَّس الأيقونات والمخطوطات والكُتُب، ومختلف الكنوز الأثريَّة والفنِّيَّة المبهرة. قد تعود البدايات الأولى لخزانة الأواني المقدَّسة في كنيسة القيامة، إلى عهد القدِّيسة هيلانة التي بَنَتْها فوق المكان الذي شهد حادثة الصلب وَفْقَاً للتقاليد المسيحيَّة، حيث حُفِظَت الهدايا الإمبراطوريَّة المقدَّمة للكنيسة. يمكنكَ تخيُّل كيف يمكن أن تختلف النظرة للديانة الجديدة، بعد نبذ فترة النبذ، فتتدفَّق الهدايا بدلاً من أدوات التعذيب والملاحقة، هناك

دائماً مَنْ يلاحظ الاتِّجاه العامَّ الغالب بقوَّة التابعين والفقراء وأصحاب المصلحة في التغيير، فيستحوذ، ويبسط نفوذه، ويقدِّم هداياه.

وحتَّى القرن السادس، حُفِظَت في هذه الخزانة، الأواني الذهبيَّة المقدَّسة، والستائر الحريريَّة والأقمشة، بما فيها الرداء المُطرَّز بخيوطٍ ذهبيَّة، الذي أهداه الإمبراطور قسطنطين إلى أسقف القُدْس مكاوريوس. هل وصلتْكَ فكرتي؟

ولاحقاً ضُمَّ الكثير من الكنوز إلى الخزانة، مثل الصليب الذهبيِّ هديَّة من الإمبراطور ثينوذوسيوس، وهدايا الإمبراطورة أفذوكيا، والإمبراطور مافريكيوس، والصليب المصنوع من اللؤلؤ الذي أهدتْهُ الإمبراطورة ثيودورا، والتاج المرصَّع بالأحجار الكريمة، هديَّة من ملك الحبشة اليسفان، وأوانٍ مقدَّسة مُقدَّمة من الإمبراطور جوستنينان، وكأس مصنوعة من العقيق اليماني، يُعتقَد وَفْقَاً للتقاليد بأنها الكأس المستخدَمَة من قِبَل السيِّد المسيح خلال العشاء السرِّيِّ، هل يمكن أن يُصدِّق شكَّاكٌ مثلكَ ذلك؟

نُهبت وسُرقت خزانة الأسرار، كما علينا أن نتوقَّع، منذ مرحلة مبكِّرة، ربَّما على يد الفُرْس، عندما احتلُّوا بلادنا، وفي فترات أخرى، استمرَّت الهِبَات التي وجدت طريقها إلى مغارة علي بابا هذه، والتي قدَّمها حُجَّاج بسطاء، وحكَّام من مختلف أنحاء العالم، وقياصرة، وأباطرة وبطاركة وكَهَنَة.

كيف أصف لكَ الهدايا من الذهب والفضَّة والملابس الكهنوتيَّة؟ كيف أنقل لكَ الجمال المُزغلِل للعيون في نماذج مقصورة القبر المقدَّس والصلبان المرصَّعة بالماس؟

ماذا سأقول لكَ عن الأناجيل ذات الأغطية الذهبيَّة، والمرصَّعة بالأحجار الكريمة، التي يمكن للمرء، إذا كان محظوظاً مثلي، رؤيتها مرَّة في العُمُر؟

وماذا عن الملابس الكهنوتيَّة المُطرَّزة بخيوطٍ ذهبيَّة، وكأن الصلاة في كنيسة قبر نبي التواضع، لا تجوز إلَّا بالذهب؟

عملتُ مشرفة في إدارة للمدارس المسيحيَّة، وتوقَّف نشاطي الحزبيُّ، ولم أعد أدري في أيَّة جهة أقف، ولا أعرف إلى أيِّ مدى أصبحتُ مرتاحة؟ ولكنني شعرتُ بأنني بحاجةٍ إلى وقتٍ يتوفَّر لي، لأفكِّر في نفسي ومستقبلي، وأربيِّ ولدَيَّ، وهما ولدٌ وبنتٌ، وأحافظ على تواصلٍ معقول مع والدهما، وهو الأمر الذي حرص عليه أيضاً.

وكنتُ أعرف أن هناك مَن اعتبر طلاقي فشلاً لزواج مختلط، بين صاحبَي دِينَيْن مختلفَيْن، وهو ما لم نكن نفكِّر به أنا وطليقي، ولم يهمّني ماذا يمكن أن يستنتج مَنْ يعطي وقتاً للاهتمام بحياتي الخاصَّة، من مسألة طلاقي.

وعموماً، لم تطلْ كثيراً فترة وجودي بدون زوج، ومَنْ أثار غيرتكَ عندما ذهبنا إلى حارة الأرمن أصبح زوجي، كيف؟ ولماذا؟ لا أعرف، ولم نُخطِّط أنا وهو لذلك، ولكنَّ هذا ما حصل، وسيأتي لاحقاً، ما أردنا اعتقاده، بأننا أحببْنا أو أُعجبْنا ببعضنا من تلك الأيَّام، التي أصرَّت على العودة، بعد أن دارت بنا الدنيا، لتجمعَنا معاً.

تزوَّجتُ في كنيسة القيامة، وليس في دير الأرمن، وهو ما أزعج الأرمن من جماعة زوجي، على صوت الشباب:

«أوَّل ما نبدي ونقول
صلُّوا على العذرا البتول»
وزغردت لي أُمِّي:
باب القيامة عالي
واجب أشرعه بأيدي

وخلّي قلبي يفرح
قد ما بكت عيني
**

دارنا وفي دارنا بير
مغطّى بشرشف حرير
حلفت يا ناس ما ألفه
إلّا أشوف بنتي في إكليل

وكانت زغرودتها الأخيرة، قبل موتها بعد أن اطمأنَّت، وسعدتْ بزواجي من مناويل، فهو، في النهاية مسيحيٌّ مثلي، حتَّى لو كان أرمنيَّاً، ومن كنيسةٍ أخرى.

لم يرتح بعض الأرمن لزواجنا، فهم اعتادوا على الزواج من أرمنيَّات، وفي مرحلة لاحقة، بعد سقوط الاتِّحاد السوفيتي، وعندما لا يجدون أرمنيَّة في القُدْس تروق للواحد منهم، يذهبون إلى أرمينيا، والعودة بفتاةٍ جميلة شقراء.

مع غزو صدام للكويت، وغزو أميركا للعراق والكويت، وهنت الانتفاضة كثيراً، ولكنها حافظت على ساعات الإضراب اليوميَّة، حيث تُغلِق المحالُّ أبوابها في منتصف النهار، وكذلك استمرَّ الالتزام بالأيَّام التي تحدِّدها البيانات، كأيَّام إضراب، خصوصاً الأيَّام الثلاثة الخاصَّة بفصائل منظَّمة التحرير، وحركة حماس، وحركة الجهاد الإسلامي، وانفرط إلى حَدٍّ كبير عقد النشاطات الشعبيَّة، كالتعليم، ولجان الحراسة، وتوزيع المؤن على المحتاجين، وغيرها.

وظهرت مسيرات واحتجاجات، تخصُّ قضايا بدت غريبة جدَّاً علينا، مثل ما يتعلَّق بالكاتب البريطانيِّ الهنديِّ سلمان رشدي، الذي تلاحقه

فتوى الخميني بقتله، رأيتُهم يحرقون دُمية تمثِّله، وهم يصرخون ويهتفون ضدَّ أميركا وإسرائيل، أين كلُّ هذا ممَّا كنَّا عليه في زمننا، زمني وزمنكَ، وزمن والدكَ ومريم التشاديَّة؟ وأضحت ساحات المسجد الأقصى منابر لحزب التحرير، وظهرت أُمُّ القعقاع كمتحدِّثةٍ في جمهور المصلِّيات. وعلى فكرة أنتَ تعرفها.

خلال الانتفاضة، كان لدى الناس أمل، وعندما يتناقشون، حول المستقبل، تجدهم على قناعة بأنه سيكون لنا دولة، وحتَّى عندما يتشاءم بعضهم، يتحدَّثون عن دولةٍ آتية لا محالة، وإن كانت منزوعة السلاح، أو تحيا في ظروفٍ محدَّدة.

ولكنَّ الأملَ بدأ يخفت، مع انطلاق مؤتمر مدريد للسلام، ومشاركة الوفد الفلسطينيِّ ضمن الوفد الأردنيِّ، وتسلَّلت الانقسامات بين المنتفضين، وانطلقت موجة التخوين، ووصل التفتُّت إلى الأحزاب نفسها، التي أضحت على وشك الانقسامات، وبعضها مثل حزبنا، كما أخبرتُكَ، انشقَّت بالفعل.

المحامية فولا، التي لا بدَّ أنكَ تذكرها، قرَّرت الرحيل ورمي جنسيَّتها الإسرائيليَّة، والعودة إلى موطنها ألمانيا، رغم ما تعرَّض له اليهود هناك على يد النازيَّة.

ظلَّت حتَّى قبل رحيلها، في مكتبها بشارع كورش، وأظهرت اهتماماً بأناقتها، وأعلنت أنها لم تعد تحتمل المحاكم العسكريَّة الإسرائيليَّة، غير النزيهة أبداً، التي يُقدَّم لها الأطفال الفلسطينيُّون، وأنها ستغادر البلاد، رغم ما اختزنتْهُ من ذكريات، وستظلُّ مدافِعةً عن حقوق شعبنا.

وأعلنتْ في مؤتمرٍ شاركتْ فيه بأميركا، وهي تردُّ على قاضٍ عسكريٍّ إسرائيليٍّ لاحقها إلى هناك، واتَّهمها بالدفاع عن قَتَلَة مدنيِّيْن: «ستظلُّ

مسؤوليتنا نحن، عن أيِّ هجوم يُقتَل فيه مدنيُّون إسرائيليُّون، الاحتلال هو السبب في كلِّ الخراب، الاحتلال الذي يميِّز بين فلسطينيٍّ وإسرائيليٍّ، ويمارس الإرهاب، هو سبب كلِّ سوء، نحن مَنْ ندفعهم لتنفيذ عمليَّات يُقتَل فيها مدنيُّون، لأننا نرفض الاستجابة لمطالبهم العادلة، نحن مَنْ يتحمَّل وزر كلِّ قطرة دم مسفوحة منَّا ومنهم، المهمُّ أنني الآن لم أعد ورقة التوت التي تستر عورة محاكمكم العسكريَّة التي أضحت مَسْخَرَة».

لعلَّكَ تعرف بأن دولة الاحتلال في عام 1995م، قدَّمتْ اعتذاراً رسميَّاً إلى الحكومة السويديَّة عن اغتيال برنادوت الذي مات وعُمُره 53 عاماً. لقد اعترفت أخيراً، بعد عام من ترك إسحق شامير، كرسي رئاسة الوزراء، وهو المتَّهم مع غيره بقتل الوسيط الدولي، وظهرت صورته في منشور للقوَّات البريطانيَّة، كإرهابيٍّ مطلوب لها.

أمّا بالنسبة إلى الدكتور يعقوب، الذي لم تقبض السلطات البريطانيَّة على قاتله، فإن لغز اغتياله انكشف، بعد أن أقرَّ واحد ممَّنْ نفذوا الاغتيال بالجريمة، وهو في مقرِّه الجديد في جنوب إفريقيا. قرَّر هذا المجرم الذي كان عضواً في منظَّمة إرهابيَّة صهيونية الحديث، وقد أنهكتْهُ السنون، وقال بأن منظَّمته اغتالت الدكتور يعقوب، لمناهضته للصهيونية، وسعيه لإنشاء لجنة عربيَّة - يهوديَّة في مواجهة المشروع الصهيوني.

قال الإرهابي المتقاعد: «قتلناه، لأنه خائن».

هكذا تحدث الأمور في الأرض المقدَّسة».

الواحد والعشرون

«ربَّما تريد أن تعرف ما حلَّ بشارلي، بعد خروجه من السجن، أكمل تعليمه العالي في الجامعة العبريَّة، وغادر المُصْرَارَة، إلى تلِّ أبيب.

وهل تعلم، بأن الحَيَّ الذي قطنه شارلي ورفاقه من الفهود السود، أصبح اسمه الرسمي: زقاق الفهود السود؟ وأُدرج على خارطة القُدْس السياحيَّة، تمعَّن في كيف تتغيَّر الأمور حتَّى لدى أعدائنا، ما لا يمكن أن يكون مقبولاً في مراحل يصبح إرثاً في مراحل أخرى، أمَّا نحن، فما زلنا غارقين في مشكلاتنا الكثيرة، والانقسام ينخر في أجسادنا. لا أعرف لماذا يتوجَّب علينا أن نختلف على أيِّ شيء، وكُلِّ شيء؟ من أين يأتينا كلُّ هذا الترف؟

على ذِكْر شارلي، الذي حظي باهتمام إعلاميٍّ، بعد خروجه من السجن، كيهوديٍّ إسرائيليٍّ، كان عضواً في تنظيم يساريٍّ فلسطينيٍّ، سطع نجمه في الأوساط الأكاديميَّة الإسرائيليَّة، عندما نشر كتاباً تتبَّع فيه من خلال الوثائق الإسرائيليَّة التي كُشف عنها - بعد مرور المدَّة اللازمة - حالات الاغتصاب التي تعرَّضت لها فلسطينيَّات خلال النكبة، وربط ذلك بذكوريَّة العصابات الصهيونية، ومفاهيم السيطرة، والسلطة، متَّبعاً منهج الفيلسوف الفرنسي فيكو.

وأضحى شارلي مع آخرين رموزاً لما يُوصفون بالمؤرِّخين الإسرائيليِّيْن الجدد، وشارك في نقاشٍ اندلع في الصحف حول شخصيَّة علي عمَّار. نعم، ليس غيره صوت الاحتلال الجديد، الموجَّه لنا.

وبدا الأمر، مع نشر صحيفة يديعوت أحرنوت، فيما اعتبرتْهُ سَبْقَاً، لوثائق عن الوحدات الصهيونية الخاصَّة المسمَّاة بالمستعربين، وعملها في أوساط العرب قبل عام 1948م.

وعقَّب على ما نشرتْهُ على لسان ما وُصف بأنه مؤسِّس وحدة المستعربين، والذي أصبح وزيراً في أكثر من حكومة إسرائيليَّة لاحقاً، وأشار هذا إلى حالة نجاح، واختراق للمجتمع الفلسطينيّ في شخصٍ وصفه بأنَّه صحافيٌّ عربيٌّ مسلم من القُدْس، كان والده عميلاً، وكانت المقاومة الفلسطينيَّة تشكُّ في هذا الصحافيِّ، فطلبت منه، ليُثبت وطنيَّته إدخال مَرْكَبَة ملغومة، لتُوضَعَ أمام سينما أديسون بالقُدْس، ولكنَّ هذا الشَّخص أبلغ العصابات الصهيونية التي استلمت المَرْكَبَة، ونشرت خبراً عن إحباط عمليَّة بواسطة مَرْكَبَة ملغومة للتغطية على هذا الشخص.

ولإضفاء الكثير من الدراميَّة، نثر مؤسِّس وحدات المستعربين بهارات حول حكايته، مشيراً إلى أن الصحافيَّ المسلم العميل، كانت له صديقة يهوديَّة، فنقلتْهُ العصابات الصهيونية معها إلى يافا، وبعد فترة عمل هذا الصحافيِّ في الإذاعة الإسرائيليَّة كما عمل في الإذاعة الأردنيَّة، وتزوَّج من صديقته اليهوديَّة التي عملت في فرع الهستدروت بالقُدْس، وقُتلت ببلطة، وبعد ذلك، تفرَّقت عائلة هذا الصحافيِّ، حيث سكن بعض أبنائه عند العرب، وقسم آخر بقي في إسرائيل وأحد أبنائه أصبح قائداً في سلاح المدرَّعات.

تدخَّل شارلي، مستنداً إلى وثائق، اطَّلع عليها في الأرشيف الإسرائيليِّ، ليضع يده على ما وصفها بالهَنَات فيما نُقل عن مؤسِّس وحدات المستعربين، مثل الإشارة إلى عمل هذا الصحافيِّ في الإذاعة الإسرائيليَّة وفي الإذاعة الأردنيَّة، وطريقة قتل زوجته، مشيراً إلى أن الحديث، في الواقع،

يتعلَّق بمَنْ عرفه الفلسطينيُّون والعرب لسنوات باسم علي عمَّار الذي عمل لسنوات طويلة كمُعِدٍّ ومقدِّمٍ لبرنامجٍ صباحيٍّ مباشر في الإذاعة الإسرائيليَّة.

وذكَّر شارلي القُرَّاء بأن برنامج علي عمَّار كان أحد المقرَّرات التي كان يستمع إليها الأسرى في سجون الاحتلال، حيث لم يكن هناك إلَّا جهاز راديو واحد، تُوصَل منه سمَّاعات لكلِّ غرفة، وتفتح إدارة السجن هذا الراديو في ساعاتٍ محدَّدةٍ صباحاً ومساءً، وفي كلِّ صباح كان يُفرَض على الأسرى سماع علي عمَّار لمدَّة ساعتَيْن، ثمَّ يُغلَق الراديو، كما خَبِر شارلي ذلك بنفسه.

وخلص شارلي، بِغَلَّةٍ بحثيَّةٍ بسيطةٍ، تناسب قُرَّاء الصحف، بأن ذلك كان جزءاً من سياسة الإعلام الإسرائيليِّ الموجَّه، والذي كان يضمُّ بالإضافة إلى الإذاعة وفارسها علي عمَّار صحيفة الأنباء التي أصدرتْها السلطات الإسرائيليَّة، يوميَّة بالعربيَّة، وأن هذا يجب أن ينتهيَ الآن، ليس فقط لأن التاريخ تجاوز مثل هذه الأنواع من البروباغندا، ولكنَّ لأن الفلسطينيِّيْن، وكما يتَّضح ممَّا يجري في مؤتمر مدريد، وغيره من لقاءات، سيكونون شركاء الإسرائيليِّيْن في صنع السلام.

وتحدَّث شارلي، عن معرفته بعلي عمَّار، خلال سنوات القُدْس بعد الاحتلال، ومعارف عليّ من العرب، وكأنه يتحدَّث عن أبيكَ، يا كافل، وفي الوقت ذاته، أشار كيف كانت شخصيَّة هذا المستعرب تثير فضول المستمعين، فهو يتحدَّث اللغة العربيَّة بطلاقةٍ وبصوتٍ إذاعيٍّ له وقع، وفي نفس الوقت، بدا اسمه وكأنه اسم مستعار، وراجت التوقُّعات بأن يكون يهوديَّاً صهيونيَّاً، أو من العرب الذين بقوا في أرضهم بعد النكبة، وذهبت بعض التوقُّعات لتشير إلى أنه من هذه المدينة الفلسطينيَّة أو

تلك من مُدُن الضفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة، وكان واضحاً بغضِّ النظر عن شخصيَّته، علاقته الوثيقة بأجهزة الأمن الإسرائيليَّة التي وضعت تحت تصرُّفه ميكرفونات إذاعة الاحتلال الإسرائيلي الموجَّهة.

وختم شارلي مقالته، مشيراً، إلى أن الوثائق التي اطَّلع عليها لا تشير إلى هُوِيَّة الصحافي العميل، الدينيَّة، أو العربيَّة، وأنه يعلم، من جهات موثوقة، بأن أُمَّه فلسطينيَّة عربيَّة.

لا أعرف لماذا حضر كلُّ هذا الكلام عن علي عمَّار، ولكننا عندما نخطُّ الرسائل لمَنْ نحبُّ، لا نعرف، كيف ستسير الكلمات، التي تستقلُّ عنَّا، وتذهب إلى ما تعتقد أنه يهمُّ المكتوب إليه.

رحل العمُّ جبر تاركاً القُدْس في مرحلةٍ أخرى صعبة من عُمُرها، وذكرى طيِّبة لدى الناس، وهذا المهمُّ، عندما نجد كلَّ هذا الاهتمام بشخص من الناس مثل العمِّ جبر، فإن بوصلة الناس ما زالت صحيحة. ويبدو أن بلديَّة القُدْس كانت تنتظر وتراقب، فبعد رحيله، تحرَّكت وأزالت بسطة الكُتُب والصحف، أمام عِمَارَة الأولومبيا، ولم تسمح لأيٍّ من أولاده استخدامها، متذرِّعة بما قالت إنه قانونٍ لا يُجيز وراثة البسطات في المدينة، وبرحيله، غاب آخر بائع للكُتُب والصحف في مدينتنا.

أتأمَّل كنيسة نِيَاحَة العذراء على جبل صهيون، المعروفة باسم دورميتيون، من موقعي قرب الطاحونة؛ هذه القطعة الألمانيَّة المتربِّعة على أرض قدسنا، وأفكِّر في الأنماط المِعْمَارِيَّة التي تُغنِي مدينتنا. يا لقُدْسنا! يا لهذا المتحف المشرع في الهواء، وللرياح! أرى قُبَّة الكنيسة الكبيرة، تحيط بها أربع قباب أصغر، تعلو أربعة أبراج مخروطيَّة، تُشكِّل فيما بينها ما يشبه برجاً حصيناً يحيط بالقُبَّة الكبيرة.

ماذا كانت تطحن الطاحونة؟ هل فعلاً كانت تطحن القمح لليهود الفقراء؟ لقد عانت من رياح القُدْس المتقلِّبة، ويقال بأنها إذا حالفها الحظُّ، فإنها كانت تعمل نحو عشرين يوماً في السنة، مع توفُّر نسائم قويَّة، لقد كان وجودها مناقضاً لأهواء القُدْس وهوائها، بالإضافة إلى أن معضلة أخرى واجهتْها، فالتصميم البريطانيُّ لها كان يناسب القمح الأوروبيّ اللَّيِّن، أمَّا القمح الصليبيّ الفلسطينيّ، فيتطلَّب طاقة أكبر من نظيره الأوروبيّ.

قاومت الطاحونة العائقَيْن غير المؤاتيَيْن، وعملت نحو عقدَيْن، حتَّى ظهرت في القُدْس مطحنة تعمل على البخار عام 1878م - هذا ما كتبوه على جدار الطاحونة، تعريفاً للزوَّار.

رُمِّمت الطاحونة بعد سنوات طويلة من الإهمال في الثلاثينيَّات من قِبَل البريطانيِّيْن، ولكنها عادت لتدخل حالة من التدهور، وسيطرت العصابات الصهيونية على الموقع الاستراتيجي في عام 1948م، وهاجم المناضلون الفلسطينيُّون يمين موشيه وطاحونته أكثر من مرَّة، واشتبكوا مع البريطانيِّيْن والعصابات الصهيونية، وفي آخر مرَّة حقَّقوا نصراً، ولكنهم لم يحتلُّوا الحَيَّ، وكتب الأُستاذ عارف متحسِّراً: «ولم يُعرَف بعد لماذا لم يحتلّ المناضلون الحَيَّ». لم يُعرَف الأمر حتَّى الآن ..! وعاش الأُستاذ، ليشهد النكسة، وليرافق الشيوخ لمناقشة بروفيسور الحفريَّات غير الشرعيَّة.

أعاد الصهاينة سيطرتهم على حَيِّ يمين موشيه وحصَّنوه، وسيطروا على طُرُق المواصلات الاستراتيجيَّة بين باب الخليل وباب النبي داود ومحطَّة قُدْس شريف وشارع بَيْت لَحْم.

أراد البريطانيُّون فرض وجودهم، فقرَّروا تفجير الطاحونة، وسيدخل ذلك في الأدبيَّات الصهيونية من باب الفخر بأنهم عانوا أيضاً من الاحتلال البريطانيّ، وسَمَّوا العمليَّة دون كيشوت للتقليل من أهمِّيَّتها.

جنود بريطانيا العظمى التي كانت على وشك أن تكفَّ عن عظمتها، الذين أوكل لهم مهمَّة التفجير، كانوا بالصدفة البحتة من مسقط رأس مونتيفيوري، وعندما لاحظوا اسم مواطنهم على اللوحة التعريفيَّة «أعادوا تفسير» الأوامر، وفجَّروا فقط مركز المراقبة في الجزء العلوي من الطاحونة.

لم تتكرَّر مسألة إعادة التفسير أبداً، عندما كان الأمر يتعلَّق بالعرب الفلسطينيِّيْن، نحن قليلو الحظِّ، وقليلو التخطيط.

محبَّتي

لُور».



الثاني والعشرون

أرى من مكاني، وأُري ابني، وأنا أشير له لينظر إلى سفح جبل الزيتون الغربي، كنيسة الدمعة وهو الاسم الشعبيُّ لها، بينما تُسمَّى رسميَّاً، كنيسة بكاء الربِّ، وأحاول لفت انتباهه كيف تبدو واجهتها، مشيراً إلى الرَّخَّة، كما يُسمِّيها ناسنا، وهي المستطيل النازل من أعلى في الوسط تماماً، والذين تصوَّروها الدمعة كما تخيَّلها فنَّان غربي، جاء إلى بلادنا ليُعبِّر عن مسيحنا، ولكنها ليست الدمعة، يا ولدي، كما اعتقدتُ وأنا في مثل سنِّكَ، هذه الرَّخَّة وأخواتها الرَّخَّات هنَّ حاملات الدمعة الكبيرة، ولكنها ليست دمعة كبقيَّة الدمع؛ إنها دمعة ضخمة مقلوبة، مغطَّاة بالرصاص، تحملها من جوانبها المختلفة رَخَّات، وعلى كلِّ رَخَّة، قارورة مقلوبة، تحاكي قوارير الدمع الرومانيَّة، التي تُكتَشَف في المقابر القديمة المحيطة بالقُدْس، المخصَّصة لإسالة دموع الناس على أحبَّائهم فيها، وعندما يصحو الميِّت من غفوته، ويرى نفسه محاطاً بالمدامع، تهدأ روحه، ويدرك كم هو ما زال عزيزاً على أهله.

المدامع المقلوبة المحيطة بالدمعة الكبيرة المقلوبة قد ترمز إلى دموع المسيح على القُدْس، أو دموع الناس على المسيح الذي غادر القُدْس، حزيناً، مكلوماً.

كنيسة الدمعة الجديدة بُنيت على أنقاض كنيسة بيزنطيَّة قديمة، عندما توقَّف المسيح، وهو يصعد جبل الزيتون، ونظر إلى القُدْس، وبكى على حالها وهو يخاطبها: «ليتكِ عرفتِ أنتِ أيضاً في هذا اليوم طريق

السلام! ولكنه حُجب عن عينَيْكِ. فسوف تأتيكِ أيَّام يلفُّكِ أعداؤكِ بالمتاريس، ويحاصرونكِ، ويُضيِّقون عليكِ الخناق من كلِّ جهة، ويُدمِّرونكِ وأبناؤكِ فيكِ، ولا يتركون فيكِ حجراً على حجر، لأنكِ لم تعرفي وقتَ افتقاد الله لكِ»[7].

وكأنه قَدَر القُدْس، المدينة القَدَرِيَّة، التي لا تستطع فكاكاً من قَدَرها، تُهدَم وتُبنَى، وتُحتَلُّ، لتُحتَلَّ من جديد. تناهى إليَّ صوت أبي، وكأننا نقف سويَّاً، نراقب جبل الزيتون، وطَنْطُوْر فرعون، وهو يقول لي: ابكِ أنتَ أيضاً القُدْس، وقريتنا ووادينا، وجبل زيتوننا.

ولا أعرف إذا كان على ابني أن يقف بعد عُمُر ما هنا، ويبكي مثلي ..!

أُدرِّج ناظري قليلاً إلى كنيسة مريم المجدليَّة، أتذكَّر حديث والدي الواثق، عن الثورة الروسيَّة، التي أودت بحياة العائلة القيصريَّة، ورسم لي لوحة، كما شاهدها في فيلم سينمائي، كيف عبَّر فيها المخرج عن رمز الثورة؛ اللون الأحمر، عندما امتلأت الشاشة الكبيرة بمنظر الدماء عقب المجزرة المفترَضة.

قال والدي بأن الثورة لا تنجح إلَّا بالدماء، ولذا فإن العَلَم الأحمر يجب أن يكون رمز الثورات.

تخيَّلتُ بأن أُفق جبل الزيتون تحوَّل أمامي إلى لونٍ أحمر، يشبه الشفق، وأنا أسأله:

- كيف يمكن لِلَون الدم أن يصبح راية؟

كرهتُ اللون الأحمر، وأحببتُ وهج شمس القُدْس التي تعكسه القباب السَّبْع البصليَّة، وها أنا الآن أُحدِّث ولدي، بقَدْر ما يستوعب عقله، أو ما أفترض أنا ذلك، عن تلك الذكريات، وكيف تغيَّرت نبرة والدي، وأصبح

أكثر تفهُّماً وهو يتحدَّث عن مسيرة الأميرة البيضاء النائمة في سفح الجبل، وطريقها الطويلة إلى مستقرِّها الأخير.

قال والدي: «لا أُنكر بأنني أتعاطف مع الأميرة النائمة على سفح جبلنا. يُوقِّرونها في الدير، ليس كقدِّيسة، وإنما كنبيَّة، ورسولة، وملهمة، قدَّمت مجوهراتها من أجل مسيرتها الأرثوذكسيَّة، وبعد الثورة أسرها البلاشفة، كجميع أفراد العائلة، وألقوا بها في منجم، مع آخرين وأُخريات للتخلَّص منهم ومنهنَّ، ولم يكن أمام البلاشفة خيار آخر. عندما نتحدَّث عن الثورات، علينا أن نعيَ عمَّا نتحدَّث، وعلينا ترك العواطف جانباً، ولكنها نجت ووصلت القُدْس، بطريقةٍ شاقَّة، وبحوادث تشبه الأفلام، أهلاً بها، رفاتها أضحى من تراب القُدْس».

رجوتُ والدي إخباري قليلاً عن تلك الطريق، فامتنع لأنه لا يعرف بالتحديد ما جرى، أو لأنه اكتفى بما أراد إيصاله لي عن الثورات الحمراء الدمويَّة.

بحثتُ عن أميرتي النائمة، التي تعاطفتُ معها، ونبشتُ عن حكايتها الدراميَّة، وكرهتُ خصومها، ولم يكن ذلك سوى أوَّل تمرُّد صغير، على آراء والدي، لم أُدركه في حينه، وأُحبُّ أن أُؤوِّله الآن كذلك.

تمنَّى والدي، لو أن كاتباً شهيراً، من مواطني الأميرة وصل إلى جبلنا، وعاش عليه حتَّى استقراره الأخير، بالقرب من الأميرة.

قال والدي: تُخبرنا زوجة دوستويفسكي الكثير عن حالات اليأس والقنوط التي مرَّ بها عظيم روائيِّي العالم، وفي مرَّة أخبرها، وهو في حالة يأس، بأنه سيختار طريقاً من ثلاثة طُرُق، منها رحيله إلى القُدْس، ليقيم مع الأرثوذكس هنا، وربَّما لآخر العُمُر، وكانت كفَّة القُدْس هي الراجحة، ووسَّط رئيس اتِّحاد الأدباء الروس للاتِّصال بالقنصل الروسيِّ في القسطنطينية؛

لتسهيل أمر رحيله، وكان يأمل أن يغيِّر وصوله إلى القُدْس مجرى حياته جذريّاً».

عندما نظرتُ إلى والدي الذي كان يتحدَّث بصوتٍ خفيضٍ، وكأنه يخشى إقلاق نومة الأميرة التي كره عائلتها، خلتُهُ يرنو إلى أبعد من جبل الزيتون، ويسبر غور الزمن: «تُرى بماذا كانت قُدْس دوستوفيسكي ستختلف عن قُدْس كازنتزاكي المولع بشعب التوراة أو بقُدْس مارك توين الساخر من كلِّ شعوب الكُتُب المقدَّسة وغير المقدَّسة؟ لو وصل دوستويفسكي القُدْس، لعلَّه كان سيقطن مؤقَّتاً في المسْكُوبيَّة، ويتنقل في أديرة صحراويَّة، ويقيم بجانب نهر الأردن، ويستقرُّ أخيراً على جبل الزيتون. أيَّة ملاحم كان سيخطُّها قلمه عن المدينة المؤسطرة؟! كيف كان سيُؤَسْطِرُ المُؤَسْطَرَ؟! أيَّة قُدْس كنَّا سنعرف، يا بُنيَّ؟!».

ضغطتُ على يد ابني، وأنا أُكرِّر الجملة الأخيرة، وأُردِّد، يا بُنيَّ، يا بُنيَّ..!

وأشعر بسخونة دمعة فلتت من عيني..! كم أفتقدكَ، حتَّى بعد كلِّ هذه السنوات، يا أبي.

الثالث والعشرون

لا أبكي، لا أريد أن أبكيَ. فألجأ إلى رسالة لُور الثالثة، وأفضُّ المكتوب:

«عزيزي كافل:

أكتب لكَ، وأنا في حالة إحباط، يبدو أنها ستستمرُّ طويلاً، أشعر بأنني غريبة، وكأن هذا الشعب، الذي وثقتُ به دائماً، واعتقدتُ أنه دائماً ما يتَّخذ القرارات الصائبة، ليس شعبي.

مماطلات المفاوضات التي لم تنتهِ، والمعلومات عن مفاوضات سرِّيَّة، والإشاعات عن قرب التوصُّل إلى حلولٍ، وإبعاد العشرات من حماس والجهاد، إلى مرج الزهور في جنوب لبنان، هي ما شغلت اهتمامنا، ووسط ذلك، اتَّخذت حكومة الاحتلال قراراً، لم نكن لنعرف مداه الاستراتيجي؛ لقد أغلقت القُدْس، أو الأصحّ بدت جِدِّيَّة في تطبيق ذلك، وأصبح الوصول إلى المدينة المقدَّسة، بالنسبة إلى باقي شعبنا المحتلِّ، من غير سكَّان القُدْس، يحتاج إلى تصريح.

وبعد أشهر من ذلك، أُعلن عن اتِّفاق أوسلو، وحدث ما يمكن أن أعتبره حالة هستيريَّة، وبدون أن يعلم شعبنا، ما تمَّ الاتِّفاق عليه، خُيِّل لأكثرنا، أن هناك حلاًّ وسلاماً، في آخر أنفاق الألم والأمل، التي عشناها.

عارضتْ بعضُ الفصائل الاتِّفاقَ، ولكنها لم تكن معارضة جِدِّيَّة، وانطلقت مواكب المَرْكَبَات وهي تحمل الزهور إلى الحواجز العسكريَّة الإسرائيليَّة، ليُقدِّم الشباب والشابَّات الورود إلى الجنود المدجَّجين بالسلاح، والذين يبدو أنه لم يكن لديهم قدرة على الفهم لماذا هذا

الشعب المحتلّ، يقدِّم الورود لمحتلِّيه؟ ألم أقل لكَ إنها هِسْتيريَّة.

أردتُ أن أقول لهم، بأنني وأنتَ رشقنا محتلِّينا بالورد، وإن جَدِّي أنقذتْه وردة، ولكنْ، بشكلٍ مؤقَّت، وأصبحت الحادثة نادرة، يزجي بها الوقت مع مجايليه، بعد طرده من المتحف.

عملتُ منتجة بدوامٍ مؤقَّت، مع إحدى الفضائيَّات العربيَّة، ودرتُ مع فريق العمل على القرى حول القُدْس، التي شهدتْ مهرجانات تأييد للقيادة الرسميَّة وللاتِّفاق، ورأيتُ الآلاف يحتشدون في المدارس والملاعب والساحات، وهم يرفعون صور القادة والأعلام، ولم يكن لديَّ تفسير لكلِّ هذا الحماس الذي فاجأ حتَّى المتحدِّثين من الذين كانوا من القيادات الشابَّة خلال الانتفاضة، وها هم الآن يريدون جَنْي الثمار حتَّى قبل نُضجها.

وقبل تطبيق الاتِّفاق، وتأسيس السلطة الفلسطينيَّة، رأى أحدهم أنه جاء الوقت ليتحدَّث، ويُعلن عن نفسه، والخروج من جُحْره، ليقول بأنه ليس شبحاً، وإنما صاحب هُوِيَّة، وبأنه ليس فقط يهوديَّاً، بل يهوديَّاً بآراء متطرِّفة.

وكان ذلك خلال تحقيق نشرتْهُ عنه صحيفة شيفع يميم، ولقي صدىً واسعاً حين نشره، واعتُبر سَبْقاً صحفيَّاً لتلك الصحيفة العبريَّة غير المشهورة كثيراً.

نشرت الصحيفة صورةً له، وبدا فيها شخصاً أوربيَّاً، بوجهٍ دائري أبيض، وبعينَيْن زرقاوَيْن، تماماً مثلما رأيتَهُ أنتَ ووالدكَ في زمنٍ مضى.

بدا علي عمَّار، الذي قال بأن هذا ليس اسمه، وإنما اسمه الحقيقيّ هو إسحق بن عوفاديا، في كثير من فقرات حديثه غير متَّسق، وكأنه لا يقول سوى نصف الحقيقة، وكأنه يريد أن يزيد شخصيَّته غموضاً.

قال بأن والده من مواليد الدول العربيَّة وأُمَّه من أصل يوناني - إسباني، ودرس في كُلِّيَّة السانت جورج بالقُدْس، وعاش في الأحياء العربيَّة فيها،

وبأن شقيقه كان مديراً لفرع شركة الطيران البريطانيَّة في اللدِّ، وإن رجال القائد الفلسطينيِّ المحلِّيِّ حسن سلامة قتلوه مع آخرين خلال عمليَّة فدائيَّة، وتحدَّث في اللقاء حول تمكُّنه من التسلُّل، بأوامر من قيادة الهَجَناه، إلى الخلايا التي يقودها عبد القادر الحسينيُّ قائد فصائل الجهاد المقدَّس عشيَّة حرب عام الثمانية وأربعين، وكأنه عربيٌّ يريد أن يشارك في الجهاد، وقال بأن أفراد هذه الخلايا طلبوا وضع ثلاثين كيلو غرام من المتفجِّرات في القُدْس الغربيَّة، وكانت هذه المهمَّة هي اختبار من رجال الحسينيّ لقبوله بينهم، وحدَّدوا له ثلاثة أهدف للتفجير، وهي بناية الوكالة اليهوديَّة، أو بناية البلستاين بوست، أو فندق أتلنتيك في شارع بن يهودا.

وتحدَّث إسحق بن عوفاديا عن علاقة ربطتْهُ مع الملك عبد الله، وقال إنه قابله في عمَّان كصحافيٍّ، وأثار إعجاب الملك الأردنيِّ، وأقام له مأدبة عشاء، حضرها حفيده حسين، ومنحه خمسمائة جنيه إسترليني، وخَاتمَاً ذهبيَّاً، ورسالة شكر، وتعهُّداً باستجابة العائلة الهاشميَّة لطلباته، ولم يقلْ لماذا كلُّ تلك الحفاوة إذا حدثت فعلاً؟

وتفاخر بأنه كان أوَّل شخص أبلغ العالم باغتيال الملك عبد الله فيما بعد، حيث كان يستمع إلى صلاة الجُمُعة من الإذاعة الأردنيَّة عندما سمع أصوات إطلاق النار والمذيع يقول بأنه تمَّ إطلاق النار على الملك عبد الله، فاتَّصل بوكالة اليونايتدبرس التي نشرت النبأ على العالم.

وأكثر من هذا اكتشف بأن قاتل الملك كان جاره الأقرب في القُدْس، فاستغلَّ ذلك ليُقدِّم وصفاً دقيقاً للقاتل، ويحقِّق سَبْقاً صحفيَّاً ..!

وتحدَّث عن زوجته زهافا وعن الشكوك التي كانت تراود الفلسطينيِّيْن حول علاقتها مع أجهزة المخابرات، وقال إنها فتحت مكتبها في القُدْس الشرقيَّة لتُساعد العرب، من خلال علاقتها ومعرفتها بالمسؤولين الإسرائيليِّيْن، ولا شكَّ أن عمل أُمِّ العبد كان غير بعيد عن ما يمكن وصفه

بشبكات الفساد بين أجهزة الاحتلال العسكريَّة والأمنيَّة، حيث يتقاضى المسؤولون أموالاً للسماح بأمورٍ هي في النهاية ليس لها علاقة بأمن إسرائيل، وكانت أخبار هذا النوع من الفساد تزكم الأنوف، ولكنْ، عادة، لم تكن تؤثِّر في الرأي العامِّ الإسرائيليِّ أو في الجهاز القضائيِّ الإسرائيليِّ؛ لأن ذلك في النهاية يتعلَّق بمواطنين فلسطينيِّيْن يعيشون تحت الاحتلال الذي لا بدَّ متورِّط في ممارسات قذرة، سيكون بالنسبة إليهما تلقِّي ضابط عسكري أو مسؤول أمني رِشَا أمراً صغيراً لا يستوجب التحقيق ..!

ويقدِّم عمَّار أو ابن عوفاديا رواية لتعرُّفه بزهافا، تُبقي الشكوك حول هُوِيَّته، ويقول بأنه تعرَّف عليها في مكتب الصحافة الحكوميِّ بالقُدْس، حيث عمل محرِّراً لصحيفة عربيَّة، أصدرها ذلك المكتب، وزهافا شقيقة قائد في مُنَظَّمة اتسل الصهيونية، وبواسطته تعرَّفتْ على العالم العربيّ الذي»أثار فضولها ومن ثمَّ تعاطفها» كما يقول.

ويضيف بأنه علَّمها العربيَّة، وعلَّمتْهُ العبريَّة، ويمكن من ذلك الاستنتاج بأنه لم يكن يعرف العبريَّة حتَّى بعد تأسيس دولة إسرائيل، حيث عمل في المكتب الصحافي الحكوميِّ، وهذا يمكن أن يثير التساؤل من جديد حول هُوِيَّته.

ويقول بأنه أصبح يذهب مع والدها إلى الكنيس (وهل يعني ذلك أنه تهوَّد في تلك الفترة؟)، وبأن أصدقاءه العرب أصبحوا ينادونه (أبو العبد)، وينادون زهافا (أُمّ العبد) ..!

وتضمَّن حديث إسحق بن عوفاديا الكثير من الآراء السياسيَّة المتطرِّفة والعنصريَّة والكره للعرب، ولم ينسَ في ختام حديثه الكشف عن سبب اتِّخاذه لاسم علي عمَّار، مشيراً إلى أن ذلك نسبة إلى الصحابي المسلم عمَّار بن ياسر، الذي عانى من عَنَت قُرَيْش.

عندما كان يقدِّم برنامجه الشهير كانت بعض التنظيمات الفلسطينيَّة

تتَّهمه بأنه يمرِّر من خلال هذا البرنامج رسائل مشفَّرة لعملاء في الدول العربيَّة، وفي أوساط المنظَّمات الفلسطينيَّة، هل كان ذلك صحيحاً؟ وهل اقتصر دوره على تلك الخدمة أم أنه كان أكبر بكثير؟؟

ماذا تريد أن تعرف أيضاً من حكايات معارفكَ، الشيخ نعيم استقرَّ في مدينة بَيْت لَحْم، وفتح مكتبة في البلدة القديمة قرب بيت العائلة، الذي استأجروه بمساعدة الجَدِّ حنَّا العَرْعُور، وتعرَّض الشيخ للاعتقال من قِبَل أجهزة الأمن في السلطة الفلسطينيَّة الجديدة، لانتمائه لحركة حماس.

تظاهرنا ضدَّ الاعتقال السياسيِّ الذي توسَّعت به أجهزة السلطة، ورفعْنا صور المعتقلين، ومن بينهم صورة الشيخ نعيم، الذي اضطرَّ أخيراً لإغلاق مكتبته التي أضحت هدفاً لاقتحام ودهم وتكسير من قِبَل أجهزة أمن السلطة. وفتح أمامها كشكاً لبيع القهوة.

وفي مرَّة، التقيتُ الشيخ نعيم، في ساحة المهد ببَيْت لَحْم، بعد حضوري لإكليل زواج في كنيسة المهد، وشاهدتُهُ وهو يعرج، وعندما سألتُهُ عن السبب، حدَّثني عن تعرُّضه للشَّبْح في زنازين السلطة، وسوء المعاملة. دُهِشْتُ، وحزنتُ، وقرفتُ.

زوجي السابق أسَّس حزباً، وانضمَّ إليه منشقُّون عن أحزابٍ يساريَّة، وتلقَّى دعماً من السلطة، ومعظم الزملاء المناضلين أصيبوا بلوثة العمل في السلطة وأجهزتها، وعبَّؤوا الاستمارات التي ذكروا فيها عدد السنوات التي أمضوها في النضال، لكي يقايضوها بمناصب رفيعة.

وكان من المؤسف، التنافس والتناحر، على تلك المناصب، فالجميع أراد القطف، حتَّى قبل استواء الثمار.

ولم يكن من النادر أن يُعذِّب مناضل سابق مناضلاً حاليَّاً، وأصبح الحديث عن أساليب التعذيب القاسية مادَّة مُتداوَلَة لدى منظَّمات حقوق الإنسان، وقصص الفساد احتلَّت عناوين الصحف العالميَّة، وعنونت

مجلَّة نيوزويك غلافها: «دولة مافيا»، ولم نكن فعليّاً، دولة. وتحدَّثتْ عن مصادرة أراضٍ خاصَّةً في أريحا، لإنشاء نادٍ للقمار.

لماذا حدث ما حدث؟ علينا جميعاً الإجابة.

سمحت السلطة، لحزب التحرير، بتنظيم بعض الاحتفالات في ذكرى هدم الخلافة، ومنعت بعضها، ورأيتُ في إحداها مسؤولة قطاع المرأة في الحزب، وهي تصعد وخلفها مرافقة لها إلى المنصَّة، لتتحدَّث عن ما قدَّمه الإسلام للمرأة، ارتفع هتاف جامح: «هذا عهد الخلافة، الدول منها خوَّافة»، وعندما استقامت وقفتها ووقفة مرافقتها، عدَّدت المزايا التي يمكن أن تتمتَّع بها المرأة في ظلِّ الإسلام، بما في ذلك الجهاد، إذا هي رغبت بذلك، وهاجمت بشدَّة الأنظمة «الوضعيَّة والوضيعة».

وقالت أُمُّ القعقاع بثقةٍ وصوتٍ جَهْوَرِيٍّ، بأن: «النساء اللاتي أنفقنَ على إفسادهنَّ ملايين الدولارات، يقفنَ اليوم محجَّبات رافعات الرؤوس في صفٍّ واحد، يصرخنَ بأعلى أصواتهنَّ: المرأة تريد خلافة من جديد».

وردَّد الجمهور من خلفها: «المرأة تريد خلافة من جديد»، وأبدت شوق المرأة إلى الخليفة: «الذي يُسيِّر لها الجيوش إذا استغاثت».

وما إن نزلت صاحبتُكَ أُمُّ القعقاع خلفها مرافقتها، تمشي بصمت، وتأخذ طريقها إلى حيث قسم النساء، حتَّى كانت دموع كثير من الرجال تسحُّ بحرارة على وجوههم، شوقاً لفردوسهم المفقود: الخلافة. بينما توارت أُمُّ القعقاع التي كانت تلك الفتاة صاحبة النظَّارة، في مكتبة المُعْطِي في شارع صلاح الدِّيْن.

كم هي صغيرة، هذه الدنيا، وقصيرة ..!

الرابع والعشرون

«نشطتُ وزميلات وزملاء، في فعاليَّات مَدَنيَّة، لتذكير أنفسنا، والأجيال الطالعة، بما حدث عام النكبة، واستذللتُ إلى حِنَّة، التي عاشت طويلاً، بعد زيارتها لمنزل الأخوات في حَيِّ البَقعة، ونظَّمنا جولات، اصطحبنا فيها حِنَّة، وغيرها من المهجَّرين والمهجَّرات، إلى الحَيِّ، وأحياء أخرى في القُدْس الغربيَّة، التي أضحت يهوديَّة منذ النكبة.

بالقرب من محطَّة سكَّة حديد القُدْس - يافا العثمانيَّة، تتناثر منازل حَيِّ البَقعة، بمحاذاة طريق بَيْت لَحْم، قبل بدء استيطان المَقْدِسِيِّيْن فيه، تميَّز ببساتينه وكرومه.

كانت المنطقة خالية من المنازل، ومليئة بالكروم والبساتين، وما من أحد من سكَّان القُدْس، إلَّا ويعيش في كَرْمٍ من هذه الكروم شهرَيْن، أو ثلاثة شهور في السنة.

عُرفت البَقعة أيضاً باسم وادي الورود، لوفرة الورود في الحدائق التي كان يُصنَع منها ماء الورد الخاصّ بالكنائس، وكذلك لسدِّ حاجة السكَّان.

يُطلِق التوراتيُّون على البَقعة اسم عيمق رفائيم، في إحالة لإحدى حكايات العهد القديم، وطُولِب خلال عهد الانتداب البريطاني بتغيير اسم البَقعة إلى التسمية التوراتيَّة، ولكن الإدارة البريطانيَّة رفضت ذلك، خشية من غضب العرب. ولكنْ، الآن أصبح الاسم التوراتي اسماً رسميَّاً، لم تستطع حِنَّة لفظه بوضوح.

صديقنا شارلي شرح لنا بأن مصادر تاريخيَّة إسرائيليَّة تحدَّثت عن مشاريع لاستيطان زراعي يهودي في الخمسينيَّات والستِّينيَّات من القرن التاسع عشر، في البَقعة، إلَّا أنها لم تتحقَّق.

بدأت الحياة تدبُّ في البَقعة، مع إنشاء الكولونياليَّة الألمانيَّة عام 1873م، ولاحقاً الكولونياليَّة اليونانيَّة، وتأسيس حَيِّ النمامرة في ما سيُعرف بالبَقعة الفوقا، وحَيِّ الوَعْرِيَّة في البَقعة التحتا. ويُعتبر الحَيَّان من أقدم مشاريع العمران الموثَّقة في القُدْس الغربيَّة.

اتَّخذ العمران في الحَيِّ خطوة مُهمَّة إلى الأمام، مع خطٍّ سكَّة الحديد عام 1892م بين القُدْس ويافا، وقال شارلي، وهو يبتسم، بأن الشركة المسؤولة عن تنفيذ المشروع كانت تدفع إلى مشايخ قرية المالحة وقرى بني حسن مبالغ من المال، بمثابة خاوةٍ، للحفاظ على الأمن في تلك المنطقة الموحِشة.

مع بدء مشروع خطِّ سكَّة الحديد، بُنيت، قرب محطَّة قدس شريف، مساكنُ بسيطة، سكنها الموظَّفون في المحطَّة، وبعد سنوات قليلة، هُدمت هذه المساكن، لتُبنى مكانها منازل، حملت الطابعَ الريفي في البداية، بعد انتقال أوَّل العائلات المَقدسيَّة للسكن في حَيِّ البَقعة، ولاحقاً تدفَّقت العائلات المثقَّفة والثريَّة إلى الحَيِّ، وأصبحت المنازل في شكلها الخارجي وتوزيعها الداخلي مزيجاً من الأنماط الشرقيَّة والغربيَّة. فتميَّزت منازل الحَيِّ بمداخل جميلة وشرفات واسعة، وبغرفٍ فسيحة وأروقة.

من هذه المنازل مثلاً منزل المهندس الكهربائي سبيرو سبيريدون في البَقعة الفوقا الذي بُني عام 1941م، صمَّمه سبيرو بنفسه، ولاحقاً بعد النكبة استخدمه المحتلُّون مكتب اتِّصال بين حكومة الاحتلال والأمم المتَّحدة.

سَخِر شارلي: «اتِّصال عبر منزل عربي محتلٍّ، للتآمر على العرب ..!»

في فترة الانتداب، افتُتح في الحَيِّ، النادي الأرثوذكسيّ العربيّ، الذي حوى قاعة تتَّسع لمئة شخص، نُظِّمت فيها نشاطات اجتماعيَّة وثقافيَّة، من بينها محاضرات للمفكِّر والتربوي خليل السكاكيني، وعُرضت فيها المسرحيَّات.

ووُجد في الحَيِّ ملعب لكرة المضرب، ومستشفى، وأصبحت إحدى المناطق المفضَّلة للبرجوازيَّة الفلسطينيَّة المتعلِّمة، ورجال الأعمال، ليس فقط من القُدْس، ولكنْ، من الوافدين عليها، من أصحاب الوظائف الحكوميَّة وغيرها.

عائلات النَّمَّرِي والوَعْرِيّ وفرعون كانوا الروَّاد، في استيطان الحَيِّ، ورغم تحسُّن الأمن، بوجود الكولونياليَّة الألمانيَّة، ثمَّ اليونانيَّة، وحركة القطارات إلَّا أن العيش في المكان كانت يتطلَّب جرأة، مع الحديث عن وجود الحيوانات المفترسة، وقطَّاع الطُّرُق.

تدخَّل الأُستاذ طاهر، ابن حَيِّ النمامرة: «تلازم حَيُّ النمامرة في البَقعة مع وصول أوَّل المهاجرين الألمان البروتستانت سنة 1873م، الذين حصلوا على أرض من الحكومة العثمانية».

قال وهو يعود إلى سنوات موغلة في القِدَم: «تركت عائلتان البلدة القديمة لتسكنا خارج الأسوار. توجَّهت العائلة الأولى النَّمَّرِي، إلى البَقعة التحتا، بينما انتقلت العائلة الأخرى الوَعْرِيّ، إلى البَقعة الفوقا. واشترى عبد الله إبراهيم محسن النَّمَّرِي الأرض من أهالي المالحة وبيت جالا وبَيْت لَحْم».

ولكنْ، لاحقاً: «انتهكت سلطات الانتداب البريطاني قانون الوقف الإسلاميّ، الذي ينصُّ على عدم إمكان بيع أملاك الوقف أو رهنها أو

تأجيرها لفترات طويلة، وصادرت 51 دونماً من أرض وقف عائلة النَّمَّري لبناء نادٍ رياضي للبريطانيِّيْن. وتدخَّلت اللجنة الإسلاميَّة العليا، وسُوِيَّتِ القضيَّة بدفع تعويض مالي عن الأرض. واستُعمل هذا المال لبناء سوق النمامرة التي وفَّرت للوقف دخلاً، أُعيد استثماره في مبانٍ جديدة».

عندما كنَّا نتوقَّف بين منازل الحَيِّ، لنسمع حديثاً أو شرحاً، نلفت انتباه بعض من سكَّانه الجدد، الذين يدفعهم الفضول إلى النظر، ولكن الفضول لا يطول، ليحلَّ محلَّه لا مبالاة، وحرصتُ دائماً أن تكون حِنَّة بجانبي، أُمسك يدها، وعندما أُضطرَّ لتركها، لتوجيه المجموعة، يبقى ناظري عليها، لا أعرف لماذا خشيتُ عليها كلَّ تلك الخشية؟

سُمِّيت عائلة الوَعْرِيّ بهذا الاسم، لتركهم القُدْس المسوَّرة، وسكن الأرض الجديدة الوعرة.

تحدَّث أحد أفراد العائلة، لينسب ريادة الاستيطان في الحَيِّ لعائلته: «كانت عائلة عاشور الوَعْرِيّ أوَّل عائلة تستوطن منطقة البَقعة، فقد أقام ربُّ العائلة محمَّد الوَعْرِيّ بيتاً كبيراً لعائلته كثيرة الأبناء، ولمَّا كانت المنطقة خالية من الناس ومن البيوت، فقد بنى سوراً عالياً حول بيته لحمايته من قطَّاع الطُّرُق والحيوانات المفترسة».

وأضاف: «استيطان عائلة الوَعْرِيّ كان أشبه ببناء قرويٍّ زراعيٍّ، لأنهم زرعوا الأرض الواسعة التي كانت تحت تصرُّفهم بالحنطة والشعير، بالإضافة إلى الأغراس وكروم الزيتون والعنب، وكان أبو عاشور ربَّ عائلة محترماً، فرض طاعته على جميع أفراد العائلة الكبيرة، وقد عُيِّن مختاراً لجميع منطقة البَقعة والقَطَمُوْن».

وأنشأت عائلة الوَعْرِيّ مطاحن للحبوب، ومعاصر للزيتون، وأماكن لتخزين الزيت، وكلَّ ما يلزم الحياة الريفيَّة.

وصل الحديث إلى العام الذي دمَّر حُلْم جِنَّة وأُختَيْها؛ تعرَّض حَيُّ البَقعة مثل الأحياء العربيَّة غرب القُدْس إلى نكبة عام 1948م، لم تكن متوقَّعة. في السادس عشر من أيَّار ذلك العام، احتلَّت العصابات الصهيونية الحَيَّ، الذي لجأ معظم سكَّانه إلى القُدْس الشرقيَّة، انتظاراً للعودة من جديد بعد أن تصمتُ المدافع.

بقي في الحَيِّ قلَّة من العرب، معظمهم من حرَّاس الأديرة، ومن الذين ظلُّوا كاتبٌ أرمنيٌّ غادر الحَيَّ بعد أربعة أعوام عبر بوَّابة مَانْدِلْبَوْم، إلى القُدْس الشرقيَّة.

جهدتُ، قبل الجولة، ليكونَ جون روز معنا، ولكن الاتِّصال معه تعذَّر؛ غادر البلاد منذ سنوات. لم تعد القُدْس المقسَّمة تتَّسع له.

قرأتُ للمجموعة ممَّا كتبه روز في مذكِّراته التي صدرت بالإنجليزيَّة عن احتلال الحَيِّ: «لم تكن هناك مقاومة من أيِّ نوع، دخلوا بكلِّ بساطة! واحتلُّوا بالتدريج البنايات الواقعة في الأماكن الاستراتيجيَّة. فالبيوت كلُّها تقريباً كانت خالية، ودلَّت الموائد التي وُضعت عليها أطباق، تحتوي على طعام، لم ينتهِ أصحابها من تناوله، على أن السكَّان فرُّوا في حالة من الفوضى والعجلة والخوف. وفي بعض المطابخ، تُركت المواقد مشتعلة، وهو ما حوَّل الوجبات المنتظَرَة إلى بقايا متفحِّمة».

في حزيران، كان وقف إطلاق النار فرصة لليهود، لنهب المنازل الخالية في البَقعة، ويبدو أن عمليَّات النهب استمرَّت لاحقاً، كتب روز: «في نهاية 1948م، نُهبت جميع البيوت التي أُجلي سكَّانها، ولم يبقَ فيها شيء يُذكَر. أمَّا نحن البقيَّة الباقية، فقد شارفت أعصابنا على الانهيار، وأصبحت حياتنا أشبه بمعسكرات اعتقال على حافَّة ميدان معركة».

روز تحدَّث عن عمليَّة نهب كبيرة للبيوت العربيَّة، تخلَّلها: «تخريب

شامل وحاقد للأبنية. كان الجيش هو مَن اقتحم البيوت أوّلاً بحثاً عن أشخاص ومعدّات يمكن استعمالها. ثمَّ أتى الباحثون عن الطعام، وبعد ذلك نُهبت الأملاك الشخصيَّة الثمينة، شاهدنا من شرفة منزلنا عربات تجرُّها الخيول وشاحنات صغيرة محمَّلة بالبيانوهات والثلّاجات والراديوهات واللوحات والتحف والأثاث، وبعضها ملفوف بسجّاد عجمي ثمين. كُسرت أقفال الخزنات المحتوية على نقود وجواهر، وأُفرغت من محتوياتها، ونُقلت الأغراض المنهوبة للاستعمال الخاصّ، أو البيع في القُدْس الغربيَّة. كان ذلك بالنسبة إلينا أمراً مؤلماً جدّاً. بيوت أصدقائنا تُنهَب ونحن عاجزون عن التدخُّل».

وذكر متحسِّراً: «استمرَّت هذه الحال عدَّة أشهر. الذين جاؤوا متأخِّرين قنعوا بما بقي للنهب. خلعوا بلاط السيراميك من على جدران الحمَّامات، وانتزعوا مفاتيح التيَّار الكهربائي وأسلاكه، وتجهيزات المطابخ، ومواسير المياه وتوابعها. لم يفلت شيء: دخلوا إلى السقائف والأقبية، خلعوا الأبواب والنوافذ، كسروا بلاط الأرضيَّات بحثاً عن كنوزٍ مخبوءة، وامتلأت الغرف بأكوام النفايات. عندما حلَّ الشتاء، تدفَّق الماء إلى البيوت الخَرِبَة المهجورة، وفي الليل، كانت الريح تعول، والأبواب والنوافذ تصطفق، فتُرجع البنايات الخالية صدى اصطفاقها، صوتاً يلاحقكَ في مشهد أشبه بخرائب مسكونة بالأشباح. وكان ممَّا يفوق القدرة على الاحتمال المرور بجانب هذه البيوت، المألوفة جدَّاً، والتي أصبحت في غضون ستَّة أشهر غريبة إلى أقصى حَدٍّ، بحدائقها المشعثة، وأبوابها الأماميَّة ونوافذها المهشَّمة أو المشرعة على مصاريعها، وفوق ذلك كلِّه، الخالية من أصحابها، كنَّا نعيش وسط بحر من الخراب» [8].

لاحظتُ أن تيبُّساً يغزو وجه حِنَّة، وكان عليَّ توقُّع ذلك، فمَنْ يخسر منزلاً، يخسر حياة، وهي خسرت حياتها وحياتي أُختَيْها أيضاً.

في شهر أيلول بدأ توطين المهاجرين اليهود الجدد في البَقعة، والأحياء العربيَّة الأخرى، جاءني صوت الباحث الإسرائيلي أرنون: «اتَّبَعَت الحكومة سياسة الضمِّ العملي للجزء الواقع تحت سيطرتها من القُدْس». «إن إسكان اليهود في الأحياء العربيَّة سابقاً كان من شأنه أن يخلق وقائع على الأرض سيكون من الصعب تغييرها لاحقاً في إطار اتِّفاق سياسي. وكان المهاجرون الجدد المحتاجون جدَّاً الاحتياط الرئيس للحكومة والوكالة اليهوديَّة في تأهيل هذه الأحياء».

يتدخَّل الباحث كريستال، ليُبيِّن أن ما تبقَّى من العرب في الحَيِّ، وهم قلَّة، أغلبيَّتهم من المسيحيِّيْن، جُمعوا في البَقعة الفوقا. يرتفع صوته ليسمع الجميع: «احتُجز الفلسطينيُّون العرب الذين بقوا في ضواحي القُدْس الغربيَّة بالبَقعة، وفي منتصف أيلول، جمعهم الجيش الإسرائيليُّ مجدَّداً في منطقة، مساحتها نصف ميل مربَّع محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة. وكان يُسمَح لهم خلال ساعات النهار بالتجوُّل في منطقة سَكَنِهم، ويفرض عليهم حظر التجوُّل ليلاً. وكان اللصوص الإسرائيليُّون يقتحمون السياج، ويسرقون كلَّ ما كانوا يستطيعون سرقته من غير اليهود. بالإضافة إلى ذلك، كانت زمر من الجنود الإسرائيلِّيْن تقتحم البيوت بحجَّة البحث عن أسلحة وعرب مخبَّئين، وتنتزع أموالاً وجواهر وأشياء أخرى ثمينة».

يضيف: «لم ترفع إسرائيل القيود المفروضة على الفلسطينيِّيْن المحتجزين في منطقة البَقعة إلَّا في تشرين الثاني 1949م. وأصدرت لهم بطاقات هُوِيَّة إسرائيليَّة، وصادَرَ القَيِّمُ على أملاك الغائبين منازل عدد كثير من العرب المقيمين في منطقة البَقعة، وأُرغموا على دفع إيجارات لدولة إسرائيل».

جون روجرز يذكر عن مصادرة منزل عمَّته أوروزباغ: «بلَّغها القَيِّم

على أملاك العدوِّ أنه لم يعد لها حقوق في المنزل. وأصبحت تُعامَل كمستأجرة».

يتدخَّل الأُستاذ طاهر: «دافع السكَّان والمقاتلون عن أحيائهم حتَّى الهدنة الأولى. وهاجم الإسرائيليُّون خلال الهدنة أولئك الذين بقوا في الأحياء، وأخذوا بعض الأهالي سجناء، ولم يُطلقوهم حتَّى الهدنة الثانية (رودس) في سنة 1949م، عندما سُلِّموا إلى القوَّات الأردنيَّة عبر بوَّابة مَانْدِلْبَوْم. وتمكَّنت عائلتا شكري أمين النَّمَّرِي ويوسف رشيد النَّمَّرِي من البقاء في حَيِّ النمامرة بالالتجاء إلى الكنيسة الألمانيَّة. وبعد الحرب حاولتا العودة إلى منزلَيْهما، لكن السلطات العسكريَّة الإسرائيليَّة منعتْهما بإعلان المنزلَيْن أملاك غائبين».

حرصتُ على أن أظلَّ ممسكة بيد حِنَّة، حتَّى أُطلَّ من مدخل شارع ممتدٍّ، منزل حجريٍّ، شعرتُ بأن يدها ترتخي، وتتملَّص من يدي، ولم أكد أنتبه حتَّى، صُدمتُ بسقوطها على الأرض.

تجمَّعنا حول الجسد الساقط، اتَّصل شارلي بالإسعاف، وبعضنا يحاول إنعاش الجسد الهامد، بدفقات من الهواء، في الفم المتيبِّس، نُقلت حِنَّة جثَّة، بعد أن رأت منزلها المسروق، للمرَّة الأخيرة».

الخامس والعشرون

«ما أجمل قُدْسنا! لا أترك نفسي تهتمُّ بالغرباء الذي يقفون بجانب الطاحونة، ويتحدَّثون عن قُدْسنا، كأنها قُدْسهم.

منذ زمن، تحوَّلت مستوطنة يمين موشيه إلى دار ضيافة للكُتَّاب والفنَّانين والموسيقيِّيْن العالميِّيْن الذين يزورون دولة الاحتلال، وافتُتحت في منازل الحَيِّ مراكز موسيقيَّة وفنِّيَّة، وكفَّت عن أن تكون موئلاً للفقراء اليهود، الذين خَطَّط لهم مَنْ موَّل وفكَّر واتَّصل، ليكونوا تروساً في آلة تدمير استعماريَّة، لهذه القُدْس التي تبدو لي مغلوبة على أمرها، مفعولاً بها دائماً.

رَمَّموا الطاحونة، كجزءٍ من الاحتفالات بذكرى تأسيس دولة الاحتلال، وتكفَّلت منظَّمة هولنديَّة تحمل اسم: مسيحيُّون من أجل إسرائيل بالأمر، كم يستفزُّني مَنْ يرفع اسم المسيح، ليدعم الغَيَّ، وأُرسل النموذج الأصلي للطاحونة الذي صمَّمه توم هولمان، إلى هولندا، ونجحت المنظَّمة في تجنيد الأموال، وشحنت أجزاء الطاحونة إلى القُدْس، لتعود الطاحونة للحياة، كما أراها الآن، ولكنْ، بدون حياة، وإنما كنُصْب.

في أسفل الطاحونة، وفي غرفة زجاجيَّة تجثم عربة مونتيفيوري التي استخدمها في أسفاره بفلسطين وخارجها خلال جهوده لمساعدة اليهود في العالم، وقبل شهور من الانتفاضة الأولى أُحرقَتِ العربة، ولم تُوجِّه شرطة الاحتلال التهمة لأحدٍ، ولم تعتبر أن الحادث جرى على خلفيَّة قوميَّة،

والمقصود أن الفاعلين من شباب القُدْس العرب، وفشل الشاباك في إيجاد الفاعلين حتَّى الآن. مرحى لفشل مَنْ يفخر بأنه لا يفشل أبداً!

أُصلحَت العربة، بواسطة إيتمار نويمان باستعمال الأجزاء المعدنيَّة الأصليَّة، وتمَّ هذا بتبرُّع جيلفورد وديان جلازير من لوس أنجيليس. فأسماء المتبرِّعين لمشاريع الاحتلال في القُدْس تملأ الشوارع والحدائق، وكأن كلَّ واحد منهم سيُكلَّل بغار الدنيا، وتلك الآخرة.

ماذا كانت تطحن الطاحونة؟ كتب شاعر «قُدْسهم» يهودا عميخاي تحت عنوان (المطحنة في يمين موشيه):

حياتنا كلّ يوم،

لتصنع منَّا طحين سلام

وتخبز منَّا خبز السلام

للأجيال القادمة

هذه المطحنة عُمُرها ما طحنت طحيناً

طحنت هواءً مقدَّساً وعصافير

أشواق من عند بياليك، وطحنت

مطراً وحتَّى قذائفَ،

لكنها عُمُرها ما طحنت الطحين

الآن اكتشفنا،

وتطحن حياتنا كلّ يوم،

لتصنع منَّا طحين سلام

وتخبز منَّا خبز السلام

للأجيال القادمة.[9]

* *

ما زالت طاحونة القُدْس، تَطحن، ولكنْ، مَنْ؟ ولصنع السلام لمَنْ؟
أنا بخير، ما زلتُ أسكن قرب كنيسة القيامة، وأحلم وآمل.
محبَّتي
لُور».

السادس والعشرون

عرفتُ ما عليَّ فعله، سأسهر الآن في القعدة، مُطِلٍّ جبل الزيتون، لأُري ولدي القُدْس، وهي تسبح في ليلها، وأنام في فندق الأقواس السبعة الذي يستهدفه اليهود، وغداً سأنزل إلى القُدْس القديمة، سأتجاوز وادي جهنَّم، وكنيسة مريم المجدليَّة، وكنيسة الدمعة، والجُثْمَانِيَّة، وكنيسة سِتنا مريم، وطَنْطُوْر فرعون، وأطير إلى باب الخليل، وأنعطف يميناً إلى حارة الأرمن، إلى محلٍّ محدَّد، أعرفه منذ زمن. لعلَّني سأجده، من آثار غَيْرَتي قبل سنوات طويلة، وظفر، أخيراً بها، لأسأله عنها.

أُدرك صعوبة ما يجري، وأنا أعيش أجواء القُدْس الحزينة، المتأهِّبة، سيقتحم شارون غداً المسجد الأقصى، والجميع متخوِّف. وأسمع اسم القائد الإسرائيليّ على كلِّ لسان، وكأنه عنوان لبؤسٍ آتٍ.

سأكتشف بأنهم سَمَّوْا القعدة، مُطِلَّة رحاف عم، أتساءل كيف لوالدي، لو كان على قيد الحياة، أن يستقبل ذلك؟ وماذا سيقول ويفسِّر ويشرح؟ تغيب الشمس، شيئاً فشيئاً، وتظهر قُبَّة الصخرة المنهكَة من نهار مزدحم، وشمس خريفيَّة نضجت، وتناور في تسليم قيادها لشتاء يقترب، أوضح، فأوضح، يستعدُّ المتناثرون الأجانب والأجنبيَّات، لالتقاط الصور، وتوثيق غياب يوم آخر للقُدْس، يعلو صوت الأذان، لو كنَّا في رمضان، لرأينا أوَّلاً غيمة سوداء، تُرسَم فجأة في الفضاء، يتبعها صوت المدفع، ثمَّ تندفع نحو الشمال، بينما صوت الأذان يعلو ويعلو، يريد أن يُبلِّغ السماء بأن شمس يوم قُدْسيٍّ آخر تغيب عنه الشمس، وبأنه يجب أن يئين الآن، أي

آن؟ ولماذا يجب أن يئين؟ قد لا نعرف، ولكنها المدينة التي تعيش حالات انتظار، تعرف بأنها ستحدث، وما إن تحدث، حتَّى تعيش من جديد، حالة انتظار أخرى.

امرأة مكشوفة الذراعَيْن ترتدي شُورتاً كاشفاً، تحتضن رَجُلَها، المنهمك بالتصوير، هو يريد أن يخلِّد لحظة، وهي تخلِّد لحظتهما معاً، يشهدان غروبَ قُدْسي. لكلٍّ منَّا قُدْسه، وغروبه. امرأة أخرى تحتضن رَجُلها، تطلب منِّي بأدب التقاط صورة لهما، وأحرص على إظهار القُبَّة الذهبيَّة كخلفيَّة لهما.

تسيطر قُبَّة الصخرة على المشهد، في داخل الأسوار، وكأن الأمويِّيْن، عندما بنوها، كانوا يدركون، بأن القُدْس، أيضاً هي مدينة القِباب، وستشتدُّ حروب القِباب، وتحتدُّ، أُمعن النظر فأرى مزيداً من القِباب المضيئة.

أقتربُ من الدرابزين الحديديِّ، وأطلب من ابني النظر إلى القُدْس وهي تسبح في الظلام، بينما تتلألأ أنوارها، وتكشف عن القُبَّة الذهبيَّة، وكنيسة القيامة، وعشرات القِباب والأجراس والمآذن، وكأن كلَّ طرف يريد أن يُريَ الله، الذي يؤمن المؤمنون بأنه يطلُّ على القُدْس مرَّتَيْن في اليوم، أنه أدَّى واجبه، وأنه الأحقُّ في جنَّته.

ورغم هذا التنافس الدنيويِّ تجاه السماء، إلَّا أنه يمكن أن تتعايش الأطراف، كما حدث في قرونٍ طويلة موغلة في القِدَم، ولكن الدماء تُراق، عندما يتدخَّل مجنون، أو عاقل، محتكراً الصلة مع الله.

أرفع ابني، وأحضنه بحنانٍ، أريد أن أُخلِّد أيضاً مشهدَنا القُدْسي، وأنا أتذكَّر والدي، وأحرف النظر قليلاً إلى الشمال، هناك في القاع، تربض قريتي.

أحتاج للخروج من الحالة الوجدانيَّة، تُذكِّرني قُبَّة كنيسة القيامة بملحق رسالة لُور الأخيرة، يبدو أنها تذكَّرت كتابته بعد أن أنهت رسالتها، أو أنها تكاسلت في إرسال الرسالة الثالثة، وخلال هذه الفترة كتبت هذا الملحق.

أقرأ وأتأسَّى:

«جمعتُ لكَ معلومات عن السُّلَّم الخشبيِّ على الواجهة الرئيسة لكنيسة القيامة، أنظر إليه كلَّما أمرُّ من هناك، وأتذكَّر، هل أنتَ ما زلتَ تتذكَّر؟

هناك مَنْ يقول بأن السُّلَّم تُرك سهواً من قِبَل عمَّال الصيانة خلال عمليَّة ترميم للكنيسة، في فترة غير معروفة، فالسُّلَّم يظهر في فترة مبكِّرة للاحتلال العثماني، بمنحوتة حجريَّة لكنيسة القيامة، وهو أمر غير مؤكَّد بالنسبة إليَّ، أصبحتُ شكَّاكة مثلكَ، ولكن الأكثر تأكيداً أن السُّلَّمَ يظهر في رسومات دافيد روبرتس للقيامة عام 1939م.

يفخر الكاثوليك بأن البابا بولس السادس عندما زار القُدْس في عام 1964م، تألَّم لوجود السُّلَّم الخشبي، بصفته رمزاً للاستاتيكو والانقسام المشين، فأصدر أمراً بأن يظلَّ في مكانه حتَّى ينتهيَ الانقسام المخزي بين الطوائف المسيحيَّة، ومن الجيِّد أن بطريرك القسطنطينيَّة الذي التقاه البابا لقاءً مسكونيَّاً تصالحيَّاً لم يسمع بالقرار البابوي المزعوم، وإلَّا لاتَّخذ إجراءاته التي قد تصل إلى عرقلة دخول جالس كرسي روما إلى الكنيسة، ولتسبَّب في أزمةٍ إقليميَّة ودوليَّة.

وجهة نظر أرثوذكسيَّة غير رسميَّة فيها تمجيد خفي للجدعنة الأرثوذكسيَّة، تشير إلى أن الأرثوذكس منعوا الأرمن من دخول الكنيسة، بسبب الخلافات المستمرَّة بينهما، ممَّا أدَّى إلى ابتكار فكرة السُّلَّم، المصنوع من خشب الأرْز من قِبَل الأرمن حتَّى يتمكَّنوا من دخول الكنيسة.

إذا كان السُّلَّم فعلاً لم يتزحزح من مكانه منذ قرن ونصف، فإنه اجترح معجزة حقيقيَّة، بوصفه شاهداً على ما يحدث من غضب البشر والربِّ، كزلزال عام 1834م، الذي ألحق الضرر في قِباب صحن الكنيسة الرئيسة؛ كنيسة نصف الدنيا، والقبر المقدَّس والمقصورة المقدَّسة، ولكنّها أُصلحت في وقتٍ قصير، وفُتحت النوافذ التي أُغلقت في عهد صلاح الدِّيْن.

وأُعيد بناء القُبَّة الكبيرة كاملة في الفترة من 1867-1869م، التي لحقها الضرر على مرَّ العصور، وذلك بمساعدة أباطرة فرنسا وروسيا والسلطان العثمانيّ، ولكنْ، لم يجرؤ أحد من هؤلاء الأباطرة على الاقتراب من السُّلَّم. تصوَّر وجوه هؤلاء الذين يمثِّلون القوَّة والغطرسة والبطش، وهم غير قادرين على زحزحة السُّلَّم؟

أحدث زلزال 1927م أضراراً في الكنيسة، وسقطت قذائف العصابات الصهيونية عليها عام 1948م، وشبَّ فيها حريق في السنة التالية، وتقدَّمت اليونان للترميم والإصلاح، ولكنها خشيت من الاقتراب من السُّلَّم.

واتَّفق الأرثوذكس واللاتين والأرمن، الطوائف الأقوى في الكنيسة على أعمال ترميم وصيانة، وأُنجزت أعمال التغطية الخارجيَّة للقِباب، بالنحاس، وانتهت زخرفتها الداخليَّة، خاصَّة الفسيفساء الموجودة بقُبَّة صحن كنيسة نصف الدنيا، ولم يفكِّر أحد بفتح سيرة السُّلَّم، ولكنْ، خلال السنوات القليلة الماضية، هناك مَنْ جعل السُّلَّم شاغله، وأراد تحدِّي قرارات الدول الكبرى والحرب الباردة بين الطوائف، فحاول أحدهم إزالته، لكنْ، من سوء حظِّه أن شرطة الاحتلال تمكَّنت من إيقافه بسرعةٍ، وقبل أن ينتبه إليه أحد من رهبان الطوائف المتحفِّزين.

وفي سنوات لاحقة، حالف الحظُّ مغامراً آخر بسرقة السُّلَّم، وبقي لديه عدَّة أسابيع، إلَّا أن سوء الحظِّ أصابه أخيراً مثل زميله السابق، فبفضل

كاميرات المراقبة، تمكَّنت الشرطة من القبض عليه وعلى السُّلَّم الذي أُعيد إلى مكانه معزَّزاً مكرَّماً.

وفي لحظة مسروقة من الزمن، تجمَّع الرهبان المتحفِّزون، ليروا هذه المرَّة كيف يمكن للسُّلَّم أن يتحرَّك تحت عيونهم، عندما أزاله العمَّال لفترة بسيطة لا يُعتدُّ بها، خلال إزالتهم السِّقَالَات التي استخدموها لإصلاح برج الكنيسة.

تتَّفق الطوائف الأخرى، يا عزيزي البعيد، على أن السُّلَّم يجب أن يبقى رمزاً لاتِّفاقيَّة الاستاتكو، ولكنها غير مستعدَّة أبداً لإبداء أيَّة مرونة، فعندما وضع راهبٌ كرسيَّاً في الظلِّ اتِّقاءً للحَرِّ، وهو لا يدري أنه يجلس في المكان الخطأ، كان نتيجة تهوُّره أحد عشر مصاباً، نزَّت الدماء منهم، وعولجوا في المشافي.

وتدخَّلت الشرطة في إحدى المرَّات، لفضِّ الاشتباك بين الرهبان، لأن أحمقَ منهم ترك باباً مفتوحاً خلال طواف في الكنيسة.

وما تزال النار غير المقدَّسة لم تنطفئ بين الأرمن والأرثوذكس، لخلاف على أعجوبة خروج النار المقدَّسة يوم سبت النور المقدَّس، والتي تنتقل من القُدْس إلى مختلف أنحاء العالمِ الأرثوذكسيّ.

نضحك أنا ومناويل عندما نرى خلافات الأرثوذكس والأرمن الحاليَّة في الكنيسة، التي تُوصَف بخلافات الحَمَاة والكَنَّة، ويُروى أنه في مرَّة ضاق الأرمن بالأرثوذكس، الذين يُخرِجون النور المقدَّس من داخل مقصورة قبر المسيح، وطلبوا أن يدخلوا هم ليُخرِجوا النور، وعندما دخل ممثِّلون عنهم، وانتظروا، لم ينبثق النور الإلهي، ولاحظوا أن صراخاً يأتي من خارج المقصورة؛ لقد انبثق النور للأرثوذكس المنتظرين خارجاً، أراد الربُّ أن يُظهِر عباده الأتقياء. لا يريد مناويل أن يقتنع أنه من صفِّ العباد غير الأتقياء ..!

وأرى كيف يمكن لهذه النار المقدَّسة أن لا تكون غير مقدَّسة وتنزّ الدماء بسببها ..!».

أقرأ هذه الكلمات، وأنا في القُدْس، وليس في مكاني القَصِيِّ، يا لُور، ولا أعرف إذا كان عليَّ أن أتعجَّب أم أتأسَّى.

أسير نحو فندق الأقواس السبعة، أشعر بالضباب الذي يظلِّله، دون أن أدخله، أقول لابني، بأنه يطلُّ على القُدْس القديمة، وبرِّيَّتها، والبحر الميت، يتبعني إلى خلف الفندق، لأريَهُ أضواء أريحا، وقرى الغور، شرق نهر الأردن، وأُلاحظ أنهم سَمَّوْا موقع الفندق: هار همشحا، أدخل إلى الفندق، وأجلس في بهوه، يحدِّثني أحد العمَّال الذي تعرَّفتُ عليه، وهو من قريتي، كيف أن إدارة الإنتركونتننتال التي أدارتْهُ لمدَّة عشرين عاماً، تخلَّت عنه، وتركتْهُ لإدارة محلِّيَّة، فأضحى موقعه وموقفه ضبابيَّاً، بانتظار حلٍّ سياسي، يعيش العاملون فيه استنفاراً دائماً، خشية اقتحام مفاجئ من جماعات يهوديَّة، تريد السيطرة عليه، خصوصاً وأنَّ تحرُّك شارون الجديد قد يكون مشجِّعاً لهم.

أسأل العامل عن عائلات وأشخاص عرفتُهُم، لديه الكثير من الحكايات، التي أزاحت حكاياتنا، التي لا يكاد يدري بها أحد من أهالي القرية التي توسَّعت، وتكثَّف السكَّان فيها بمساحة متقلِّصة.

أصعد مع ابني إلى غرفتنا، أُهيِّئه للنوم، فأمامنا غداً أشياء كثيرة لنفعلها، أتمدَّد على سريري، وأُكمل قراءة ملحق رسالة لُور:

«..وما زال سُلَّم القُدْس الخشبي في مكانه، ينظر من علٍ ويتعجَّب ..! السُّلَّم رمز الصعود، يتحوَّل لدينا، إلى مهزلة تقهقر.

فتعجَّبْ من مكانكَ القَصِيِّ، على حالنا، وحال أرضنا المقدَّسة ..!»

أحاول النوم، ولكنه كيف يجيء في مدينة العجائب؟!

هوامش

1 -كرّاز: التيس الذي يقود القطيع، وتعني أيضاً التيس أو الثور الخَصِيّ.

2 - السِّلْقُ بَقْلةٌ لها ورقٌ طوالٌ وأَصلٌ ذاهب في الأرض، وورقها غَضٌّ طريٌّ، يُؤْكَلُ مَطْبُوخاً - المعجم الوسيط.

3 - إنجيل يوحنّا 12: 24.

4 - الكلام على لسان الشيوخ في الرواية، منقول طبق الأصل عن تقرير قُدِّم للهيئة الإسلاميَّة العليا، أعدَّه كلٌّ من: حسن طهبوب، وعارف العارف، ومُحمَّد إسحق الحسيني، وسعد الدِّيْن العلمي بتاريخ 30 أيلول 1968م.

5 - سورة الروم.

6 - عنبرة سلام الخالدي، جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين، دار النهار للنشر، بيروت، 1978م.

7 - إنجيل لوقا.

8 - مجموعة مؤلِّفين، القُدْس 1948 الأحياء العربيَّة ومصيرها في حرب 1948، مؤسَّسة الدراسات الفلسطينيَّة، بيروت، 2002م.

9 - ترجمة الشاعر الراحل أحمد حمزة غنايم.

